الامبراطورية البيزنطية

في القرن السابع الميلادي

(الاول الهجري)

«دراسة في التطورات والتغيرات»

الدكتورة
عائشة سعيد شحاتة أبو الجدايل



ت : ٤٨٢٤١٠٦ - ٤٨٢٤٦١٧ - فاكس ٤٨٢٤٦١٧
ص. ب. / ٧٠٣ - الرياض ١١٤٢١ - المملكة العربية السعودية

ⓒ دار المفردات للنشر والتوزيع ، ١٤١٥هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

أبو الجدايل، عائشة سعيد

الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي .

... ص ؛ ... سم

ردمك × ـ ١ـ٩٠٦٧ـ٩٩٦٠

١ ـ الامبراطورية البيزنطية　　　　أ ـ العنوان

ديوي ٩٤٩,٥٠١　　　　١٥/٣٦٨٧

رقم الإيداع : ١٥/٣٦٨٧

ردمك × ـ ١ـ٩٠٦٧ـ٩٩٦٠

دار المفردات للنشر والتوزيع والدراسات ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،

ص . ب : ٧٠٣ / الرمز البريدي : ١١٤٢١ .

هاتف : ٤٨٢٤١٠٦ - ٤٨٢٤٦١٧ / فاكس : ٤٨٢٤٦١٧ .



إهداء إلى

والدي رحمهما الله رمز الحب والرحمة

زوجي العزيز عمر بغدادي رفيق الدرب ورحلة البحث الشاقة .

ولدي أحمد وسلطان بهجة حياتي وزينتها .

شكر وتقدير

إن قلمي ليعجز عن تقديم جزيل شكري وعميق امتناني لنخبة من الاساتذة العلماء الأفاضل الذين غمروني بعنايتهم وقدموا لي الكثير من نصحهم وارشادهم والذي كان له أثراً كبيراً على نفسي وعلى سير عملي. وهم : **الاستاذ الدكتور محمد مرسي الشيخ** الذي كان موجهي الأدبي الأول. **والاستاذ الدكتور جلال يحيى** الذي أطلب له من الله الرحمة والغفران. **والاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف**، استاذ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية، الذي لاقى ربه مؤخراً، والذي وجهني لدراسة التاريخ البيزنطي وكشف لي عن الجوانب المهمة في تلك الدراسة. كما أتوجه بالشكر الجزيل **للأستاذ الدكتور وسام فرج**، استاذ العصور الوسطى بجامعة المنصورة، الذي قدم لي العون والارشاد وقدمني إلى المختصين في كل من جامعة برمنجهام واليونان والدكتور خرستيدس من جامعة يونيان باليونان. وإلى **الأستاذه الدكتوره عايدة عارف** التي كانت لي بمثابة أم روحية أعانتني بنصحها وإرشادها على الوقوف بصلابة أمام كل العقبات التي صادفتني.

وأخص بعميق شكري وامتناني **الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم** الذي منَّ عليَّ اللـــه بفضله بأن شاء وجعله أستاذاً مشرفاً على هذه الرسالة. وأني

مدينة له حيث وضعني على الطريق الصحيح بالإهتمام بدراسة اللغة اليونانية وساعدني على الالمام بها.

وانني أعده بمتابعة دراستي للغة اليونانية لأنها أساس الدراسة البيزنطية. وقد استجبت لنصحة لقضاء فترة صيف في أثينا أتابع دراستها هناك. وكان حريصاً على مساعدتي في مراجعة النصوص المكتوبة بتلك اللغة وبغيرها من اللغات. وعرفني بكثير من الحقائق المتصلة بتاريخ الأمبراطورية الرومانية وخاصة في فترتها المتأخرة. فهي تمثل القاعدة الأساسية لدراسة تاريخ الدولة البيزنطية، وكان حريصاً طوال فترة إعداد رسالتي على استقلاليتي في البحث وتكوين شخصيتي العلمية التي يجب أن تكون لكل باحث وباحثه. وإزاء هذا كله أراني عاجزة تماماً على إيفائه حقه من الشكر والتقدير.

كما أقدم جزيل الشكر إلى عائلتي الصغيرة التي صبرت على زوجة وأم تحب العلم حبها لبيتها وأبنائها. لقد كانوا لي خير عون ومعين على تحقيق هذا الإنجاز من مرافقة في رحلات علمية إلى تهيئة الجو الدراسي المناسب لعملي في التدريس والبحث العلمي.

وأخيراً أرفع الشكر والتقدير لجامعة الملك سعود التي كانت ومازالت لي الأم الرؤم التي تلقيت فيها دراستي الجامعية، ودراساتي العليا والتي احتضنتني كواحدة من منسوبيها، وهي منبع العطاء الذي لاينضب لي ولغيري من أبناء هذا الوطن العزيز.

فأقدم لها شكري ممثلة في مديرها معالي الأستاذ **الدكتور أحمد الضبيب** وإلى كلية الأداب فيها ممثلة في شخص عميدها **العالم الجليل الاستاذ الدكتور**

عبدالرحمن الانصاري. أما قسم التاريخ ممثلاً في شخص رئيسه السابق ورئيسه الحالي وأعضاء هيئة التدريس فيه بقسميه الرجالي والنسائي فشكري لهم أكثر من طاقتي ولهم مني كل أمتنان وتقدير وأرجو من **الله العلي القدير** أن يقدرني على رد الجميل الذي ينوء به كاهلي تجاه هذا الصرح العلمي وتجاه منسوبيه.

والله ولي التوفيق.

عائشة سعيد أبو الجدايل

تقديم

هذا كتاب علمي جاد ، أرادت به صاحبته السيدة الدكتورة عائشة سعيد أبو الجدايل ، أن تنفذ به إلى صميم التاريخ البيزنطي . وهدفها أن تبرز ما أدخلته الأمبراطورية البيزنطية في القرن السابع من تغيير وتطوير لأنظمتها لتعيد ترتيب أوضاعها الداخلية والخارجية لتحافظ على كيانها من أن ينهار أمام الأخطار المحدقة بها . ولم يعد الفرس وحدهم الخطر الداهم الذي يهدد الوجود البيزنطي في الشرق . إذ فوجئت بيزنطة بجحافل العرب المسلمين يجتاحون أراضيها وينتزعون منها سوريا ومصر وبالأفار والسلاف يهددون الوجود البيزنطي في البلقان .

وقد أختارت الباحثة هذه الفترة التاريخية الحاسمة في تاريخ بيزنطة لتكون موضوعا لدراستها بالرغم أنها كانت تعلم مسبقا أن الأستاذ جونز A.H.M.JONES وهو يورخ في كتابه THE Later Roman Empire 284 - 602, Oxford - 1964 قدر أن يتوقف عند القرن السابع وحجته في ذلك أن معلومات المؤرخ عن السنوات التي توالت فيها الكوارث على الأمبراطورية البيزنطية في بداية القرن السابع يكتنفها الغموض وأن المؤرخ لا يملك من عام ٦٢٩م مصادر معاصرة فعليه أن يعتمد على حوليات القرن التاسع وألا يعول كثيرا على المصادر الاسلاميه - ويقرر الاستاذ جونز أن الأمبراطورية البيزنطية خرجت من الأزمات التي ألمت بها وكأنها امبراطورية مختلفة تماما عما كانت عليه .

ولعل ما ذهب إليه الاستاذ جونز قد أغرى الكاتبة بدراسة القرن السابع فهو في نظرها ، فيما يبدو ، قرن تحول جدير بالدراسة حتى ولو اضطرت ، كما قال الاستاذ جونز، إلى الرجوع إلى مصادر متأخرة عن هذا القرن .

وقد نجحت الكاتبه في تحقيق هدفها وجمعت مصادرها المتقدم منها والمتأخر وكل ما وفقت إليه من وثائق تضمنت قوانين سنتها بيزنطة، وجميع هذه المصادر والوثائق محررة بلغات العصر الذي تؤرخ له . وقراءة هذه المصادر عمل شاق يتطلب إعدادا خاصا وقدرة فائقة على تفهمها واستخراج الحقائق التي تُعينها على تبين طبيعة التغييرات التي حدثت في نظم الأمبراطورية وتشريعاتها المختلفة ولتقف على أن كثير من التغييرات التي حدثت في هذه النظم والتشريعات إذا كان مصدرها القرن التاسع أو ما بعده ، إنما تعود جذورها إلى القرن السابع . بلى وإن بعض نظم القرون التالية وإن لم تظهر وثائق تعود إلى القرن السابع كانت أصلا تتضمن قوانين وتشريعات وتنظيمات عرفت في القرن السادس دونما ما سبقه من القرون وهذا دليل على أنها كانت هي المطبقة في القرن السابع .

وقد وفقت المؤلفه إلى إستخدام طيب للمصادر الإسلاميه التي أهتم مؤلفوها بالأمبراطورية البيزنطية وأوضاعها ونظمها وفهمتها على وجهها الصحيح وأزالت ما وقع فيه بعض المؤرخين المحدثين من أخطاء وما ذهبوا إليه من أراء ناقشتها مناقشة موضوعية وسدت بها النقص في المصادر البيزنطية .

وإن القاريء لهذا الكتاب ليحمد لصاحبته الجهد الصادق الذي بذلته بما أوتيته من فكرة علمية ورؤية صائبة وقدرة ممتازه في قراءة المصادر والوثائق البيزنطية وتحليلها ، فأخرجت له صورة معبرة عن بيزنطة من داخلها ، فتعرف على القسطنطينية ، عاصمتها ومدنها وريفها وعن المجتمع بمختلف طبقاته في المدن وخارجها . وعرفته بالنشاط الاقتصادي في شتى صوره وأنماطه ، وجعلته يتصور حقيقة الدور الذي لعبته اللبنة البيزنطية والفكر الديني وأنواع النقابات التي عمت المجتمع البيزنطي .

وبعد فإن هذا الكتاب كا أصلا رسالة تقدمت به صاحبته إلى جامعة الملك سعود وفازت به بدرجة الدكتوراه في التاريخ الوسيط - تخصص بيزنطي . وكان لي حظ الاشراف عليه . وإني لجد سعيد أن أقرر أني لمست في صاحبته ،

فترة تعايشي مع هذا العمل الممتاز بحق ، جلدا وصبراً وإمكانيات ذهنية خففت من اشفاقي عليها وهي تنهض بالعبء الكبير في إعداد هذا الكتاب ، وقد جنت حصيلة كل ذلك بما حظيت به من ثناء أعضاء اللجنة العلمية المؤلفة من اساتذة أجلاء .

وإني لموقن بأن تجربتها في إنجاز هذا العمل الطيب الذي انفقت في إعداده بضع سنيين تؤهلها لاخراج كتب أخرى تستقي مادتها من الوثائق والمصادر البيزنطية . وإني لعلى ثقة بتقدمها ، بأذن الله ، على النهوض بما تنتظره منها جامعتها العريقة في مجالات البحث والتدريس .

مصطفى كمال عبد العليم
استاذ التاريخ القديم

المحتويات

المقدمـــــات :

مصادر الكتاب ومراجعه

الملاحق

تقدمة
عن أهمية الموضوع وسبب اختياره (وخطة الكتاب)

يمثل القرن السابع الميلادي / الأول الهجري حدا فاصلا في تاريخ الأمبراطورية البيزنطية ،لأنه مرحلة تحول سياسي واقتصادي واجتماعي كبير في تاريخ هذه الأمبراطورية . ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بالأمبراطور هرقل وأسرته التي حكمت في الفترة مابين (٦١٠ - ٧١٧م)، فقد لعب أباطرتها الأربعة الكبار . هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) وقنسطانز الثاني (٦٤١ - ٦٦٨م) وقنسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥م) وجستنيان الثاني(٦٨٥ - ٦٩٥ و ٧٠٥ - ٧١١م) دورا بارزا في بلورة الشخصية البيزنطية وتشكيل ملامحها المميزة. كما لعبوا دورا هاما في المحافظة على كيانها السياسي، وتميزوا بمرونة الحركة فيقدمون على الهجوم، إذا سنحت الفرصة المناسبة لذلك، ويعمدون إلى انتهاج خطط دفاعية، إذا رأوا في ذلك توفير الأمن للأمبراطورية. ويعتبر هذا في حد ذاته تطورا هاما في سياسة الأمبراطورية.

وسرت التحولات والتغييرات في كيان الأمبراطورية منذ عهد الأمبراطور هرقل، الذي قدر له التصدي للفرس بفضل خطته الهجومية، وأن ينجح في تحطيم القوى العسكرية الفارسية. وما أن حل عام ٦٢٩م حتى احتفل العالم المسيحي بالنصر التام على الفرس. غير أنه وقبل أن يسترد هرقل أنفاسه، ظهر خطر جديد تمثل في قوة المسلمين الفتية، التي قضت بالفشل على الكثير من منجزات هرقل ، واقتطعت منه أكثر الولايات الشرقية ثراءً، فعمد - فيما يرجح، إزاء هذا الخطر الجديد - إلى استمرار التفكير في استراتجية دفاعية جديدة، تمثلت في تعميم نظام الثيمات الذي كان قد بدأه لمواجهة الفرس. وطبيعي أن يعيد أيضا تنظيم الأمبراطورية إداريا وماليا لمواجهة النقص في موارد الدولة، الذي نتج عن فقدان بلاد الشام ومصر، التي كان المسلمون في طريقهم إليها.

وقضى خليفته قنسطانز الثاني معظم عهده في حروب، محاولة منه لإيقاف الخطر الإسلامي المتزايد ، والذي نجح في فرض السيادة الإسلامية على البحر المتوسط ، كما لم يهمل في نفس الوقت الترتيبات الإدارية التي بدأها سلفه.

ولم يكن الخطر الإسلامي وحده هو الذي هدد كيان الأمبراطورية، فقد قدر لبيزنطة أن تواجه خطر الأفار والسلاف في البلقان. هذا بالإضافة إلى تقلص ممتلكات بيزنطة في إيطاليا نتيجة الغزو اللمباردي لمناطقها الشمالية واستقرارهم بها.

وفي عهد الأمبراطور قنسطنطين الرابع واصل المسلمون هجومهم في سنة ٦٦٨ م / ٤٨هـ وضربوا حول القسطنطينية حصارا استمر حتى عام ٦٧٨م / ٥٩هـ وبعدها طلب المسلمون ، بعد أن تعذر عليهم الإستيلاء على المدينة ، الصلح بشروط كانت كلها في صالح البيزنطيين. وبموت الأمبراطور قنسطنطين الرابع سنة ٦٨٥م / ٦٥هـ، تكون قد انتهت فترة بيزنطية تميزت بقدرتها على الحفاظ علي كيانها.

وأما الفترة الثانية والتي بدأت من سنة ٦٨٥م / ٦٥هـ باعتلاء جستنيان الثاني العرش وحتى اعتلاء ليو الثالث العرش سنة ٧١٧م / ٩٨هـ فقد عمت فيها الفوضى في الداخل ، ولم يستطع المسلمون أن يحققوا مزيدا من الفتوحات داخل الأمبراطورية ، إذ كانت الفترة الممتدة من سنة ٦١ - ٧٣هـ / ٦٨٠ - ٦٩٢م فترة اضطربات وفتنة في الخلافه الأموية وكانت أيضا الفترة التي انتقلت فيها الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني، وصحب ذلك حرب أهلية وانشقاق عبدالله بن الزبير . ومعنى ذلك أن الخلافة الأموية لم تكن في مركز يسمح لها بشن هجوم قوي على الدولة البيزنطية، إلا بعد موت ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م. ولقد تركزت جهود الإدارة البيزنطية، في تلك الفترة في محاولة إعادة وترتيب وتسوية الأوضاع في آسيا الصغرى، وذلك بتطوير نظام الثيمات، وعملية نقل السكان، لتغذية الأماكن التي يودون تقويتها أمام الهجمات الإسلاميه بدماء جديدة. وتطوير جميع أجهزة الدولة الإدارية المدنية والمالية لمواجهة هذه الأخطار المحدقة بها.

ويركز الكتاب على ناحيتين هامتين:

الأولى إبراز التحول السياسي والاقتصادي والإجتماعي الذي شهدته الأمبراطورية في القرن السابع الميلادي، والأسباب التي أدت بها إلى أن تكون ذات طابع اغريقي وبُعدها التدريجي عن الطابع اللاتيني القديم. الناحية **الثانية** : معالجة علاقات بيزنطة بالقوى المجاورة لها والتي أسهمت في عملية التطورات والتغييرات التي طرأت على كيانها في القرن السابع

سواء كان ذلك في الجهة الشرقية أو الجهة الشمالية أو الجهة الغربية. فقدترتب على هذه العلاقات، انكماش مساحة الأمبراطورية نتيجة لما فقدته من أقاليم في الشرق وجعلها تتخذ وبصفة نهائية شكلا مميزا في العصور الوسطى. وعُدّت آسيا الصغرى وأجزاء من شبه جزيرة البلقان وأجزاء من ايطاليا وبعض الجزر البحرية هي كل ما تبقى لها.

ومن دراسة هذه العلاقات وأثرها في التغيرات على الأمبراطورية تمكنًا من عرض التجربة الجديدة التي عاشتها بيزنطة وردود الفعل التي ترتبت على ذلك، ودخول الصراع من أجل البقاء. هذا الصراع تمثل في التغيرات التي قامت بها بيزنطة لمواجهة التحديات من حولها. وهذه التغيرات تظهر لنا مدى مرونة التفكير السياسي البيزنطي في مواجهة الأخطار التي احدقت بها في تلك الفترة الحرجة من حياة الأمبراطورية.

والمعروف أن القرن السابع الميلادي شهد بروز القوة الإسلامية ونشاط الفتوحات الإسلامية التي أثرت بشكل مباشر في تشكيل تاريخ الأمبراطورية البيزنطية. وقد مثلت هذه الفتوحات الإسلامية خطرا جديدا على كيان الأمبراطورية. فكيف واجهت بيزنطة هذا الخطر ؟ هل كان موقفها هجوميا ؟ أم دفاعيا ؟ ماهي الترتيبات العسكرية التي اتخذتها لمواجهة هذا الخطر ؟ ماهي الترتيبات الاقتصادية التي اتخذتها لمواجهة نقص الإمدادات من جراء الفتوحات الإسلامية لأغنى مناطقها الشرقية ؟ وإن كان موضوع الكتاب لا ينصب على العلاقات الإسلامية البيزنطية ولكنه متعلق بالتغيرات التي حدثت في الأمبراطورية البيزنطية ، ونحاول أن نتعرف من خلال موضوع الكتاب على كيفية مواجهة بيزنطة لهذا الخطر الجديد (القوى الإسلامية) وهي التي خرجت من حروبها مع الفرس منهكة القوى. وما هي التغيرات التي قامت بها سواء في سياستها الداخلية أو الخارجية لمواجهة هذه المرحلة؟. إن هذا الموضوع بالذات لم يتناول بالتفصيل من قبل. وإن نال فيما مضى إشارات وصفية أكثر منها تحليلية. ولهذا اتجهت إلى دراسة هذا الموضوع مؤملة في أن أكون قد قدمت إضافة جديدة للمكتبة العربية، وإعطاء هذا الموضوع ما يستحق من إهتمام.

ولقد اتبعت في معالجة هذه الدراسة منهج البحث عن الجذور التاريخية للتغيرات وركزت على التغيرات وتحليل أسبابها وليس على السرد التاريخي للأحداث. وراعيت ربط متغيرات القرن السابع بالأنظمة الرومانية القديمة ومدى

كون هذه المتغيرات امتدادا للماضى وليس بتراً عنه. لذلك قسمت الكتاب إلى قسمين أو بابين كبيرين:
الباب الأول ويشمل كل ما جاء من تغيرات في النواحى الادارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدين في القرن السادس.
الباب الثاني ويشمل كل التغيرات السياسية والادارية من مدنية وعسكرية واقتصادية واجتماعية ودينية وذلك في القرن السابع.

واعتمدت على كم كبير ومتنوع من المصادر اليونانية واللاتينية والأرمنية والسريانية والإسلامية، وقد واجهت صعوبة ومتاعب بالغة في الحصول على هذه المصادر تعادل في حد ذاتها الكتابة والدراسة نفسها. وبذلت أقصى جهد للحصول على تلك المصادر والمراجع. وقد أمضيت عطلاتى الصيفية، منذ صيف ١٤٠٧هـ، متنقله بين المكتبات في الخارج وعلى وجه التحديد في لندن وأثينا وباريس وايطاليا ومصر بحثا عن تلك الكتب النادرة. هذا إلى جانب اشتراكي في الجمعيات البريطانية للدراسات البيزنطية (*) وحضور المؤتمرات الخاصة بالدراسات البيزنطية في كل من أثينا ولندن. لكى ألم إلماما جيداً بالفترة التاريخية واطلع على أحدث الأبحاث التي تدور حول الدراسات البيزنطية بصفة خاصة والتعرف إلى كبار الأساتذة المختصين في هذا الحقل.

ولقد وفقت والحمد لله في الحصول على أكبر قدر ممكن من المصادر المختلفة سواء تلك المكتوبة بلغتها الأصلية أو المترجمة إلى اللغات الحديثة مثل اللغة الانجليزية والفرنسية. هذا إلى جانب كم من المراجع الحديثة من كتب ومقالات. ولم أبخل بجهدٍ أو مال أو وقت في سبيل الحصول على المادة العلمية التي تترى البحث العلمى.

وتنقسم المصادر الأصلية التى اعتمدت عليها الى عدد من الأقسام من حيث جنسية المؤرخين ومعاصرتهم للفترة التاريخية ومن حيث النوعية. فهناك المصادر الأدبية والمصادر القانونية وحياة القديسين وكتالوجات النقود والأختام، والمعاهدات العسكرية، والكتب الخاصة بالادارة والمراسيم... الخ.

ويأتي على رأس المصادر المعاصرة للقرن السادس مجموعة بروكوبيوس القيصرى Procopius of Caesarea وهو من فلسطين، من أسرة

(*) The Society for the Promotion of Byzantine Studies.
وقد نشر عنوان كتابي هذا في : Annual bulletin of the British Byzantine studies, 1990 .

غنية، تلقى تعليمه الأولي بمدارس غزة، ثم درس القانون في مدرسة بيروت الشهيرة، مما أتاح له الفرصة لكي يصبح مستشارا للقائد العسكري بليزاريوس، في حروبه ضد الوندال والقوط والفرس. فكان شاهد عيان، واطلع على كثير من خفايا الأمور[1]. وقد قام بتدوين تاريخ تلك الفترة الهامة من حياة الأمبراطورية الرومانية. وتنقسم مجموعة بروكوبيوس إلى ثلاثة أقسام كالتالي :

١ - قسم عن الحروب وهي : الحرب مع القوط (Bellum Gothicum)

والحرب مع الفرس (Bellum Persicum)

History of Wars , Book 1 and 2 - The Persians War

والحرب مع الوندال (Bellum Vandalicum)

٢ - القسم الثاني عن الأبنية de Aedificiis.

٣ - القسم الثالث وهو ما يعرف بالتاريخ السري.

بمعنى الأعمال التي لم تنشر Historia Arcana (The Anekdota).

والمحتمل أن المجموعة الأولي من كتابات بروكوبيوس قد نشرت في حوالي سنة ٥٥١م بينما ظهر الكتاب الثامن في سنة ٥٥٣م، يرجح أن تكون المجموعة الثانية قد نشرت في حوالي سنة ٥٥٤م، أما التاريخ السري من المحتمل أن، يكون قد كتب بين عامي ٥٥٨ و ٥٥٩[2].

وهناك نقاش دار حول موضوعية بروكوبيوس في كتابته، وانه يوجد تعارض بين كتابه الأخير وكتاباته المتقدمة . فقد تميز كتابه عن الأبنية بالمديح والنفاق للأمبراطور جستنيان الذي يشير فيه : أن الأمبراطور قد طور الدولة، وأرجع البرابرة إلى الوراء، وأنقذ الديانة من الأخطاء وأصلح القوانين. وقام بتحصين الحدود وترميم المدن وتأسيس مدناً جديدة. وفي كل مكان قام بتوفير أسباب السلامة والرخاء لمواطنيه. وأن الأمبراطورية نفسها تضاعفت في المساحة والقوة[3].

وقد وضعت علامات الأستفهام أمام افراط بروكوبيوس في مدحه لجستنيان[4]، الشيء الذي يفسره بروكوبيوس بقوله : عندما يشكر الأتباع حكامهم الذين أفادوهم، ويشعر الحكام بامتنان الأتباع فإنهم يقومون باعطاءهم

(١) لمعرفة المزيد عن حياة بروكوبيوس ونشأته انظر :
J. A. S. Evans, Procopius . Mcmaster University(New York, 1972), P. 32 f.

(٢) لتعليل ذلك التاريخ، أنظر Idem , pp 45 - 61.

(٣) Procopuius , The Buildings. English . Trans by H . B . Dewing , 1954 , pp . 3 - 9.

(٤) J. B . Bury. history of The Later Roman Empire,(London , 1931) Vol. 2, P. 1.

مرة ثانية وبشكل سخي مقابل شكرهم وتقديرهم[٥].

وفي كتاب التاريخ السري ينتقل بروكوبيوس من وصف الأحداث إلى وصف الأشخاص الذين لعبوا الدور الحاسم في تطور تلك الأحداث. لم يكن بإمكان بروكوبيوس أن ينشر هذا الكتاب وأبطال أحداثه لا يزالون على قيد الحياة. وذلك خوفا على حياته من الخطر الذي يتهددها من جراء نشر الفضائح التي ينطوي عليها الكتاب، وانه كان لا يثق في أحد حتى أقرب الناس إليه لمعرفة ماكتب[٦]. حيث انه يعزو كل ما حل بالأمبراطورية من خراب إلى شخص الأمبراطور وطغيان حاشيته وفساد زوجته وفساد وصيفاتها. وأن الأمبراطور ماهو إلا شيطان تجسد في شخص بشر.

لهذا فإن كتاب التاريخ السري لم ينشر مع كتب بروكوبيوس الأخرى، وإنما ذكر لأول مرة في القرن العاشر في المعجم المعروف باسم Souda. تحت عنوان Anekdota أو الأعمال التي لم يتم نشرها.

ونحن لا نرى تقلبا في شخصية بروكوبيوس سواء في مدحه أو في ذمه للأمبراطور جستنيان، فهو عندما كتب عن المباني مدحه وأعطاه حقه، حيث انه لم يبخل بالإنفاق على جميع المرافق التي قام ببناءها، ولكن هذا الرجل الذي قام بكل هذه الأعمال في التشييد والبناء لا تخلو حياته من العيوب والمتناقضات. فعند كتابة سيرته الذاتية كشف بروكوبيوس الهالة التي تحيط بشخصية جستنيان بوصفه محاربا يود إعادة الوحدة إلى جميع أجزاء الأمبراطورية. والشخص الكريم الذي لا يبخل علي بناء تحصينات أو كنائس ... وعندما كشف بروكوبيوس الهالة أبرز لنا الوجه الثاني غير المشرق، فأبرز الطرق التي جمع بها الأموال للبناء، وهو الوجه الذي اختفى وراء المثاليات ووراء المديح للإنجازات الرائعة سواء كانت عمرانية أم حربية. والوجه السيء الذي كشف عن أنياب الليث في جمع الأموال، وفي تغيير القوانين من أجل المصلحة الشخصية والاحتكار، الذي قبض على جميع مقومات سبل العيش،في نظر بروكوبيوس، لقد مدح الأمبراطور حينما ذكر إنجازاته التي تستحق المديح . وذمه وذم إدارته في الطرق التي جمع بها أموال تلك الإنجازات. ونحن لا نتفق في الرأي مع من يقول بأن بروكوبيوس منافق بل نرى انه أعطي للعمل الجيد حقه من المديح وأعطى للعمل السيء حقه من الذم . وقد أحسن بروكوبيوس إذ فصل بين

---

(٥) Procopius , Buildings , P . 3.

(٦) Procopius , The Anecdota , I , P . 3.

العملين . وإن كان يناقض نفسه عندما يذم عملا بعينه تارة ويمدحه تارة أخري، ألا وهو المباني التي شيدها جستنيان على البحر(٧).

لقد وصف بروكوبيوس جستنيان، وجسستنيان بشر، والبشر يحمل الجانب السيئ والجانب الحسن، وليس هناك بشر كاملون ولكن هناك من هو أقرب إلى الخير ومن هو أقرب إلى الشر. جستنيان تملكه نوازع الخير في أعمال العمران وتملكه نوازع الشر في جمع الأموال وفي تنفيذ القرارات الضارة بالناس. وهذا لا يعني تجريده من ملكات الذكاء والابداع. ولكن توجد في شخصيته جوانب نقص أبرزها بروكوبيوس وربما بالغ في ابرازها وخصوصا عندما قال انه الشيطان نفسه وان والدته اعترفت بأنها أنجبته من الشيطان، وأن بعض رجال البلاط شاهدوه وهو يتجول في المساء بدون رأس بشري(٨).

وخلاصة القول انه لايهمنا في كتابات بروكوبيوس صدقه في المديح أو الذم. ولكن الذي يهمنا بالدرجة الأولى هو المعلومات التي أوردها بروكوبيوس في مجموعاته الثلاثه، والتي تصور لنا الحالة العامة للأوضاع السائدة في الأمبراطورية في تلك الفترة.

فالمعلومات التي أوردها عن الحروب مثلا تخبرنا عن مدى استعداد الدولة للانفاق على الحملات الحربية . وعن الفرق التي حاربت هل كانت فرق وطنية أم فرق مرتزقة ؟ المدة التي أمضوها في الحروب تدل على قوة تلك القوات وعلى ضعف أو قوة المنطقة التي هاجموها . أيضا تصور لنا المناطق المهاجمة ونقاط القوة والضعف فيها . كما تصف جغرافية المكان ووصف السكان ..... إلخ.

أما المجموعة الثانية وهي مجموعة المباني، فتدل دلالة واضحة على سياسة جستنيان في تحصين الأماكن المعرضة لهجمات العدو والتي سحب منها القوات العسكرية أو التي كانت فيها قوات صغيرة غير كافية للدفاع عنها. والدليل على صدق هذا التخمين أن كتاب المباني لم يذكر أي تحصينات قام بها جستنيان في ايطاليا. وربما يكون هذا الجزء من الكتاب قد فقد. وربما لأن فتح إيطاليا قد تأخر كثيرا. فلم يستطع جستنيان القيام بعمل تحصينات في إيطاليا مثل تلك التحصينات التي قام بها في شمال افريقيا وربما يكون ذلك السبب الذي جعل إيطاليا تقع فريسة سهلة في يد اللمبارديين فيما بعد.

وكذلك الأمر بالنسبة للتاريخ السري ، فلا تهمنا فيه الفضائح التي تناولت

(٧) انظر الكتاب ص ١٣٠.
(٨) Procopius , Anekdota , Xii . 18 - 23.

حياة الأمبراطورة ثيودورا ووصيفتها، وجستنيان ورجال حاشيته بقدر ما يهمنا عرض بروكوبيوس للحياة العامة سواء من الناحية السياسية التي أوضحها بروكوبيوس ولو بشكل غير مباشر. فهو حينما يهاجم جستنيان بأنه أغدق العطاء للبرابرة فهذا يشير إلى أن جستنيان يود أن يتحاشى التصادم الحربي على حدود الأمبراطورية المتآخمة للبرابرة في الوقت الذي كانت فيه قواته مشغولة بالقتال على الجبهة الغربية . ووصف بروكوبيوس لوضع القوانين وتغييرها حسب المصلحة الخاصة لجستنيان ينير لنا الطريق أمام مااستحدث من قوانين، ولكن عندما يتحدث بروكوبيوس عن وضع القوانين لا يذكر نصوصها ولا كيفية تطبيقها، وانما يذكرها على سبيل المثال ليؤكد أن جستنيان كان يعمل لمصلحته الخاصة. وهذا القول ينطبق على الأجهزة الإدارية واستحداث الوظائف ووضع كبار رجال الدولة مثل رجال السناتو.

وفي مجمل حديث بروكوبيوس عن جشع جستنيان وحبه لجمع المال تتضح لنا صورة الحياة الاقتصادية وحالة الاحتكارات التي طبقها جستنيان ومعاناة الشعب من تلك التطبيقات.

وهذه الأمور التي ذكرها بروكوبيوس تنير درب الباحث وتمده بمعلومات قيمة عن الأحوال في الأمبراطورية في جميع انحاءها تقريبا. فهو يضرب أمثلة عما حدث في الأقاليم مثل الأسكندرية أو بلاد الشام وما حدث في العاصمة نفسها. وباختصار فإن كتب بروكوبيوس تعتبر كنز من كنوز البحث العلمي لفترة هامة في تاريخ الأمبراطورية الرومانية. وأسس التحولات التي حدثت نتيجة لتلك السياسة فيما بعد.

ويلي بروكوبيوس مؤرخ آخر وهو أجاثياس Agathias والذي غطى في كتاباته الفترة التاريخية منذ ٥٥٢ - ٥٥٨م[٩] والتي تتضمن خمسة اجزاء تحت عنوان التواريخ Histories. وفي الجزء الأول تحدث عن منطقة إيطاليا وبالذات عن حروب نارسيس ضد القوط والفرنجة. والجزء الثاني يقفز فيه من الغرب إلى الشرق ليتحدث عن منطقة لازيكا. ويتحدث فيه أيضا عن الفرس ودياناتهم وتقاليدهم . وفي الجزئين الثالث والرابع يشير إلى الأحداث على الجبهة الشرقية ويتضمن ذلك المعاهدة التي عقدت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٥٧م. والجزء الخامس يخصصه للحديث عن العاصمة وخصوصا إعادة بناء كنيسة أيا صوفيا

(٩) Agathias, The Histories, trans. Joseph D . Frendo(Berlin, 1975).

سنة ٥٦٢م بعد الزلزال. كما يتحدث بإسهاب عن الزلزال ويشير أيضا إلى الطاعون الذي انتشر في القسطنطينية .

وتتميز كتابات أجاثيا بالاستطراد الذي جعله يخرج عن صلب الموضوع . مثال ذلك حينما تحدث عن ايطاليا وحروب نارسيس مع الفرنجة استطرد في الحديث عن الفرنجة وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم. وينطبق نفس القول على التفاصيل التي أوردها عن الفرس ولو أن المادة التي حصل عليها عن الفرس مادة مأخوذة من أرشيف مملكة الفرس، قدمها له مترجم يدعي سيرجيوس، وهي مادة لها قيمتها عند الحديث عن الفرس .

ومن جهة أخرى استطرد في وصفه للأفلاطونيين المحدثين Neoplatonics الذين هربوا من أثينا سنة ٥٢٩م وعودتهم مرة أخرى وذلك بعد شعورهم بالمرارة وخيبة الأمل من البلاط الفارسي[١٠].

وهناك نمط آخر من الكتابه التاريخيه مثله يوحنا ملالاس John Malaas في كتابه **حولية ملالاس** (The chronicle of Malalas)[١١] والتي تنقسم إلى ثمانية عشر كتابا. الكتاب الأول يبدأ بآدم ويحتوي على ملخص عن نوح وذريته وتسلسل الموضوع حتى يصل إلى المصريين.

الكتب من الثاني إلي الرابع تخص التاريخ اليوناني المبكر وخصوصا ممالك طيبة Thebes وأثينا Athens وأرجوس Argos. الكتاب الخامس ركز بشكل خاص على حروب طرواده . وركز الكتاب السادس على الأسر البابلي وممالك الفرس والليديين مع مقدمة للتاريخ الروماني من خلال الالياذة في ملحمة فرجيل.

(١٠) Idem , Book 11, 30 - 31.

أنظر أيضا : Averil cameron , Agathias on The Sassanians , D. O .P 23 (1969)==p. 69 - 180.

أيضا D. O . P. 24 (1970) Pp 117 - 119.

أيضا: The Last Days of The Academy at Athens , Proceed . cambridge Philo , .Soc 19 (1969) P . 7 - 29 .

ولمعرفة نشأة أجاثياس

R .C .Mc Call , on The Early Career of Agathias , Scholasticus , R .E .B .28 ,(1970) P. 142 ff . Averil Cameron , Agathias ,(Oxford ، 1970) P . 140 F . Appendiox B . Where did Agathias Study law ?

B . Baldwin . Four Problems in agathias 1 - Where did agathias study law ? BZ . 70- 1977 P . 295 - 298 .

R .C .mc Call , The Earthquake of A .D .551 and the Birh date of Agathias G. R b 58 (19- 67) P . 241 - 247 .

(١١) The Chronicle of Malalas , Ba (Oxford , Buroccianus 182).

والموضوع الرئيسي للكتاب السابع هو تأسيس مدينة روما بينما اختص الكتاب الثامن بالاسكندر والممالك الهيلينية . ولكن الاطار الرئيسي للكتب الثمانية الأولى هو تقسيم التاريخ العبري اليهودي إلى فترات تاريخية منذ آدم وحتي Addous. والأجزاء التي تغطي التواريخ الأخرى مثل تاريخ اليونان والتاريخ المبكر للرومان، وصف ضمن البناء المركز للتقسيم إلى فترات تاريخية Chronological بداية منذ آدم وتسير حتى المسيح. وهذا النمط من الدراسة قد أسس ضمن التقسيم إلى فترات تاريخية التي كانت سائدة في الكتابات المسيحية. وضمن هذا الإطار كتب ملالاس تاريخه.

وفي مقدمة تاريخه أثار ملالاس أن له هدفا مزدوجا. أولا: أن يضع التاريخ المقدس كما فسرته التقاسيم التاريخية حسب التقاليد المسيحية . ثانيا: تقديم مختصرات للحوادث منذ آدم وحتى عصر جستنيان. وقد غطى الهدف الأول الكتب من الأول إلى الثامن. أما الكتاب التاسع ويحتوي على تاريخ الجمهورية الرومانية وينتهي بأغسطس وتجسيد المسيح، وهذا ينساب إلى الكتاب العاشر الذي تضمن تقسيماً استطراديا هاما للفترة الزمنية موضحا ومفسرا أن المسيح ولد في سنة ٥٩٦٧ ق.م منذ بدء الخليقة وأنه صلب "حسب اعتقاد المسيحين "[١٢] في سنة ٦٠٠٠ منذ بدء الخليقة . كما أنه احتوى على استمرارية التاريخ منذ عهد نرفا Nerva إلى عهد تبريوس Tiberius (١٤ - ٩٨م) والكتابان الحادي عشر والثاني عشر يضمان تواريخ الأباطرة منذ عهد تراجان Trajan إلى حكومة الأربعة في عهد دقلديانوس (٩٨ - ٣٠٥م) والكتاب الثالث عشر يسجل تاريخ الأمبراطورية المسيحية منذ عهد قسطنطين وثيودوسيوس الأول (٣٠٥ - ٣٩٥). بينما يغطي الكتاب الرابع عشر السنوات منذ عهد ثيودوسيوس الثاني إلى عهد ليو الثاني (٤٠٢-٤٧٤م) والكتب من الخامس عشر إلى الثامن عشر تعطي الفترة منذ عهد زينون إلى عهد جستنيان (٤٧٤ - ٥٦٥م) ويعتبر يوحنا ملالاس أشهر من دون حوادث القرن السادس على شكل تاريخ حولي. وامتازت كتابته برواية الأساطير التي مزجت بالوقائع. وقد كتب باللغة اليونانية الدارجة، كما استعان ببعض الاصطلاحات اللاتينية الدارجة في عصره[١٣].

وفي عهد موريس أرّخ ميناندر Menander للسنوات من ٥٥٨-٥٨٢م، ولكن

(١٢) « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ». سورة النساء ، الآية ١٥٧ .

(١٣) Brain Croke , Malalas , The Man And his Work . in : Studies John Malalas , P . 1 - 2 .

المؤلف ضاع ولم يبق منه إلا الجزء الخاص بالمعلومات الجغرافية والعناصر البشرية الطارئة على الأمبراطورية(١٤).

ثم ظهر ثيوفلاكتوس السموقاطي Theophlactus Simocatta القبطي الذي سجل الحوادث في عهد الأمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م) وقد امتازت كتاباته بالصور الرمزية والأساطير والخرافات(١٥).

وفي آواخر القرن السادس ظهر فوتيوس ثيوفانيس البيزنطي Theophanes of Byzantium والذي ذكره البطريرك فوتيوس في مؤلفاته ونقل عنه خبر إدخال دودة القز "دودة الحرير" إلى حوض البحر المتوسط (١٦).

حولية باسكال أو الحولية الفصحية Easter Chronicle التي تعتبر مجهولة المصدر، هي من حوليات الفترة المبكرة من القرن السابع والتي حفظت أحداث بارزة لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة وحتى القرن السابع. وبناء عليه فهي تعتبر نمطا للحوليات الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المبكرة والتي خلطت الحوادث التوراتية بالحوادث الدنيوية لتفسير التاريخ بالمصطلحات المسيحية.

ومن الشعراء جورج البسيدي: George of Pisidia وكان شاعرا مرموقا وصف في شعره حملة الأمبراطور هرقل ضد الفرس سنة ٦٢٢م وهجوم الآفار على القسطنطينية سنة ٦٢٦م والاحتفال بانتصار هرقل النهائي(١٧).

أما المصادر البيزنطية المهمة بالنسبة لتاريخ القرن السابع والمدونة باللغة اليونانية ولها ترجمة لاتينية فتنحصر في حوليتين كتبتا في القرن التاسع، الأولى حوليه ثيوفانيس (٧٥٢ - ٨١٨م) والثانية حولية نيكفورس Nicephorus(١٨).

(١٤) أسد رستم، المرجع نفسه، ج ١، ص ٢١٢.
(١٥) أسد رستم، المرجع نفسه، ج ١، ص ٢١٢.
(١٦) أسد رستم، المرجع نفسه، ج ١، ص ٢١٢.
أنظر : Chronicon Paschale 284 - 628 A . D Tran . by Micheal Whiby and Marywhitby P. (1)
(١٧) عن باسكال وجورج البسيدي، راجع :
A.H.M. Jones, The Later Roman Empire, 284-602 (Oxford 1973) Vol. 1, P. 317
لتفاصيل أكثر انظر
George . F . Hourani , "Heraclius of George of Pisidia" in : Byzantium and The Semitic Orient before the Rise of Islam , (variourum , 1988) . P. 225 F , Chronicon Paschale 284 - 628 A D trans . by michael Whitby and Mary (Liverpool 1989).
(١٨) Idem.

ولد ثيوفانيس في الفترة مابين (٧٥٢ - ٧٦٠م) لأبوين ثريين من طبقة اجتماعية راقية ، والذين كانت تربطهم صلة قرابة بالبيت المقدوني (٨٦٧ - ١٠٥٦م). وبعد وفاة والده أصبح ثيوفانيس تحت رعاية الأمبراطور الشخصية حيث تعلم وتربى تحت رعايته.

وفي خلال فترة حكم ليو الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠م) حصل ثيوفانيس على لقب شرف وهو Spatharios. وفي خلال فترة شبابه تزوج من ابنة البطريرك البيزنطي ميجالو Megalo ولم يكن زواجه منها أكثر من محاولة ليطوق معارضة الحكومة المناهضة للأيقونية ضد الأديرة ، وعندما فقد محطم الأيقونيات المتعصبين ضد الأديرة، النصير القوي بموت ليو الرابع ، انفصل الزوجان ليختار الزوج طريق الرهبنة والعيش في الأديرة . وأسس ثيوفانيس نفسه ديرا قرب Sigriane على الشاطيء الأسيوي من بحر مرمرة واستقر هناك حتي سنة ٨١٥ أو ٨١٦م وتوفي في المنفى في جزيرة Samothrakia ساموتراقيا سنة ٨١٨م.

لقد جرت العادة بين المؤرخين البيزنطين على القيام بتسجيل فترة زمنية قصيرة، نصف قرن أو يقل عن ذلك، وكتبوا فيها الكثير من التفاصيل . وكان شيئا مألوفا أن نجد مؤرخا واحداً كتب أو أرخ لفترة معينة . وكان كل مؤرخ يتابع ماكتب قبله يكمل ماآنتهى إليه الأخير . وكان كتّاب الحوليات يعالجون الأحداث منذ بدء الخليقة حتى وقتهم المعاصر . أما تقديراتهم الزمنية فقد اقتصرت على التوراة.

وبناء على تلك القاعدة فإن حولية ثيوفانيس مختلفة إذ أنها لاتبدأ مع بداية الخليقة ولكن منذ ٢٨٤م - ٨١٣م أي منذ اعتلاء دقلديانوس عرش الأمبراطورية الرومانية حتى ولاية ليو الخامس . والسبب في ذلك يعود إلى أن حولية ثيوفانيس إنما هي تكملة لعمل جورج الراهب George Synkellos الذي كتب حوليته منذ بدء الخليقة وحتى عام ٢٨٤م . كما جاء في دراسة حديثة يفترض صاحبها أن ثيوفانيس لم يكن أكثر من ناشر أو مضيف للحولية التي كتبها جورج الراهب ، الذي كان لايزال على قيد الحياة حتى سنة وفاته ٨١٠م أو ٨١١م . وأنه استمر في الكتابة حتى تاريخ وفاته . ولكن بالاستناد إلى المقدمة للحولية التي نشرها (De Boor) فإن جورج الراهب قد كتب حولية منذ بدء الخليقة وحتى عهد دقلديانوس فطلب من ثيوفانيس أن يكمل كتابة تلك الحوليه ، ولم يكن راغبا في القيام بهذا العمل ولكن إزاء إلحاح صديقه ، قبل

القيام به[١٩] وكان عليه مراجعة الكثير مما كتب قبله.

وبتحليل حولية ثيوفانيس نجد أنه بالنسبة للفترة من ٢٨٤ - ٦٠٢م فإن المعلومات توجد في أي حولية غيرها ، وبصفة عامة فإن الجزء الأول من الحولية ليس أكثر من إضافة صغيرة لعمل جورج .

أما بالنسبة للفترة من ٦٠٢ - ٨١٣م فالعكس هو الصحيح . لأن كل مصادر ثيوفانيس اختفت تاركة حولية ثيوفانيس كمصدر أساسي لفترة هامة من فترات التحول في الأمبراطورية . ويعتبر القرنان السابع والثامن فترة فاصلة بالنسبة للكتابات التاريخية وقد أطلق عليهما أسم : العصور البيزنطية المظلمة . والسبب في ندرة تلك المصادر واضح ، إذ أن القرن السابع بالنسبة لبيزنطة فترة استمرت فيها الحروب ولم يكن هناك وقت كاف لتسجيل ما حدث ، أما الفترة التي تميزت بمناهضة الأيقونات وما بعدها ، فكانت أكثر من قاضية لكل مابقي من الآثار الأدبية . وفي الفترة (٧٢٦ - ٧٨٠م) قام المناهضون للأيقونية بتدمير كل الأعمال التي كتبها المعارضون لهم . وعندما أتى الأيقونيون إلى الحكم كان على الأدب المناهض للأيقونات أن يلقى نفس المصير .

وقد أعتمد ثيوفانيس على ملحمة جورج البيسيدي George of Pisidia كمصدر لفترة حكم الأمبراطور هرقل . واعتمد على كتاب Vita للقديس ماكسيموس المعترف كمصدر لحديثه عن عقيدة التوحيد Monotheitism أما بالنسبة لتاريخ الفترة الأخيرة من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن ، فإن من المحتمل أن يكون ثيوفانيس قد اعتمد على كتابات البطريرك تراجان وهو من الأعمال المفقودة الآن ، كما أنه اعتمد بقدر مماثل على أعمال مفقودة لرهبان آخرين .

وبالإضافة إلى استخدام ثيوفانيس لمصادر أغريقية مفقودة فإن لحولية ثيوفانيس قيمتها المتميزة لأنه أعتمد في كتابتها على ترجمة أغريقية لمصدر سرياني كتب في القرن الثامن . وهذا هو المصدر الذي استقى ثيوفانيس عنه معلوماته المحددة الصحيحة عن الأقاليم التي فتحها المسلمون .

وقد ذكر نيقوفورس في " مختصر التاريخ " أن ثيوفانيس أكثر كتاب

---

(١٩) Zbornik Radova vizantoloskog , " Who worte The Chroniclo of Theophanes " Instituta XVIII (Belgrade, 1978), PP. 9 - 17.

الحوليات البيزنطية قدما . وكتابته أو إضافته تضاهي كتابة جورج الراهب حيث أنه رسم إطار للشئون البيزنطية في القرنين السابع والثامن وقد كتب عمله على شكل حولي . بحيث تسجل أحداث كل سنة بشكل منفصل، وبما أن عمله كان عملاًمكملا لعمل جورج الراهب فقد استخدم نفس التقويم العالمي الذي استخدمه ذلك الراهب ألا وهو تقويم الأسكندرية الذي جعل تاريخ بدء الخليقة يوم ١ سبتمبر ٥٤٩٣ق.م. ولكن معظم المؤرخين الذين استخدموا تقويم الأسكندرية ، اتخذوا تاريخا آخر غير ١ سبتمبر. أما بالنسبة لثيوفانيس فقد استخدم ١ سبتمبر كأول يوم في تقويمه . وحددت حوادث كل سنة منذ بدء الخليقة على ذلك الأساس . ولم تكن هذه الطريقة طريقة بيزنطية في التاريخ .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإن إعتماد ثيوفانيس على حساب السنوات منذ بدء الخليقة Annus Mundi تختلف عن التاريخ الميلاد بحوالي ٥٥٠٠ سنة بالضبط مما جعل تاريخ ثيوفانيس غير صحيح .

بالاضافة إلى Annus Mundi فقد سجل ثيوفانيس السنوات الملكية لحكم الأباطرة البيزنطيين وحكام المناطق الشرقية المجاورة للأمبراطورية الذين كانوا في أول الأمر الساسانيون ، حكام فارس ، ثم بعد ذلك الخلفاء العرب ، وبطاركة القسطنطينية . وتلك التواريخ كانت مضبوطة تقريبا وعلى الأخص الأولى والثالثة . كما سجل ثيوفايس الكثير من المعلومات عن الأربعة البطاركة الآخرين ، بابا روما ، وبطريرك الأسكندرية ، وبطريرك أنطاكية ، وبطريرك القدس. وإلى نهاية القرن السادس كان تسجيله شاملا عن تلك الأسقفيات. ولكن دخول السلاف إلى البلقان وفتح العرب للشرق الأدنى ، عطل وصول المعلومات عن تلك الأسقفيات . أما بالنسبة للقرنين السابع والثامن ، فإن معلوماته عن تلك الأسقفيات، التي لم تعد تحت سيطرة الأمبراطورية البيزنطية كانت غير واضحة ، وغير صحيحة .

وهناك قاعدة زمنية أخرى اتبعها ثيوفانيس خلال كتابة حوليته، فكانت على النحو التالي : كان هناك خمسة عشرة سنة دورية لجمع الضرائب ، وقد كانت مفروضة بذلك الشكل قبل وقت ثيوفانيس ، وبعد ذلك في خلال الفترة الي عاشها بقيت تلك الدورة لتصبح الطريقة البيزنطية المتبعة لحساب الوقت . وكان شيئا عاما لأي مؤرخ أن يورخ لما حدث في سنة أن يقول : حدث كذا وكذا في السنة ، مثلا السادسة من الدائرة الظاهرة والتي كانت تخص الـ Sixth In-diction. ويقصد بها فترة خمسة عشر دورية .

وقد حاول المؤرخ اوستروجورسكي أن يقدم تحليلا للتوفيق بين استعمال ثيوفانيس لسنة بدء الخليقة Annus Mundi والتأريخ بدورة السنة الخمسعشرية Indiction وذلك بأن قام بمقارنة القوائم الواردة لدى ثيوفانيس والمحتوية على تواريخ وفاة الأباطرة الرومان في القرنين السابع والثامن مع مصادر أخرى، كما قام بنفس العمل بالنسبة لقوائم الخلفاء العرب، وقارنها مع المصادر الإسلامية : وقد وجد اوستروجورسكي أن ماورد من تواريخ عند ثيوفانيس بالنسبة إلى Indiction Cycle كان دقيقاً، ولكن بالنسبة لمعظم ما جاء في القرنين السابع والثامن فإن الـ Annus mundi بها متأخرة عن تلك التي وردت في الـ Indiction Cycle وقد بدء التناقض مع سنة ٦١٠٢ Annus Mundi والتي يجب أن تكونه ٦٠٩/٦١٠م . ويستمر كذلك حتى سنة ٦٢٦٥ A.M والتي يجب أن تكون ٧٧٢/٧٧٣م ولكنها في الواقع ٧٧٣/٧٧٤م باستثناء الفترة ٦٢٠٧-٧٢١٨ الموافق ٧١٤/٧١٥ - ٧٢٥/٧٢٦ حيث أن أخطاء ثيوفانيس تصحح نفسها بنفسها . ويجب ملاحظة أن خطة اوستروجورسكي لم تكن مضبوطة تماما .

والجدير بالملاحظة أن حولية ثيوفانيس لم تستخدم كمصدر للمعلومات فقط بل كنموذج لكتابات الحوليات أيضا .

ولقد ترجم حولية ثيوفانيس من اليونانية إلى اللاتينية أحد أمناء المكتبة البابوية واسمه انستاسيوس Anastasius وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي .

أما بالنسبة للترجمة الإنجليزية فقد غطت الفترة الزمنية من ٦٠٢ إلى ٨١٣ وهي الفترة التي يعتبر فيها ثيوفانيس المصدر التاريخي الرئيسي القيم[٢٠]، وقد اعتمدت الترجمة الإنجليزية على نسخة الحولية التي نشرها مع التعليق .

C . de Boor (Leipzig , 2 Vol . 1883/1885)

أما نحن فقد اعتمدنا على نسخة الحولية اليونانية المنشورة في مجموعة الـ Patrologia Graeca وعلى الترجمة الإنجليزية .

The chronicle of Theophaneanes, An English Translation by Harry Turtledove

ولم يقتصر اهتمام ثيوفانيس على الأحوال الداخلية للأمبراطورية البيزنطية، بل اهتم أيضا بما يدور على الساحة العربية وقام بتدوينه،

---

(٢٠) لمزيد من التفاصيل، أنظر : Theophanes , Ibid , P . Xviii.

ويعتبر لطفي عبدالوهاب حولية ثيوفانيس مصدرا بيزنطياً عن بلاد الشام في العصر الأموي[٢١]. ونحن لا نتفق مع الكاتب في اطلاق كلمة مصدر تاريخي عن بلاد الشام وذلك لعدة أسباب على رأسها آولا: عدم إلمامه بمعرفة أسماء القواد المسلمين ، وعندما يذكر أو يشير إليهم فهو يشير إليهم بالاسم الأول فقط ،ثانيا بالنسبة للاحداث فهو يذكرها بشكل عام ومعلوماته ليست دقيقة وعلى سبيل المثال اشارته في أحداث سنة ٦٨٩م يذكر ثيوفانيس أن عبدالملك ، الخليفة الأموي ، أرسل شقيق معاوية زياد الي فارس لمحاربة مختار الثائر الكذاب، ولكن مختار قتله ، وعندما سمع عبدالملك ذهب بنفسه إلى العراق ، ولكن سعيد ثار ضده، ورجع عبدالملك وأقنع سعيد بفتح دمشق ثم قتله بعد ذلك[٢٢].

ففي هذه الرواية نجد أن ثيوفانيس يذكر الأحداث بغموض ولا يذكر مسببات الأحداث فما بالك بالتحليل والتعليق . فهو لا يخبرنا من هو سعيد ؟ وماذا كانت مطالبه ؟ وكيف أقنعه عبدالملك بفتح دمشق ؟ ثم كيف قتله ؟ .

ومثال أخر من أحداث سنة ٦٨٤ حيث يذكر أن يزيد قد مات . والإشارة إلى الاسم الأول دون ذكر اللقب أو المركز . ومما هو جدير بالذكر أن ثيوفانيس لخص في أحداث سنة ٦٨٤م في العالم الإسلامي ، ما جرى من أحداث على مدار إحدى وعشرون عاما كما ذكر هو . يضاف إلى ذلك اشارته العدائية للمسلمين وبشكل صريح وذلك عندما يذكر في أحداث سنة ٦٣١م وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والذي يصفه بالكذب والادعاء . وفي نفس الوقت ينشر افتراء اليهود الفاضح على الإسلام والمسلمين وذلك بالرغم من أنه مسيحي متدين . وبالرغم من عداء المسيحيين لليهود إلا انه يصدق إفتراءهم على الرسول حيث يقول في هذا الصدد عندما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم كان اليهود منقادين إليه وظنوا أنه النبي المرتقب ، لذلك فإن بعض قادة اليهود قَبلَ ديانة محمد صلى الله عليه وسلم وتخلوا عن ديانة موسى ، ولكن عندما رأوه يأكل لحم الجمل ، والجمل وحشي غير نظيف في قائمة الأطعمة اليهودية، فعرفوا أنه ليس ذلك الرجل الذين فكروا فيه وأصبحوا في حيرة ماذا يفعلون ؟ لأنهم خافوا أن يرتدوا عن دينه[٢٣].

---

(٢١) لطفي عبدالوهاب ، حولية ثيوفانيس : مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام . المجلد الأول، عمان ،١٩٨٩م، ص ١١ ومايليها .

(٢٢) .Theophanes , Ibid , 364

(٢٣) جوزيف نسيم يوسف . الإسلام والمسيحية، الأسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٢.
أيضا : .Theophanes , Ibid , 3

نرى من سرد أحداث هذه السنة أن ثيوفانيس أخطأ في ذكر سنة وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو سنة ٦٣٢ وليست ٦٣١، ثانيا كذبه وإفترائه الواضح على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما تدل على عدم معرفته بأحوال المسلمين وعدم تحري الدقة في معلوماته . ثالثا عندما يذكر الاشتباكات بين البيزنطيين وبين المسلمين لا يسجل تفاصيلها مما قد لفت نظر شارل أومان Ch ,Oman الذي قال : أن المؤرخين البيزنطيين كانوا يكرهون فكرة سرد هذه الأحداث بسبب الهزائم المريرة التي لحقت بهم(٢٤) .

وخلاصة القول أن ثيوفانيس ليس دقيقا في معلوماته وأنه من الممكن أن نصف حوليته بالتداخل والأضطراب Confused، خصوصا عند إشارته إلى العالم الإسلامي . ومن الصعب الاعتماد علي ثيوفانيس كمصدر يستقى منه معلومات عن أحداث العالم الإسلامي في تلك الفترة.

ويأتي بعد ثيوفانيس في الأهمية المؤرخ نيكفورس Nicephorus وقد شغل منصب بطريرك لكنيسة القسطنطينية منذ عام ٨٠٦ وحتى عام ٨١٥م، كتب عددا من المؤلفات الدينية ، وتناول الفترة الزمنية منذ ٦٠٢ - ٧٦٩م واعتمد في أجزاء منه على مصدر غير معروف مثل ثيوفانيس . ويؤخذ على نيكفورس أن كتاباته غير تفصيلية .

وثمة حولية أخرى لجورج موناكوس المعروف Georgius Monachos، George monachii, تتناول الأحداث منذ بدء الخليقة وتنتهي عام ٨٤٣م . هذا بالاضافة إلى مجموعة من الحوليات البيزنطية المتأخرة والتي اعتمدت على الحوليات المبكرة مثل حولية ثيوفانيس وهي :

حولية كيدرينوس Cedrenus وتبدأ الأحداث منذ بدء الخليقة وحتى عام ١٠٥٧ وحولية موناسيس constantinus Monasses والتي تتناول الفترة التاريخية منذ بدء الخليقة وحتي سنة ١٠٨١م . وأخيرا حولية زوناروس Zo-naros التي تبدأ منذ بدء الخليقة وتنتهي ١١١٨م. هذا من ناحية الحوليات البيزنطية التي تمدنا بسرد الأحداث التاريخية .

وتوجد إلى جانب هذه الحوليات مصادر بيزنطية أخرى ممثلة في المعاهدات العسكرية وقوائم المدن والقوانين وغيرها من المصادر الهامة التي تنير للباحث دربه وخصوصا في دراسة النواحي الإدارية من مدنية وعسكرية . ومن

(٢٤) Ch , Oman , The Byzantine Empire (London , 1892) P . 162.

ومن الكتابات البيزنطية الهامة في استراتيجية الحروب وتكتيكاتها كتاب الـ Maurikos, Strategikon, Des Strategikon Maurikos, وهذا الكتاب معروف أنه ينسب إلى الأمبراطور موريس. ولكن هناك شكوك تدور حول مؤلفه[٢٥] فهذا الكتاب عرف ايضا باسم Strategikon Taktika DesMaurikos, ولكنه اشتهر في معظم المخطوطات باسم موريس، وهو عمل يهدف إلى إشباع متطلبات الموظفين العسكريين من الطبقة الوسطى. وكتب بلغة يمكن فهمها. ومن الواضح أن المؤلف رجل صاحب معرفة عسكرية وأنه قام بقيادة الجيوش على جبهتين على أقل تقدير. وقد استعمل لغة عامية بسيطة، ومصطلحات عسكرية، وحواشي واضحة ومتكاملة مفسرة بالرسوم البيانية ، وكما هو واضح فإن المؤلف عرف قوانين المناصب العسكرية ، وأشار إلي أمثلة من التاريخ . وباعتباره محاربا فقد كان ملما بالعدو وأساليبه في المعارك . وقد تبنى الكاتب تعبيرات لاتينية وجرمانية ، هذا بالإضافة إلى مصطلحات من لغات أخرى . وقد حوى الكتاب على تحليلات لأنماط مختلفة من الشعوب مثل الفرس والسلاف وغيرهم.

وقد أثير جدل حول تاريخ تأليف هذا الكتاب مثل الجدل الذي أثير حول مؤلفه ، ومن حيث التاريخ ، فهناك اتفاق بين الباحثين على أن تاريخ الكتاب هو سنة ٥٧٣م ، إتفاق يكاد يكون تاما وإن كان البعض يرجح بأنه كتب سنة ٦٢٨م وهي السنة التي عقد فيها سلام نهائي مع الفرس . وهناك من يجادل بأن الكتاب وضع في القرنين الثامن والتاسع ولكن هذا الجدل غير مقنع، حيث أن الكتاب لا يشير إلى المسلمين وهذا يعني أن الكتاب قد وضع قبل العقد الثالث من القرن السابع والتركيز على الأحاديث والأقوال الفارسية يرجح القول بأن تاريخ وضع الكتاب يعود إلى سنة ٦٢٨م . كما يستدل أيضا من أسماء أعداء الدولة البيزنطية الذين جاء ذكرهم بالأسم وهم الفرس واللمبارديون الذين ظهروا بعد سنة ٥٦٨م والأفار الذن سببوا متاعب لبيزنطة في العقد السابع من القرن السادس كذلك السلاف والـ Anteas الانتاى، الذين كانوا يقيمون في شمال **البحر الأسود** .

وقد ذكر الكتاب دس الفرس للسم في طعام الخيول . وفي هذا اشارة إلى

(٢٥) Cf . H . Hunger , Die Hochs Prachliche profacs Literature der byzantiner . Munche 1978 , 323 - 340.

الأوامر التي أصدرها خسرو الثاني ChorausII في سنة ٥٩١م بوضع السم في طعام الجيوش البيزنطية وخيولهم كما توجد إشارة إلى حصار العقبة في سنة ٥٨٣م . هذه الأحداث تشير إلى أن تاريخ تأليف هذا الكتاب يعود إلى تاريخ سابق لسنة ٥٩٢م .

ويبدأ مؤلف كتاب Strategikon ، ولأول مرة عند الكتاب المعاصر ، بالدعاء إلى الثالوث المقدس ، وأصدر موريس مرسوما بأن كل الوثائق الملكية يجب أن تبدأ بهذا الدعاء .

وهناك أبحاث حديثة أثبتت أنه كتب خلال عهد الأمبراطور هرقل ٦١٩ - ٦٢٨م[٢٦] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المؤلف ذكر الشعوب المختلفة المحيطة بالأمبراطورية البيزنطية وقد اهمل ذكر العرب إهمالا تاما . الأمر الذي يوحي بأن عرب الجزيرة لم يشكلوا في تفكير الرومان العسكري خطرا على الأمبراطورية ، وخاصة على بلاد الشام . وبالتالي لم يكن هناك ثمة حاجة إلى إفراد فصل في الكتابة عنهم .

ومن الكتب الهامة في النواحي الإدارية وخصوصا الإدارة العسكرية كتاب

Costantion Prophrogenitus , De Thematibus , ed . A . P ertusicstt . 160 Citta del vaticano 1952 , (London , 1911).

والكتاب عبارة عن عرض لجغرافية الأقاليم أو الثيمات الرومانية واحصائية حقيقية عن حجم سكان مدن تلك الثيمات وإدارة المدن وأقسام المدن، ويبدو أن هدفه من دراسة كل منطقة "ثيما" من تلك المناطق هو تفسير اسم المنطقة " الثيما " ، أو بعبارة أخرى عمل مقارنة بين اسم المنطقة القديم " الثيما " والاسم الجديد الذي أطلق عليها . ومن قائمة المدن التي أوردها نجد أن العنصر الغالب على كتاباته هو تغيير اسم المدن ، وقد أمدنا بأسماء سبع عشرة منطقة "ثيما" أسيوية ، واثنى عشرة منطقة "ثيما" أوربية وكان همه الأول هو دراسة الأسماء وتاريخها وكأنه يقوم بدراسة أصل الأسماء وتاريخها . ومثال ذلك كتابته عن ثيم الأناضول وثيم الأبسيق وثيم البكلار[٢٧]. لذلك اعتمد على هذا الكتاب كأحد المصادر الأساسية في دراسة الثيمات .

---

(٢٦) .G. Y. Moravsik, Byzantionoturrcica 2 Vols, Berlin, 1983 P. 418 - 419

(٢٧) Hunger , Herbert , Die Hochsprachiche Profane Literature Der Byzantiner in : Byzantinisches Handbuch , C .H . Beck , Sche Verlagsbuchhandlung, (Munchin 1978) PP. 532 FF.

وهناك كتاب آخر للأمبراطور قنسطنطين السابع وهو De cerimoniis وجزء من الكتاب الثاني المشار إليه (٥٢-٥٤) تضمن كتاب آخر هام هو The kletoro-logion of philotheos وهو عبارة عن مجموعة من المعاهدات . كما انه يهتم بالحملات العسكرية التي قادها الأباطرة شخصيا . أما الكتاب الثاني فيهتم بالـ Taktikon وواجب أو وظيفة مؤلف هذا الكتاب هو الاهتمام بالاحتفالات الرسمية الأمبراطورية واستقبال الزوار وترتيبهم حسب مراتبهم ، لذلك فلديه قائمة بالوزراء والموظفين الرسميين وأصحاب الرتب العليا الذين يحق لهم الضيافة في القصر . وتلك القوائم تسمى Kletorologin وكان يتسلم القوائم من وقت لآخر وذلك حسب التغيرات التي تحدث في المناصب والرتب. لذلك فإن Taktikon أو قائمة المراتب لها أهميتها في دراسة الادارة في الأمبراطورية سواء كانت مدنية أو عسكرية . وتوضح لنا أيضا التغييرات التي تطرأ على تلك المناصب . وقد اهتم المؤرخ بيوري بهذه القوائم وقام بنشرها تحت أسم : The Imperial Administrative System in the Ninthe Century With a Revised Text of The Kletoriologion of Philotheos

وهذا الكتاب لايزال واحدا من أهم الكتب التي يعتمد عليها عند البحث في الادارة في الأمبراطورية الرومانية سواء الادارة المدنية أو العسكرية هذا بالإضافة إلى الكتاب المعروف باسم إدارة الأمبراطورية De Administrando Imperio وهذا العنوان لم يضعه قنسطنطين لكتابه وإنما وضعه جون موريس John Mourice الذي نشر الكتاب لأول مرة عام ١٦١١م ، والتزم بهذه التسمية كل من تناول هذا الكتاب بعد ذلك . وفي عام ١٨٩٢مقام باحث هنجاري اسمه فاري R . vari بضبط النص اليوناني للكتاب وسلم النص للمؤرخ بيوري والذي قام بدوره بتسليمه إلى Jenkins الذي نشر النص اليوناني مع ترجمة باللغة الإنجليزية. Constantinus Porphyrogenittus, De Admistrando Imperio .

والذي قام بترجمته إلى اللغة العربية محمود سعيد عمران تحت اسم : إدارة الأمبراطورية البيزنطية للأمبراطور قنسطنطين السابع بورفيرو جينتوس . عرض وتحليل وتعليق - بيروت ١٩٨٠م .

ومن المصادر الهامة للأحوال الإدارية كتاب والي المدينة The Book of Pre-fect والمعروف في اليونانية باسم Eparchikon Biblion والذي وضعه الأمبراطور ليو السادس بين عامي ٩١١ - ٩١٢م واستند في تأليفه على ما

كان معروفا قبله من قوانين وعرف وتقاليد، غير أن هذا الكتاب في صورته الحالية تضمن نصوصا ترجع إلى عهد الأمبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩) والنص اليوناني لهذا الكتاب عثر عليه Nicol . J سنة ١٨٩٢م مخطوطا في جنيف فنشره سنة ١٨٩٣م بعنوان :

Le Livre du Prefect Ou I , Empereur Leon le Sage Sur les Corpor-tions de Costantinople.

كما جرى نشر الكتاب بترجمة إنجليزية بعنوان :

Roman law in later Roman Empire . Cambridge 1938 .

ونقل هذه الترجمة السيد الباز العريني إلى اللغة العربية بعنوان: **كتاب عن الحسبة في بيزنطة في القرن العاشر** الميلادي أو **كتاب والي المدينة**. ونشر في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ١٩، الجزء الأول، ١٩٥٥م.

وهذا الكتاب بَيّن تدخل الدولة في تنظيم العلاقات بين الجمهور وأرباب الحرف ، وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد. حيث ألزمت الأبناء بممارسة مهنة الآباء وجعلت أصحاب الحرف والصناعات ينتظمون في نقابات خاضعة لسلطان الدولة وتلك النقابات كانت معروفة باسم Collegia وكان والي المدينة مسئول عن الإشراف على الأسواق وتموين السكان بالقمح ومراقبة النقابات.

وكذلك نجد وصف المراتب الوظيفية الرسمية المدنية والعسكرية في كتاب Notitia Dignitatum والتي يعود تاريخها إلى النصف الأول من القرن الخامس والتي كانت تحتوي على قوائم المدن في تلك الفترة .

كما يمدنا جورج القبرصي Georgio Goetz Descriptio orbis Romani بقائمة عن الأقاليم والمناطق المدنية وبقائمة غير مكتملة للمدن التي كانت موجودة حوالي سنة ٦٠٠م .

والمصادر الوثائقية تتمثل في الدرجة الأولى في مجموعة أوراق البردي وهي نفسها تنقسم إلى عدد من الأقسام :

أوراق البردي :

The Greek Papyri in The British Museum Catalogue With Texts Vol. IV , ed . By : H . I . Bell , (oxford , 1910).

أيضا أوراق البردى العربية في المكتبة المصرية :

Arabic Papyri in The Egyptian Library , by : Adofs Grohmen By : Adolf Grohmann (Cairo 1934).

كتالوجات العملة :

Philip Grierson , Byzantine Coins , London , 1982.
Hugh Goodacre,A Handbook of The Byzantine Empire,(London1964)
P . D .Whitting , Byzantine Coins , (London , 1937).

كتالوجات الأختام :

G . Zacos , Byzantine Lead Seals Vol . II Berne , 1984.
1. 1 (nos 1 -= 1095) , 1.2 (nos 1096 - 2671).
1.3 (nos 2672 - 3231 , Basel 1972).

حيـــاة القديسين :

The Sermon of st . Anastasios The Sinaite.
Anastasii Sinaitae Opera.
Sermones Dvo in Constitvtionem Hominis.
Secundum Imaginem Dei.
Necron.
Opvscvla.
Adversvs Monotheletas.
Brepls - Turnhout (1985).
the Life of S . Theodore of Sykeon , Vie de theodore De Sykeon , - 2 Etable Par , Andre - Jean Festugiere 1970.

وهناك وثيقة باقية تشير إلى تكوين تنظيمات الثيمات الجديدة، وهذه الوثيقة رسالة كتبها الأمبراطور جستنيان الثاني سنة ٦٨٥م إلى البابا John يبلغه فيها قرارات المجمع الديني السادس سنة ٦٨٠م وهي محفوظة في كتاب:
J . Mansi , Sacrorum Conciliorumnora et Amplissima Collectio Cvinice , 1770, Vol II Cols . 753 - 541 .

أما المصادر الأساسية بالنسبة للقوانين والإدارة فتمثل في قوانين جستنيان بالنسبة للباب الأول، إذ توفرلدينا كتاب يتحدث عن "نظم القانون الروماني " للدكتور محمود سلام زناتي، وهو يتحدث عن القوانين الرومانية بصفة عامه منذ عصر الملكية وحتى عصر الأمبراطورية السفلى، الأمبراطورية المتأخرة .

والمصدر القانوني الثاني هو : مدونة جستنيان في الفقه الروماني " وهو

ترجمة لـ Institutes De Justinien ترجمها إلى اللغة العربية عبدالعزيز فهمي - ونشرها، عالم الكتب في بيروت .
كما وقفنا على الترجمة الإنجليزية لنفس الكتاب وهي:

The Institutes of Justinien.

Text , translation and Commentary.

By : Jac Thomas , Oxford , 1975 .

هذا بالإضافة إلى قانون الفلاح The Farmer's, law.

Nomos Georgikos , 1951

والذي قام بنشره Ashburner والتعليق عليه مع ترجمة إنجليزية وقد نشر في مقالتين الأولى W . Ashburner , The Farmers Law , J . H . S . 30 . (1910) 58 - 108

والمقالة الثانية J . H . S . 32 (1912) 68 - 95 .

وحظي قانون الفلاح Nomos Georgikos باهتمام خاص وكان محور عدد من الدراسات على رأسها دراسة
Dolger , Nomos Georgikos P . 48

قانون الفلاح The farmar' s Law

Translated by W . A Shburner , Shburner , Journal of Hellenic Studies , PP. 78. F 32. 1912

وأيضا قام بترجمتة .E . H . Freshfield , Manual of Later Roman Law (Cambridge 1927)

وهو يصور مجتمع قرية تتكون من صغار الملاك الأحرار ، وهم الطبقة التي قوي مركزها نتيجة السياسة التي درجت عليها الأمبراطورية منذ القرن السابع . والتي قامت على أساس منح الأراضي مقابل الخدمة العسكرية بحيث تنتقل الهبة من الأب إلى أكبر البناء.

وقد تضمن القانون العقوبات والقواعد لمواجهة كل الأمور التي تطرأ على مجتمع القرية .

بينما يذكر زكريا :

Zacharia Von Limgenthal , Historiae Juris Graeco Romani P 32

أنه جمع جزئيا من العادات والأعراف المحلية Local Custom وجزئيا من قوانين

جستنيان .

أماشخصية مؤلف هذا القانون فهو محل خلاف . قام بتكليف رسمي أم انه اجتهاد شخصي .

وأهمية قانون الفلاح لا تقتصر على حدود الأمبراطورية البيزنطية ولكنها امتدت إلى عالم السلاف حيث ترجم إلى اللغة السلافية وأصبح له تأثير واضح على التطورات القانونية في جنوب وشرق المناطق السلافية . وفي صربيا كون جزءا هاما من مؤلف عرف باسم : The Law Of Tzar Justinian

أنظر: Ostrogorsky , The Byzantine State P . 91

أما قانون البحر الروديسي : Rhodiasea Rhodian sea Law.

أو Maritime Law والذي قام بترجمته E . T . Freshfild.

A Manual of later Raman Law (Cambridg 1927) P . 206 .

وهو مجموعة من النظم التي وضعت من أجل سفن صغار التجار تصف الترتيبات الخاصة بالبحارة والمسافرين . فقد كان مسموحا ، على سبيل المثال لكل راكب بمساحة معينة ، فالمسافر الذكر له ثلاثة أضعاف المساحة التي تحتلها المرأة ، وكان قانون البحر هذا يحرم قطع الأخشاب على السفن أو قلي السمك ، ومن أهم سمات القانون البحري الرودوسي نظامه الخاص بالتعويض المتبادل والتأمين . وهو يتضمن بعض مباديء التأمين البحري في العصر الحديث .

ثانيا المصادر الأرمنية :

والمصدر الأرمني الأول هو مؤلف المطران الأرمني سبيوس

Sebeos , Histioire D, Heraclius Par L, eveque Sebeos Translated By F . Macler , Paris 1904 .

وما يعرف عن هذا المؤلف ، صاحب تاريخ حروب هرقل من معلومات وما يتعلق بحياته قليلة وكلما عرف عنه انه كان من رجال الدين " مطران " وقد عاش في القرن السابع الميلادي . ويرجح أنه كتب مؤلفه خلال الربع الأخير من هذا القرن وبذلك يكون شاهد عيان لأحداث ذلك العصر فهو يكتب ماشاهد بعينه أو ماسمع من شهود عيان ، وامتاز أسلوبه بالبساطة والسهولة والوضوح من غير أن يتطرق في كتاباته إلي النقد أو التحليل ولم يتعرض إلى بعض الموضوعات الهامة مثل الفنون الحربية والتكتيك العسكري .

وتكمن أهمية كتاباته في أنها تكشف الجانب الأرمني والدور الذي لعبه الأرمن في الحرب إلى جانب الفرس من جهة والروم من جهة أخرى خلال فترة الفتوح الإسلامية . الشيء الذي يلقي الضوء على مسائل تاريخية لم توضحها لا المصادر الإسلامية ولا البيزنطية مثل المعارك التي حدثت بين العرب والروم عند فتح العرب لأرمينية، وقد زودنا سبيوس بتفاصيل الحملة الضخمة بقيادة الأمبراطور قنسطاتز لاستعادة أرمينية والتي ألقت الضوء على الأسباب الحقيقية لمعركة ذات الصواري .

ومما هو جدير بالملاحظة أن سبيوس انفرد دون غيره من المؤرخين الأرمن أو المسلمين بذكر الإتفاقية المبرمة بين الأرمن ومعاوية وأورد النص الكامل للإتفاقية .

والمؤرخ الأرمني الثاني هو جيفوند :

Ghevond , Histoire de Guerres et Conquetes des Arabes en Armenie . trans , by V . Chadnazurian , Paris , 1956.

يتناول بصفة عامة حروب المسلمين في أرمينيا . وهو تكملة لحولية سبيوس Sebeos وتوقف عن سرد الأحداث عند سنة ٧٨٨م ويعتبر واحدا من المصادر الأرمنية الهامة بالنسبة لموضوع هذا الكتاب .

وقد قام بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية وتقديمه والتعليق عليه فايز نجيب اسكندر باسم الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م) الجزء الأول سنة ١٩٨٣ م .

المصادر السريانية :

يأتي على رأسها يوحنا الأفسوسي John of Ephesus والذي أجاد السريانية واليونانية، الذي أرخ للكنيسة في ثلاث مجلدات . ويقص المجلدان الأول والثاني حوادث التاريخ منذ عهد قيصر وحتي سنة ٥٧١م . وتكمن أهمية كتاباته في إلقاء الضوء على الأحوال السائدة بين عامي ٥٧١ - ٥٨٥م وهو شاهد عيان لتلك الفترة التي استطعنا تلمس بعض أخبارها من خلال كتاباته الدينية عن المنوفوزيين واتجاهاتهم القومية في تلك الفترة . وعن الأحوال الاقتصادية السائدة في تلك الفترة.

يوحنا الدمشقي :

عاش بين سنتي ٦٧٥ - ٧٤٩م ، ٥٥ - ١٣١هـ وهو حفيد منصور بن

سرجيون الذي تولى منصب المشرف المالي لمدينة دمشق أواخر العصر البيزنطي. ونصب معاوية بن أبي سفيان والد يوحنا على إدارة الشئون المالية . وقد خلف يوحنا أباه كذلك في إدارة مالية دمشق . وظل هذا المنصب حكرا على أسرة سرجيون حتى عهد الوليد بن عبد الملك وتعريب الدواوين.

ومن الجدير بالملاحظة أن يوحنا الدمشقي وضع عددا من المؤلفات الدينية . ولم يكتب حرفا واحدا عن إدارة الشئون المالية ولو فعل لكان مصدرا من أثمن المصادر التي تتحدث بشكل مباشر عن الإدارة المالية في العصر البيزنطي في بلاد الشام، والعصر الأموي . ولكن ميوله كانت دينية بحتة، وربما يعود ذلك إلى تأثره بالجو الديني في بلاط الخليفة المسلم . حيث كان يوحنا إلى جانب منصبه الإداري صديق يزيد بن معاوية.

وقد كان يوحنا يتحدث باللغة العربية والسريانية واليونانية وله مخطوطات عربية محفوظة في مكتبة دير سانت كاترين بسيناء. في شكل ميكروفيلم محفوظ بالمراقبة الفنية في كلية الآداب - جامعة الأسكندرية، ولمخطوطاته أهمية كبيرة خاصة من ناحية المعتقدات الدينية الشرقية . والتي يشرح فيها يوحنا وجهة الخلاف بينها وبين المعتقدات الأخرى السائدة في الأمبراطورية . وقد استطعنا الحصول على نسخة من تلك المخطوطات من جامعة الأسكندرية ولها أيضا أهمية خاصة عن الجدل الديني المسيحي.

ومن المصادر السريانية الهامة حولية ميكائيل السرياني

Michael le syrien , Chronigue de michael le Syrien . ed . and Trans . by J . B . chabot Paris , 1905 .

ولهذه الحولية ، ترجمة عربية باسم :

ميخائيل السوري : تاريخ - ميخائيل السوري الكبير ، ترجمة يوحنا شقير العيدوي . ١٧٥٩م مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٤٤٠٢ . ولم أتمكن من الإطلاع عليها فأعتمدت على الترجمة الفرنسية . وثمة مصدر سرياني آخر يتمثل في: حولية ابن العبري:

Bar Hebraeus , The Chronographia of Abul - Farag Gregory , ed . and trans . by : E . A . Wallis Budge , London 1932 .

وهو جريجوريوس أبو الفرج، كان رجل دين وطبيب ومؤرخ وآخر القدماء من مؤلفي السريان (١٢٢٦ - ١٢٨٦م) كان أبوه طبيبا يهوديا اعتنق النصرانية،

ومن ثم جاء لقبه الذي اشتهر به، كما جاء علمه باللغة العبرية. وقد أجاد كل من العبرية والسريانية واللغة العربية . ولقد ألف كتابا في التاريخ العام السياسي منذ بدء الخليقة وحتى أيامه. وأعد قبيل وفاته ترجمة عربية مختصرة للجزء الأول من تاريخه العام وأضاف إلى الترجمة زيادات أخرى عن المؤلفات الطبية والرياضية عند العرب وعنوانه : «مختصر تاريخ الدول».

ولقد اعتمدنا على الترجمة الإنجليزية، وإن كان قد اهتم بملوك العرب أكثر من اهتمامه بملوك أو أباطرة الروم حيث جاءت كتاباته عنهم مختصرة إلى حد كبير .

مصادر قبطية :

تحت هذا العنوان لم أتمكن من العثور إلا على مصدر واحد هو :

John of Nikiou, The chronicle of John of Nikiou (690 - A . D).
Coptic Bishop of Nikiou. Trans. by. R . H . Charles, (London , 1916).

وهو من المصادر التاريخية الهامة المعاصرة للفترة التاريخية المتأخرة من القرن السادس والمبكرة من القرن السابع .

المصادر اللاتينية :

Gregory of Tours ,The history of The Fraks Trans , by Lewis Thope (1974) Penguis

ومن أهم المصادر اللاتينية كتاب جريجوري التوري (٥٣٩ - ٥٩٤م) واسمه جورجيوس ملورنتيوس «مؤرخ دولة الفرنجة». ولد في بلدة Arverni وهي كليرمونت الحالية، من أسرة نبيلة ينتمي أعضاؤها إلى مجلس الشيوخ. وفي سنة ٥٦٣م انتقل إلى مدينة تور. وهناك ذاعت شهرته كرجل دين تقي واختير أسقفا لمدينة تور سنة ٥٧٣م.

وينقسم كتابه إلى ثلاثة أقسام . عالج فيها تاريخ العالم منذ البداية حتى العصر الذي عاش فيه . اعتمد في الأجزاء الأولى من كتابه على كتابات السابقين مثل كتابات القديس جيروم . غير أن أهم أجزاء كتابه هي تلك التي يعالج فيها تاريخ الفرنجة (٣٩٧ - ٥١١م) والتي اعتمد فيها علي كتابات سوليكيوس والأجزاء الباقية تعتمد على مشاهداته الذاتية لأحداث عصره حتى ٥٩١م وهي تسجيل ليومياته وانطباعاته الخاصة، وقد اهتم فيها بأحداث سنة الجزء الشرقي من الأمبراطورية خصوصا في الفترة الأخيرة من القرن السادس.

المصادر الإسلامية :

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) ، تاريخ خليفة بن خياط :

ترجع أهمية كتابه في اعتباره أقدم كتاب لتاريخ الإسلام مرتب على طريقة الحوليات . وربما كان النموذج الذي سار على نمطه الطبري وكان مصدر معلومات للمؤرخين من بعده . كما أنه قدم معلومات في بعض الأحداث لا توجد لدى غيره مثل أخباره عن شمال إفريقيا . وطريقته في رواية التاريخ متأثرة بصفته محدث يهتم بالاسناد .

ومن الجدير بالملاحظة أنه يعتمد على رواية ابن الكلبي في الحديث عن الشواتي والصوائف ويقول على سبيل المثال " فيها " يقصد السنة ، شتى مالك بن عبدالله بأرض الروم " أو " أغار الحصين بن نمير على صائفة الروم " ولكنه لايحدد أي جهة من جهات أراضي الروم ولا اسم المنطقة ولا يذكر أي مقاومة أو رد فعل من جانب الروم " ولكنه بعد تولية الخليفة عبدالملك بن مروان يبدأ في تحديد الأماكن . فنجده يذكر : قال بن الكلبي : وفيها غزا محمد بن مروان الصائفة عند خروج الروم إلى العمق من ناحية مرعشى (ص ٢٧٢).

ابن عبدالحكم : (١٨٧ - ٢٥٧هـ) أهم مؤلفاته : فتوح مصر وأخبارها .

يعتبر واحدا من أفضل المصادر الإسلامية فيما تضمن من معلومات. ويعتبر كدراسة شبه قانونية (فقهية) Quasi - Jusidica يتلمس فيها الكاتب أمثلة من التواريخ لتوضيح نقاط قانونية . وبذلك يكون قد زودنا بأكثر الخطوط التاريخية العامة . وربما يعود ذلك إلى ثقافته التي عكست تطورا وتميزا خاصا لكتاباته.

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩/ ٨٩٢)

أهم مؤلفاته : كتاب فتوح البلدان وكتاب أنساب الأشراف. وقد اعتمدنا في كتابنا هذا على كتابه فتوح البلدان الذي يعتبر سجلاً شاملا للفتوح الإسلامية. وقد فصل فيه فتوح كل بلد وكل مايتعلق به نقلا عن أهل البلد أنفسهم وكتبهم . ويقدم قصه متسلسلة لفتح كل منطقة وبعض المعلومات الواردة لديه استطاع جمعها من خلال زيارته لبعض المناطق . وطريقته في الكتابة تدل على انه ينتقي مادته وانه يعطي صورة متزنه للحوادث مع تجنبايراد روايات متعددة حول

الحادث الواحد، وقد أورد في كتابه فتوح البلدن كثيرا من المعلومات القيمة عن النواحي الثقافية والاقتصادية والإدارية. والفتوح التي اهتم بذكرها الجزيرة العربية، ثم الشام، وقبرص والجزيرة الفراتية والثغور وأرمينيا ومصر والمغرب وجزر البحر المتوسط والأندلس .....

ويكفي كتاب فتوح البلدان مديحا ماقاله عنه المسعودي في مقدمة كتابه "مروج الذهب : (لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه)"

وقد اهتم البلاذري بالأمور التالية :

١ - انصب اهتمامه بالدرجة الأولى على الفتوحات الإسلامية بصفة عامة . ولم يهمل ماجاء في المشرق والمغرب على حد سواء. وتحدث عن تلك الفتوحات بالتفصيل إلى حد ما.

٢ - إهتم بذكر تعريب الدواوين بعد أن كانت تدار باللغتين الأغريقية والفارسية وذكر أن ذلك كان في سنة ٨١ على عهد عبدالملك بن مروان وانفرد بذكر السبب في ذلك "أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال في الدواه، فبلغ ذلك عبدالملك فأدبه، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان[٢٨] .

٣ - ربط فتوح مصر بالمغرب.

٤ - إهتم بموضوع " القراطيس " وهي أوراق البردى التي كانت تستوردها بيزنطة من مصر. وذكر ملابسات الموضوع بالتفصيل.

٥ - إهتم بصفة خاصة بخلافة عمر بن الخطاب.

٦ - نجد انه يفرد صفحات لأخبار الأقوام التي ناوءت المسلمين أمثال الأساورة والزط وكذلك الجراجمة الذين كانوا موالين للأمبراطورية البيزنطية .

٧ - إهتم بموضوع النقود وأفرد له صفحات في كتابه .ولو أنه قد تحدث عن موضوع ضرب الدنانير في عهد عبدالملك بن مروان حينما تحدث عن موضوع القراطيس. ولكنه يعود ليتحدث عن استعمال المسلمين للنقود البيزنطية والفارسية وبداية ضربهم للنقود بصفة عامة.

٨ - إهتم بأمر تعلم الكتابة وكتب نبذة عن تاريخ الخط العربي وأشهر من كتبوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٩ - إهتم بموضوع الختم الرسمي الذي تختم به الرسائل الرسمية وذكر أن دواوين

(٢٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩٦ - ١٩٧.

الشام كانت تكتب في قراطيس وكذلك الكتب إلى ملوك بني أمية في حمل المال والخراج وغيره .

١٠- بصفة عامة أهتم البلاذري بالكثير من الأمور الحضارية التي ربما لم يلق إليها بالا غيره من المؤرخين أمثال اليعقوبي والطبري .

اليعقوبي : أحمد بن اسحق بن جعفر (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٥م)

من أهم مؤلفاته كتاب تاريخ اليعقوبي وهو عبارة عن موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ بداية الخليقة حتى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م وتناول الكتاب التاريخ العالمي إلى جانب تاريخ الأنبياء وتاريخ الفرس والجاهلية، هذا بالإضافة إلى تواريخ الأمم الأخرى القديمة من أشورية وبابلية وهندية ويونانية ورومانية ......إلخ . فهو من هذه الزاوية تاريخ عالمي حقيقي . وقد اهتم في كتاباته بالجانب الحضاري أكثر من اهتمامه بالجانب السياسي . وقد عكس في مادته لونا من ألوان امتزاج الثقافات في عصره .

وقد تميز اليعقوبي بذكر التقاويم الفارسية والرومية وذكر تفاصيل فلكية في مطلع كل عهد. وسجل في ختام كل عهد أسماء الرجال الذين شاركوا في السلطة وإدارة الدولة.

مصادر اليعقوبي :

مصادر تعددة تعكس انتباها بارعا " للمنهج التاريخي " فهو في قسم التاريخ القديم يرجع إلى المصادر الأصلية ....الكتاب المقدس ... وحين تحدث عن التاريخ الإيراني لا ينسى أن ينبه أن مادته أسطورية لا يوثق بها . ويأخذ عن المصادر اليونانية المترجمة حين يكتب عن الثقافة اليونانية . أما في القسم الإسلامي فقد ذكر مصادره في مقدمة القسم واتبع فيها نهجا انتقائيا لأنه رأى أن مارواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والأخبار والتاريخ متباين ، فقد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم في السنين والأعمار ولذلك أخذ منهم بأجمع المقالات والوايات . ومصادره متنوعة علويه وعباسية ومدنية (الواقدي وابن اسحق وعراقية " عن المدائن والهيثم بن عدي " والنسب عن ابن الكلبي والفلك الخوارزمي والحاسب).

أسلوبه ومنهجه في العرض :

أهمل الأسانيد . وقلما يذكر المصدر لأنه اكتفى بذكر مصادره الأساسية في مطلع البحث ولكنه حين يقترب من عصره يذكر بين حين وآخر مصادره الشفوية

والأشخاص الذين زودوه بالمعلومات.

اتبع في عرض مادته تسلسل العهود خليفة بعد خليفة واتبع في عهد كل خليفة توالي السنين جامعا بين أسلوبي العهود والحوليات. وأكثر من ايراد الرسائل والخطب كنصوص سياسية ووثائق. ويأتي بمعلومات ينفرد بها، وايجازه في التاريخ كشف عن براعة محدودة سواء في اختيار الأعمال الهامة والأساسية لكل خليفة ، وإعطاء التفسيرات التاريخية الواضحة للأحداث وقد كشف في اهتمامه بالأمور الأخلاقية عن مفهوم أراد أن يبين أن غاية التاريخ التربية والعبرة. أما ميوله فهو علوي وذلك واضحا حين يتحدث عن الخلفاء الراشدين والأمويين. وهو كثير الاسهاب في ايراد أقوال الأئمة وخطبهم وسيرهم عند ذكر وفياتهم، وتاريخ اليعقوبي له أهمية خاصة بين المؤرخات الإسلامية لأنه خطوة في تطوير التدوين التاريخي وأول تاريخ عالمي بمعنى العالمية العلمية(٢٩) .

أهمية اليعقوبي بالنسبة للكتاب تتلخص في النقاط التالية :

١ - ايراده لحوال الدولة الأموية في عصر كل خليفة . انفراده بذكر بعض الصوائف التي أغفلتها المصادر العربية الأخرى بل واحصاء جميع الشواتي والصوائف خصوصا تلك التي قام بها معاوية .

٢ - انفراده بذكر أن معاوية دفع الجزية للروم سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م وعقد هدنة معهم .

٣ - انفراده بذكر بعض الأغارات البيزنطية المضادة على سواحل الشام .

٤ - أشار إلى الحملة الإسلامية الكبرى على القسطنطينية .

٥ - ينفرد اليعقوبي بذكر أن معاوية أول من صالح الروم. في سنة ٤٢٠ فلما استقام الأمر لمعاوية أغزى أمراء الشام على الصوائف .

٦ - ينفرد اليعقوبي أيضا بذكر مقدار المبلغ الذي صالح عليه الروم وهو مائة ألف دينار(٣٠) .

٧ - ركز على موضوع الشواتي والصوائف ، ولكنها من الأمور التي حدثت بالمشرق وأحصا عدد الشواتي والصوائف والسنوات التي حدثت ومن قام بكل صائفة وشاتية من القواد المسلمين(٣١) .

---

(٢٩) شاكر مصطفي : التاريخ العربي والمورخون، ج ١، ص ٢٤٩ - ٢٥٣ .
أنظر اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٧.

(٣٠) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج ٢، ص ٢١٧ .

(٣١) اليعقوبي، نفس المصدر ، ج ٢، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

٨ - إهتم بموضوع خراج الأمصار وذكر خراج كل مصر من الأمصار على حدة . وأنفرد بذكر أن مصر والمغرب كانتا طعمة لعمرو بن العاص بعد وفاته فكان أول من استصفى مال عامل(٣٢) .

٩ - موضوع غزوات المغرب الإسلامي أوجزها في عدة أسطر ولم يعطها حقها من الاهتمام(٣٣) .

١٠- يبدي معرفة بالأقوام الأخرى مثل ذكره أن ملوك الأندلس هم القوط " ولو أنه لم يحدد (ما إذا كانوا القوط الغربيون أو الشرقيون) بينما تشير غيره من المصادر العربية إلى القوط بكلمة الفرنجة أو الروم ولكن لا تحدد الأجناس(٣٤).

١١- إهتم بذكر بعض الأمور التي إمتاز بها كل حاكم فمثلا يذكر في عهد الوليد بن عبدالملك أنه أول من عمل البيمارستانات للمرضي ودار الضيافة وأول من أجرى طعام شهر رمضان في المساجد(٣٥).

١٢- لم يهتم بالإنجازات الحضارية التي أنجزها بعض الخلفاء مثل ماقام به الوليد بن عبدالملك من إنشاءات معمارية، اللهم إلا إصلاحات الحرمين .

١٣- لم يهتم بالأمور الاقتصادية ولا التغييرات الهامة في ضرب النقود على عهد عبدالملك بن مروان ولقد أغفلها اليعقوبي وهي من أهم وأبرز النقاط في خلافة عبدالملك بن مروان .

١٤- لم يهتم بذكر الحرب بين الروم والمسلمين " حرب الدنانير والقراطيس " .

١٥- لم يهتم بأمر تعريب الدواوين التي نقلت إلى اللغة العربية .

الطبري : أبو جعفر .

محمد بن جرير (٢٥/ ٨٤٠ - ٣١٠/ ٩٢٢) درس في عمل من أعمال طبرستان ثم في الري وتتلمذ على يد الرازي والدولابي وكتب عن ابن حميد أكثر من مائة ألف حديث. ورحل إلى بغداد ثم إلى البصرة وأقام بواسط ثم بالكوفة وكتب عن محمد بن العلاء الهمداني مائة ألف حديث ثم عاد إلى بغداد ثم إلى الشام ثم مصر سنة ٢٥٣ . وكانت كل رحلاته في طلب العلم حتى انتهت إليه الرئاسة في التفسير والفقه والتاريخ . وقد بلغ علمه بالروايات الفقهية منزلة لا تبارى. والطبري طالب علم دائم لا يعرف التعب ، وانعكس ذلك على مادته العلمية والتاريخية ، بقي أربعين سنة يكتب كل يوم ورقة . وما من شك

(٣٢) اليعقوبي، نفس المصدر، ج٢، ص ٢٢١ - ٢٢٢. (٣٣) اليعقوبي، نفس المصدر، ج٢، ص ٢٢٩.

(٣٤) اليعقوبي، نفس المصدر، ج٢، ص ٢٨٥. (٣٥) اليعقوبي، نفس المصدر، ج٢، ص ٢٩٠.

أنه كان حديد الذاكرة في مادته وإن كان ضعيف الحفظ للشعر والأدب .

وكتاب التاريخ الذي كتبه الطبري هو أحد أشهر وأضخم كتابين في التراث العربي الإسلامي هما التفسير والتاريخ، وتاريخ الطبري يحمل اسم تاريخ الرسل والملوك ويسميه بعضهم تاريخ الأمم والملوك ، ويقسم هذا التاريخ إلي قسمين أساسيين: ماقبل الإسلام وما بعده. القسم الأول : فهو بحث في الخليقة والبدء وهبوط أدم وقصة هابيل وقابيل ثم عرض للأنبياء . وأرخ بعد ذلك للأمم فذكر تاريخ الفرس منذ عهده الأول . ثم تحدث عن بني إسرائيل . ثم ذكر ملوك الروم منذ نزول المسيحية وذكر فيه الأمم البائدة أمثال عاد وثمود . ثم ملوك اليمن ولم يتبع في هذا القسم ترتيب السنين ولكنه أورده على أساس المواضيع .

وفي القسم الثاني تناول التاريخ الإسلامي منذ عهد الرسول حتى سنة ٣٠٢ وفرغ من تأليف هذا القسم سنة ٣٠٣، ومصادر الطبري في كتابه واضحة لأنه سجلها في إسناد أخباره و أهمها :

١ - في تاريخ الرسل والأنبياء ، كتب التفسير والسيرة وابن اسحاق وكتب وهب بن منبه.

٢ - في تاريخ الفرس . الكتب المترجمة الفارسية وخصوصا كتابات ابن المقفع وهشام الكلبي .

٣ - في تاريخ اليهود . اعتمد على كتبهم وقصصهم التوراتية .

٤ - في تاريخ العرب قبل الإسلام : عبيد بن شربه ومحمد بن كعب القرطي ووهب بن منبه وهشام الكلبي وابن اسحاق.

٥ - أما في السيرة النبوية فمصادره : أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد وموسى بن عقبة وعاصم بن مروان وعمر بن الزهري وابن اسحاق.

٦ - حروب الردة والفتوح عن الأسدي والمدائني .

٧ - ومصادره في موقعتي الجمل وصفين أبو مخنف والمدائني وسيف بن عمر.

٨ - كما أخذ تاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم وأبي مخنف والمدائني والواقدي وهشام والكلبي .

٩ - في العهد العباسي : ابن أبي خيثمة وابن زهير والمدائني والواقدي والهيثم بن عدي .

وأهم الملاحظات حول تاريخ الطبري:

١ - أن المادة التاريخية التي أتى بها الطبري تعتبر أوثق مادة لأنه كمحدث

دقيق حاول انتقائها ونخلها قدر إمكانه وأوردها منصوص عن أصحابها الرواة الأولين .

٢ - كان همه موجها إلى التاريخ السياسي بصورة أساسية وإن ظهرت لديه بعض اللمحات الحضارية " خصوصا في الفترة السابقة للإسلام ولم يسجل إلا كل ما يختص بالأحداث والمشاكل السياسية.

أسلوب الطبري:

انعكس في تاريخ الطبري أثر ثقافته كمحدث وفقيه، فأسلوبه في التدوين على منهج أهل الحديث يلخص في التالي:

١ - التعويل على الروايات : " وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ماأحضرت ذكره فيه إنما هو مارويت من الأخبار التي أنا ذاكرها والأثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا " .

٢ - الحرص على السند، وإنما كان هذا الحرص نتيجة التعويل على الرواة . وقد تساهل الطبري في هذا السند في الأجزاء الأخيرة من الكتاب وخاصة فيما بين الجزء التاسع إلى الحادي عشر حتى ليندر أن يظهر في صفحات متواليات . وكان الطبري اذا انتقد اهتم بنقد السند أكثر من الاهتمام بالمعلومات المروية بعده . وبالرغم من أن الأسانيد كانت قد استقرت في عهده وإنه تحرى الثقاة من الرواة قدر استطاعته ولكنه أبقى على طريقة الأسناد هذه كاملة في كتابته . وقد شبه كتاب الطبري بمعدة التنين الضخم التي تجد جميع المواد فكأنها فيها دون دمج أو تمثيل بحيث يجعل منها مادة متجانسة ، وقيمة كتاب الطبري تكمن في أنه جمع مادة تاريخية ضائعة لم تبق إلا في كتابه ولا تكمن قيمة الكتاب في كتابة الطبري نفسه ، لأن الطبري لم يعط رأيه فيما قدم من معلومات . ولا تظهر شخصية الطبري إلا في اختيار المادة التاريخية وهو في الواقع اختيار راوي الرواية التاريخية وليس الرواية نفسها . أما من ناحية العرض فإن عرض الطبري كان متقطعا بسبب اهتمامه بإيراد العديد من الروايات.

٣ - من الأمور الظاهرة في كتابة الطبري الأكثار من ايراد النصوص الأدبية من خطابة ورسائل وحوار وشعر في مناسباتها التاريخية .

٤ - كان يختم عهد كل خليفة بالأخبار العامة عنه مما لايخضع للنظام الحولي كوصفه الجسماني وذكر أبنائه وأهل بيته ورجال عهده في مختلف المجالات .

٥ - اتبع في تنظيم مادته الطريقتين المعروفتين في كتابة التاريخ . ففي فترة ما قبل الإسلام أوردها على أساس المواضيع ، على الشكل المسمى Chronicles بينما نظم تاريخه الإسلامي على نظام الحوليات على السنين Annals .

أهم ما يؤخذ على الطبري :

١ - انعدام النقد عنده : وقف خارج الأحداث وخارج الروايات وألقى عهدة كل أمر على رواته، كما أنه أورد ببعض الروايات غير المعقولة وقد أخذ عليه ابن الأثير(٣٦) ذلك مع أنها منافية للعقل والمنطق. كما أنه روى بعض الروايات البينة الكذب ولم يشر إلى ذلك وأخذ عليه أبن خلدون هذه النقطة وأورد مثال لذلك ماروي عن سبب نكبة البرامكة(٣٧).

٢ - وعند النقل من الرواة لم يهتم الطبري بذكر أي كتاب من كتبهم الذي نقل عنه .

٣ - أن تاريخ الطبري يفتقر إلى الوحدة وارتباط السياق والسبب في ذلك أنه يقطع الأحداث بالروايات المتعددة وبالسنين ، ويخرج عن الموضوع الأصلي إلى مواضيع جانبية ، بقطع الخبر الأصلى الأمر الذي جعل الروايات تشتبك في تاريخه دون تنسيق، فلا يأخذ الحادث صورته الحقيقية المتكاملة .

٤ - إن فهم الطبري للتاريخ العالمي أضيق من فهم بعض المؤرخين السابقين له كاليعقوبي مثلا أو ابن قتيبة، فتاريخ العالم عنده محدود بالخط الذي يصل مابين الأنبياء والعهد الجاهلي عبر الساسانيين وتاريخ اليمن ثم يأتي التاريخ الإسلامي تتويجا ضخماً لأعماله .

٥ - فهم الطبري للتاريخ كان محصورا بالأمور السياسية خاصة وبالمشاكل الداخلية للدولة بصورة أخص . ومن الملاحظ أن الطبري لم يول عناية خاصة لتاريخ الفتوح الإسلامية مع الدول والمَناطق غير الإسلامية الداخلية فقد شغلته الأحداث السياسية عن تسجيل الأمور الإدارية أو القضائية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١ ، ص ٢١ - ٢٢.
(٣٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٠ .

٦ - وأخيرا فإن المفهوم التاريخي عند الطبري متأثرا بالنظرة الدينية ، فهو عنده في الدرجة الأولى تعبير عن المشيئة الألهية ثم مستودع خبرات الأمة الإسلامية تبين تجاربها ووحدة تاريخها.

أهمية الطبري بالنسبة للكتاب :

١ - هو تناول الجانب السياسي الداخلي للدولة الأموية بالتفصيل الدقيق .

٢ - إهتم بأخبار الصوائف الإسلامية التي تخرج إلى آسيا الصغرى ، مع ذكر ما أستولى عليه المسلمون من حصون .

٣ - يؤخذ على الطبري اهتمامه بالأحداث التي وقعت في شرق الدولة الأموية ولم يهتم كثيرا بما كان يجري في شمال افريقيا والأندلس و المغرب العربي .

٤ - على الرغم من شهادة بعض الكتاب للطبري من أن المعلومات التي أوردها عن الروم كانت صحيحة دقيقة تدعو إلى الدهشة[٣٨] فإنه لم يذكر أية أخبار عن الروم إلا من خلال نقاط تشابكهم بالعرب، وكثير من تلك النقاط أهملها ولم يذكر حتى المعاهدات التي أبرمت بين العرب والروم وخصوصا تلك التي عقدها معاوية . والجدير بالذكر بأن الطبري لا يعرف أسماء الأباطرة الرومان وأن كل الأباطرة الرومان يطلق عليهم أسما واحدا، إما " هرقل" أو " جرجير " .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٥٤) .

من أشهر مؤلفاته الباقية كتاب «مروج الذهب» و«كتاب التنبيه والاشراف». وباستعراض كتاباته وما أورد فيها من معلومات فإن أقل ما يمكن أن يوصف به هو أنه عالم فلكي، حاسب وجغرافي وفيلسوف وأديب ومؤرخ .... إلخ .

ولكتاب التنبيه والاشراف أهمية خاصة بالنسبة للكتاب وخصوصا وأن الكتاب الغربيين اعتمدوا عليه كمصدر موثوق به في ايراد قائمة الثيمات أو بنود الروم كما يسميها.

وقد اهتم المسعودي بالروم بصفة خاصة بأنسابهم وتاريخ سنيهم وطبقات ملوكهم وحدود بلادهم وبنودهم . والتي وضحها وحددها بشكل جيد ودقيق مما يدل على معرفته الجغرافية الواسعة .

(٣٨) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ص ١٥٦، ايضاح، ص ٢٥٣ - ٢٦٤ ، وحسين محمد سليمان، المدخل إلى دراسة علم التاريخ، ص ١٦٠.

إبن خرداذبة : أبي القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت٣٠٠هـ / ٩١٢م)
من أشهر الجغرافيين المسلمين .ويهمنا من مؤلفاته كتاب (المسالك والممالك) . ويبدأ كتابه بوصف شكل الأرض ثم تحديد اتجاه القبلة بالنسبة لكل بلد ويذكر معلومات قيمة عن البلدان التي يحدد لها أتجاه القبلة، مثلا حديثه عن سواد العراق وتقسيمه الإداري وأنواع الضرائب التي تجبى منه .

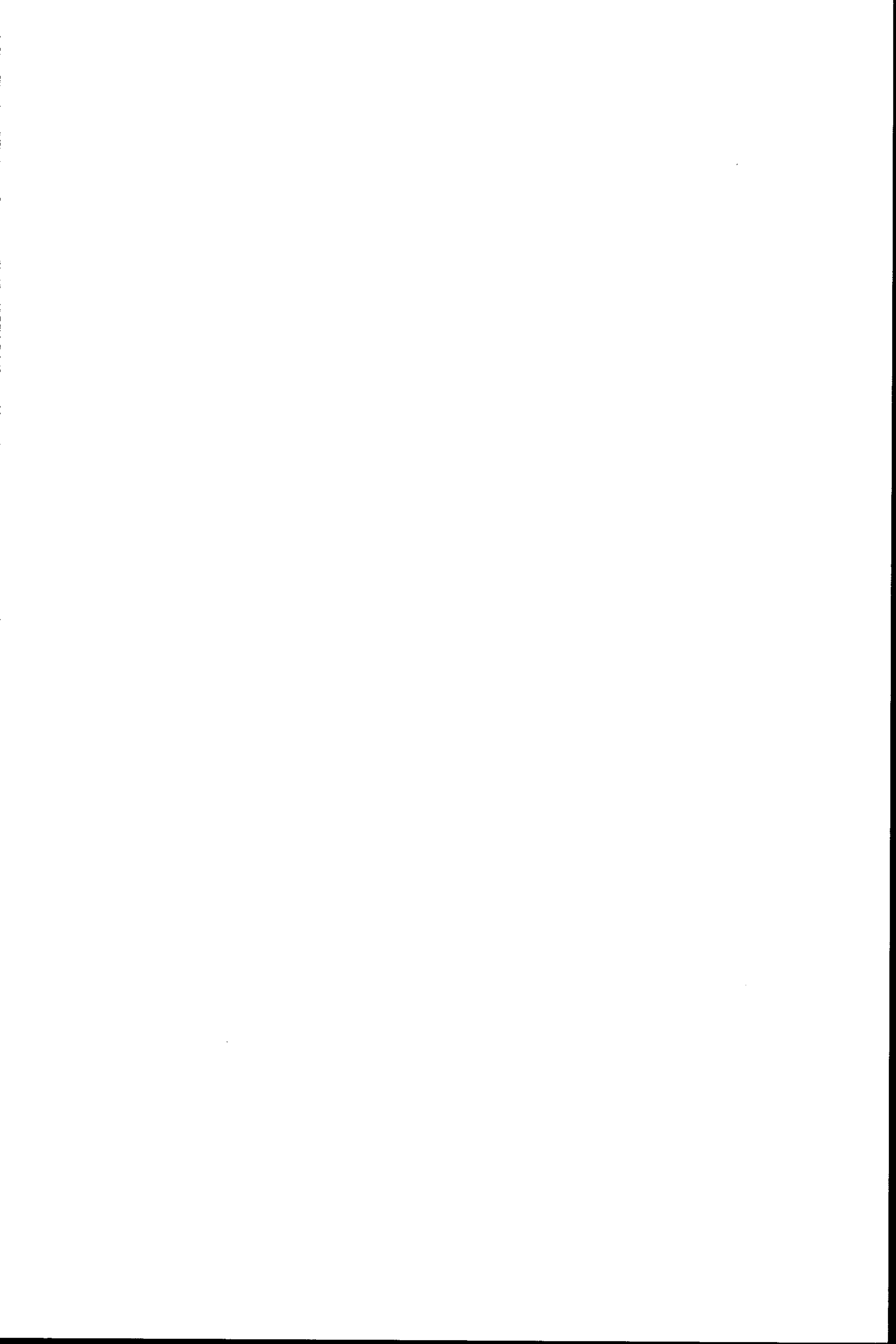
أما القسم الثاني من الكتاب وهو القسم الرئيسي فيشمل وصف الطرق، وفي وصفه للطرق هذا يتطرق إلى وصف المناطق الادارية العسكرية لدولة الروم " الثيمات " أو الأعمال كما يطلق وينقل أو يروى عن لسان مسلم بن أبي مسلم الجرمي . الذي كان على علم بأرض الروم وطرقاتها . والأعمال التي أوردها ابن خرداذبة لقيت تقديرا كبيرا من المؤرخين الغربيين الذي اعتمدوا عليها في إثبات نشأة بعض الثيمات وتاريخ نشأتها مع مقارنتها بالمصادر الغربية .

وأبدى ابن خرداذبة معرفة دقيقة بالرتب العسكرية لحكام تلك الثيمات أو الأعمال . كما ذكر مرتباتهم وأوقات صرفها لهم .

إبن الفقيه الهمداني :
الذي أتم تأليف (كتاب البلدان) حوالي عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م . لا يعلم شيء عنه والذي نقل عنه ياقوت الحموي .

ياقوت الحموي : (ت ٦٢٢/ ١٢٢٥م)
صاحب كتاب "معجم البلدان" ويوصف كتاب " معجم البلدان " بأنه مجموعة الجغرافية الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات، وتنعكس فيه أيضا الجغرافيا التاريخية والفن الشعبي والأدب الفني وذلك للسنوات الأولى من الهجرة .

ويهمنا من معجم البلدان الجزء الثالث الذي يتحدث فيه عن أعمال الروم " الثيمات " وتقسيماتها . وتقسيم الأعمال هذه يعتمد فيها على ابن الفقيه الهمداني . ويظهر معرفة دقيقة ليس فقط بالتقسيمات الجغرافية ولكن حتى بالرتب العسكرية الكبرى مثل الاصطرطفوس Strategos، وفي التقسيمات العسكرية الأصغر القائد العسكري يرد ذكره لدى الحموي كيلرج وهو تسمية صحيحة.



مقدمة

مصطلح الامبراطورية البيزنطية

إن موضوع الكتاب هو: "تطور الامبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادي/الأول الهجري". ونعرض لمصطلح "الامبراطورية البيزنطية" لنرى ما إذا كان مجرد تحديد زمنى لفترة معينة من تاريخ الامبراطورية الرومانية والتعريف بها وبيان أهميتها وذلك في ضوء آراء المؤرخين المحدثين الذين تناولوا في دراساتهم هذا الموضوع مرتبطا بموضوع القرن السابع الميلادى بصفة خاصة.

درج بعض المؤرخين على أن يجعلوا القرن السابع من تاريخ الامبراطورية الرومانية بداية لما اصطلح على تسميته (الامبراطورية البيزنطية) وكان ذلك مثار جدل بين المؤرخين. ومن الضروري استعراض آراء أهم المؤرخين المحدثين حول استعمال لفظ بيزنطة "والعصر البيزنطي" لهدف اطلاع القارىء على الآراء ومدى اتصالها بالقرن السابع موضوع هذه الدراسة.

ونبدأ بالمؤرخ بيورى[١] الذى يرى أن اطلاق اسم "الامبراطورية البيزنطية" تسميه غير صحيحة ومضللة، ذلك أن الامبراطورية الرومانية استمرت قائمة ولم ينته أمرها إلا باحتلال الأتراك العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م. وان تسلسل الأباطرة الرومان قد استمر دون انقطاع منذ عهد الأمبراطور أغسطس Augustus (٢٧ ق.م.- ١٤م) وحتى عهد الأمبراطور قنسطنطين باليولوجوس Constantine Palaeologus (١٤٤٩ - ١٤٥٣م).

ويضيف بيورى أن المؤرخين الذين - ولا يذكر أسماءهم - استخدموا مصطلح "الأمبراطورية البيزنطية" حددوا بدقة التاريخ الذي تنتهى عنده الامبراطورية الرومانية في حين انهم اختلفوا في تحديد التاريخ الذي بدأ به استخدام ذلك المصطلح وأن بعضهم يؤرخ تلك البداية بإعادة انشاء مدينة بيزنطة، المستعمرة

(١) J. B. Bury, The History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene. 2 vols. (London 1889). vol. 1, pp v-x11

الاغريقية القديمة، وذلك في عام (٣٢٤-٣٣٠م)، في حين أن نفراً آخر من المؤرخين يؤرخ بداية الأمبراطورية البيزنطية بوفاة الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius (٣٧٩-٣٩٥م) وأن فريقا ثالثا يرجع أن تكون بداية الدولة عصر جستنيان الأول Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م).

ويهتم بيورى بابراز رأى المؤرخ فنلى Finlay [٢] الذى يؤرخ بداية العصر البيزنطى بعصر الامبراطور ليو الثالث الايسورى Leo (٧١٧-٧٤١م) إلا أن هذا التحديد في رأيه، مجرد تحديد اصطلاحى وعشوائى تماما. لأنه لم تكن هناك امبراطورية تحمل هذا الاسم، وانما القائم هو الامبراطورية الرومانية وان هذه الامبراطورية لم تنته إلا في عام ١٤٥٣م. ويضيف بيورى قوله ان الامبراطورية الرومانية مرت بعدة قرون، وان كل قرن يختلف عن القرن السابق عليه والقرن اللاحق به، ولكن التطور كان مستمرا. والامبراطورية أيضا كانت مستمرة. ويقول: انه لايعلم انه قد جرت العادة على أن يكون للرجل اسم جديد عندما ينتقل من حقبة إلى أخرى جديدة من حياته. ونحن نعرف الرجل بأنه شاب أو كهل. وبناء عليه يمكننا الحديث عن العصور المبكرة أو العصور المتأخرة لمملكة أو لامبراطورية.

ونظرا لاقتناع بيورى بتلك الاعتبارات فقد تحاشى وصف الامبراطورية بأنها "بيزنطية" أو أنها "اغريقية" أو "اغريقية رومانية" ولكنه الزم نفسه بالتسمية الوحيدة في رأيه وهى "الامبراطورية الرومانية" وليكسبها صفة متميزة أضاف لها كلمة متأخرة "Later". ونبه بيورى إلى أن هناك صفة أخرى متميزة يجب استعمالها بعد التاريخ ٨٠٠م عندما تأسست خلال ذلك التاريخ امبراطورية رومانية في الغرب الأوربى، وتوج شارلمان العظيم امبراطورا عليها. وفي رأيه أنه من المريح جداً للتفرقة بين الامبراطورية الرومانية الأصلية وبين الامبراطورية المنافسة أن تضاف صفة شرقية

---

(٢) لم يشر بيورى (P.VI) إلى عنوان كتاب فنلى وأرجع أن يكون
G.Finlay (1799-1875), A History of Greece from the Conquest by the Romans to the Present Time, (London, 1877).

ويقع هذا الكتاب في سبعة مجلدات يعالج فيها فنلى تاريخ الفترة مابين ١٤٦ ق.م إلى ١٨٦٤م ويولى أهمية خاصة للعصر البيزنطى راجع: G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State, (Oxford: 1980). p. 6.

قارن على سبيل المثال فيما يخص المناقشة حول بداية مايعرف بالدولة البيزنطية.

جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية ٢٨٤ - ١٤٥٣م - الاسكندرية ١٩٨٤، ج. م. هسي: العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبدالحميد، ط ٣، القاهرة ١٩٨٤ص ٩ - ١٧.

الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ٣٢٢ - ١٠٨١، دار النهضة بيروت ١٩٨٢م.

لاولاهما وصفة غربية إلى الثانية منهما. وهذه تسمية عادلة ولاتحمل أخطاء تاريخية ولكنها تعبر عن الوضع الأوروبى.[٣] وبذلك يكون رأى بيورى ان الامبراطورية الرومانية في كافة عصورها إنما كانت امبراطورية واحدة متصلة الحلقات بالرغم مما مر عليها من تغييرات منذ القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن الخامس عشر الميلادى. وانه منذ سنة ٨٠٠م ومابعدها يجب تمييزها بوصفها "بالشرقية" لأنه قامت في الغرب امبراطورية منافسة لها اطلقت على نفسها اسم " الامبراطوريةالرومانية".[٤]

وإذا كان المؤرخ فنلى Finlay قد أرخ بداية تلك الفترة بعصر الامبراطور ليو الثالث الايسورى، كما أسلفنا، إلا انه هو نفسه يرى أن المؤرخين الذين سموا الامبراطورية الرومانية الشرقية "بالامبراطورية البيزنطية" انما استحدثوا هذا المصطلح ليحددوا التغييرات التي أثرت في الحكومة. وفي الظروف الاجتماعية لمجتمع الامبراطورية الرومانية الشرقية. ذلك لأن هذا المجتمع خضع لتغيير اجتماعى واضح خلال القرن السابع، الذي فصل بين الفترة التي تولى فيها الامبراطور هرقل العرش وبين تلك الفترة التي آل الحكم فيها إلى ليو الايسورى، فدخلت الامبراطورية الرومانية عصرا جديدا متميزا وفي رأى فنلى أيضا أن هذا التغيير التدريجي في المجتمع جعل بعض الكتاب يؤرخون لبداية الامبراطورية البيزنطية بعهد الامبراطور زينون. (٤٧٤ - ٤٧٥م، و ٤٧٦-٤٩١م) والامبراطور انستاسيوس Anastasius (٤٩١ - ٥١٨م) والبعض الآخر جعل هذا العصر يبدأ منذ عهد كل من الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م) وهرقل (٦١٠ - ٦٤١م)، ولكن فنلى يستدرك فيقول: بما ان الامبراطورية البيزنطية لم تكن إلا استمرارا للامبراطورية الرومانية لذلك فإن تاريخ بدايتها وربطه بالفترة التي شهدت التغييرات الاجتماعية والسياسية والتي أثرت عليها يبدو أكثر صحة وأكثر دقة. وفضلا عن ذلك فإن هذه الفترة شهدت أيضا حدثا مميزا تمثل في اعتلاء ليو الايسورى عرش الامبراطوري الرومانية[٥].

ويضيف فنلى أن تاريخ الامبراطورية البيزنطية ينقسم إلى ثلاث فترات. الفترة

---

(٣) Bury, Ibid, Vol.1. p. v-p.x

(٤) عن التفاصيل الخاصة بنشأة الامبراطورية الرومانية في الغدب سنة ٨٠٠م على يد الامبراطور شارلمان.
انظر جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضاراتها. الاسكندرية ١٩٨٤ص ١٥١ - ١٥٩.

(٥) G. Finlay, History of the ByZantine Empire (plymouth1906) P. 4.

الأولى تمتد منذ عهد الامبراطور ليو الثالث Leo III في سنة ٧١٧[٦] وتنتهى باعتلاء ميخائيل الثالث Michael III لعرش الامبراطورية في سنة ٨٦٧ م وتمتد الفترة الثانية منذ عهد الامبراطور باسيل الأول Basil I في تلك السنة وتنتهى في عهد ميخائيل السادس Michael VI في سنة ١٠٥٧م أما الفترة الثالثة فإنها تمتد منذ عهد اسحق الأول Isaac I في سنة ١٠٥٧م وتستمر الى احتلال الصليبيين للقسطنطينية في سنة ١٢٠٤ وكانت هذه هي الفترة الحقيقية التي بدأ فيها اضمحلال الامبراطورية الشرقية وانتهت بسقوطها.[٧]

ويتفق جنكنز R. Jenkins مع فنلى في تقسيم التاريخ البيزنطى إلى فترات ولكن يختلف معه في الحدود الزمنية التي تشملها كل فترة ويرى أن الفترة الأولى تمتد من القرن الرابع الى القرن السابع، وأن الفترة الثانية تمتد من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر وأن الفترة الثالثة تبدأ بالقرن الحادي عشر وتنتهى بالقرن الخامس عشر، وانه يفضل ان يطلق على الفترة الأولى والممتدة من القرن الرابع إلى السابع اسم "الامبراطورية الرومانية المتأخرة" اكثر من تسميتها بفترة "الامبراطورية البيزنطية"، ويجوز ان يطلق على الفترة الثانية اسم" الامبراطورية الرومانية المتأخرة أو "الامبراطورية البيزنطية" ويجد أنه من الصعب أن يطلق على الفترة الثالثة اسم "امبراطورية "إلا إذا كان ذلك من باب التجاوز. ولكن هناك ثمة عنوان بديل يمكن ان يستعمل: ظهور الامبراطورية البيزنطية وسقوطها.[٨]

وبالرغم من أن توينبى Toynbee يعتبر من المؤرخين المخضرمين[٩] إلا أنه يختلف مع بيورى في القول باستمرارية الامبراطورية الرومانية حيث يقرر: أن الفصل الاخير من تاريخ الامبراطورية الرومانية قد بدأ منذ وفاة الامبراطور ثيودوسيوس في سنة (٣٥٩م). وفي رأيه أن ولايات الامبراطورية اللاتينية في الغرب تختلف عن ولاياتها الاغريقية في الشرق. وقد حدث انهيار سريع في الولايات اللاتينية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا في الوقت الذي نجح فيه الامبراطور في الولايات اليونانية وولايات الشرق أن يركب موجة بعد الأخرى من الموجات المشابهة لتلك الموجات التي حطمت ولايات الغرب، وذلك بفضل ما أوتيه الامبراطور ليو Leo الأول (٤٥٧ -

(٦) المعروف أن ليو الثالث اعتلى العرش سنة ٧١٧ وهى السنة التى تعتبر نهاية القرن السابع عند كثير من المؤرخين.

(٧) Finlav. Ibid. P. 10 - 11

(٨) R.,Jenkins, ByZantium, the Imperial Centuries AD. 600 - 1071, (London, 1966).

(٩) A, Toynbee, A Study of History, (Oxford, 1972), pp. 180-184.

٤٧٤م) من عقلية ممتازة، إذ خلص الامبراطورية في الشرق من الاعتماد على الجنود المرتزقة من المتبربرين. ونجح كذلك خلفاؤه الامبراطور زينون (٤٧٤-٤٧٥م و ٤٧٦ - ٤٩١ م) والامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨م) اللذان قاما باصلاحات إدارية ومالية وتجنبا الصراع المذهبى مما أدى الى قدرة النظام الامبراطورى في القسطنطينية على دعم وجوده خلال القرن الخامس فبقى واستمر على عكس ما حدث في الغرب الذي شهد هزيمة النظام الامبراطورى. ولكن، فى رأى توينبى، تباينت الأوضاع واختلفت في القرن السادس بشكل واضح وذهب كل ما حققه ليو وزينون وانستاسيوس "ادراج الرياح في عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) الذي كان مفتونا بامبراطورية اوغسطوس Augustus (٢٧ ق.م. ١٤م) وبما أنجزه فنسطنطين Constantine (٣٢٢-٣٣٧م)، وتملكه طموح غير عادى ليعيد للامبراطورية الرومانية مجدها القديم فبدد الثروات التي جمعها اسلافه في محاولاته الدؤوبه لاسترجاع ولاياتها في أوربا وافريقيا. ومثلت وفاته سنة ٥٦٥م علامة على سقوط الامبراطورية الرومانية في الشرق. تماما مثل ما مثلت وفاة ثيوديوس سنة ٣٩٥م سقوطها في الغرب. والفرق بين الوضعين أن سقوط الامبراطورية في الشرق أخذ شكل حروب غير متقطعة حدثت بشكل غير متوقع خلال ١٥٢ عاما. وهى الفترة الواقعة مابين وفاة جستنيان في عام ٥٦٥م حتى ولاية ليو الايسورى الثالث في عام ٧١٧م.

ويمضى توينبي في القول بأنه كان هناك اشارة الى مولد مجتمع مسيحى ارثوذكسى ناشىء في القرن السابع الميلادى. كانت ولادته بطيئة ولكن هذا المجتمع كان ينمو باطراد بدون توقف ويسير على نفس الخطى التي اختارتها مسيحية المجتمع الغربى على يد البابا جريجورى Gregory العظيم (٥٩٠-٦٠٤م).

وبعد سقوط الامبراطورية في الغرب ربما يقال أن الفراغ الذي تركته السلطة السياسية ملأته السلطة الدينية والتي تمثلت في بطريركية روما أو البابوية.وتوازت منجزات البابا جريجورى مع منجزات البطريرك سرجيوس Sergius (٦١٠ - ٦٣٨م) في الشرق والتي كان لها حظ مماثل فكانت بديلا للامبراطورية الزائلة. وعندما منع الامبراطور هرقل الساسانيين من التقدم صوب القسطنطينية سنة ٦١٨م، كان يخطط لنقل عاصمة الامبراطورية إلى قرطاجة، لولا أن البطريرك سرجيوس أجبره على التخلى عن تلك الفكرة. وهكذا أكد سرجيوس حتمية وجود نظام امبراطورى دائم يتمركز في القسطنطينية ولو كان قد تم لهرقل تحقيق الانتقال الى قرطاجة، ربما

تسنى لبطريرك القسطنطينية المسيحى أن يلعب نفس الدور الذى لعبه زميله في الغرب وربما غير ذلك وجه المجتمع ولكن الدور الذي لعبه سرجيوس جعل من الامبراطور هرقل بطلا. وبذلك يكون سرجيوس قد أنجز عملا بطوليا كان له من الخطورة مثلما كان لمهمة زميله في الغرب. وفضلا عن ذلك فإن سرجيوس أتاح لليو الايسورى (٧١٧ - ٧٤٠م) الفرص ليعطى للمسيحية الارثوذكسيه وجهها الشرقى، واستطاع إنقاذ هيبة الامبراطورية وتأسيس وابراز هيبة المسيحية الشرقية الأسيوية. مما اعطى ليو الايسورى الركيزة الأساسية لاعادة بناء الامبراطورية الرومانية في آسيا الصغرى. ولقد وصف توينبى شخصية الامبراطور بالشبح ghost ويقصد بهذا التشبيه أن شخصية الامبراطور لم تكن الشخصية المهيمنة في ذلك الوقت، وانما كانت الهيمنة الحقيقية للبطريرك سرجيوس.

يعد المؤرخ اوسترجورسكى Ostrogorsky من أبرز المؤرخين المعاصرين الذين اهتموا بتاريخ الامبراطورية وبتاريخ القرن السابع بصفة خاصة ويتلخص رأيه في أن التاريخ البيزنطى ما هو إلا مرحلة جديدة في التاريخ الرومانى واستمراراً للأمبراطورية الرومانية القديمة أو مايصطلح على تسميته بعبارة Imperium Romanum وأن كلمة "بيزنطة ماهى إلا اصطلاح استخدمته أجيال متأخرة، ولم يعرف هذا الاسم من يطلق عليهم اسم "بيزنطيون" ذلك أن هؤلاء كانوا يطلقون على أنفسهم اسم رومان (Romanioi) واعتبر امبراطورهم نفسه حاكما رومانيا، وخلفا ووريثا لقياصرة روما. وقد ظل من يسمون بالبيزنطيين يأسرهم سحر اسم روما طالما بقيت الامبراطورية وطالما بقيت تقاليد الادارة الامبراطورية حتى النهاية هى المسيطرة على افكارهم السياسية وتوجه اهدافهم. وكانت الامبراطورية تضم شعوبا كثيرة شتى يربطها جميعا نظرية او فكرة الدولة عند الرومان، كما وأن علاقة الامبراطورية بالعالم الخارجى تحكمها الفكرة الرومانية عن العالمية ولعل اوستروجورسكى يقصد بهذه العبارة عالمية العالم الذي تظله روما بسيطرتها وتسلطها وقوانينها.

ويركز اوستروجورسكي على أهمية التقاء النظريات السياسية الرومانية والحضارة الاغريقية والعقيدة المسيحية، وكانت العوامل الثلاثة لها أبعد الأثر في نمو الامبراطورية البيزنطية وتطورها، وان الظاهرة التاريخية المعروفة باسم الامبراطورية البيزنطية ماكانت لتنهض لولا تفاعل الحضارة الهلنستية مع العقيدة المسيحية في اطار الامبراطورية الرومانية ويدعم هذا التوافق ضرورة اهتمام تلك الامبراطورية بالشرق وهذا ما فرضته أزمة القرن الثالث. وتمثل التعبير عن هذا التحول بالاعتراف بالسلطة الرومانية او مايعرف باسم Imperium Romanum

وانشاء عاصمة جديده على ضفاف البسفور.

وكان انتصار المسيحية والانتقال الحقيقي لمركز الثقل السياسي للامبراطورية الرومانية إلى الشرق الذي اصطبغ بالصبغة الهلنستية إيذانا ببدء التاريخ البيزنطي وأن هذا التاريخ البيزنطي ماهو إلا مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الروماني كما وان الدولة البيزنطية ماهى إلا استمراراً للسيطرة الرومانية القديمة وبمقتضى هذه الفكرة ظلت تطمح إلى أن تكون الامبراطورية الوحيدة التي يحق لها الانفراد بالسيطرة على كل الاراضي التي كان يشملها مايعرف باسم "العالم الروماني Orbis romanus" وأصبحت تكوّن الآن العالم المسيحي (Oikoumene).[١٠]

ويطلق اوستروجورسكي على الفترة من سنة ٣٢٤-٦١٠م اسم الفترة البيزنطية المبكرة [١١] حيث يرى انه منذ عهد الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥م) وحكمه المطلق بزغت البيروقراطية البيزنطية وأخذت تتنامى وترسخ أقدامها[١٢] ومعنى ذلك ظهور أنظمة مختلفة عن الأنظمة التي كانت سائدة من قبل، وحلت محلها.

ولعل أبرز ما استحدث من نظم في القرن السابع إنما كان نظام الثيمات[*] والذي وصف بأنه النظام الذي سرت من خلاله الحياة من جديد في كيان الامبراطورية. وان تنظيم المناطق في ثيمات يعنى توقفا نهائيا للمبادىء التي قامت عليها النظم الإدارية التي وضعها كل من دقلديانوس وقسطنطين. وكانت هذه النظم تطورا لنظام الأرخونيات Exarchates.[١٣]

وثمة مؤرخ آخر هو باينز N.H. Baynes يوافق على آراء كل من توينبي واستروجورسكي حيث يقول: انه خلال القرن السابع الميلادي كانت امبراطورية جديدة قد بدأت وأصبحت حقيقة ماثلة للعيان عندما تقدم ليو الايسورى من آسيا الصغرى ليتولى العرش. وتلك الامبراطورية الجديدة كانت تعبيرا عن تصدى المسيحية الشرقية للتوسع الاسلامي على عهد خلفاء محمد ﷺ وتهديدهم لها. وان الدولة كما نظمت في ذلك الوقت كانت بمثابة درع المقاومة ضد هجوم المسلمين. وعندئذ تتوقف الامبراطورية الرومانية القديمة عن الاستمرار وتبرز الامبراطورية المطلقة

---

(١٠) G. Ostrogorsky, Histry of the Byzantine state, Trans. from the German by J. Hassy (Oxford 1st Paperback edition, 1980), p. 28.

(١١) Ostrogorsky, Ibid p. 32.

(١٢) Idem, p. 30.

(*) ستجرى مناقشة تاريخ انشاء هذه الثيمات فيما بعد.

(١٣) Ostrogorsky, Ibid, p. 96

والإدارة المركزية لمواجهة الظروف المتغيرة.

وقد تمثل ذلك في بناء نظام عسكرى جديد في آسيا الصغرى وهو نظام الثيمات الذي قام على أساس منح أراضي للمزارعين مقابل الزامهم بالخدمة الأجبارية الوراثية في الجيش الأمبراطوري. وعلى هذا النظام وعلى قدرته على الاستمرار كنظام ناجح، اعتمد الدفاع عن الامبراطورية. إذ كانت تتعرض باستمرار للاعتداء والهجوم. فإن بداية هذا النظام هو الذي يحدد بداية تاريخ الامبراطورية البيزنطية.(١٤) ومن بين المؤرخين البارزين الذين ساهموا بنصيب وافر في تاريخ الامبراطورية المفصل، المؤرخ الانجليزي جونز Jones وأبرز مؤلفاته كتاب بعنوان: الامبراطورية الرومانية المتأخرة من ٢٨٤-٦٠٢م. ويبدأ مؤلفه بعصر الامبراطور دقلديانوس وهو العصر الذي ظهرت فيه الأنظمة التي أوقفت العمل بالانظمة الرومانية القديمة. وينهيه بموت الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م) ويرجع ذلك إلى سببين أولهما: أن انهيار الشرق بدأ عند ذلك التاريخ وان انعاش الأمبراطور هرقل للأمبراطورية كان انعاشا عابرا ولم يقدر له أن يستمر وثانيهما: أن الشواهد المتكاملة والمعاصرة حتى هذا التاريخ في كل من قسمى الامبراطورية تتلاشى أمام المؤرخ على نحو مفاجىء ويشاركه هولدن في هذا الرأي الأخير.(١٥)

وربما يعنى بهذا القول أن تاريخ موت موريس يعنى نهاية الأمبراطورية الرومانية المتأخرة وان كان جونز لم يقل ذلك صراحة. وان كان هناك من يقول باستمرارية الأمبراطورية الرومانية بمعناها العريض حتى بداية القرن السابع وان كان العنصر الأغريقي هو الغالب على ولاياتها. ولقد كانت سياسة حكام بيزنطة إلى القرن السادس متجهة إلى المحافظة على الامبراطورية سليمة. وتمسكهم بالمبدأ الذي يقول أن الامبراطورية الرومانية كانت عالمية. وان العالم الرومانى Orbis Romanus يحكمه امبراطور أصبح حاكما للعالم المسيحى. وان الرؤية للاتحاد والعالمية بالنسب للامبراطورية الرومانية كانت دائما تجد من يدافع عنها بالرغم من ان الدولة كانت قد قسمت إلى قسمين شرقى وغربى. ولقد ناضل القسم الشرقى ليحافظ على وجود الامبراطورية. وبقى حاميا للأفكار الرومانية بالرغم من التقسيمات الداخلية

(١٤) Baynes, Norman, Introduction, in Byzantium, An Introduction to the Roman Civilization, Edited By Baynes and Moss, (Oxford, 1948)-pp.XV-XIV.

(١٥) A. H. M. Jones, The later Roman Empire 284-602. 2 vols. (Oxford, 1973), Vol. I P. V, 316.

J. F. Holdon, Byzantium in the Seventh Century. (Cambridge, 1990), P. 1

والتهديدات الخارجية. ولم تفارق فكرة الأمبراطورية الرومانية العالمية أذهان الأباطرة الذين حكموا القسم الشرقى وذلك بالرغم من الخطر الذي كان يحدق به من كل جانب. ومبعث هذا الخطر كان النمو المطرد للفرس وتزايد ضغطهم. هذا إلى جانب اغارات الجماعات التي تقطن شمال الدانوب، والشعور بالقومية الذي اصبح مسيطرا على سكان المناطق المحليين أنفسهم. وبالرغم من ذلك فقد استمر أباطرة القسم الشرقى في بذل جهودهم المستمرة لاسترجاع المناطق المغتصبة في الغرب. وأن آخر ممثل أو نصير لفكرة وحدة الأمبراطورية الرومانية كان الامبراطور جستنيان، الذي بدأ بعزيمة صادقة وعمل جاد دؤوب ليعيد للأمبراطورية امتدادها السابق وبريقها القديم. فتحركت جيوشه إلى كل من افريقيا وايطاليا وأسبانيا. ونجحت في أن تستعيد بعض المناطق وتعيدها إلى حظيرة الأمبراطورية الرومانية، وقد أنهى موته فترة زمنية من عمر الامبراطورية الرومانية، ولكن فكرة وحدة الأمبراطورية الرومانية بقيت غير متغيرة. وكانت القسطنطينية عاصمة الأمبراطورية الرومانية بمعناها العالمي، وان كانت قد صبغت بالصبغة الاغريقية التي أعطتها طبيعتها المميزة والتي دافعت عنها بغيرة وحماس حتى سقوطها.(١٦)

وينفرد شارل ديل، وهو من جيل متقدم من المؤرخين، بربط بداية التاريخ البيزنطي باليوم الذي اختط فيه قسطنطين مدينة القسطنطينية وهو ١١ مايو ٣٣٠م (١٧) ويشرح وجهة نظره بقوله: وكلما مرت الأعوام تجلت حقيقة امكانية قيام دولة شرقية خالصة تعيش مستقلة بنفسها. وأخذت تبدو على القسم الشرقى سمات مميزة لما ستكون عليه الامبراطورية البيزنطية فقد ظهرت الحكومة الاستبدادية المطلقة على طراز الحكومات الشرقية، والإدارة الشديدة المركزية والكنيسة ذات اللغة

(١٦) A. N. Stratos ByZantium in the Seventh Century 5 Vols, English. Trans. Vol. 1 (Amesterdam 1968), pp. 3-5.

لم يذكر سقوطها في نظره.
أنظر: أيضا جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص ١٨.

(١٧) لتفاصيل بناء القسطنطينية وأهمية موقعها وأسباب اختيارها، أنظر:

J. Bury, Ibid E. Vol, 1. P. VIII ايضا Ostrogorsky, Ibid. P.44, Jones Ibid. Vol. 1. PP. 77. 83
رنسمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز جاويد، القاهرة، ١٩٦١م ص ٣-٤؛ ايضاجوزيف ن يوسف، المرجع السابق ص ٤٣ - ٥٠، السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٣٠ - ٣١. وسام عبدالعزيز فرج، الامبراطورية البيزنطية من ص ٣٢٤-١٠٢٥م، الاسكندرية ١٩٨٧، ص (٨-١١). هسي، ج.م. المرجع السابق، ص (٨٩-٩٠).

ولمعرفة مزيد من التفاصيل عن حدودها وخطوطها الدفاعية وترتيباتها الداخلية ومخطط المدينة أنظر:
Millingen, A. V., Byzantine Constantinople, (London, 1899).

اليونانية. ومن أوائل القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع أسرعت الدولة في التحول الى دولة شرقية، وتم لها ذلك التحول.(١٨)

وفي هذا تقول المؤرخة هسي: لعله ليس جوهريا أن نطلق على فترة التكوين هذه التي بدأها قنسطنطين - عصرا بيزنطيا مبكرا أو رومانيا متأخرا، فلم تزل في جوهرها الامبراطورية الرومانية.(١٩)

وعند تفنيد آراء ديل نجد أنه يحاول أن يستخلص القسم الشرقى من الامبراطورية الرومانية ليتحدث عنه كدولة بيزنطية بقوله: لقد بدأ تاريخ الدولة البيزنطية في ذلك اليوم الذي اختط فيه قنسطنطين مدينة القسطنطينية. وهذا يثير تساؤولات أين اختطها؟ ولماذا؟ وماهي أهدافه؟ هل اختط مدينة جديدة في أراضي جديدة ليكوّنٍ بها دولة جديدة منافسة للأمبراطورية الرومانية؟

والأجوبة على كل هذه الأسئلة تتلخص في أن قنسطنطين لم يختط مدينة جديدة في أرض جديدة بل أعاد تخطيط مدينة قديمة ضمن حدود واطار الأمبراطورية الرومانية وانه اكتشف مميزات استراتيجية خاصة في تلك المدينة تجعلها ترتفع إلى أن تكون عاصمة حصينة للأمبراطورية الرومانية نفسها، نظرا لأن العاصمة الأولى روما لاتحمل تلك المميزات وبناء على ذلك فإن فكرة قنسطنطين من بناء تلك المدينة وجعلها عاصمة لم تكن قائمة على أساس تخطيط بناء دولة جديدة في أرض جديدة منفصلة، بل هي في داخل الحدود الأمبراطورية ولتقوية مركز الأمبراطورية وحمايتها. وهي في نظره روما الثانية وكان اسمها رسميا وبصفة دائمة مدينة قسطنطين التي هي روما الحديثة Konstantinoupolis Nea Rome.(٢٠) أما من ناحية السمات المميزة الشرقية لتلك المنطقة فقد كانت الامبراطورية الرومانية نفسها مكونة من مناطق وأقاليم مختلفة وشعوب مختلفة، لكل منطقة واقليم سماته الخاص به، وليس معنى وجود سمة خاصة أو مميزة لتلك المنطقة أن نقول إن هذه السمة التي تطغى عليها أعطتها اسما جديدا. بل إن هذه السمات أصلية في المنطقة قبل استيلاء الامبراطورية الرومانية عليها ولكنها تمثل جزءا منها. مثل مصر. هل

(١٨) Diehl, Charles, Byzance, Grandeur et Decadnce, (Paris, 1919)
أنظر ترجمة الفصل الأول من هذا الكتاب في كتاب - نورمان بينز - الأمبراطورية البيزنطية - ترجمة حسين مؤنس، ملحق ١، ص ٣٢٠.

(١٩) هسي - العالم البيزنطي - ترجمة رأفت عبد الحميد، ص ٩١.

(٢٠) R. Browning, The Byzantine Empire., (London, 1980) P. 9

فقدت مصر مميزاتها وسماتها الخاصة بدخولها ضمن حدود الأمبراطورية الرومانية، وسواء اطلقنا على مصر اسم مصر الفرعونية أو البطلمية أو الرومانية أو البيزنطية تبقى لمصر سماتها الخاصة المميزة. وهذا ينطبق على المنطقة الشرقية من الأمبراطورية الرومانية والتي أطلق عليها اسم بيزنطة لا لشيء إلا أنها تحمل صفات وسمات شرقية مميزة. وصفة بيزنطي الأغريقية إنما كانت تطلق على كل مواطن لهذه المدينة وكان من الأحرى أن تكون صفته Konstantinoupolites.[٢١]

ونخلص إلى القول أن كلمة "بيزنطة" ماهى إلا صفة من صفات الامبراطورية الرومانية في فترة متأخرة من تاريخها تقلص أثناءها حكمها واقتصر على الجهات الشرقية من الأمبراطورية الرومانية. وان سكانها كانوا يعرفون بالروم. وذلك وفقا لما كتبه بروكوبيوس، أحد مؤرخى الامبراطورية الرومانية في القرن السادس الميلادي. وأحد المعاصرين لعصر الأمبراطور جستنيان. إذ أنه يشير في مقدمة كتابه "التاريخ السري" انه سوف يقوم بتدوين كل شيء حدث في كل جزء من أجزاء الأمبراطورية الرومانية.[٢٢]

وهذا يعني أن مصطلح بيزنطة أو الأمبراطورية البيزنطية هو مصطلح جديد لم يستخدمه الأقدمون أنفسهم وربما لم يعرفوه.

إن التغيرات التي حدثت في القرن السابع الميلادي هى تغيرات في المناطق الشرقية من تلك الأمبراطورية. وان التحصينات التي قام بها الأمبراطور هرقل ماهي إلا تحصينات واجبة للدفاع عن الأمبراطورية الرومانية نفسها. وإن كان كثير من المؤرخين يفضلون استعمال مصطلح "الأمبراطورية الرومانية المتأخرة" أمثال المؤرخ بيوري وجونز وغيرهم، ويؤثرون استعماله أكثر من استعمال مصطلح "الامبراطورية البيزنطية"، لأنها في نظرهم تسمية غير مطابقة للواقع وفيها الكثير من التجاوز. ولكن نظرا لشيوع استعمال مصطلح "الامبراطورية البيزنطية" بين كثير من المؤرخين المحدثين كما أسلفنا. فلا بأس من استعماله حتى وإن كنّا نعتقد أن تاريخ القرن السابع الميلادي ماهو إلا استمرارية لتاريخ الأمبراطورية الرومانية وأنه نقطة التحول في الاتجاه فقط وليس في المسمى.

---

(٢١) Browing Ibid P. 8

(٢٢) Procopius, The Anecdota or the Secret History Trans. by H. B. Dewing, (Great Britain, 1954). P. 3.

الباب الاول

الامبراطورية البيزنطية في القرن السادس

الفصـــل الأول : حدود الامبراطورية البيزنطية في القرن السادس وبداية القرن السابع

الفصل الثـاني : سلطة الأمبراطور والمؤسسات الدستورية

الفصل الثـالث : النظم الادارية

الفصل الرابـع : الأوضاع الاقتصادية

الفصل الخامس : الحالة الدينية

الخاتمة : تقييم أوضاع الامبراطورية في القرن السادس.

الفصل الأول

حدود الامبراطورية البيزنطية
في القرن السادس وبداية القرن السابع

موضوع هذه الدراسة أوضاع الدول البيزنطية في القرن السابع وما طرأ على سياستها الداخلية والخارجية من تغييرات مست مجتمعها وحضارتها مسا جذريًا عميقا جعلت هذا القرن متميزا عن غيره في تاريخ بيزنطة. والتغييرات لاتحدث بين يوم وليلة بمعنى أن الظواهر التي يتميز بها عصر ما لاتنتهى بشكل فجائى ليحل محلها خصائص أخرى جديدة، وانما هى عملية تطور بطيئة تدريجية مطردة تستغرق فترة زمنية غير قصيرة.(١)

ومن الطبيعي أن نبحث في القرن السادس الميلادي عن جذور النظم التي سنعرض لها في القرن السابع. وأجد أنه يتحتم أن يكون عصر جستنيان هو نقطة البدء ذلك لأن القرن السادس وصف بأنه عصر هذا الأمبراطور.(٢)

ولايدخل ضمن أهداف الكتاب وصف شخصية الامبراطور جستنيان أو تقصى حياته الشخصية(٣) أو تتبع حروبه وحملاته. وليس من هدفنا أيضا التوقف كثيرا عند قوانينه الشهيرة التي ارتبطت باسمه واحتلت مكانة متميزة في تاريخ القانون الرومانى، بالرغم من أهميتها، وإن كنّا سنتعرض لبعض المسائل القانونية والتشريعية عند مناقشة بعض المسائل المتصلة بموضوع هذه الدراسة.

وسينصرف اهتمامنا إلى دراسة الخطوات التي حقق بها جستنيان سياسته التى كانت تهدف إلى إحياء الامبراطورية الرومانية.

ويأتى على رأس ذلك بعض التغييرات الأساسية ما اتصل منها بالنظم الإدارية والمالية والعسكرية وما استحدث من وظائف ونظم.

نجح جستنيان في أن يعيد بناء امبراطوريته، في الشرق، الى جانب ولايات

(١) جوزيف نسيم يوسف، **تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها**، الاسكندرية ١٩٨٤، ص ٢٠، ٣٣

(٢) Bury, History of **The Later Roman Empire.** Vol. 2, P. 352.

(٣) للأطلاع على دراسة تحليلية لشخصية جستنيان انظر:

A. H. M., Jones, **The Later Roman Empire** Vol. 1, P. 250 ff.

في الغرب تمكن من استعادتها. ومن الطبيعي أن نتساءل عن مدى اتساع الامبراطورية من جهة، وعن مدى تطابق الأنظمة الإدارية في كل من الولايات الشرقية والولايات الغربية وان نتساءل أيضا عن أهم النتائج التي أسفرت عنها استعادة ولايات الغرب ايجابا وسلبا. ومن المنطقي أيضا ان نتعرف إلى المدى الذي ذهب إليه جستنيان في رسمه لسياسة جيدة تأخذ في الاعتبار ماحدث من تغييرات خطيرة هزت كيان الأمبراطورية الرومانية في عصورها المتأخرة. والمهم كذلك الوقوف على أساليب تلك السياسة الحديثة. هل كانت استمرارا للأساليب القديمة التقليدية الفاشلة؟ أم كانت أساليب جديدة استحدثت في ضوء رؤية جديدة تستشرف المستقبل وتناسب الواقع الذي يريد جستنيان أن تكون عليه امبراطويته، خاصة ونحن نعرف أنه كان يرنو إلى الماضي لاحياء مجد الامبراطورية الرومانية القديمة، ومن المنطقي ان يأتي في مقدمة المتغيرات في القرن السادس الحدود التي أصبحت عليها الأمبراطورية في نهاية ذلك القرن ومستهل القرن السابع أي منذ نهاية عصر جستنيان حتى عصر فوكاس (٥٦٥ - ٦١٠م) وعلينا تبعا لذلك أن نلم بشيء من الايجاز بجهود الأباطرة الذين قاموا بمحاولة توحيد أو استرجاع الامبراطورية الرومانية. ومواجهة القوى المتربعة بأراضيها سواء في الشرق أو الغرب. وبمعنى أدق علينا أن نبين علاقات الأمبراطورية بجيرانها في تلك الفترة وأثر تلك العلاقات على حدود الأمبراطورية نفسها.

حدود الأمبراطورية الرومانية في نهاية القرن السادس الميلادي

قامت سياسة جستنيان، بوصفه امبراطورا رومانيا بحق، على أساسين، أولهما، وهو هدفه الأكبر بعث أمجاد الأمبراطورية الرومانية باستعادة ولاياتها في الغرب الأوربى. والتي كان المتبربرون قد اغتصبوها. فضلا عن انقاذ روما نفسها من استعباد مذل. أما ثانيهما فهو دينى حيث وضع نصب عينيه ان يسحق الهرطقه والوثنية[٤] وكان الوضع في الغرب الأوروبى في الوقت الذي اعتلى فيه جستنيان عرش الأمبراطورية على النحو التالي:

أولا: الغـــرب

كان الامبراطور هورنوريوس (Hornorius) (٣٩٥-٤٢٣م) قد منح القوط الغربيين في سنة ٤١٠م أقليم اكوتين الممتد من اللوار حتى البرانس فأسسوا بها

(٤) A.H.M. Jones, **The Later Roman Empire**, Vol. 1, p. 270-271

مملكة لهم، حيث استقروا في منطقة تمتد من تولوز إلي آسبانيا من عام ٤١٨ الى عام ٧١١م. وبعد أن طرد القوط الغربيون الوندال من اسبانيا توجه الوندال إلى شمال افريقيا. حيث أسسوا لهم مملكة استمرت منذ سنة (٤٣٩ - ٥٣٣م) ونجح الفرنجة الميروفنجيون في انشاء مملكة في غالة (٤٨١-٧٥١م). وأقام ادواكر سنة ٤٧٦م بعد استيلائه على روما مملكة في ايطاليا (٤٧٦-٤٩٣م).

وما لبث القوط الشرقيون ان أقاموا في ايطاليا مملكة لهم دامت من سنة (٤٩٣ وحتى ٥٥٢م) وتمكنت قبائل البرجندين بدورها أن تقيم لنفسها مملكة في المناطق الواقعة بين جبال الألب والرون منذ عام ٤٦٨م.

أما بريطانيا فقد توزعت مناطقها بين ممالك أقامتها قبائل الانجليز والسكسون والجوت بعد انسحاب الجيوش الرومانية منها في عام ٤٤٢م[٤] وهكذا زالت السيادة الرومانية من القسم الغربي من الأمبراطورية وحل محلها سيطرة عدد من الممالك الجرمانية.[٥]

لقد كانت سياسة بيزنطة حتى القرن السادس الميلادي تتجه إلى المحافظة على فكرة وحدة الأمبراطورية الرومانية وتتمسك بمبدأ عالمية الامبراطورية الرومانية، وان العالم الروماني Orbis romanus كان يحكمه امبراطور أصبح حاكما للعالم المسيحي. وأن الرؤية بالنسبة للوحدة الامبراطورية وعالميتها كانت دائما محل دفاع

(٥) لتأسيس لممالك الجرمانية في الغرب أنظر:
Oman, **The Dark Ages** ,(London, 1962). Th. Hodgkin, **Italy and Her Invaders**(1) 8 vols. 2nd ed.(London, 1919).
M. Deansly, **A History of Mediveal Europe** from ٩١-٤٧٦(London, undated) Altamira, **Spain under the Visigoth**in C.M.H. Vol.2.
محمد الشيخ: **الممالك الجرمانية**، الاسكندرية، ١٩٧٥.
S. Painter, **A History of the Middle Ages:**(London, 1966). 284-11500
عاشور: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، بيروت، ١٩٧٢
عمران: **مملكة الوندال في شمال افريقيا**، الاسكندرية، ١٩٨٥
جوزيف نسيم يوسف: **العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها**، الاسكندرية، ١٩٨٤
موس: **ميلاد العصور الوسطى** ٣٩٥-٨١٤ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد: القاهرة، ١٩٦٧
هادريل،والاس: **أوروبا في صدر العصور الوسطى** ٤٠٠-١٠٠٠م، ترجمة: د. حياة ناصر الحجي، الكويت، ١٩٧٩.
محمد الشيخ: **دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي**، الاسكندرية، ١٩٨١.

بالرغم من أن الدولة كانت قد قسمت إلى قسمين شرقي وغربي. إن هذا التقسيم فرضته الحاجة إلى دفاع افضل ولكن فكرة عالمية الامبراطورية كانت لا تزال قائمة.(٦) كانت هذه الأفكار لاتفارق أذهان الأباطرة الذين حكموا القسم الشرقي وذلك بالرغم من الخطر المحدق بهم من كل جانب. هذا الخطر تمثل في القوة الفارسية المستمرة في النمو والتي أصبحت قوة متماثلة للامبراطورية، حيث وصفها المؤرخ سيموكاتس Theophylact Simocattes بقوله: "منذ البدء قضت العناية الآلهية أن تزدان الدنيا بعينين وضاءتين، مملكة الرومان القوية القادرة، وصولجان الحكمة في الدولة الفارسية(٧) هذا بالاضافة إلى الضغوط على القسم الشرقي من الأمبراطورية من الجماعات التي تقطن شمال الدانوب، والشعور بالقومية الذي كان يسيطر على سكان المناطق المحليين أنفسهم، وبالرغم من ذلك فقد حافظت الامبراطورية على جهودها المستمرة لاسترجاع المناطق المغتصبة في الغرب.(٨)

ان آخر ممثل أو نصير لفكرة الوحدة والأمبرطورية الرومانية الموحدة كان جستنيان. ولقد بدأ بعزيمة وعمل جاد لكي يعيد للأمبراطورية امتدادها السابق وبريقها القديم.

وفيما يلي نذكر بايجاز عمل جستنيان لاستعادة أملاك الامبراطورية الرومانية.

شمال افريقيا:

كانت الأحوال في شمال افريقيا زمن الوندال (٤٣٩-٥٣٣م) قد بلغت حدا كبيراً من السوء. إذ درج الوندال على اضطهاد سكانها من الكاثوليك. حيث كان الوندال على المذهب الأريوسي(٩) وألقوا في السجن بعدد كبير من السكان الكاثوليك ورجال الدين وصادروا ممتلكاتهم. وقد لجأ الى القسطنطينية عدد كبير من الأساقفة الافارقة والتجار الذين توسلوا الى الامبراطور بأن يوجه حملة ضد الوندال

(٦) سبقت الاشارة إلى هذه الفقرة ص (٥٨) وحاشية (٩) من المقدمة.

(٧) هذه العبارة منقولة عن ج. م. هسى، **العالم البيزنطي**، ص ١٠٢ وللتعريف بالمؤرخ سيموكاتس الصحة نفسها حاشية (١٤).

(٨) A. N. Stratos, **Byzantium in the Seventh Century**, Vol. 1, p. 3

(٩) حالة شمال افريقيا في عهد الوندال، أنظر:
جوليان، شارل اندرى، **تاريخ افريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مزالى والبشير سلامة، تونس للنشر ١٩٦٩، ص ٣٥٥ وما يليها. أيضا: عمران، **مملكة الوندال في شمال افريقيا**، القاهرة ١٩٨٥.

ويشير فازليف في كتابه: Vasilieve, **History of the Byzantine Empire Vol ١**, (University of Winconsin Press, 1952) p. 134.

بعد أن أكدوا له ان السكان الوطنيين سوف يقومون بالثورة عند قدوم الحملة وانهم سوف ينضمون اليها.

وقبل البدء في الحرب ضد الوندال(١٠)، أوضد أى قوة من القوى الجرمانية في الغرب الأوروبى، أدرك جستنيان بشاقب بصيرته أن الممالك الجرمانية لن تقف صفا واحدا في مواجهته، لان القوط الشرقيين لم يكونوا على علاقة طيبة مع الوندال. كما وان الفرنجة دأبوا على حرب القوط الشرقيين، ولم يكن في استطاعة القوط الغربيين في أسبانيا أن يكون لهم دور جدي في الحرب نظرا لبعدهم عن مواقع القتال من جهة وعلاقاتهم السيئة مع الوندال من جهة أخرى.(١١)

وعهد جستنيان إلى قائده الشهير بليزاريوس بشن الحرب على الوندال في شمال افريقيا واستمرت تلك الحرب من سنة ٥٣٣-٥٤٨. وتخللها فترات هدوء وسلام وانتهت باستيلاء جيوش جستنيان على شمال افريقيا والمناطق التي شملتها مملكة

= إلى أن أهالى المنطقة الأصليين في شمال افريقيا من المسيحيين الأرثوذكس والصحيح أن الأهالى كانوا يدينون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي. وذلك نظرا لأن منطقة شمال افريقيا كانت تابعة اداريا جزء منها لايطاليا وهو الجزء المعروف حاليا بليبيا "طرابلس، وتونس والجزئر". حيث شملت ولاية ايطاليا في تقسيمات دقلديانوس الأدارية الأراضى الواقعة بين الدانوب والبحر الادرياتى بمعنى ان ولاية ايطاليا شملت على شمال البلقان ودالماشيا وجزء من افريقيا. اما الجزء الأخر من افريقيا فقد ضم الى ولاية او اقليم غالة في تقسيمات دقلديانوس حيث ضم اقليم الغال: بريطانيا وغالة واسبانية وغربى موريتانيا وهو الجزء المعروف الآن بمراكش وموريتانيا "هسي: العالم البيزنطي ص ٣٥. ايضا عاشور: تاريخ أوروبا العصور الوسطى ١٩٧٢ص ٢٠ اما عن كيفية اعتناق ولاية غالة وايطاليا بالمذهب الكاثوليكي وليس الأرثوذكسي. كان حتى منتصف القرن الخامس لفظ كاثوليكي، Catholic (عالمى) وارثوذكس مستقيم، يطلقان على الكنيسة بصفة عامة على اعتبار انها كنيسة واحدة جامعة ذات ايمان قويم. وفي سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقدونيا وصدر عنه قانون الايمان القائل بكمال الطبيعتين الالهية والبشرية في المسيح ورفضت الاسكندرية ذلك المعتقد واختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية واختصت القسطنطينية بلقب الأرثوذكسية الخلقدونية . اما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية. رأفت عبد الحميد، الدولة الكنيسة ص ٢ مصر ط٢ ١٩٨٢.

(١٠) لتفاصيل الحرب ضد الوندال انظر:

Procopius,**History of The Wars** , Book 3. The**Vandalic War**. Trans. into English By Dewind (Harvard University Press, London).

أيضا: Vasillieve, Ibid, P. 134

لتفاصيل أماكن استقرار الوندال في شمال افريقيا انظر:

le, D., Pringle**The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest**BAR International Series 99, 1981 P. 10.

(١١) Davis,**A History of Medieval Europe**, (Hong Kong, 1981) p. 45. Domoulin,**Kingdom of Italy Under Odovacar and Theodoric, in C** . M. H. Vol.2, p 493.

الوندال (*) من أراضي المغرب وأقل من نصف الدوقيات الرومانية التي كانت موجودة قبل الغزو الوندالي. أما باقي المنطقة فقد استقر بها مجموعات الـ Moor (١٢)، البربر، المستقلة. وبينما كانت حملات بليزاريوس موجهة ضد الوندال في سنة ٥٣٣م، فإن باقي الحملات منذ استسلام جليمر ملك الوندال، سنة ٥٣٤. وحتى ظهور الحرب في سنة ٦٤٧م كانت موجهة ضد البربر (Moor) حتى ان تهديدات البربر (Moor) كانت وراء قيام نظام التحصينات في افريقيا البيزنطية خلال القرن السادس الميلادي (١٣) وقدر على من بقى من الجنود الرومان في شمال افريقيا أن يشتبكوا في نضال مع البربر حتى سنة ٥٤٨م حين استطاع القائد الروماني جون تريجيلتاس John Triglitas أن يوطد سلطة الامبراطورية. وأن يكفل للبلاد الأمن والسلام فترة استمرت أربعة وعشرين عاما (١٤) وامتدت سيطرة الرومان من طرابلس بليبيا إلى معقل Septem المعروف بحصن سبته قرب مضيق جبل طارق. وتحقق لهم كذلك السيطرة على جزيرتي كورسيكا وسردنيا وجزائر البليار.(١٥)

(*) ويروى George Monchos عن أسر بلزاريوس لملك الواندال جليمر وحمله إلى القسطنطينية. وقد قام جستنيان بتخليد ذلك على النقود باصداره عملة حفر على أحد وجهيها صورته وعلى الوجه الآخر صورة بلزاريوس مسلحا وكتب عليه عبارة (بلزاريوس، مجد بيزنطة). (Velissarios, the glory of the Byzantine)
ويقول ان ماحدث بعد ذلك من عزل بلزاريوس عن قيادة شمال افريقيا فقد كان من باب الحسد حيث اتهموه ظلما، وأخذوا منه القيادة الدفاعية عن افريقيا وأرسل سليمان بدلا منه. ولم يستطع سليمان أن يحتفظ بكل ماكسبه بليزاريوس واعطى كل شيء للوندال. ثم يروي أن وصف الـ Morousiovi بأنهم لايأكلون خبزا أو يشربون خمرا ولاتوجد لديهم أشجار زيتون. ولكنهم يعيشون على الشعير مثل الحيوانات. وقد كتب ليمر إلى فاران Pharan الذي تركه بليزريوس في حراسته، يطلب منه أن يرسل له خبزا واسفنجة وجيتارا. وقد بهت فاران من الطلب. وفسر الشخص الذي حمل الرسالة بقوله: ان جليمر يحتاج الخبز ليأكله والاسفنج ليمسح دموعه ويعزي نفسه. وعلى الجيتار يغني حياته الحزينة. وعندما سمع فاران الأسباب أرسل له طلباته.
George Monachos, **Chronicon Breve, Patrologiae Graeca** Tomus 110, Col. 807-808.

والجدير بالذكران ان موناكوس يعتمد في معلوماته على بروكوبيوس ويذكر ذلك صراحة لأن بروكوبيوس كان Assessor مساعدا في جيش بليزاريوس وشاهد عيان لتلك الأحداث.

(١٢) يطلق على سكان المغرب الأصليين اسم Moors او البربر. انظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٥، ص ٣٧.

(١٣) Pringle, Ibid p. 9.

(١٤) Vasilieve, Ibid p. 136

(١٥) Procopius, IV, 28, 4 - 52.

أيضا: Pringle, Ibid p 20

وكان على جستنيان أن يقوم بوضع ترتيبات وتنظيمات ادارية [١٦] مدنية وعسكرية في المناطق المفتوحة كما ترتب عليه أيضا إعادة بناء الحدود القديمة وأن يبنى نظاما موحدا لما يسمى بالثغور Limitanei وهو نظام يقضي بتوطين الجنود في مواقع متقدمة ليكونوا بمثابة الصف الأول يتلقى الضربات الأولى من المهاجمين حتى تستعد الفرق الأساسية للقيام بلقائهم. وعمل على ارجاع الأراضي التي اخذها الوندال أو الاسرة الحاكمة الوندالية بالذات إلى الملاك الأصليين. وقد منح الأفارقة خمس سنوات للمطالبة بأراضيهم التي حرموا منها. أو حرم منها أجدادهم. وأعيدت ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية. أما الوثنيون والهراطقة واتباع الدوناتية [١٧] والأريوسية فقد حرموا من ممتلكاتهم.

وامتد الحرمان كذلك إلى اليهود الذين حرموا حتى من معابدهم التي حولت إلى كنائس. [١٨]

ايطاليا:

من الأمور الهامة التي شجعت جستنيان على استرداد ايطاليا

أولا: ماساد في ايطاليا من شعور بالسخط ضد الحكام الأريوسيين على الرغم مما كان يسودها من تسامح دينى أرسى قواعده ثيودوريك Theodoric، الملك القوطي الشرقي (٤٩٣-٥٢٥م) والذي عرف بتقديره للحضارة الرومانية. [١٩]

ثانيا: موقف الملوك الجرمان في ايطاليا من الأمبراطورية الذين دأبوا على اظهار

---

(١٦) لمعرفة الترتيبات الإدارية التي قام بها جستنيان في شمال أفريقيا، أنظر: الكتاب ص ١١٥-١١٦.

(١٧) ظهر مذهب الدوناتية على يد زعيم دينى يسمى دوناتوس في مدينة قرطة certa "قسطنطينية" في الجزائر (نوميديا) القديمة، أثر حركة الاضطهاد التي شنها دقلديانوس على المسيحيين. وكانت الكنيسة الكاثوليكية لاترى بأسا في أن يعود إلى رحابها المسيحيون الذين قبلوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية أوسلموا كتبهم المقدسة لحرقها. وذلك إذا اعلنوا ندمهم وتوبتهم، أما الدوناتية فانهم كانوا يرون أن هؤلاء المسيحيين كانوا ضعافا في عقيدتهم وفرطوا في دينهم وانه يجب إعادة تعميدهم قبل أن يقبلوا في المجتمع المسيحي. وفضلا عن ذلك فإن الدوناتية وجّهوا هجوما عنيفا ضد رجال الكنيسة لتقاعسهم عن شد أزر الشهداء فيجب ابعادهم عن الكنيسة وقد تفرع عن الدوناتية جماعة من الفلاحين المستضعفين Coloni عرفوا باسم الدوارين Circumcelliones أخذوا ينهبون مزارع الكاثوليك والوثنيين على حد سواء.

مصطفى كمال عبدالعليم - **دراسات في تاريخ ليبيا القديم**، منشورات الجامعة الليبية - بنغازي، ١٩٦٦، ص ١٠٠ وما يليها.

(١٨) Jones, Ibid, Vol. 1, p 274.

(١٩) Vasilieve, Ibid, p. 134

ايضا Domoulin, **The kingdom of Italy Under Odovacar and Theodoric. in**: C.M.H. Vol.1.o.452

ايضا: Davis, **A History of Medieval Europe** pp. 47-48.

مايكنون للامبرطورية من الاحترام، وكانوا يسعون بكافة الوسائل للحصول على ألقاب رومانية سامية. ومثال ذلك ادواكر Odovacar (٤٧٦-٤٩٣م) وهو أول ملك جرماني تولى إدارة الحكم في ايطاليا والذي رفض أن يعين امبراطورا على الغرب لأنه كان مقتنعا ان امبراطورية واحدة متحدة تحكمها القسطنطينية سوف تعطيه مجالا أوسع من مجرد اقتصار حكمه على ايطاليا. كما وان القسطنطينية كانت ممتنة لما قام به ادواكر حيث عبرت عن تقديرها له بأن منحته مرتبة البطارقة Patricus وذلك بناء على طلب مجلس الشيوخ في ايطاليا والذي أكد ولاءه لامبراطور الشرق.[٢٠]

كما أن ثيودوريك، خليفة ادواكر في حكم ايطاليا، كان حريصا على أن يظهر بأنه يحكم باسم الامبراطور وليس باسمه الشخصي. وقد حمل لقب ملك دون ان يحدد ما اذا كان ملكا للقوط أو ملكا لايطاليا. ولم يؤرخ مراسيمه الرسمية بتاريخ حكمه بل أرخها بتاريخ حكم امبراطور القسطنطينية. وحتى على النقود التي سكت في عهده لم يذكر إلا اسم الأمبراطور ورسمه. وقبل ان يستقر به المقام في ايطاليا نراه يبعث بسفارة إلى القسطنطينية ينبىء فيها الأمبراطور زينون zeno (٤٧٤-٤٩١م) بمقتل ادواكر، غير أن السفارة وصلت بعد موت الامبراطور.

وتولى الحكم انستاسيوس Anastasius (٤٩١-٥١٨) الذي لم يعر الأمر إلتفاتا حتى عام ٤٩٧م حين اعترف بثيودوريك حاكما على ايطاليا.[٢١]

أما الفرصة التي سنحت لجستنيان بالهجوم على ايطاليا فقد اتاحتها له أمالا سونتا Amala Sontha (٥٢٦-٥٣٣م) ابنة الملك ثيودوريك والتي كانت وصية على ابنها القاصر أثالاريك Athalaric وقد واجهتها مصاعب كثيرة منها معارضة القوط لها في سياستها التي جعلتها على اتصال مع القسطنطينية وخصوصا بعد وفاة ابنها وزواجها من ابن عمها الذى اظهر لها الخيانة. ولأنها لم تكن متأكدة من موقفها فإنها راسلت جستنيان في السر طالبة ملجأ لها ومأوى إن استطاعت الفرار، ولكنها

---

(٢٠) Ostrogorsky, B. S. P. 69.
أيضا فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ت. محمد مصطفى زياده، القاهرة، ص ٣٤.
Oman, **The Dark Ages**, p. 2.

(٢١) Ostrogorsky, Ibid, P. 63
أيضا: Domoulin, Kingdom of Italy under Odovacar and Theodoric in: C. M. H. Vol1 p. 494.

قتلت عام ٥٣٣.[٢٢]

وكانت تلك الأمور مجتمعه دعوة غير صريحة لجستنيان للتدخل في ايطاليا لتحقيق حلمه.

وقد أرسلت الجيوش البيزنطية إلى ايطاليا تحت ستار نجدة أمالاسونتا. أما المساعدات التي تلقاها الجيش البيزنطي فلم تكن كبيرة كما كان يتوقع. وكان أكثر المتحمسين للجيش الامبراطوري يعيشون في صقلية، حيث لم ينزل بها أحد من القوط. فضلا عن أن البابا وقف إلى جانب القوات الامبراطورية. والجدير بالذكر ان الجيش الامبراطوري لقى مساعدة غير مباشرة من الجرمان أنفسهم وذلك بانقسام الجرمان حيث لم يحفل الفرنجة بسقوط قوة القوط الشرقيين في ايطاليا. وكان القوط الشرقيين أنفسهم مفككين. وإذا كانت الجيوش الامبراطورية لم تلق مقاومة في صقلية لأن الجزيرة خلت من القوط. وفي نابلي تساوت قوات الامبراطورية والقوط الشرقيين وما لبثت نابلي وكذلك روما ان سقطتا في يد قوات الامبراطور وبدون أي مقاومة تذكر في سنة ٥٣٦م.

تعرض بلزاريوس في روما لحصار طويل لم يستطيع الخلاص منه إلا بعد صعوبة شديدة وبعد ذلك تقدم شمالا وكان على رأس القوط الشرقيين ملكهم ثيوداهاد Theodahad الذي كان متقلبا وغير ثابت. وكان القوط الشرقيون يملكون طاقة ومقدرة على الحرب أكثر من الوندال، فعند انتشار الأخبار حول ما حدث، وحتى قبل سقوط روما أطاحوا بذلك الملك الضعيف وانتخبوا وتيجيز Witigis الذي كان واحدا من أشجع المحاربين القوط وهو الذي حاصر بليزاريوس في روما سنة كاملة واستمر في مواجهة الجيش الروماني حتى أجبره بليزاريوس على الاستسلام سنة ٥٤٠ وأرسله إلى القسطنطينية. ولكن القوط انتخبوا ملكا غيره هو توتيلا Totila والذي استطاع خلال أحد عشر عاما أن يستعيد ايطاليا بأكملها ويدمر سمعة القائد الروماني بليزاريوس وقد وصف توتيلا بأنه أخر الملوك القوط وأول فرسان العصور

---

(٢٢) لمعرفة تفاصيل مقتلها واتهام الامبراطوره ثيودورا بذلك أنظر:
Procopius, **The Gothic War** Book Viii, 22 - 28

أيضا لحرب الاستعادة، أنظر: Procopius VII.

أيضا: Hodgkin, **Italy and Her Invaders Vol**. 3 Book 4. pp 627-633.
Diehl, **Justinian, The Imperial Restoration in the West** in C. M. H. Vol.2, p. 14.

أيضا موس: ميلاد العصور الوسطى، ص، ١٧٧

الوسطي.(٢٣)

واستمرت الحرب من ٥٣٤ إلى ٥٥٤م أي لمدة عشرين عاما من الخراب والدمار استطاعت بيزنطة ان تحرز النصر فيها وقد تجمع باقي فلول القوط وتركوا ايطاليا ولم يعلم أحد وجهتهم (٢٤). في سنة ٥٥٤م عادت من جديد ايطاليا ودالماشيا وصقلية إلى الأمبراطورية (٢٥)، وفي نفس السنة قرر جستنيان أن يعيد إلى كبار الملاك بايطاليا والي الكنيسة كل ما نزعه منهم القوط الشرقيون من ممتلكات. كما أعاد إليهم حقوقهم وامتيازاتهم القديمة. وعمل على أن يخفف عن السكان وطأة ما أصابهم من الخراب. غير أن تلك الحروب ظلت زمنا طويلا عاملا في وقف نمو الحياة الاقتصادية في ايطاليا. وفقدت بسببها روما أهميتها السياسية مدة طويلة.(٢٦)

أسبانيا

أما آخر حملات جستنيان الحربية على الغرب الأوروبي فكانت تلك الحملة التي وجهها إلى اسبانيا(٢٧) حيث أرسل اليها في سنة ٥٥٠م أسطولاً بحريا أحرز انتصارا باهرا واستولت قواته على عدة مدن وحصون بحرية وخضع لجستنيان الجزء الجنوبي الشرقي من أسبانيا بما في ذلك قرطاجة ومالقة وقرطبة. وامتدت بذلك أملاكه من منطقة القديس ڤينسنت St. vincent غربا إلى قرطاجة شرقا وبقي هذا الاقليم على خضوعة للامبراطورية نحو سبعين سنة (٢٨) وترتب على حروب الاسترداد في الغرب الأوروبي أن تضاعفت مساحة الامبراطورية من الغرب فدخل في نطاقها دالماشيا وايطاليا وشمال افريقيا وجنوب شرق اسبانيا وصقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار وأصبح البحر المتوسط مرة اخرى بحيرة رومانية وامتدت حدودها من

---

(٢٣) Oman, **The Dark Ages,** p. 105.

(٢٤) Deihl, **Justinian, The Imperial Restoration in the west in**: C.M.H. vol . 2 , p. 17-18.

أيضا: Vasilieve, Ibid. 136-137

أيضا: Jones, L. R. E. Vol. 1 pp. 275-276

(٢٥) كان اقليم ايطاليا ضمن تقسيمات دقلديانوس يضم ايطاليا وشمال البلقان ودالماشيا وصقلية وجزء من أفريقيا. أنظر: هسى، المرجع السابق ص ٣٥. أيضا الكتاب ص (٧٢).

(٢٦) Vasilieve, Ibid, p. 137.

(٢٧) لتفاصيل الفرصة التي انتهزها جستنيان لدخول اسبانيا أنظر: طرخان، دولة القوط الغربين ص ١٠٣-١٠٤. أيضا: A. H. M. Jones, Ibid, Vol. 1, p. 276.

(٢٨) Vasilieve, Ibid, p. 137.

مضيق جبل طارق إلى نهر الفرات ومن الملاحظ أن الاقاليم المستعادة لم تكن قد عادت إلى الامبراطورية عودة حقيقية، فالحدود الجديدة لاتلبث ان تنكمش وتتراجع مرة أخرى (٢٩) وقد قام اللمارديون بغزو إيطاليا سنة ٥٦٨م (٣٠) ووصلوا إلى شمالها والذي عرف فيما بعد باسم لومبارديا. ولم يكن لدي الحاكم البيزنطي في ايطاليا قوات تكفي لمقاومتهم، فتحصن داخل مدينة رافنّا، وانتشرت جموع اللمبارديين في سهولة ويسر في كل المدن غير المحصنة، وبلغوا في زحفهم جنوب ايطاليا، وأحاطوا بروما من الشمال والشرق والجنوب وقطعوا كل اتصال بينها وبين رافنّا حتى تحرم روما من أي مساعدة تأتيها من رافنّا أو القسطنطينية. وقد أقام اللمبارديون في ايطاليا مملكة جرمانية واسعة وحاول كل من الأباطرة تيبريوس Tiberius (٥٧٨ - ٥٨٢م) وموريس Maurice (٥٨٢ - ٦٠٢م) أن يتحالف مع ملك الفرنجة شيلدريك الثاني Childeric (٥٧٠-٥٩٥م) في محاولة القضاء على اللمباردين ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل.(٣١)

هذا بالإضافة إلى أن الممالك الجرمانية في الغرب الأوروبي أثرت في تغيير خريطة أوروبا تغييرا كبيرا وخصوصا بعد أن ابتلعت الممالك الجرمانية القوية الممالك الجرمانية الضعيفة. وكانت مملكة الفرنجة هى المملكة القوية التي استطاعت في عهد جستنيان أن تدمج ممالك التورنجين Thurigians والبرجندين Burgundian والبافارين Bavarian في مملكة الفرنجة، والتي استطاعت فيما بعد أن تقيم امبراطورية منافسة في الغرب الاوروبي للامبرطورية الرومانية الشرقية نفسها.(٣٢)

الشرق

كانت علاقات جستنيان وخلفائه في الشرق مع الفرس بصفة خاصة علاقة تأرجحت بين الحرب والسلم. وهذا ليس بجديد في تاريخ العلاقات الرومانية الفارسية، فقد اشتبكت الامبراطورية في حروب متواصلة مع الفرس منذ زمن واستمرت بين كر وفر حتي عهد الامبراطور جستنيان الذي استطاع أن ينهى تلك الحروب بعقد صلح دائم Eternal peace بعد أن دفع مبالغ ضخمة للملك الفارسي

---

(٢٩) Bury, Ibid, Vol. 2, p. 32.

(٣٠) اللمباردين Lungbards أو أصحاب الذقون الطويلة هم من اشهر القبائل الجرمانية، التيوتونية، الشرقية.

(٣١) Vasilieve, Ibid. p. 174.

(٣٢) Bury, Ibid. Vol. 2, p. 32.

خسرو. وقد حاولت المؤرخة الروسية نينا فكتور فتابيفوليفسكيا (٣٣) أن تبرز دور قبائل العرب في الصراع بين الفرس والروم. وهم القبائل الوسطاء بين الدولتين والذين كونوا دولة عازلة Buffer State بين بيزنطية وفارس. وهم اللخمين أو المناذرة الذين اتبعوا الفرس وعملوا في جيوشهم، والغساسنة وهم الذين اتبعوا الروم وعملوا في جيوشهم. وقد ورد ذكرهم لدي بروكوبيوس ووصفهم (٣٤) وعملهم في الجيوش الفارسية والرومانية. كما انه قام بايراد تفاصيل تاريخ الحروب الفارسية والرومانية في المصدر المشار اليه. وملخص أسباب قيام الحرب في عهد جستنيان هو أن ملك فارس لاحظ ما لجستنيان من أطماع في الغرب فانتهز فرصة استنجاد ملكة القوط الشرقيين بجستنيان فنقض الصلح الدائم وأقدم على غزو سوريا، وبدأ العداء السافر مع الامبراطورية ونشبت فيها حرب مريرة انتصر فيها الفرس. وجرى استدعاء بليزاريوس من ايطاليا غير أنه لم يستطع أن يوقف تقدم خسرو (٥٣١-٥٧٩م) الذي زحف على سوريا فنهب وخرب انطاكية التي كانت تعتبر واحدة من اهم المدن الرومانية في الشرق، بل واحدة من اهم مدن العالم في ذلك الوقت.(٣٥)

وتقدم الفرس حتى شاطىء البحر المتوسط وحاولوا التقدم الى شواطىء البحر الأسود غير ان اللازيين Lazi (٣٦) منعوهم من التقدم وفي النهاية قام جستنيان بعقد هدنة مع الفرس لمدة خمس سنوات تعهد فيها بدفع الجزية لهم.(٣٧)

وبعد معاهدة الخمس سنوات تجددت المعارك بين الفرس والروم بين عامي ٥٥٤-٥٥٦م ولكن في سنة ٥٦١م عقدت معاهدة سلام بين الفريقين مدتها خمسون عاما. وبمقتضي هذا الصلح تعهدت الامبراطورية بدفع مبلغ سنوي من المال للفرس. بشرط أن يتعهد الفرس باتباع سياسة التسامح الديني مع المسيحيين الذين يستقرون

(٣٣) نينا فكتور فتابيفوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع الى القرن السادس الميلادي - ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. الكويت ١٩٨٥م ص ١١٠ ومايليها.

(٣٤) Procopius, **History of the wars ,The Persian War** , 1, Xii, XViii, II, Xix.

(٣٥) Frye, **Iran under The Sasanians in** C. H. of Iran, Vol. 3, pp 154-155.

ايضا حسن بيرنا: **تاريخ ايران القديم** - ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم والسباعى محمد السباعى - القاهرة ص ٣٦٦ - ٣٧٨. جلانثيل داوني، **انطاكية القديمة**، ترجمة ابراهيم نصحي، القاهرة ١٩٦٧ ص ٣١٦ - ٣٢٥.

فيليب حتى: **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ص ٤١٣ ومايليها.

(٣٦) اللازيون Lazi نسبة إلى Lazica لازق [اى بلاد اللاظ] وهي خولكيس Cholcis على ساحل البحر الأسود، وأهالي اقليم Lazica كانوا يدينون بالولاء للامبراطورية الرومانية.

لتفاصيل أكثر عن قضية Lazica بين الفرس والرومان أنظر: حسن بيرنا: المرجع السابق ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣٧) Vasilieve. Ibid. p. 139 أيضا Jones. Ibid. vol. 1. p. 272

في الأراضي الفارسية، ونص الصلح أيضا على ألا يتبادل الرومان والفرس تجارتهم إلا في مواضيع معينة حيث يجرى تحصيل المكوس(*). ومن أهم بنود الاتفاق تخلي الفرس عن منطقة لازيكا الواقعة جنوب شرق البحر المتوسط.

وبذلك لم يعد للفرس موضع علي البحر الأسود. وهذه الحقيقة لها أهميتها من الناحيتين السياسية والاقتصادية ودليل ذلك أنها سوف تتسبب في حروب في المستقبل بين الطرفين.[٣٨]

لقد قام الامبراطور جستنيان بدفع الجزية لفترة العشر سنوات الأولى. وحان موعد الجزية لمدة العشر سنوات التالية في سنة ٥٧٢م وكان ذلك في عهد الامبراطور جستين الثاني Justin II (٥٦٥-٥٧٨م) والذي رفض فكرة دفع الجزية واعتبر أنها مهانه كبري أن يقوم بدفعها. وفي نظره كان على الامبراطور أن يأمر فيطاع وأن يفرض ارادته ولو بقوة السلاح. ولم يقتصر رفض جستين دفع الجزية بل وطالب بوضع الأرمن المسيحيين التابعين للفرس تحت حمايته. وهدد خسرو بأنه لو تعرض للأرمن فسوف يعين ملكا جديدا على فارس.[٣٩]

وقامت الحرب بين الفرس والرومان من جديد، وكان السبب هذه المرة النزاع على أرمينيا التي كانت لها أهمية اقتصادية واستراتيجية بالنسبة للدولتين. وكانت حاجة الرومان للسيطرة على أرمينيا في ذلك الوقت شديدة، إذ أن الرومان اعتمدوا على الأرمن كجند مرتزقة خصوصاً ان الأرمن اشتهروا بأنهم من خيرة الجنود

(*): جاء اسم العرب في هذه الاتفاقية مرتين:

الأولى: أن يبقى الخلفاء العرب على ولائهم السابق لكل من الدولتين، فلا يهاجم عرب الفرس بلاد الروم ولا عرب الروم بلاد الفرس.

الثاني: ورد ذكر العرب في المادتين الثالثة والرابعة من المعاهدة التي حددت المكوس المدفوعة على السلع على ان يعفى منها السفراء وحاملو الرسائل من الرومان والفرس وكانت هذه المكوس تختص في المكانة الأولى بنقل الحرير. المادة الخامسة حظرت على التجار العرب وعلى غيرهم من التجار البرابرة ان يسلكوا طرقا غير معروفة وحددت لهم الطريق المارة بنصيبين ودارا. دون غيرها من الطرق إلا إذا حصلوا على اذن بذلك. وإذا نقضوا هذا القرار سوف تتعقبهم سلطات الحدود لتسليمهم لكل من الطرفين "الرومان والفرس" لإنزال العقاب بهم. وهذا معناه اشتغال العرب في التجارة ومعرفتهم طرق أخرى غير الطرق المعروفه وتفاديهم لدفع المكوس.

نينا فيكتور فنافوليفسكيا العرب على حدود بيزنطة وايران - ص ١٣٦-١٣٧.

(٣٨) Ostrogorsky, Byzantine State p. 79
Jones, Ibid. Vol. 1, p. 294.
أيضا نينا فيكتور فنابيفوليفسكيا - المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٣٩) Jones. Ibid. p. 305

وأمهرهم. ولم يحرز الرومان النصر على الفرس زمن جستين. لأن اغارة الآفار على شبه جزيرة البلقان أدى إلى انشغاله وادى ذلك الى انتقال دارا(٤٠) إلى أيدى الفرس بعد أن استمر حصارها سنة. ويعتبر فازلييف سقوط دارا في أيدي الفرس سببا في إصابة الامبراطور جستين الثاني بالجنون.(٤١) بينما يشير جونز إلى أن سوء تصرفات جستين ورفضه لدفع الجزية انما كان بسبب جنونة ويعزى سبب جنونه بصفة عامة إلى فشل كل محاولات الاصلاح التي قام بها. وتداركت الامبراطورة صوفيا زوجة جستين الموقف، واستطاعت أن تتوصل إلى هدنة مع الفرس بعد أن دفعت لهم مبلغا وقدره خمسة وأربعون الف قطعة ذهبية وذلك في عام ٥٧٤م.(٤٢)

وجاء الامبراطور تيبريوس Tiberius (٥٧٨-٥٨٢م) وكان هدفه في الدرجة الأولى استرداد قوته العسكرية، لذلك قام بمحاولة اقناع الفرس لتجديد معاهدة السلام بنفس الشروط القديمة. ولكن خسرو فضل أن تفصل أرمينيا وأصر على هدنة لمدة خمس سنوات في العراق.

ووافق الامبراطور على دفع ثلاثين ألف قطعة ذهبية سنويا ولمدة ثلاث سنوات لفارس. ومع ذلك فقد ظلت العمليات الحربية مستمرة على حدود أرمينيا.(٤٣)

ويحصل الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢) على مكاسب أكيدة للامبرطورية من الفرس. اذ حدث ان نزاعاً داخليا حول السلطة نشب في فارس. وساعد موريس خسرو الثاني الذي نجح بفضل هذه المساعدة بالظفر بالحكم. فبادر الملك الفارسي بإبرام معاهدة مع موريس سنة ٥٩١م. ولهذه المعاهدة أهمية كبيرة إذ أنه بمقتضاها تنازلت فارس للرومان عن أرمينيا الفارسية والجزء الشرقي من اقليم الجزيرة الفراتية بما في ذلك حصن دارا. ولم تنص المعاهدة على شروط الجزية السنوية.(٤٤)

وهكذا استطاع موريس أن يستعيد من الفرس كل مافقده الرومان من أراضي، بل وفوق ذلك وسع حدوده.

وفي أثناء حكم الامبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢-٦١٠م) تعرضت حدود

---

(٤٠) دارا Dara هى حصن واقع على حدود بلاد الجزيرة الفراتية وهى مجاورة لحدود الفرس.

(٤١) Vasilieve, Ibid. p. 170.

(٤٢) Jones, Ibid. Vol. 1, p. 305.

(٤٣) Jones, Ibid. Vol. 1, p.308.

(٤٤) Ostrogorsky, Ibid. p. 79-80.

الأمبراطورية للانكماش الشديد وذلك لحساب فارس. فعقب اغتيال الامبراطور موريس سنة ٦٠٢ك نهض خسرو الثاني ملك الفرس، للاخذ بثأر موريس كأحد الأسباب التي كانت وراء رغبته في اجتياح الأقاليم الرومانية وساق جيوشه إلى داخل الأراضي الرومانية التي لم تستطع الدفاع عن نفسها فتوالت هزائمها. واخترق الجيش الفارسي خطوط دفاعها فاستولي في سنة ٦٠٥م على حصن دارا ثم نفذ إلى آسيا الصغرى واستولى على قيصرية.(٤٥)

وفي سنة ٦١٣م انتشرت جيوشه في سوريا وفلسطين، وفي سنة ٦١٤م توغل الفرس في آسيا الصغرى، وفي ٦١٥م وصلوا خلقدونيا على شاطىء بحر مرمرة. وفي سنة ٦١٦م استولوا على مصر.(٤٦)

الشمال الشرقي

إن سياسة الأمبراطور جستنيان في الغرب والشرق استلزمت سحب الجنود المرابطين على ضفاف الدانوب والاستفادة منهم في جبهات أخرى، الشيء الذي اضطره إلى الاستعاضة عنهم بإقامة سلسلة كبيرة من الحصون والقلاع (٤٧). في نفس الوقت لجأ إلى سياسة "فرق تسد" بين القبائل التي كانت تقطن الدانوب. فحالف اللمباردين ضد الجبديين في المجر وقام بعمل علاقات وديه مع الهون الاوتريجور(٤٨) Outrigour المقيمين في شرق بحر آزوف. وفرق بينهم وبين قبائل الهون الكوتريجور

---

(٤٥) Ostrogorsky, Ibid. p. 85.

(٤٦) بتلر: **فتح العرب لمصر،** ترجمة محمد فريد ابو حديد - دار الكتب المصرية ١٩٣٣ من ص ٤٩ - ٧٩ والذي خلص فيه الى ان الفرس بلغوا في فتوحهم اطراف وادي النيل حتى أسوان. ثانيا ان المصرين من الاقباط لم يرحبوا بالفرس او رأوا فيهم الخلاص بل كانوا يرونهم بعين الجزع والمقت.

(٤٧) لمعرفة تفاصيل بناء هذه الحصون والتكاليف المالية التى استهلكتها، انظر Procopius, The Buildings

(٤٨) التعريف بالقبائل التي وردت أسماءها والتي تحالف معها جستنيان.

الآفار: من التتار المغول والذين جاؤا من وسط آسيا، وهم رعاة من أصل منغولي، وكانوا متبربرين ولكنهم محاربين أشداء. وقد أطلق الصينيون عليهم اسم جوان - جوان Jauan-Jouan وقد امتدت أقاليمهم من شرق تركستان حتى منغوليا أو منوريا ووصلوا حتى كوريا. وفي القرن الخامس بدأ الآفار في التوجه غربا بحثا عن مراع غنية. وفي النصف الثاني من القرن السادس امتد حكم الآفار من بحر البلطيق إلى نهر الدانوب ومن الممتلكات الفرنجية على نهر الب elbe حتى نهر دنيبر Dinieper وقدسيطرواعلىاعدادكبيرةمنالسلاف والهون والبلغار والقبائل السارامايته Saramatic أما سيطره الآفار على السلاف فلها أهميه تاريخيه كبرى بالنسبه للامبراطوريه الرومانيه =========

Cotrigor المقيمين بين نهرى الدون والدينستر. كما حالف الآفار واستعان بهم ضد باقي القبائل التي تسكن مناطق الدانوب. هذا بالإضافة إلى سياسة استمالتهم بالهدايا الثمينة والاعطيات المالية. ولم تكن سياسة جستنيان اغراق القبائل المتبربرة في شمال الدانوب بالهدايا موضع انتقاد من المؤرخ بروكوبيوس وحده (٤٩) بل هناك من يتفق معه في الرأي حيث يشير إلى ذلك يوحنا الافسوسى John of Ephesus. (٥٠)

لقد عانت المملكة(٥١) من أقوام بغيضة، كان أول ظهورهم أيام الملك جستنيان، وقد أطلق اسم الآفار (٥٢) وذلك بسبب شعورهم الطويلة. وقد استقبل جستنيان

= فبدلا من أن يدين السلاف بالولاء للامبراطورية الرومانية فانهم يدينون به للآفار. وقد بنى الآفار لأنفسهم دولة قوية بقوانينها وجيشها ودبلوماسيتها. وكان يرأس تلك الدولة خان Khangan او Khan of Khann وقد كانوا على علاقة جيدة بجيرانهم. وبالرغم من انهم متبربرون إلا أنهم كانوا همزة الوصل بين قبائل أوروبا الوسطى.

انظر A. Stratos, Ibid, Vol. 1, p. 30-31

السلاف: أو الصقالبه، كما يسميهم العرب،: هم الاقوام الذين امتدت اماكن اقامتهم بين نهرى الفستولا والدينير وجبال الكربات والذين أطلق عليهم اليونانيون اسم Sklavenini وأطلق عليهم الجرمان اسم Wendi أنظر: Stratos, Ibid Vol.1, p. 33 وأول مرة يظهرون بها باسمهم الحقيقي كما ورد في كتابات بروكوبيوس Sclavenes. وقد اطلق بروكوبيوس اسم الهون على جماعات الصقالبة والبلغار التي دأبت على عبور نهر الدانوب. وقد اشتق اسم العبيد Slaves من اسم السلاف.

أنظر Vasilieve, Ibid p. 140

الجبديون: هم فرع من القبائل الجرمانية الشرقية واسمهم ال Gepidae.

الهون: قبائل رحل من العنصر المغولي. عرفوا في أوطانم الأسيوية باسم هسيونج هو Hisung - Hu. كما قيل أنهم لم يكونوا سوى شعب هيونج، نو.

وقد كانو الهون أول القبائل الأسيوية الرعوية التي غزت أوروبا. ومن المعتقد أن الهون قد سكنوا في المنطقة التي تعرف اليوم بشمال الصين أو منغوليا. وكان ذلك في القرن الثاني أو الثالث الميلادي.

انظر: Cantor, Medie Val History p. 116

العريني، تاريخ اوروبا العصور الوسطى، ص ٨٤.

أيضا الحويري: رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية، ص ١٠٧.

(٤٩) Procopius, **The Anecdota or Secret History,** Viii, 7, 8, xxvi, 23, **Squanders** money on barbarians.

أيضا: البحث فى الأحوال الاقتصادية.

(٥٠) انظر مصادر ومراجع الكتاب.

(٥١) يطلق يوحنا الأفسوسى على الأمبراطورية اسم مملكة وعلى الأمبراطور اسم ملك Basileos.

(٥٢) راجع هامش ٤٨.

سفرائهم بتقدير كبير وقدم لهم هدايا ثمينة من الذهب والفضة، والملابس والحزم والسروج المطعمة بالذهب وان تقديم الهدايا على هذا النحو أطمع فيه باقي الأعداد مما أثار القلاقل في الأمبراطورية الشيء الذي جعل رجال السناتو "الشيوخ" يقولون: انه يجلد الأمبراطورية كلها ويقدمها للبرابرة.(٥٣)

وبما أن جستنيان سحب قواته من حدود الدانوب، فنتيجة لذلك كانت كل من الليريا Illyricum وتراقيا Trace عرضة للغارات المتبربرة. ففي سنة ٥٤٤ غزا البلغار الليريا أما الصقالبة (السلاف) Slave،(٥٤) فقد تسربوا إلى Dyrrhachium في شمال غرب البلقان في سنة ٥٤٨م ثم اتجهوا الى تراقيا وداكيا Dacia ودالماشيا Dalmatia ولم يستطيع الجيش الروماني ارجاعهم إلى ماوراء الدانوب حتى ربيع ٥٥١م. وفي سنة ٥٥٧م استطاع الآفار التسلل الى بانونيا Pannonia والسيطرة على السلاف المقيمين في هذه المنطقة. وشرعوا في تهديد البلقان. ولكنهم في سنة ٥٥٨م أرسلوا أول سفارة لهم إلى الامبراطور جستنيان، ويبدو أنهم كانوا يطالبون بالاستقرار والاستيطان داخل الأراضي الرومانية وبالذات في منطقة سكوذيا Scythia, وقد رفض جستنيان التخلي عن الأرض ولكنه قام بمساعدتهم ماديا . وقد قنعوا بقبول مبالغ مالية للتراجع وراء الدانوب ومنذ سنة ٥٥١ وحتى سنة ٥٥٩م لم تذكر أية إغارات. ولكن في سنة ٥٥٩م زحفت قبائل الهون الكوتريجور مع البلغار والصقالبة وقاموا بعبور الدانوب، وهاجمت مجموعة منهم الدوقيات المقدونية ومجموعة أخرى هاجمت تراقيا وتسربت خلال الحائط الطويل، مما سبب فزعا شديدا في القسطنطينية نفسها.(٥٥)

وقد قامت الكنائس في الأقاليم التي تعرضت لغاراتهم بنقل تحفها الى القسطنطينية أو إلى الشاطيء الأسيوي من البسفور. وعلى الرغم من ردهم إلى ماوراء حدود الدانوب فان مناطق تراقيا ومقدونيا وتساليا تأثرت إلى حد كبير من الناحية الاقتصادية بسبب هذه الغارات. وعلى الرغم من الاستحكامات المنيعة التي شيدها جستنيان وراء خط الدفاع لحدود الدانوب فإنها لم تستطع ايقاف هذه الغارات نظرا لضغط هذه القبائل من جهة ونقل عدد كبير من الجند للقيام بالقتال

(٥٣) John of Ephesus: **The Third Part of the Eule Siastical History of John of Ephesus,** ed. and trans. R. Payne Smith (Oxford 1860), p. 428

(٥٤) انظر هامش ٤٨.

(٥٥) Vasilieve, Ibid, p. 294, Jones, Ibid. Vol. 1 293 - 294, Stratos, Ibid, Vol.1, p. 33

في مناطق اخرى.(٥٦)

وهذا يفسر لنا سر مبادرة جستنيان إلى دفع الأموال لرؤساء تلك القبائل والتى كانت دائما موضع انتقاد من مؤرخى عصره.

ان خطر الهون لم يقتصر على شبه جزيرة البلقان بل تأثرت به أيضا شبه جزيرة القرم، وبالذات مدينتا خرسون وبسفور، اللتان كانتا من معاقل الحضارة اليونانية في تلك الجهات، وقامتا بدور كبير في التجارة بين الامبراطورية الرومانية وبين المناطق الواقعة شمال البحر الأسود.(٥٧)

وقد احتل الهون شبه جزيرة القرم منذ آواخر القرن الخامس وصاروا مصدر تهديد للامبرطورية وممتلكاتها هناك ونتيجة لذلك فقد شيد جستنيان تحت ضغط الهون حصونا عديدة وسورا طويلا لحماية تلك الجهات.(٥٨)

وبعد وفاة جستنيان، جاء الآفار جريا على عاداتهم لاستلام ماكانوا يأخذون من أموال ولكن جستين الثاني امتنع عن الاستمرار في دفع ماكان يدفعه لهم جستنيان ولم يرضخ لتهديدهم بل اضطرهم للخضوع لارادته بعد أن حبسهم لمدة ستة شهور. وبعد ذلك جاءوا يخطبون وده كأصدقاء وذلك بالسماح لهم بأن يشيدوا له قصرا وحماما. وبعد الانتهاء من ذلك قاموا ببناء جسرين على نهر الدانوب.(٥٩)

وبعد وفاة الامبراطور جستين الثاني أرسلوا وفودا إلى الامبراطور تيبريوس Tiberius يطلبون منه أن يعطيهم مدينة سرميوم Sirmmium (*) وإلا فإنهم سيواجهونه بالعداء. وتظاهر الامبراطور باستعداده لاجابتهم إلى مطلبهم في شكل وعود لم يكن ينوى الوفاء بها. ودبر حيلة للإيقاع بهم بإرسال قائده نارسيس محملا بالذهب والهدايا تصحبه مجموعة كبيرة من الاتباع. في نفس الوقت حاول الأمبراطور اقناع اللمبارديين بالانضمام إليه لقتال الآفار. كما أرسل سفارة إلى الآفار تقول انه أرسل إليهم قائده نارسيس ليتفاوض معهم على السلام.

وقد سافر نارسيس إليهم بحرا وقد وضع كل الذهب والهدايا الثمينة في سفينة قدر لها ان تغرق في اليوم الأول من الرحلة، الشيء الذي جعل نارسيس نفسه يمرض

(٥٦) Vasilieve, Ibid, p. 140

(٥٧) هى المنطقة المعروفة بروسيا فى وقتنا الحالى.

(٥٨) Vasilieve, Ibid, p. 141.

(٥٩) John of Ephesus, Ibid, pp. 429-431.

(*) سرميوم: مدينة تقع بالقرب من بلجراد الحالية وكانت تتحكم في الطريق الرومانى القديم من الغرب الى الشرق.

مرضا شديدا ويلقى حتفه. وبذلك فشلت مهمته وجميع الخطط المرسومة له. وعندما لم يستجب اللمبارديون للامبراطور بعث بسفارة أخرى إلى الآفار سلمهم المدينة سلما بدلا من أن يأخذوها حربا وعنوة.(٦٠)

وفي السنة الثالثة من حكم تيبريوس عاود السلاف الأغارة وانتشروا في كل مناطق اليونان وسالونيكا Thessalonica واحتلوا عددا كبيرا من المدن وأخذوا عدداً كبيراً من الحصون. وخربوا وحرقوا، واسترقوا سكان تلك المناطق وجعلوا أنفسهم سادة تلك الآراضي. واستقروا بها وكأنها ملك لهم دون أن يساورهم اي خوف. ومرت اربع سنوات وهم يقيمون في المنطقة آمنين، فقد كان الامبراطور مشغولا في الشرق في حروبه مع الفرس ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنهم أقدموا على سرقة قطعان من الخيول الامبراطورية والتي كانت تعد بالآلاف والاستيلاء على كل مايجدونه في طريقهم. وفي سنة ٥٨٤م كانوا لايزالون في تلك المناطق يعيشون في أمن وطمأنينة بعد أن حققوا لأنفسهم قدرا من الثراء، فصاروا أغنياء يتعاملون بالذهب والفضة وامتلكوا قطعانا من الخيل، وعدّة للقتال. وتدربوا على الحرب حتى تفوقوا على الرومان أنفسهم، بعد أن كانوا مجرد جماعة متوحشة لاتجرؤ على الخروج من الغابات والأحراش. وأمّا سلاحهم فقد تجاوز الرماح التي اعتادوا القتال بها.(٦١)

وتوغل السلاف جنوبا حتى وصلوا إلى شبه جزيرة البلوبونيز pelponnese كما ساعدوا الآفار على اجتياح العديد من المراكز الرومانية وفي السنة ٥٨٦م ضربوا الحصار حول مدينة سالونيكا Thessalonica. (٦٢)

والواقع أن الامبراطورية لم تقم بعمل إيجابي ضد السلاف إلا بعد أن فرغ موريس من مشكلة فارس وذلك سنة ٥٩١م حيث وجه جيشه إلى منطقة البلقان واستطاعت قواته أن تهزم الآفار والسلاف وأن تجبرهم على العودة إلى ماوراء حدود الدانوب.

وفي سنة ٥٩٧م وصلت جموع الآفار والسلاف حتى أسوار سالونيكا مرة ثانية. ولكن في سنة ٦٠٠م مالبث الأمبراطور موريس أن أوقع بهم الهزائم وأجبرهم على الموافقة على توقيع معاهدة سلام مقابل أن تدفع لهم الأمبراطورية مائة ألف قطعة

---

(٦٠) John of Ephesus, Ibid, pp. 443-445

(٦١) John of Ephesus, Ibid. pp. 432-435

(٦٢) Vasilieve, Ibid p. 171

من الذهب مقابل تراجعهم وراء الدانوب.[٦٣]

ومعاهدة السلام تلك التي حددت نهر الدانوب كحد فاصل بين القوتين تركت الباب مفتوحا أمام الادارة العسكرية الرومانية لعبور نهر الدانوب لمطاردة أى جماعة من جماعات السلاف والآفار تهدد المصالح الرومانية. ومن غير المعروف على وجه الدقة نتائج العمليات العسكرية التي خاضها الأمبراطور موريس منذ ٥٩١م على جماعات السلاف التي استقرت في البلقان، فليس هناك مايشير إلى أنهم عادوا إلى مواطنهم شمال الدانوب.[٦٤]

وبعد موت الامبرطور موريس سنة ٦٠٢م وفي عهد الامبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢-٦١٠) سادت فترة فوضى تمثلت في الفتن الواقعة في البلاد والاضطراب السياسي والارتباك الداخلي بدأ معه وكأن النصف الشرقي من الأمبراطورية سوف يسقط في أيدي الفرس من جهة والسلاف والآفار من جهة أخرى.[٦٥]

ونلخص فيما يلي الوضع الذي آلت اليه حدود الامبراطورية البيزنطية في بداية القرن السابع. [*]

اولاً : افريقيــا

مربنا أن بلزاريوس استعاد ولاية افريقيا. وكان لها امتداد طبيعي (في تونس والجزائر (نوميديا) والمغرب (موريتانيا) وأضيفت لها فيما بعد منطقة طرابلس (غرب ليبيا) فهي بذلك تمتد من مصر وحتى المحيط الاطلنطي كما أسلفنا، وشعبها لاتيني أو اكتسب الصبغة اللاتينية ويعيش في مدن بطول ساحل البحر المتوسط وأما الدواخل فقد كان يغلب عيها قبائل تحضرت أو أقبلت بعض عناصرها على الديانة المسيحية بدرجات متفاوتة. وكما سبق وأن أوضحنا أن المواجهة كانت عنيفة بين العناصر اللاتينية على الساحل وقبائل المور في الداخل مما استدعى وضع نظام للحكم للتغلب على هذه المواجهة.

فأقيمت بولاية افريقيا في أول الأمر حكومة للولاية يرأسها حاكم بمرتبة والي

---

(٦٣) Stratos, Ibid. Vol. 1. p. 33

(٦٤) وسام فرج "السلاف في شبه جزيرة البلقان ٥٩١ - ١٠١٨م"، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٤١.

(٦٥) هسي: العالم البيزنطي ص ١٢١.

(*) اعتمدت في هذا التلخيص على:

N. Stratos "Les Frontieres de 1 Empire au cours du Vile Sieclepp. 421-434 in Stidies in The 7th Century ByZantine Poliral History, London, 1983.

بريتوري Praefectus praetore ومالبثت الولاية أن تحولت وبسرعة إلى أرخونية واتخذت من قرطاجة عاصمة لها والحق بها جزيرة سردينيا وجزر البليار وربما كذلك ماتبقى للبيزنطيين من ممتلكات في اسبانيا.

ثانيا: ايطاليا

كان اللومبارديون، قد غزوا معظم ايطاليا. وماتبقى من ايطاليا في يد البيزنطيين تحول إلى أرخونية عاصمتها رافنّا، تجمعت فيها السلطات المدنية والعسكرية. وكان حاكم الأرخونية (Exarch) يحكم مناطق رافنا وكلابريا (في جنوب شرق ايطاليا) حكما مباشرا. وإلى جانب هذه المناطق كان هناك عدد من الدوقيات هي:

١ - ليجوريا (في شمال شرق ايطاليا) وتشتمل على ساحل ليجوريا وتتاخم حدود ممتلكات الفرنجة في الشمال ومملكة اللومبارديين في الشرق.

٢ - ايستريا (Hesteria) وتتاخم دوقية فينسيا في الغرب ومملكة اللمبارديين في الشرق.

٣ - دوقية فينسيا (Venetia) وكانت تضم منطقة فينسيا.

٤ - دوقية المدن الخمس Pentapolis وتقع بين منطقة رافنا ودوقية روما.

٥ - دوقية روما.

٦ - دوقية نابلي، والتي تقلصت حدودها فاقتربت من الساحل وتمتد حتى سالرنو.

وبين هذه المناطق او الدوقيات دوقيتا Spotete وبنيفينتيوم Beneventium.

ولم تخضع صقلية لسلطة ارخون ايطاليا وبعد أن استعادها بلزاريوس اصبحت لها حكومة يرأسها حاكم برتبة Patricius يتبع الامبراطور مباشرة. وستتحول في منتصف القرن السابع إلى ثيم Thema وسكان الجزيرة من اللاتين يختلط بهم عناصر كثيرة من القوط، وغلبت عليهم جميعا وبسرعة جموع من الأغريق والأرمن والسوريين. ومنذ نهاية القرن السادس كانت الاغريقية هي اللغة السائدة على سواحل الجزيرة الشرقية والجنوبية.

ثالثا: أسبانيا

كان لبيزنطة ممتلكات في أسبانيا لها أهميتها في منتصف القرن السادس إذ كانت تضم المناطق الواقعة في الجنوب (فالينسيا وجنوة Gendie واليكانتي

Alicante ومرسية Murcie وغرناطة والبرتغال Algarve. ومناطق في أقصى الجنوب الغربي ولم تستطع بيزنطة في بداية القرن السابع ان تحتفظ بسيادتها إلا في منطقة محدودة تطل على البحر المتوسط واختيرت قرطاجة لتكون عاصمة لها.

رابعا: في الشمال

كانت بيزنطة قد نجحت في اخضاع الكثير من المناطق خلال القرن السادس ولكن مع بداية القرن السابع بعد الصلح الذي عقد مع الأفار مابين عامي ٥٩٨ و ٦٠٠م [٦٦] أصبح لبيزنطة منطقة تمتد من مصب نهر الدانوب في البحر الأسود وتسير بمساواة مجرى النهر حتى التقائه مع نهر ساف، ومن هذه النقطة تسير بمحاذاة هذا النهر حتى درينا Drina مكونة خطا مستقيما حتى البحر الادرياتي.[٦٧]

خامسا: في الشرق

كان ليزنطة ممتلكاتها في شبه جزيرة القرم وشبه جزيرة الخرسونيس وخرسون (التي في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة) وهي المدينة الرئيسية. ولم تكن منطقة Lazic اللاظ منطقة بيزنطية بمعنى الكلمة. وكان اللازيون يقطنون ساحل خولكيس القديمة (على الساحل الجنوبي للبحر الاسود) وتحولوا إلى المسيحية في القرن السادس، وخضعوا لبيزنطة في عام ٥٦٣م.

وإلى الشرق قسمت أبيريا وجورجيا بمقتضى معاهدة عام ٥٩١ بين بيزنطة والفرس وامتد خط الحدود حتى تفليس. وكانت هذه المنطقة قد أخذت في التحول إلى المسيحية ابتداء من القرن الثالث م.

سادسا: في الجنوب

كانت ارمينيا وميزوبوتاميا (الجزيرة الفراتية) وسوريا وفلسطين ومصر تدخل في حدود الامبراطورية البيزنطية.

أ - أرمينيا: هى محور الصراع بين بيزنطة وفارس، ثم أصبحت منطقة نزاع بين البيزنطيين والعرب. وقد قسمت معاهدة عام ٩٥١ أرمينيا إلى منطقتين يفصل بينهما خط حدود يمتد من ميزوبوتاميا ويسير عبر أرمينيا الى الشرق من بيتليس Bitlis في اتجاه بحيرة فان، ويترك للفرس منطقة Vaspourakan

---

(٦٦) نبه استراتوس الى خلاف بين عدد من المؤرخين حول تاريخ الصلح، أنظر حاشية (٥)، ص ٤٢٢.

(٦٧) يحيل استراتوس إلى كتابه:

Stratos. Byzantium in the 7th Century 1.28. Athens 1965.

بأكملها، ثم يصعد هذا الخط ليصل الى الغرب من تفليس في ابيريا وفي الشمال يكون نهرا أزات (جارنى تشاى "وهورازدان Hourazdan (زانجا) وجبال أرارات الحدود في الشمال واستعادت بيزنطة جميع الولايات الأرمنية الواقعة إلى الغرب من هذا الخط.(*)

ب - ولاية Azazene القديمة في اتجاه الجنوب نحو نهر دجلة. وحيث يبدأ خط الثغور Limes في اتجاه شمالى شرقي ويعبر أعالي أرض الجزيرة بين نصيبين التي بقيت تابعة للفرس ودارا البيزنطية، ثم بعد اتجاهه غربا في حركة التفاف واسعة ليحيط بمنطقة الاستبس حتى المنطقة القريبة من ثيودوسيو بوليس (رزانيا Resaina) يأخذ في الاتجاه نحو الشرق حتى قلعة Sihinnus حيث يسير بحذاء الضفة الشرقية لنهر الخابور وحتى نهر الفرات. وفي أقصى نقطة في اتجاه الشرق موقع كيكسيوم Cicesium الحصين. ويستمر خط الثغور هذا إلى أعلى الفرات ويعبر مناطق زنوبيا وكالينيكوم (Micephorum - Callinicum) (الرقة حاليا) وصورا Soure (القريبة من الحمام حاليا).

ومهمة خط الثغور هذا حماية ولايات أرمنيا الرابعة وأعالي ميزوبوتاميا. ويشتمل على أكثر من اثنتين وثلاثين قلعة وكثير من المدن الحصينة مثل أديسا، قسطنطينية واميديا.

وشعوب هذه المناطق جميعا مختلطة اختلاطا كبيرا حيث ضمت عناصر شتى. فعظم سكان ارمنيا الرابعة من الأرمن، ولكن هناك سوريين وعرب ومقدونيين ويهود. وفي أعالي ميزوبوتاميا تختلط العناصر الأرمنية، ويوجد مستعمرات للأغريق من بقايا جنود الاسكندر ومن أغريق قادمين من عصر السلوقيين وكذلك عناصر محلية متأغرقة. كما وأنه كان هناك مستوطنات يهودية من بقايا يهود الأسر الأشوري وعناصر يهودية أخرى قدمت بعد أن دمر نسباسيان مدينة القدس، ومنذ وقت باكر تسلل العرب إلى هذه المناطق واحتلوا مناطق واسعة. واستقرت منذ القرن الأول عشائر أو أسر عربية بأكملها وخاصة في أعالي موزوبوتاميا مما اكسب هذه المنطقة وضعا خاصا تميز بعروبته. وقد أسست جماعات من قبيلة قيس عيلان الكبيرة عددا

(*) لتفاصيل أكثر عن أرمنيا، أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١، ص ١٥٩ - ١٦١.

من القـرى وغلب علي القري قبائل مـن تغلـب وتنـوخ وبـكر وطيء وايـاد و Tankites وكـانـت المدن تضم جـمـوعـا من السـوريين والأرمن والأغـريق واليهود.

ج - ومن الفرات إلى خليج العقبة علي حافة الصحراء حيث توجد ثغور (Limes) سوريا وفلسطين. ومن الفرات وحتى حوران (جبل الدروز) لم يكن هناك أى موقع محصن ما عدا بعض القلاع في سرجيوبوليس Sergiopolis وبالميرا (تدمر). وواضح أن الصحراء هي خير خط للدفاع. وخلف خط الثغور مدن محصنة بعسكر، بها حاميات على قدر لابأس به من القوة وتكون خط دفاع متين متصل الحلقات. وفي جنوب حوران، الثغور الداخلية "تمييزا لها عن الثغور الخارجية. وهذه التحصينات جميعا كانت أهلا لمواجهة إغارات قبائل الصحراء العربية. وإلى الوراء من هذه الثغور الداخلية مدن محصنة مثل بصرى تكمل خطوط الدفاع عن المنطقة وتتكون حامياتها في معظم الاحوال من عناصر عسكرية محلية.

د - دواخل سوريا وفلسطين تعيش فيها الشعوب الوطنية مع جماعات من الفينيقين واليهود والسمارتين والأنباط وعناصر أخرى اعتادت القدوم إلى منطقتي سوريا وفلسطين. ولا ننسى أن الاسكندر الأكبر وخلفاءوه عمّروا المنطقتين بعناصر من الأغريق الذين استمروا في الاستيطان بها عبر قرون كثيرة. وطبيعى أن يؤثروا بحضارتهم وأساليب حياتهم. يضاف إليهم جماعات ضمت الكثير من الجند المسرحين الرومان Verterani الذين جلبوا معهم حضارتهم الاغريقية الرومانية. ولابد وأن يكون أيضا لليهود وجود في كل من سوريا وفلسطين.

وقد تغلغل العرب ومن عصور باكرة في هذين القطرين. وغنى عن البيان أن نذكر تغلب العنصر العربي تماما في الثغور الخارجية وأن يكونوا غالبيا سكان خط الثغور الداخلية ولاشك أن دارسي التاريخ العربي القديم قبل الإسلام يبرزون دور الغساسنة الذين استقروا في بصرى. وأمتزجوا مع قبائل عربية أخرى، كانت قد استقرت في منطقة الحدود ونظم البيزنطيون وجودهم في الفيلارخية الكبرى والمنطقة الفاصلة التي تتصدى حامياتها لهجوم البدو القادمين من الحجاز. ويكفى أن نشير

إلى المستوطنات العربية الكبيرة في غزة بل نعرف أنه منذ القرن الثالث كان للعرب وجود في مناطق انطاكية وحمص وحلب، وغلب الاتحاد الضخم لقبائل قيس - عيلان على إقليمى أنطاكية وبصرى. وفي بالميرا كان استقرار قبائل تغلب وكلب الذين انتشروا حتى بلغوا وادي نهر الأورنت (العاصي) الأدنى. ونذكر أيضا جماعات من قبائل قضاعة وصالح وبكر وغيرها ممن نجحوا في صبغ المناطق الممتدة من الفرات على طول الحدود في اتجاه الجنوب بصبغة عربية. وكل هذه الجماعات دانت بالتبعية لبيزنطة وكانت غالبيتها تدين بالمسيحية.

سابعا: مصر

كانت مصر حلقه الاتصال بين افريقيا البيزنطية وبين فلسطين واعتنق سكانها جميعا المسيحية وإن كان جانب كبير من المصريين قد أقبلوا على المذهب المنوفيزيتي. وعاش في هذا المجتمع الضخم حوالي ثلثمائة ألف أغريقي كانت سلالة من قدم مع الاسكندر واستمروا في عصور الرومان وحتى العصر البيزنطي. (*)

ونعرف أيضا انه كان يقيم في مصر أيضا يهود وسوريون مما زاد عدد العناصر غير الوطنية. ومن المهم أن ندرك انه كان للعرب أيضا وجود في شرقي مصر مثل بدو الرشيدات وعناصر من لخم. كما وانه استقرت قبائل عربية كثيرة فيما بين جبل سيناء واقليم طيبة حتى أن مدينة قفط اعتبرت مدينة نصف عربية.

ثامنا: اقليم البنتابوليس بشرق ليبيا (ويقابل تقريبا إقليم برقة(**) حاليا): (***)

(*) أنظر ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥، ص ١٢٧-١٤٣.

(**) لتفاصيل أكثر عن برقه أنظر ياقوت الحموي - المصدر السابق ج١، ص ٣٨٨-٣٨٩.

(***) كان يضم خمس مدن نعرف أن سكانها منذ انشائها في القرن السابع ق. م. كانوا من الأغريق. أما العناصر الوطنية من البربر كانوا يقيمون في دواخل الأقليم. ويبرز من تلك العناصر قبيلة لواته (التي قابلها العرب عند فتحهم برقة) والتي انتشرت فيها عناصر كثيرة العدد في معظم أرجاء ليبيا.

الفصل الثاني
سلطة الأمبراطور والمؤسسات الدستورية

هذا الفصل مخصص لدراسة ماطرأ من تغيير على سلطة الأمبراطور والمؤسسات الدستورية في القرن السادس وبخاصة ما اتصل منها بعصر الأمبراطور جستنيان دون ما تعرض لكافة ماكان مستمرا من بقية الأنظمة والمؤسسات التي لم يمسها التغيير بشكل مؤثر.

الأمبراطور

عرف أن الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) الذي يعد عصره فترة انتقال هامة في تاريخ الأمبراطورية الرومانية ونظم حكمها ، اهتم بدعم قوة حكومتها داخليا وقوى هيبتها ليرهب أعداءها في الخارج. وانه لبس التاج، وأسبغ على نفسه صفات القداسة ولم يعترض القانون الروماني على ماسنّه من قوانين لحماية سلطة الأمبراطور . لأن الدستور الروماني نفسه ينبثق عن العديد من نظريات الحكم الاستبدادي. [١]

وعلى هذا تمتع الأمبراطور بسلطة مطلقة بمقتضى الدستور إذ كان يحكم قبضته على الشئون الخارجية سواء في العمليات السلمية أو الحربية، أما في الشئون الداخلية فقد كان المهيمن على السلطتين التشريعية والتنفيذية. ولكن الاستبدادية المطلقة تمثلت بحق في شخص الامبراطور جستنيان الذي كان يتوق إلى زيادة السلطة الرومانية Imperium.

ومنذ عهد أغسطس وحتى عهد دقلديانوس كانت تحكم الأمبراطورية حكومة ثنائية dyarchy طرفاها الامبراطور ومجلس الشيوخ. وكان الأمبراطور دقلديانوس

(١) Reid, j. s "The Reorganisation of the Empire" In: C. M. H. Vol. 1, p. 28.
أيضا العريني، الدولة البيزنطية - ص ٢٣.

حريصا على التخلص من هذه الازدواجية والذي أقدم على الغاء الدور التشريعي الاداري للمجلس ولكن قنسطنطين أبطل هذا الأمر. ومنذ عصر قسطنطين وحتى عصر جستنيان حل محلها حكم مزدوج آخر قوامه الكنيسة وسلطة الأمبراطور التي اندمجت في سلطة الامبراطور الاستبدادية. ولكنه سرعان مادبَّ الخلاف بينهما حتى بلغ حد العداء. لقد وصف أجاثيا Agathias (٢) المؤرخ المعاصر لجستنيان وكان محقا في وصفه استبدادية حكمه بقوله: من بين أولئك الذين حكموا في بيزنطة كان جستنيان أول حاكم أوتوقراطي Autocrator فعلا واسما Autokratior.(٣)

وبذلك يكون جستنيان قد أسس الحكم الاستبدادي المطلق. ويكون أجاثيا Agathias المعاصر له، محقا في وصفه.

ولقد شاركت جستنيان عرش الأمبراطورية زوجته ثيودورا (Theodora) التي لعبت دورا بارزا في سياسة الأمبراطورية (٤) ويمكن القول أن نصيبها في الحكم (٥) قد تجاوز نصيب حكم الامبراطور جستنيان نفسه (٦) ومن ناحية الشكل كانت جميلة الشكل، جذابة المظهر، ولكنها من ناحية الأصل والمنشأ كانت وضيعة. إذ كانت في الأساس راقصة من أسرة فقيرة عمل جميع أفرادها في السيرك، إذ كان والدها يعمل حارسا للدببة في سيرك القسطنطينية، وكانت شقيقتها الكبرى تعمل في المسرح.(٧)

كان المؤرخ بروكوبيوس ضد زواجها من الأمبراطور جستنيان حيث يقول: أن رجلا مثل جستنيان كان بإمكانه الزواج من أجمل فتيات الأمبراطورية وأكثرهن عفافا وشرفا. ومن أكبر العائلات بها. لكنه اختار الزواج من هذه الغانية واختياره هذا يدل على أنه لم يكن سويا.

وينفرد ابن العبري (٨) بالقول أن ثيودورا هي إبنة رجل دين من الأرثوذكس، وعندما طلبها جستنيان للزواج أشترط والدها عليه أن لايجبرها على قبول مبادىء

(٢) Bury, H.**Later Roman Empire vol** . 1, p. 352

(٣) هذا مانقله Bury عن Agathias, v. 14 في هامش ١٠ من Bury, Ibid, vol. 1, p. 352 أنظر مقدمة الكتاب نقد أهم مصادر الكتاب ص (٢٠-٢١).

(٤) Bury, Ibid, Vol.1, p. 337.

(٥) Jones, The**Later Roman Empire** , vol. 1, p. 341.

(٦) Diehl, Justinian, The**Imperial Restoration in the West** in C.M.H. vol. 2, p. 3.

(٧) Procopius, the**Anecdota**, Vi. 1., Xii 28,. ix 25, 26, 49-53, ix - 53, x5.

(٨) Gregory Abul. Faraj, The**Chronography of Bar Herbraeus**, Vol. 1. English Translation by (Ernest Wallis Budge) (London, 1970). P.73 - 74.

مجمع خلقدونية (٩). ولكن الارجح أنها كانت راقصة لأن جستنيان قام بتغيير قانون كان يحرم زواج أعضاء مجلس السناتو (الشيوخ) من الغواني (١٠).

كانت ثيودورا قوية الشخصية صعبة المراس ويقال انه لم يستطع أحد التصدي لها ومخالفة رأيها، وأنها كانت تطالب بالحق في إدارة شئون الأمبراطورية كلها. وكانت في حالة تكليف الأمبراطور لشخص ليقوم بعمل ما لاترضى عنه فان مصيره يكون الطرد أو ربما دفعت به إلى الموت بكل قسوة، ويمدنا بروكوبيوس بمثل على تدخلها في إدارة الأمبراطورية عندما عصفت بوالي الشرق يوحنا القبادوقي John of Cappadocia ودبرت له مكيدة ليظهر بها أمام الأمبراطور بمظهر الخائن (١١)، كما أنها رفعت بعض الأفراد العاديين المقربين اليها إلى أعلى المناصب في الدولة: ومن بين هؤلاء بطرس بارسيمز Peter Barsymes (١٢)، فجعلته يحل محل يوحنا القبادوقي وكذلك الشماس Archdeacon فيجلوس Vigilius الذي عينته بابا في روما (١٣)، ولما لم ترض عن بريسكوس سكرتير جستنيان الذي كان واسع الثراء عندما عارضها عملت على نفيه. وتجاهل الأمبراطور ماحدث (١٤).

وبصفة عامة كانت تتصرف كما لو كانت شئون الامبراطورية رهن اشارتها (١٥) وكان موقفها رائعا عندما وقفت إلى جانبه وشدت من أزره وشجعته يوم أن ثارت ضده الأحزاب في العاصمة(١٦). والأهم من ذلك مخالفتها لجستنيان في اتجاهاته الدينية وأسلوب حياته الخاصة.(١٧) ولا يوافق جونز على التسليم بحكم بروكوبيوس

(٩) مجمع خلقدونية :
انعقد سنة ٤٥١ مجمع ديني مسكوني في مدينة خلقدونية بآسيا الصغرى. تقرر فيه تحديد العقيدة المتعلقة بطبيعتي المسيح، واعتبر طبيعتي المسيح البشرية والالهية كاملة غير قابلة للانقسام. وكل من الطبيعتين مستقلة عن الأخرى. وانكر الطبيعة الواحدة التي قال بها المونوفيزيتون أو أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة كما أنكر عقيدة النساطرة أيضا التي انكرت الطبيعة الالهية في المسيح. ويعتبر مذهب خلقدونية وسطا بين المونوفيزتية والنستورية وهو يعتبر المسيح إلاها كاملا وانسانا كاملا.
الباز العريني - الدولة البيزنطية، ص ٥٢ - ٥٣.
أنظر أيضا الكتاب أعلاه ص ٨.

(١٠) Procopius, The Anecdota, x.9-x. 10 - 14 xv - 1-14
(١١) Idem, XVii 32-38
(١٢) Idem XXii, 1, 7
(١٣) Idem XXVii, 14 - 18
(١٤) Idem, XVi - 5 - 11
(١٥) Idem. XVii 21-32
(١٦) جيبون، المرجع السابق ج ٢، ص ٤٠٠ - ٤١٨
(١٧) Idem, X. 10 - 14.

وأن يكون لتيودورا كل هذا النفوذ[١٨].

مجلس الشيوخ

ويأتي في الدرجة الثانية من الأهمية بعد الامبراطور مجلس الشيوخ Senaturs. وقد استمر هذا المجلس يقوم في القسطنطينية بنفس الدور المهم الذي لعبه في روما. وحافظ على تقاليده القديمة. ولم يكن له دور تشريعي ومع ذلك اعتاد عدد من الاباطرة طلب مساعدته في فحص أو دراسة معظم المراسيم أو الموافقة عليها قبل اصدارها. وعمل جستين الأول على تقييد سلطة المجلس التشريعية. بينما نجد أن جستنيان حوله ليكون مجرد مجلس استشاري[١٩] وذلك من قبيل المحافظة على التقاليد الرومانية. ونادرا ماكان المجلس يُدعىَ لمناقشة قرار يتصل برسم سياسة الدولة، واذا دُعَي للنظر في مثل هذا القرار فإن ذلك كان سعيا لكسب مساندته الأدبية وليس حرصا على الاستماع لنصحه والعمل به [٢٠].

ويصور بركوبيوس وضع مجلس الشيوخ بأنه إذا عقد فإن أعضاءه يجلسون وكأنهم مجرد صور ولا يسيطرون على عملية التصويت في أي مسألة تعرض ولايمارسون أي نفوذ ولكنهم يجتمعون استيفاء للشكل مراعاة لقانون قديم. حيث كان من المستحيل لأي من الأعضاء بأن يرفع صوته، ولكن الأمر كله بيد الأمبراطور ورفاقه الذي يتظاهرون بصفة عامة بأنهم يتقاسمون فيما بينهم الأمور المتنازع فيها. ولكن الجانب الذي يفوز بقرار المجلس إنما هو الذي كان الأمبراطور ورفاقه قد اتفقوا عليه فيما بينهم قبل انعقاد المجلس. [٢١]. ويذكر بروكوبيوس أيضا انه بعد ثورة نيكا[٢٢]

(١٨) Jones, LRE, Vol. 1. p. 270.

(١٩) Stratos, Ibid, vol. 1, p. 7.

(٢٠) Jones. Ibid. Vol. 1. p. 329.

(٢١) Idem. XiV. 7 - 11. Xi - 41.

(٢٢) Procopius, Ibid, XiV, 7-11 Xi, 37

وتفاصيل ذلك أن تلك الثورة التي حدثت سنة ٥٣٢ في القسطنطينية تعود إلى عدد من الأسباب : الأول ان أبناء أخ الأمبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨م) اعتبرو ان جستين وجستنيان من ورائه مغتصبين لحقوقهم وأيدهم في ذلك حزب الخضر.وعملوا على عزل جستنيان. ثانيا سخط العامه الذي أثارته معاملة كبار الموظفين. وعلى رأسهم والي الشرق البريتورى حنا القبادوقي والمشرع القانوني تريبونيان اللذان انتهكا القوانين وابتزا أموال الناس. ثالثا: المعارضة الدينية من قبل المونوفيزيين بسبب مافرضه عليهم جستنيان من قيوده أدت هذه العوامل مجتمعة إلى نشوب الثورة في العاصمة. وما هو جدير بالاهتمام في هذه الثورة هو اتحاد حزب الخضر والزرق برغم ماكان بينهم من خلافات، على مناهضة الحكومة. وانتشرت الثورة في جميع أنحاء العاصمة التي تعرضت مبانيها للحريق والخراب والدمار واشعلوا النيران في كنيسة آياصوفيا وسميت الثورة بثورة نيكا بمعنى انتصر وهـــي =

قام الأمبراطور بمصادرة ممتلكات اعضاء مجلس الشيوخ بشكل عام[٢٣].

المجلس الامبراطوري Consistorium

ويلي مجلس الشيوخ في الأهمية مجلس يسمى Consistorium وهو أحدث من مجلس الشيوخ. ويعود أصله إلى مجلس الـ Consilium الذي يعود تاريخ تكوينه إلى عصر أوغسطس ولم يكن له صفة رسمية ويضم الأصدقاء (Amici) أو الرفاق (Comites) وكان الأمبراطور يختار أعضاءه حسبما يتراءى له، والذين لم تكن لهم صفة رسمية. ودأب الأباطرة على استشارة هذا المجلس. وبمضى الوقت اكتسب المجلس صفة رسمية أكثر. وكان يعمل كمجلس للدولة، وكمحكمة عليا، وعهد إلى هذا المجلس مقابلة الوفود المفوضة من مجلس الشيوخ أو من الولايات أو من بعض المدن ويناقشهم في الأمور التي جاءوا من أجلها لمقابلة الأمبراطور. وكان لهذا المجلس تأثير واضح على قرارات الأمبراطور. وكانت القوانين تعتمد بقراءتها في هذا المجلس، وثمة مجموعة من قوانين جستنيان عندما رفعت لاعتمادها، ذكر أنها قرأت في المجلس الأمبراطوري الجديد. ويعطينا عضو مجلس الشيوخ، أو النبيل بطرس Peter، القائم برئاسة الوظائف Magister officiarum من قِبَل جستنيان، وصفا مفصلا لحفل استقبال جرى في المجلس الامبراطورى لدى استقبال سفراء الملك الفارسي، ووصف ماكان يجرى عند التعيين في الوظائف الكبرى مثل وظيفة الوالي الاغسطس Praefectus Augustalis وحتى الصغرى منها مثل الـ Protectores وذلك في جلسات يعقدها المجلس.

وقد اختصر جستنيان كل هذه الجلسات المخصصة للاحتفالات بأن جعل شغل الوظائف الصغرى يتم دون احتفال وبشكل غير رسمي. واقتصر الأمر، فيما يظن، على مناقشة التقرير مع الوزراء المختصين بشكل غير رسمي. ولم يعد المجلس الأمبراطوري مجلس دولة عليه أن يبذل النصح للأمبراطور، وانما أصبح مثل مجلس الشيوخ مجلس نبلاء يدعى للاجتماع ليسمع القرارات المهمة التي يتخذها الأمبراطور ويقرها.[٢٤]

= الصيحات التي كان يرددها الثائرون Nica. وفي ظل هذه الظروف استعد جستنيان للهرب ولم يثنه عن عزمه سوى كلمات الامبراطور ثيودورا "ان من يتولى الحكم فلا يجوز أن يقبل النفي أما إذا شئت أن تنجو فهناك المال وهناك البحر أو هناك السفن.. أما أنا فلازلت أتمسك بالمثل القديم القائل بأن العباءة الأمبراطورية هي خير الأكفان.

أنظر أيضا: Vasilieve, Ibid, 156-157.

(٢٣) Idem Xi. 1 - 9 - 13.

(٢٤) Jones, Ibid. vol.1, p. 337 - 338. No. p. 1137.

ومن غير المعروف إذا كان مجلس الـ Consistortium أو مايمكن ان نسميه مجلس الوزراء، كان يعمل بانتظام في القرنين الخامس والسادس كمجلس استشاري والذي كانت تنسق فيه سياسة الحكومة. والشيء الطبيعي هو أن الأمبراطور قد تعامل بشكل مباشر مع الوزراء حسب الموضوع الذي يمس دائرة عمل كل واحد منهم على حدة. وهذا هو الانطباع الذي ينبثق من دراسة قوانين أباطرة القرن الخامس. في المقدمة يقرر الأمبراطور أن الدستور "القانون" إجابة لاقتراح قدمته دائرة الوزير المعني. ولكن لا يشير إلى أنه نوقش في أي مجلس أو أنه مر على الـ Consistorium وهذا في حد ذاته يثير الشك في أنه لم يوجد أي مجلس استشاري له تأثيره في الدولة. وأن هذا الشك يعزز بما يحدث عندما تتصارع مصالح الوزراء المختلفة.(٢٥)

القنصل : Consul

ويلي ذلك في الأهمية وظيفة القنصل حيث كان الأباطرة وأبناؤهم يشغلون منصب القناصل. وكان القناصل يؤرخ باسمهم وبالسنة التي يتولون فيها هذا المنصب، كما كان لقب قنصل يمنح للحكام البريتوريين Pretorian Prefect والقادة العسكريين Magistri Militium وأحيانا يمنح لذوي الحظوة من المقربين إلى الامبراطور ولكن المنصب كان يعطي إلى أفراد من أسر أعضاء مجلس الشيوخ الكبيرة بالرغم من انهم لم يسبق لهم تولى أي منصب. وكان هناك قنصل في روما، وآخر في القسطنطينية.

وكان تنصيب القنصل يتم عن طريق الاختيار. وعندما يتم اختيار القنصل كان عليه أن يقوم بإنفاق ما مقداره أكثر من عشرين قطعة ذهبية من فئة Centenaria وكان على القنصل تدبير جانب من تلك النفقات ويتحمل الأمبراطور الجانب الأخر، ولكن في عهد جستنيان ألغي هذا المنصب سنة ٥٤١م وبالتالي كل مايترتب عليه من نفقات. ومن المعروف أن جستنيان نفسه شغل منصب القنصل سنة ٥٢١م(٢٦).

ومن حيث رسم سياسة الحكومة والتخطيط لها فقد رأى جونز أنه لم يكن هناك أي تخطيط مسبق، ولكن الحكومة كانت تتعامل مع المشاكل عند حدوثها. أو

---

(٢٥) Jones, Ibid. Vol. 1, p. 339.

(٢٦) Procopius, Ibid, XXVi, 8 - 15.

أيضا: Hodgkin, Italy and Her Invaders Vol. 3 - Book 4.

أيضا: جيبون. المرجع السابق ج ٢، ص ٤٤٨ إلى ٤٥٠

بالأحرى عند التنبه لها. وبصفة عامة فإن سياسة الحكومة تعتمد إلى حد كبير على مصادر معلوماتها. وأن أولئك المقربين من الحكومة يستطيعون رفع أصواتهم بالشكوى وابداء رغباتهم. وطبيعي أن يؤخذ بوجهة نظرهم، أكثر من أولئك الذين لايستطيعون عرض مشاكلهم على الحكومة.

وتكشف الدراسة الدقيقة للقوانين في معظم الأحيان عن تلك الشريحة من المجتمع التي كانت قادرة على التأثير على السياسة الامبراطورية لمصالحها. وعند دراسة قوانين القرنين الخامس والسادس وجد أن معظم القوانين أثارتها حالات شخصية صعبة، ومثل هذه الحالات كانت تعرض للنظر فيها في المحكمة العليا التي يرأسها الامبراطور نفسه. وربما توحي تلك الحالة للأمبراطور بأن القانون في حاجة الى تعديل(٢٧).

على أن كل حكومة مهما كانت مبادئها، ديمقراطية أو أوليغاركية أو ملكية، عليها مسئوليتان يجب عليها النهوض بهما إذا أرادت أن تستمر في مسيرتها الصحيحة. أولهما حماية المجتمع ضد أي عدوان، أي من مجتمع آخر خارجي. وثانيهما حماية أفراد المجتمع داخليا وتوفير الأمن لهم. ولتحقيق ذلك لابد وأن يتوفر لها القوة العسكرية والمقدرة على تطبيق القانون. والمحافظة على القانون تعتمد على السلاح والارتباط بينهما أمر حيوي(٢٨).

ولابد أن الامبراطور جستنيان كان قد فطن إلى هذه القاعدة، لذلك اهتم بالقانون اهتماما كبيرا. كما أن عمله كموظف كبير في الدولة في عهد خاله اكسبه الخبرة الكافية، ومن ذلك رأى أنه من الضرورى اصلاح قوانين الامبراطورية، ويقول جستنيان في مقدمة مدونته "لكي تحكم الدولة حكما صالحا في وقتي السلم والحرب لابد للامبراطورية من الاعتماد على ركنين: السلاح والقانون. فبالسلاح يقهر أعداء الدولة من الخارج. وبالقانون يقطع دابر الظلم الذي يمكن أن يتفشى بين رعيته. وبهذا يكون جديرا باللقبين "نصير العدل" والمظفر المنصور"(٢٩).

لقد أمر جستنيان بوضع عدة مجموعات قانونية تضمنت كل القواعد القانونية. وهذه المجموعات هي:

١ - **مجموعة المراسيم** Codex Justinianus: وتشتمل على المراسيم التي

---

(٢٧) Jones, Ibid. Vol. 1, p. 348-349.

(٢٨) Bury, Later Roman Empire, Vol. 1. p. 365.

(٢٩) مدونة جستنيان في الفقة الروماني - ترجمة عبدالعزيز فهمي - عالم الكتب - بيروت "ب. ت" ص ١ "المقدمة".

وردت في المجموعات الجريجورية Codex Gregorianus [٣٠] والهرموجينية Codex Hermogenianus [٣١] والثيودوسية [٣٢] Codex Theodosianus والتي لم تلغها مراسيم أخرى. وقد صدرت هذه المجموعة سنة ٥٢٩م ثم ألغيت وأعيد وضعها في سنة ٥٣٤م.[٣٣]

٢ - **الموسوعة** Decreta: وقد شكلت لجنة في نهاية سنة ٥٤٠م لجمع القانون القديم. وأعطيت اللجنة حق إستبعاد النظم والقواعد العتيقة، كما أعطيت حق استبعاد ماقد تجده من تعارض بين كتابات الفقهاء القدامى ولو أدى إلى ادخال تغيير على النصوص نفسها[٣٤]. وصدرت الموسوعة في سنة ٥٣٣ تحت اسم Digesta أو Pandectae وتحتوي على خمسين كتابا.

٣ - **النظم** Institutions: وهي عبارة عن كتاب مدرسي وضع لاستعمال طلاب القانون على غرار الكتب المدرسية المبسطة التي كان يضعها فقهاء العصر العلمي ونشر هذا الكتاب في سنة ٥٣٣.

٤ - **مجموعة المراسيم الجديدة** Novella Leges: وهي التي تضمنت اصلاحات لبعض النظم القانونية مثل الأسرة والمواريث[٣٥].

وعندما كتب بروكوبيوس عن عصر جستنيان وبالذات فيما يخص قوانينه لم يثبت نصوص هذه القوانين ولم يذكر مناسبة صدورها وتطبيقاتها. وانما اكتفى بضرب أمثلة على ظلم جستنيان بتغييره القوانين الرومانية القديمة. وكم كنا نطمع في معرفة نصوص هذه القوانين وكيف كانت تذاع وتطبق في عهد جستنيان نفسه.

---

(٣٠) جمع Gregorianus في عام ٢٩٦م الدساتير الامبراطورية الصادرة منذ عهد هادريان حتى عام ٢٩٤.

(٣١) جمع Hermogenianus في عام ٣٦٥ الدساتير الامبراطورية التي صدرت منذ عام ٢٩٥ فأتم عمل سابقة وأطلق على كل من المجموعتين اسم واحد هو Codex ويعني دفتر أو كراسة.

(٣٢) Codex Theodosianus هي مجموعة من القوانين أصدرها الامبراطور Theodosius الثاني عام ٤٣٨م. وتوجد محموعة فالنتيانوس الثالث في الغرب شاملة للأوامر الأمبراطورية منذ عهد قسطنطين.
راجع محمود سلام زناتي، **نظم القانون الروماني** - القاهرة ١٩٦٦، ص ٧٤٤ ومايليها.

(٣٣) مجموعات جستنيان الأربعة تسمى مجمع القانون المدني Corpus Jutinian Civilis.

(٣٤) لم يكن عمل جستنيان مقصورا على جمع القوانين والمبادىء الفقهية السابقة على عهده، وانما احدث كثيرا من التعديلات في هذه القوانين والمبادىء، إما بطريق اصدار اوامر امبراطورية صريحة أو بالتغيير في آراء الفقهاء وأدوار الأباطرة السابقين مع نسبتها كذبا اليهم. وهذا ما أسماه الباحثون بطريقة "تحريف النصوص".
أنظر على بدوي، أبحاث التاريخ العام للقانون: ص ١٥٦ ومايليها، وقد منع جستنيان الشرح والتعليق على النصوص، أنظر على بدوي المرجع نفسه ص ١٥٩.

(٣٥) محمد سلام زناتي، القانون الروماني، ص ٧٥.

ويصدر بروكوبيوس حكما عاما على جستنيان من حيث اصداره للقوانين أو الغائها حيث يقول: "لم يرفض جستنيان أن يصدر قانونا أو يلغى قانونا لأجل مكسب تافه. كما أنه أصدر أحكاما ليس طبقا للقوانين التي كتبها بنفسه ولكن طبقا لتسلط فكرة المكاسب المادية عليه. أي أنه أصدر أحكاما ليست مطابقة فقط للقانون الذي شرعه هو نفسه ولا لأي قانون معروف، بل لقانون أطماعه الشخصية للحصول على المال(٣٦).

كما يشير بروكوبيوس إلى أن جستنيان تجرأ على بيع القرارات القانونية وأن شخصا يدعى ليون (Leo) الكليكي، كان يملك قوة اقناع عجيبة، أقنع الأمبراطور ببيع القرارات القانونية. (٣٧)

ويضرب بروكوبيوس أمثلة على الحالات التي غير فيها جستنيان القوانين لأهوائه الشخصية وعلى رأسها القانون الذي يحرم زواج أعضاء مجلس الشيوخ من الغواني. وأن الذي اضطره إلى ذلك التغيير ولعه بالراقصة ثيودورا ورغبته العارمة في الزواج منها(٣٨).

كما أورد بروكوبيوس أكثر من مثل على تغيير جستنيان لقانون الوراثة لكي يستفيد هو شخصيا من أيلولة الارث. ومن تلك الأمثلة قصة أحد أعضاء مجلس الشيوخ في مدينة عسقلان بفلسطين، الذي توفي وترك ابنة وحيدة وهي بالتالي وريثته الوحيدة. وكان القانون القديم يقضي بأنه إذا مات أحد أعضاء مجلس الشيوخ فإن مقدار الربع من ماله أو إرثه يؤول إلى مجلس المدينة ويأخذ ورثته الشرعيون باقي الثلاثة أرباع ولكن الامبراطور، قلب القانون رأسا على عقب، وأصدر قانونا جديدا يقضي بأنه إذا مات أحد أعضاء مجلس الشيوخ ولم يكن له وريث ذكر فإن لوريثه الشرعي الربع ويأخذ مجلس الشيوخ "خزانة الدولة" الثلاثة أرباع. ويعلق بروكوبيوس على ذلك بقوله: " انه منذ بدء الخليقة لم يجرؤ امبراطور على مشاركة رجال مجلس الشيوخ أموالهم. (٣٩)

ومن أهم التغييرات التي أدخلها جستنيان على القانون الروماني هو اقدامه علي الغاء قانون الألواح الأثني عشر كذلك اقدامه على الغاء واحدة من القوانين

(٣٦) Procopius, Ibid X., 10 - 14.
(٣٧) Idem, Xiii - 17 - 24.
(٣٨) Idem, Xiii., 17 - 24.
(٣٩) Idem, XXiX., 19 - 24.

الجوهرية الأساسية واكثرها مهابة وتبجيلا وهي Res Necmancipi, Rec Mancipi وهذا العمل في حد ذاته مع مجموعة الأعمال الأخرى يضع حدا فاصلاً للعالم الروماني القديم(٤٠).

ويشير بيوري Bury إلى نقد كتبه أحد المتخصصين في القانون الروماني على أيامه وهو Rudolf Von. Jhering (٤١) الذي قال انه حتى عهد جستنيان لم يستطع أحد أن يعيب في القانون الروماني. ولكن أعمال جستنيان كلها حددت بمبدأ مزج النظريات مع القانون العملي. إن مجموعة الـ Digesta والـ Institutions أعدتا لتكونا خلاصة وافية وكتابى قانون. ولكن النتيجة المصحوبة بكارثة من جّراء ذلك العمل هو أن العلم اصبح متأثرا بالسلطة الحكومية. وأن سلطة جستنيان تميل إلى ترويع الباحثين العلماء بارهابهم. وضرب مثلا على ذلك بأن تدخل جستنيان في العلم مثل وضع مشرع قانوني على رأس الأساقفة في كنيسة أو كاتدرائية. وهذا التمثيل جاء به الكاتب ليوضح وضع جستنيان في غير موضعه. وأنه على قيصر أن يترك ما للعلم للعلم. وكذلك على العالم أن يترك ما لقيصر لقيصر(٤٢).

ومن الواضح أن تحامل هذا الكاتب كما نقل عنه بيوري جاء نتيجة أن جستنيان وضع مدونته Institutions من أجل طلبة القانون وقدمها لهم بقوله : أنه وطأ لهم الفقه وسهل عليهم دراسته وأنهم يتلقون دروسهم من بدايتها إلى نهايتها من فم ولي الأمر نفسه(٤٣) وهو يعترض على تدخل الحاكم في شؤون العلم. كما أنه ينكر على أهل العلم تعرضهم لشئون الحكم.

ومن الصعب سرد كل التغيرات القانونية التي قام بها جستنيان ولكن سوف نورد بعض الأمثلة على تلك التغيرات.

كان هناك تفرقة واضحة بين الأراضي الايطالية وبين أراضي الولايات، وذلك بالنسبة لنقل ملكية العقارات وقواعد أخرى مختلفة للتمليك يمكن أن تنطبق في

---

(٤٠) Bury, Ibid. Vol. 1, pp - 36 - 369.

(٤١) Rudolf Von Jhering, Geist Derumischen Rech

(٤٢) Bury, Ibid. Vol. 1. pp. 369-371.

(٤٣) مدونة جستنيان في الفقة الروماني - كلمة المعرب ص ٢

أيضا المقدمة ص ١ - ٣. يذكر Jones أن كتاب Digesta الذي نشر سنة ٥٣٣م كان كتاب تعليمي لتدريس القانون في الجامعات . أنظر Jones, Vol. 1 , p. 279 وفي استخدام كلمة جامعات او اطلاق اسم جامعات على المدارس التي كانت تدرس القانون في تلك الفترة شيىء من التجاوز لأن الجامعات بمعناها المعروف لدينا لم تؤسس قبل القرن الثانى عشر الميلادي.

ايطاليا فقط وفي المدن التي تحمل صفة الحق الايطالي Just italicum وذلك لأن الملكية المدنية لم تطبق إلا على الأراضي الرومانية وأن الأراضي الايطالية شبهت بالأراضي الرومانية وأصبحت محلا للملكية المدنية، وأما التي منحت الصفة الايطالية وهي اراضي خارج ايطاليا فلم تكن محلا للملكية المدنية. وأنها مملوكة للدولة. وملكية الدولة هي التي تبرز خضوع هذه الأراضي للضريبة العقارية او الخراج على خلاف الأراضي الايطالية. وهذا الأمتياز للأراضي الايطالية استمر حتى عهد جستنيان الذي قام بالغائه[٤٤].

ويوجد قانون منذ عهد أغسطس ينص على أن العبيد يصبحون مواطنين رومان، إذا كان قد حرروا بموجب وصية أو بواسطة مراسيم معينة تتمثل في Vindicta.[٤٥]

وهذه المراسيم يجب اتمامها أمام موظف روماني. وهذا التمييز كان معقولا عندما كانت المواطنة الرومانية امتيازا في حد ذاتها. ولم يكن الوضع هكذا بعد ان تقرر ان يصبح كل الأحرار في الأمبراطورية الرومانية مواطنين. ومع ذلك فانه جرى تطبيق القوانين القديمة وحرم بالغاء كثير من المحررين من المواطنة الرومانية حتى قام جستنيان بالغاء ذلك القانون Latinitas [٤٦].

إن معظم التغيرات القانونية انصبت على الغاء قوانين الألواح الاثني عشر وجاءت باستخدامات مناقضة لتلك القوانين، وعلى رأس تلك القوانين قوانين المواريث فقد حرص قانون المواريث في الألواح الإثنى عشر على أن تبقى الأموال في العائلات الكبرى. وعليه حرم الزواج بين الاشراف والعامة. وحرموا أولاد البطون "اولاد البنات" من الميراث على اعتبار أن النساء من العلة الأولى في تسرب الأموال من العائلات. ثانيا حرموا أولاد الظهور "أولاد الاولاد"، الذين خرجوا من العائلة بسبب التبنى أو التحرير، من الميراث. ولقد أصدر جستنيان مرسوما في سنة ٥٣٠ ادخل به أولاد البنات في ميراث جدهم لأمهم في حالة موت أمهم قبل الجد على شرط أن يكون لهم ثلثان مما كانت تستحقه أمهم في حالة تواجدها مع الورثة. أو أن يكون لهم ثلاثة ارباع مما تستحقه أمهم إن كانوا يرثون مع العصبات.

أما الأولاد الذين خرجوا بسبب التبني، وكانوا لايزالون في عائلة متبنيهم عند

(٤٤) Jones, Ibid. vol. 1, p. 478.

(٤٥) الـ Vindicta مراسم لمس السيد لعبده الذي يريد تحريره بالعصا

(٤٦) Jones, L. R. E. Vol. 1 p. 478.

أيضا: Jac, Thomas, **The Institutes of Justinia**, N, Text Translation and Comentary (Oxford, 1975). p. 17-18.

وفاة والدهم الأصلي فإنه يحق لهم أن يرثوا أباهم الأصلي مع باقي الورثة. ومما هو جدير بالملاحظة، فانه بمقتضى قوانين الألواح الاثنى عشر كان محرما أن يرث الأبناء أمهم. وأن ترث المرأة من عائلة أبيها. وأن ماترثه من أموال كانت تؤول عند وفاتها لاخواتها وأخوانها وليس لأولادها. وبقى الامر كذلك حتى سنة ١٧٨م عندما أصدر الأمبراطور ماركوس اوريليوس Marcos Aurelius (١٦١-١٨٠م) قرارا خول للأولاد حق الميراث في أمهم كما خول للام الأستحقاق في ميراث أولادها[٤٧]. ولم تذكر مدونة جستنيان إدخال أى تعديلات على هذا القانون.

ولكن يذكر أن جستنيان قام بالغاء القانون المعروف باسم Noxiadato الذي كان بمقتضاه يسلم السادة عبيدهم على سبيل التعويض عن أي ضرر أوقعوه بالشخص الذي سوف يأخذ العبيد. وأضاف جستنيان قانونا جديدا لصالح المرأة وهو حق الزوجة في أن يكون لها ملك خاص يعادل في قيمته بائنتها. كما أنه أعطى المرأة الأرمل حق الوصاية على أبنائها الأطفال. ويقال ان القوانين التي صدرت في حق وصالح المرأة كانت بإيعاز من الامبراطورة ثيودورا[٤٨].

كان بإمكان كل الفئات في المجتمع الروماني أن تعرض مشاكلها على الامبراطور بشكل أو بآخر. وان المشاكل والمقترحات المثارة هي التي تحدد شكل القوانين المفروضة.

كانت الشكاوى تكتب أو ترسل إلى لجنة مفوضة للبحث في تلك المشاكل وربما قدمت اقتراحات لحلها. وان نجاح الطلبات المكتوبة للجنة المفوضة يعتمد على عدد من النقاط أهمها قوة الاقناع. ثانيا: استمالة بعض الاشخاص المقربين بين أعضاء اللجنة Comitatus المفوضة. ثالثا: إتاحة الفرصة للمقابلة وهذا ينطبق على هذا المجلس أو عرض الرسائل على الامبراطور في حالة الكتابة إليه. وإذا فرضنا وتوفرت الشروط السابقة فهل تنفذ الطلبات بعد عرضها على الامبراطور نفسه؟ والجواب على ذلك يكمن وراء نجاح بعض المجموعات وفشل البعض الأخر. هناك طبقة من الشعب لاتستطيع التعبير عن نفسها أو تقديم مقترحاتها أو حتى رفع أصواتها، وهي طبقة الفلاحين الذين كانت فرصتهم ضعيفة في ذلك الصدد. وهناك بعض الاستثناءات وتلك الاستثناءات تعتبر حالات نادرة لانه في الغالب لاتستطيع القرى تحمل نفقات لجان من قبلها لتقديم طلبات أو أي نوع من الالتماسات.

(٤٧) مدونة جستنيان فى الفقه الرومانى، بيروت ص ٣٣٥ - ٣٥٣.

(٤٨) عمر كمال توفيق، **تاريخ الامبراطورية البيزنطية** - الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٥٦ - ٥٧.

وينعكس ذلك على القوانين فنجد أن القوانين بصفة عامة لاتعطي اهتماما كبيرا لمتلكات الفلاحين أما عن مستأجرى الأراضي الزراعية فالقانون ينظر إلى قضاياهم من وجهة نظر ملاك الأراضي وليس من وجهة نظر المستأجرين.

أما بالنسبة للحرفيين وأصحاب الدكاكين والتجار فلا يوجد مايدل على أنهم كانوا قادرين على شرح مشاكلهم للحكومة وذلك بالنظر إلى القوانين التي لاتحتوي على شيىء يدل على وقوف القانون إلى جانبهم. ويستدل جونز على ذلك بأن القانون الشديد الذي أصدره جستنيان ضد المعاملة السيئة التي تلقاها جماعة مزارعي الحدائق. ممثلة في نقابتهم انما كان ثمرة شكوى ملاك الأراضي الذين كانوا يستأجرون أولئك المزارعين.

أما النقابات فقد لعبت دورا في تكوين السياسة واصدار القوانين بما قامت به من ارسال رسائل ومندوبين مفوضين إلى الأمبراطور وهذا يتضح من القوانين أو الدساتير الموجهة إليهم(٤٩).

ولم تستطع الكنيسة القيام باية ضغوط مؤثرة على الحكومة ولم يكن بامكان الأساقفة الكتابة إلى الأمبراطور وأن يجعلوا أصواتهم مسموعة. أما الدور الوحيد الذي لعبته الكنيسة في التأثير على سياسة الدولة فيكمن في العقوبات التي فرضتها الدولة ضد الهراطقة واليهود. وفي عهد جستنيان كسبت الكنيسة من الدولة بعض الاعفاءات من الضرائب ولدينا مثال ينطبق على كنيسة سالونيكا فقط ولكننا لانعلم ما إذا انطبق ذلك على باقي الكنائس أم لا(٥٠).

وينضم الجيش إلى الفئات التي لم يكن لها أثر واضح في تشكيل سياسة الدولة لأن معظم القوانين الصادرة بالنسبة للجنود لم تكن بايحاء منهم، انما كان معظمها موجه ضد الجند حيث كانت الدولة تحث على مراقبة ابتزاز الجند للأهالي، وبناء عليه فإن الذي رفع الشكوي هو أهالي الأقاليم. واستصدر القانون ضد الجند وليس لصالحهم، هذا بالاضافة إلى أن الجيش الروماني كان جيشا خاضعا بدليل أنه منذ عام ٣٦٠ - حتى عام ٥٧٨ استمرت مرتبات الجند ثابته عند مبلغ معين وهو خمسة صولداي وجنيه فضى. وكانت الفيالق العسكرية ميالة إلى التمرد على المناطق التي تؤويهم والتي يأخذون منها مؤنهم "جراية الجند" ولكن يبدو أنهم لم

(٤٩) Jones, Ibid, Vol. 1, p. 357-359.

(٥٠) Jones, Ibid, Vol. 1, p. 361. 335

أيضا مدونة جستنيان ص ٣٣١.

يقوموا بتهديد الحكومة[٥١].

وثمة شريحة اجتماعية كان لها قوة وتأثير في تكوين سياسة الدولة وهي شريحة ملاك الأراضي، سواء كانوا من أعضاء مجلس الشيوخ الارستقراطيين أو أولئك متوسطي الحال. وهؤلاء استطاعوا أن يرسلوا مندوبين عنهم للأمبراطور. وجهودهم في ايصال ما جاءوا من أجله كانت في معظم الأحيان تكلل بالنجاح وقد استطاعوا الحصول على حقوق الاعفاء من الضرائب. وتخفيض ضرائب الأراضي واستخرجوا قوانينا تعزز ضمانا لمستأجري أراضي التاج الأمبراطوري كما كبحوا أنشطة الذين يطالبون بأراضي للتاج الأمبراطوري. وبصفة عامة يبدو أنهم حافظوا على نجاحهم ضد المطالب المالية وابتزاز الفيالق العسكرية والبيروقراطية. ومن المحتمل أن كثيرا من القوانين الصادرة ضد سوء تصرف الجند والموظفين الحكوميين قد أوحى بها ملاك الأراضي في الأقاليم[٥٢].

وبالرغم من أن مجموعة ملاك الأراضي من الأقاليم استطاعت أن تؤثر تأثيرا واضحا على الحكومة المركزية إلا أن هناك مجموعة أكثر قوة في التأثير على سياسة الحكومة نفسها. وهذه المجموعة مكونة من كبار موظفي الدولة نفسها. أما صغار الموظفين أمثال مجموعة Cohortales والذين كانوا يشغلون مناصب في الاقاليم وأمثال Coesariani والذين عملوا في الـ rationales وهم موظفو المالية فلم يكن لهم أي تأثير على سياسة الدولة وبالتالي اصدار القوانين. أما كبار الموظفين فهم الذين لهم اليد العليا في استصدار القوانين وكلما اقتربت رتبة الموظف من الأمبراطور كلما كان له تأثير أكبر. وأن الامتياز الشخصي للموظف عند الأمبراطور لايعتمد على كبر الوظيفة وأهميتها وانما على مدى قربه من الأمبراطور. ويأتي على رأس هؤلاء الـ Curbicularri وهم الأشخاص الذين يقومون على خدمة الأمبراطور الشخصية منهم Silentiaris notaries وهم من موظفي الـ Consistorium وأولئك يأتون على قائمة المؤثرين في الامبراطور وبالتالي في القانون. ثم يليهم الوزراء البلاتنين Palatine وباقي كبار الوزراء خارج القصر.[٥٣]

أما الجماعة المؤثرة في اصدار القوانين والتي لها تأثيرها ومكانتها وامتيازها القانوني الخاص فهي فئة المحامين "رجال القانون" وهذا الامتياز يعتمد أيضا على مدى قربهم من الامبراطور نفسه. وهذا لايمنع من انه حتى جماعة المحامين في الأقاليم استطاعت أن ترفع التماساتها إلى الحكومة للنظر في حقوقها.

(٥١) Idem. Vol. 1, p. 360.

(٥٢) Jones. Ibid. Vol. 1, p. 362.

(٥٣) Jones, Ibid, Vol. 1, p. 364.

الفصل الثالث
النظم الادارية في القرن السادس

أسلفنا في الفصل السابق الحديث عن ممارسة الامبراطورية لسلطته التشريعية وعلاقاته بالمجالس الدستورية. وموضوع هذا الفصل الأوضاع الادارية التي كانت عليها الأمبراطورية في القرن السادس.

كان الأمبراطور يجمع في يديه خيوط الادارة الحقيقية للامبراطورية فهو الحاكم المطلق يساعده الوالي البريتوري Praefectus Praetorio الذي كان بمثابة كبير الوزراء. وكانت له منذ عصر الامبراطور دقلديانوس سلطات واسعة شملت تقريبا كافة المجالات العسكرية والقضائية والمالية.[١]

وبمقتضى النظم التي استنها دقلديانوس لحكم الامبراطورية وولاياتها خول لوالي الشرق، أن يمارس من مقرة بالقسطنطينية اختصاصات واسعة تجعله متحكما في

(١) كان حكام الولايات يختلفون في ألقابهم ومراتبهم فهناك ألقاب البروقنصل والقنصل و Praesides, Correctores وأحيا جستنيان لقب بايتور Praetor وابتكر لقب Moderater وكان لبعض الحكام لقب كونت Comes وكان يحكم مصر والي لقبه Praefectus وحتى عصر دقلديانوس كان حكام الولايات يتفاوتون في أهميتهم. وكذلك كانت الولايات فبعضها كان صغيرا وبعضها كان بالغ الاتساع ولم يكن لبعضها حاميات، في البعض الآخر كان الحاكم قائد جيش وفي الوقت نفسه حاكما مدنيا. وبتجزئة الولايات الكبيرة واستحداث قيادات عسكرية منفصلة (duces) حدد دقلديانوس حكام الولايات في مستويات كل بحسب أهميته ومكانته وأكمل قنسطنطين فصل القيادة العسكرية عن الحكومة المدنية وفي حالات قليله جدا أو نادرة كان حاكم الولاية يجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية ولفترة مؤقته. حتى إذا كان عصر جستنيان فإذا به يزود حكام بعض الولايات التي تصعب السيطرة عليها مثل مصر وبعض ولايات أسيا الصغرى بالسلطات العسكرية.
وقد صنف دقلديانوس الولايات في تقسيمات أكبر سميت دوقيات Dioceses يحكمها Vicarii أو نواب عن الوالي البريتوري. وكان عدد الدوقيات اصلا اثنتا عشرة. بريطانيا. الغال. فينيسيا Vinnesis اسبانيا. ايطاليا. افريقيا. بانونييا ومؤسيا. تراقيا، أسيانا بنطقيا والشرق Oriens. وكانت ايطاليا مقسمة بين نائبين ايطاليا (في الشمال) والمدينة (الجنوب مع الجزر) ولم يطرا على هذه التقسيم تغييرات كثيرة في القرنين التاليين. انقسمت مؤسيا إلى دوقيتى داكيا ومقدونيا في عهد قنسطنطين. وفصل فالينز مصر عن ولاية الشرق وصار حكم دوقية مصر ودوقية الشرق لحاكمين يحمل كل منهما لقب استثنائيا الوالي الاوغسطي Praefectus Augustalis يحكم دوقية مصر وكونت الشرق Comes Orientis يحكم دوقية الشرق. وصار من المعتاد=

الولايات الشرقية من الامبراطورية. وكان يقيم معه في العاصمة حاكم ولاية اليريا الذي لعب دورا أقل في إدارة شئون الامبراطورية.(٢)

وقد أدخل جستنيان عددا من التغييرات على إدارة الولايات ترجع أهميتها، في رأي بيوري Bury أنها شكلت مرحلة انتقال بين نظم دقلديانوس والنظام الادراي العسكري الذي سيعرف فيما بعد باسم نظام الثيمات،(٣) الذي سنفرد لدراسته فصلا خاصا من فصول هذا الكتاب.

قام النظام الذي وضعه دقلديانوس ومن بعده قنسطنطين لحكم الولايات على ثلاثة أسس أساسية. الفصل بين الادارتين المدنية والعسكرية، ومراعاة التدرج الوظيفي، والاتجاه نحو تجزئة الولايات Provinces إلى وحدات أصغر.(٤)

وبصفة عامة كان الامبراطور على قمة نظام الحكم في الولايات الذي يتبعه عدد من الموظفين على رأسهم الوالي ثم نواب الآمبراطور Vicarii أو رؤساء الدوقيات وتتوزع مسئولية الحكم المحلي بين عدد من الموظفين الذين ينفذون تعليمات هذا الجهاز الإدارى ويحققون هدفه من اقرار الأمن والاستقرار وجباية الضرائب وما إلى ذلك.

والجدير بالملاحظة ان الأمبراطور جستنيان لم يقم باجراء تغيير شامل في النظام الذي كان سائدا خلال القرنين الرابع والخامس وإن كان قد عدّل من نظم سابقيه بما يتلاءم مع أوضاع الأمبراطورية في عهده. وطبقا لقوانين جستنيان وضعت السلطتان العسكرية والمدنية بل والمالية أيضا في بعض الولايات في يد موظف كبير واحد منح لقب بريتور Praetor وترتب على ذلك الغاء بعض وظائف حكام الدوقيات.

==(فيما عدا الوضع بالنسبة لوالي الشرق)، أن يدير الوالي البريتوري الدوقية التي يقيم فها مباشرة. ولذلك فإن Notitia Dignitatum لايظهرفيها لقب نائب Vicar داكيا حيث كان مقر حكم والي اليريا. ولم يكن كذلك لدوقية بانونيا نائب ايضا وليس في Notitia كذلك ذكر لنواب Vicarii لكل من بانونيا وايطاليا.

ولمزيد من التفصل راجع:

A. H. M. Jones, The later Roman Empire, Vol. 1. pp. 280, 370 FF, 373 FF.

J. B Bury, The later Roman Empire Vol.1. p. 43FF.

وبعد انقسام الامبراطورية الرومانية في عام ٣٥٩ استقر نظام الولايات البريتورية على النحو الذي يظهر في Notitia: في الغرب ولاية ايطاليا وتشمل (بانونيا) واحدى دوقيتي الغال بينما شملت ولاية الشرق ولاية اليريا (وهذه ضمت داكيا ومقدونيا أنظر المرجعين السابقين وخاصة فيما يتعلق بوضع الولايات قبل عهد جستيان وبعده).

(٢) Jones, Ibid. Vol. 1. p. 371.

(٣) J. B. Bury, Ibid, Vol. 1. p. 25.

(٤) J. B. Bury, Ibid, Vol. 2. p. 25.

وأوضح مثال على ذلك ماحدث في تراقيا حيث كان يحكم موظف كبير يحمل لقب Vicarus Thraciarum ومعه موظف آخر مختص بالشؤون العسكرية وفي عام ٥٣٥م دمجت وظيفتا هذين النائبين في وظيفة واحدة عهد بها إلى موظف يتمتع بالسلطة الكاملة لقبه: Praetor Justinianus Per Thraciam. ومهمته إحكام الدفاع عن منطقة الحائط الطويل الذي كان خط دفاع حصين لتأمين القسطنطينية ويمتد من البحر الأسود إلى بحر مرمرة Propontis وكان الدافع له إلى ذلك هو إحساسه بأن التنافس بين هاتين الوظيفتين كان يلحق ضررا بالمصلحة العامة.(٥)

وفي عام ٥٣٥ - ٥٣٦م أجرى عدد من التغييرات المعقدة في إدارة دوقيات أسيانا Asiana وبنطقيا Pontica والشرق Oriens وألغيت وظيفتا نائبي Vicar أسيانا وبنطقيا وأضيفت رواتبهما إلى رواتب حكام ولايات فيرجيا وبقطيانا Pactiana وجلاتيا الأولى Galatia Prima الذين منحوا لقب Comites وقلدوا السلطات العسكرية والمدنية.(٦)

وثمة أمثلة على مخالفة جستنيان للقواعد التي كان معمولا بها قبل عهده، وذلك باقدامه على دمج ولايتين أو أكثر في ولاية واحدة نكتفي بذكر بعضها:

في آسيا الصغرى جمع بين ولايتي هونورياس Honorias وبافلاجونيا Paphlagonia في ولاية واحدة باسم بافلاجونيا يحكمها والي لقبه Praetor Justinianus. وجمع بين ولايتي هيلينو بنطس Helenopontus وبنطس بوليمونياكس Pontus Polemoniacus في ولاية واحدة باسم Helenopontus،

---

(٥) Just tinicinus, Nov. XXIII

"في بعض ولاياتنا، حيث يكون فيها حاكم مدني وآخر عسكري فانهما يتصادمان ويتنازعان فيما بينهما دون النظر إلى أي مصلحة سوى أنهما يمارسان القهر على الرعايا. لذلك فكرنا أنه من الأصوب في هذه الحالات الجمع بين اختصاصاتهما لاستحداث وظيفة واحدة واعطاء صاحبها الحاكم الجديد لقب بريتور القديم" راجع Bury Ibid p. 26, No. 1.

وكانت قاعدة الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية قد طبقت في آسيا الصغرى وقبل شهر في كل من فريجيا وبكتيانا وجلاتيا الأولى. وطبقت بعد ذلك بشهرين في حالة ولاية الدردنيل Helenopntus وبفلاجونيا ومنح حاكمها لقب Modrator وفي العام التالي ٥٣٦م طبقت بالنسبة لبروقنصل قبادوقيا وولاية أرمينيا الثالثة التي كانت قد استحدثت. وفي مصر أيضا حيث كانت هذه القاعدة معمولا بها في ظل نظام حكمها القائم. وقوى شأن كونت أيسوريا، ودوق الولاية العربية DUX ARABIAE أنظر:

Bury Ibid, Vol. 1, p. 26-27, Jons Ibid, Vol. 1, p. 280.

(٦) Idem, p. 280.

يحكمها والي لقبه Moderator Justinianus. وخول الحاكمان سلطات عسكرية ومنحت لهما رواتب الحاكمين السابقين.(٧)

والمثال على دمج أكثر من ولايتين أن جستنيان في عام ٥٣٦ أوجد ولاية جديدة باسم ولاية "الولايات الخمس" وهي قبرص وردوس ومجموعة جزر الكوكلاديس Cyclades وكاريا وهي أسيا الصغرى ومؤيسيا واسكوذيا (في البلقان) وأصبح لواليها لقب Quaestor Exercitus وكانت هذه المناطق تتبع من قبل والي الشرق وقد وكل الأمبراطور لهذا الكويستور بمهمة تزويد الجيش في تراقيا بالعناصر المقاتلة، ونقل الامدادات بحرا، وكان بمثابة والي بريتوري ولكن بمرتبة أقل من مرتبة الوالي البريتوري العادي.(٨)

وفي بعض الولايات اهتم جستنيان بوضع ترتيبات جديدة تنظم إدارتها. ومن ذلك انه رأي من المناسب أن يعيد توزيع المناطق الواقعة في اقصى الشرق من دوقية بنطيقا القديمة. وأولى كذلك أرمينيا اهتماما فاستحدث تنظيمات شاملة ليزيد من اتساع رقعة أرمينيا الكبرى أن أضاف إليها ثلاث مدن أقتطعها من ولاية أرمينيا الأولى واثنتين من ولاية بنطس بوليمونياكوس وعهد بحكم هذه الولاية لوالي لقبه بروقنصل وعوض أرمينيا الأولى بمدينة من بنطس بوليمونياكوس وبأخرى من ولاية هيلينوبنطس Helenopontis وجعلها ارمينيا الثانية بدلا من الأولى ويحكمها Praeses وحوّل ولاية أرمينيا الثانية لتكون ولاية أرمينيا الثالثة واقام عليها حاكما لقبه Comes وزوده بالسلطة العسكرية. اما أرمينيا الرابعة فقد كونها مما أسماه جونز سترابيات وهي المنطقة الرومانية عبر الفرات الى الشرق من ارمينيا الثالثة وجعل حكمها لوالي برتبة قنصل. ويتساءل بيوري عن هدف جستنيان من هذه التغيرات التي أدخلها على منطقة أرمينيا وولاياتها وضرورتها؟، ويرى انه كان يراعي الوضع الجغرافي. فمثلا الولاية الرومانية الجديدة عبر الفرات كانت مرتبطة طبيعيا بمنطقة ميليتيني ولذلك تحولت أرمينيا الثانية لتكون الثالثة لانها كانت مرتبطة بالولاية الرابعة وكان هذا الارتباط امرا حقيقيا لأن قنصل الولاية

(٧) Idem, p. 280.

(٨) والمقابل للقب Quaestor Exercitus عند جون ليتدوس هو Eparchos ويقول انه كان والي اسكوذيا ثم أضاف اليه جستنيان قبرص وكاريا والجزر راجع:
Bury, Ibid, p. 28 N 3, Jones, Ibid. Vol. I, p. 280

الرابعة كان تابعا لكونت comes ارمينيا الثالثة. وعلى نحو هذا النسق نفسه كان الارتباط الطبيعي بين الارمينيتين الأولى والثانية وكان Praeses الولاية الثانية إلى حدما تابعا لبروقنصل أرمينيا الأولى.(٩)

وكانت التغييرات التي استحدثها جستنيان في دوقية الشرق Oriens أقل، وقد الغيت اختصاصات كونت الشرق Comes Orients وتحول لقبه وراتبه إلى قنصل ولاية سوريا الأولى. وفي ايسوريا Isauria أدمجت وظيفتا الكونت Comes العسكري والحاكم المدني، وكانت قد فصل بينهما من قبل. وفي فلسطين رفع حاكمها إلى مرتبة البروقنصل مع رفع راتبه.

أما في مصر فد تأخرت إعادة تنظيم إدارتها ربما إلى عام ٥٣٩. وهنا أيضا ألغيت سلطة الوالي الأوغسطي Praefectus Augustalis على الدوقية بأكملها. وأضيفت وظيفته إلى dux Aegypti. وأصبحت له السلطات المدنية والعسكري على ولايتي مصر. وكان يدير ولاية مصر الثانية Aegyptus II موظف مدني تابع له. وأجرى تعديل مماثل في ولاية طيبة Thebid حيث منح Dux Thebaidis لقب Augustalis فيما عدا ذلك انه كان يتبع كلا من Augustalis, Dux موظفان مدنيان، أحدهما للولاية العليا والآخر للولاية السفلى.

وفي ليبيا كان هناك Dux يتبعه حاكم مدني. ولما كانت بنود القوانين الخاصة بولايتي Augustamnica الأولى والثانية، وأركاديا، البنتابوليس (المدن الخمس) (إذ كانت التغيرات قد شملتها) قد فقدت إلا أنه فيما يبدو من شواهد اخرى أن Augustamnica قد عوملت معاملة الأقليم الطيبي. وأن أركاديا والبنتابوليس عوملتا مثل ليبيا.(١٠)

هذا ماكان من أمر التنظيمات الإدارية في الشرق أما في الغرب فقد كان على جستنيان أن يعيد تنظيم ولاياته كذلك.

أولا: ايطاليا

نعرف ان حكم ايطاليا بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب انتقل إلى

---

(٩) راجع: Jones, Ibid, p. 280 FF., J. B. Bury, Ibid, p. 28 FF.

(١٠) Jones, Ibid. p. 281.

امبراطور واحد "ولو صوريا"[١١] أصبح يقيم في الشرق بعد أن كان شريكا في الحكم مع امبراطور الغرب، ونتيجة لذلك فإن إدارات المحاكم والإدارات المركزية الخاصة مثل Magister Officiorum و Quaestor و Rerum Privatarum, Comites Sacrarum Largitionum وال Patrimoii والتي كانت أعلى المناصب الإدارية في ايطاليا فقد استمرت قائمة تحت حكم القوط الشرقين لتسير في خط مواز تماما للادارات الرئيسية المماثلة في القسطنطينية.[١٢]

وينطبق هذا القول على مجلس الشيوخ Senatus الذي كان مجلسا امبراطوريا حكومي والذي لم تكن هناك حاجة لحله.

لم تختلف التقسيمات الأقليمية في ايطاليا في عهد جستنيان عن التقسيمات الرومانية القديمة والتي أبقى عليها القوط الشرقيون وقد تقلصت سلطة والى ايطاليا القضائية ليس فقط بانفصال كل من سردينيا وكورسيكا وضمهما إلى أفريقيا وضياع كل من راتيا الأولى والثانية Rhaetia على الحدود الشمالية، وانما أيضا نتيجة القوانين التي فرضها جستنيان والتي بمقتضاها عهد بصقلية الى بريتور خاص من الرتبة الثانية. وعن طريقه كان يتم إرسال الدعاوي القضائية إلى الـ Quaestor في محكمة القسطنطينية. ومن المشكوك فيه أن المحكمة المتوسطة التي رأسها النائبان Vicarii لكل من UrbisRomae، و Italiae استمرت تحت رئاسة الوالي. أما بالنسبة لحكام الولايات فإن Sanctio Progmatica* تنص على وجوب اختيارهم من السكان المحليين عن طريق الأنتخاب بواسطة الأساقفة والشخصيات المرموقة في كل ولاية، غير أنه يجب أن يعتمد الوالي هذا الاختيار. وهذا اجراء خاص جدا لايتفق مع الأسس البيروقراطية التي كانت سمة للادارة البيزنطية، ويبدو أن هذا الاجراء جاء دليلا على ان مكانة حكام الولايات في منتصف القرن السادس

---

(١١) بعد سقوط الامبراطور الروماني في الغرب على يد ادواكر (سنة ٤٧٦م) أرسل ادواكر شارات الملك إلى الأمبراطور في الشرق معلنا أنه يحكم باسم الأمبراطور وأنه لاداعي لوجود امبراطور آخر في الغرب بل يكفي ان يحكم الأمبراطورية امبراطور واحد لكل من الشرق والغرب. وكذلك بالنسبة للملك القوطي والشرقي ثيودوريك (٤٨٩ - ٥٢٦م) الذي حكم ايطاليا والذي أرسل شارات الملك أيضا إلى الأمبراطور زينون في الشرق وأنه لا يعدو أن يكون نائب الأمبراطور في ايطاليا وانه يحكم باسمه.

لتفاصيل اكثر أنظر: Oman, The Dark Ages p. 2.

Dumoulin **The Kingdom of Italy Under Odovacar and Theodoric**. in: C. M. H. Vol.1. P. 437.

(١٢) Hartman **Imperial Italy Africa, Administration** in: C.M.H. Vol. 2. p. 222.

(*) قانون أصدره جستنيان عام ٥٥٤م انظر O.D.B. Vol. 3. p. 1838

كانوا مثل مجالس المدن في ايطاليا، حيث تدنت وأصبحت عبئا أكثر منها تشريفا لهم. ولم يمض وقت طويل حتى امتد هذا الاجراء إلى كل أرجاء الامبراطورية. وقد استمر المركز الخاص المتميز لموظفي بلدية روما تحت إدارة والي المدينة Praefectus Urbi مع الامتيازات القديمة التي كانت لعاصمة الامبراطورية.[١٣]

ثانيا: افريقيا

كانت افريقيا قبل غزو الوندال تابعة في إدارتها إلى والي ايطاليا البريتوري Praefectus Praetorio Per Italia. وبعد ان استردها جستنيان سنة ٥٤٣م خصها بوالي بريتوري Praefectus Praetorio ومن ثم ألغيت وظيفة نائب افريقيا Vicarius Africae. وضمت إلى افريقيا جزيرتا سردينيا وكورسيكا بعد طرد الواندال منهما.[١٤] وعين واليا بريتوريا على افريقيا في وضعها الإداري الجديد القائد سليمان الذي كان يحمل لقب Domesticus واشترك مع بلزاريوس في طرد الوندال منها. وهذا يعني أنه تقلد السلطتين المدنية والعسكرية معا في نفس الوقت.[١٥]

وقد قسمت البلاد إلى سبعة أقسام إدارية هي:

ثلاثة اقسام يحكم كل منها قنصل وهي :

أ - الولاية القنصلية Proconsularum

ب - الولاية الداخلية Byzacium

ج - طرابلس Tripolitania

وأربعة أقسام يحكم كل قسم منها Praesides وهي:

د - نوميديا Numidia

هـ - موريتانية الأولى Mauritinia I Sitifensis

و - موريتانية الثانية Mauritania II Caesariensis

ز - شمال مراكش (طنجة) Tringlatna

سردينيا وكورسيكا.[١٦]

---

(١٣) Hartman. Ibid. p. 225.

(١٤) Jones, Ibid, Vol. 1. p. 2. 294.
أيضا: رانسمان: الحضارة البيزنطية - ص ٩٥.

(١٥) Jones, Ibid Vol.1, p. 295.
Notitia Diginitatu

(١٦) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب. القاهرة ص ١٤ - ١٥
أيضا: Pringle, The Defence of Byzantine Africa BAR, London. 1981. P.22 - 23,
Vol. II, P. 356 FF M 15, 16 of Hartmann Ibid, P. 224.

وفي عام ٥٣٤م أصدر جستنيان قانونا يفصل فيه الاصلاحات الادارية المدنية والعسكرية في دوقية افريقيا.[١٧] وضع هذا القانون الوالي البريتوري في أعلى الهرم الوظيفي وخصص له راتبا قدره مائة قطعة من الذهب وكان على رأس الادارة المدنية المكونة من عدد من الموظفين الرسميين المكونين من ٣٩٦ موظفا، هذا بالاضافة إلى أعضاء مجلسه.

ولحماية الدوقية، بعد استتباب السلام فيها وبعد انسحاب القوات الغازية والقوات المتحركة Comitatenses، وضعت في المنطقة حامية أمامية، وجند جيش جديد ليكون جيش الحدود Limites وهم تحت قيادة منفصلة لدوقية طرابلس Tripolitana في مركزها مدينة Leptis Magna التابعة لـ Byzancena في قفصة Capsa أو Thlepte. وقد نقلت هذه القيادة بعد ذلك، مع قيادة الدوقية الثانية في Hardmetum في نوميديا Numidia إلى قسنطينية Constantinia، وفي موريتانيا في قيصرية Caesarea وسردنيا. بينما كان على أولئك القواد أن يبقوا في العاصمة بصفة مؤقتة حتى يتم استعادة الحدود القديمة وأقيم قليل من الحصون على الحدود تحت أمرة تريبون Tribune وكان كل واحد من هؤلاء مساعدا لقائد موريتانيا الذي اتخذ من سبته Septum مقرا له لمراقبة مضيق جبل طارق، وأخذ قيادة المعارك هناك. ويعمل إلى جانب كل دوق dux أو قائد من أولئك القواد Duces عدد من الموظفين يبلغ الأربعين كاتبا، بالاضافة إلى Assessor. مساعدين وكان أولئك الكتاب من الرجال المسلحين، وكان عليه أن يدفع لهم رواتبهم، والذين كانوا مفروضين عليه من قبل الوالي. اما القواد duces, Virispectabiles فقد كانوا موظفين من الدرجة الثانية، وكانوا مساعدين للموظفين العسكريين برتبة Magister. Militum وتلك الاصلاحات كانت محلية، لأن نظام الحدود Limites لم يكن قد أدخل عليه أي اصلاحات.[١٨]

ولم تتح الظروف لكل من ايطاليا وافريقيا التمتع بسلام دائم، لذلك كان لابد من الاحتفاظ بجيش متأهب للقتال في كل منهما. في نفس الوقت كان من الضروري أن تكون هناك سلطة عليا تجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ففي

---

(١٧) Hartman, Ibid, P. 223-224.
أيضا: Jones, Ibid. Vol. 1, P. 373
لتفاصيل أكثر عن الادارة الامبراطورية أنظر: Hartman, Ibid, C. M. H. Vol.2, P. 224 ff
(١٨) Hartmann, Ibid, P. 224.

ايطاليا تطلب الأمر تعيين قائد عسكري برتبة أعلى من رتبة الوالي جمع بين السلطتين العسكرية والمدنية.[١٩] وفي افريقيا قام جستنيان بتقويم مركز الوالي البريتوري بأن ضم إليه السلطة العسكرية.

ويعلق جونز على ما استحدثه جستنيان من تغييرات بأنه كان يهتدي بمباديء عامة. فإقدامه على إلغاء المناطق التي كان يحكمها نائب Vicar وماكان يقابلها في دوقيتي الشرق ومصر إنما أملته الرغبة في تبسيط الإدارة وتوفير النفقات. إذ لم تعد هناك فائدة ترجى من النواب Vicarii في النواحي المفصلة التي اشرنا إليها آنفا لأن الوالي البريتوري كان بحكم منصبه يرأس حكام الولايات، يمارس سلطته عن طريق ممثليه tractatores كما وأن سمعة محاكم هؤلاء النواب كانت قد ساءت إلى حد كبير، وقل الالتجاء إليها، لأن رواتب هؤلاء Vicars كانت متدنية وبالتالي أصبحوا خربي الذمة. وفضل المتقاضون رفع قضاياهم إلى الوالي البريتوري بدلا من رفعها إلى حاكم الولاية. ويضيف جونز أن هدف جستنيان من هذه التعديلات إنما كان لدعم حكومة الولايات، وجعلها أكثر فاعلية بالغاء التعرض في اجراءات التقاضي، وبصفة خاصة الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية لتكون في يد موظف واحد. وكان هذا الاعتبار واضحا في أسيا الصغرى حيث شاعت أعمال السلب والنهب، وفي مصر حيث تكررت الفتن الأهلية. وينبه جونز الى أن جستنيان كان متمسكا بمبدأ الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية في مناطق الحدود حيث كان للقادة duces مهام استراتيجية خفيفة في المقام الأول. وفي أرمينيا الأولى والرابعة وفي لبنان الفينيقية Phoenice Libanesis والولاية العربية وفلسطين ظل بعد الفصل بين اختصاصات القادة Duces والحكام المدنيين معمولا به. وكان التعاون قائما بين الطرفين. وثمة دافع ثالث في رأي جونز وهو زيادة رواتب حكام الولايات حتى لايتعرضوا لاغراء أو أن يعمدوا إلى إبتزاز سكان تلك الولايات. وقد منح جميع من شغلوا مناصب البروقنصل والبريتور Comites, Moderator مرتبة Spectabilis.[٢٠]

ومن ناحية أخرى حرص جستنيان على تحقيق العدالة في الولايات بأن عين عددا من القضاة Iudices Spectabiles يختارون من طبقة الشيوخ ليضع حدا لفساد حكام الولايات وفيما يبدو النواب Vicars أيضا. وكان فيض من الدعاوي يتدفق على

---

(١٩) Hartman, Ibid. p. 226.

(٢٠) Bury. Ibid, Vol. 2. p. 29 أيضا Jones, Ibid, Vol. I, p. 282

الوالي البريتوري وعلى الامبراطور في القسطنطينية مما عرض المتقاضين لتكاليف باهظة وتعرضهم لتأخر النظر في دعاواهم. ولازالة هذه الاضرار فوض الامبراطور هؤلاء القضاة الحق في اصدار الحكم النهائى في كل القضايا التي يقل الخلاف فيها عن خمسمائة صولداى، ومالبث ان زيدت الى سبعمائة وخمسين صولداي. وكان هؤلاء القضاة يمارسون مهام وظيفتهم في نطاق الولايات التي عينوا فيها، وان كان ذلك لم يمنع ان تمتد اختصصاتهم الى ولايات مجاورة. وكان للبروقنصل اختصاصات مماثلة في النظر في الدعاوى. وكان سكان ولاية قبادوقيا الأولى يحتكمون الى بروقنصل ولاية قبادوقيا الثانية. وبالمثل كان لبروقنصل أرمينيا الأولى نفس الاختصاص في ولاية أرمينيا الثانية وكان كونت أرمنيا الثالثة ينظر في الالتماسات التي ترفع من ولاية ارمنيا الرابعة. وربما كان كل من حاكم مصر الوالي الاوغسطي والقائد الاوغسطي لطيبة ينظر في قضايا ولايته.(٢١)

وما استحدثه جستنيان من اعادة تنظيم الولايات انما كان استجابة لظروف محلية ومن هنا افتقدت اصلاحاته سمة الشمولية. وكان لها بعض العيوب فالغاء أى وحدة حكومية أكبر من ولاية او ولايتين لايكفل المحافظة على القانون والنظام، لأنه كان في وسع عصابات قطاع الطرق التنقل من ولاية إلى أخرى، ومن ثم يتحاشون الوقوع في قبضة السلطات.

بينما أقيمت في بعض الولايات محاكم على قدر كبير من حسن السمعة، نجد أنه في ولايات اخرى لايستطيع موظف صغير في مرتبته أن يرفع شكواه إلا للقسطنطينية. ولعله كان من الأفضل لو أن الامبراطور عمل على الارتقاء بوظيفة النائب Vicar بدلا من الغائها، بأن يزيد من دخلها، وبأن يعهد اليه بسلطات عسكرية ليتصدى للاضطرابات المحلية ويتمكن من استئناف الاحكام القضائية. وما كان لجون القبادوقي ان يفكر في عمل شيء ينتقص من سلطة وظيفته، لأن مثل هذا العمل لابد وأن يؤدي إلى هذه النتيجة.

وبعد سقوط جون القبادوقي، أصلح جستنيان بعض العيوب التي شابت اصلاحاته الادارية في الولايات، فاستعاد كونت الشرق بعض ماكان له من سلطات في القسم الشمالي من الدوقية حيث لم يكن هناك أي قاض من القضاة Iudices Spectabiles، وأعاد إلى ولاية بنطيقا نظام Vicar في عام ٥٤٨م وعين ضباطا برتبة Biocolytes (بمعنى الذي يوقف العنف) وكذلك فعل في عدد من الولايات

(٢١) Jones Ibid, Vol. I. P. 282, 483 FF. أيضا: Bury, Ibid, Vol. I, P. 30

الأخرى.[٢٢]

إن أهمية إيراد تلك التفاصيل في هذا الفصل تكمن في ايضاح اتجاهين مختلفين، الاتجاه الأول والذي كان سائدا منذ بداية الأمبراطورية وحتى القرن السادس، هو كما أسلفنا، الميل إلى الفصل بين الادارتين المدنية والعسكرية وتفتيت الولايات الكبرى إلى ولايات أصغر وايجاد سلطة حاكمة قوية. ويبدو أن الهدف من ذلك كان تقليص قوة حاكم المنطقة المنفرد واضعاف نفوذه. أما الاتجاه الاخر والمعاكس الذي ظهرفي عهد جستنيان فهو دمج الولايات أوالمناطق ثم زيادة قوة الحكام. والتنظيمات في المناطق التي تم استعادتها في الغرب طابقت تلك المبادىء والاسس.حيث كان والي صقلية البيتوري والارخون Exarch في ايطاليا، فيما بعد، مزودين بالسلطتين المدنية والعسكرية بالاضافة إلى المالية، وكانوا مسئولين بشكل مباشر أمام الامبراطور. وقد طبق ذلك في ا فريقيا. وظل هذا الاتجاه سائدا حتى القرن التاسع حيث بدأت بعض المقاطعات الكبرى التي تكونت في ذلك الوقت تتفتت في وحدات أصغر.[٢٣]

وقد وصفت الاصلاحات الادارية التي قام بها جستنيان بأنها لم تكن حاسمة او نتج عنها أي تغيير أساسي ولكنها كانت جسرا بين اصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين وبين نظام هرقل.[٢٤]

الحكومة والتنظيمات الإدارية من ٥٦٥-٦١٠م :

يبدو انه لم تطرأ تغييرات رئيسية واضحة في شكل الحكم أو الحكومة بعد وفاة جستنيان في الفترة مابين ٥٦٥-٦١٠م. فقد اعتلى عرش الأمبراطورية الروماني بعده أربعة أباطرة وهم على التوالي: جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) وتيبريوس (٥٧٨ - ٥٨٢م) وموريس (٥٨٢-٦٠٢م) ثم فوكاس (٦٠٢-٦١٠م).

وكانت الظروف التي اعتلوا فيها عرش الأمبراطورية طبيعية عادية مألوفه. ولكن نلاحظ أن مجلس الشيوخ Senatus قد استرد جانبا من امتيازاته.، فلم يكن هناك حاكم مشارك لجستنيان قبل وفاته، كما انه لم يكن هناك وريث معين. فقد كان

---

(٢٢) Jones. Vol. I. p. 282. FF.
و أيضا ملحق ٣ شكل (٦)

(٢٣) Jones, Ibid. Vol. 1. p. 282.
أيضا ص ٤٨٣ - ٤٨٤ من نفس المرجع.

(٢٤) Ostrogorsky, Ibid, p. 74.

الصراع بين أقارب جستنيان وثيودورا على العرش أمرا متوقعا ولكن من الممكن تجنب ذلك بأن تزوج جستين ابن أخ جستنيان صوفيا، ابنة شقيقة ثيودرا. وكان يعمل محافظا للقصر الامبراطوري Curoplates والذي توسل لمجلس الشيوخ ليساعده في أن يكون امبراطورا.[٢٥]

وبمساعدة مجلس الشيوخ اعتلى جستين عرش الامبراطورية، ونتيجة لذلك كان المجلس على رأس الدولة. وكان على الشعب ان يدفع ثمن تأييد مجلس الشيوخ للامبراطور، فقد تدخل أعضاؤه في الحكم، وفي بعض الاحيان وضعوا انفسهم فوق القانون.[٢٦] وقد وصفوا بأنهم: ارستقراطية فاسدة، تملك قوة مكثفة استطاعت ان تجمع ثروتها على حساب المصلحة العامة، وحصلت على الامتيازات والاستثناءات التي تؤمنهم من توقيع العقوبات عليهم، اما خطرهم الحقيقي فيكمن في الابتزاز[٢٧] ويقول بيوري: لم تعد سلطة الامبراطور سلطة مطلقة ووجد الامبراطور جستين نفسه يواجه عددا من الارستقراطين الاثرياء ذوى النفوذ والذي زادت قوتهم وبشكل واضح خلال سنوات الضعف في عهد جستنيان، فأصبحوا قادرين على اتخاذ مواقف مستقلة. واننا نرى من خلال التاريخ أن استمرارية المحافظة على هيبة القانون اثقل عندما تصبح الهيمنة الارستقراطية هي المسيطرة، ويتعاظم التمرد والشغب وتصبح المحاولات لسلب حق الطبقات الدنيا امرا مؤكدا، وعندئذ يكون صمام الأمان والضمان الوحيد هو وجود سلطة ملكية قوية. وقد عم الفساد في أيام حكم جستين. ويضيف بيوري ان السادة النبلاء كانوا مولعين بالشغب والفسق. وقد بذل جستين جهدا جديرا بالتنويه ليفرض القانون بكل وسيلة ممكنة على الجميع. وبدون شك فقد واجهته مقاومة مستمرة، نتيجة لذلك كان جستين مجبرا على التوصل إلى نوع من التسوية. وعلى ضوء هذا نستطيع ان نفهم الاحساس بالمرارة في خطابه الذي القاه يوم تعيين تبيريوس قيصرا وقد نصح تيبريوس في ذلك الخطاب بأن يأخذ حذره من النبلاء الذين شهدوا حفل تعينه بأعتبارهم هم الذين قادوه الى سياسة تتسم بالشر.[٢٨]

---

(٢٥) Bury, Ibid. Vol. 2. p. 68
أيضا: Stratos, **Byzantum in the Seventh Century**, Vol. I. p. 7.

(٢٦) Stratos, Ibid. Vol. 1. p. 7.

(٢٧) Bynes, **The Successors of Justinian** in C.M. H. Vol. 2. p. 264.

(٢٨) Bury, Ibid. Vol. I. p. 75.

أما بالنسبة للروابط التي كانت تربط العاصمة بالولايات وتربط الولايات بالعاصمة فقد أخذت في التراخي. والجدير بالملاحظة ان هذا التغيير كان مرافقا لضعف السلطة الامبراطورية. لان السلطة الامبراطورية كانت تمسك بيدها كل العناصر المختلفة مجتمعة. فإذا كان مركز الامبراطور غير مستقر، وضعفت قبضته فان ذلك كان فرصة لظهور قوة الاقاليم. وهناك ملحوظة اخرى هامة وهى ان التغيير الذي قام به جستنيان لتقوية حكمه المطلق فسر بانه كان لمصلحة السلطة في الولايات (الاقاليم). والاشارة هنا إلى الغاء منصب الكونت Comes في الشرق ومنصب النائب Vicrius في منطقة آسيانا Asiana. وقصد ان تكون تلك المراكز الصغيرة عاملا للمساعدة في المحافظة على تماسك الامبراطورية غير انها أدت إلى نتيجة عكسية.

وقد أصدر جستين قانونا ينص على أن حاكم الولاية ينصب دون ان يدفع شيئا (أي مبلغ مالي) وأن ترشيحه يتم من قبل الاساقفة وملاك الاراضي وسكان الولايات، وكان ذلك يعتبر حقا أو امتيازا ممنوحا في اتجاه تكوين حكومات محلية. واهمية هذا القرار تفسر بالعودة إلى قرار مماثل اصدره جستنيان بأن وضع السلطة القضائية والادارية والعسكرية في يد حكام بعض الاقاليم كما قام الامبراطور هونوريوس، امبراطور القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية (٣٩٥-٤٠٠م) بمحاولة مماثلة للحكومة المحلية في جنوب غالة.(٢٩)

ويبدي أحد الباحثين ملاحظة هامة على هذا التغيير بقوله: انه لايوجد مايشير إلى أن هذا التغير أعطى أهالي الأقاليم سيطرة على الشئون العسكرية في اقاليمهم. كذلك يوجد مايشير إلى وجود تعاون بين العناصر المحلية في الاقاليم وجيوش الحكومة المركزية سواء في البلقان أو في الاقاليم الشرقية طوال عهدي جستين وتيبريوس. ويضيف بان المادة الثالثة من هذا القانون تحذر اهالي الاقاليم من الشكوى من حكامهم بعد تعيينهم حيث انهم ساهموا في اختيارهم.(٣٠)

وبالرغم من صدور التعاليم لتحقيق التعاون بين فئات الطبقة العليا وحكام الاقاليم في تحصيل الضرائب العامة فضلا عن تحقيق العدالة، ظلت هناك اساءات

---

(٢٩) Bury, Ibid. Vol. 2. p. 76.

أيضا: Stratos, Ibid. Vol. 1. p. 8.

(٣٠) فرج، وسام عبدالعزيز، دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطي، معالم السياسة الاقتصادية لخلفاء جستنيان الأوائل ص ٢٠٧.

وانتهاكات واضحة حيث استمر البعض في دفع الأموال وتقديم الهدايا للحصول على مناصبهم أو الاستمرار فيها. كما ان بعض الحكام اضطهدوا رعاياهم والمثال الذي يمكن ان يستدل به هي الظروف السيئة التي سادت في مصر.(٣١)

كما أن الحوليات التي كتبت في العاصمة تشير إلى أماكن أخرى من الأمبراطورية ضعفت فيها قبضة العدالة لدرجة تعذر معها ايقاف الارستقراطية عند حدها ومنعها من الحاق الاذى بالغير لتحقيق مصالحها.(٣٢)

وبالرغم من جهود جستين الثاني لاصلاح الأوضاع المالية فإنه لم ينجح في النهوض باصلاحات ادارية حيث كانت الوظائف تباع وكان أولئك الذين اشتروها يبتزون الشعب ليثروا على حسابه.(٣٣)

وعند اعتلاء تيبريوس عرش الأمبراطورية فقد بادر الى مقاومة سطوة الارستقراطية باتحاده مع الأحزاب. وهذه الأحزاب كانت عنصرا من العناصر المؤثرة في بيزنطة.(٣٤)

لقد حدّ جستنيان من قوة الأحزاب وذلك نظرا إلى ثورتهم الحربية (٣٥) وليس معنى القول بأن تيبريوس اتحد مع الأحزاب بآن الأمبراطور جستين لم يطلب مساعدتهم. فقد وردت اشارة الى ان جستين كان في حاجة الى مؤازرة الأحزاب له وانه بعد انتخابه امبراطورا زادت قوتهم. وبالنظر إلى الثورات المتفرقة فقد دعيت الأحزاب للعمل كقوة دفاعية للذود عن مدنهم، وقد اطلق عليهم اسم الحرس الوطني Home Guards.(٣٦)

وقد طلب الأمبراطور موريس مساعدة الأحزاب في الدفاع عن القسطنطينية ضد الآفار، وطلب مساعدتهم أيضا في اخماد حركة تمرد الجيش وطلب الأمبراطور فوكاس كذلك مساعدتهم لاخماد ثورة هرقل. كما ان هرقل نفسه طلب مساعدتهم

(٣١) Bishop of Nikiu, The Chronicle 30, p. 136.

(٣٢) Bynes, Ibid. C.M.H. Vol. 2, P. 265.

(٣٣) Stratos, Ibid. Vol. 1, P. 6.

(٣٤) Bury, Ibid. Vol. 2, P. 93
لتفاصيل أكثر عن الاحزاب أنظر الكتاب ص (٤٨٤).

(٣٥) أنظر التفاصيل:.. Stratos, Ibid, Vol. 1. P. 11 =====
===== ثورة نيكا ص ٤٣.

(٣٦) Idem, , Vol.1. P. II

في حروبه ضد الفرس والآفار.(٣٧)

ويبدو لنا واضحا ما سبق أن دور الأحزاب انحصر في المساعدة في الاعمال العسكرية الدفاعية ولم يذكر دورهم في الادارة المدنية سواء في العاصمة أو في الأقاليم.

أما التغيير الاداري الواضح الملامح والبارز الذي حدث في تلك الفترة فهو التغيير الذي حدث في حكومة ايطاليا. والذي تمشى مع تجديد الأدارة في شمال افريقيا، والذي وضع الأسس للادارة الجديدة للولايات في الأمبراطورية في القرن السابع الميلادي والذي يدعى نظام الثيمات.(٣٨)

إن السلطة البيزنطية في ايطاليا لم تكن قادرة على مقاومة الغزو اللمباردي(٣٩) الذي استطاع ان يغزو أو يحتل ثلثي شبه الجزيرة الايطالية في سهولة ويسر. ولمواجهة ذلك الخطر فان الحكومة البيزنطية أصرت على أن تقوي مركزها في ايطاليا بأن تضع السلطتين المدنية والعسكرية في يد القواد العسكريين.(٤٠) وقد وضعت الإدارة البيزنطية على رأس العمل في ايطاليا حاكما برتبة قائد عسكري عين على وظيفة Exarch، وكان يحمل اللقب Patricius وهو لقب شرفي لم يحمله الوالي. ويعود تاريخ تكوين وظيفة الـ Exarch الى سنة ٥٨٤م، وبالضبط في عهد الامبراطور موريس. وكان مقر الـ Exarch في مدينة رافنًا الايطالية.

وكانت قوة الـ exarch من الناحية العملية غير محدودة، وتشبه قوة ملوك القوط الذين كانوا ممثلي للامبراطور وهو بذلك يشبه بليزاريوس ونارسيس اللذين تمتعا بسلطة مطلقة على القوات المحاربة التي عسكرت في تلك البقاع من الأمبراطورية، كما عسكرت في النقاط الأمامية للحدود.(٤١)

وهذا المزيج من المسئوليات العسكرية والمدنية والقضائية في يد الـ Exarch لم يعن إلغاء الوظائف المدنية. لقد استمروا في العمل سويا إلى جانب القواد العسكريين، ولكنهم كانوا تحت إدارة القائد العسكري، ويبدو أنه في المرحلة

---

(٣٧) Idem.

(٣٨) Vasilieve, Ibid P. 175.

(٣٩) لمعرفة تفاصيل اكثر عن الغزو اللمباردي أنظر:
Hodgking, **Italy and Her. Invaders**, Vol. 5. Book 6, PP. 151-159.
أيضا: Stratos. Vol. 1. P. 35

(٤٠) Hartman, Ibid. P. 226

(٤١) Idem, P. 226

المتأخرة قد استبدل الموظفين المدنيين بموظفين عسكريين(٤٢) وباعتبار الـ Exarch ممثلا للقوة الأمبراطورية فقد اتبع في إدارة دفة ادارته مبادىء معينة، وهي مبادىء السلطة القيصرية والتي كان يفضلها الأباطرة. وفي نفس الوقت شارك في كل مايحلو له المشاركة فيه سواء في الادارة المدنية، او التدخل في الشئون الدينية كسلطة عليا، او القيام بمفاوضات مع الدول الأجنبية وتقرير الهدنة. وقوته تلك لاتصبح محدودة الا بواسطة الامبراطور. كما يستطيع إصدار القرارات، ولكنه لايستطيع ان يضع القوانين، أو يقرر سلاما ساريا على كل انحاء الأمبراطورية.(٤٣)

كان يعتبر قصره في رافنًا مقدسا لذلك أطلق عليه اسم Sacrum Palatium، وهذا الاسم يطلق عادة على السكن الأمبراطوري. وعندما يصل إلى روما كان يستقبل استقبالا رسميا امبراطوريا وكان يخرج لاستقباله رجال مجلس الشيوخ، ورجال الدين ورجال الشعب، خارج اسوار المدينة. (٤٤)

وامتدت سيطرة الـ Exarch في ايطاليا إلى كل الدوقيات الواقعة غرب الليريا Illyricum ودالماشيا Dalmatia والتي ضمت الى ايطاليا منذ عهد ادواكر (٤٧٦ - ٤٩٨م)، اما النظام العسكري في صقلية فقد حصل في الآونة الأخيرة على استقلاله.(٤٥)

لقد ساعد الـ Exarch في ايطاليا عدد من المستشارين المساعدين للامور المختلفة من انشطة، هذ بالاضافة إلى الـ Officium الوزراء اللائقين بمكانته، والـ Scholastici المتمكنين في القضاء، هذا بالاضافة الى الحاكم المدني Prefectus. Praetorio كل ذلك في تنظيم إداري هرمي.(٤٦)

في نهاية القرن السادس تبعت لل Exarch في ايطاليا الوحدات الأدارية الأتية رافنًا Ravenna، وكالابريا Calabria، ودوقية فينسيا Venice، ودوقية بنتابوليس entapolis، ودوقية نابولي Naple، ودوقية استريا Istria، ومنطقة روما، ومنطقة ليجوريا Governor of Liguria.

وكان المفروض أن يأتي تعيين الحكام والأدواق من قبل الأمبراطور مباشرة. اما في الواقع، فقد كان الـ Exarch هو المسئول عن اختيارهم، وانتخابهم وتعينهم، أما

(٤٢) Vasilieve, P. 174.

(٤٣) Stratos, Ibid, Vol. 1. p. 35 أيضا Hartman, Ibid. P. 226

(٤٤) Vasilieve. Ibid. P. 175.

(٤٥) Hartman, Ibid. P. 226.

(٤٦) Stratos, Ibid Vol.1. P.35

الموافقة النهائية فتأتي من الأمبراطور.(٤٧)

وكان على الـ Exarch أن يعتمد بالدرجة الأولى على قواته المحلية، ولكن كان في مناسبات معينة، ترسل له بعض القوات من القسطنطينية. ولكن كانت تلك الحالات حالات استثنائية. أما اختيار الجند وتدريبهم فكان يتم محليا، وكانت القوات تحمل الولاء للـ Exarch وليس للامبراطور، الجالس بعيدا، وفي ذلك يكمن الخطر، وذلك عندما يتحين الـ Exarch الفرصة ويستخدم حقوقه، خصوصا وأن القوات العسكرية موالية له.(٤٨)

ولأجل تقوية مركز الـ Exarch في ايطاليا في تلك الظروف فإن دخل كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا- واللواتي لم يكنّ جزءا من ايطاليا- صرف لحساب ايطاليا وذلك في القرن السادس الميلادي.(٤٩)

وبالرغم من كل الجهود المبذولة من قبل الأمبراطورية لتقوية مركزها في ايطاليا، إلا ان موقفها كان ضعيفا. وكان بابا روما، جريجوري العظيم ـ ٥٩٠ - ٦٠٤م) على علم بضعف الأمبراطورية وكان ذلك الضعف يتناسب عكسيا مع قوة البابوية النامية، والتي أخذت فرصتها لتسيطر على الحياة الدنيوية، بالإضافة إلى سيطرتها الدينية.

وعند اعتلاء جستين الثاني العرش في سنة ٥٦٥م يبدو أنه أعاد الانتعاش إلى الإدارة الامبراطورية في افريقيا، والتي كانت قد أهملت نوعا ما في السنوات الأخيرة من عهد جستنيان. لقد قام بتعيين Lucius على رتبة Uir Clarissimus في قرطاج Carthage، الشيء الذي يدل على ان افريقيا كان لها نصيب رابح من العهد الجديد. هذا بالإضافة إلى أن الشاعر الأفريقي Corippus القى قصيدة على غرار الملاحم البطولية في جستين قال فيها: (بالرغم من ان اهتمامك موجه إلى العالم كله، إلا أن الأفارقة التعساء رفعوا أعينهم ووجوههم إليك. وافريقيا كلها تقدم لك شكرها وقد شعرت بمساعدتك). وهذا القول يؤكد اهتمام الأمبراطور بأفريقيا. وهناك شاهد أخر يؤكد اهتمام الأمبراطور بافريقيا وهو الاعمال الدفاعية التي قامت في كل من Thubursicu Bare، Tignia من ٥٦٥-٥٦٩م. هذا بالإضافة إلى النشاط الدبلوماسي من قبل الأمبراطورية إلى قبائل البربر. وبالرغم من ذلك فقد قتل

(٤٧) Idem.

(٤٨) Idem. p. 36.

(٤٩) Idem.

البـربر الوالي البـريتـوري Theodore كـمـا قـتـل في سنة ٥٧٠ - ٥٧١م اثنـان من العسكريين برتبة Magister Militume.(٥٠)

لقد تعـرضت المنطقـة لثـورة مـن البـربر، والامـاكن التـي تأثرت بتلك الثـورة هي منطقـة نومـيـديا Numedia وبيـزاكـيـوم Byzacium اكـثـر من منطقـة مـوريتـانيـا، وقيصرية الموريتانية Caesariensis, Mauritania. ويبدو أن أثر تلك الثورة كان شديدا واستمرت الفوضى وعدم الأمن حتى نهاية القرن.(٥١)

وفي سنة ٥٧٨م بعـد اعتـلاء تيـبـيـريوس Tiberius العـرش قـام بتـعـيين شـخص يدعى Thomas على وظيـفـة Prefect في أفـريقـيـا وآخـر اسـمـه Gannadius على وظيفة Magister Militum Africae، مع تقليده سلطة على الادارة المدنيـة، الى جانب سلطتـه العـسكرية. في نفس السنة نجح Gannadius في أن يهـزم البـربر ويقـتـل زعيمهم Garmul. هذا بالإضافة إلى اهتمام تيبيريوس بمد نظام الحصون وذلك باقامة تحصينات جديدة في كل من:

Iuncisofiana Tubernus, Anastasta Siana, Masculet Iberia.

وبعـد اعـتـلاء مـوريس عـرش الأمـبـراطورية حـاول السـيطرة على الوضع في افريقيا، ولكن في سنة ٥٨٧م قام البربر بثورة ضارية غطت كل افريقيا. وبناء عليه فقد قام موريس باصلاحات ادارية هامة، حيث اقام الـ Exarchate على نفس الأسس التي قـامت علـيـهـا في ايطاليـا. وذلك بتـقـليـد الـ Exarch السلطتين المدنيـة والعسكرية. وفي نهـاية القرن السـادس فإن Exarchate في افـريقيـا اشتـملت على ست مناطق مدنية باستثنـاء طرابلس Tripolitania التي ضـمت إلى دوقـيـات مـصـر. وتطابقت في الاسم مع المناطق التي أعيد تشكيلها بواسطة جستنيان في سنة ٥٣٤.

إن قـائمـة المدن التـابعـة لـ Carthago Proconsulars قـد فـقـدت باسـتـثـنـاء Carthage نفسها. أما المدن الواردة في Numedia Procon Sularis فقد بقيت، وهي موجودة ضمن قوائم George of Cyprus جورج القبرصي.

وقد تضمنت منطقة Numidiae التالي:

Calama, Hippo Numidia, Laribus, casta - Ammaedara, Vaga, Theueste, Scillium

---

(٥٠) Pringle, Ibid, p. 40.

(٥١) Idem

أيضا: Stratos,Ibid, Vol. 1. p. 37.

كما وضع أيضا على قائمة نوميديا المدن التالية وهي:
Badias, Mileu, Constantina, Castra Bagai, Tigis, Sitifis.

إن إضافة Sitifis إلى نوميديا تقوم شاهدة على أن الأجزاء الداخلية لمنطقة موريتانيا الأولى قد ضمت إلى نوميديا.

وقد وضع جورج القبرصي القائمة التالية لمنطقة Byzacium وهي:

Sufetula, Castrum, Capsa, Iunci, Hadrumentum, Cululis, Cillium,

Sufes, Mamma, Madasama, Thelepleg Thapsus.

هذا بالإضافة الى ثلاثة مدن لم يحدد موقعها:
Pexiana, Kastellia, Kasaxalsni

ويبدو أن موريتانيا الأولى قد شملت كل المناطق الساحلية والتي كانت في السابق Mauritania Caesariensis, Mauritania Sitifensia وبالاستناد الى جورج القبرصي فإن موريتانيا الثالثة ضمت سبتة Septem واجزاء أسبانيا البيزنطية، وجزيرتي منوركا Minorca ومايوركا Mejorca.(٥٢)

أما المنطقة السادسة التي تضم الى افريقيا، فهي جزيرة ساردينيا Sardini. وقدم جورج القبرصي قائمة بثمانية مدن بما في ذلك العاصمة (٥٣) Caralis وذكرت اسماء أربعة دوقيات كانت تحت قيادة عسكرية وهي: Sabarda, Theodore, Edantius, Eupaterius وكورسيكا Korsica وهذه لم تكن ضمن قائمة جورج القبرصي ولكنها واقعة في نفس المنطقة وحكمها تريبون Tribune الذي ملك السلطتين المدنية والعسكرية في الجزيرة.(٥٤)

كما ينفي Pringle احتمال ارتباط اسبانيا بافريقيا ارتباطا اداريا ويقول: انه في ظل المشاكل العسكرية التي واجهتها اسبانيا من محاولة القوط الغربيين استرجاع سيطرتهم على المناطق التابعة لإدارة البيزنطية. فيبدو أن القائد العسكري في اسبانيا والذي كان برتبة Magister Militum كان لديه حرية استقلالية أكثر من ارتباطه بافريقيا. وانه قد تم تعيين قائد عسكري برتبة Patrician وانه كان يأخذ تعليماته من الأمبراطور في القسطنطينية دون الرجوع الى الـ Exarch في

(٥٢) Georgii Cyprii, Orbis Romany p. 33, 638-665
أيضا: Idem p. 34. 670-683.
(٥٣) Idem, p. 35. 675 - 683.
(٥٤) Pringle, Ibid, p. 42.

افريقيا.(٥٥)

والمناطق الاسبانية التابعة لبيزنطة فهي Malaga ملقة و Carthagena وقرطاجنة وقرطبة Cordoba واشبلية Seville. ولم تدم ولاية الروم لاسبانيا حيث ان العاصمة كانت بعيدة.(٥٦)

اما بالنسبة لمنصب الـ Exarch الذي استحدث فإن الحاجة القوية الشديدة هي التي أجبرت الأمبراطورية على استحداث منصب غير محدود والذي يمكن أن يكون منافسا خطيرا للأمبراطور نفسه. وفي الحقيقة فإن Exarch في افريقيا هو الذي رفع راية العصيان ضد الامبراطور فوكاس وأن إبن الـ exarch شمال افريقيا هو الذى أصبح امبراطورا في سنة ٦١٠م.(٥٧)

إن منصب الـ Exarch يجب أن ينظر إليه على أنه بداية لنظام الثيمات Themes ، وهو إصلاح الولايات الامبراطورية الرومانية والذي بدأ في القرن السابع الميلادي، والذي امتد بالتدريج إلى كل أنحاء المناطق الأمبراطورية. ومن ملامحة المتميزة كان سيطرة السلطة العسكرية التدريجية على السلطة المدنية، وأن هجوم الفرس والعرب تسبب في تقديم نظام مماثل في الشرق وأن هجمات السلاف والبلغار نتج عنه نفس الاصلاح في البلقان.(٥٨)

---

(٥٥) Idem.

(٥٦) Stratos, Ibid. Vol. 1. p. 38-39.

(٥٧) Vasilieve, Ibid. p. 176.

(٥٨) Idem.

الفصل الرابع
الأوضاع الاقتصادية في الأمبراطورية البيزنطية منذ ٥٢٧ - ٦١٠م

لاشك أن الإدارة السياسية الناجحة لأى دولة توفر لها الأمن والاستقرار وتؤدي بالتالي إلى انتهاجها سياسة اقتصادية ناجحة هدفها ضمان الموارد المالية لمواجهة ماتتطلبه عندما تتعرض لأخطار خارجية. وهذا الشيء يستدعي معرفة الأسس التي قامت عليها سياسة جستنيان الخارجية ومدى انعكاسها على الحالة الاقتصادية؟ خاصة إذا عرفنا الوضع الاقتصادي الذي كانت عليه الأمبراطورية قبل حكم جستنيان. وهذه التساؤلات نجد لها إجابة عند بروكوبيوس. وفيما يلي ملخص ماذهب إليه هذا المؤرخ إذ يقول: "ان الأمبراطور السابق انستاسيوس Anastasius (٤٩١-٥٢٧م) قد ملأ خزانة الدولة بالذهب إلى حد الفيض والوفرة". وأن المختصين بالأحوال المالية قالوا: "ان هذا الأمبراطور ترك ثروة من الذهب تقدر بحوالي ٣٠٠ قطعة Centenaria من القطع الذهبية".[١]

غير ان جستنيان أضاع هذه الأموال الطائلة في سرعة وعجلة، وذلك بتشييد مباني لامعني لها على البحر من جهة، ومن جهة أخرى أنفقها بدافع من عطفه وتسامحه على البرابرة. ولو كانت هذه الأموال، على أسوأ الفروض، في يد امبراطور، حتى لو كان مسرفا، لبقيت على الأقل لمدة مائة عام ولاتنفذ. وليس ثمة وسيلة لاحصاء الأموال التي حصل عليها جستنيان، لانها في وفرتها مثل فيضان النهر الذي يسرق منه يوميا. ومع ذلك كان ذلك الفيض يذهب إلى البرابرة على شكل هبات، وكان شعبه هو ذلك النهر الذي يستنزف وينهب وتقدم أمواله هبات للبرابرة[٢]. يضاف إلى ذلك بأن جستنيان قام بتغطية سقف الكنيسة التي شيدها في القسطنطينية بالذهب الخالص ليضيف العظمة إلى الجمال. كما زود تلك الكنيسة بأطباق من الذهب والفضة المطعمة بالأحجار الكريمة التي لايستطيع الانسان وصفها

(١) Centenaria مبلغ من المال على شكل ذهب وسمي كذلك لأن قطعة منه تزن مائة قد تكون أوقية Pound، أنظر: Procopius, Anecdota Xix 5-9, p.17

(٢) Procopius, Ibid, XiX, 5 - 12.

بدقة. كما أنه زين جانبا من تلك الكنيسة، والذي يسمى Siasterian ولايدخله الا القساوسة، بما يقدر وزنه بحوالى أربعين رطلا من الفضة.[٣]

ونحن لانعتبر كل ماأورده بروكوبيوس عن جستنيان كلاما منطقيا: فبروكوبيوس يأخذ على جستنيان بعض المآخذ التي يناقض نفسه فيها من جهة والتي يعتبرها الآخرون سياسة حكيمة من جهة اخرى. ففي الدرجة الأولى نجده ينتقد المباني التي شيدها جستنيان على البحر في مؤلف أخر، ويكرر ذلك القول في نفس الكتاب حيث يذكر أن جستنيان أضاع الكثير من الأموال في تشييد بعض المباني على البحر ليوقف زحف الأمواج، وأنه حاول مصارعة البحر بقوة المال والثراء [٤] وهذه هي النقطة التي ناقض بروكوبيوس نفسه فيها. فقد أورد في كتاب أخر له مديحا عن هذه المباني يقول فيه: أن جستنيان قد جمل البحر بأبنية من جميع نواحية حتى بدا منظره رائعا وجعله عظيما لاينسى.[٥] ففي المرة الأولى وقف موقف الناقد وفي الثانية موقف المادح. ولم يحدد بروكوبيوس إذا كانت تلك المباني على البحر مجرد قصور للسكن أم أنها قلاع وحصون. حيث أن جستنيان اهتم اهتماما شديداً ببناء التحصينات الدفاعية الشيء الذي كتب عنه بروكوبيوس نفسه بالتفصيل[٦]. ويأخذ بروكوبيوس على جستنيان أيضا تسامحه مع البرابره وتقديم الهدايا والهبات لهم. ويذكر على سبيل المثال انه كان يستدعي قواد الهون ويقدم لهم الهبات الضخمة ويبرر ذلك بأنه يشتري صداقتهم. وفي الحقيقة أن أولئك الهون بعد حصولهم على المبالغ الضخمة من جستنيان فإنهم كانوا يبعثون بقوادهم واتباعهم لمهاجمة أراضي الامبراطورية، حتى يستطيعوا بيع السلام للرجل الذي كان على أتم الاستعداد لشرائه. وكان أولئك الأقوام قد استعبدوا الامبراطور الروماني! وكانوا يتسلمون الأموال مقابل ذلك من الامبراطور وبعدها يكررون غزوهم للامبراطورية، وبعد السلب والنهب، يغدق عليهم الامبراطور الهدايا القيمة النفيسة. وهذا ما دأب المتبربرون على فعله طوال العام. وهجماتهم دورية وحروبهم لانهاية لها. وكأنها تدور

(٣) Procopius, Buildings I, i - 53 -65.

(٤) Procopius, Anecdota, Viii, 7-8 XXVi, 23.

(٥) Procopius, Buildings, IVi, 10-Vi.4.

(٦) هذا الكتاب يحتوى على الكثير من المعلومات عن الأبنية التي قام بها جستنيان ونجد أن معظمها قلاع وحصون على حدود الأمبراطورية والتي كونت خط دفاع عنها. ولكن لم يحدد نوعية المبانى المشار إليها التي بناها جستنيان على البحر.

حول نفسها. ونتيجة لذلك لم يسلم كهف ولاجبل من غزواتهم.(٧) وكانت بعض الأماكن سيئة الحظ أكثر من غيرها حيث تعرضت لغزواتهم ورزحت تحتهم وتعرضت للهجوم أكثر من خمس مرات. وهذه الهجمات قام بها الفرس والعرب والسلاف والانتاي Antae (٨) وبالرغم من أن جستنيان قدم كميات ضخمة من الذهب إلى خسرو ملك الفرس Chosreos، مقابل اتفاقية سلام عقدها معه، إلا أن هذا الملك خالف الاتفاقية وحالف قبائل الهون وغيرهم من المتبربرين، وكان خسرو دائم التهديد بالحرب ليبتز الامبراطور ويحصل على المزيد من المال.(٩)

ويستطرد بروكوبيوس ان جستنيان لم يتوقف عن صب الكثير من الهدايا النقدية لكل المتبربرين على كل الحدود الشرقية، والغربية والشمالية، والجنوبية حتى إلى سكان بريطانيا. ونظرا لمعرفة المتبربرين بطبيعة جستنيان، فقد تدفقوا من جميع أنحاء الأراضي إلى بيزنطة للمثول بين يديه، ولم يتردد الامبراطور أن يغدق عليهم ويصرفهم ولكن بجيوب منتفخة. ومن ثم خلف المتبربرون الرومان في امتلاك ثرواتهم، اما عن طريق حصولهم عليها كهدية من الأمبراطور أو بطريق سلب المناطق الرومانية، أو عن طريق بيع أسرى الحرب للأمبراطورية، أو بطريق المزايدة على الهدنة (١٠) ويكرر بروكوبيوس هذا القول في أكثر من موضع مندداً باسراف جستنيان في غير مكانه.

ونحن نعلم أن دولة جستنيان كانت مهددة بالأخطار من جميع جوانبها، وكان من المستحيل أن يواجه تلك القوى وعلى جميع الجبهات مواجهة عسكرية. فقد يكون منطقيا أن يهادن جماعة ليتفرغ لحرب جماعات أخرى. ولايعتبر ذلك عيبا في السياسة بل ينظر إليها على أنها ضرب من ضروب الحكمة وبُعد النظر. بل إن البعض يعتبر ذلك جزءا لا يتجزأ من السياسة الدفاعية فهي من ناحية تمكنه من عمل التحصينات العسكرية. ومن ناحية أخرى توفر للامبراطورية قدرا من الانتعاش

(٧) Procopius, Anecdota, Xi 2-7, XiX 13-17 XiXi, 26.

(٨) الـ Antae جماعة سكنوا على الحدود الشمالية الشرقية للأمبراطورية. ولم يرد ذكر أصولهم التاريخية في أي من المصادر التي بحوزتنا، أنظر: خريطة رقم (٥).

أما العرب المشار إليهم هنا فهم المناذرة الموالين للفرس، أنظر: الكتاب ص (٣٥).

(٩) Procopius, Ibid, Xi, 27, XiX, 13-17.

وافق خسرو في ربيع عام ٥٣٢ على توقيع معاهدة سلام دائم. ووافق جستنيان على أن يدفع له ١١٠٠٠ رطلا أو وزنه من ذهب مقابل تخلية عن مطالبة والاعانة التي كان يتقاضاها للدفاع عن القوقاز. أنظر:

Jones, L.R.E. Vol. 11., p, 271-272.

(١٠) Procopius, Ibid, XiX, 13-17.

الاقتصادي لاستمرار التجارة. إذ أن المعاهدات السلمية تُبقي الطرق التجارية مفتوحة حيث أن تلك الطرق ووسائل النقل من الركائز الاقتصادية الهامة التي تساعد على حركة التجارة وتؤثر على التبادل التجاري.

أما بالنسبة للمباني اهتم جستنيان بكافة المرافق الحيوية من اقامة التحصينات على جميع حدود الامبراطورية. واقامة المستشفيات والكنائي والادبرة وامدادات المياه. ولعل انفاق المبالغ الضخمة على هذا النوع من المباني لايعتبر تبذيراً أو وجها سيئاً من أوجه الانفاق. حيث تتجه الأموال المنفقة إلى قطاعات اقتصادية مثل أعمال التشييد والمباني والصناعات القائمة عليها، وتساعد أيضا على تحريك قطاعات أخرى مثل قطاعات العمل والخدمات القائمة على ذلك وما إليها مما يساعد في زيادة الرواج الاقتصادي. هذا فضلا عن أن جستنيان شن عددا من الحروب الاستردادية في كل من شمال افريقيا وايطاليا واسبانيا، تلك الحروب التي لم تدر عائدا ماديا. بل كان عليه مواجهة نفقات تلك الحروب معتمدا على موارد الدولة. خاصة وان البلدان المفتوحة لم يكن في استطاعتها الوفاء بتكاليفها. لذلك كان من الضروري تقرير فرض ضرائب جديدة مكثفة. فمثلا في افريقيا، كان كثير من أفضل الأراضي الممتازة، التي كانت ملكا للوندال معفاة من الضرائب. وكانت السجلات القديمة قد فقدت. هذا بالاضافة إلى أن غارات الأفارقة، الـ Moor، وأعمال التمرد المصاحبة، جعلت من الصعوبة بمكان الحصول على أى دخل من افريقيا لعدة سنوات. وقد حولت الى ولاية في سنة ٥٣٧م وذلك بعد سنة من استردادها وعين عليها واليا Praetor كان مسئولا بشكل مباشر أمام القسطنطينية. أما دخلها فقد دفع إلى والي ايطاليا.

كذلك عين في ايطاليا واليا Prefectus praetorio، ولكن في خلال سنوات الحرب كانت عملية تجميع الدخل من ايطاليا غير منتظمة [11] وباختصار فقد انفق جستنيان انفاقا باهظا على حروب الفرس والوندال والقوط الشرقيين، هذا بالاضافة إلى المبالغ الضخمة التي دفعت للفرس مقابل معاهدة السلام الدائم. والمبالغ التي دفعت للملوك المتبربرين. كما انه في نفس الوقت قام بتنفيذ برنامج بناء مكثف.

وذكرنا لأوجه الانفاق التي قام بها جستنيان هي الركيزة التي تفسر لنا أسباب التغييرات التي قام بها جستنيان في النواحي الاقتصادية والتجائه إلى فرض

---

(١١) Jones, L.R.E. Vol. 1, p. 283.

ضرائب جديدة، أو إنقاص بعض الرواتب أو استحداث وظائف وإلغاء أخرى. بل إنه عمد إلى فرض الاحتكارات لسد حاجته الماسة إلى المال.

ويضع بروكوبيوس فئة الجند على قائمة المتضررين بالتغييرات حيث يقول: ان الامبراطور ولّى في السلطة على الجند أكثر الرجال انحطاطا وشراسة. وأوصاهم بان يأخذوا من مرتبات الجند ومخصصاتهم أكبر قدر ممكن من المال. وقد منح أولئك الموظفون لقب: Logothetes discussores بمعنى حارس وأمين بيت المال. وهي وظيفة مستحدثة. ووفقا لمقتضى القانون الروماني كانت مخصصات الجند لاتصرف لهم بقدر متساو. فصغار السن الذين انضموا إلى الخدمة العسكرية حديثا تكون مرتباتهم أقل من مرتبات غيرهم. أما الذين أمضوا في الخدمة العسكرية زمنا ليس بقصير فكان يطلق عليهم اسم Muster roll أما بالنسبة لكبار السن والذين على وشك ترك الخدمة العسكرية فإن مرتباتهم تكون أعلى المرتبات. أما الترفيع في المناصب العسكرية فإن الجنود أصحاب الرتب الصغيرة يحلون محل أولئك الذين يتوفون، أو محل أولئك الذين تنتهي مدة خدمتهم العسكرية. وكانت تلك الترقيات تتم على أساس الأقدمية. ولكن في عهد جستنيان حدث التالي: اولاً تحايل المحاسبون الماليون بأن عمدوا إلى عدم شطب أسماء المتوفين من السجلات العسكرية. وحتى عندما كان عدد كبير من الجند يتوفون، في حالات الحرب مثلا، فإن المناصب العسكرية تظل شاغرة ولمدة طويلة. ونتيجة لذلك فإن الجند المسجلين في سجلات الخدمة العسكرية كانوا يتناقصون. ثانيا: أن الجنود كانوا يشقون طريقهم بصعوبة بالغة ليحلوا محل الذين توفوا وتركوا مناصب عسكرية شاغرة، وبعد ذلك يجدون أنفسهم يشغلون مناصب عسكرية أقل من تلك التي يستحقونها وبمعنى آخر فإنهم يتقاضون مرتبات أقل من المرتبات التي من المفروض أن يحصلوا عليها. ثالثا: كان على المحاسبين الماليين Logothetai أن يقدموا لجستنيان حصصا مما وفروه من مرتبات الجند ومخصصاتهم. وأكثر من ذلك فقد دأب الـ Logothetai على إهانة الجند وذلك بالتفنن في وسائل عقابهم، وكأنهم كانوا يكافئونهم على الأخطار التي يتعرضون لها في الحروب. فمثلا يتهمونهم بأنهم يونان وكأنه كتب على اليونانيين ألا يوجد بينهم شخص يتسم بالطيبة. ووجهت إلى البعض الآخر تهمة الانخراط في الجيش بدون أن يحصلوا على إذن بذلك من الامبراطور. كما وجهت إلى البعض تهم الغياب أو التخلف عن الزملاء.(١٢)

(١٢) Procopius, Ibid, XXIV.

وقام المحاسبون Logothetai بتسريح عدد من حرس القصر مدعين أن البعض غير صالح للعمل، والبعض الآخر طعن في السن. ونتيجة لذلك فان الذين طردوا من الخدمة العسكرية استجدوا المحسنين في ساحات المدينة وأسواقها العامة مايسد رمقهم. كان منظرهم مثيرا للعطف والشفقة حتى ان الأعين كانت تدمع لمنظرهم. ويقرر بروكوبيوس انه من هذه التصرفات مع الجند كسبت خزانة الدولة مبالغ طائلة من الأموال، كما أن الجنود عاشوا في املاق. وهذا يفسر ماحدث في ايطاليا حيث تحطمت وتدهورت قوة الرومان العسكرية نتيجة لتصرف الـ Logothetai الذين عينهم جستنيان، والذين أخذوا الأموال من الجنود الايطاليين عقابا لهم على تصرفاتهم خلال حكم الملك القوطي ثيودوريك.

ويضيف بروكوبيوس إلى أنه جرت العادة بوضع أعداد غفيرة من الجند في كل نقاط الحدود ليقوموا على حراستها، وخصوصا في مناطق الحدود الشرقية المشتركة أو الفاصلة بين الامبراطورية والفرس والعرب. وقد اطلق على تلك الحاميات اسم Limitanei. وعامل جستنيان هذه الفئة من الجند معاملة سيئة وبخلا شديدا . وذلك بعدم صرف مستحقاتهم لمدة أربع أو خمس سنوات. وانه كلما حل السلام بين الرومان والفرس كان على أولئك الجند أن يتنازلوا عن مستحقاتهم لخزينة الدولة. وبعد ذلك وبدون إبداء أية أسباب حرموا من أن يحملوا اسم حاميات نظامية. ومن ثم خلت حدود الامبراطورية الرومانية من الجند الحراس، والذين وجدوا انفسهم مضطرين إلى البحث عن الأيدي المحسنة الكريمة لتتصدق عليهم. (١٣)

أما حراس القصر الأمبراطوري الذي لايقل عددهم عن ٣٥٠ حارسا والذين يطلق عليهم اسم Scholarii فقد جرت العادة بأن تدفع لهم الخزانة أعلى المرتبات كما جرت العادة أيضا أن يختاروا من الأرمن ، ولكن بعد ارتقاء زينون zeno (٤٧٤-٤٩١) عرش الامبراطورية فتح الباب أمام الجميع من الجبناء وغير المحاربين، كما وصفهم بوركوبيوس، لينالوا شرف ذلك اللقب. ومنذ ذلك الوقت أصبح الباب مفتوحا حتى أمام العبيد، طالما أنهم يستطيعون دفع ثمن هذا المنصب. وعندما اعتلى جستنيان عرش الامبراطورية عين ألفين من الحراس لينالوا هذا الشرف، مؤمنا لنفسه مبالغ ضخمة من الأموال، حيث أن ذلك المنصب "حراس القصر" كان يباع. وبمرور الوقت لاحظ جستنيان أنه لا توجد وظائف شاغرة في ذلك المنصب (مناصب الحراس)

(١٣) Idem, XXiV, 2 - 30.

لذلك استحدث ألفي وظيفة جديدة ليلتحق بها طائفة من الذين أطلق عليهم اسم Supernumeraries. ويبدو ان جستنيان قد استحدث تلك الوظائف قبل ارتقائه العرش. عندما كان قنصلا ومسئولا عن سياسة خاله جستين الأول. ولكن بعد ارتقائه العرش بادر الى تسريحهم دون أن يعطيهم اي نوع من أنواع المستحقات. أما باقي حراس القصر والذين يدعون Scholarii فقد أمر مجموعة منهم بالمشاركة في الحروب في افريقيا وايطاليا وفارس، وبما أنه يعلم علم اليقين بأنهم غير مؤهلين للاشتراك في تلك الحروب، فكانوا يتنازلون عن مستحقاتهم نظير اعفائهم من الاشتراك في الحروب وكان هناك قانون ينص على أن توزع الدولة على الجنود مبالغ معينة من الذهب كل أربع سنوات. وفي كل أربع سنوات ترسل الحكومة في كل أنحاء الامبراطورية من يحمل هذا المبلغ ويقدمه كهدية إلى كل جندي. ولكن منذ ان تبوأ جستنيان إدارة الأمبراطورية توقف صرف هذا المبلغ حتى نسي الناس تلك العادة التي اعتادوها.(١٤)

وفي ايطاليا، ترك الملك القوطي ثيودوريك الجنود الذين كانوا يعملون في القصر في روما حفاظا منه على التقاليد الرومانية القديمة هناك، ورتب لكل رجل من أولئك الجند راتبا يوميا ضئيلا. وكان اولئك الجند مكونين من جماعة تلحق بالقصر Silentiarii، Domesticai (١٥)و Protectores العاملين في خدمة الضباط. وكذلك من Scholarii المجندين في الكتائب المعروفة باسم Scholae(١٦). كما أمر ثيودوريك بأن يبقى ذلك المنصب لأبناءهم وذريتهم من بعدهم. وعند استرداد ايطاليا، أمر موظفو جستنيان - بعد أخذ موافقة من جستنيان نفسه ، - بإيقاف صرف تلك الرواتب(١٧).

وهناك من يعترض على اتهامات بروكوبيوس لجستنيان وبالذات على عدم صرف رواتب الجند ويبرر ذلك بقوله: لقد استطاع جستنيان أن يقتصد في الانفاق وانه قد تصاعدت بعض الشكاوى بين فرق الجند العسكرية في افريقيا لأن مرتباتهم كانت لاتدفع لهم مرة واحدة وذلك في الفترة مابين ٥٣٦-٥٣٨م ولكن شكاوى مثل هذه كانت تبدو جانبا ضئيلا من بين الأسباب التي أدت إلى التمرد. ولعل المشكلة

---

(١٤) Procoplus, Ibid, XXiV - 2 - 30.

(١٥) Jones, **The Decline of the ancient World**, (London 1996), p. 202.

(١٦) Idem, p. 224.

(١٧) Procopius, Ibid, XXiV 28-32.

كانت تكمن في اجراءات إدارية أدت إلى التأخر في دفعها. وربما كانت الحكومة تأمل في الحصول على دخل أكبر من الوارد المحلي لتغطية نفقات المنطقة، هذا إلى جانب أنها فشلت في إرسال أية ايرادات من العاصمة. إن التأخير في دفع رواتب الجند اقتصر على افريقيا وايطاليا. [١٨] وإن كان يعترف ويقرر بأن الجنود كانوا فقراء وان كان بعضهم امتلك لبعض الأراضي أو بعض القوارب في البحر. كما يضيف إلى إن الجند في افريقيا بالذات يلجأون إلى الزواج من أرامل وبنات الوندال لكي يحق لهم امتلاك الأراضي التي ورثوها في شمال أفريقيا، كما يضيف إلى أن التعويض للجند المسرحين جاء في عهد الأمبراطور موريس.[١٩]

وحتى التبريرات التي أوردها جونز تدل دلالة واضحة على معاناة الجند في عهد جستنيان من الضائقة المالية للأسباب التي أوردها بروكوبيوس. وإن كان جونز حاول حصرها فقط في منطقتي افريقيا وايطاليا. ولكنه لم يستطع ايراد أسباب مقنعة لرفضها أو إبطالها. وخصوصا عدم صرف تعويض للجند المسرحين، والذي اعترف بأن ذلك التعويض جاء في عهد الأمبراطور موريس أي في الفترة مابين ٥٨٢-٦٠٢م.

وهناك مصدر دخل آخر للدولة، والذي عانى منه شعب الأمبراطورية بأكمله، وذلك المصدر هو بيع الوظائف الحكومية، وهو مايطلق عليها اسم Suffragius، وكانت الكلمة في الأصل تعني مجرد توصية للتعيين على وظيفة او انتخاب او ترشيح لوظيفة. وكان غالبا مايرشح الولاة حكام الولايات المرتبطة بهم بتوصية منهم. وقد تطورت إلى بيع الوظائف. أما عن مدى ونطاق المفاسد الناتجة عن بيع الوظائف فمن الصعب تقديرها. وهي بدون شك تختلف من وقت لآخر وذلك وفقا للنماذج التي وضعها الأباطرة أو وزراؤهم[٢٠].

ومن هنا يتضح لنا أن جستنيان لم يكن أول الأباطرة الذين قاموا ببيع الوظائف الحكومية، بل كان هذا البيع تقليدا متبعا قبل عهد جستنيان. ويقال نقلا عن Zosimus، ان بيع الوظائف كان متفشيا ومنتشرا في عهد ثيودوسيوس الأول ٣٧٩-٣٩٥) وان خصيان القصر كانوا هم الوسطاء. ونقلا عن Eunapius فإن منصب حكام الأقاليم كان يباع في المزاد أيام بولكيريا Pulcheria الوصية على

(١٨) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 674-675.

(١٩) Idem, Vol. 1. P. 677-679.

(٢٠) Jones, Ibid, Vol. 1, PP. 391-393.

ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠). ونقلا عن Malchus قيل إن الامبراطور زينون قام ببيع الوظائف بأثمان معقولة الى بطانته أو حاشيتة الذين قاموا ببيعها بأسعار أعلى، محققين بذلك أرباحا من ورائها.(٢١)

وقد سن جستنيان قوانين خاصة ببيع الوظائف، حيث فرض قسما (يمينا) على حكام الأقاليم وعلى النواب Vicarii وعلى الممثلين الحكومين. أن يقسموا القسم التالي: "أقسم انني لم أعط ولن أعطى أي شيء لأي شخص من أجل المركز الذي حصلت عليه على سبيل المحسوبية أو على سبيل بيع الوظائف الامبراطورية أو إلى الولاة المبجلين أو الموظفين المرموقين والذين في مقامهم". وأكثر من ذلك فان جستنيان قطع على نفسه عهدا أن يضحي بالدخل المالي في سبيل إيجاد إدارة نظيفة.(٢٢) لأنه في ذلك الوقت كان الدخل من بيع الوظائف الأمبراطورية يذهب إلى خزينة الدولة. كما أن جستنيان أصدر في عام ٥٣٥م قانونا بتحريم بيع مناصب حكام الولايات.(٢٣)

وبالرجوع إلى بروكوبيوس نجد انه لم يذكر شيئا عن اصدار مثل تلك الأمور إطلاقًا بل يقرر بأن جستنيان اتبع في جميع انحاء الامبراطورية سياسة بيع الوظائف بأثمان باهظة لأسوأ الرجال الذين كانوا على اتم استعداد لدفع تلك الأموال(٢٤).

ومن الوظائف المباعة التي ذكرها بروكوبيوس الوظائف التالية:

١ - **وظيفة Praetor Plebis**

وهو بمثابة رئيس الشرطة في القسطنطينية ومهمته ضبط جرائم السرقات.

٢ - **وظيفة Praetor quaesistor**

ومهمته ضبط الجرائم الأخلاقية والهرطقة الدينية وبالذات أولئك المخالفين للعقيدة الارثوذكسية(٢٥).

٣ - **وظيفة Triboniasus**

والذي عمل مساعدا للقاضي. يقف إلى جواره ولايفارقه بشكل دائم(٢٦).

---

(٢١) Idem, Vol. 1, P. 393, Vol. II, N. 58, P. 1156.

(٢٢) Jones, Ibid Vol. I, P. 394; No. P. 1157
حيث يورد القسم كما ورد في Just Nov. Viii

(٢٣) Idem, Vol. 1. P. 279.

(٢٤) Procopius, Ibid xxi - 8-13.

(٢٥) Idem, xx - 8 - 11.

(٢٦) Procopius, Ibid, Xiii - 10 - 17

الوظائف العسكرية

١ - استحدث منصب: Logothetes

ومهمته القيام بوظيفة محاسب مالي للجند.

٢ - وظائف في حرس القصر: Supernumeranies

٣ - وظائف الحرس الملكي الأمبراطوري:

- حراس القصر Scholarrii [٢٧]
- صغار الجنود القصر Domestic [٢٨]
- ضباط القصر Silentiarii [٢٩]
- كبار الجند Muster roll [٣٠]
- ضباط Quaster master [٣١]

٤ - الوظائف الأمنية: Referendarius [٣٢]

وهو السكرتير الخاص ومهمته الحفاظ على استتباب الأمن.

من الأمثلة التي أوردها بروكوبيوس على فساد من اشتري هذه المناصب أن رجلا سامريا يدعى (فوستينوس) Faustinus إدعى اعتناق المسيحية وقد ترقى هذا الرجل حتى وصل إلى عضوية مجلس الشيوخ، ولكن بسبب ارتكابه بعض الأخطاء طرد من المجلس وحكم عليه بالنفي. فتوجه إلى بيزنطة وقابل جستنيان ودفع إليه مبلغا كبيرا من المال. وعندما استلم جستنيان المال قلده منصب المشرف على إدارة الأملاك الامبراطورية في منطقتي فلسطين وفنيقيا. وهذا شيء مخالف للدين والقانون. ولكن جستنيان لم يبال بالدين ولابالقانون أمام تأثير المال[٣٣].

غير أن جونز يدافع عن جستنيان بقوله: اننا يجب أن نحكم على جستنيان من قوانينه التي أصدرها، ذلك أنه قام بمحاولة جادة لإيقاف عملية بيع الوظائف، وقبل التضحية بمورد هام في سبيل تطبيق ذلك القانون[٣٤]. غير انه ربما في الفترة الأخيرة

---

(٢٧) Idem, XXVii, 2, XXiv, 15 - 21

(٢٨) Idem, XXiv, 24

(٢٩) Idem, XVVi, 28

(٣٠) Idem, XXiV,

(٣١) Idem, XXIIi, 12 XXiv, 13

(٣٢) Idem, XiV, 11 XVii 32

(٣٣) Idem, XXVii 26 - XXViiVi - 1.

(٣٤) Jus. Nov. Viii Pr. Jones. Ibid V2, P. 1158

من عهده ولندرة المصادر المالية سَمح بإعادة بيع الوظائف الامبراطورية.(٣٥)

ويذكر جونز وظيفة قد تم بيعها وهي وظيفة Protector ، وهي من وظائف الجيش، وينطبق على العاملين في هذه الوظيفة ماينطبق على حراس القصر، وأن بيعها كان مصدرا من مصادر الدخل في الدولة، ويعتبر هذه الوظيفة من وظائف التشريفات حيث لم يشترك أصحابها في أي عملية من العمليات العسكرية.(٣٦)

لقد أشرنا إلى الغاء وظيفة القنصل.(٣٧) وربما يفسر إلغاء تلك الوظيفة إلى رغبة جستنيان في توفيره في صرف مستحقات ذلك المنصب. كما قام أيضا بإلغاء وظيفة الـ Rhetor (٣٨) وحرمان أولئك الموظفين من مستحقاتهم التي كانوا يعتزون بها.

ويتشكك بروكوبيوس في مدى حرص جستنيان، في كل اجراءاته الاقتصادية، على مصالح الدولة وإن كان عبر عن ذلك الشك في شكل سؤال.

كانت الضرائب هي المورد الرئيسي لدخل الدولة. وقد لقى موضوع الضرائب التي فرضت في عصر جستنيان اهتماما خاصا من بروكوبيوس الذي عرض لطريقة جمع الضرائب من جهة وفرض الضرائب من جهة أخرى. وذلك في قوله: جرت العادة منذ قديم الزمن، أن كل امبراطور عندما يعتلي العرش يقدم للشعب منحا أو أعطيات عدة مرات، كان يتنازل عن الديون المستحقة للخزينة العامة لكي يحول بين أولئك المعوزين الذين لايجدون سبيلا للسداد المستحق عليهم وبين الوقوع في ضائقات مالية أشد. وليضع في جهة أخرى حدا لادعاءات جباة الضرائب، بأن أولئك المفلسين يمتنعون عن دفع تلك المستحقات. ولكن جستنيان على العكس من ذلك لم يسلك هذا المسلك لمدة اثنين وثلاثين عاما. ولهذا السبب كان على المعوزين أن يهجروا أماكنهم إلى أماكن أخرى. أما جباة الضرائب في عهده فقد استمروا في مضايقة المزارعين بتسليط سيف الاتهام عليهم بأنهم لم يسددوا ما عليهم من ضرائب. وكان أولئك المساكين لايخشون من دفع ضرائب جديده بقدر ماكانوا يخشون من احتمال تحميلهم عبء ضرائب سنين خلت وهذا ما لا يستطيعون تحمله. هذا

---

(٣٥) Jones, Ibid Vol. 1, P. 395

(٣٦) Jones, Ibid Vol. 1, P. 657-658.

Idem, XXVi, 8 - 15

(٣٧) أنظر الكتاب ص ٤٥

(٣٨) كانوا موظفين رسميين، محامين، يعملون في القانون: Rhetors

أنظر: Procopius, Ibid XXVi

بالاضافة إلى فرض ضريبة إضافية على ضريبة الأراضي أطلق عليها بروكوبيوس اسم "ضريبه الهواء" Aerikon ويفسر بروكوبيوس تسميته تلك بأنها لم تكن ضريبة نظامية معتاده ولكنها كانت تؤخذ على غير وجه حق وكأنها تأتي من الهواء. وهذه الضريبة كانت تمد خزينة الدولة بثلاثين قطعة ذهبية من فئة الـ Centenalia سنويا. (٣٩)

ونتيجة لذلك فقد سلم عدد من المزارعين ممتلكاتهم لحساب جباة الضرائب أو إلى الخزينة العامة. وفضلا عما تعرضت له أجزاء كبيرة من أراضي آسيا من غزوات الفرس والعرب (٤٠). وفعل نفس الشيء الهون والسلاف والانتاى Antae في أراضي أوربا. والنتيجة انحطاط بعض المدن، حيث أن السكان أثقلت كواهلهم الضرائب ففقدوا ثرواتهم بسبب الضرائب من جهة والغارات المتبربرة التي لاتتوقف من جهة أخرى، مما ترتب عليه خلو عدد من المناطق من سكانها. ومع ذلك فإن الامبراطور لم يبادر إلى تخفيض عبء الضرائب واسقاطها عن أي شخص. ولو كان منطقيا لفعل مثلما فعل الامبراطور أناستاسيوس، الذي أسقط الضرائب عن المدن التي احتلها الفرس لمدة امتدت إلى سبع سنوات.(٤١)

وهذا موقف يثير التساؤل بمقارنتنا بين تصرف انستاسيوس وجستنيان. ففي عهد انستاسيوس لم يترتب على غزو قباذ الأول(٤٢) الفارسي للأراضي الرومانية أي تخريب، ومع ذلك نجد أن انستاسيوس أسقط الضرائب عن سكان المدن التي هاجمها قباذ. في حين أنه ترتب على فعل خسرو عندما أقدم على غزو أراضي الأمبراطورية من حرق وهدم كل بناء بل وازالته تماما وتسبب في معاناة شديدة لضحاياه. ونجد أن جستنيان لم يسقط أي ضرائب عن سكان المناطق التي استباحها الفرس.(٤٣)

وفي راى بروكوبيوس: أنه إذا سلمنا بوحشية تلك الهجمات فإن الأمبراطور

---

(٣٩) Procopius, Ibid, XXi, 2, XXiii, 1 - 11.

(٤٠) العرب الذين أشار اليهم بروكوبيوس هم عرب الحيره اللخميين والذين لعبوا دورا هاما في القرن السادس الميلادي وخصوصاً في العلاقات الرومانية الفارسية. حيث قاموا بدور العازل بين الدولتن والذين اثبتوا وجودهكقوةعسكرية.
أنظر: نينا فكتور فنابيغو ليفسكا: العرب على حدود بيزنطة وايران: ترجمة صلاح الدين عثماني هاشم: الكويت، ١٤٠٥، ص ٨١.

(٤١) Procopius, Ibid, XXiii, 1 - 11

(٤٢) قباذ الأول ملك الفرس (٥٠١-٥٣١) حارب بلاد الروم الشرقية ٥٠٣م.

(٤٣) خسرو ملك الفرس (٥٣١ - ٥٧٩م) حارب بلاد الروم الشرقية ٥٣٩-٥٤٠م.
أنظر: حسن بيرنا: تاريخ ايران القديم. ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.
أيضا: Procopius, Ibid XXiii. 1 - 11

جستنيان نفسه كان أكثر وحشية من كل أولئك الغزاة مجتمعين. وذلك أنه فرض ثلاثة أنواع من الضرائب وهي:

١ - **الضريبة الأولى: وتسمى Buying on Requisition**

وهي ضريبة إمداد الجيش الروماني بالمؤن وتسليم تلك المؤن في غير أوقات الحصاد بل بحسب مايقرره موظفو الامبراطور الذين لايأخذون في الاعتبار ما إذا كان المزارعون لايملكون تلك المؤن عندما يطلب منهم تقديمها. وكان على المزارعين شراء المؤن المطلوبة وكانوا يدفعون سعرا لها يزيد على السعر الذي يمكنهم شراؤها به من الأسواق القريبة هذا بالإضافة إلى تحملهم نفقات نقلها إلى حيث يعسكر الجنود.

٢ - **الضريبة الثانية: وتسمى ضريبة الأراضي الزراعية المهجورة**

والتي عانى منها المزارعون هي الضريبة التي كانت تفرض على الأراضي التي هجرت أو تعطلت عن الانتاج. فكان على ملاك الأراضي والمزارعين الذين فرضت عليهم تلك الضرائب أن يهجروا أملاك أجدادهم. ويعيشوا في حالة من الشظف بسبب فرض تلك الضرائب عليهم لأنهم يدفعون ضرائب اراضيهم وضرائب الأراضي المهجورة المملوكة لغيرهم.

٣ - **الضريبة الثالثة: وتسمى ضريبة الـ Pro-rated Assessments**

وهي في الواقع من الضرائب النظامية ولايعترض بروكوبيوس على فرضها في الأوقات العادية، وانما يعترض على المطالبة بها في أوقات الطواعين التي تؤدي بحياة معظم المزارعين وتترك الأراضي مهجورة. وفي تلك الحالات لم يظهر الأمبراطور أي رحمة بحيث يستثني المرضى بل على العكس فرض عليهم إيواء الجند وفرض عليهم خدماتهم، بينما كان المزارعون أنفسهم يعانون أشد المعاناة ويعيشون خارج منازلهم.(٤٤)

مما سبق لاحظنا أن الضرائب المذكورة كانت تخص الزراعة وقد كان للزراعة، بصفة خاصة، أهمية كبرى في اقتصاد الأمبراطورية الرومانية. وعوائد الضرائب الزراعية تمد دخل الدولة بعائد ضخم من الأموال. كما أن أهم وزير من وزراء المالية الوالي البريتوري، والذي يقوم بتوفير الاحتياجات الأساسية للإدارة الامبراطورية، يعتمد في ذلك على ضريبة الأراضي، والتي كانت تفرض بشكل رئيسى على الأراضي الزراعية. ويلي ذلك في الأهمية إدارة Sacra Largitiones والتي تعتمد في

(٤٤) Procopius, Ibid, XXiii, 6 - 11

دخلها على ضرائب خاصة مثل Aurum Oblaticium وكان أعضاء مجلس الشيوخ في روما والولايات يدفعونها بمناسبة تتويج الامبراطور بالاضافة إلى ضريبة أخرى يتم تحصيلها لنفس هذه المناسب على شكل تيجان ذهب Ausum Oronarium تدفعها المدن وملاك الأراضي بمقتضى القانون. وهناك إدارة مالية أخرى تغذيها إيجارات الأراضي الأمبراطورية وهي: Res Privata.

أما الضرائب الوحيدة التي لم تفرض على الزراعة فقد كانت مكوس الجمارك ورسوم الدخول Toll للبلاد وهي المكوس التي تدفع عند عبور الطريق والتي تسمى Vectigalia لأن المحاصيل الزراعية التي يجلبها المزارعون كانت تخضع أساسا للضرائب.

ولم تفرض على الأراضي الزراعية ضريبة المبايعات Siliquatcum كذلك لم تفرض ضريبة Collatio Lusrralis لكونها خاصة بالتجارة والصناعة. والضريبة الأولى تحملها جميع المستهلكين، أما الضريبة الأخيرة فقد فرضت فقط على التجارة والصناعة، والتي لم تأت بعائد يذكر لدخل الدولة. لذلك قام الامبراطور انستاسيوس بالغائها دون صعوبات تذكر[٤٥].

ونستطيع القول إنه إلى حد بعيد فإن الزراعة أمدت الدخل القومي في الامبراطورية بجزء كبير من الدخل. وأن هذا العائد من الزراعة يساوي عشرين مرة الدخل العائد من التجارة أو الصناعة. كما أن العائد من الايجارات كون الدخل الرئيسى لأوقاف بعض المؤسسات مثل المدن والكنائس وأصحاب الدخل المعتمدين في ثروتهم على الأراضي مثل أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الأعيان. كما أن ذلك ينطبق أيضا على طبقة الموظفين. ودخل الايجارات لايأتي فقط من الأراضي الزراعية. يضاف إليه الجزء العائد من ايجارات الممتلكات أو العقارات في المدن والذي كان قليلا، وتوجد قائمة بالممتلكات في Liber Pontificalis [٤٦] مع عائد الايجارات المتحصلة منها قدمها قنسطنطين وآخرون إلى ثماني عشرة كنيسة في روما وباقي أرجاء ايطاليا.

وهذه القائمة توضح أنَّ تسعين بالمائة من تلك الايجارات يأتي من الأراضي الزراعية وأن باقي العشرة بالمائة يأتي من العقارات في المدن، من كل الأنواع مثل

---

(٤٥) Jones, Ibid, p. 430.

(٤٦) Idem, Vol. 1 p. 769 - 770.

المنازل والحدائق والمخازن والحمامات والمخابز(٤٧).

بعض جوانب النشاط الاقتصادي

تحتل التجارة مكانة هامة في النشاط الاقتصادي للدول، ولذلك أعرض بإيجاز لأهم ملامح سياسة الدولة تجاهها في القرن السادس إذ ارتبطت بمظاهر مهمة تميّزت بها الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع البيزنطي.

يقول بروكوبيوس أن الدولة اخضعت غالبية السلع للاحتكار وكان هذا الاحتكار شاملا لجميع السلع، وأن حوانيت بيع الملابس كانت الاستثناء الوحيد الذي لم يخضع للاحتكار. وإن كان قد حدث تحايل لوضع هذا النشاط تحت الاحتكار أيضا. وكانت الملابس المصنوعة من الحرير التي تصنع في كل من بيروت وصور في فنيقيا، تصدر رأسا من هناك إلى جميع أنحاء العالم. وفي عهد جستنيان كان التجار يبيعون هذه الملابس وتلك البضائع بأسعار مرتفعة، متعللين بأنهم أصبحوا يدفعون أسعارا أعلى إلى الفرس أكثر من السابق، هذا بالإضافة إلى أن محطات المكوس كانت قد انتشرت انتشارا أكثر كثافة عما كانت عليه في السابق في الأراضي الرومانية، الأمر الذي جعلهم يدفعون المكوس أكثر من مرة. كما أن ارتفاع أسعار بيعهم للحرير أثار غضب الامبراطور، فأصدر قانونا ينص على أن سعر الرطل من الحرير يجب الا يتجاوز أكثر من ثمان قطع ذهبية. وهو سعر أقل من التكلفة الحقيقية على التجار. وكانت عقوبة من يخالف هذا القانون مصادرة أمواله(٤٨).

ولم يكن من السهل أن يشترى التجار بضائع مرتفعة ثم يعرضونها للبيع بأسعار منخفضة. ونتيجة لذلك ضعف اهتمام التجار بالاستيراد. واقتصر نشاطهم على بيع مخزون سلعهم خلسة الى فئات معينة من الناس. وعندما اكتشفت هذه المخالفة، صودرت كل البضائع، وعلاوة على ذلك فقد فرضت على التجار غرامة مالية مقدارها Centenaria ذهبية واحدة.(٤٩)

وعندما عين Peter Barsymes (٥٠) مستشارا ماليا لجستنيان انغمس في أعمال كريهة وممقوته. إذ فرض على التجار الذين يعملون في تجارة الحرير التعامل معه فقط، وقد وعدهم بأنه سوف يبيع الأصباغ في الأسواق العامة وحدد لها سعرا

---

(٤٧) Idem. Vol. 1. p. 770

(٤٨) Idem. XXV. 17-22. P 299.

(٤٩) Idem. XXV. 17-22. p.299

(٥٠) من أصل سوري عمل مستشارا للامبراطور جستنيان في آواخر عهده، شغل وظيفة SCRINIARIUS الملحق بالوالي الامبراطوري وقد عين فى عام ٥٤٠م فى منصب Comes Sarcarum Largitionum ثم عين فى =

لايقل عن ست قطع ذهبية للرطل الواحد. وحدد أكثر من أربعة وعشرين قطعة ذهبية للصبغة الامبراطورية والمسماة Holoverun. وقد حقق من وراء ذلك مكاسب مادية كبيرة للامبراطورية، كما وأنه حقق لنفسه في ذات الوقت مكاسب خاصة ولم يلحظها أحد(٥١).

ونتيجة لذلك كان على التجار الذين عملوا في هذه التجارة، سواء في بيزنطة أو غيرها من المدن، أن يتوقعوا الكثير من المصاعب الناتجة عن تلك الاجراءات. وقدنزل التجار والصناع المهرة العاملين في ذلك المجال إلى مستوى متردي من الفقر نتيجة لتلك الاحتكارات حتى أنهم غيروا جنسياتهم ولجأوا إلى أرض فارس(٥٢).

ويضرب بروكوبيوس مثلا على ذلك ماحدث في الاسكندرية التي أخضع جستنيان كل متاجرها للاحتكار. ولم يسمح لأي تاجر من التجار بأي قدر من الحرية في مزاولة تجارته، بل قام بدور بائع التجزئة وباع كل أنواع البضائع، وفرض الأسعار التي يود البيع بها. وكانت مدينة الاسكندرية على وشك الانفجار من الغضب بسبب عدم توفر الضروريات، وكانت من قبل كل شيئ بها رخيص الثمن حتى بالنسبة للفقراء المدقعين. وقد خلف في نفوسهم جرحا عميقا باحتكاره للخبز. ذلك انه تحكم وحده في شراء الحبوب من المصريين، وبالتالي تسنى له التحكم في حجم رغيف الخبز وفي السعر الذي يباع به. وقد مكنه ذلك من أن يحقق ثروة طائلة في أقصر وقت ممكن.

ولقد تحمل الاسكندريون مصابهم في صمت ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الوالي من قبل جستنيان ألغى مكرمة كان الامبراطور دقلديانوس قد وضعها، حيث كان قد خصص كميات من القمح توزع من مخصصات الدولة على فقراء الاسكندرية. وقد استمرت تلك العادة حتى الوقت الذي تولي فيه جستنيان عرش الامبراطورية. إذ قام واليه على الاسكندرية بإيقاف توزيع تلك الحبوب على الشعب وايداعها في مخازن الدولة. وكتب إلى الامبراطور قائلا: إن أولئك الناس ليس لهم الحق في تلك الحبوب وأن صرفها لهم خطأ يرتكب ضد المصلحة العامة، وقد انصاع

= منصب الوالي البريتوري للشرق في عام ٥٤٣، وفصل من منصبه في عام ٥٤٦ ثم أعيد إلى منصب Largitiones وفي (٥٥٤ - ٥٥٥م) أعيد إلى منصب الوالي البريتوري للشرق واستمر فيه حتى عام ٥٦٢ وربما حتى نهاية عصر جستنيان.

Jones, Ibid p. 295. Vol. II, n. 62, p. 1172. أيضا: Idem, XXii, 3 - 38

(٥١) Procopius, Ibid, XXV. 17-22. p. 299

(٥٢) Idem, XXV. 17-22.

الامبراطور إلى ذلك الطلب وتحمل مواطنو الاسكندرية هذا العبء نتيجة القسوة في معاملتهم.(٥٣)

ويشيد المؤرخون المحدثون بالاهتمام الذي أولاه جستنيان للتجارة بصفة خاصة. ويبدو أنه كان للتجارة مكانة كبيرة في الامبراطورية الرومانية، اذ كانت بمثابة سوق تجاري واسع يمتد من بريطانيا إلى مصر. وذلك ليس منذ زمن جستنيان بل منذ أزمان أبعد. فقد هيأت الأمبراطورية كل الظروف المناسبة للتجارة. وحتى عندما قسمت الامبراطورية إلى مناطق إدارية، لم تقف أي حواجز في وجه التجارة. والحظر الوحيد الذي فرضه قائد الجيوش ستليكو (٣٩٥-٤٠٩م) على التجار من القسم الشرقي من الامبراطورية، كان أمرا استثنائيا(٥٤). وحتى عندما انقسم الغرب الأوروبي إلى ممالك جرمانية حظيت التجارة فيما يبدو بحرية الحركة. ويبدو أنها ظلت بعيدة عن التأثر بالمشاكل السياسية. وفي نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع كان تجار مدينة الاسكندرية يتاجرون مع بلاد الغال Gallodromoi وظل ميناء مارسليا يستقبل حتى نهاية القرن السادس شحنات من البردى والتي كان مصدرها مصر، وكذلك زيت ومن المحتمل أن يكون من افريقيا، والنبيذ من وسط ايطاليا وغزة، ويبدو أن تجار الاسكندرية، الذين اختصوا بالتجارة مع أسبانيا، استمروا في مزاولة نشاطهم التجاري في القرن السادس أيضاً. كما جاء تجار من الأغريق إلى الموانيء الاسبانية Spanoromi. بل إن ملوك القوط الغربيين وفروا حرية التجارة لتجار ماوراء البحار. وسمحوا لهم بالفصل في الخلافات التي تنشب فيما بينهم وفقا لقوانينهم وأن يتخذوا من العناصر المحلية عملاء لهم بشرط أن لايصحبوهم معهم إلى ماوراء البحار(٥٥).

كما انه لم توجد أي صعوبات نقدية تعوق حركة التجارة الواسعة. وكانت العملات الامبراطورية حيثما ضربت مقبولة في كل أنحاء الامبراطورية. وتجارة التجزئة التي مرت بصعوبات في القرنين الرابع والخامس بسبب الحالة السيئة التي

---

(٥٣) Procopius, Ibid,XXi 33-36.

(٥٤) ستليكو Stilicho من أصل وندالي قائد في الجيش الامبراطوري في عصر الامبراطور تيتوثيودوسيوس (ت ٣٩٥ م على رتبة Militium magistaer وبعد وفاة الامبراطور تيودوسيوس وتقسيم الامبراطورية بين ولديه اركاديوس في الشرق وهونوريوس في الغرب كانت السيطرة في الغرب من نصيب ستليكو.
أنظر: الشيخ، الممالك الجرمانية، ص ٢٢
ايضا: Jones, Ibid, Vol. 1, P.1340

(٥٥) Idem, Vol.1, 824 P. 1340

عانى منها النقد المسكوك من العملات النحاسية في ذلك الوقت. بسبب النقص المتزايد في الفضة في القرن الخامس. وما لبثت الظروف أن تحسنت في أواخر القرن الخامس بفضل إصدار عملات كثيرة من النحاس في روما وقرطاجة، وما قام به فيما بعد انستاسيوس في الشرق باصدار مثل هذه العملات، والتي كانت تتفاوت في ثبات علاقتها بالصولدى Solidus، وأيضا بواسطة العودة إلى سك النقود الفضية على يد ملوك الوندال والقوط الشرقيين، وفيما بعد على يد الحكومة الأمبراطورية في ايطاليا(٥٦). وأثبت الصولدى Soldius في آواخر سنى حكم الأمبراطور قسطنطين، انه العملة المستقرة التي يعتمد عليها في حركة التبادل وفي العمليات التجارية الكبرى. ولم يقتصر قبول الصولدى على الأمبراطورية وحدها، بل تعداها إلى شمال أوروبا، وإلى الشرق الأقصى حيث عثر على أعداد كبيرة منه هناك. وذلك استنادا إلى أقوال كوزماس Cosmas(٥٧). إن كل الأمم تاجرت في العملة الأمبراطورية وانها موجودة في كل مكان في العالم ومقبولة في التعامل التجاري، وانها موضع الحسد وربما الغبطة من كل الرجال، وفي كل مملكة. والمعروف أن كوزماس قد سافر إلى الهند لذلك فإن شهادته يؤخذ بها عند الحديث عن الشرق الأقصى. أما في الغرب فإن الممالك الجرمانية قبلت التعامل بالصولدى، بل وسكّت معظم عملاتها بنفس المعيار. وذلك إذا قورنت العملة الذهبية الميروفنجية، والتي كانت أخف في الوزن من الصولداى فلم تكن مقبولة في ايطاليا. وقد طالب البابا جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) من ممثل الكنيسة الرومانية في غالة ألا يقبل قيمة إيجار أوقاف (ضياع) الكنائس بالعملة المحلية وإنما عليه أن يشترى بها ملابس وعبيد ويبعث بها إلى روما.(٥٨)

وكانت هناك شبكة طرق تجارية ممتازة وصيانة حكومية للطرق والجسور على حساب ملاك الأراضي. وحرصت الحكومة كذلك على صيانة الطرق المائية الداخلية. وكانت حالة الأمن جيدة بصفة عامة على الطرق التجارية البرية والبحرية حيث ساد

(٥٦) Jones, Ibid, Vol. 2, P. 824.
Diehl, Justinian`s Government in the Est, in: C.M.H. Vol. 2, P. 41.
أيضا: Vasilieve, History of Byzantine Empire, Vol. 1, P. 103.

(٥٧) Cosmas, Indicopleustes P. 1341.

(٥٨) Idem, Vol. 2, P. 825.
عن العمله الميروفيجية الذهبية أنظر: Jones, Vol. 2, P. 1341
أيضا: Vasilieve, Ibid, P. 66

الأمن بشكل طيب على الطرق التجارية. فيما عدا بعض المناطق المحددة.(٥٩)

وقد كانت القسطنطينية تتحكم في الطرق بين أوروبا وآسيا وقامت بدور المركز التجاري بين القارتين. وقد كانت تجارة البحر المتوسط مركّزة في أيدي التجار الأغريق والسوريين. ولم تكن الحركة التجارية مع الغرب الأوروبي هي التي انعشت الاقتصاد الروماني في الشرق، ولكنها الحركة التجارية مع الشرق الأقصى، وبالذات مع كل من الهند والصين. وقد كانت حركة تبادل تجاري بمعناها الكامل من تصدير واستيراد. وقد صدرت بيزنطة إلى الشرق بعض المواد غالية الثمن، ولكنها لم تتساو مع المستورد من البضائع الترفيهية الآتية من الشرق وخصوصاً الحرير، ولم يكن من السهل أن تستمر التجارة مع الصين، حيث أن ذلك يعتمد على التفاهم مع الفرس، وحتى في أوقات السلام تدخل في تلك التدابير تكاليف مالية غير ضرورية، تلك التي يفرضها الفرس على نقل الحرير من المواني الواقعة على الخليج وإلى الحدود البيزنطية، ويتبع ذلك كنتيجة لابد منها، زيادة تدفق الذهب من الأمبراطورية، بينما نرى أن في فترات الحرب بين الأمبراطورية والساسانين، الفرس، أن تجارة الحرير تتعطل، والسبب في ذلك يعود إلى أن طريق التجارة البري إلى الصين يمر ببلاد الفرس، كما أن الملاحة البحرية في المحيط الهندي كان يتحكم بها تجار الفرس الذين يبحرون من الخليج الفارسي إلى سيلان لجمع البضائع التي تصب منها قادمة من الصين.(٦٠)

وقد حاول جستنيان أن ينشيء اتصالا مباشرا مع الصين من طريق الدول التابعة لخرسون Cherson والبسفور، في شبه جزيرة القرم، ويمر خلال لازيكا Lazica والقوقاز. وقد كانت لبيزنطة علاقة تجارية جيدة بتلك المناطق، ودعم السيطرة في القرم ومناطق القوقاز، أمر له أهميته الكبرى. ومن خلال مشكلة تجارة الحرير، اتصلت الامبراطورية بالترك الذين كانت لهم قوة تمتد إلى شمال منطقة القوقاز. وكان الترك، مثل البيزنطيين، قد اختلفوا مع الفرس حول تجارة الحرير. لذلك كان من

---

(٥٩) Jones, Ibid Vol. 2, P. 825

أيضا: Bury, Ibid Vol. 1, P. 472

(٦٠) Ostrogorsky, Ibid, P. 74.

أنظر أيضا ملحق (٣) شكل (٣)

أيضا: Vasilieve, Ibid, P. 167-168

أيضا: Diehl, Ibid, P. 41

أيضا: Bury, Ibid, Vol. 2, P. 63

الطبيعي أن يتحدوا مع البيزنطيين لمواجهة الفرس في هذه المنطقة.(٦١)

ولقد اهتم جستنيان نفسه بحراسة الطرق البحرية المؤدية إلى الهند من خلال البحر. كما أنه حاول تقوية اسطوله البحري وعقد صداقة وعلاقة ودية مع مملكة اكسوم في الحبشة. ولكن لم يستطع التجار الرومان ولا الأحباش أن يتخلصوا من سيطرة التجار الفرس في المحيط الهندي. وكان الطريق البديل، عن المحيط الهندي، هو الطريق البري من البحر الأسود إلى أواسط آسيا، وقد كان ذلك الطريق صعبا وكثير المخاطر. وبذلك تكون قد فشلت محاولة جستنيان في التغلب على الفرس والافلات من قبضتهم في السيطرة على تجارة الحرير. (ولكن لحسن حظ الامبراطورية، أنه تمكن إثنان من الرهبان البيزنطين من تهريب دودة الحرير من الصين إلى القسطنطينية، والتي كانت سرا من أسرار الصين). وتحولت الأمبراطورية نفسها لأن تكون منتجة للحرير، وتوزع إنتاج الحرير بين القسطنطينية، وأنطاكية وصور وبيروت وطيبة. وبذلك يكون عصر جستنيان قد تميز بإدخال صناعة انتاج الحرير إلى الامبراطورية الرومانية، والتي أصبحت من أنجح الصناعات فيها. واحتكار الدولة لتلك الصناعة جعلها موردا جيدا لدخل الدولة. (٦٢)

أما بالنسبة لموضوع احتكار صناعة الحرير فقد كان السمة البارزة لسياسة الدولة الاقتصادية في الفترة الزمنية مابين ٥٤١-٥٦٥م والتي برز فيها الوالي البريتوري في الشرق Peter Barsymes. ويعتبر جونز ادخال نظام الاحتكار في صناعة الحرير عملا فذا من أعمال بيتر، والذي أخضع بيع الحرير الخام على الحدود لرقابة الموظفين الحكوميين Commerciarii، والذين كانوا يبيعون الحرير الفائض عن حاجة المصانع الحكومية إلى التجار، وكان سعره قد زاد بسبب الحروب الفارسية، وكان من الطبيعي أن يطلب أصحاب مصانع الحرير سعرا أعلى لمنتجاتهم. غير أن الحكومة تدخلت، لصالح المستهلكين، بأن وحدت الأسعار. ونتيجة لاستمرار الارتفاع في سعر الحرير الخام، تخلى التجار والصناع من الأفراد عن هذا العمل في هذه الصناعة،

(٦١) Ostrogorsky, Ibid, P. 75.

(٦٢) Bury, Ibid, Vol. 2, P. 472.

أيضا: Ostrogorsky, Ibid, P. 75

أيضا: ارشيبالد لويس، **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**. ترجمة أحمد محمد عيسى، ومراجعة محمد شفيق غربال. مكتبة النهضة المصرية، (بدون تاريخ)، ص ٧٢.

أيضا: ف. هايد. **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**: ترجمة أحمد محمد رضا. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ٢٤.

أيضا: أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ١٧٧.

واستغل بيتر النقص في المنسوجات الحريرية، فباع ماتنتجه مصانع الدولة منها بسعر مرتفع إلى أقصى حد. وتبعا لذلك احتكر الموظفون الماليون Largtiones صناعة الحرير وبيع منسوجاته. ومن ثم جنوا أرباحا طائلة، من الذين كانت هذه المنسوجات من لوازم حياتهم.(٦٣)

وربما يكون بيتر مسئولا عن بيع احتكارات أخرى لسلع أخرى مختلفة للنقابات وأصحاب الحوانيت. وقد طبق هذا النظام في القسطنطينية أولا، كما طبق في باقي المدن الكبرى. وقد انتشر هذا النظام في الاسكندرية على يد هيفايستوس Hephaestus، الذي كان يشغل منصب Ougustalis Prefectus الوالي الأوغسطي في سنة ٥٤٦م(٦٤).

الموقف الاقتصادي بعد جستنيان

لقد ترك الامبراطور جستنيان خلفاءه في ظروف مادية سيئة، إذ خلت خزانة الدولة على عروشها، والدائنون من المرابين يلحون في الحصول على ديونهم المستحقة. كما كانت الضرائب ثقيلة والناس لايستطيعون دفعها. ولا يستهان بمقدار الاعانة dole الحكومية التي تدفعها الدولة للعاطلين عن العمل. وقد درجت الدولة على تقديم هذه الاعانة منذ تاريخ نقل العاصمة في عهد قنسطنطين (٣٠٧-٣٣٧م) حيث أوجب أن توزع في القسطنطينية نفس كمية الطعام المجانية التي كانت توزع في روما. وقد كانت الاعانة تتضخم لتتناسب مع زيادة السكان في المدينة. وفي زمن ثيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥م) زادت كمية الطعام الموزعة كما زاد عدد المستفيدين منها. وبمرور الوقت كان امداد المدينة بالطعام المجاني أحد اهتمامات حاكم المدينة الرئيسية وكان في ذلك عبئا ثقيلا ناءت به الخزينة العامة. (٦٥)

هذا بالاضافة إلى أن معظم الولايات التي استردتها الامبراطورية قد خرجت من حروب الاسترداد محطمة اقتصاديا. وكانت عملية حمايتها والاحتفاظ بها تمثل عبئا اقتصاديا اضافيا وقع على عاتق الموارد المنهكة للقسم الشرقي من الامبراطورية.

كان على خلفاء جستنيان الذين جاءوا من بعده مباشرة وهم جستين الثاني (٥٦٥-٥٧٨م) وثيبيريوس (٥٧٨ - ٥٨٢م) تدبير الأموال اللازمة لتدعيم البناء

(٦٣) Procopius, Ibid, XXV. 13-26.
أيضا: Jones. Ibid, Vol.1, 295 - 296.
6. P. 1341 (codex Justinianus IV. XI. 2 (385 - 92)
(٦٤) Jones, Ibid, Vol. 2, P. 285
(٦٥) Stratos, Ibid, Vol. 1, P. 5.

الضخم الذي شيده والدفاع عن الحدود المنسقة الجديدة. وأصبح البحث عن موارد دخل جديدة مشكلة دائما لمن جاء بعد جستنيان، ولعله من المهم ملاحظة ماقامت به الدولة من محاولة لايجاد موارد دخل جديدة، وكيف أن هذه المحاولة أعاقتها عقبات ثلاث: أولها: عجز رعايا الامبراطورية عن دفع أية ضرائب جديدة ويستدل بذلك على ماورد لدى بروكوبيوس من أن جستنيان لم يعف رعاياه من الضرائب ولو لمرة واحدة[٦٦]. وثانيها: افتقاد السياسة الخارجية للامبراطور جستين الثاني إلى الحكمة وبعد النظر أوقع الامبراطورية في أخطاء فادحة استنزفت مواردها[٦٧]. وأن الحدود الواسعة والتركيز على جبهة تتعرض للإعتداء أدى إلى إضعاف الجبهات الأخرى. وثالثها: وقوع عدد من الكوارث الطبيعية في عهد كل من جستين وتيبيريوس أضاف إلى الأزمة الاقتصادية.[٦٨]

وكان على الامبراطور جستين الثاني في سبيل تقوية مركزه السياسي والنجاح في مطلبه في أن يكون امبراطورا، أن يدفع مجبورا ذلك الدين الذي أخذه عمه من مرابي المدينة، وأن يتنازل عن الضرائب التي كانت متأخرة في الدفع قبل سنة ٥٦٠م.[٦٩]

لقد فرضت الظروف على جستين الثاني أن يتبع سياسة مالية اتسمت بالتقشف، ولجأ إلى كل الوسائل من أجل إيجاد موارد دخل جديدة. هذه الظروف جعلت المصادر المعاصرة تصفه بالبخل بل والشح. وقد وصفه جريجوري أسقف تور Gregory of Tours بقوله: "كان أكثر الرجال شحا وبخلا ولم يعط شيئا للفقراء بالإضافة إلى أنه استنزف أموال أعضاء مجلس الشيوخ[٧٠]. كما يذكر أن جشعه جعله يجمد ثروته على شكل سبائك من الذهب خبأها في صناديق صنعها من حديد[٧١]. ويؤكد ذلك يوحنا الافسوسي حين يقول: "إن موريس عند اعتلائه عرش

---

(٦٦) وسام عبد العزيز فرج: **دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى**، الاسكندرية ١٩٥٥، ص ١٨٢. راجع أيضا: Procopius. Ibid, XXiii, 1 - 11

(٦٧) رفض جستين دفع الجزية التي كان مفروضا أن يدفعها لملك الفرس طبقا لمعاهدة السلام التي عقدت مع فارس سنة ٥٦٢م. كما رفض دفع الهبات التي كانت تقدمها الامبراطورية للحلفاء. لأن فكرة دفع الجزية للبرابرة كانت عملا كريها فى نظره. ومهانة كبرى. لمزيد من التفايل أنظر: وسام، المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٦٨) وسام، المرجع السابق، ص ١٨٢.

(٦٩) Stratos, Ibid, Vol. 1. P. 5.

أيضا: Baynes, Ibid, P. 264

(٧٠) Gregory of Tours, Trans. By Lewis Thorpe (1974), P. 234.

(٧١) Idem, P. 234.

الأمبراطورية وجد أن تيبيريوس قد أثقل على خزينة الدولة. كما انه عثر على خزينة حديد كان جستين قد خبأها في القصر"(٧٢).

واستنادا إلى هذا الاسقف يبدو أن قلة الموارد المالية للامبراطورية دفعت جستين إلى فرض ضريبة جديدة قيمتها أربعة دارك Daric على كل مواطن يتمتع بامتياز الحصول على الخبز المجاني الذي توزعه الدولة والمعروف باسم خبز العامه Annonae Populares (٧٣).

ويذكر جونز استنادا إلى نفس هذا المصدر أن قيمة الضريبة كانت أربعة صولداي(٧٤) تدفع لمرة واحدة مقابل الحصول على بطاقة تسمح لحائزها الحصول على الخبز المجاني، ولم يفسر جونز معنى المرة الواحدة وهل هي عن سنة واحدة أو أكثر أو مدى الحياة؟ كما أنه لم يفسر هل يحمل البطاقة كل من يريد أن يشتري خبزا أو من له حق الحصول على خبز العامة؟ حيث ان شرط صرف الخبز المجاني ارتبط في أصل تطبيقه (كمبدأ) على من يبني منزلا في القسطنطينية وذلك في عهد الامبراطور قنسطنطين(٧٥).

وإن كان يحق لنا أن نفسر رواية يوحنا الافسوسي بأن الضريبة اقتصرت فقط على الذين كانوا يتمتعون أصلا بامتياز الحصول على الخبز المجاني. وكان الامبراطور قد ألغى هذا الامتياز. وبدلا من دفع ثمن الخبز جعل الحصول عليه لمن يحوز هذه البطاقة.

كما وأن جستين فرض ضريبة جديدة على كل السفن وعلى كل التجار تساوى قدر قنينة على كل برميل من براميل النبيذ.(٧٦)

وتضمن مرسومه الذي أصدره عام ٥٦٩م والذي يتناول فيه طريقة اختيار حكام الأقاليم النص على الالتزام بدفع الضرائب، حيث يقرر أنه لايحق لأحد أن يتأخر عن دفع الضرائب المفروضة عليه. ولايسمح لدار من دور العبادة أو دير أو أي شخص أن يتأخر في دفع الضرائب، وانه لن يكون هناك اعفاء للساسة او جباة الضرائب أو

---

(٧٢) Jone of Ephesus, Ecclesiastical History Trans. by R. Paynesmith 190-191.

(٧٣) Idem, P. 191.

(٧٤) عن توزيع الخبز المجاني ينسب إلى قنسطنطين وابنة قنسطانطيوس أنهما بذلا كل مافي وسعهما لجذب الناس للإقامة في المدينة الجديدة. ومن هنا جاء تقرير توزيع القمح المجاني والأمر بصرف عدد معين من أرغفة الخبز مجانا ولمدى الحياة. أنظر الهامش رقم (٧٠) فى حين أنها ذكرت فى المصدر الأصلى أربعة دارك Daric.

(٧٥) Jones, Ibid. Vol. 1, P. 306, Vol. ii, 8P. i128.

(٧٦) John of Ephesus, Ibid, P. 192.

أي شخص آخر تقع على عاتقه مسئولية الضرائب العامة من العقاب، لأنه لايمكن للدولة أن تستمر إلا إذا تم دفعها للخزينة العامة.(٧٧)

ومن الطريف أنَّ يوحنا أسقف اوفسوس يروي أن جستين عيَّن فوتيوس إبن القائد بليزاريوس (٥٧٢ -٥٧٣م) حاكما على ولاية فلسطين، والذي قام بجمع الأموال من سكانها مستعملا كل أساليب القهر والعنف. ولما بلغ ذلك جستين كتب إليه قائلا: إذا كانت الأموال التي ترسلها لنا قد جمعتها عن طريق النهب والقهر والظلم فإن هذه خطيئة لانرضى عنها. فأجابه فوتيوس: الأموال لك والخطيئة أتحملها انا فوق رأسي(٧٨). وهناك إشارة إلى أن جستين عمل موازنة للخزينة متزنة ولايوجد دليل على اتباعه سياسة الابتزاز(٧٩).

وتأتي إلى الحكم شخصية مغايره تماما لشخصية جستين فقد كان خلفه تيبيريوس، كما وصفته الروايات المعاصرة محسناً ومتصدقاً وعادلاً ومنصفاً في معاملاته مع الآخرين وناجحاً في حروبه. قوى الجسم والعقل، مملوء بالخير ويهتم بأمور المحتاجين. وأنه قام بتوزيع كثير من الأموال التي جمعها جستين على الفقراء. وتذكر هذه الروايات أن الامبراطورة صوفيا Sophia أرملة جستين(٨٠) كانت تعنفه وتنعي عليه انه أفلس خزينة الدولة بقولها: إن الذي قمت بجمعه أنا وزوجي في عدد من السنين تشغل نفسك في تبذيره بطريقة مسرفة، وفي أقصر وقت ممكن(٨١).

أما الرواية المعاصرة الأخرى فتقول: انه عند اعتلاته عرش الامبراطورية قام بانفاق مالايقل عن سبعة آلاف ومائتي وزنة من الذهب، هذا بالإضافة إلى الفضة والملابس الحريرية، وأشياء أخرى، وان هباته اقتصرت على الأغنياء المتخمين واتهمته أنه لم يخص الفقراء بشيء منها.(٨٢)

وربما تكون الرواية الثانية أرجح، حيث أن صاحبها كان يعيش في الشرق، وهو أقرب الى جستين من جريجوري التوري، الذي كان يعيش في الغرب. ولم يكن

---

(٧٧) وسام، المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٧٨) Jone of Ephesus, Ibid. P. 66-68.

(٧٩) Stratos, Ibid, Vol. 1, P. 6.

(٨٠) زوجة جستين الثاني وابنة شقيقة الامبراطورة ثيودرا زوجة الامبراطور جستنيان.

(٨١) Gregory of Tours, The History the Franks Trans. by Lewis Thorpe, 1974, P. 234.
لتفاصيل أكثر عن شخصية تبريوس واحسانه وكيف أن الله يرزقه من حيث لايدري. أنظر المصدر نفسه من صفحة ٢٣٤-٢٨٣.

(٨٢) John of Ephesus, Ibid, P. 196.

شاهد عيان لما يحدث في الشرق مثل يوحنا الافسوسى.

وتفيد الروايات بأن تيبيريوس أمر بإلغاء. ربع الضرائب في كل أنحاء الامبراطورية. وذلك في مرسوم أصدره سنة ٥٧٥م. كما تفيد بالغاء ضريبة الأربعة Darics والتي كان جستين قد فرضها على كل شخص يستحق رغيفا من الخبز المجانى. كما قام بإعادة الأموال إلى الذين سددوا حصتهم. بالإضافة إلى إلغاء ضريبة النبيذ التي فرضها جستين على السفن والتجار[٨٣].

وبصفة عامة اختلفت سياسة هذا الامبراطور عن سياسة جستين واتسمت بالتخفيف عن الشعب وإعادة دفع الجزية للافار، كما أن المفاوضات سارت على قدم وساق مع الفرس للتوصل إلى هدنة مقابل دفع جزية [٨٤].

هذا الكرم في الإنفاق الذي تحدثت عنه الروايات لم تشر إلى مصدره، وخصوصا في ظل معرفتنا بالظروف السيئة التي تمر بها البلاد ولكن الروايات تشير إلى مصادر مادية حصل عليها بطريق الصدفة فيقال أنه عثر على كنز مخبأ في القصر تحت بلاطة حفر عليها الصليب وأن الكنز يقدر بحوالي مائة ألف رطل من الذهب.[٨٥] كما أنه عثر على كنز آخر مخبأ في منزل القائد العسكري نارسس، والذي خبأ فيه غنائم ضخمة عند خروجه من ايطاليا، والتي تقدر بمئات الآلاف من قطع الذهب والفضة[٨٦]. كما تشير رواية أخرى إلى الثروة التي حصل عليها تيبيريوس أثر معركة دارت بينه وبين الفرس والتي جمعها الجيش نتيجة انتصاره على الفرس في تلك المعركة[٨٧].

ولكن الروايات تزودنا بأخبار عن المجاعة التي حدثت في عهده والتي تعتبر في حد ذاتها كارثة اقتصادية، لأنها مؤشر لتعطيل مصادر الدخل وبالتالي مصدر انفاق للدولة لكي تنقذ الأرواح من الهلاك، الشيء الذي يثقل كاهل خزينة الدولة هذا بالإضافة إلى مزيد من التعقيد بالنسبة للحالة الاقتصادية[٨٨].

وبدلا من التفكير في مصادر جديدة للدخل، ألغى تبيريوس الـ Suffragia وهو

(٨٣) John of Ephesus, Ibid, P. 195-1910.

(٨٤) وسام: المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٨٥) Gregory of Tours, Ibid, P. 284.

(٨٦) Gregory of Tours, Ibid. P. 283.

(٨٧) John of Ephesus, Ibid, P. 189.

(٨٨) وقد وقع في عهده عدد من الزلازل والأوبئة التي اجتاحت معظم أقاليم الامبراطورية الرومانية إبتداءً من سنة ٥٦٥م وحتى سنة ٥٨٢م. وفي سنة ٥٦٨م اجتاحت أقاليم الامبراطورية موجة جفاف شديدة أعقبها شتاء شديد البرودة. وفى سنة ٥٧٣م انتشر وباء الطاعون فى القسطنطينية، وفى العام الثانى امتد الوباء إلى الاقاليم. =

المبلغ الذي يدفع لشراء الوظائف والتي امدت الخزينة بدخل جيد(٨٩).

وبعد هذا الامبراطور شديد الإسراف يأتي الامبراطور موريس وهو على عكسه كان بخيلاً إلى درجة الشح. أما الحالة الاقتصادية في عهده فقد كانت في حالة يرثى لها، خصوصا بعد أن جاء بعد امبراطور مسرف(٩٠). وفي الواقع أن موريس كان مجبرا على أن يكون شديد التقيد بسياسة الحرص والبخل والشح وإن كان بطبيعته يميل إلى ذلك(٩١). وقد وجد نفسه وجها لوجه أمام الكثير من الالتزامات المادية. ففي سنة ٥٨٩م كان مجبرا على تقديم جزية لشلدبرت ملك الفرنجة، تحت ضغط غزو آخر(٩٢). وبعد سنتين من ارتقائه العرش طالبه الأفار بزيادة هباتهم السنوية من ٨٠٫٠٠٠ إلى ١٠٠٫٠٠٠ صولداى. وعندما رفض موريس دفع المبلغ احتل الآفار Singidunum (بلجراد حاليا) بهجوم مفاجىء، ونهبوا وخربوا المدن الأخرى في مؤيسيا الأولى. وكان على الامبراطور أن يوافق على دفع العشرين ألف صولداى مقابل السلام ومقابل استعادة Singidunum (٩٣).

أما الاجراءات أو التغيرات التي إجراها موريس لمواجهة تلك الالتزامات المادية، فإنه أصدر أمراً بإنقاص المرتبات العسكرية بنسبة خمس وعشرين بالمائة مما أدى إلى تمرد عنيف بين الجند. وكان ذلك في سنة ٥٨٨م حسب رواية جونز(٩٤). أو في سنة ٥٨٧م حسب الرواية الأخرى(٩٥).

كما ورد أنه باع حبوب مصر وبيزنطة وحول ثمنها إلى ذهب، ولذلك كرهه كل الناس(٩٦).

= كما وقع في نفس السنة زلزال شديد ربما كان في أسيا الصغرى.
هذا من جهة الشرق أما في الغرب فقد تعرضت روما لمجاعة أعقبها وباء شديد في أوائل سنة ٥٧٨م. وقام الامبراطور بارسال القمح من مصر للقضاء على المجاعة، وفي سنة ٥٨١ أصاب أنطاكية زلزال شديد دمر ضاحيتها دفني وأسقط برجين من أبراج سورها. وشهدت السنة الأخيرة من عهده نقص شديد في الخبز في كل أقاليم القسم الأوروبي من الامبراطورية، سرعان ماتطور إلى مجاعة شديدة في القسطنطينية نفسها، التي اختفى الخبز من أسواقها تماما.

(٨٩) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 307

(٩٠) John of Nikiu, The chronicle of John Bishopol Nikiu, ed. and Trans. R. H. Ibid, p. 151

(٩١) Stratos, Ibid, Vol. 1, P. 6

(٩٢) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 310

(٩٣) Bury, Ibid, Vol. 2, P. 126, Jones, Ibid, Vol. 1, P. 314

(٩٤) Jones. Ibid. Vol. 1. P. 310

(٩٥) Stratos, Ibid, Vol.1, P. 6

(٩٦) John Bishop of Nikiu, Ibid, P. 154

ولم يرد مـايدل على أن مـوريس استطاع التـخلص من سيـاسـة التـقـشف التي فـرضتـهـا عليـه الظروف والتي جعلته بالتـالي مكروها من الشعب ومن الجند وكلفتـه في النهاية عرشه وحياته.



الفصل الخامس

الأوضاع الدينية في النصف الثاني من القرن السادس

أبدى جستنيان اهتماما واضحا بالمسائل الدينية، وكان واسع النشاط في هذا المجال، حيث كان يعتقد أن نجاح جيوشه وخير الأمبراطورية يتوقفان على رعاية الله. وابتغاء مرضاته، فأخذ على عاتقه تنظيم شئون الكنيسة الداخلية. مع الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، لذا أقدم على سنٍّ عدد من القوانين تنظم طرق انتخاب الأساقفة وتضمن انضباط الهيئة الكهنوتية "الاكليروس" بمقتضى المبادىء الدينية. وان الاشخاص الذين يتولون تلك المناصب يضطلعون بواجباتهم ويسلكون في حياتهم المسلك اللائق بمناصبهم مع استبعاد شراء المناصب الكهنوتية. وأخضع انتخاب رؤساء الأديرة من الرهبان ورئيسات الأديرة للتنظيم، وحرص على انضباط الرهبان والراهبات لمراسيم الأمبراطورية وخاصة لأن لصلواتهم أثرها الفعال في اعتقاده.

ونظمت القواعد بالنسبة للرهبان والراهبات بواسطة سن القوانين والتشريعات الامبراطورية، كما أنه سن مجموعة من القوانين فرضت لمنع تحويل ملكية الكنائس والتأكيد على فعالية وكفاءة إدارتها.[1] وباختصار كان هدف سياسة جستنيان الدينية هو توحيد جميع رعايا العالم الروماني في ظل كنيسة واحدة يسيطر عليها، لذلك رأى أنه يجب القضاء على الوثنية والهرطقة، فتمسك بالمراسيم التي أصدرها أسلافه في هذا الشأن، وأقصى عن التدريس كل من يدين بتعاليم الهيلينية وفلسفتها [2]. وكذلك اغلقت مدارس أثينا الفلسفية ذات الماضي المجيد الذي يرجع إلى القرن الرابع ق. م. ففي سنة ٥٢٩م أجبر كل الوثنيين على الحضور إلى الكنيسة، حيث الزموا بالتعميد وذلك تحت التهديد بمصادرة أملاكهم ونفيهم [3].

وفي نفس الوقت جرت حركة تطهير بين أرستقراطية القسطنطينية وأعدم عدد من

(١) Jones, **History of the later Roman Empire**, Vol. 1, P. 295

أيضا: Deihl "**Justinian`s Government in the East** in: C.M.H. Vol.2. P.43

(٢) Bury, **Later Roman Empire**, Vol. 2, PP. 364 - 372.

(٣) Jus. Nov. VI, XVI, 535, CXXXVii, 565.

وأيضا: Jus. Nov. 535, IXXiX, CXXXiii

الشخصيات البارزة بتهمة ممارسة الوثنية. وقد عهد رسميا إلى يوحنا الافسوسي John of Ephesus في سنة ٥٤٢م بالذهاب إلى غرب آسيا الصغرى والتبشير بالديانة المسيحية بين سكانها من أهل الريف. ونجح في تعميد سبعين ألفا منهم(٤).

واتخذت اجراءات عنيفة ضد الطوائف التي تطرفت في هرطقتها ففي سنة ٥٢٧م نفذ حكم الأعدام في شخصيات شغلت مناصب مرموقة باعتبارهم مانويين. وفيما بعد حمل المانويين Manichees* على الانتحار الجماعي تحت ضغط الاضطهاد(٥).

وقد صدرت مجموعة من القوانين ضد الوثنيين واليهود والسامريين والهراطقة حرمت عليهم شغل الوظائف الامبراطورية مثل القضاء وعضوية مجالس المدن Decurinonos, Defensors. كما حرموا من العمل في المحاماة وكثير من حقوقهم المدينة ومن بيع عقاراتهم وتوريث ضياعهم أو وهبها إلا للكاثوليك(٦).

ويحق لنا أن نتساءل لماذا اهتم جستنيان بالكاثوليك دون غيرهم من المذاهب المسيحية وعلى رأسها المذهب الارثوذكسي وهو المذهب الرسمي في بيزنطة؟والإجابة على هذا السؤال تكمن في رغبة الأمبراطور سياسية. هذا بالإضافة إلى رغبة جستنيان في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، حيث أن اتحاد الكنائس الشرقية والغربية له أهمية كبرى في سياسة الاسترداد التي انتهجها، إذ وضع نصب عينيه استرداد كل من شمال افريقيا وايطاليا الكاثوليكيتين(٧). ولم يكن اليهود هم الفئة الوحيدة التي طغى عليها الكاثوليك، بل إن الاريوسيين في كل من شمال افريقيا وايطاليا كان لهم نفس الوضع، حيث دمرت كنائسهم وصودرت أراضيهم(٨).

وعامل السامريين وفقا لقوانين بالغة الصرامة في بداية عهده، حيث أمر بتدمير معابد السامريين مما أدي الى ثورتهم وقد أنزل أقسي العقوبات بالمتمردين وقتل عددا

---

(٤) John of Ephesus, XXIII.

(*) المانوبيه Manichees عقيده دينية قدمها مانى Mani وهو فارسي. ولد حوالي ٢١٥م وقد مزج النظرية المسيحية للخلاصى salvation مع الثانية dalis الزراستشين zoraostrian وهي الاعتقاد بأن هناك مبرأين متعاكيسين بما كان لمزيد من التفاصيل انظر: The World Book Encyclopedia Vol. 13, p.107

(٥) كان اصحاب هذه النحلة قد انتشروا في افريقيا في القرنين الثاني والثالث، غير أنهم أغموا في القرن الخامس على العودة إلى فريجيا الموطن الأصلي لهذه النحلة.

أنظر: Jones, Ibid, Vol. 1, P. 286.

(٦) Idem, Vol. 1, P. 286.

أيضا: Diehl, Ibid, P. 44.

(٧) Bury, Ibid, Vol. 2., P. 365.

(٨) Diehl, Ibid, P. 44.

كبيرا منهم[٩].

ولم يستطيع جستنيان اتخاذ موقف حازم أو سياسة ثابتة من مشكلة المونوفيزتية. والتي كانت تهدد باتساع الشقة بين القسطنطينية وروما منذ عهد الامبراطور زينون. وكان الامبراطور جستين قد عمل على إزالة الشقاق عن طريق العودة إلى مراسيم مجمع خلقدونية المنعقد سنة ٥٤١م وموافقة البابوية في روما عليها[١٠].

وقد حرم مرسوم خلقدونية صب اللعنة على النساطرة واتباع مذهب Euthychianism [١١] ولكنه لم يذكر شيئا عن طبيعة واحدة للمسيح أو طبيعتين، بدلا من ذلك استخدم الصيغة التي تقول: "أن المسيح الذي كان ذا طبيعة وشكل بشرى، والذي خلق رجلا وصلبا انما هو واحد من الاقاليم الثلاثة المقدسة". وقد أرسلت تلك الصيغة إلى البابا يوحنا الثاني الذي وافق عليها سنة ٥٣٤م[١٢].

وفي سنة ٥٣٥م وعندما توفى بطريرك الاسكندرية تيموثي الرابع Timothy IV، عين ثيودوسيوس، السفيرى المونوفيزيتي، بطريركا للأسكندرية كما انه في نفس العام توفى ايبفانيوس Ephiphanius، بطريرك القسطنطينة، وعين محله أسقف طرابيزون الذي كان واحدا من الستة الذين يمثلون مبادىء مجمع خلقدونية، والذي حضر اجتماع عام ٥٣٢م. وقد دعا سفيروس، الانطاكي نفسه، إلى القسطنطينية لاكمال المفاوضات ولكن في ربيع سنة ٥٣٦م وصل إلى القسطنطينية البابا Agapetus مبعوثا من الملك القوطي الشرقي Theodahad، والذي قام بجمع شمل الخلقدونيين المتعصبين. ويبدو انه اقنع جستنيان بسياسته الخاطئة. وقد عقد مجمعا برئاسته وأدان فيه انتموس وطرده من منصبه وانتخب ميناس Menas، أحد الخلقدونين الارثوذكس، الذي بادر إلى عقد مجمع موسع قضى بحرمان سفيروس الأنطاكي ومساعديه وأدان مذهبهم. واتبع جستنيان ذلك باصدار مرسوم يقضي بطرد الأساقفة الذين ادينوا وأمر بحرق كتب سفيروس وقد رتب الامبراطور لاقناع ثيودوسيوس بطريرك الاسكندرية، الذي كان

---

(٩) السامريون من سكان السامرة أو نابلسي في فلسطين. وهم يهود ولكن يخالفون اليهود الآخرين في نقاط دينية جوهرية منها انهم لايقرون من كتب الوحي إلا اسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوارة. وانهم يقولون بواجب العبادة لافي أورشليم القدس بل على جبل جرير ثم جنوبي شكيم.
Jones, Ibid, 286

(١٠) L. Dachesene, Histoire Ancinne del` Eglise Vol. 3, Paris, 1923, P. 515,518.

(١١) وهم أتباع Euthychius الذي كان بطريرك القسطنطينية من سنة ٥٥٢م - ٥٦٥م وأيضا من ٥٧٧-٥٨٢م لمزيد من الايضاح، أنظر: Jones, Ibid, Vol. 1, P. 304

(١٢) Idem, P. 286.

قد أيده بقوة السلاح في منصبه ليشترك في مجمع خلقدونية. ولكن عندما وجده رافضا، أحل محله الراهب المصري بولس في سنة ٥٣٨ والذي كان من اتباع ذلك المجمع، وفوضه كافة السلطات التي تمكنه من الاستعانة بالقوة العسكرية في القيام بعمله[١٣].

وفي عهد البطريرك بولس، بطريرك الأسكندرية وصل اضطهاد المونوفيزتين أقصى مداه في سوريا وامتد إلى مصر. واتبع بولس وسائل تعذيب بدت غاية في الوحشية حتى بالنسبة للحكومة الامبراطورية لذلك عُزل في سنة ٥٤٢م وعين بدلاً منه راهب من فلسطين اسمه زويلوس Zoilus الذي كان اكثر لينا، ولكنه كان خلقدونيا متعصبا[١٤].

لقد حاول جستنيان جاهدا أن يستميل المونوفيزيين وذلك بإصدار الموافقة على آرائهم، ولكن رفض أساقفة الغرب لها وقف عقبة في محاولة التوفيق التي قام بها جستنيان[١٥].

وبصفة عامة إن حكم جستنيان المطلق امتد إلى العالم الديني، وفي تاريخ الكنيسة، كما في تاريخ الدولة، نجده احتل مركزا عالميا مهما كان نوعا من الاسقف الامبراطوري.

كانت سياسة جستنيان الدينية تعتمد على تأييد مجمع خلقدونية وهذا يتفق مع المبادىء السياسية التي استعاد بها خاله جستين الوحدة المسيحية، ولكن هذه الوحدة كانت فقط وحدة كنيسة الغرب مع الكنيسة الرئيسية في الشرق، حيث كان الشرق نفسه مقسما فالمونوفيزيون انفسهم مثلوا جانبا كبيرا ومهما. ولم يستطع الامبراطور اصلاح ذلك الخلاف. أما الامبراطورة ثيودورا فكانت مؤيدة للعقائد الهرطقية. وكان هدف الامبراطور ايجاد وحدة في الكنيسة لنبذ جميع الخلافات تحتضن كلا من الشرق والغرب. ذلك لم يقف عند سياسة خاله جستين ولكنه حاول أن ينفذ مافشل في تنفيذه كل من الأباطرة زينون وانستاسيوس، وهو مصالحة كل من الخلقدونيين والمونوفيزيين[١٦].

ولكن كل محاولاته باءت بالفشل كما أشرنا. لأن موضوع العقيدة موضوع شائك وليس من السهل على الحاكم أن يتحكم في عقائد الناس وأن ينصاع الناس لذلك

(١٣) Jones, Ibid, P. 287.

(١٤) Idem, P. 287.

(١٥) Idem, P. 295 - 297.

(١٦) Bury, Ibid. Vol. 2, P. 1.

الحكم حتى ولو تعرضوا للموت، وهذا هو الدافع إلى أعمال الاضطهاد الديني التي تلجأ اليها الدولة. عندما لاتستطيع أن توفق بين المذاهب أو فرض عقيدة معينه لاتتفق مع عقيدة الدولة، أو تحريمها وهو اصل الخلاف الاجتماعي بين الشعب والدولة. وخصوصا الشعوب الشرقية في تلك الفترة. وأن اغلاق جامعة أثينا له جانبان، الجانب، الأول انها كانت الصفعة الأخيرة من المسيحية إلى الفلاسفة القدامى ومبادئهم. وأنها واحدة من الأفعال التي حددت ملامح عصر جستنيان كمعلم من معالم العالم القديم. أما الجانب الثاني فهو تصميم جستنيان على تحقيق وحدة العقيدة والفكر في الامبراطورية(١٧).

ولاشك في أن الدين لعب دورا خطيرا في الدولة البيزنطية، إذ كان واحدا من أهم ركائزها ومقوماتها. ويعتقد أباطرتها أن حدود الامبراطورية يجب أن تذهب إلى حيث ذهب الدين وانتشر، ولهذا لن يتوقف اهتمام الأاطرة بأمر المسيحية والخلافات بين مذاهبها. ومن الطبيعي ألا تتوقف في القرن التالي، ولن تتوقف محاولات رجال الدين بمختلف مراتبهم، في أن يكون لهم دور رائد في توجيه سياسة الأمبراطورية.

تقييم أوضاع الأمبراطورية في القرن السادس

وأخيرا ليس من السهل رسم صورة متوازنة للقرن السادس. فقد شهدت الامبراطورية خلاله تقلبات وتغيرات في أحوال الدولة وانجازاتها العسكرية والادارية والعمرانية، وهناك عدد من الأسئلة الهامة عن تلك الأحوال، وربما الإجابة على تلك، الأسئلة ترسم لنا الصور المطلوبة. أولا: هل أرهقت حروب جستنيان الاستردادية في الغرب المناطق الشرقية من الناحية المالية من جهة؟ وكلفتها حياة أبنائها من جهة أخرى؟ هل كانت الولايات الغربية المستردة مصدر نفع وقوة للأمبراطورية؟ أم انها أعتمدت على قوات الشرق للدفاع عنها؟ هل كان بإمكانها توفير التكاليف المادية للجيوش المحاربة؟.

وفي ظل غياب الاحصائيات الدقيقة لاتوجد أجوبة حاسمة لتلك الأسئلة. ولكن لابد من محاولة تقييم استنتاجي لتلك الحالة. إن حروب الاسترداد كانت بدون شك طويلة ومرهقة، فقد استمرت لمدة عشرين عاما متواصلة للقضاء على القوط الشرقيين في ايطاليا.

كما أن استقرار الوضع في افريقيا استلزم اثنى عشر عاما من الحروب المتواصلة

(١٧) Idem, Vol. 2, P. 2.

وهذه مدة طويلة يعود السبب فيها إلى شدة المقاومة التي لقيتها جيوش الامبراطورية، التي كان يقودها بلزاريوس القائد المحنك، وليس معنى هذا انه كان هناك نقص في الرجال والأموال ولكن يبدو أن بليزاريوس شجع جستنيان على الاقدام على هذه الحروب وأفهمه أنها ستنتهي وشيكا ضد كل من الوندال والقوط. وقد أخطأ في تقدير الصعوبات التي واجهت القوات الامبراطورية في كل من افريقيا وايطاليا. أما الخطأ الأخير والخطير الذي كان على الأمبراطور مواجهته فقد تمثل في المستحقات المتأخرة للقوات الموجودة على جبهة القتال، الأمر الذي حملها على التمرد وعلى ترك ميدان القتال[١٨].

وحتى عام ٥٥١م لم تكن الموارد المالية للامبراطورية قد أرهقت تماما حيث ان جستنيان استطاع تشكيل الجيش الذي رافق نارسيس والذي تكون من مجموعة من المعاهدين Foedrati ومجموعة من القوات الرومانية التي ربما تكون قد سحبت من مناطق تراقيا والليريا. كما استطاع في نفس الوقت جستنيان أن يرسل جيشا إلى أسبانيا، كان على قدر من القوة، بحيث استطاع أن يحتفظ بولاية كبيرة في جنوب شرق اسبانيا وهي، باتيكا Baetica، ومنع القوط من السيطرة عليها[١٩].

ومع ذلك فإن الامبراطورية عانت في الجبهات الشرقية وجبهة الدانوب نقصا في الأموال. نظرا لما سحب من حاميات تلك المناطق للجبهة الغربية، أما بالنسبة للفرس فقد استطاع جستنيان أن ينجح نجاحا ملموسا في امتلاك ناصية الأمر، وقد تحقق هذا بالدبلوماسية أكثر منها بالحروب وبدفع الأموال. وإن كان البعض يمتدح هذه السياسة التي مكنت الأمبراطور من أن يحتفظ بالجبهة الشرقية بتكلفة أقل فيما لو استخدمت القوة العسكرية والتي كانت البديل الوحيد.

أما على جبهة الدانوب فلم تفقد الامبراطورية ممتلكاتها، حيث صمدت على تلك الجبهة سلسلة من القلاع والحصون من منطقة Sngindunum وحتى مصب نهر الدانوب، بالإضافة إلى ما أقامه جستنيان من التحصينات في عمق كل من تراقيا والليريا. وهنا نستطيع القول بأنه اعتمد على دفاع سلبي إلى حد كبير، يسانده أساليب دبلوماسية وعلى الهبات والمنح للقبائل خارج الحدود. وكان يقوم بسحب القوات من الليريا وتراقيا وأرمينيا ودوقية الشرق لتعمل في ايطاليا كما أشرنا اليه سابقا، واستغل المنطقة كمصدر تجنيد وترتب على ذلك أن المناطق الممتدة من البحر

(١٨) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 298.

(١٩) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 298.

الادرياتيكي إلى البحر الأسود (والممتد في الجنوب من Dyrrachium وسالونيكا والقسطنطينية نفسها كانت تتعرض للغزو الدائم [٢٠] وذلك نتيجة انخفاض عدد جنود الفرق العسكرية في تلك المناطق إلى حد خطير.

وقد ساد السلام في الغرب في العقد الأخير من عهد جستنيان، ولكن أحوال الولايات التي أعيد فتحها كانت سيئة. إذ أن الغرب لم يستطع مواجهة القيام بمتطلباته المادية إلا بصعوبة بالغة، وبالطبع لم يستطع أن يزود دخل الأمبراطورية، فعندما استعيدت ايطاليا كانت سنوات الحرب الطويلة قد أنهكتها. ففي سنة ٥٥٦م صرح البابا Delagius لأسقف Alers إن ضياع الكنيسة أصبحت مقفرة، وانه لايوجد من يقوم باعادة تعميرها. وفي رسالة إلى الوالي البريتوري في افريقيا أكد على ذلك بقوله: بعد أعمال الاجتياح المستمرة بسبب الحرب والتي انعكس تأثيرها على المناطق الايطالية لمدة تزيد على خمسة وعشرين عاما أو أكثر. كانت الكنيسة الرومانية تتسلم دخلا متواضعا وغير كاف لسد حاجة رجال الدين والفقراء[٢١]. هذا من الناحية المالية، أما من ناحية القوة البشرية فقد عانت ايطاليا من نقص السكان لذلك لم تستطع أن تساهم في عملية التجنيد. باستثناء انضمام بعض القوط الشرقين إلى العمل في الجيش الأمبراطوري كجند مرتزقة.

أما افريقيا فكانت أحسن حالا فقد استرد الأمبراطور كنوز الوندال من جهة ولكن افريقيا لم تعد بنفس اتساعها في العهود الرومانية القديمة فقد احتل البربر جزءا منها Moors، في عهد الوندال. كما أن الحصون التي أقامتها الأمبراطورية تدل دلالة واضحة على أن المنطقة لم تكن آمنة. غير أن شمال افريقيا تمتعت برخاء مادى افضل من ايطاليا بصفة عامة. كما قدمت افريقيا بعض المساعدات العسكرية وأرسل منها عدد كبير من الوندال إلى الجبهة الشرقية، بالإضافة إلى أن بعض البربر Moors جندوا أو انخرطوا في الخدمة العسكرية الرومانية. وشكلت بعض الفرق العسكرية وحدات منهم في افريقيا. كما وجدت فرقتان منهم في مصر. ولكن كل هذا لايكفى لتعويض عدد ضخم من الجنود الشرقين المرابطين في افريقيا.

والسبب في أن الحرب الاستردادية دامت مدة طويلة أكثر مما ينبغي ان جستنيان

---

(٢٠) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 299.

والي افريقيا ٤١٧: Pelagius Pl. LXiX 404 Alrees

(٢١) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 300

رفض امدادها بالرجال والأموال لاستمرارها أو انهائها في أقصر مدة ممكنة. فلم تكن حروب حاسمة وسريعة لذلك فإن المناطق المستردة أرهقتها الحروب الطويلة وبذلك أصبحت عاجزة عن الاسهام المادي في دخل الامبراطورية. ومعنى هذا إن العبء المالي تحملته الولايات الشرقية وحدها[٢٢].

وفي سنة ٥٥٩م غزا جماعة الـ Cotrigurs المناطق الشرقية حتى بلغوا أسوار القسطنطينية، ويصور Agathias [٢٣] حالة الامبراطورية في معرض تعليقه على ذلك الغزو بقوله: إن الأمبراطور أصبح يميل إلى الاعتماد على الدبلوماسية والمنح لايقاف هجمات الأعداء وتزايد اهمال الجيش وأنفق الأموال على المباريات والعروض المسرحية وتأخر دفع مستحقات الجنود. ونتيجة لذلك هجر كثير من الجند الخدمة العسكرية وانخرطوا في الحياة المدنية. ونقص عدد الجنود حتى بلغ ٠٠٠ر١٥٠ جنديا كان عليهم مهمة الدفاع عن ايطاليا وافريقيا واسبانيا ولازيكا ومصر والجبهة الشرقية. ولعل تفسير ذلك يعود إلى انه كان يعتقد أن المعاهدات كانت تكفل الحماية لهذه المناطق وبناء على ذلك استطاعت جماعة الـ Cotrigurs أن تبلغ أسوار القسطنطينية[٢٤].

ومن السهل انتقاد جستنيان في تضييقه على الجيش وانفاق الأموال على الهبات واستنزاف الولايات الشرقية لتحقيق طموحه في استرداد ولايات الغرب. ولكن هناك من يقول بأن اتباع هذه السياسة كان ضروريا. حيث ان جستنيان خلد اسمه في الحرب، والقانون والبناء (العمران)، والتاريخ الكنسى. إن انجازاته العسكرية حددت خط تاريخ ايطاليا وأثرت في تطوير أوروبا الغربية. ونسجت أعماله القانونية نسيج الحضارة الأوروبية. كما إن سلطته الدينية أثرت في المستقبل البعيد للمسيحية. ولكن الوسائل التي نفذ بها تلك الأهداف جعلته غير محبوب. ذلك لأنه لجأ إلى فرض ضرائب قاسية لم يكن من السهل تحملها فاضطر الى تنظيم علاقات دبلوماسية طيبة مع أولئك المتبربرين والمتجمعين حول الحدود الشمالية للامبراطورية ولم يكن قادرا على أن يخضع تلك الأمم المكونة من الهون والسلاف والجرمان للمراقبة، إذ أنها دأبت على تدمير أقاليم البلقان وبصفة مستمرة، وكان مضطرا إلى مواجهتهم بالجيش الذي سحبه للحرب في ايطاليا. وبعد ذلك نجح في دفعهم بعيدا عن حدوده بدفع الأموال على شكل هبات

(٢٢) Jones, Ibid, Vol. 1, P. 300.

(٢٣) للتعريف بأجاثيا، أنظر مقدمة البحث عن نقد المصادر والمراجع

(٣٤) Idem, Vol. 1, P. 301 Agathias V. 13.

من جهة، وبتحريضهم ضد بعضهم البعض من جهة أخرى. وهكذا كان من الضروري تخصيص مبالغ كبيرة من المال لدعم هذه السياسة من وقت لآخر. هذا بالاضافة إلى أن قوة الفرس تزايدت تحت قيادة خسرو انو شروان، مما جعله مجبرا على دفع الأموال ذهبا. وكان تصرفه هذا مفيدا بل ضروريا أحيانا، وهكذا استمر دفاعه عن الحدود الأسيوية ولكن عن طريق الدبلوماسية، ودفع الأموال من أجل تحقيق هدف استعادة ايطاليا[٢٥].

أما بالنسبة للضرائب المجحفة، فقد يقول البعض بأن عهد جستنيان بالنسبة لشعبه لم يكن عهدا مباركا وأن تصميمه على انجاز أهدافه التوسعية كان متناقضا مع أمال شعبه في ازدهار مرتقب. ولكن التاريخ يبرر أعماله السيئة وهي فرض الضرائب المجحفة على شعبه بأنها كانت في سبيل تحقيق أعمال أو نتائج طيبة. وعلى أساس أن النتائج الطيبة قد تأتي نتيجة لعمل سيء. وحتى الذين أدانوا أعمال جستنيان السيئة، كانوا مجبرين على مديح أعماله بينهم وبين أنفسهم[٢٦].

---

(٢٥) Bury, L. R. E. Vol. 1, P. 353.

(٢٦) Idem, P. 354.



الباب الثاني

الامبراطوريـــة البيزنطية في القرن السابع وماطرأ عليها من تغييرات

الفصل الأول
الأوضاع السياسية العامة

نعرض في هذا الفصل التاريخ السياسي لأباطرة القرن السابع لنقف على طبيعة الظروف التي فرضت التغيرات التي طرأت على الأمبراطورية في ذلك القرن، والتي هي موضوع هذه الكتاب أساسا. حيث أننا نأمل أن نغطي الشكل الوصفي والتحليلي لهذه الفترة. وسوف نتكلم عن المعارك الحاسمه فقط بين المسلمين والبيزنطين وخصوصا وأن نتائج تلك المعارك مثلت نقاط انقلاب في تاريخ الأمبراطورية وعلاقاتها بالمسلمين.

والجدير بالملاحظة أن دراسة القرن السابع الميلادي لانعنى بها الفترة الزمنية الممتدة من سنة ٦٠٠ - ٧٠٠م فقط كما يتبادر إلى الأذهان، وانما هو الفترة الممتدة من ٦١٠ - ٧١٧م، فقط أي منذ اعتلاء الامبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) عرش الامبراطوريةإالى فترة تولية ليو الثالث الايسوري LeoIII (٧١٧ - ٧٤١م)، وهذا التقسيم هو مادرج عليه المؤرخون المحدثون، حيث يعتبرون السنوات منذ وفاة الامبراطور موريس سنة ٦٠٢م والى اعتلاء هرقل العرش سنة ٦١٠م مرحلة فوضى وانتقال. حيث أن تلك الفترة، كانت مليئة بالفتن والثورات وذلك على عكس ما كان متوقعا لهذه الفترة، ففي بداية عام ٦٠٠م كان يظن أن بيزنطة ستنعم بفترة استقرار بفضل المعاهدة التي كان الامبراطور موريس قد عقدها مع خسرو، الملك الفارسي. وسادت بعدها فترة السلام في الشرق. وأمنت الامبراطورية جانب الأفار بفضل ماحققه القائد البيزنطي Priscus برسكوس من انتصارات عليهم وفي قلب امبراطوريتهم. ومع ذلك فإن القرن السابع سيكون قرن حروب ستخوضها بيزنطة، وسيكون كذلك فترة صراع للحفاظ على وجود بيزنطة نفسها. ذلك أنه قدر لبيزنطة أن تواجه عدوا أشد منها قوة وأكبر بأسا، سيندفع إلى مواجهتها بدين جديد يتحمس له أصحابه تحمسا يفوق التصور، ليمكنوا له في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تقف وحيدة منهكة بعد حروب عوان أرهقت مواردها وثرواتها.

وتطل بداية الفتنة، في القرن السابع برأسها سنة ٦٠٢ عندما خلع الامبراطور موريس، وقتل مع عدد من أفراد الأسرة المالكة أثر انقلاب عسكري نتج عن تذمر

الجيش من المعاملة السيئة، بل واتهام الأمبراطور بالخيانة والفساد[(١)].

وهناك بعض الأسباب التي أدت إلى الانفجار والثورة وعلى رأسها اتهامه بالبخل. إذ يذكر يوحنا، أسقف نيقية، انه باع قمح مصر كله وحول ثمنه ذهبا، بل انه فعل نفس الشيء مع قمح القسطنطينية. ويضيف بأنه كان مكروها من كل الناس في القسطنطينية الذين كانوا يتعجبون من أن يكون لمدينة القسطنطينية امبراطورا رديئا[(٢)].

ويقال أنه لفرط بخله، رفض أن يدفع فدية لاطلاق سراح أسرى الحرب الذين بلغ عددهم إثنى عشر ألف جندي، وقعوا في أسر الأفار، والذين لم يترددوا عن ذبحهم عندما رفض الأمبراطور دفع الفدية. فضلا عن ذلك فإن موريس أنقص رواتب الجند، فتمردوا عليه. وإن كان بيوري يرى أن سبب رفضه لدفع الفدية لم يكن بسبب بخله وتقتيره وإنما كان لرغبته في معاقبة الجند المتمردين[(٣)].

ونحن نرجح أن تكون الأحوال الاقتصادية السيئة التي كانت تعاني منها الامبراطورية هي التي كانت وراء تصرف موريس أكثر من أن يكون السبب يعود إلى بخله وتقتيره أو حتى معاقبة الجند ذلك أن Simocata، المعاصر لموريس، ذكر أنه كان يخصص ثلث حصيلة الضرائب لاعانة الفقراء[(٤)].

فمن كان يقوم بتخصيص كل هذا القدر من المال إعانة للفقراء فلا أخالة يبخل على جيشه. فإذا كان قد أحجم عن تقديمه لفدية فإنني أرجح أن ذلك راجع إلى أن الامبراطورية كانت تعاني ضائقة مالية بحق، وعلى أي حال فإن الأوامر التي اصدرها الامبراطور موريس إلى الجند سنه ٦٠٢م باتخاذ أماكنهم على الضفة الغربية من نهر الدانوب وقضاء فصل الشتاء هناك كانت مبررا ليعلن الجند الثورة. وقام فوكاس Pho-cas، وهو قائد صغير تولى زعامة المتمردين، وزحف بهم على القسطنطينية، وتصادف أن كانت العاصمة مسرحا لثورة ضد الحكومة اشترك فيها الأحزاب، إذ وقف

---

(١) Chronicon Paschale. ED. L Dendorf CSHB Boon 1832 P. 868.
أيضا: Theophanes, The Chronicle of, Theophanes, Engl. Trans., (Philadelphia, 1982) P. 1.

(٢) John Bishop of Nikiu, P. 154.

(٣) Bury, Ibid, Vol. 2. P. 86.

(٤) Theophylach Simocatta, Theophylach Simocattae Historia ed. c. de Boor (Leipzig 1887 ed and corr. P. wirth Stuggort 1972) col. p. 13, 17.
Theophanes, Ibid. Col. 295 - 296.

الزرق مع موريس، ووقف الخضر مع قائد الجند فوكاس[٥]. وحدث أن قتل موريس، فعين مجلس الشيوخ فوكاس امبراطورا.

وصورت المصادر الأدبية فوكاس بأنه كان عاجزا عن قيادة الأمبراطورية ووصفته تلك المصادر بأنه كان سكيرا، فظا، غليظا لايعرف الرحمة أو الشفقة [٦] وأن عهده كان مليئا بالمصائب مثل الطواعين والهزات الأرضية وكأنها كانت تتنبأ بالأمور الفظيعة التي سوف تصدر منه[٧].

ويركز ثيوفانيس على الأفعال التي قام بها فوكاس ضد أرملة الأمبراطور موريس قنسطنطينه Constantina وبناتها الثلاث[٨]. وزاد الأمر خطورة ثورة يهود أنطاكية وقيامهم بذبح بطريرك أنطاكية بالإضافة إلى عدد من ملاك الأراضي. وقد أرسل فوكاس كونت الشرق Bonosos بونوسوس إليهم ولكنه لم يستطع اخماد ثورتهم.

ويذكر ثيوفانيس أن زوج ابنة فوكاس، البطريق Priskos برسكوس لم يعد قادرا على تحمل الظلم والقتل الذي يقوم به فوكاس، لذلك أرسل إلى بطريق وحاكم الجند في افريقيا يطلب منه المساعدة[٩].

وفي مكان آخر يذكر أن رجال السناتو هم الذين طلبوا مساعدة هرقل حاكم جند افريقيا[١٠]، الذي أرسل إبنه وفي نفس الوقت أرسل القائد جريجوراس Gregoras ابن نكيتاس Niketas عن طريق البر، وأيهما يصل القسطنطينيه أولا يصبح أمبراطورا[١١].

حينما تسلم هرقل (٦١٠ - ٦٤١) زمام الحكم كانت الأمبراطورية تعاني معاناة

---

(٥) Simocatta, Ibid, Col. 9, 10, 5.
أيضا: Theophanes, Ibid. P. 291 - 292.
Georgii Monachos, chronicon 2 vols. ed. c. de Boor (Leipzig 1904) Col. 823.

(٦) Theophanes, Ibid Col. 294 - 295.

(٧) Kedrinos, Patrologia Graeca, Col. 776A
أيضا: Monchos, Ibid. Col. 823 - 826.

(٨) يورد ثيوفانيس تفصيل مافعله الامبراطور من حبس قنسطنطينة وبناتها الثلاث واقدامه على اعدامهن مع البطريق جرمانوس وابنه وفظائع أخرى ارتكبها بقتله شخصيات مرموقة أخرى ويورد تفاصيل أخرى عن رد الفعل لهذه الأعمال. أنظر ثيوفانيس: Theophanes, Ibid, 296.

(٩) Theophanes, Ibid, 296.

(١٠) من الجدير بالملاحظة ان ثيوفانيس يلقب هرقل باسم حاكم جند افريقيا ولم يطلق عليه لقب Exarch.

(١١) يبدو أن إحدى الامدادات من افريقيا ذهبت بحرا وعلى رأسها هرقل أما التي ذهبت برا وعلى رأسها ابن Ni-ketas فقدأرسلت إلى مصر عن طريق البر لأنه يبدو أن مصر قامت بتجميع جيوشها لمساندة الثوار. لذلك أرسل حاكم افريقية لهم كتيبة برية لمنع قيام ثورة مسلحة بها. أنظر: Theophanes, Ibid, 297.

شديدة من النواحي العسكرية والاقتصادية. وفي الفترة منذ ٦٠٧ - ٦١٦م اجتاح الفرس الأقاليم الشرقية من آسيا الصغرى حتى ليبيا [١٢] في تلك الاثناء انصرف هرقل إلى القيام باصلاحات داخلية بالغة الأهمية وخصوصا في النظم الادارية، حيث وصفت بأنها نقطة التحول في تاريخ الشرق الروماني[١٣]. وذلك استعدادا لمواجهة الفرس، وكان الامبراطور يبحث يائسا عن النقود التي يمكن أن تغطي تكاليف تلك الاستعدادات. ويصف نيكافورس موقف هرقل بقوله: "آلم هرقل انتصار الفرس، هذا بالاضافة إلى المجاعة التي انتشرت في الامبراطورية، لأن مصر لاتستطيع أن تمدهم بالحبوب [١٤] وأصبحت مخازن القمح الملكية خاوية. بينما انتشرت الأمراض ومات عدد كبير من السكان. وبسبب هذا البلاء تشاءم هرقل وفكر في الانتقال إلى ليبيا. لقد قطع الناس على الامبراطور هذا التفكير كما أن البطريرك، سرجيوس، أخذه إلى الكنيسة وأجبره على أن يقسم يمينا بعدم مغادرة العاصمة[١٥]. وقد قام البطريرك سرجيوس باقراض هرقل الأواني الذهبية من الكنيسة ليمده بمعدن كاف لاصدار عملة جديدة[١٦].

وبعد أن أكمل هرقل استعداداته استطاع أن يستعيد الأراضي التي احتلها الفرس، بل استطاع أن يدخل عاصمتهم وأن يشعل فيها النيران ويستعيد الصليب الحقيقي. وبذلك يكون هرقل قد حقق نصرا ساحقا على الفرس وعلى الأفار أيضا الذين عملوا له ألف حساب بعد انتصاره على الفرس[١٧].

على أن السنة التي بدأت فيها الامبراطورية البيزنطية انتصاراتها على الفرس وهي سنة ٦٢٢م كانت نفسها بداية التاريخ الهجري عند المسلمين، وهو بداية ارساء قواعد السياسة الاسلامية بالمدينة المنورة، والتي كتب لها أن ترث دولتي الفرس والروم معا. ولم يمض وقت طويل حتى تستولى على كل ما استعاده هرقل من أجزاء امبراطوريته في الشرق.

وكان هدف الفتوحات الاسلامية تأمين نشر الدعوة الاسلامية. حيث أن الاسلام ورسالة الرسول محمد ﷺ لم تكن مقصورة على العرب ولا على جزيرة العرب، بل هو

---

(١٢) لمعرفة التفاصيل العسكرية - أنظر الكتاب عن الحدود في القرن السابع. ص (١٨٨).

(١٣) Ostrogorsky, Ibid, P. 106

لمعرفة تفاصيل الاصلاحات الادارية أنظر الكتاب عن التغييرات الادارية والمالية والعسكرية في القرن السابع. ص (٢٥٠) وما يليها

(١٤) مصر كانت تحت سيطرة الفرس في تلك الفترة.

(١٥) Nicephoros, De Rebus Pos Mauricium Gestis, Col. 893 P. 24 - 25.

(١٦) Paschale, Col., 882.

أيضا: Theophanes, Ibid, 303.

(١٧) Ostrogorsky, Ibid, P. 100.

دين ورسالة للناس كافة وليس لأمة من الأمم خاصة وذلك لقوله تعالى:

« **وما أرسلنك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** »[١٨].

ومن المعروف أن الرسول ﷺ أرسل بخطابات إلى القبائل العربية في جزيرة العرب وإلى الأمم المجاورة يدعوهم إلى الإسلام. وكان من بين الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ ملك الفرس، وامبراطور الروم اللذين رفضا الاسلام ورداً دعوته. وكان الغرض من الكتابة إليهما هو الوصول إلى نشر الدعوة الاسلامية. فكتب الرسول ﷺ رأسا إلى الملوك والأمراء التابعين للفرس والروم لنشر الإسلام بينهم. وما الفتوحات الاسلامية أو بعبارة أخرى الحروب الاسلامية خارج الجزيرة العربية إلا وسيلة من وسائل تأمين وصول الدعوة الاسلامية ونشر الاسلام.

أما الغزوات التمهيدية التي حدثت في عهد الرسول ﷺ، فقد رسم من خلالها خطة المستقبل. وانه كان متوقعا أن تقوم حروب بين المسلمين والفرس من جهة والمسلمين والروم من جهة أخرى[١٩].

والإشارات الأولى أو مقدمات ذلك القول أطلت برأسها على شكل غزوات بدأت منذ عام٨هـ / ٦٢٩م وانتهت بشكل فتح كامل سنة ١٥هـ/٦٣٦م[٢٠].

ولكن السنوات التي تلت انتصار هرقل على الفرس وحتى الفتح الاسلامي أتاحت لهرقل فرصة لتوطيد أركان حكمه وتكوين أسرة حاكمة إذ انه حاول توريث عرش الامبراطورية لابنائه من بعده، بأن أشركهم في الحكم معه من جهة وكتب وصية صريحة لتوريثهم العرش[٢١].

وقضية الاشراك هذه محل نقاش، فقد ترك وصية بأن يشترك ولداه في الحكم. قنسطنطين الذي كان في التاسعة والعشرين، وهرقلوناس الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، ويشترك معهما زوجته، وأم ابنه الثاني في الحكم، باسم الامبراطورة الأم. والنقاش الذي دار هو أن هرقل كان رجلاً كبيراً ومريضاً وانه لايستطيع رد طلب

---

(١٨) سورة سبأ آية ٢٨.

(١٩) لمعرفة تفاصيل المكاتبات بين الرسول ﷺ وهرقل امبراطور الروم أنظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. دار النفائس، ط ٥، ١٤٠٥هـ، ص ١٠٧.

(٢٠) الحديث عن الغزوات في عهد الرسول كمقدمة للفتوحات الاسلامية الكبرى انظر صالح موسى درادكة: مقدمات في فتح بلاد الشام: المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام المجلد الثاني ١٩٨٧. لتفاصيل الغارات الاسلامية، انظر الكتاب: حدود الامبراطورية في القرن السابع. ص (١٧٩ - ١٨٩).

(٢١) Sostogorsky, Ibid. P. 100
Nicephoros, Col. 921, P. 41.

لزوجته الشابة. وليس هذا هو السبب الحقيقي وراء اشراكها في الحكم، وانما السبب في ذلك يعود إلى أن إبنه الأول قنسطنطين كان معتل الصحة، وهنا يكمن الخطر في وضع من يرث العرش من بعده في حالة وفاته، والذي ربما يضيع من الأسرة. وبما إن إبنه الثاني كان لايزال صغير السن فمن الأفضل اشراك أمه معه كوصية[٢٢].

ولمقابلة الحاجة المادية قام باصلاحات في سك النقود بالرغم من احتفاظ النقود الذهبية بوزنها وقيمتها وتحسن نوعيتها. إلا أنه قام بضرب نوع من العملة الذهبية خفيفة الوزن لتدفع كجزء من الهبات التي كان يقدمها لرؤساء القبائل حيث أنه قام بدفع مبالغ من المال للآفار[٢٣]، لكي يتفرغ للحروب الفارسية. وكان يخلط النقود الذهبية خفيفة الوزن مع النقود ذات الوزن النموذجى وقد وجد عدد كبير من النقود خفيفة الوزن في هنغاريا التي كانت مركز امبراطورية الأفار في ذلك الوقت[٢٤]. والجدير بالذكر أن سك العملة الذهبية خفيفة الوزن قد توقف في عهد الامبراطور قنسطنطين الرابع[٢٥].

ولتقييم أعمال الأمبراطور هرقل يجب علينا أن نوضح الظروف الداخلية التي مرت بها الامبراطورية خلال عهده. لقد مر بتجربة الخطر الذي هدد الامبراطورية، ألا وهو خطر اجتياح الفرس. لقد عانت الامبراطورية من سنوات الحرب المستمرة التي فاقت التصور، والتي لم تنعكس على استنزاف المصادر البشرية فقط ولكنها امتدت إلى تدهور وافساد المعنويات، لقد استطاع هرقل أن يهدىء من هياج الأحزاب في العاصمة ويشغل الأحزاب أنفسهم في واجباتهم الرياضية في الملعب ولحماية المدينة كحراس في حالة الخطر. ولم تسجل أي مصادمات بين الأحزاب وخصوصا في الأيام الأخيرة من عهد هرقل[٢٦].

وكان على هرقل مواجهة مشكلة أخرى تمثلت في الأوضاع الاقتصادية المتردية حيث كان مصّرا على اعادة الأموال التي كان قد اقترضها من الكنيسة، فعمد إلى فرض ضرائب مرهقة في مجتمع لم يكن أفراده قد أفاقوا بعد مما عانوه في فترة الحرب من ضيق اقتصادي، وماكان في استطاعتهم تحمل تلك الضرائب التي تشدد هرقل في جبايتها وخاصة في ولايات الشرق.

(٢٢) Stratos, Ibid, Vol. 2, P. 176
أيضا: الباز العرينى، المرجع السابق، ص. ١٣٧.

(٢٣) Pachale, Ibid Col. 890
ذكر أن هرقل دفع جزيه للآفار من أجل المحافظة على السلام معهم.

(٢٤) اصلاح النقد، انظر الكتاب: الأحوال الاقتصادية في القرن السابع.

(٢٥) Stratos, Ibid Vol.2, P. 168

(٢٦) Stratos, Ibid, Vol.2, P. 166 - 167

وثمة خطأ أخر اقدم عليه من قبيل الاقتصاد في النفقات بتسريح الجيش الذي أحرز به النصر في حربه مع الفرس، واكتفى بمليشيا محلية إذ أيقن بعدم وجود خطر يهدد الامبراطورية، وما كان ليتوقع أن العرب سيشكلون خطرا داهما على امبراطوريته، والذين كانوا يطلقون عليهم لصوص الصحراء[٢٧].

ولعل أهم ماحرص عليه هرقل لدعم الامبراطورية المهددة بالخطر كان رفع الروح المعنوية لمواطنيها، إذ سادت بينهم روح الاحجام عن الخدمة العسكرية ومواجهة الأعداء، فلجأوا إلى الأديرة حيث يمكنهم التحرر من أي التزام تجاه الدولة. مما اضطر معه هرقل إلى اتخاذ اجراءات صارمة ضد الأديرة جلبت له كراهية البابا جريجوري[٢٨].

وللتغلب على هذه المشكلة جعل تمليك الجند للاراضي مقابلاً للخدمة العسكرية. وذلك في اطار إعادة تنظيم الادارة الامبراطورية بانشائه الثيمات الأولى [٢٩] ونجح بذلك في ارساء النواة الأولى لقيام شريحة جديدة في المجتمع البيزنطي ضمت صغار الملاك مما أعان الامبراطورية ليس فقط بالقدرة على الاستمرار بل مساعدتها أيضا على استعادة قوتها الأساسية[٣٠].

ولإنعاش الحياة الاقتصادية في مدن الامبراطورية، نظم اوضاعها، وأعاد تنظيم النقابات.

وقد اهتم هرقل اهتماما خاصا باعادة تنظيم (جامعة) القسطنطينية، نظرا لما جبل عليه من حب للثقافة، فأراد ان تكون لعاصمته مركزا للدراسات العليا. ورأى أن يتحقق ذلك بإعادة الحياة إلى المدرسة العلمية Ecumeinical School، التي كان قسطنطين العظيم قد وضع أساسها، وأهملت في عصر فوكاس، وطبقا لرواية ثيوفيلاكتيس سيموكاتيس Theophylctes Simocatta دعا إليها من الاسكندرية اسطفانوس Stephanos، الفيلسوف وعالم الرياضيات، ليدرس بها الفلسفة والفلك والهندسة والحساب والموسيقي، ومنحه لقب الأستاذ الأعظم أو المعلم العالمي[٣١].

إن شخصية هرقل جديرة بالدراسة إذ جمع بين عدد من المتناقضات، فهو رجل حرب ورجل دولة وإداري ناجح متميز في إدارته ترك بصماته الواضحة على تاريخ فترة هامة من فترات عصر الامبراطورية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقد حملت شخصيته

(٢٧) Idem, P. 172
(٢٨) Idem, P. 168 - 169
(٢٩) أنظر الكتاب: الادارة العسكرية، ص (٢٧٦ - ٣٤١).
(٣٠) Idem, P. 171
(٣١) Idem, P. 171

بعض نقاط الضعف، وأهم نقاط الضعف تلك في نظرنا، التي تمثلت في موقفه من الحرب مع المسلمين، لقد تغير موقف الأمبراطور هرقل مقارنة مع موقفه في حروبه مع الفرس وتحول من الحماس إلى الفتور ومن الإصرار على القتال إلى الاستسلام والانسحاب. ويصف ذلك المؤرخ اوستروجورسكي بقوله لقد قاد بنفسه كل الحملات ضد الفرس في حين أنه تخلى عن قيادة الجيوش البيزنطية ضد المسلمين. وقد حاول في أول الأمر إدارة العمليات الحربية من مدينة انطاكية. ولكن بعد هزيمة جيوشه في معركة اليرموك استسلم وانسحب انسحابا كاملا. لقد سقط امام عينيه جهد عمره كله. ويبدو أن كفاحة البطولي ضد الفرس قد تبدد تماما. وكأن هذا النصر قد مهد الطريق للفتح الإسلامي. لقد اتسع الفتح العربي مثل الطوفان الذي لايمكن الوقوف في وجهه، فاجتاح كل الأراضي التي كان هرقل قد استعادها بعد حرب مضنيه أرهقته وأرهقت معه الدولة. وحتى الأراضي المقدسة التي كان يأمل أن يحفظها للمسيحين ضاعت مرة أخرى. وحطم هذا التحول في الحظ من النصر إلى الهزيمة الأمبراطور الذي طعن في السن العجوز جسميا ومعنويا[٣٢].

ويعزو استراتوس [٣٣] السبب في ذلك إلى التجاهل التام من قبل البيزنطين تجاه الخطر العربي وعدم تقديره تقديرا سليما، وكان ذلك واضحا خصوصا في المراحل الأولى للهجمات الاسلامية. ويبدو أن البيزنطيين لم يفطنوا لحقيقة هذا الخطر. وأن هذه الهجمات لاتزيد في ظنهم عن أن تكون من قبيل الاغارات التي اعتادوها على حدودهم. ونادرا ماكانت هذه الاغارات تثير انتباه أو قلق الامبراطور. وفي كثير من الاحيان كانت في نظره، مجرد غارات تشنها قبائل عربية على حدود الامبراطورية هدفها السلب والنهب. وقد درجت الامبراطورية في مواجهتها على الاعتماد على القوات المحلية. واستمر الوضع كذلك حتى سنة ٦٣١ حينما وقعت مسئولية هذه الهجمات على فصيلة أو كتيبة detachment القوات المرابطة في جنوب شرق فلسطين. وتحول الادارة الامبراطورية عن تقييم هذا النجاح المستمر للغزو العربي، وإدراك أبعاده، ليكون سببا حاسما في تقويض قبضة الامبراطورية في تلك المنطقة[٣٤].

وهناك حقيقة جديرة بالاعتبار في تلك الفترة، وهي نظرة بيزنطة وكل المسيحية إلى

---

(٣٢) لمعرفة تفاصيل حروب هرقل مع المسلمين، أنظر:

Sebeos, Histoire Dherclius Par leveque stebeos, Trans. by F.Maclei (Paris, 1904).

أيضا: Ostrogorsky, The Byzantine State, P. 111

(٣٣) Stratos, Ibid, Vol. 2, P. 124.

(٣٤) Stratos, Ibid. Vol.2, P. 127.

الاسلام. الذي لم ينظر إليه كدين جديد بل اعتبروه نوعا جديدا من الهرطقة، من ذلك النوع الذي ظهر في الشرق. وهذه النظرة استمرت لسنوات ولم يشعر رجال الكنيسة، سواء كانوا نساطرة أو مونوفيزيتين بأنهم كانوا بحاجة إلى تحرك فعّال للتصدي للمسلمين. ولم يثر أي جدل مسيحي في مواجهة عقيدة الاسلام على الأقل في القرن الأول من الاسلام. وهذا مثال آخر على السياسة الخاطئة والافتقار إلى ذكاء مناسب للالمام بأهمية ما يدور من حولهم من أمور(٣٥).

إن مالقيته جيوش الأمبراطورية من هزائم متلاحقة أمام المسلمين أعطى صورة كاملة للوضع. وظهر المسلمون بعدها في مظهرهم الحقيقي، فهم غزاة فاتحون مصممون على البقاء في المناطق الجديدة التي فتحوها. وبالرغم من ذلك فإن هرقل لازال سادرا في عدم المبالاة بما يحدث فهو غير قادر على تقدير الخطر المحدق بالأمبراطورية. ولعله ظن أن قيادة حملة تأديبية مضادة ضد المسلمين إنما تنزل من مكانته وتنال من كرامته(٣٦).

ومن المؤكد أن حاجة كل من البيزنطين، وكذلك الفرس إلى ادراك حقيقة ما حدث من تغييرات أساسية في الجزيرة العربية كانت السبب في هزيمتهم جميعا أمام المسلمين. فقد شغلوا بالحرب فيما بينهم ولم يراقبوا عن كثب ما كان يحدث من حولهم. ولم يفطنوا إلى أن ثمة تغيير جوهري سيعصف بكل من الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية معا.

ونخلص إلى القول بأن الإدارة البيزنطية المركزية وعلى رأسها الامبراطور هرقل لم يعط الخطر الاسلامي حقه من الاعتبار. وإن كانت تحركات المسلمين في الفترة مابين غزوة مؤتة وحتى معركة اليرموك كانت كفيلة بدق نواقيس الخطر.

ولكن هناك من يفسر تقاعس أو ضعف هرقل أمام القوة الاسلامية الفتية، بأن الصعوبات المستمرة والتي رافقت حكمه والتي لم تتوقف جعلت قواه الجسدية والنفسية تخور. وأنه قد أصبح فريسة للمرض والخوف العصبي. ويثير تساؤلات هل نحن بحاجة إلى نظريات تخيليه في علم النفس لشرح أعماله المتأرجحة بين النجاح والفشل(٣٧)؟

ومن المهم التصدي لدراسة الشعور النفسي لدى الامبراطور هرقل والقوة الخفية وراء ذلك الشعور باليأس والفتور. إن إرادة الله سبحانه وتعالى، لنشر الإسلام، ونصر المؤمنين، هي القوة التي جعلت هرقل، ربما لا ييأس فقط بل يخاف ويرهب المسلمين.

(٣٥) Idem, P. 127.

(٣٦) Idem, P. 126.

أيضا: Haldon, Ibid, P. 50

(٣٧) Hartman, The Successors of Justinian, in: C.M.H. Vol.2, P.300-301.

لقوله تعالى: «لأنتم آشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون[٣٨]».
وقوله تعالى: «آلم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم[٣٩]».

وربما فكر هرقل في أن عمل التحصينات التي قام بها في آسيا الصغرى وسحب السكان من المناطق المتآخمة للحدود الجديدة للعرب أفضل لمستقبل الأمبراطورية من مواجهة المسلمين، تلك القوة الفتية التي لاقبل له ولا لجنوده المنهكين من حروب الفرس بمواجهتها. وربما تكون نقطة الضعف هذه هي الدافع الذي جعله يفكر في وضع ترتيب اداري عسكري والذي نبت منه نظام الثيمات، على حد تصور كثير من المؤرخين المحدثين. والذي كان تفكيرا عميقا وذكيا إلى أبعد حد. وبذلك التنظيم استطاع حماية الحدود من هجمات المسلمين والدفاع عنها بجيش مستقر في تلك الحدود لايكلفه المال ولامؤن النقل بل تمليك الأرض مقابل الخدمة العسكرية.

توفي هرقل سنة ٦٤١م ونفذت وصيته بتولية ولديه العرش قنسطنطين الذي لقب بالثالث وهرقلوناس ابن مارتينا. غير أن السناتو والشعب معا لم يقروا اشتراك مارتينا في إدارة شئون الامبراطورية وباعتبارها امرأة ليس لها أن تستقبل السفراء. ولكنها رفضت الاذعان، ووقع الشقاق في الأسرة الحاكمة. وصار لكل فريق جماعة تؤيده، وكان قنسطنطين الثالث أكثر اتباعا، ولكنه مات في نفس السنة ٦٤١م ولم يدم حكمه أكثر من ثلاثة شهور. وهناك اشاعة تقول: إن مارتينا هي التي قتلته بمساعدة البطريرك بيروس Pyrrhus. وقد نص المؤرخ ثيوفانيس على أن مارتينا والبطريرك قتلاه[٤٠] بالسم.

(٣٨) سورة الحشر، آيـــة ١٣.
(٣٩) سورة الروم، الآيات ١ - ٥.
وسبب نزول السورة هو حزن المسلمين لانتصار المجوس (الفرس) على أهل الكتاب (الروم) وربما تكون الاشارة بالنصر هنا ليس فقط نصر النصارى على المجوس بل نصر المسلمين على الفريقين معا. وهناك حديث رقم ٣٣٥ أورده البخاري في صحيحه عن محمد بن شنان عن محدثيه أن النبي ﷺ قال: "اعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا... الحديث.(١) وإذا انطبق الحديث على أصحابه وفتوحاتهم، فمعنى هذا أن الرعب أصاب هرقل ولذلك لم يستطع المقاومة.
أنظر: العسقلاني: فتح الباري لشرح صحيح الإمام ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، الجزء الأول، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية، كتاب التيمم، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.
(٤٠) Theophanes, Ibid, 341.
أيضا: Stratos, Ibid, Vol. 1, 139.
أيضا: Haldon, Ibid, P. 51.

وكان من المفروض أن يشارك قنسطانز ابن قنسطنطين الثالث عمه في الحكم، ولكن مارتينا وابنها رفضوا. ونهض قائد قوات الابسيق، وكان من الموالين لقنسطنطين، وقاد قواته حتى بلغت خلقدونية، وعندها توج قنسطانز شريكا لعمه في العرش. ويقال أن مارتينا منحت هذا القائد والذي كان اسمه فالينتينوس Va-lentinus رتبة Comes of the Excubitors، وهي وحدة عسكرية صغيرة لحراسة القصر. وذلك لكي تشتري ولاءه، ولكن بالرغم من ذلك فقد قرر السناتو عزل مارتينا وابنها. وقطع لسانها وجدع أنف ابنها. وهذه أول مرة يجرى في بيزنطة استحداث عقوبة تحدث عاهة أو تشويها مثل جدع الأنف. والمقصود بذلك أن الشخص الذي تعرض لهذا الاجراء لم يعد كفؤا لأن يتولي المنصب. وقد تقرر نفي الامبراطورة وابنها إلى جزيرة رودس، ولقى البطريرك نفس المصير[٤١].

وآل الحكم إلى قنسطانز الثاني (٦٤١ - ٦٦٨م) ConstansII وكان لايزال في الحادية عشرة من عمره، وكان عليه أن يعتمد على رجال مجلس الشيوخ، السناتو، في إدارة شئون الدولة. ويبدو أن رجال مجلس الشيوخ مارسوا سلطات واسعة خلال تلك السنوات، وهو تطور معاكس لما حدث لهم خلال القرن السادس. ومن هذه السنوات فصاعدا فسيكون لرجال مجلس الشيوخ مركز جديد كمحكمة قضائية عليا ومصدر للاستشاره بل وسيكونون أيضا مستشارين للامبراطور[٤٢].

وأول المشاكل الداخلية التي تواجه قنسطانز في سنوات حكمه الأولى هو أن فالينتينوس، قائد قوات ثيم الابسيق، والذي وقف إلي جواره، طالب بأن يكون امبراطورا مشاركا مع قنسطانز، أو حتى يظفر بلقب قيصر وهو بذلك يكون مساويا لولي العهد في ذلك الوقت. وتسبب ذلك في حدوث فوضى في العاصمة في السنوات ٦٤٤ أو ٦٤٥م. غير أن قنسطانز نجح في التخلص منه وصار الحاكم الأوحد في

(٤١) Theophanes, Ibid, 342.
أيضا: الباز العريني - المرجع السابق، ص ١٤٩.
أنظر الكتاب، ص ٢٣٠ Haldon, Ibid, P. 52.
لخطاب قنسطانز أمام السناتو، أنظر: المصدر نفسه ٣٤٢.

(٤٢) Theophanes, Ibid. 342.
أيضا: Haldon, Ibid, P. 53.
لايذكر ثيوفانيس تفاصيل ثورة فالينتينوس ولكن يذكر تخلص قنسطانز منه.
انظر: Theophanes, Ibid, 343.

القسطنطينية[٤٣].

ومنذ عام ٦٤٢م استأنف المسلمون هجومهم على أملاك الامبراطورية شرقا وغربا، وفي شمال أفريقيا، وحتى عام ٦٥٥ حيث قامت معركة ذات الصواري [٤٤] وكانت من أهم المعارك البحرية والتي كانت السبب في انتقال الامبراطور قنسطانز إلى صقلية.

ولما توقفت الحروب بينه وبين المسلمين انتقل إلى الغرب. ولهذا القرار أهمية كبيرة حيث أنه يدل على تمسك الامبراطورية بأملاكها في الغرب. وإذا عملنا مقارنة بين حركة انتقال قنسطانز إلى الغرب واتخاذ سيراكوز عاصمة له. وبما أعده كل من موريس وهرقل من خطط لنقل العاصمة إلى الغرب. فيكون معنى ذلك أن فكرة وجود امبراطورية موحدة كان مستمرا. وأن البيزنطيين إلى هذا الوقت لم يكونوا يفكرون بالاكتفاء بالشرق وتركيز جهودهم عليه[٤٥].

وعندما توجه قنسطانز إلى البلقان أخذ آلاف من السلاف (أسرى الحرب) مع عوائلهم، وأرسلهم إلى منطقة الأناضول حيث يمكن تجنيد أولئك السلاف في القوات البيزنطية[٤٦].

ويعتبر هالدون عهد الامبراطور قنسطانز وقتا حاسما. لأن في عهده وضع حدا لامتداد المسلمين في الآناضول وقرر أن تكون الأناضول منطقة حدود Frontier Zone. وفي عهده أيضا احتمال أن العناصر الأساسية لادارة الثيمات في الأقاليم قد ظهرت. غير أن هالدن شكك في أن يكون هرقل هو الذي ابتدع نظام الثيمات، وينسبه إلى قنسطانز وسنناقش موضوع الثيمات في فصل خاص بالترتيبات العسكرية والادارة[٤٧].

كما يعتبر هالدن أن قنسطانز أول امبراطور يهتم بنقل السلاف إلى مناطق الأناضول [٤٨] ليمدها بقوة الرجال الذين يمكن تجنيدهم من جهة واستعمالهم في

---

(٤٣) Theophanes, Ibid, 343.
أيضا: Haldon, Ibid, P. 54.

(٤٤) أنظر الكتاب في حدود الأمبراطورية في القرن السابع، ص (٦٨١)

(٤٥) Ostrogorsky, Ibid, P. 108

(٤٦) Theophanes, Ibid, 347
أيضا: Haldon, Ibid, P. 56

(٤٧) Haldon, Ibid, P. 63.

(٤٨) لمعرفة تفاصيل أكثر عن حركة نقل السكان وأول من فكر بها، أنظر: الكتاب ص (٤٣٩)

تعمير الأراضي المهجورة من جهة أخرى. كما انه واجه تهديدات المسلمين البرية والبحرية[٤٩].

القول بأهمية عهد قنسطانز والقول بأنه هو مؤسس نظام الثيمات [٥٠] شيء ينفرد به هالدن. حيث أجمع المؤرخون الآخرون على أن هرقل هو مؤسس ذلك النظام. والثابت أن قنسطانز واجه غارات المسلمين البرية والبحرية وقاد حملة بنفسه، في معركة ذات الصوارى، والتي باءت بفشل ذريع بالنسبة للبيزنطيين، وهو الشيء الذي ربما يكون السبب المباشر في تركه للقسطنطينية، والتوجه إلى الغرب. هذا بالإضافة إلى أن معاركه البرية لم تكن حاسمة ولم يحرز فيها نصرا بشكل أو بآخر على المسلمين. إن هروبه الفعلي إلى الغرب يجعلنا نشك في أنه هو المنظم الأساسي لنظام الثيمات. لأنه لو كان هو الذي أسس الثيمات فعلا لرأيناه يستقر في القسطنطينية لمتابعة هجمات المسلمين التي لم تنقطع طوال تلك الفترة.

أقدم قنسطانز في عام ٦٦٠م على قتل شقيقه ثيودوسيوس Theodosius وذلك ليحول بينه وبين أن يكون امبراطورا شريكا له وهذا حق درج عليه أبناء هرقل، ومارسه فيما بعد أبناء قنسطانز نفسه، مما تسبب في إثارة سخط البيزنطيين وكراهيتهم له. فضلا عن انه صادر ممتلكات الكثيرين من الارثوذكس، لرفضهم الأخذ بالمذهب المونوفيزي. وجعله ذلك يدبر أمر مغادرته القسطنطينية، وذلك كمبرر بديل آخر لما ذكر سابقا. وبدا كما لو كان يريد زيارة المراكز الأكثر أهمية في ممتلكات الامبراطورية في الغرب. وتوقف في سالونيكا وأقام فترة طويلة في أثينا. وفي عام ٦٦٣م كان قد وصل إلى تارنتم في جنوب شرق ايطاليا. وجعلها قاعدة يشن منها الهجوم على اللمبارديين. مستعينا بما ابتزه من رعاياه الايطاليين. واستسلمت له بعض مدن ايطاليا، غير انه عجز عن الاستيلاء على بينيفنتوم Beneventum، وانسحب الى نابلي ومنها انتقل إلى روما. ودخلها في حراسة قوية إذ عد مسؤولا عن مصرع بابا روما، مارتينوس Martinus، بعد أن جعله ياتي إلى القسطنطينية فقام بنفيه إلى خرسون وقطع يده اليمنى ولسانه، مما جلب عليه سخط مواطني القسطنطينية أيضا). على انه كان على أي حال أول امبراطور يزور روما منذ أن سقط النصف الغربي من الامبراطورية. ولم تدم اقامته بها أكثر من إثنى عشر يوما غادرها في ١٧ يوليو

(٤٩) Haldon, Ibid, 63.

(٥٠) أنظر: الكتاب - الفصل الخامس - الإدارة العسكرية ونظام الثيمات.

٦٦٣م إلى نابلي ومن ثم أبحر إلى جزيرة صقلية، التي كانت في حاجة إلى تقوية دفاعاتها ضد إغارات العرب، التي كانت تشن من شمال افريقيا. وهناك جعل من سيراكوز أهم مدنها عاصمة له وأرسل في طالب زوجته وأبنائه، قنسطنطينوس وهرقل وتيبريوس، وطبيعي أن يرفض مواطنو القسطنطينية أن تنتقل عاصمة الامبراطورية إلى صقلية. فمنعوا رحيل الاسرة الامبراطورية إليها.

ودامت اقامة الامبراطور في صقلية زهاء ست سنوات قتله بعدها أحد وصفائه في حمام قصره. وقد دبر هذه المؤامرة ممثلو الأسر النبيلة البيزنطية والأرمينية. ونادى الجيش بأرميني يدعى نيزيبوس Nizizios (٥١) امبراطورا، غير أن أرخون exarch رافنًا سارع إلى إخماد هذه الفتنة وقتل هذا الامبراطور الأرمني المغتصب مع كثير من أتباعه. ومن ثم آل حكم الامبراطورية إلى قسطنطين الرابع إبن قنسطانز (٦٦٨ - ٦٨٥م). ويرفض اوستروجورسكي الأخذ برواية ثيوفانيس (٥٢) والتي تتردد عند جورج كيدرنيوس Georgius Cedrinus (٥٣) القائلة: بأن قنسطنطين الرابع جاء إلى صقلية على رأس قوة كبيرة أطاحت بالأرميني نيزيزيوس بالرغم من أن الكثير من المراجع الحديثة أخذت بهذه الرواية(٥٤).

وكان على الامبراطور مواجهة غزوات البلغار في البلقان، ذلك أن البلغار، وهم من أصل تركي، كانوا قد أقاموا علاقات صداقة مع بيزنطة منذ عصر هرقل، وأصبحوا يعانون منذ منتصف القرن السابع من ضغط الخزر الذين أخذوا في التحرك غربا. وخضعت لهم بعض القبائل البلغارية. في حين هاجرت إلى الغرب قبائل بلغارية أكبر

---

(٥١) Theophanes, 353; G. Cedrinus, 763. G. Monachos, 590.

(٥٢) Theophanes, 352.

(٥٣) Georgius Codrenus, Compendium Historiarum in Patrologiae Graecae, tom. CXX1, 763.

راجع أيضاً: Gergius Monachos, cagnomento Hamartolis, Choronicon in Patr, Gn Tom. CX. IV. 590.

(٥٤) يستند اوستروجورسكي على رفضه لرواية ثيوفانيس إلى رأي بروكس في مقال نشره في عام ١٩٠٨م عن حملة قنسطنطين الرابع على صقلية.

E.W. Brooks, The Sicilien Expedition of constantine IV, Bz (1908) 17

وما كتبه في .CMH (١٩١٨). ويرفض الأخذ برأي أحدث يؤيد رواية ثيوفانيس التي قال به H. Ge-goire، نشره في عام ١٩٣٨م، راجع: G. Ostrogorsky, The Byzantine State, P. 123

وبالتالي فإنه يرفض ماجاء عند ثيوفانيس وكندرينوس.

عددا ، وظهروا عند مصب نهر الدانوب. واضطر الامبراطور إلى مواجهتهم وأمر بتحرك كل جند الثيمات إلى تراقيا . غير أنه فشل في مقاومتهم مما سهل تسللهم الى مناطق الامبراطورية التي كان قد غلبت عليها سبع قبائل سلافية، بالإضافة إلى قبائل السيفيريين Severi. فتحالف السلاف مع البلغار. ومن ثم نشأت مملكة سلافية بلغارية في ولاية مؤئيسيا السابقة، التي تمتد بين الدانوب وسلسلة جبال البلقان، وكان هذا الغزو البلغاري لشمال شرق البلقان الذي كان في حوزة السلاف، قد عجل بقيام الامبراطورية السلافية الجنوبية الأولى. وذلك بالرغم من التباين العرقي بين عناصر سكان تلك المنطقة غير أن البلغار سرعان ما اندمجوا في السلاف الأكثر منهم عددا. واعترف الامبراطور بالأمر الواقع، ووافق على دفع جزيه سنوية لهذه الامبراطورية البلغارية الفتية، مما اعتبره ثيوفانيس مهانة ومذلة لاسم الامبراطورية الرومانية. غير أن اوستروجورسكي يرى أن الأثر الذي خلفه ماخسرته الامبراطورية في هذه المنطقة كان طفيفا لأن السلاف سبق وأن جاءوا إليها بفضل غزواتهم لها[٥٥].

وشهد عصر هذا الامبراطور حدثا آخر كان له أبعد الأثر في التاريخ العالمي، تمثل في أن الصراع بين بيزنطة والعرب دخل مرحلة حاسمة، وكان على قنسطنطين مواجهة حصار معاوية للقنسطنطينية الذي بدأ بعام ٦٧٤ واستمر خمس سنوات حتى عام ٦٧٨م [٥٦] وليس سبع سنوات كما قال ثيوفانيس[٥٧] ونيكافورروس [٥٨]. والمهم أن هذا الحصار لم يتوج بانتصار العرب بفضل استخدام بيزنطة للنار الاغريقية المشهورة التي اخترعها كالينيكوس Kallinicus [٥٩] ولايكتم مؤرخ غربي مثل اوستروجورسكي تقديره لنجاح بيزنطة في حمل العرب على الانسحاب ويرى ان قنسطنطين الرابع لم ينقذ القسطنطينية معقل المسيحية فحسب، بل أنقذ الحضارة الأوربية من الطوفان الاسلامي، والكفرة العرب، على حد تعبيره،وقارن بين عمله بانتصار حققه ليو الثالث عام ٧١٨م، فيما بعد، عندما أنقذ القسطنطينية من حصار مسلمة بن عبدالملك، وانتصار شارل مارتل على عرب الاندلس في موقعة بواتيه أو بلاط الشهداء عام ٧٣٢م. وعنده ان

(٥٥) Theophanes 356; Nicephorus 35; Ostrogorsky, Ibid, P. 127.
جاء في رواية ثيوفانيس (٣٥٨) ان الامبراطور أمر جميع جند الثيمات بالعبور الى تراقيا.
المصادر الاسلامية تذكر أن هذا الحصار استمر لمدة ٧ سنوات على فترات متقطعة. أنظر: ابن الاثير، ج ٣، ص ٢٤٦.
(٥٦) . Ostrogorsky, Ibid, P. 124.
(٥٧) Theophanes, 354.
(٥٨) Nicepherus, 32.
(٥٩) . Ostrogorsky, Ibid, P. 124.

انتصار قنسطنطين كان أهم وأبعد أثرا[٦٠].

ولم يتوقف الأمر إلى هذا الحد بين معاوية وقنسطنطين ذلك لأنه كما يروى ثيوفانيس أقدم المردة عام ٦٧٨/٦٧٧م على غزو لبنان وزحفوا جنوبا حتى بلغوا بيت المقدس، وانضم إليهم الكثيرون من السلاف والسجناء ومن العناصر المحلية، وأيقن معاوية ومستشاروه أنه لابد من التفاهم مع الامبراطور لعقد معاهدة سلام. واستجاب قنسطنطين وعقدت المعاهدة التي تنص على أن يدفع المسلمون جزية سنوية مكونة من (٣٫٠٠٠) ثلاثة آلاف نومسيماتا [٦١] وخمسين أسيرا وخمسين من أجود أنواع الخيول.

ويضيف ثيوفانيس أن خان الافار، والملوك والحكام في الغرب، وكذلك الشعوب بعثوا بهدايا، حملها السفراء إلى الامبراطور يطلبون منه أن يهيىء كل سبل السلام بينه وبينهم. وهكذا ساد الاطمئنان من حدوث أي صدام في الشرق أو في الغرب واستمر هذا الصلح ثلاثين عاما[٦٢].

أما الحدث الذي لايقل في أهميته عن الأحداث السابقة فهو المتعلق بسياسة الامبراطور الدينية، إذ ترتب على الأوضاع الجديدة التي سادت الشرق بعد أن استولى العرب، بفضل انتصاراتهم، على بعض الولايات البيزنطية ضرورة إعادة الامبراطور النظر في توجيه السياسة الدينية للامبراطورية. وكان النقاش في تلك الولايات محتدما حول طبيعة السيد المسيح. فبعد ضياع هذه الولايات لم يعد الامبراطور يهتم بآراء أهلها. وقد فشلت السياسة الدينية التي درجت بيزنطة على انتاجها لاستمالة مسيحى الشرق وارضائهم، فضلا عن انها كانت تثير الخلافات بين بيزنطة والغرب. ورأى الامبراطور أن يتفاهم مع روما للوصول إلى تفاهم مشترك، ونجح في الدعوة إلى مجمع كنسي في القسطنطينية. وقد عقد المجمع في الفترة من ٧ نوفمبر ٦٨٠ إلى ١٦ سبتمبر ٦٨١م وهذا المجمع السادس من المجامع الدينية الهامة. وجاءت قراراته لتغير الأخذ بفكرة القدرتين والمشيئتين، وأدين القائلون بعكسها، وقضى بحرمان دعاتها الأوائل. وقد شارك الامبراطور في كثير من جلسات المجمع ورأس الجلسة الأخيرة وقاد المناقشات، وما أن وقّع على قرارات المجمع حتى أعلن المجتمعون انه الحامي والمفسر للعقيدة الارثوذكسية، وهتفوا بحياته فهو الذي كشف عن طبائع السيد المسيح وهو

(٦٠) Idem, p. 125.

(٦١) Nomisma عملة ذهبية تقابل Solidus.

(٦٢) Theophanes, 335, 356

قد يكون في ذكر شروط مماثلة ونوعية الجزية في صلح آخر سيعقد بين عبد الملك بن مروان والامبراطور جستينيان الثاني مايثير بعض الدهشة.

جستنيان الجديد وهو الذي قضى على المهرطقين[٦٣].

واقدم قنسطنطين بعد إنتهاء أعمال هذا المجمع السادس إلى حرمان أخويه، تيبريوس وهرقل، من أن يكونا امبراطورين مشاركين، بعد أن كان قد أمر بأن يشاركاه مظاهر الملك وان يصورا معه على قطع العملة. وفي عام ٦٧٠م عمد إلى تجريدهما من لقبيهما الامبراطوريين. وفي نهاية عام ٦٨١م أمر بجدع أنفيهما وباعدام ممثلي جند ثيم الاناضول الذين عارضوا إرادته. ويعد هذا العمل عند اوستروجورسكي انقلابا ثوريا إذ بعصر هذا الامبراطور تقتصر السلطة على حاكم واحد، وينحصر حق وراثة العرش في الإبن الأكبر، على أن يبقى لقب الامبراطور المشارك، بشرط ألا تكون له أي سلطة فعلية، فالسلطة بأكملها في يد الامبراطور الحاكم الاتوقراطي [٦٤] ولذلك كان هذا الاجراء حدثا بارزا في عهد قنسطنطين الرابع، وهو الذي مهد لمجيء إبنه جستنيان الثاني إلى عرش الامبراطورية.

الامبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥م، ثم من ٧٠٥ - ٧١١م) خلف أباه على عرش الامبراطورية في عام ٦٨٥م وفي نفس العام تولى الحكم الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان. ويذكر ثيوفانيس أن عبدالملك بعث بسفارة إلى جستنيان تنشد تجديد معاهدة السلام التي كانت على أيام معاوية، وقَبِل الامبراطور، واتفق على معاهدة جديدة تنص على أن يخرج الامبراطور جستنيان المردة من لبنان وأن يوقف هجومهم على المسلمين. وأن على عبد الملك أن يقدم للروم يوميا ألف نوميسيماتا no-mismata وحصانا وعبدا. وأن يقتسم الطرفان[*] الجزية التي تدفعها كل من قبرص وأرمينية وأيبريا[٦٥].

وقد نفذت المعاهده بأن أرسل جستنيان مبعوثين ألقوا القبض على ١٢٠٠٠ من

---

(٦٣) Idem, p. 127 - 128.

وقد رجع استروجورسكي إلى J.D. Mansi, Scrorum Conciliorum Nova et amplissima collectio, Florence 1769-XI, 656

(٦٤) Theophanes 352, G. Codrenus. 764;

وجاء في رواية ثيوفانيس أن جند ثيم الاناضول قالوا للامبراطور كما أننا نؤمن بالثالوث فإننا نريد أن يكون في الحكم ثالوث مماثل.

Theophanes, 352, Ostrogorsky, Ibid, P. 128 2, P. 129.

راجع أيضا: Brooks, The Brother of Emperor Constantine IV English Historical Review, 30 (1913), P. 42.

(٦٥) Theophanes, Ibid, 363

(*) المقصود الامبراطورية الرومانية والدولة الاسلامية.

المردة ونقلوهم إلى مناطق مختلفة من آسيا الصغرى وكان في ذلك إضعاف للدولة البيزنطية. وبذلك أساء إلى دولته. وبعد أن قام جستنيان بترحيل المردة عانت رومانية كما يقول ثيوفانيس، ويقصد (الامبراطورية الرومانية) من كل أنواع الشرور التي الحقها بهم العرب حتى يومنا هذا[٦٦]. واعتبرت هذه المعاهدة من أعظم الخطوات الدبلوماسية الناجحة، التي تفوق فيها عبدالملك بن مروان على الامبراطورية البيزنطية، رغم انشغاله بالمشاكل الداخلية.

ويعيب ثيوفانيس على جستنيان بأنه كان صغير السن لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره وكان لايستشير أحدا، مخالفا التقاليد المعمول بها.

وقد أرسل قوات حربية إلى أرمينيا سنة ٦٨٦م بقيادة لينتويوس Leontios والذي قتله العرب هناك، وقد أعاد الامبراطور أرمينيا إلى الرومان. كما فعل بالنسبة لابيريا والبانيا وبوكانيا Boukania وميديا وأخضعها للرومان وعندما علم عبد الملك بذلك قام بالاستيلاء على كل من Kirkesion و Theopolis. ويشير ثيوفانيس في سرده لأحداث سنة ٦٨٧ أن جستنيان ذهب إلى أرمينيا بنفسه ليستقبل المردة اللبنانيين الذين أمر بنقلهم، وبذلك يكون وضع نهاية لذلك الحائط القوى الذي كان بمثابة شوكة في ظهر المسلمين[٦٧].

كما أنه تصرف تصرفا آخر في هذه السنة نفسها بأن نقض معاهدة السلام مع البلغار، وأمر فرسان الثيمات Cavallark thimata بعبور الدانوب إلى تراقيا، لأنه كان يود الحصول على أسرى من كل من البلغار والسلاف.

وفي سنة ٦٨٨م قاد جستنيان حملة ضد السلاف والبلغار وفي أثناء زحفه إلى سالونيكا [٦٨] دفع بالبلغار بعيدا بقدر ما أمكنه والحق الهزيمة بعدد كبير من السلاف،

---

(٦٦) Theophanes, Ibid. 363

أيضا أنظر: الكتاب (حركة نقل السكان)

لايجوز التسليم بما ذكره ثيوفانيس بشأن صغر عمر الامبراطور وبأنه بذلك كان يسيىء التصرف على علاته، فالامبراطور في مثل هذا العمر كان لابد وأن يكون محاطا بمستشارين يوجهونه ويتحكمون في تصرفاته.

(٦٧) Idem, p. 364.

(٦٨) وكان عليه لكي يصل إلى سالونيكا قادما من القسطنطينية ان يشق طريقه مقاتلا السلاف الذين غلبوا على المنطقة. واعتبر نجاحه في التغلب عليهم نصرا كبيرا. واحتفل بهذا النصر بدخوله سالونيكا، بأن قدم الهدايا والهبات إلى كنيسة القديس ديمتريوس، حامي حمى المدينة، وأعفى الكنيسة من الضرائب شكرا لهذا القديس الذي أمده بعونة فحقق ذلك الانتصار. أنظر: Ostrogorsky, Ibid. p. 130.

وقد أشار في حاشير رقم (٣) في هذه الصفحة إلى قرار الامبراطور بخصوص كنيسة القديس ديمتريوس في عام ٦٨٨/٦٨٩ وناقش ما صدر من دراسات بشأنه.

الذين انضم منهم إليه عدد كبير، سواء الذين هزموا في المعارك الحربية أو أولئك الذين ذهبوا إليه طواعية. وهؤلاء نقلهم عن طريق أبيدوس وجعلهم يستقرون في ثيم الاوبسيق Opsikion [٦٩] بوصفهم Stratiotai. غير أن البلغار كمنوا له في طريق ضيق في ممر جبلى وقتلوا العديد من رجاله[٧٠].

ويعد تهجير الامبراطور للسلاف الذين هزمهم إلى أسيا الصغرى عملا في غاية الأهمية لأن ذلك يعني أنه تابع ما بدأه قنسطانز الثاني من توطينهم في أسيا الصغرى وإن كان قد فعل ذلك على نطاق أوسع بكثير. وكان على القبائل السلافية، التي استقرت في ثيم الاوبسيكيون (الابسيق)، أن تقدم قوة عسكرية قوامها ثلاثون ألف جندي، وقام الامبراطور بتسليحهم وأسماهم بالجيش الخاص[٧١]. ويعني هذا زيادة كبيرة في حجم الجيش البيزنطي، ولكن في الوقت نفسه عمل هؤلاء السلاف على إنعاش الريف الذي كانت الهجمات المعادية قد استباحته.

وشملت عملية تهجير المردة (الجراجمة) كذلك. فوطّن الامبراطور بعضهم كبحارة في البليبونير وجزيرة كيفالينا وميناء نيقوبوليس في ابيروس، وربما أيضا في أطاليا على الساحل الجنوبي لأسيا الصغرى. واعتبر ثيوفانيس هذا العمل كشفا للجبهة الشرقية للأمبراطورية واضعافا لها، وبالإضافة إلى ماتقدم عمل جستينيان على نقل القبارصة إلى منطقة كيزيكوس(*)، التي عانت الكثير أثناء الحصار العربي للقسطنطينية، وكانت الحاجة ماسة إلى بحارة مدربين. وقد وصف ثيوفانيس هذا العمل بأنه عمل فاشل، بالإضافة إلى أن عددا كبيرا من القبارصة هلك في الطريق[٧٢] أو ماتوا بسبب اصابتهم بالأمراض.

ومما يثير الاهتمام أن ثيوفانيس بعد أن أورد ذكر تجنيد عدد كبير من السلاف، ذكر أنه كتب إلى العرب بأنه لن يتقيد بالصلح المعقود بينه وبينهم. ويبدو الوضع كما لو كان الامبراطور قد غرته قوته التي دعمها بالسلاف فأقدم على نقض الصلح.

(٦٩) يشغل هذا الثيم المنطقة الشمالية الغربية للأناضول ويقع إلى الغرب من ثيم الارميناك الذي يقع إلى الشمال من ثيم الاناضول. Theophnes, Ibid, 364

(٧٠) Theophanes, Ibid, 364, 366.

(٧١) Ostrogorsky, Ibid, P. 131.

(*) كيزيكوس: هي جزيرة ارواد التي فتحها العرب سنة ٥٤هـ، أنظر ابن الاثير، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٧٢) يشير اوستروجورسكي في حاشية (٤) ص ١٣٠ إلى العثور على خاتم من الرصاص يفهم منه أن توطين السلاف في بثينيا في عام ٦٩٤/٦٩٥م، وأن هذا الختم يخص الموظف الامبراطورى الذي يدير شئون الجند السلاف في بيثينيا ولقبه upatwn apo.

وإنصافا لثيوفانيس، بالرغم من انه وصف العرب بأنهم منافقون فقد قال: "إن هؤلاء العرب لم يختاروا نقض الصلح ولكن خطيئة الامبراطور وطيشه هما اللذان دفعا الفريقين إلى ذلك".

ونتابع قراءة ثيوفانيس الذي يقول أن جستنيان سنة ٦٩٢-٦٩٣م صحب جيشه الخاص (المكون من السلاف) وكل فرسان الثيمات Kaballarika Themata، وأبحر بهم إلى (Sebastopolis (في ارمينيا وهي اليوم سولو سراى). ويقول: إن العرب سلحوا انفسهم وذهبوا إلى هذه المدينة، وبالرغم من أنهم أقسموا في أول الأمر للأمبراطور بأنهم لن يخرجوا عن الاتفاق الذي أقسموا معه على احترامه والله وحده هو العادل المنتقم. ولكن الامبراطور، كما يقول ثيوفانيس، لم يطق سماع مثل هذه الأقوال، بل كان متلهفا على خوض المعركة، فتحلل العرب من معاهدة السلام واندفعوا إلى مهاجمة الرومان، وعلقوا نسخة من المعاهدة برمح جعلوه يتقدمهم بدلا من العلم. ويقول ثيوفانيس قولا غريبا أن محمدا (ﷺ) كان يقود جيش المسلمين، وأنه أغرى قائد السلاف بالمال وبذل له، الوعود، فانحاز القائد بعشرين ألفا من السلاف إلى العرب، وأضاف، إن الامبراطور جستنيان أمر بقتل جميع السلاف (مع زوجاتهم واطفالهم) في بيثينيا انتقاما منهم[٧٣]. وقد يكون ثيوفانيس مبالغا في ذلك لأنه ثابت أن السلاف كانوا موجودين في ثيم الاوبسيق في القرن العاشر. وقد يكون مبالغا كذلك بالنسبة للقبارصة فقد عادوا كما قال فيما بعد إلى جزيرتهم[٧٤]. وقد تكون معلوماته غير دقيقة أيضا بالنسبة للمردة، لأنهم كانوا موجودين في ثيم -Cib yreaeot كيبرهايوت حيث كان قائدهم Katepano ton Mardaitor يحتل المركز الثاني بعد قائد هذا الثيم segetarts. وكذلك كانت هناك أعداد كبيرة من المردة في ثيم هللاس، كان عددهم ٥٠٧٨ أو ٤٠٧٨ رجلا[٧٥].

أما السبب في القتال الذي دار بين جستنيان وعبدالملك فكان بسبب عدم قبول جستنيان المال الذي ارسله له عبدالملك والذي سبق وأن قام عبدالملك عام ٦٩١/٦٩٢م بسكه، كعملة عليها رسم جديد، لم يكن لها مثيل من قبل، وعندما بلغ عبدالملك ذلك طلب من جستنيان عدم خرق الهدنة، وان يقبل عملته. وبالرغم من أن العرب لم يقبلوا بصورة الامبراطور على نقودهم، إلا أن نقودهم حملت نفس وزن النقود البيزنطية،

---

(٧٣) حدثت المذابح في Leukate على خليج نيقوميديا Theophanes, 366.

(٧٤) Idem, 365.

(٧٥) Ostrogorsky, Ibid, P. 132.

لذلك لم تكن هناك أى خسارة مادية بالنسبة للرومان، ولكن جستنيان فهم ان طلب عبد الملك عدم نقض الهدنة كان بدافع من الخوف، واستقر عنده الاعتقاد ان العرب يريدون وقف اغارات المردة، ثم يعمدون إلى خرق الهدنة بحجة تبدو معقولة في ظاهرها.
ويعلق مترجم ثيوفانيس ان عملة بيزنطة على عهد جستنيان الثاني بدأت تحمل صورة المسيح وكان الطبيعي ألا يقبل العرب التعامل بها، وحتى هذا الوقت كان العرب يقلدون العملة البيزنطية، ولكنهم بدأوا في ذلك الوقت بسك مجموعة من العملات الذهبية بوزن أخف من وزن النوميسيما البيزنطية. وسك عبدالملك مجموعة عملات تحمل صورة الخليفة، إلا أن العملة الاسلامية بعد عام ٦٩٧/٦٩٦ لم تعد تحمل أي صور على الاطلاق[٧٦].

هذه من جهة الروايات البيزنطية أما الروايات الاسلامية[٧٧] فتعلل خرق الهدنة الى الأسباب التالية: وهو أن الروم كانوا لايزالون يستوردون الورق البردى من مصر وكانت قد جرت عادة الأقباط على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث في أعلى الأوراق. ورأى عبد الملك أن هذه العبارة لاتتفق مع مبادىء وعقائد الدين الاسلامي فاستبدل اسم المسيح وعبارة التثليث بعبارة التوحيد "قل هو الله أحد" هذا بالإضافة إلى أنه كتب في مستهل كتاباته إلى الروم نفس العبارة (قل هو الله احد) وذكر النبي ﷺ في تاريخ تلك الخطابات.

وكان لطمس عبارة التثليث من فوق أوراق البردى رد فعل كبير عند جستنيان الذي كتب إلى عبد الملك يقول: "انكم قد احدثتم كذا وكذا فاتركوه والا أتاكم في دنانيرنا ماتكرهون" فعظم ذلك على عبدالملك فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره في ذلك الامر فقال له: "حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى" فضرب الدنانير والدراهم [٧٨] وكان ذلك في عام ٧٦هـ/٦٩٢م.

وأرسل عبد الملك الجزية المفروضة عليه لبيزنطة من الدنانير الاسلامية الجديدة فغضب جستنيان حين استلم الجزية، لأن الدنانير كانت خالية من صور أباطرة الروم

---

(٧٦) Theophanes, Ibid, 335. 133.
أنظر أيضاً: Ostrogorsky, Ibid, P. 138.
(٧٧) البلاذرى. فتوح البلدان - مراجعة رضوان محمد رضوان - دار الهلال - بيروت. ص ٢٤٩.
(٧٨) البلاذرى - المصدر نفسه ص ٢٤٢
ايضا ابن الاثير، ج ٤، ص ٥٣
وكانت العملة السائدة في البلدان الاسلامية الى ذلك الوقت الدنانير الرومية والدراهم الفارسية، أنظر البلاذرى، المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

أولا. ولأنها كانت تحمل آيات قرآنية "أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله"(٧٩) ثانيا.

ولم يرفض جستنيان أخذ الدنانير الاسلامية فقط بل سار إلى الحدود الاسلامية، واصطدم الجيشان الاسلامي والبيزنطي سنة ٧٥هـ/٦٩٣م كما سبق القول (٨٠). وتتفق الروايات الاسلامية والبيزنطية في أن المسلمين استعاضوا عن الاعلام في حربهم مع الروم بنسخة من المعاهدة بينهم وبين الروم رفعوها على الرماح. وكاد جستنيان الثاني ان ينتصر على المسلمين لولا الخيانة التي ارتكبها السلاف بانضمامهم إلى المسلمين(٨١). وقد خسر الروم تلك المعركة واستولى المسلمون فيها على ارمينية وذلك سنة ٦٩٣م.

وقد ازدادت نتيجة لذلك كراهية الصقالبة " السلاف" لجستنيان الثاني أما المسلمون فقد أحسنوا إليهم وأسكنوهم في الثغور وفي قبرص، وهناك عاشوا في هدوء وأثروا ثراء كبيرا(٨٢).

وقد أثقل جستنيان رعاياه بأعباء مالية ضخمة، إذ كان يريد أن يظهر بمظهر سميه جستنيان الأول فاندفع إلى أعمال البناء والتشييد باسراف شديد(٨٣) واستنزف أموال رعاياه بدون شفقه أو رحمة، مما جعلهم يحقدون على اثنين من الموظفين المسئولين عن الادارة المالية، وهما اسطفان، الذي كان كبير الخصيان Sakellarios، وثيودوتس(٨٤) الذي كان يعمل في وظيفة Logothites genekou (٨٥) وقد تميزا بقسوة غير

---

(٧٩) سورة التوبة، آية ٢٣: أيضا: سورة الصف آية ٩.

(٨٠) لقد فتحت أجزاء من أرمينية في عهد عثمان بن عفان حينما كان معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام، أنظر البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٠٠ - ٢٠١. راجع أيضا: Theophanese, Ibid, 366

(٨١) سبق القول بأن جستنيان حسب رواية ثيوفانيس انتقم من السلاف بذبحهم مع زوجاتهم واطفالهم.

(٨٢) Theophanese, Ibid, 366.

(٨٣) من أعمال البناء التي قام بها انه استكمل القصر الامبراطوري وشيّد قاعتين غاية من الاتساع والفخامة ليربط قاعة العرش Chrysotriclinium بقصر داخلي وحلبة سباق الخيل Hippodromos واطلق على احدى القاعتين اسم Lausiacus وعلى الأخرى اسم Triclinium.

(٨٤) يروى ثيوفانيس عن اسطفان أنه كان فارسيا وكبير الخصيان عرف بالقسوة والتعطش للدماء، واتخذه مستشارا له وكان يجد لذة في الاساءة إلى العمال يقذفهم على رؤسيهم بالحجارة ولم يتورع أثناء غياب الامبراطور في الخارج أن يجلد اوجستا أناستاسيا ام الامبراطور. وعن ثيودوتس ذكر ثيوفانيس انه كان رئيس دير في تراقيا وكان مرعبا مخيفا يدير المكائد ويصادر الأموال ويفرض ضرائب ثقيلة على عدد كبير من قادة الدولة ورجالها البارزين وكبار الملاك الخ.. Theophanes, 368

(٨٥) سيرد ذكر هذه الوظيفة في الفصل الخامس بالإدارة المالية في القرن السابع والتي ظهرت للمرة الأولى في عهد جستنيان الثاني.

طبيعية ووقاحة لاحدّ لها(٨٦). فكره الشعب حكومته وثاروا عليه ورفع حزب الزرق ليونتيوس Lenontius القائد الجديد لثيم هيلاس (٨٧) إلى العرش وانتقم الشعب من اسطفان وثيودوتس بينما جدع أنف الامبراطور ونفى إلى خرسون، وبذلك يكون أحد قادة الثيمات قد نجح في أن يظفر بعرش الامبراطورية بل وانتزع الحكم من أسرة هرقل.

وقد واجه الامبراطور، ليونتيوس، الذي حكم الامبراطورية فترة قصريرة لم تتجاوز ثلاث سنوات مابين عامي ٦٩٥ و ٦٩٨، عددا من المشاكل كان من أبرزها تربص المسلمين للبيزنطيين في المناطق الشرقية من الامبراطورية، ومواجهة الزحف الاسلامي في شمال افريقيا وتمرد جنده الذي عجل بنهايته.

يتحدث ثيوفانيس، (٨٨) عن تمرد حاكم لازيكا ووضعها تحت حكم الرومان ومهاجمة المسلمين لرومانية وأسرهم عددا كبيرا من أهلها في عام ٦٩٧/٦٩٨م.

أما في شمال افريقيا فقد عاد المسلمون إلى نشاطهم وتوطيد اقدامهم بها وكان الخليفة عبد الملك بن مروان قد جهز جيشا، يقوده زهير بن قيس البلوى عام ٦٩هـ / ٦٨٨م، نجح في مواجهة البربر وقتل زعيمهم كسيلة. ولكن زهيرا لم يهنأ بانتصاره إذ استشهد في كمين نصب له لدى عودته(٨٩).

وعهد عبد الملك بن مروان بأمور افريقيا إلى حسان بن النعمان الغساني لعظم ثقته به، وأرسله في عام ٧٦هـ / ٦٩٥م على رأس جيش قوى تصادف وصوله في الوقت الذي أقصى فيه جستنيان عن عرش الامبراطورية. وحقق حسان نجاحا مشهودا باحتلال قرطاجة عام ٦٩٧م، إذ قضى تماما على الوجود البيزنطى فلم تعد لهم قائمة، وانسحب

---

(٨٦) Ostrogorsky, Ibid, P. 140

(٨٧) ذكر ثيوفانيس (٣٦٨) عند سرده لأحداث عام ٦٩٥/٦٩٦ أن ليونتيوس كان Strategos ton Anatlikon قائدا لثيم الاناضول ثم أدين وقضى ثلاث سنوات في السجن ثم افرج عنه فجأة وعين Strategos Hellados قائدا لثيم هيلاس وجاء في تعليق مترجم ثيوفانيوس في حاشية (١٣٦) ان هذه هي المرة الاولى يذكر في التاريخ البيزنطي انشاء ثيم هيلاس وربما يكون قد استحدث نتيجة للحملات الباكرة التي كان يقودها ضد السلاف في البلقان ولاحظ المترجم أيضا ان هيللاس لم يكن الاسم الروماني الذي عرفت به هذه المنطقة بوصفها ولاية رومانية ولكن ستراتوس ينسب انشاء ثيم هيلاس ليشمل ولاية اليونان السابعة بأكملها الى الامبراطور قنسطنطين الرابع وذلك في عام ٦٦١/٦٦٢م للتصدي لأي هجوم عربي بحري.
Stratos, Ibid, Vol. iii, P. 296. Vol. IV, P. 143.

(٨٨) Theophanes, 370.

(٨٩) ابن الرقيق، تاريخ افريقيا والمغرب، ص ٥١ ومايليها.

البيزنطيون إلى صقلية وإلى أسبانيا (٩٠) ثم تحول إلى الكاهنة وقومها من البربر وبعد كر وفر استمر خمس سنوات قتلها، ووضع حدا لخطر البربر وقضى بذلك على آخر خطوط المقاومة في وجه الفتوحات الاسلامية في افريقيا(٩١).

ويتحدث ثيوفانيس (٩٢) عن مبادرة الامبراطور إلى إرسال يوحنا أحد القادة الأكفاء، ومعه الأسطول بأكمله إلى افريقيا ونجح يوحنا في أول الأمر في دخول قرطاجة، وفي استخلاص المدن الافريقية من المسلمين، ولكن حسان لم يمهله فبادر إلى الهجوم وأجبر يوحنا واسطوله على الفرار.

وفي طريق عودة الاسطول إلى القسطنطينية توقف في جزيرة كريت وهناك تمرد الجنوب وقاموا باعلان Apsimaros، الذي قال عنه ثيوفانيس انه كان -Drou garios ton Liburhaioton قائد ثيم كيبورهايوت، امبراطورا باسم تيبريوس (٩٣) ونجح في السيطرة على القسطنطينية بفضل تأييد حزب الخضر له واعتلى عرش الامبراطوارية باسم الامبراطور تيبريوس وحكم من عام ٦٩٨م - إلى عام ٧٠٥م(٩٤). وهكذا للمرة الثانية نجح أحد قادة الثيمات في أن ينتزع الحكم من أسرة هرقل وفي أن يتولى عرش الامبراطورية. ومالبث أن بعث بالامبراطور لنتيوس إلى أحد الاديرة مقبوضا عليه بعد أن قطع أنفه.

عمد الامبراطور الجديد إلى النهوض بمسؤوليته بأن عين أخاه هرقل ليكون القائد الوحيد لكل فرسان الثيمات خارج المدينة(٩٥). وبعث به إلى كبادوكيا ليعبر ممراتها ويقود العمليات ضد خصوم الامبراطور.

---

(٩٠) إبن الأثير، ج ٤، ص ٣١، وعن حسان بن النعمان الغساني ،راجع عبد العزيز محمد اللميلم، حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
Theophanes, 370.

(٩١) ابن الرقيق ، المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٩٢) Theophanes 370

(٩٣) Theophanes, Ibid 370, Cedrenus, Historiaum Compendium, 777
لقب Drougarios يقابل Tribunus Militum

(٩٤) Idem, 371

(٩٥) Idem; Cedrenus, Historiarum Compendium, 777.
ونبه ستراتوس في حاشية ١٨٥ ص ٩١ الى انه وردت عند زوناراس Zonaras, III, 325 عبارة "القائد الوحيد لكل الفرسان وفرق الجيش" ولكن ستراتوس يقول ان ثيمات الفرسان Cavallarikon لم تكن قد وجدت بعد، وبذلك فهو يفسر كلمة فرسان بانها تشير الى فرقة من الجيش، وبذلك تؤخذ عبارة زوناراس على ان الامبراطور اقام هرقل قائدا على كل اقسام الجيش التابعة للثيمات أو تلك التي لم تكن تابعة لها. وبذلك يكون المقصود ان هرقل كان قائدا للجيش بأكمله في المنطقة التي عهد بها اليه. وقد ارسله إلى قبادوقيا. وانه =

وكان على الأمبراطور الجديد التغلب على عدد من المشاكل تتمثل في مواجهة العرب في شمال افريقيا وفي سوريا وأرمينيا فضلا عن مراقبة الأوضاع في أسيا الصغرى.

في شمال افريقيا لم يقم الامبراطور بأي محاولة للتصدي للعرب، الذين انصرفوا إلى التعامل مع القبائل المحلية، بوضع حد لمقاومتها واستمروا كذلك حتى تمكنوا فيما بعد من الوصول إلى شاطئ الأطلنطي بعد الاستيلاء على حصن سبته عام ٧١١ في نهاية الفترة الثانية من حكم جستينيان الثاني ومن ثم سيعبرون إلى أسبانيا في القرن الثامن[٩٦].

وبالنسبة لسوريا تحدث ثيوفانيس عن اجتياح جيوش الامبراطور لسوريا في عام ٧٠٠ وتقدمها حتى ساموساتا Samosata وأن ٢٠٠٠٠ر٢٠٠ من المسلمين لقوا مصرعهم وان كان هو نفسه يتشكك في صحة هذا الرقم بقوله "هذا مايقولون". ولكن ميخائيل السرياني ينزل بالعدد إلى خمسة آلاف[٩٧].

وفي الوقت نفسه تقريبا دار صراع بين العرب والبيزنطيين حول أرضروم « **أرض الروم** »، وهي فاليقا، عند العرب، وثيودوسيوبوليس عند البيزنطيين، وقارن Karin عند الارمنيين. ولها أهميتها الاستراتيجية، فهي جيدة التحصين لاتبعد عن ينابيع اعلا الفرات (Kara Su) وتتحكم في الممرات التي تؤدى إلى فارس وإلى القوقاز.

وعلى حين يذكر شعيرة [٩٨] ان تيبريوس بعث بجيش أقدم على غزو المدينة (عام ٦٩٨م) فصده عند سمبات Sembat، الأمير الأرميني، الذي كان العرب قد أقاموه حاكما عليها. إلا أن سمبات انقلب على العرب في العام الثاني ٧٠٠م وسلم المدينة إلى البيزنطيين. مما جعل العرب يصممون على استرجاعها. ونجد أن ستراتوس يغفل ذكر تفاصيل كثيرة ويكتفي بذكر ان عبيد الله بن عبد الملك، أي ابن الخليفة، غزا ارمينيا البيزنطية واستولى على المدينة عام ٧٠٠م. ويشير في حاشيته إلى ما أورده

= ربما يكون قد اتخذ قيصرية قاعدة له، فهو بذلك القائد الاعلى لكل القوات العاملة في شرق أسيا الصغرى، وانه طبقا للحوليات البيزنطية كان ذلك في عام ٦٩٨م.

Monostrategos Panton ton exo Kabullarikom Thematon

(٩٦) Ostrogorsky, Ibid, 141.

(٩٧) Theophanes, ibid, 371, Michael les Syrien XVI, P. 474, Strates, ibid, P.92, 386-388.

(٩٨) M.A.Cheira, La Lutre entreArabes et Byzantins. (Alexandrie, 1947), P. 164, ff.

شعيرة تفصيلا ويقول شعيرة أن القائد هو عبدالله وليس عبيد الله بن الخليفة[٩٩].

وفي عام ٧٠١/٧٠٢م طبقا لثيوفانيس [١٠٠] هاجم العرب بقيادة عبدالله، أو عبيد الله، الأراضي البيزنطية في أسيا الصغرى وحاصروا طاراندون (طرندة) وتقع شمال شرق مليطيني (مالطية)[١٠١] وجلوا عنها دون ان يحققوا شيئا. وبعدها ذهب عبدالله جنوبا الى مدينة Mopsuesta (المصيصة)[١٠٢]. وكانت مدينة مهجورة فشرع في بنائها وتحصينها. وهدفه من ذلك حماية انطاكية التي كانت قد تعرضت لاغارات بحرية من جانب البيزنطيين[١٠٣].

ويبدو واضحاً ان الاهتمام بالسيطرة على طرندة انما كان رغبة من عبد الملك في تحريك خطوط دفاعية إلى الغرب لمواجهة ثيم الاناضول، على نحو ما كانت عليه المواجهة الصلبة مع ثيم الارمينياك[١٠٤].

وفي عام ٧٠٢/٧٠٣م، فيما يذكر ثيوفانيس[١٠٥] سلم بانيس Banees [١٠٦]، الملقب باسم Heptadaimon، ارمينيا الرابعة للعرب. ولكن زعماء أرمينيا مالبثوا أن تمردوا على الحكم العربي في العام التالي، وبعثوا برسل إلى الامبراطور تبيريوس الذي أرسل بقوات رومانية (بيزنطية) لقيت الهزيمة على يد العرب، وانتقم القائد العربي، الذي دعاه ثيوفانيس، باسم محمد، هو محمد بن مروان، من زعماء الأرمن وحرقهم أحياء كما يذكر ثيوفانيس وإن كنا نشك في عملية الحرق .

وفي آسيا الصغرى تصدى هرقل شقيق الامبراطور لاغارة على كليكيا، كان يقودها أزار Azar، وصده عنها بعد أن كبده خسائر فادحة وقتل معظم رجاله وأرسل من تبقى منهم أسرى إلى الأمبراطور، وكان عليه في عام ٧٠٤/٧٠٥م مواجهة غزوة

---

(٩٩) Stratos, Ibid, Vol. V, P. 92, 389, 390.

(١٠٠) Theophanes, 372.

(١٠١) طاراندون Tarandon (طرندة) مدينة حصينة تقع على بعد مائة ميل من الشمال الشرقي من مدينة ميليطيني (ملطية) تقع على أحد الروافد اليمنى لنهر الفرات وتشرف على الممرات التي تؤدى الى قيصرية وجرمانفيا. Stratos, ibid, P. 93, N. 391.

(١٠٢) تقع موبسويستا (المصيصة) على نهر بيراموس شمال جبال طوروس على الطريق الرئيسي الذي يؤدي إلى أنطاكية.

أنظر أيضا: ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(١٠٣) Idem P. 93; Sheira, Ibid

من المهم مراجعة حاشية 394 حيث يناقش استراتوس ترتيب الأحداث ترتيبا زمنيا ومقارن ذلك بما جاء عند Sheira, ibid P. 165-166 No. 2 عن الاغارات على انطاكية.

(١٠٤) Idem, P. 165

(١٠٥) Theophanes, ibid, 372.

(١٠٦) Bannees عند استرتوس هو Vaanes ويفترض انه Vahan

Stratos, Ibid, P. 94

أخرى قادها إلى كليكيا يزيد بن حنين ونجح هرقل في صد هذا الهجوم أيضا بعد أن قتل اثنى عشر ألفا من العرب[١٠٧] وكان هدف العرب الاستيلاء على حصن Si-sion[١٠٨] لتدمير تحصينات البيزنطين في المنطقة، ويدل الصراع المديد بين الفريقين على مدى أهمية المنطقة من الناحية الاستراتيجية لكل منهما[١٠٩].

في الوقت الذي توفى فيه عبدالملك بن مروان (١٥ شوال من عام ٨٦هـ الموافق ٩ اكتوبر ٧٠٩م) وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد، وقدر أن يعود جستنيان الثاني إلى عرش بيزنطة وليعود معه الحكم إلى أسرة هرقل. وقدر له أن يضع بيده نهايتها.

كان جستنيان يخطط منذ نفيه لاسترداد عرشه ونجح في الهرب من منفاه، ولجأ الى قبائل الخزر، الذي استقبله حاكمها استقبالا طيبا وزوجه من شقيقته. وعندما علم الامبراطور تيبريوس بذلك أرسل إلى خان الخزر يطالب بتسليم جستنيان إليه. فأعد خان الخزر العدة لتسليم جستنيان ولكن شقيقته، زوجة جستنيان، اكتشفت المؤامرة واعلمت زوجها بها فهرب جستنيان مع زوجته الى خان البلغار Trevel (٧٠١-٧١٨م) الذي قام بحماية جستنيان وساعده. ومن ثم استطاع جستنيان العودة الى القسطنطينية[١١٠] سنة ٧٠٥م، ومن ثم استطاع التسلل إلى داخل المدينة. ولما علم تيبريوس بما حدث، فر من العاصمة تاركا العرش لجستنيان ليحكم مرة أخرى من ٧٠٥-٧١١م[١١١]، وهي الفترة الثانية من حكم جستنيان الثاني الامبراطور الذي لا أنف له Rhinotmetus.

وكان من أبرز الأعمال التي قام بها جستنيان في تلك الفترة أنه أسرف فيما أغدقه من المنح والهبات على من ساعدوه في محنته، واشتد وأسرف في الانتقام من اعدائه. فقد منح تريفل Trevel الكثير من الهدايا بما في ذلك الشارات الملكية. كما قبض على الامبراطورين السابقين، ليونتيوس وتبيريوس، وطيف بهما في شوارع العاصمة

---

(١٠٧) يرى استراتوس ان ثيوفانيس كرر ذكر الحملة العربية في كليكيا مرتين جعل أزاد قائدا في المرة الأولى ويزيد بن حنين قائدا للمرة الثانية. في حين أنهما اسمان لشخص واحد.

(١٠٨) وهي فلافيوبوليس أو siska بالقرب من نهر بيراموس شمال شرق جبال طوروس وتقع عليه مدينة موبسوسيتا (المصيصة). أنظر حاشية (١٠٦) ويذكر استراتوس نقلا عن البلاذري أن الخليفة عبدالملك حاصر المصيصة بنفسه وارسل يزيد لقطع الطريق على القوات البيزنطية التي هرعت لانقاذ الحصن.

Strates, Ibid, P. 94, 399.

قارن Sheira, ibid, P. 170.

(١٠٩) Idem, p. 170.

(١١٠) Theophanese, Ibid, 371.

(١١١) Theophanese, Ibid, 370 - 371.

للتشهير بهما ثم أعدمهما في النهاية[١١٢] وكانت هذه الأعمال فاتحة للكثير من الاعمال الارهابية التي شملت كل من تخلوا عنه، حيث قام بإعدام أعداداً غفيرة من السياسيين والعسكريين ومثّل بهم ووضعهم في أكياس ثم قذف بهم إلى البحر. وأصبح الجميع في رعب تام[١١٣]. ولم يفكر جستنيان في مصلحة البلاد أو في تحسين أحوالها الداخلية أو العسكرية لمواجهة المسلمين، الذين نشطوا في تلك الفترة بالذات، وانما يبدو انه عاد لينتقم فقط.

وفي سنة ٧٠٨م قام جستنيان بخرق معاهدة السلام بين الرومان والبلغار حيث أمر كل فرسان الثيمات بالعبور إلى تراقيا. ولكن تلك الحملة منيت بالفشل وعاد إلى عاصمته خائبا[١١٤].

وإذا أردنا أن نعرض لسياسة الأمبراطور الخارجية بإيجاز لتبيّنا أنها تميزت بإقامة العلاقات الودية مع تريفل ملك البلغار كما أوضحنا، وكذلك كانت علاقته سلمية مع اللمبارد، وامراء كرواتيا والصرب، وبالرغم من أن هؤلاء كانوا تابعين له إلا أنهم تصرفوا باستقلالية في شؤون إماراتهم[١١٥].

أما بالنسبة لعلاقة بيزنطة بالدولة الاموية فقد اتسمت بمظاهر من الود وعندما أراد الوليد توسعة مسجد عمر في دمشق طلب من جستنيان أن يرسل إليه بعدد من العمال وقطع الفسيفساء ليزين بها المسجد. وكذلك أمده الامبراطور بمائة ألف قطعة من العملة الذهبية ومائة عامل وأربعين حملا من قطع الفسيفساء استعان بها في تزيين مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة[*] وقد يكون هذا مقبولا، أما الذي يجب التحقق منه أن جستنيان أمد الوليد بعمال مهرة سواء كانو بيزنطيين أو من قبط مصر.

على أي حال هناك تضارب في الأقوال بين المصادر العربية والبيزنطية عن حدوث إغارات من جانب العرب لم يثبت صحة بعضها في رأي ستراتوس. في حين أن شعيرة يرى أن العرب لم يتوقفوا عن شن الاغارات من ٧٠٦ إلى ٧١١م. وهدفهم ايقاف كل تهديد يأتيهم من ثيم الأناضول. وفي السنوات الثلاث التالية كان العرب قد نجحوا في شن هجمات، نجحت في ظل الظروف التي واكبت وفاة الامبراطور، أن تصل إلى عمق أسيا الصغرى ولم يتوان الوليد في استغلال الفرصة بعد أن رأى الطريق مفتوحا إلى

(١١٢) Idem, 372.

(١١٣) Idem, 375.

(١١٤) Idem, 377.

(١١٥) Stratos, Ibid, Vol. v. P. 140 - 143.

(*) انظر ابن الاثير المصدر السابق ج٤ ص ١٠٩.

القسطنطينية نفسها ليهاجمها ويضرب ضربته.

ومن أهم المعارك التي دارت بين الجانبين البيزنطي والعربي تلك التي حدثت بسبب (الطوانة) Tuyane التي تقع في جنوب قبادوقيا وتتحكم في ممرات جبال طوروس وكانت تدعم حصون كيليكيا وسارع الامبراطور إلى نجدتها واستولى عليها مسلمة بن عبدالملك والعباس ابن الخليفة الوليد. وتابع مسلمة الهجوم في كليكيا واحتل بعض قلاعها. ولم تتوقف هجمات العرب طوال عصر جستنيان وكان الرد البيزنطي شن إغارات بحرية على مصر واحتلال الأسطول البيزنطي لدمياط[١١٦].

وفي أرمينيا تجدد الصدام بين العرب والبيزنطيين. وكان محمد بن مروان لايزال يحكم ارمينيا. وخلفه مسلمة بن عبدالملك. وقد ازعج الوليد تحالف البيزنطيين مع الخزر. فكلف ابنه عبدالعزيز للتفاوض مع سمبات Sembat، الأمير الأرميني، والذي حرص على الحصول على ضمانات ليس فقط بالنسبة لنفسه، ولكن أيضا بالنسبة للنبلاء الأرمن الذين كانوا قد نفوا من أرمينيا.

وحاول جستنيان عبثا استرجاع الوجود البيزنطي في منطقة القوقاز، ولكن العرب لم يمكنوه من ذلك وفشل قائده ليو، في تحقيق أي نجاح فآثر العودة إلى القسطنطينية فوجد أن الامبراطور قد قتل.

في عام ٧١١م تذكر جستنيان أن أهالي خرسون قد قاموا بالتآمر ضده ولذلك أرسل حملة لتأديب أهلها. وقاده تفكيره المريض إلى القضاء على جميع الذكور من سكان خرسون فقامت ثورة ضده وأعلن الثائرون Bardanes Philipicus فلبيكوس الأرمني أمبراطورا والذي فتحت له القسطنطينية أبوابها، وقتل جستنيان على يد أحد ضباطه وانتهى حكم الأسرة الهرقلية وسط تلك الثورة الدرامية[١١٧].

ولم يكن الامبراطور الجديد هو الرجل المناسب ليأخذ بيد سفينة الدولة نحو شاطىء النجاة، بل قد زادها اضطرابا على اضطرابها. ومع تفاقم الفوضى عزل فلبيكوس وعين بدلا منه أحد الوزراء، وهو أرتيموس انستاسيوس Artemius Anastastus [١١٨]، الذي حكم من ٧١٣ - ٧١٥م ومن أهم الأعمال التي قام بها أنه استطاع أن يتنبأ بأن المسلمين يعدون العدة لحصار القسطنطينية، فقد أرسل سنة ٧١٤م سفارة إلى

---

(١١٦) Idem Vol. v. pp. 141 - 155.
Cheira, Ibid pp. 170 - 2.
(١١٧) Theophanese, Ibid, 378.
(١١٨) Theophanese, Ibid 378 - 379.

الوليد في سوريا لمناقشة معاهدة سلام معه، وقد أمر رئيس البعثة بأن ينظر بعين فاحصة إلى تجهيزات العرب وتقدير قوتهم. وعند عودة البعثة قدم تقريرا إلى الامبراطور أخبره فيه أن حملة عظيمة تجهز لمهاجمة الروم.

وقد قام الامبراطور بإصدار تعليمات إلى كل الرجال، القادرين على تموين بيوتهم، بتخزين مؤن تكفيهم لمدة ثلاث سنوات، أما غير القادرين على ذلك فعليهم مغادرة المدينة. وبدأ في الاستعداد لتلك الحملة ببناء السفن وقاذفات النار الاغريقية. كما انه قام باصلاح أسوار المدينة من جهة البر والبحر. كما قام بتجهيز رماة السهام ورماة المنجنيق، وقام بتخزين الكثير من المؤن قدر استطاعته وقوى المدينة بكل مايملك[١١٩].

وعندما علم أن العرب أبحروا من الاسكندرية إلى Phoenicia ليقوموا بقطع اشجار السرو Cypress، وجهّز عدداً من السفن السريعة لتهجم عليهم من ثيم الاوبسيق وأمرهم بالتجمع في رودس. وقد اصدر تعليماته إلى الجنود انه عندما يذهبون إلى Phoenicia عليهم بحرق الغابات والمعدات التي يجدونها[١٢٠]. وكان ذلك في سنة ٧١٤م. أما سنة ٧١٥ فتشهد ميلاد أسرة أمبراطورية جديدة هي الأسرة الايسورية.

ولانتردد في أن نحكم بالفشل على سياسة جستنيان بعد عودته إلى عرش الأمبراطورية، فقد أصابه وأصاب الامبراطورية انهيار عام قد يكون مسؤولا عنه إلى حد كبير. أو لعل الامبراطورية في وضعها الجديد لم تكن في استطاعتها مواجهة عدو احدق بها في الشرق، فطارد نفوذها في ارمينيا والقوقاز وآسيا الصغرى، وفي الغرب طردها كلية من شمال افريقيا. وأصبح في طريقه إلى السيطرة على غرب البحر المتوسط، ومحاصرة بيزنطة وفي سبيله إلى غزو اسبانيا والتهام أوربا.

(١١٩) Theophanese, Ibid, 385 أيضا الطبري، ج ٦، ص ٤٥٤ - ٤٩٢.

(١٢٠) Theophanese, Ibid, p. 80 ابن الأثير: ج ٤، ص ١٢٤ - ١٢٥.
أيضا: Brooks, Ibid, P. 416.

الفصل الثاني

حدود الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع

أثارت وفاة موريس والمذبحة التي راحت ضحيتها أسرته مسألة الحدود في الجنوب والشرق. وبدأ خسرو، الملك الفارسي، بمظهر المنتقم لمقتل الامبراطور الذي أحسن اليه. فغزا خسرو ميزوبوتاميا (Mesopoptamia) "الجزيرة الفراتية" في ربيع ٦٠٤م وحاصر دارا، المدينة الحصينة ومفتاح الدفاع البيزنطي. وألحق الهزيمة بجيش البيزنطيين. وبعد حصار استمر من ١٨ - ٢٤ شهرا، استولى على المدينة. وفي ذلك الوقت اقتحم جيش آخر أرمينا واستولى على عاصمتها Theodossiouspolis أو كارين كما يطلق عليها. وتغلغل الجيش الفارسى في العمق البيزنطي داخل قيصرية، والتي احتلها بعد ذلك بعام.

ودخل كذلك الجيش الفارسى إلى عمق ميزوبوتاميا وأرمينيا الرابعة واحتل في عام ٦٠٧م مدينة اديسا "الرها" وفي عام ٦١١م استولى على انطاكية وحمص. وهناك أوقفته هجمة مضادة للبيزنطيين. وعبر الجيش الفارسي الثاني كليكيا وأعاد احتلال قيصرية في عام ٦١١م التي كان الجيش البيزنطي يحاصرها. وفي عام ٦١٢م أخلى الفرس المدينة[١].

وفي عام ٦١٣م كانت بيزنطة وعلى رأسها هرقل تسعى إلى استرداد سوريا وطرد الفرس منها، ولكن بعد معركة غير حاسمة هزمت الجيوش البيزنطية فاضطروا إلى اخلاء سوريا، وكذلك كليكيا. وعاود الفرس زحفهم فاحتلوا دمشق وسوريا، ثم في عام ٦١٤م اعادوا كذلك غزو فلسطين وعاصمتها أورشليم "القدس" ثم دخلوها. واستولوا على الاسكندرية في هجوم مفاجيء عام ٦١٩م ومن غير المؤكد احتلالهم لليبيا.

وفي الشرق في ابيريا "جورجيا" بعد أن شهد الارشيدوق اسطيفانوس Stephanos

(١) Stratos, Les Frontieres Dlempire ucours Du V11 Siecle, in (Studies in 7th Century Byzantine Political History (London, 1983) P. 462.

في عام ٦٠٨/٦٠٧م هزيمة البيزنطيين تخلى عنهم ودخل في طاعة الفرس.

وفي Lazica لم تحدث أي غزوة، ولكن ازاء مالقى أهلها من اهانات من بيزنطة خضع بعض سادتهم للفرس واعترفوا بالتبعية لهم.

وهكذا خلال الربع الأول من القرن السابع طرأت على حدود الامبراطورية في الجنوب والشرق تغييرات جذرية. فقد البيزنطيون مصر وفلسطين وسوريا وميزوبوتاميا، الجزيرة، وكل أرمينا، (الخارجة)، البيزنطية، وبعض مناطق من الولايتين الأرمينيتين الأولى والرابعة وايبريا وولاء بعض سادة لازيكا للفرس. وكذلك أجزاء من كيليكا[٢].

وفي الوقت الذي شنت فيه بيزنطة هجمات مضادة في خريف عام ٦٢٢ كان الفرس يحتلون خطا متاخمًا لحدودهم، يمتد في الشمال من سوريا وحتى Sa- (Sandagh)* tala، وبذلك غلبوا على ذلك الجزء من كيليكيا الذي احتلوه. وممرات جبال طوروس، وأجزاء من ولايات ارمينيا، وسيطروا بصفة خاصة على الطرق الكبرى التي تتقدم منها الغزوات البيزنطية. وهو الطريق الملكي الذي يصل بين ميلنين وسمساط Samazate وبين طيسفون وطريق الشمال الذي يؤدي من Satala وثيودوسيوبوليس إلى ميديا Media**، وهذا الخط أصبح هو خط الحدود الجنوبية الشرقية للامبراطورية البيزنطية[٣].

قام البيزنطيون بهجوم مضاد ناجح على الفرس في عام ٦٢٢م واستعادوا كل الولايات البيزنطية حتى Satala في سنة ٦٢٣م. وعاد الصراع مرة أخرى مع الفرس في عام ٦٢٤م وتوغلوا بعمق في أراضيهم وحرروا أرمنية البيزنطية الخارجة، وأعادوا سيطرتهم على ولاية أرمينيا الرابعة في عام ٦٢٦/٦٢٥م. وكذلك عادت لازيكا لتعترف بسيادتهم في عام ٦٢٦م. وبعد عدة معارك وحصار استولوا على تفليس وايبريا (جورجيا الحالية) وجعلوها ولاية واحدة، ووضعوها تحت حكم أمير أقامته بيزنطة. وهكذا ولأول مرة وبعد عدد من السنين استقرت حدود الامبراطورية في الشرق.

وتابع هرقل جهوده ليضع حدا للحرب مع الفرس وتوغل في أراضيهم وانتصرت جيوشه في نينوى سنة ٦٢٧م. وزحف الى طيسفون. ووقع الصلح مع ملك الفرس الجديد قباز في مارس ٦٢٨م. وأعاد البيزنطيون احتلالهم لميزوبوتاميا ومعها اديسا (الرها). ولكن هرقل لم يستطع عبور الفرات لأن القائد الفارسي Sahrbaraz، رفض الجلاء عن

---

(٢) Stratos, Ibid, P. 426.

(*) Satala مدينة تقع بين بونطس وارمنيا وتعتبر مفتاح الطريق بينهما.

(* *) Media هي اذربيجان وعاصمتها Ganzac.

(٣) Idem, P. 427.

الولايات الشرقية. في عام ٦٢٩م بعد اتفاق عقد بين هذا القائد وبين هرقل حقق البيزنطيون جلاء الفرس عن مصر وفلسطين وسوريا.

وبذلك أصبحت الحدود الجنوبية لبيزنطة هي ما كانت عليه بمقتضى معاهدة ٥٩١م. وأجريت بعض التعديلات في أرمينيا حيث عين Varastirots Pagratouni مارزبان على أرمينيا الفارسية في عام ٦٢٨م. ولما أحس بضعف الفرس لجأ إلى بيزنطة[٤].

وفي عام ٦٣٨م أقام هرقل داود زهاروني David Zaharouni أميرا على أرمينيا، الفارسية السابقة، وخلع عليه لقب Curopalate[٥]. غير انه بعد هذه الانتصارات على الفرس ووضع حد للحرب معهم، وبعد أن تهيأت بيزنطة لتلعق جراحها فاجأها خطر جديد تمثل في الجماعات العربية المسلمة التي اندفعت من شبه جزيرة العرب. وتوحدت مع الجماعات العربية المسيحية من عرب الثغور Limes الفلسطينية والسورية. وهاجمت فلسطين وسوريا. وعلى أيدي هذه الجماعات عانت بيزنطة هزائم متتابعة.

لقد مهد رسول الله ﷺ لغزو البيزنطيين بغزوتين في حياته هما غزوة مؤتة، ٨هـ / ٦٢٩م وغزوة تبوك عام ٩هـ/ ٦٣٠م[٦]. وكانت تلك الغزوات أشبه بمناورات حربية. في المنطقة الواقعة بين أراضي الروم وشبه الجزيرة العربية. حيث كانت تلك الغزوات وماتلاها مؤشرات وارهاصات تومىء إلى الفتوحات الكبرى[٧]. ويبدو أن الهدف من تلك الغزوات العسكرية والبعوث الدبلوماسية التي أرسلها رسول الله ﷺ هو الربط بين المدينة والشام، وذلك عن طريق ربط سكان تلك المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان. وهذه الاجراءات ضرورية لحماية القوات الاسلامية في جهادها مع الروم[٨].

---

(٤) Idem, P. 427.

(٥) Seboes - ibid P. 32.

Theophanes, Ibid, 329 - 33.

(٦) خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط، ط ٢، ص ٨٦-٨٧، ٩٢. أيضا الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسون جونس ج ٣، ط ٣، بيروت ص ٩٨٩ - أيضا البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧١.
اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج ٢، دار صادر بيروت، د.ت، ص٦٥، ٦٧.
الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر، ج٣، ص ١٠٠-١١١.

(٧) لتفاصيل أكثر أنظر: إحسان عباس، فتح بلاد الشام، الندوة الثانية من المؤتمر الدولي٤٩ الرابع لتاريخ بلاد الشام، المرجع السابق، ص ١٢١ وما يليها.

(٨) صالح درادكه: المرجع نفسه، ص١٢٤.

وفتحت دمشق سنة ١٤هـ/٦٣٥م وكانت وقعة اليرموك في سنة ١٥هـ/٦٣٦م[٩] ويذكر البلاذري أن هرقل لما بلغه ما جرى في معركة اليرموك هرب من انطاكية إلى القسطنطينية فلما جاوز الدرب قال: (عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو. يعني أرض الشام لكثرة مراعيها)[١٠].

إن الهزائم المتتابعة التي عانتها بيزنطة على يد العرب كانت بفضل كراهية شعوب هذه المناطق لحكم البيزنطيين. لقد استولى المسلمون في مدى سنتين ونصف على فلسطين فيما عدا المدن الحصينة ومدن الساحل. وكذلك استولوا على جانب من سوريا، وكرت عليهم بيزنطة وأرغمتهم على الانسحاب إلى الصحراء، ولكن على ضفاف اليرموك دمر الجيش البيزنطي، واحتل العرب فلسطين وسوريا من جديد ولم يعد للبيزنطيين سوى المدن الساحلية المحصنة.

وبعد أن انفرد معاوية بحكم الشام، قام بفتح المدن الساحلية والتي كانت لاتزال في أيدي البيزنطيين. اما المدن التي فتحها المسلمون مثل دمشق وحمص فقد كانت مدنا داخلية. وقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في المنطقة الداخلية والتي سارت فيها القوافل التجارية من مكة والمدينة إلى دمشق. وعلى هذا الطريق نفسه امتدت العمليات الحربية الاسلامية من شرق الأردن وحتى المناطق الشمالية، التي تشمل حمص وحماة وأنطاكية، تاركين المنطقة الساحلية التي فصلتها سلسلة جبال لبنان عن المنطقة الداخلية، والتي كانت موضع اهتمام البيزنطيين حيث أقاموا بها معاقل وحاميات للدفاع عنها[١١].

وقد وضحت خطورة بقاء المدن الساحلية ولاسيما صور وعكا في أيدى البيزنطيين. إذ جاءت الامدادات البيزنطية من هذه المنطقة بالذات، وبناء على ذلك فقد فتح معاوية عرقه وقيصارية في عهد عمر رضي الله عنه. وفي عهد عثمان فتح طرابلس التي تعتبرميناء دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية[١٢].

---

(٩) خليفة بن خباط، المصدر نفسه، ص ١٣٠. اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤١. الطبري، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٩٤. البلاذرى، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(١٠) البلاذرى. المصدر نفسه، ص ١٤٢.
لتفاصيل الحروب ين المسلمين والبيزنطيين ودور الأرمن فيها أنظر:
Seboes, Histoire'd Heraclius, Ch. XXXi P. 99.
والجدير بالملاحظة أن جيفوند كتب سردا مطولا فاق سبيوس الذي نقل عنه، بل فاق في سرده التاريخي كل المصادر الأرمينية والاسلامية والبيزنطية والسريانية. أنظر جيفوند، الفتوحات السلامية لارمينية - ترجمة فايز نجيب اسكندر، ج١، ص ٩٩. ومايليها هامش ١٥٩.

(١١) العدوي، ابراهيم احمد، الامويون والبيزنطيون، ط ٢، ص ٥٤-٥٦.

(١٢) العدوي، فتوح الشام، دار الجيل، ج١، ص ٣٠ - ٣١.
أيضا: البلاذرى المصدر السابق، ص ١٣٣.
أنظر: جيفوند: الفتوحات الاسلامية لأرمينية، ص ٤٠، هامش ١٨٥.

وفي سنة ٦٣٩م، عبر العرب الفرات وفتحوا الرها، بدون مقاومة، واحتلوا ميزوبوتاميا ثم عبروا نهر دجلة واحتلوا أرمينيا الرابعة، ومعها مدينة آمد Amida وسقطت سميسطاط Samosate شمال شرق الرها بدون مقاومة. وبهذا يتضح انه في خلال أقل من سنة فقدت بيزنطة منطقة ميزوبوتاميا.

ثم جاء فتح المسلمين لمصر في سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م[١٣] ثم تلا ذلك اقليم البنتابوليس، المدن الخمس، في شرق ليبيا. ثم هاجموا طرابلس غير أنهم جلوا عنها. ومكنوا لأنفسهم في البنتابولس[١٤].

وفي عام ٦٤٠ أرهق العرب المناطق الأرمينية الواقعة الى الجنوب من بحيرة فان واحتلوا Bittlis بتليس ولكنهم لم يدخلوا أرمينيا قبل ٦٤٢م وقاومتهم Dovin (دوفن). وعاد العرب في ٦٤٣-٦٤٤م ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على أى مدينة. وعقد ثيودور رشتوني Theodore Rstouni، مع معاوية معاهدة في عام ٦٥١-٦٥٢م بمقتضاها خضعت أرمينيا للعرب وذلك في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان[١٥]. ولكن الأرمن الغربيين لم يوافقوا على هذا الاتفاق وكذلك فعل البيزنطيون[١٦]، وغزا جيش عربي سنة ٦٥٣م أرمينيا، التي كانت تحت حكم الفرس، ودخلوا دوفن Dovin ثم احتلوا Theodossious polis واحتلوا تقريبا كل أرمينيا البيزنطية الخارجية[١٧].

وغزا العرب أيضا Albanie القوقازية وابيريا "جيورجيا" وخضعت لهم كل هذه المناطق بعد سقوط تفليس. وفي سنة ٦٥٥-٦٥٦ أصبح في يد العرب كل أرمينيا الفارسية والبيزنطية وجورجيا وألبانيا القوقازية[١٨].

آسيا الصغرى

لم يفتحها العرب. بل فضلوا تنظيم فتوحاتهم السابقة على أن يفتحوا أماكن جديدة. وأعادوا فتح Melitene ملطية، جنوب شرق الأناضول، حيث انشأوا بها قلعة واقاموا بها حامية[١٩]، وستكون هذه المدينة قاعدتهم التي سيشنون منها حملاتهم ضد

(١٣) خليفة بن خياط، المصدر نفسه، ص ١٥٥. الطبري، المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٤١.
(١٤) خليفة بن خياط، المصدر نفسه، ص ١٤٤.
(١٥) لتفاصيل فتوح أرمينيا، أنظر البلاذري: المصدر نفسه، ص ١٩٧.
أيضا: Michael The Syrien, 11, P. 426.
(١٦) Stratos, Ibid, P. 428.
(١٧) Idem, P. 428.
(١٨) Idem, P. 429.
أيضا: Sebeos, Ibid P. 146.
أيضا: Theophanes, Ibid. 345.
(١٩) البلاذري، ص ١٨٩ - ١٩٠.

بيزنطة. وعبثا حاول البيزنطيون والأرمن استعادة ميزوبيوتاميا، الجزيرة، ومن الممكن أن يكون معاوية في اغارته على آسيا الصغرى قد دمر كل قلاع كليكيا في عام ٦٤٧م(٢٠). وشيئا فشيئا استقرت الحدود عند جبال طوروس وكليكيا، وكان على القوتين المسلمة والبيزنطية دعم خطوطهما الدفاعية عند هذه الحدود(٢١). وهناك رأي يقول: أن آسيا الصغرى تحميها جبال طوروس من جهة ومناخها القاسي من جهة أخرى، وقد استغل هرقل هذه الأمور لجعلها تخوم دفاعية. كما انه قام باخلاء سهول كليكيا وجعلها منطقة حدود فاصلة بينه وبين العرب (٢٢)، ونستدل على اخلاء المنطقة المشار اليها من السكان من البلاذري، الذي يذكر أن هرقل نقل أهل هذه الحصون(٢٣) معه وشعبها (فكان المسلمون إذا غزوا لم يجدوا بها أحدا، وربما كمن عندها القوم من الروم فأصابوا غرة المتخلفين عن العسكر)(٢٤).

وعند وفاة عثمان في عام ٦٥٦م/٣٥هـ، امتدت حدود بيزنطة في الجنوب بطول خط من سلسلة جبال طوروس الكليكية إلى شرق Satala ولازيكا Lazica.

وفقدت بيزنطة سوريا وفلسطين ومصر وليبيا وميزوبوتاميا وارمينيا الفارسية وأرمينيا البيزنطية الخارجية وولاية أرمينيا الرابعة، وجانباً من ارمينيا الثانية وجانباً من كليكيا وكل ابيريا (جورجيا)، والقوقاز(٢٥).

النصف الثاني من القرن السابع

كانت حدود بيزنطة في الشرق والغرب عرضة لتغييرات في مناطق شاسعة في حين أن الحدود الجنوبية كانت مستقرة بدرجة أكبر أو أقل.

أولا - في عام ٦٦١م: وبعد أن أصبح معاوية الخليفة الأوحد للمسلمين انقلب الأرمن على حكامهم العرب(٢٦).

في عام ٦٨٦-٦٨٧م توغل القائد ليونتس Leontios، والذي ربما كان قائداً برتبة

(٢٠) غزا معاوية عمورية في سنة خمس وعشرون، ووجد الحصون فيما بين انطاكية وطرسوس خالية، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة. ثم غزا بعد ذلك بسنة أو سنتين. أوجدت في كتاب مغازى معاوية انه غزا سنة إحدى وثلاثين من ناحية المصيصه فبلغ درولية فلما خرج جعل لايمر بحصن فيما بينه وبين انطاكية إلا هدمه. البلاذري - المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٢١) Brooks, The expansion of the Saracens, in C.M. H. Vol.11, P. 393. Stratos, Ibid, P. 429.

(٢٢) فيليب حتى - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج ٢، ترجمة كمال البازجي، بيروت ١٩٥٩م، ص ٤٦.

(٢٣) الحصون فيما بين الاسكندرونة وطرطوس.

(٢٤) البلاذرى، المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٢٥) Stratos, Ibid, P. 429.

(٢٦) جيفوند: الفتوحات الاسلامية الأرمينية، ترجمة وعرض فايز اسكندر، ص ٥٨-٥٩.

Patrician لثيم الارمنياك في أرمينيا ، وهزم العرب واحتل ارمينيا واحتل ابيريا والبانيا القوقازية ونهب ميديا[٢٧]. واستسلمت له المناطق الواقعة جنوب القوقاز البيزنطية. وأقيم سمباط بجراط Sombat Bagratouni حاكما على ارمينيا[٢٨]. وكالمعتاد وبعد عدة سنوات تدهورت العلاقات بين أرمينيا وبيزنطة واستغل سمباط فرصة هزيمة البيزنطين في Sebastopolis في عام ٦٩٣م، وانضم إلى العرب. ودخل أرمينيا جيش عربي، وذلك بموافقة الأمراء الأرمن المحبين للعرب والذين طالبوا البيزنطيين بالجلاء عن الاقليم[٢٩].

وفي عام ٦٩٨م عاد البيزنطيون إلى أرمينيا من جديد ولكن لم يستطيعوا الاستمرار في البقاء فيها ، حيث أن العرب احتلوا من جديد Theodossioupolis إلى الأبد. وغير سمباط سياسته وانقلب على العرب ولكنه لم يستطع البقاء في ارمينيا ، واضطر إلى التقهقر مع قومه إلى منطقة قريبة من الحدود البيزنطية. وأمام الخطر المحدق بلازيكا من كل جهة اضطر البطريق، Serge، حاكم الاقليم، إلى الاستسلام للعرب في عام ٦٩٨[٣٠].

ثانيا: آسيا الصغرى: بدأت الغزوات العربية الكبرى عام ٦٦٣م وأخذت تلك الاغارات اسم الصوائف والشواتي. حيث صار المسلمون يغيرون على آسيا الصغرى باستمرار. وفي ذلك يقول اليعقوبي: (غزا أمراء الشام على الصوائف فسبوا في بلاد الروم سنة بعد سنة)[٣١]، أما عدد تلك الغزوات فيزيد على ستة عشر غزوة امتدت من سنة ٤٢هـ إلى ٥٩هـ.

لقد اتجه المسلمون إلى العناية بالبحر بصفة خاصة وذلك بعد محاولة بيزنطة استعادة الاسكندرية سنة ٢٥هـ/٦٤٥م على عهد الامبراطور قنسطانز الثاني. لقد فكر المسلمون في حماية المدن الساحلية وذلك من جهة جزيرة قبرص والتي كانت شوكة في ظهر المسلمين فغزاها معاوية سنة ٢٨هـ/٦٤٨م غزوة أولى، وصالح أهلها على جزية يؤدونها له. ثم نقضوا عهدهم، وأعانوا الروم بامدادهم بالمراكب فغزاهم معاوية مرة ثانية

(٢٧) Theophanes, Ibid, 363.
. Bury, Ibid, Vol. II, P. 331
(٢٨) Stratos, Ibid, P. 430.
(٢٩) Theophanes, Ibid, P. 366.
(٣٠) Theophanes, Ibid, P. 379.
(٣١) اليعقوبي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٢١٧.
أيضا: Stratos, Ibid, P. 435.

سنة ٣٣هـ/٦٥٤م حيث فتح قبرص عنوة وأقر أهلها على صلحهم[٣٢].

وكانت الاغارة على قبرص بداية نشاط بحري اسلامي اتسم أيضا بطابع الاغارات السنوية صيفا وشتاء على الجزر البيزنطية في حوض البحر المتوسط الشرقي والتي كانت تتمتع بمواقع استراتيجية هامة. ففي سنة ٣٣هـ/٦٥٤م تعرضت رودس Rhodes لغارات المسلمين. ثم سقطت في ايديهم جزيرة كوس Cos. وبعدها اتجه المسلمون إلى جزيرة كريت Crete، اقريطش. ثم كانت موقعة ذات الصواري، وهي المعركة الفاصلة التي أنهت السيادة البيزنطية على البحر المتوسط. حيث انتهت بفوز المسلمين وهزيمة البيزنطيين هزيمة نكراء. وبعدها لم يعد (بحر الروم) بحرا روميا خالصا بل استولى على معظم جزائره العرب المسلمون. وأصبح المسلمون فيه قوه بحرية يعمل لها ألف حساب.

وفي عام ٦٧٤م حاصر اسطول اسلامي القسطنطينية دون أن يستطيع اقتحام تحصيناتها. ومن هناك تقدم العرب حتى جزيرة كيزكوس Cyzocus* في بحر مرمرة. واستمر حصارهم للقسطنطينية مدة تزيد على الخمس سنوات بدون انقطاع[٣٣]. واخترع كالينيكوس، المهندس الاغريقي من سوريا، النار الاغريقية التي ألحقت خسائر فادحة بالمسلمين والتي حملتهم على الانسحاب. ويذكر كل من ثيوفانيس وميكائيل السرياني انه في نفس الوقت أو الفترة عاني جيش عربي على يد الجيش البيزنطي في آسيا الصغرى، ولتشتيت البيزنطيين لجهود الجيش العربي ولصرفهم عن توجيه ضرباتهم، قاموا بنقل المزارعين من المقاتلين من أمانوس. وبمساعدة عناصر مسلحة دخلوا سوريا ما بين عامي ٦٧٧-٦٧٨[٣٤].

الجراجمة أو المردة :

وهم مسيحيون تدعمهم قوات بيزنطية استوطنوا جبال لبنان وشنوا حرب عصابات ضد العرب وتسللوا قريبا من أورشليم. واضطر معاويه إلى توقيع الصلح مع البيزنطيين. وقبل دفع جزية لهم. واتفق معهم على اقتسام دخل ارمينيا وقبرص وايبريا[٣٥].

(٣٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ١٥٧ - ١٥٨.
(*) وهي جزيرة أرواد.
(٣٣) يورد ثيوفانيس أن حصار القسطنطينية استمر ٧ سنوات. أنظر الكتاب أعلاه.
(٣٤) Theophanes, Ibid, P. 355.
أيضا: Michael The Syrian, 11, P. 469.
(٣٥) Theophanes, Ibid, 355, 363.

وبعد وفاة معاوية، آلت الخلافة الى ابنه يزيد فأمر هذا باخلاء قبرص ورودس، التي لم يكن العرب قد احتلوها بالكامل وذلك عام ٥٣هـ/٦٣٧م[٣٦].

وفي عام ٦٧٢ - ٦٧٣م شيد العرب حصنا في رودس وانزلوا بها حامية عسكرية مما أعاق تحركات الأسطول البيزنطي.

وجدد عبدالملك معاهدة الصلح. ولكي يخفف من ضغط الجراجمة عرض على البيزنطيين أن يزيد في المبالغ التي يدفعها لهم وأن يتنازل عن Mopsueste المصيصة إذا قام البيزنطيون بابعادهم عن سوريا[٣٧] وذلك عام ٦٩هـ.

ثالثا: افريقيــــا

اجتاح العرب طرابلس Byzacene وأخضعوا طرابلس وجنوب Byzacene وفي عام ٦٦٥/٦٦٦م دخل معاوية بن حديج حتى بيزاسين. وفي السنة التالية أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان. وفي سنة ٦٨١-٦٨٣م كان مصرع عقبة على يد كسيلة، ملك البربر. الذي احتل القيروان. وكان البربر بمساعدة كتائب من البيزنطيين يحرسون المدن الحصينة[٣٨].

وفي عام ٧٨هـ/٦٩٧م استعاد حسان بن النعمان القيروان، وهاجم قرطاجة عاصمة افريقيا واستولى عليها. وتاريخ الاستيلاء على قرطاجة موضع خلاف بين ثيوفانيس والنويري والمالكي[٣٩]. ورد البيزنطيون على الفور حيث قدم البطريق جان بأسطول قوي واستعاد المدينة. ولكن حسان، بمساعدة الخليفة عبد الملك، حملهم على الجلاء عنها. ودان للمسلمين بعدها وبسرعة فائقة ساحل افريقيا الشمالي[٤٠]. في حين فرت العناصر اللاتينية أو المتأغرقة إلى أسبانيا وسردينيا وصقلية. وتم لحسان السيطرة على كل الشمال الأفريقي بعد مصرع الكاهنة. ولم يتبق للبيزنطيين سوى حصن

---

(٣٦) Stratos, Ibid, P. 431.

(٣٧) أنظر البحث أعلاه. ص ١٥٦.
أيضا: Theophanes, Ibid, 371.
أيضا: Mechael The Syrian, 474.

(٣٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ١٥ - ١٨.
المالكي، رياض النفوس، ج ١، ص ٢٩.
ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٣، ص ٢١.
ابن الرقيق، تاريخ افريقيا والمغرب، ص ٥١ - ٦٧.
Stratos, Ibid, P. 431.

(٣٩) يذكر ثيوفانيس تاريخ الاستيلاء على افريقيا سنة ٦٩٨ أنظر: Theophanes, Ibid P. 370.

(٤٠) Stratos, Ibid, P. 432.

سبتة Septem [٤١].

حدود الامبراطورية في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن:

أولا في الجنوب والجنوب الغربي:

ضاعت افريقيا من الامبراطورية فيما عدا سبتة وجزر البليار وبعض نقاط الساحل. وسقطت إما في ايدي القوط الغربين من اسبانيا أو في أيدي العرب.

آسيا الصغرى

لم يستطع العرب الاستقرار فيها بالرغم من تكثيف حملاتهم عليها. كما فقدت الامبراطورية كلا من لازيكا وأرمينيا. وكذلك فقدت مدينتي Kamacha و Mopsueste* المصيصة الحصينتين، وجانبا من كليكيا[٤٢]. وأصبح خط الحدود في تلك المنطقة يتبع خطا مثاليا من شرق ولاية بنطس وإلى الغرب من ثيودوسيوس بوليس، كارين، إلى الشرق من Flavipolis Sission، فلافيوبولس، وإلى الغرب من المصيصة Mopsueste، وبذلك تحددت لكل من الدولة الاسلامية والبيزنطية حدودهما عند جبال طوروس في كيليكا ويطول خط مثالي يصل مابين Sission وبين البحر الأسود[٤٣].

ثانيا: في الشرق:

احتفظت بيزنطة وباستمرار بممتلكاتها في القرم مع عاصمتها خرسون.

ثالثا: في الشمال:

تعرض خط الحدود لتغيرات بسبب البلغار الذين احتلوا في عام ٦٧٩-٦٨١م المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال البلقان والدانوب.واستقر الكروات والصرب في الشمال من نهر الدانوب وإلى الجنوب من نهر سافا Sava[٤٤].

---

(٤١) Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 140 - 141.
أيضا: Stratos, Ibid, P. 432.
أيضا: Brooks, Ibid, P. 410.
لتفاصيل فتح شمال افريقيا والذي مر بستة مراحل أنظر:
حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، ١٩٤٧م، أيضا لمناقشة الخلاف حول التاريخ المشار إليه، أنظر المرجع نفسه.
أيضا: حسين مؤنس، فجر الأندلس، جدة، ١٩٨٥م، ط ٢، ص ٣٦ - ٤٤.
(*) Mopsueste هي المصيصة
(٤٢) Stratos, Ibid P. 432.
(٤٣) Stratos, Ibid P. 433.
(٤٤) Stratis, Ibid, P. 433.

وكان البيزنطيون يحتفظون باستمرار بمدن ساحل دالماشيا. وجمعوا ممتلكاتهم مابين كل من استريا Istria وفنيسيا Venetie، والحدود على البحر الأسود كانت تتبع سلسلة جبال البلقان، ثم تصعد في اتجاه الدانوب على الشرق من بلغراد. ومن نهر سافا Sava حتى تنحدر بطول سلاسل جبال الالب في دالماشيا حتى تبلغ شمالى Dyi-rachium تقريبا(٤٥).

رابعا: في الغرب:

أثناء النصف الأخير، الثاني، من القرن السابع حدث تغير في الحدود في الغرب. فمنذ عام ٦٤٠م واللمبارديون يهاجمون ليجوريا، في جنوب شرق إيطاليا، وأصبحت لهم السيادة بصفة قاطعة بموجب معاهدة ٦٥٢م. وفي فترة غزو العرب لمصر وافريقيا تدفق على صقلية وجنوب ايطاليا إلى رافنًا جموع حاشدة من اللاجئين المتأغريقين مما عجل بأغرقة كلابريا Calabria وصقلية(٤٦).

وأثناء الربع الأخير من القرن السابع انتهز دوق بنفينتيوم Beneventum ماكانت تعاني منه الأمبراطورية من متاعب واستولي على برنديزي وبارى Bari، واقليم اتريتم، وفيما بعد على Sora وأربينوو Roccadarce، وهي مدن تتاخم المنطقة الواقعة جنوب دوقية روما.

وفي أوائل القرن الثامن استطاعت الأمبراطورية أن تبقى بالرغم من فقدها مناطق واسعة وغنية. وأن تتجاوز الأزمات الكثيرة التي كان من الممكن أن تقضى عليها. وكان لها حدود ممتدة وعلى درجة كبيرة من القوة تكفى لجعلها تواجه أعداءها الكثيرين الذين كانوا يشنون عليها هجماتهم. وأن ذلك يمكنها من أن تتم رسالتها وهي المحافظة على الحضارة الاغريقية الرومانية(٤٧).

علاقة بيزنطة بالغرب في القرن السابع

مما سبق يتضح لنا أن قبضة الامبراطورية قد ضعفت في الغرب، مع ذلك فقد تبقى لها بعض الممتلكات. وهنا يحق لنا التساؤل إلى أي حد كان للامبراطورية سلطة حكم حقيقية أو فعالة في الغرب؟ وماهي علاقة الشرق بالغرب في القرن السابع؟ وهل فرضت بيزنطة حكمها على القبائل السلافية الجنوبية؟.

---

(٤٥) Idem, P. 434.

(٤٦) Idem, P. 434.

أنظر ملحق ٣ شكل ٧ و ٨ و ٩ و ١٢.

(٤٧) Stratos, Ibid, P. 434.

ويجيب اوستروجورسكي على تلك الأسئلة بقوله: ان المناطق التي احتلها السلاف منذ القرن السابع وحتى التاسع لم تخضع للادارة البيزنطية، ولا إلى أي ادارة خارجية أخرى، بل خضعت للسلطة السلافية والادارة السلافية المباشرة(٤٨).

ولكن هذا القول لايتفق مع ما أورده ستراتوس الذي يقول(٤٩): ان البيزنطيين وقّعوا معاهدة مع الآفار عام ٥٩٨أو حوالي ٦٠٠م والتي بمقتضاها أصبح الدانوب هو خط حدود الامبراطورية البيزنطية في الشمال. ويضيف انه في امكاننا توقع انسحاب الآفار بعد المعاهدة وان البيزنطيين عملوا على اجلاء القبائل التي رفضت قبول الخضوع لموظفي الادارة البيزنطية. وهو يناقش رأي كارانيس Charanis(٥٠). القائل بأنه ليس ثمة دليل على فرار السلاف الذين كانوا قد استقروا قبل عام ٦٠٠م، أو أنهم أجبروا على الرحيل. ويرد ستراتوس انه ليس هناك مايدل بصفة قاطعة على انه حوالي هذا التاريخ كان هناك استقرار دائم للسلاف، وانما تتحدث المصادر عن اغارات فقط. فكيف يتصور بعدما بذلته الامبراطورية من جهود وتضحيات أنها ترضى بوجود قبائل متمردة، ويضيف ستراتوس إلى تجدد إغارات قبائل الآفار السلافية خلال عصر الامبراطور هرقل والتي جاءت اثر انسحاب قوات الامبراطورية لمواجهة الفرس. وان تلك القبائل قامت بغارتين كبيرتين عام ٦٢٣ و ٦٢٦م. وشكل السلاف المتسللون نسبة كبيرة في البلقان. ولكن بعد هزيمتهم أمام أسوار القسطنطينية، فإن السلاف، الذين يظن أنهم استقروا في البلقان، لم يطردوا بل أخضعوا لسلطة الدولة. وجاء ذلك وفقا لسياسة الامبراطورية التقليدية وهي تعمير المناطق المهجورة أو المنعزلة بالقبائل الأجنبية(٥١). وهناك ملاحظة هامة، وهي ان بيزنطة في القرن السابع كانت تعتمد في إدارتها لولاياتها على نظام الثيمات وحيثما توجد إدارة بيزنطية في الأقاليم فإن ذلك يكون من خلال الثيمات(٥٢).

---

(٤٨) G-Ostrogorsky, The Byzantine Empire in the World of the Seventh Century, in: D. O.P 13, (1959) P. 4-6

(٤٩) .Stratos, Ibid, Vol. 4-P. 64

(٥٠) Charais, Ethnic Changes in The Byzantine Empire in the seventh Century in: D.O.P. 13, 1959, P. 37.

(٥١) .Stratos, Ibid, Vol. 4, P. 64 - 65
أيضا: هامش ٢٧٤

(٥٢) .Ostrogorsky, Ibid, P. 6
بالنسبة لنظام الثيمات أنظر الكتاب، ص ٢٧٦ - ٢٤١.

ويشير ستراتوس انه ربما يكون قنسطانز قد أسس ثيم هيلاس خلال هجومه على البلقان، خلال الستينيات من القرن السابع.

وسوف نحاول أن نحدد علاقة بيزنطة بممتلكاتها في الغرب وإلى أي حد عملت للمحافظة عليها ؟ ومن جهة أخرى إلى أي حد بلغ ارتباط شعب بيزنطة بالقسم الغربي من الامبراطورية واهتمامه به؟ وماذا يعرفون عنه؟

ويرجّح البعض أن خلفاء جستنيان، في بادىء الأمر ركزوا جهودهم على الشرق، حتى يظن أن هذا الاتجاه أدى إلى فقدان معظم ما استرده جستنيان. والعدول عن الدفاع عنه، وقد يعني هذا التنازل عن فكرة الامبراطورية العالمية. وللرد على هذه الفكرة ولتوضيح مدى المبالغة فيها. فإن موريس، أبرز خلفاء جستنيان، أوجد أرخونتى رافنا وقرطاجة. وكان اهتمامه بالغرب واضحا في رغبته. والتي كتبها كوصية خلال مرضه الشديد في سنة ٥٩٧م والتي خطط فيها أن يحكم ابنه الأكبر ثيودوسيوس الشرق من القسطنطينية. ويقوم ابنه الثاني تيبيرنوس بحكم روما ويمارس سلطته في ايطاليا وجزر البحر التيراني Tyhrian. وأوصى لابنه الثالث بباقي الممتلكات الرومانية. وهذا يعني أن فكرة الأمبراطورية العالمية مازالت قائمة وأن التفكير في تقسيم الامبراطورية بين أفراد الأسرة الحاكمة استمر تقليدا مازال يتبعه الأباطرة في هذه الفترة المتأخرة من القرن السادس[٥٣].

ومعروف لنا أن الامبراطور هرقل كان ابن حاكم، Exarch، افريقيا، والذي اعتلى عرش الأمبراطورية بفضل أسطول افريقيا حتى انه فكر في نقل العاصمة إلى قرطاجة[٥٤] وإن كانت فكرته لم تنفذ. ولكن مفهومها واضح. وان كان هناك اتجاه إلى الغرب ليس فقط بسبب الموقف الصعب في الشرق، بسبب خطر الفرس من جهة والآفار من جهة أخرى. ولكن أيضا بسبب ما امتلكه الغرب من جاذبية للبيزنطيين في الشرق وان مسألة تفكير الامبراطور هرقل في نقل العاصمة إلى الغرب انما كان تفكيرا مؤقتا. غير أن حفيده قنسطانز الثاني تفهم هذه الفكرة وأراد تحقيقها. ويروي ثيوفانيس ان نيته انصرفت إلى نقل عاصمته إلى روما ولكن البيزنطيين حالوا دون وصول زوجته وأولاده[٥٥] وذهب إلى صقلية واستقر في صقلية مدة خمس سنوات. وكانت تمثل موقعا

(٥٣) Ostrogorsky, Ibid, P. 9.
(٥٤) Theophanes, Ibid P. 47.
(٥٥) Theophanes, Ibid, 351.

استراتيجيا يعتبر مفتاحا بين ايطاليا، التي احتلها اللمبارديون جزئيا، وبين شمال افريقيا، التي كانت هدفا للغارات العربية. ولكن بعد وفاة قنسطانز، فإن حلم الامبراطورية العالمية لم يراود خلفاءه»[٥٦].

ولكن ما ردة الفعل بالنسبة للشعب البيزنطي أزاء تلك الأفكار؟ إن فكرة هرقل لم تلق أي ترحيب. كذلك تسبب رحيل قنسطانز إلى سيراكوز في معارضة صريحة لرغبته في نقل العاصمة إلى روما فضلا عن انه، فيما يروي ثيوفانيس[٥٧] كان مكروها من البيزنطيين لأسباب عديدة منها قتل أخيه ثيودور، واحضار بابا روما مارتين إلى القسطنطينية ثم نفيه إلى خرسون. وقطع لسان ماكسيموس المعترف، وتعذيب الكثير من الأرثوذكس ونفيهم. وأصبح خائفا، وفكر في نقل العاصمة إلى روما. ولذلك حال الشعب البيزنطي بين زوجته وأطفاله وبين الرحيل إليه في سيراكوز. وبالرغم من طموح الأمبراطور إلى امبراطورية عالمية، فإن الروابط بين الشرق والغرب كانت تزداد وهناً على وهن، يوما بعد يوم، وكان القرن السابع مرحلة مهمة في الاتجاه نحو الفتور المتبادل بينهما. وكان إلى حد ما علامة تحول في تاريخ الامبراطورية[٥٨].

إن هذا القول لايعد في حد ذاته جديدا فقد سبق أن أشار هنرى بيرين[٥٩] بوجه خاص إلى أن الروابط بين الشرق والغرب قد ضعفت في القرنين السابع والثامن، وكما هو معروف فقد اعتبر بيرين أن العرب وتسربهم هو السبب الرئيسي لذلك الضعف، وتفسيره المعروف جيدا، هو أن العرب ونفوذهم إلى قلب البحر المتوسط، وإلى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط كان السبب الرئيسى في ضعف تلك الروابط. إن التوسع الاسلامي كان نقطة التحول الجائحة التي أودت بكيان عالم البحر المتوسط[٦٠].

ونحن نرى رأي اوستروجورسكي انه ليس من الضروري أن نبحث هنا بالتفصيل نظرية هنرى بيرين، ونحن على علم بالاعتراضات القوية التي وجهت إليه وابطلت حجته التي أقام عليها نظريته. ويعترف اوستروجورسكي بأنه يركز ويعول كثيرا على

---

(٥٦) Ostrogorsky, Ibid, P. 10.

(٥٧) Theophanes, Ibid, 351.

(٥٨) Ostrogorsky, Ibid, P. 10.

(٥٩) Henri Pirenne, Economic & Social History of Medieval Europe (London, 1961), Engl. Trans. PP. 30-39.

(٦٠) لتنفيذ آراء بيرين والدفاع عن التوسع الاسلامي واظهار الحجج الباطلة التي قال بها بيرين، أنظر: على الغمراوي، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، ط ٢، القاهرة ١٩٧٧م، ص ٢٨٨ - ٢٨٩. مضمون نظرية بيرين، ومن ٢٩٣ ومايليها تجميع آراء المؤرخين الذين انبروا للرد على نظرية بيرين.

آراء Dvaornik [٦١] الذي أشار إلى مدى أهمية احتلال السلاف للبلقان. وفي الواقع إن احتلال السلاف للبلقان، وبالذات في غرب البلقان، كان بمثابة الحاجز الجديد وبين والغرب. فهذا هو الذي أدى إلى القضاء على العلاقات الطبيعية، أكثر مما أدت إليه هجمات العرب في البحر المتوسط. هذا وان كان اوستروجورسكي يوافق على أن العرب بغزواتهم كانوا مسئولين عن إحداث الفرقة بين الشرق والغرب ولكنهم لم يكونوا السبب الوحيد أو حتى السبب الأساسي[٦٢].

ويضيف اوستروجورسكي أنه سوف يستخدم مصدرا متأخرا لتوضيح الأوضاع القائمة بشكل كاف. والمصدر هذا هو حياة القديس جريجوري، من المدن العشر في الأردن Gregory of Decapolis[٦٣]، الذي كتب في النصف الأول من القرن التاسع وقام دفرنيك Dvornik على نشره[٦٤].

وهذا المصدر يروي فيه القديس رحلاته بالبحر، وبالذات الرحلة التي قام بها سنة ٨٢٠م. وقرر أن يسافر بالبحر من افيسوس إلى القسطنطينية. وقد تحدث عن الصعوبات التي واجهته في رحلته وهو خوف أصحاب السفن التجارية من مهاجمة العرب لهم والذين وصفهم بأنهم قراصنة. ومرت الرحلة بسلام دون أن يتعرض لهم العرب بسوء. ولكن السلاف أسروه عندما أراد أن يتم الرحلة براً إلى القسطنطينية: وتفاصيل الرحلة كبيرة ولكن سوف نناقش أهم ماجاء فيها. أولا: نقدم شاهد عيان على أن السفر خلال النصف الأول من القرن التاسع بالبحر كان يتسم بالخطر. ثانيا: نوضح أن السفر بالبر في شبه جزيرة البلقان كان متوقفا تماما. ثالثا: وقوع القديس في أيدي السلاف يدل على أن وجود السلاف في المنطقة هو الخطر الحقيقي ويفوق في خطورته الوجود العربي. وباختصار فإن حياة القديس جريجوري أبرزت لنا أن الإبحار في البحر المتوسط كان مستمرا وآمنا، بينما كان السلاف يهددون الطرق البرية في شبه جزيرة البلقان[٦٥].

هذا بالإضافة إلى أن الشخص البيزنطي العادي لايهتم كثيرا بالغرب، ويكاد لايعرف الكثير عنه. وسوف نستدل على ذلك من حولية كل من ثيوفانيس

(٦١) أنظر هامش (٤٥).

(٦٢) Ostrogorsky, Ibid, P. 10

(٦٣) المدن العشر في الأردن هي: ١ - سكرنى Scyrhorpolis، ٢- بلا Pell، ٣- ديون dion، ٤- جارادارا "أم القيس" Gadara، ٥- Hippos، ٦- جرس Garassa، ٧- فيلاديلفيا Philadelphia عمان، ٨ - كاراسا Kerassa، ٩ - رافانا Raphana، ١٠ - دمشق. وهي مدن حرة على النمط الاغريقي مؤسسها اغريق وكونوا اتحاد المدن العشرة لمواجهة اليهود والأنباط.

(٦٤) F. Dvornik. Lavie de Saint Gregoire Le Decapolite, (Paris, 1926) Chap. 9.

(٦٥) Ostrogorsky, Ibid, P. 11.

Theophanes ونيكافورس Nicephorus. بالنسبة لثيوفانيس. اهتم بتأريخين أولهما في بداية كل سنة وهو في، تاريخ ولادة المسيح، والتاريخ الثاني هو تاريخ بداية الخليقة، وسنى حكم الاباطرة البيزنطيين وملوك الفرس، وفيما بعد خلفاء المسلمين. هذا بالاضافة إلى سنوات تنصيب البابوات في روما، ثم الأساقفة الشرقيين الأربعة. وهؤلاء الرؤساء الكبار الخمسة، الذين يمثلون الكنيسة، إنما يلتزم في ذكرهم بترتيب دقيق فيذكر البابا أولا ويليه أسقف القسطنطينية ومن ثم أسماء الاساقفة الشرقيين الثلاثة الآخرين. ولكن في السبعينيات من القرن السادس توقف فجأة ذكر قائمة أسماء بابوات روما من عام ٥٧٤-٥٧٥م، ولم يذكروا في قوائم ثيوفانيس لمدة قرن ونصفا أي كل القرن السابع بأكمله والربع الأول من القرن الثامن، ولم تعد للظهور مرة ثانية إلا عندما وصل تاريخه إلى فترة مقاومة الايقونات. وبالمثل عندما فقدت الامبراطورية كلا من سوريا وفلسطين ومصر. توقف عن كتابة أسماء بطارقتها. فتوقف ذكر أساقفة انطاكية من عام ٦١٠/٦١١م، وأساقفة أورشليم منذ ٦٣٦/٦٣٧م وأساقفة الاسكندرية منذ عام ٦٥٤/٦٥٥م، ومنذ ذلك الوقت اقتصرت قوائم ثيوفانيس على ذكر أسماء بطريرك القسطنطينية، الرئيس الأعلى للكنيسة، وهو الأوحد من بين الأساقفة الخمس الذين كان موضع اهتمامهم المباشر[٦٦]. ويعتقد اوستروجورسكي أن عدم ورود أسماء الباباوات في حوليات ثيوفانيس لايعني انه جاء نتيجة الخلاف بين الباباوات والقسطنطينية، ولكن بسبب أنهم لم يكونوا محل اهتمام البيزنطيين. ولكن يبدو أن فكرة التنافس أو التنازع بين الكنيستين الشرقية والغربية كان السبب المباشر لذلك الاغفال. وأن من يتابع تاريخ الخلافات بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما يجد أنها خلافات نشأت حول زعامة العالم المسيحي[٦٧]. وهي التي أذكت روح الكراهية بين الشعبين الاغريقي واللاتيني، ونزلت بمسألة العلاقات الكنسية بين روما والقسطنطينية إلى أوساط الشعب العادي في الشرق والغرب[٦٨].

وبدراسة الحولية الثانية، وهي حولية الأسقف نيكافورس Nicephorus، نجد أنه لايولي اهتماما كبيرا بممتلكات بيزنطة في الغرب، وإن كان قد ذكرها أثناء حديثه عن القرن السابع في اشارتين عابرتين وموجزتين إيجازا شديدا. ولم يتحدث عن المناطق الغربية خارج حدود الامبراطورية. في أولها ذكر أن الامبراطور هرقل أقدم على نفي Cacelarius Philgarius إلى قلعة تسمى سبته Sepats والتي تقع في الغرب فيما وراء

(٦٦) Ostrogorsky, Ibid, P. 12-13.

(٦٧) لمزيد من التفاصيل عن هذا النزاع، أنظر: عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص ٣٢٠ - ٣٥٥.

(٦٨) عادل زيتون، المرجع نفسه، ص ٣٥٥.

أعمدة هرقل في ليبيا[٦٩]. وعلى العموم حتى هذه الاشارة لم تعن بأخبار الغرب وإنما اقتصرت على ذكر مكان النفي. وفي الاشارة الثانية ذكر استيلاء العرب على أرخونية قرطاجة، وقد جاء ذلك ليقص قصة ليونتيوس Leontius وتتويج تبيريوس Apsimar، ولا شيء غير ذلك. ولا توجد في حوليته كلمة واحدة عن راڤنًا وأرخونيتها، ولا أي إشارة إلى روما وكنيستها أو إلى ايطاليا بصفة عامة[٧٠].

ومن الطبيعي أن يكون الاهتمام الأول لنيكافورس وصف الحروب مع الفرس، ثم مع العرب ابتداء من الثلاثينيات من القرن السابع. وهما القوتان الشرقيتان اللتان كانتا ندا لبيزنطة، يستحقان التنويه عنهما. ولذلك اهتم ثيوفانيس بإيراد أسماء أباطرة اسبرطة وملوك الفرس وخلفاء المسلمين وسنى حكمهم.

مما سبق نرى أن بيزنطة في القرن السابع قد توجهت وجهة شرقية وفي نفس الوقت كانت تنفصل أكثر وأكثر عن الغرب. ويعتقد اوستروجورسكي أن التراث الثقافي واللغوي وراء ذلك التباعد والذي لعب دورا تدريجيا، في الفصل بين الغرب اللاتيني والشرق الاغريقي والذي أفصح عن نفسه بشكل واضح في القرن السابع[٧١].

(٦٩) Ostrogorsky, Ibid, P. 14.
(٧٠) Ostrogorsky, Ibid, P. 14-19.
(٧١) Ostrogorsky, Ibid, P. 20.



الفصل الثالث
نظم الحكم والادارة

تميزت الفترة مابين القرنين الرابع والسادس بوفرة من المصادر أعانت على تبين معظم التفاصيل الهامة المتعلقة بطبيعة الحكم في الامبراطورية البيزنطية ونظمه المختلفة[1].

ويتفق جونز مع بيوري رغم تباعد زمنيهما، إلى حد ما في أن القرن السابع لايحظي مثل القرون التي سبقته بمصادر معاصرة توضح الأوضاع الادارية للامبراطورية[2]، وتحدث بشكل مباشر فيها. ولايعتد ببرديات من مصر تعود إلى الفترة المبكرة للحكم العربي، فهي تتعلق بأحوال مصر التي يتفق مع وضعها الخاص،

(١) من أهم هذه المصادر مجموعات القوانين التي أصدرها كل من ثيودوسيوس وجستنيان وقائمة الوظائف المرموقة (Notitia Dignitatum) التي يعود آخر اجزائها إلى عام ٤٢٥م. وفضلا عن ذلك الرسائل التي كتبها كاسيودوريس Cassiodorus، بصفته الرسمية إذ كان قنصلا في قصر رافنا ٥٠٦ - ٥١١م، وتناول فيها النظم الامبراطورية التي عدلت لتوافق ظروف القوط الشرقيين. ويتبين منها ان الوظائف واختصاصاتها لم يطرأ عليها سوى تغيير طفيف، فهي بذلك لاتكشف فقط عن النظم الإدارية في رافنًا بل إنها تكشف أيضا عن النظم الادارية التي كانت مطبقة في القسطنطينية نفسها. ثم إن هناك يوحنا الليدي، ورسالته عن الحكام: (per-iarchon) de magistratibus Populi Romani وقد عمل واليا ببريتوريا للشرق من عام ٥١١م وحتى عام ٥٥١ في عهود أباطرة ثلاث، انستاسيوس وجستنين الأول وجستنيان الأول وقد وصف في رسالته نظم الدولة وصفا مفصلا، وضمنه ذكرياته الشخصية التي تمدنا بمعلومات مفيدة عن تلك النظم. وبصفة عامة فإن هذه المصادر، بالإضافة إلى المصادر الأدبية الأخرى، ومجموعات من النقوش، توفر معلومات واضحة تكفي لتكوين صورة كاملة عن الادارة المدنية والعسكرية التي وضع أسسها دقلديانوس ونماها قنسطنطين وأكملها جستنيان. راجع بصفة خاصة:

J. B. Bury, The Imperial Administrative System in the Ninth Century, With a revised textbook of The Kletorologion of Philotheos, The British Academy, (London, 1911), P. 7; A.H.M. Jones, The Later Roman Empire Vol. I. P. 238 (Cassiodorus); 218, 498 601f. (John Lydus).

(٢) أشار جونز إلى ندرة المصادر الخاصة بالقرن السابع Jones, Ibid, p. 137 وإن تكفي ملاحظات وردت في حوليات بسكال Chronicon Paschale من عهد آدم إلى عام ٦٢٩م وأشعار جورج البسيدي George of Pisidia لسد حاجة المؤرخ ويشير بيوري J. B. Bury Ibid, P. 7f. أنه ليس للقرن السابع قائمة بالوظائف الكبرى Notitia أو مراسلات رسمية وإن كانت قد بدأت في الظهور مجموعات الأختام من الرصاص التي كثرت في القرنين الثامن والتاسع.

Haldon, Byzantium in the Seventh Century, London, 1990.

ومن الصعب تعميم معلوماتها على الامبراطورية البيزنطية بأسرها إلا بشكل قياسي[٣]. ومن ثم يضطر مؤرخ النظم البيزنطية إلى الاعتماد على مصادر بدأت تكثر في القرنين الثامن والتاسع وما بعدهما[٤].

سلطة الامبراطور والسلطة الدستورية

ويأتي الامبراطور[٥] على رأس نظام الحكم في الامبراطورية البيزنطية، وكان هرقل أول امبراطور يحمل اللقب اليوناني ملك باسيليو، Basileus رسميا. وبعد أن حل

(٣) Bury, Ibid, P. 8

(٤) Jones, Ibid P. 512

ويشير بيوري في المصادر المتأخرة عن القرن السابع والتي تعالج النظم الادارية مثل (Taktikon) التي يعود تاريخها إلى منتصف القرن التاسع وهي قائمة شملت الوظائف الكبرى مرتبة طبقا لمراتب شاغليها، وذلك ابتداء من عصر الأمبراطور ميخائيل الثالث (٨٨٦-٩١٢م). ثم بعد ذلك بنصف قرن ظهرت Notitia أخرى Kletorologion، صنفها فيلوثيوس Philotheos عام ٨٩٩م على عهد الامبراطور ليو السادس (٨٨٦-٩١٢) والذي يعده بيوري أهم مصدر عن النظم الادارية في الفترة الباكرة من العصور الوسطى Bury P. 8ff, 12 وعن امكانية الاستعانة بها في القرن السابع.

Haldon, Ibid, pp. 180, 190, 273, 391, 394.

وفي رأي بيوري أن مصنف فيلوثيوس ظهر في كتاب De Cerimoniis للأمبراطور قنسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٩) كجزء منه إلا أنه تبين انه كان عملا مستقلا ولكنه الحق بذلك الكتاب، أنظر اوستروجورسكي.

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, 2nd ed. Paperback ed. Oxford, 1980, P. 215.

ولايمكن اغفال مؤلفات الأمبراطور قسطنطين السابع و De thematibus، و remoniis aulae-zantinae و De administrando imperio ويعتبر اوستروجورسكي هذه الكتب أو المصادر معينا لاينضب يصلح لكل الفترات البيزنطية التي سبقت القرن العاشر Idem p. 512. وقد ترجم أولها إلى اللغة العربية محمود سعيد عمران، بعنوان إدارة الامبراطورية البيزنطية، بيروت ١٩٨٠م. وعند بيوري ان الامبراطور جمع في De Ceremonis "وثائق من القرنين التاسع والعاشر ووثيقتين من القرن الثامن. وتظهر هذه الوثائق نظما إدارية اختلفت تماما عن النظام في عهد جستنيان. ويرجع بيوري أن ذلك راجع إلى طبيعة هذه الوثائق. وأن النظام الاداري المتأخر لم يدرس بعمق كاف ولأنها لاتتحدث مباشرة عن الادارة وإنما عنيت بحفلات البلاط الأمبراطوري وتقاليده، ولاتعطي بيانا وافيا عن الموضوع الأكثر خطورة المتعلقة بواجبات الموظفين واختصاصاتهم، أما الكتاب الذي يحظى بالاهتمام عند دراسة نظام الحكم في الولايت إنما هو المتعلق بالثيمات De Thematibus. أنظر Bury P. 8. وقد عنى هالدون باستقصاء مصادر القرن السابع بصفة عامة والتي تتعلق بالقرن السابع أو من الممكن استخدامها في التعرف على هذا القرن. ومنها ماكتب بالعربية والسريانية والأرمنية والقبطية واللاتينية. واهتم كذلك بالمصادر التي حفظت الوثائق الرسمية المتضمنة لقرارات أو قوانين اصدرتها الدولة والوثائق الكنسية وقرارات المجامع الكنسية. راجع: Haldon, PP. XVII-XXIII والحواشي في هذه الصفحات فهي على قدر كبير من الأهمية وخاصة ماتعلق منها بموضوع هذا الفصل مع ضرورة مراجعة: Bury, Ibid, p. 7-15.

(٥) كلمة امبراطور ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية Autokrator وقد وردت لأول مرة عند نيقوفورس مقترنة باسم هرقل، راجع:

W. Ensslin, "The Government and the Administration of the Byzantine Empire" in CMH Vol. IV, Part II, P. 2.

تدريجيا محل اللقب الأمبراطوري السابق Imperator Caesar Augustus وما لبث لقب الامبراطورة أن تحول فيما بعد من Augusta إلى Bassilissa. وكان الأباطرة مثل هرقل يستعملون لقب باسيليوس بصفة غير رسمية مسايرة منهم لعرف كان سائدا محليا. وقبل اتخاذ هرقل للقبه الجديد كان يوصف بأنه الملك المتفاني في الاخلاص للسيد المسيح Postos en Christo Basileus. أو تذكر هذه الصفة مختصرة بدون كلمة Basileus وكان هذا إيذانا بتغيير له دلالة في النظرة إلى الامبراطور داخليا وخارجيا، ووضعت هذه الصيغة حدا للأوضاع القانونية والدستورية التي استمرت دهرا طويلا تحجب الطبيعة الاستبدادية المطلقة للأمبراطور Dominatus[٦]. وإن كان لقب Augustus ظل مستعملا في العملة حتى القرن العاشر، بل وبعد ذلك، في بعض الوثائق، مثل القرارات والخطابات التي يوجهها الامبراطور إلى الأجانب[٧]. ولكن لايزال الأباطرة يخاطبون بلقب الحاكم الاتوقراطي المستبد (Despotes) منذ أيام قنسطنطين الأول وحتى جستنيان. وظل كذلك حتى حكم اسرة الكومنيني، بل وظل مستعملا في العملة والأختام حتى عصر أسرة الباليولوجوس[٨].

وكان الامبراطور البيزنطي يعتبر نفسه وريثا للامبراطور الروماني ووريثا لسلطاته. وكانت النظرية السائدة التي تحكم اختياره، أن منصب الأمبراطور منصب انتخابي وفي ظل المسيحية يكون اختياره بإرادة من الرب، فيتقلد الأمبراطور مهام منصبه بنعمة الله. وفي العصور المسيحية وغير المسيحية عندما يكون عرش الامبراطور شاغرا كانت الارستقراطية والجيش والشعب مؤهلين لأن يكون لهم وضع

---

(٦) I. Shahid, Heraclius Pistos en Christo Basileus ,Dumbarton Oaks Papers, 34-35, Washington, 1982 PP. 225-237.

(٧) من المهم ملاحظة أن أباطرة القسطنطينية اتخذوا لأنفسهم لقب ملك الرومان (Basileus Romaion) عندما اعترف الامبراطور البيزنطي، ميخائيل الأول ورانجاب Michael I Rangabe (اليد القوية)، بشارلمان امبراطورا باسليوس Basileus في الغرب في عام ٨١٢م. واتخاذ اباطرة القسطنطينية لقب امبراطور الرومان كان دلالة على علو مكانة امبراطور الشرق الذي أراد أن يؤكد إنه الأمبراطور الحقيقي للرومان ومن ثم يكون من حقة المطالبة بسلطته بوصفه الوريث الحقيقي للسلطة الرومانية Imperium Romonorum ويلاحظ أن شارلمان تحاشي أن يتلقب بلقب امبراطور الرومان" ولكن الحقيقة الواقعة عمليا ونظريا" ان العالم الروماني تقاسمته امبراطوريتان منذ ذلك التاريخ عام ٨١٢م واحدة في الغرب والأخرى في الشرق، انظر بالإضافة إلى مقال Enslin المشار اليه في هذه الحاشية،
Ostrogerosky, History of the Byzantine State, P. 197 No. 2, 1923.
خاصة بما يتعلق بمناقشة اوستروجورسكي لرأي بيوري.

(٨) W. Ensslin Ibid, P. 2 ايضا.

المنتخبين. وموافقهتم شرط شرعية الانتخاب واظهاراً لمشيئة الرب. ويتم تنصيب الامبراطور في حفل تتويج صار يقام بشكل منتظم منذ القرن السابع في كنيسة أياصوفيا وعلى حين أتاح تتويج الامبراطور على يد البابا في الغرب الفرصة لكنيسة روما ليصبح تتويج الاباطرة أكثر حقوقها أهمية، ولم يعد دور كنيسة القسطنطينية هاما في انتخاب الامبراطور ومنحه فعلا الحق في ممارسة سلطاته، وبذلك لايكون البطريرك ممثلا للكنيسة وإنما هو في الواقع ممثل للمنتخبين، ولا تكون مشاركته عنصرا أساسيا لتصبح سلطة الامبراطور، الذي تم انتخابه، نافذة المفعول ومع ذلك كانت الكنيسة بحاجة إلى أن تكسب هذه المشاركة أهمية خاصة لها دلالتها، فيكون ضامنا للارثوذكسية من ناحية، ولحقوقها هي من ناحية اخرى. وبالفعل ستتزايد أهمية مشاركة الكنيسة في تتويج الامبراطور لتصبح تقليدا يقره العرف، ولكن بدون أثر حاسم في اختيار امبراطور أصبح قبل تتويجه يتمتع فعلا بالسلطة الامبراطورية[٩].

وقد خضع انتخاب الامبراطور خلال القرنين الخامس والسادس لتطورات كثيرة فقد انتقل هذا الحق من الجيش إلى مجلس الشيوخ، الذي كان يعاني من استبداد جستنيان، الذي حال دون هذا المجلس وممارسة سلطاته الدستورية في القسطنطينية[١٠]. وهذا لايعني أن مجلس الشيوخ كانت له الكلمة الأولى في هذه الانتخابات فقد كان يقر انتخاب الامبراطور الذي وقع عليه اختيار الجيش - ويشارك البطريرك في مراسم تعيين الامبراطور. وكان البطريرك يتوج الامبراطور الجديد بأن يضع التاج على رأسه، ولكن ذلك لم يكن ليتم في الكنيسة. ذلك انه عندما بدأ البطريرك يمارس هذا العمل كان الجيش والأحزاب العسكرية لاتزال تحتفظ بقوتها ومع ذلك بدأت مشاركة البطريرك في تتويج الامبراطور كما لو كان اعترافا بتزايد نفوذ الكنيسة في القسطنطينية دون ان يكون لهذه المشاركة دلالة أكثرمن ذلك، وهكذا في أواخر القرن السادس كان لكل من مجلس الشيوخ، والبطريرك والجيش. والأحزاب Demes أو الشعب دور في انتخاب الأمبراطور[١١].

وهذا ما راعاه فوكاس وهو في سبيله إلى انتزاع السلطة من الامبراطور موريس،

---

(٩) Idem p. 3

(١٠) Ostrogorskey, Ibid, P. 115 أنظر الكتاب ص ٩٥ وما يليها.

(١١) Stratos, Ibid, Vol. I, P. 49

بأن دعا مجلس الشيوخ والبطريرك للقائه في افدومون Evdomon[١٢].

واضطر مجلس الشيوخ إزاء إرادة حزب الخضر والجيش إلى الموافقة على اختيار فوكاس. وتدخل البطريرك واشترط قبل ان يتوجّه ان "يعترف بالارثوذكسية وأن يكفل الحماية للكنيسة"[١٣]. ولإدراك فوكاس مدى تمكن المشاعر الدينية من الجماهير، استحدث بدعة بأن يجري التتويج في حفل كنسي. فطلب من البطريرك ان يتم الحفل في الكنيسة نفسها. وفعلا تم له ما أراد وتوجّه البطريرك في كنيسة القديس يوحنا في افدومون. وهكذا كان فوكاس أول امبراطور تتوجّه الكنيسة وأن يتم الاحتفال بذلك بداخلها. ومنذ ذلك الوقت اكتسبت حفلة التتويج صبغة دينية، وتحولت إلى أن تكون حفلا مستقلا، وأصبح من المعتاد قبل أن يتم تتويج الامبراطور أن يكتب مسبقا قسما بالولاء للأرثوذكسية وإن كان ذلك سيتأخر إلى القرن التاسع. ودخل فوكاس بعد ذلك إلى القسطنطينية مزهواً بانتصاره[١٤].

وقد توج البطريرك سرجيوس الامبراطور هرقل في كنيسة القديس اسطفانوس، الملحقة بالقصر في ٥ اكتوبر ٦١٠م. ونادى به امبراطورا في اياصوفيا ومجلس الشيوخ وقادة الجيش والاحزاب والشعب طبقا للتقليد المتبع[١٥].

وحرصا من الامبراطور على ضمان العرش في اسرته توج معه كأمبراطور (بلقب باسيليوس) مشاركاً أو مساعداً إبنه قنسطنطين[١٦]. ثم بعد ذلك ابنه هرقل أيضا (وهو هرقل الذي سمى في الحوليات هراقليوناس Heracleanos) من زوجته الثانية مارتينا التي كان الشعب يكرهها[١٧]. وكان ذلك التتويج في اجتماع دعا إليه الامبراطور، وبطريرك

---

(١٢) موقع خارج أسوار القسطنطينية قريب ن البوابة الذهبية وكان معسكرا يعلن فيه أسماء الاباطرة الأوائل وقد شيد به قصران وقلعة.
.Idem, P. 396 f

(١٣) .Idem, Vol. 1, P. 50; Ensslin, Ibid, P. 3

(١٤) .Stratos, Ibid, P. 51
الذي يحيل في حاشيتين (٤١ و ٤٢) إلى .Chronicon Paschale, I. 693، وإلى ثيوفانيس 289.

(١٥) Idem, P. 92, Haldon, Ibid, p. 41
كنيسة القديسة اسطفانوس كنيسة قديمة جدا وتحتل جانبا من القصر الكبير المعروف باسم دافني Daphne ويعزى انشاؤها إلى قنسطنطين.
.Strates, Ibid, Vol. 1, P. 40 f

(١٦) Sebeos. P. 67
"توج هرقل ابنه قسطنطين ووضعه تحت رعاية المجلس واوصى به رجال القصر" ولعل هذا كان اشعارا باحساس هذا المؤرخ الأرمني بأهمية مجلس الشيوخ على عهد هرقل.

(١٧) Ostrogrosky, Ibid. p. 112ff; A. Strates, Ibid, Vol. il, P. 140 f
. Haldon, Ibid, P. 51ff

القسطنطينية ومجلس الشيوخ بكامل أعضائه (في ٧ يوليو عام ٦٣٨م) ثم أعلن داود David قيصرا في احتفال جرى في حلبة سباق الخيل في ٤ يناير ٦٣٨م[١٨]. وبرز الامبراطور مع أبنائه الثلاثة في ميدان Augustaeum المواجه لمدخل القصر الرئيسي ويوجد به كنيسة اياصوفيا ومبنى مجلس الشيوخ ومبان أخرى. ودخل إلى الميدان من هم من مرتبة البطارقة، الذين يحملون لقب بطريق (Patricus) وجاء بعدهم الموظفون ابتداء من القناصل (hypates) وحتى أولئك الذين من مرتبة (illustrii) وحيوا الامبراطور وولديه الذين توّجا حديثا والقيصر الجديد. وتتابع الموظفون العاملون في الخدمة المدنية، والحرس الامبراطوري Scholae والأحزاب Demes (حزب الزرق والخضر) واشترك الجميع في الهتاف للأسرة الأمبراطورية ثم دخل هرقل مع أولاده إلى كنيسة أياصوفيا، حيث أنشدت الأناشيد. تسجيلا لهذا الحديث، فيما يبدو، سكّت عملة جديدة على وجهها الأول صورة هرقل مع إبنه قنسطنطين على يمينه، وإبنه الآخر هرقل على يساره. وعلى رؤوسهم التيجان ويحمل كل منهم الكرة، وعلى ظهر العملة نقش Victoria Augs (ربة القصر تتوج الآباطرة والصليب في الوسط على ثلاث درجات) وكانت العملات الفضية تحمل النقش القديم "Deus Adjuta Rom-anis" (ليكن الرب في عون الرومان)[١٩].

وبعد وفاة الامبراطور هرقل عام ٦٤١م. تولى الحكم الأخوان (قنسطنطين الثالث، وأخوه هرقليوناس) على أن تكون مارتينا أما Metera وامبراطورة (Basilissa)[٢٠].

وقبل مجلس الشيوخ الوضع الجديد ولكنه رفض الاعتراف بوضع مارتينا. ومالبث قسطنطين "الذي لقب باسم الامبراطور قسطنطين الثالث"[٢١]. أن توفي بعد ثلاثة أشهر من توليه عرش الامبراطورية[٢٢]. وبادرت مارتينا إلى مساندة ابنها الأمبراطور هرقل الثاني (هرقليوناس)، وانضم الشعب وعناصر مهمة من الجيش إلى مجلس الشيوخ في رفض وصيتها. وطالبوا بأن يكون قنسطنطين، وكان اسمه أيضا قنسطانز بن قنسطنطين الثالث امبراطورا مشاركا لعمه هرقليوناس، ويروي سيبيوس

(١٨) Nikephoros, 127 cf. Stratos, Ibid, 589, p. 141.

(١٩) Stratos, Ibid, pp. 140, 141 .

(٢٠) Nikephoros, 27.

(٢١) ربما يتساءل البعض عن اعتبار قنسطنطين بن هرقل الأول، الثالث بين الأباطرة الذين حملوا اسم قسطنطين إذ لم يكن هناك قسطنطين ثان بعد قسطنطين الأول اللهم إلا إذا كان ابنه قسطنطين الذي حكم بعده في القسم الغربي للأمبراطورية هو الثاني مع انه لم يكن أبداً امبراطورا في بيزنطة، راجع: A. Stratos, Ibid, P. 178.

(٢٢) تردد عند بعض كتاب الحوليات، مثل ثيوفانيس وكيدرينوس وزوناراس وغيرهم ان مارتينا دست له السم، راجع Stratos, Ibid, P. 183-ff .

أن فالنتين، وكان قائدا أرمينيا، تحرك بجيشه من الأناضول ليفرض على القسطنطينية تولية قنسطنطين، ونجحت حركة المعارضة لمارتينا وقبض عليها وعلى ابنها وكذلك على ابنيها الآخرين داود ومازينوس. وبأمر من مجلس الشيوخ قطع لسانها وجدع أنف ابنها هرقل الثاني، ونفي الجميع إلى رودس ومعهم البطريرك بيروس الذي كان يناصرهما(٢٣). وتولى الحكم قسطنطين قسطانز الثاني (٦٤١-٦٦٨م) الذي جلب على نفسه المتاعب بسبب الاصرار على أن يخص ابنه وأحفاده بأن يكونوا اباطرة مشاركين(٢٤).

وقد ساند المجلس الامبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥-٦٩٥، ٧٠٥-٧١١م) في جهوده وتجهيزاته للحرب ضد خرسون. وربما يمكن القول بأن أعضاء مجلس الشيوخ لعبوا دورا في التخلص من فيلبيكوس وأنستاسيوس الثاني، إذ ساندوا المطالبين بتنازل ثيودوسيوس الثاني عن العرش وفضلوا تولية ليو الثالث في عام ٧١٧م(٢٥). ويبدو أن أعضاء المجلس استمروا يتمتعون إبان القرن الثامن أيضا بنفوذهم الذي عاد إليهم(٢٦).

ولابد وأن نتساءل ماذا كان عليه مجلس Constitorium، المجلس الامبراطوري الأعلى، ذلك انه لم يبرز كهيئة مستقلة خلال القرن السابع، ولاتوجد إشارات واضحة إلى قيامه بعمل متميز خلال ذلك القرن. وقد يفترض البعض أنه كان يعمل من خلال مجلس الشيوخ أو أن الاشارات الواردة بشأن مجلس الشيوخ كانت تعني المجلسين معا.

وهكذا نرى أن مجلس الشيوخ استعاد نفوذه حتى ان الامبراطور قسطانز الثاني عندما انفرد بحكم الامبراطورية كان قد بلغ من العمر احد عشر عاما واستند الي مجلس الشيوخ خلال سنى حكمه الأولى.

وكان المجلس يمثل البيروقراطية في العاصمة وطبقة كبار الملاك وقد حقق في تلك السنوات نفوذا وتأثيرا أكبر، وهذا يتناقض مع وضعه الذي كان له خلال القرن

---

(٢٣) هكذا سماه شعب القسطنطينية بأن استعملوا اسم قسطانز وهي صيغة التصغير لاسم قسطنطين ولقب بصاحب اللحية (Pogonat) عن هذا الامبراطور، أنظر: Ostrogorsky P. 113-123. وقد أطلت في ذكر هذه التفاصيل بعد اختصارها لتوضيح أهمية دور مجلس الشيوخ في أحداث القرن السابع، راجع:
sebos, 103 ff; Ostrogorsky. Ibid p. 113; A stratos Ibid, p. 186 ff. .Haldon, Ibid, p. 51f.

(٢٤) الحاشية السابقة، أنظر أيضا:
.Theophanes, 352; Michael Syr. XIII

(٢٥) .Theophanes, 390

(٢٦) .J. Jaldan, Ibid, P. 168

السادس. وقد توارت قوته خلف المسائل الدستورية والتشريعية خلال ذلك القرن لأن مصالح اعضائه لم تكن مهددة غير انه من المهم ملاحظة ان المجلس كان يدعم قوته في فترات تعرض الاقتصاد للخطر، أو فترات الفوضى كما حدث في عهد فوكاس وخلال السنوات الأخيرة من حكم هرقل وعصر هيراقليوناس، وقسطنطين وفي السنوات الأولى من عصر قسطانز الثاني.

وقد أصبح لمجلس الشيوخ وضع جديد أو تأثير واضح في شؤون الامبراطورية ابتداء من عصر أسرة هرقل. وعاد إلى ممارسة اختصاصاته بوصفه المحكمة العليا، والمرجع الذي يستشيره الامبراطور. وكان مستشاروه من أعضائه وذلك راجع إلى الظروف السياسية والايدلوجيات السائدة في ذلك الوقت. كما يعود إلى طبقة تكوين المجلس والأصول الاجتماعية التي ينتمي اليها اعضاؤه[٢٧].

اما الأحزاب فقد ضعف تأثيرها وبدا ذلك واضحا منذ عهد هرقل[٢٨] في النواحي السياسية والدينية وربما يعود السبب في ذلك إلى الاصلاح الاداري حيث ان تقسيم الادارة في الدولة الى ثيمات والخطر الذي يهدد الامبراطورية لم يتركا مجالا لأي تطورات سياسية أو اجتماعية بالنسب للأحزاب، وكان هذا الاصلاح بمثابة الحكم بالموت على نشاطها السياسي[٢٩].

وهذا لايعني اختفاء الاحزاب من الحياة العامة، ولكن عملهم انحصر في تنظيم مباريات سباق الخيل وغيرها من المباريات التي كانت تدور في حلبة سباق الخيل Hippodromos. كما أن الأحزاب استمرت في القيام بدور الحراس واعتبروا انفسهم وسيلة دفاع أساسي في المدن. وكلما زاد الخطر كلما ازدادت أهمية الدور الدفاعي الذي يقومون به. ولكن سيطر عليهم العسكريون الذين نصبهم الامبراطور[٣٠].

وكان دور الأحزاب بارزا خلال الفترة التي اعتلى فيها فوكاس عرش الامبراطورية ويذكر ثيوفانيس انه في سنة ٦٠٦م ان الامبراطورة قنسطنطينة Constantina قد أخذت إلى كنيسة ايا صوفيا وذلك بناء على نصيحة البطريق ونتج عن ذلك نزاع حزبي قوي في المدينة وتجمع حزب الخضر في الـ Kohalias وهو المكان الذي تدخل منه الامبراطوره إلى الملعب. وهناك أرسل اليهم

(٢٧) Haldon, Ibid, P. 53.
(٢٨) Strator, Ibid, Vol. 1, P. 263.
(٢٩) Idem, Vol. 1, P. 263.
(٣٠) Stratos, Ibid, Vol. 1, P. 263 أيضـــا Stratos, Ibid, Vol. 2, p. 166.

جرمانوس، قدرا من الذهب وذلك طلبا لتعاونهم ولكن رئيس حزب الخضر رفض أخذ المال[٣١]. وهذا يعني أن رئيس الحزب لديه القوة الكافية لمعارضة الحاكم وان الحاكم يعمل حسابا لتلك القوة لذلك حاول شراءهم بالمال.

النظم الإداريــة:

لعل من أهم التغيرات المتعلقة بالنظم الادارية في الامبراطورية في القرن السابع الغاء وظيفة الوالي البريتوري Praetorio Praefectus وكان يقيم الى جانب الامبراطور في القسطنطينية ويليه في أهميته وفي مكانته الممتازة، وكان مسؤولا عن ادارة شؤون الامبراطورية من النواحي المدنية والقضائية، ومسؤولا ايضا عن حكام الاقاليم والادارات التابعة لهم وكان في الواقع بمثابة الوزير الأول[٣٢]. لذلك فإن الاقدام على الغاء وظيفته نقطة تحول لها خطورتها في النظام الاداري للأمبراطورية، ولعل هذا الاجراء كان راجعا إلى أن نظام الثيمات حل محل نظام الولايات البريتورية، التابعة للوالي البريتوري، وتحولت إلى قائد الثيم الكثير من اختصاصاته، واضطلع بمسئولياته المالية عدد من الادارات المالية المختصة. وبذلك يكون قد لحق تغير بعيد المدى أصاب نظام الادارة المركزية للأمبراطورية[٣٣].

وكذلك فان الولاية البريتورية، وكانت من أهم ماتميزت به النظم الادارية المبكرة، قد تقلصت أهميتها عندما حل محلها نظام الثيم كنظام اداري جديد[٣٤]. أما المسؤولية المالية في الولاية البريتورية فقد اضطلع بها عدد من الادارات ذات الاختصاصات المستقلة[٣٥].

ومما هو جدير بالذكر أن آخر تاريخ ذكر فيه منصب الوالي البريتوري في الشرق كان في عام ٦٢٩م. وأما الوالي الذي ذكره نيقيفوروس في عام ٦٩٥م فلم يكن سوى eparchos Praetorion أي قائد الحرس البريتوري Praetorium.

ويرى هالدون أن وظيفة الوالي البريتوري كانت لاتزال قائمة بالفعل حتى السنوات الأخيرة من حكم هرقل. ويوافق على أن اخر اشارة للوالي البريتوري للشرق كانت بالفعل في سنة ٦٢٩م. إلا أنه يقول: انه بالرغم من عدم وجود اشارة أخرى لهذا المنصب، فإن هناك شواهد أخرى تنهض دليلا على استمراره لبعض الوقت في بعض فروع الادارة المدنية وذلك في بعض الولايات التي كانت

(٣١) Theophanes, Ibid, P. 3-4.
(٣٢) راجع الفصل الخاص بالنظم الادارية في القرن السادس.
(٣٣) Ostrogorsky, Ibid, pp. 98, 99, 100.
(٣٤) أنظر الكتاب ص ٢٧٣ عن الثيمات.
(٣٥) أنظر الكتاب ص ١١٩ الادارة المالية في القرن السادس وراجع:
Ostrogorsky, Ibid, P. 98 ff. P. 193, 132.

لاتزال تابعة للأمبراطورية، من ذلك مثلا أن الوالي البريتوري في الليريا، كان لايزال قائما بالعمل حتى النصف الثاني من القرن السابع، على الرغم من أن سلطته، ربما، كانت اسمية في معظم ولايته الليريا، التي كانت قد خرجت من سيطرة الامبراطورية. الشاهد الثاني أنه ورد ذكر الوالي البريتوري في كتاب De Ceremon-ised[٣٦]. مع الكويستور والايبارخوس التابعين للثيمات، كما يستدل هالدون على وجود الوالي من الأختام المؤرخة مابين ٦٥٠-٧٠٠م وهذا، في نظره يؤكد استمرارية هذا العمل خلال نفس الفترة[٣٧].

ويخلص هالدن إلى القول بأن منصب الوالي البريتوري كان لايزال قائما في نهاية القرن السابع، وربما استمر لفترة أبعد من ذلك، ومن المحتمل أن يكون الوالي قد مارس سلطة عامة على الأقسام التي كانت في السابق تحت سيطرته. مثل الامدادات الخاصة بجيش الاقليم. وأن ذلك المنصب استمر حتى بداية القرن التاسع[٣٨].

كانت كل اشكال الخدمة المدنية في الدولة تعرف بصفة عامة، وبدون تعريف دقيق باسم Militia. غير أن هناك تفرقة واضحة، في الشكل والمضمون، بين المعنى الضيق والمعني الذي يطلق على الخدمة في الجيش كجندي عادي أو ضابط غير مفوض بسلطات كبيرة أو أي موظف يعمل في الخدمة المدنية. أما المناصب العسكرية والإدارية الكبرى وهى ما يطلق عليها Dignitas و Hanores أو administrationes ومن ثم فقد كان هناك اختلاف في الاجراءات الرسمية المتعلقة بالتعيين في هذه الوظائف.

وكانت militia تصدر بمرسوم يعرف باسم probatoria عن إدارة sacra scrinia السكرتارية الامبراطورية، أو من هيئة متواضعة مسئولة عن مثل هذه التعيينات. في حين أن dignitas كانت تمنح بمقتضى قرار codicil يوقع عليه الامبراطور بنفسه ويصدره في معظم الأحوال primicerius notorarium، وهو بمثابة رئيس السجلات الامبراطورية. والفارق الأكثر أهمية بين militia و dignitas أن الأولى تشمل الوظائف الدائمة. أما digitias فكانت في الغالب لاتتجاوز عاما أو عامين ويتوقف البقاء فيها على رضا الامبراطور ورغبته، وإن كانت هناك وظائف من هذا النوع يشغلها صاحبها بصفة دائمة. وكان من الطبيعي أن يحظى بوظائف من هذا النوع

(٣٦) De Cerimoniis Aulae Byzantinae.

صنفه الامبراطور Const. IV. Porph (٩١٣ - ٩٥٩) ويحوي تفاصيل المراسم التي تقام عند اختيار البطارق أو المناسبات الامبراطورية (التي يحضرها الامبراطور) والاحتفالات الدينية الخ. راجع:

C.M.H. IV part II P. 11, p. 17, 135-6 137-229

وقد استمرت هذه المراسم معمولا بها حتى القرن الرابع عشر.

(٣٧) Haldon, Ibid, P. 195-197.

(٣٨) Haldon, Ibid, P. 201.

شخصيات تنتمي إلى طبقة الشيوخ، التي انفتحت لتتسع لعدد أكبر في آواخر القرن السادس، وكان كل افراد هذه الطبقة الممتازة بطبيعتها[٣٩]، يعتبرون clarissimi. والمعروف انه ومنذ عهد فالنتيان الأول روجع وضعهم واستحدث نظام بمقتضاه ظل أعضاء مجلس الشيوخ بحق المولد والذين ينضمون حديثا إلى طبقة الشيوخ بمنحهم لقبهم، وإن كانوا لايشغلون أي منصب، يحتفظون بوضع Clarissimi وكان يسبقهم في المرتبة الذين في مرتبة illustris وهي أعلا مرتبة يختص بها أعضاء مجلس الشيوخ الذين يحملون ولقب spectabilis وكان هؤلاء يحظون بمناصب في الادارة الامبراطورية.

كان الذين يحملون لقب قنصل أوبروقنصل مقدمين على كل الشيوخ. وبفضل احياء قنسطنطين الاول للقب بطريق patricius أصبح هذا اللقب يمنح لأفراد معينين دليلا على تميزهم. وهذا التغير كانت له أهمية خاصة فيما يتعلق بتدرج المراتب الذي سيتطور فيما بعد، إن الرتب على ذلك تغير الارستقراطية بحق المولد لتكون ارستقراطية يظفر بالانضمام إليها أصحاب المناصب. فقد جرى الأمر على أن يستمر أبناء عضو شيوخ من مرتبة illustris في الانتماء بحكم الوراثة إلى طبقة الشيوخ على ان يتمتع فقط باللقب الشامل clarissimus وخلال القرن الخامس بلغت طبقة الشيوخ حدا من التضخم حتى انه كان هناك اتجاه واضح لزيادة امتيازات من كانوا في مرتبة illustris وهي المرتبة التي تفوق غيرها من المراتب الأخرى، وذلك على حساب أصحاب لقب spectabilis و clarissimus وقد كان هناك حرص على تشجيع اصحاب هذه المرتبة، وخاصة اذا كانوا ايضا curiales على البقاء في مناطقهم إذ أعفوا من التعيين في مناصب البريتور والاشتراك في الألقاب البريتورية في القسطنطينية، وهي الرابطة الوحيدة التي تربطهم بالعاصمة وبمجلس الشيوخ. وفي عهد جستنيان كان في إمكان (illoustrioi) وحدهم أن يكونوا أعضاء في مجلس الشيوخ وأن يتخذوا لقب عضو مجلس الشيوخ. ولا يزال لقب Clarissimus لقبا وراثيا يتوارثه أبناء أعضاء مجلس الشيوخ. أما spectablis فقد كان مجرد لقب تشريعي يتمتع صاحبه بامتيازات ضئيلة جداً، ويرتبط بعدد من الوظائف ذات المرتبة الأولى

(٣٩) Jones, The later Roman Empire, Vol.1, 377

المعروف أن جستنيان أصدر تشريعا Nov. 62.1 يسمح بدخول مجلس الشيوخ للمنتمين الى طبقة patricii والقناصل السابقين ومن هم في عداد sertsulli أو illustres inter agentes كما فرض على جميع اعضاء المجلس الامبراطوري consistorium (وفي العادة هم جميع الموظفين السناتوريين) بشهود جلسات مجلس الشيوخ. راجع:

Jones, Ibid,p. 33, Haldon, Ibid, p. 164, No. 113

وكانت عضوية مجلس الشيوخ نفسه، والذي أصبح مجلسا صغيرا نسبيا مرة أخرى ويمنحها الامبراطور مكافأة منه لموظف يحمل لقب illustris سواء كان عاملا أو يكون له كمجرد لقب شرفي ولايعني هذا انه يجب التقيد بالقواعد القانونية، إذ أنه كان في امكان اعضاء مجلس الشيوخ أن يظفروا أحيانا بلقب illustris لأبنائهم إذا التمسوا ذلك من الامبراطور. والنتيجة أن مجلس الشيوخ في القرن السادس كان لايزال مكونا من خليط من الأعضاء بحكم الوراثه وأولئك الذين يعينهم الامبراطور.

على أي حال فإن وجود مجلس الشيوخ في القسطنطينية جعله، كما يتبين مما أسلفنا، يمارس سلطاته ويوطد نفوذه في القرن السابع، ويدعم كيانه بمن انضم إليه من العاملين الجدد في الجهاز البيروقراطي للدولة، والأجهزة الإدارية الأخرى، خاصة وأن طبقة الشيوخ من الأسر القديمة قد فقدت قوتها التقليدية بتناقص ثروات اعضائها، فلم تفق الارستقراطية الصاعدة التي أقبل كثير من أفرادها، وهم على قدر من الثراء، وكثير منهم من ملاك الأراضي، على الظفر من الامبراطور بمناصب dignitas. وليس هناك مايثير الدهشة ان طبقة الشيوخ القديمة قد وفقت أوضاعها مع الصفوة الممتازة من الطبقة الجديدة، والتي برزت في النصف الثاني من القرن السابع، وشغل أفرادها المناصب العسكرية والمدنية الممتازة، وكان في استطاعتهم تملك الأرض ومن ثم يمكنون لأنفسهم في مؤسسات العاصمة[٤٠].

لم تتغير الخطوط العامة للادارة في النظام الذي أوجده دقلديانوس وأكمله خلفاؤه عن النظام البيزنطي المتأخر إلا في بعض التفاصيل التي أدخلت في بداية القرن السابع، ومع ذلك ظل نظام دقلديانوس مستمرا بدون انقطاع مع تعرضه لبعض التعديلات التي تمت تدريجيا والتي أدت إلى احلال مبدأ جديد في البناء الإداري للدولة.

وقد وصف النظام القديم، بأنه ترتيب دقيق وصارم في المراتب والوظائف فقد كان هناك عدد صغير نسبيا من كبار الموظفين والقادة المسؤولين أمام الامبراطور، وكان بقية العاملين في الادارة يندرجون تحت هؤلاء في نظام متسلسل متدرج، في قوائم Noitia Dignitiatum في القرن الخامس، الخاصة بالشرق، من الممكن احصاء اثنتين وعشرين وظيفة كبيرة، في حين لم يكن هناك هذا التسلسل في مراتب الموظفين ولا في عددهم، إذ قفز عدد كبار الموظفين الى ستين. مع ملاحظة ان مسافة الامبراطورية التي كانت تحكم من القسطنطينية في القرن السابع قد ضاقت بعد فقدها لسوريا ومصر

(٤٠) Haldon, Ibid, p. 129 ff, p. 164, 113.

وجانب كبير من شبة جزيرة البلقان فهذه الزيادة في عدد كبار الموظفين والتي بلغت ثلاثة أمثالها في القرن الخامس لتعد زيادة كبيرة بحق[٤١].

ويرى بيوري هذه التغيرات قد حدثت عندما أعيد تنظيم إدارة الولايات بتقسيمها الى عدد من الثيمات وجمعت لحاكمها، وهو strategos قائد عسكري، السلطات العسكرية والمدنية معا، ولا يتلقى أوامره إلا من الامبراطور ولا يخضع لسلطة ma-gister militum أو الوالي البريتوري. وان كان كل من هذين قد زال واختفي ويرى أيضا أن إدارات comes rei privatae, Comes Sacrarum Largitionum, Magister officiorum والتي كانت كل منها تضم عددا من دوائر شتى ويتمتع بكثير من الاختصاصات تفككت إلى إدارات أكثر عددا، ينهض بواجباتها موظفون لكل منهم اختصاص محدد.

ولم تكن هذه التغييرات لتتم دفعة واحدة وكانت كلها تتجه نحو احلال مبدأ التنسيق بين المناصب التي تتساوى في اختصاصاتها والاكثار من الموظفين الكبار بدلا من تركيز السلطة في يد قلة منهم. ويقول بيوري: انه لايستطيع ابراز اسم امبراطور معين، مثل دقلديانوس، يكون قد قام بهذه التغييرات وان كان تحلل النظم القديمة قد تم في عصر أسرة هرقل لتحل محلها نظم جديدة وانه يمكن تلمس ظلال لهذه التغيرات في القرن السادس.

في القرن السادس وجد عدد من ألقاب الشرف الرفيعة dignitates (وهي axia وجمعها axiai) غير المرتبطة بوظيفة وكان الامبراطور يقوم بمنحها ويستثنى منها ألقاب: curopalates, nobilissimus، وقيصر الذي كان يختص به من سيتولى الحكم بعد الامبراطور وأيضا لقب patricius الأكثر شيوعا. وكان قسطنطين قد استحدثه وقصره الامبراطور زينون، بمقتضى قانون أصدره، على أشخاص قد سبق لهم تقلد وظيفة القنصل أو الوالي Praefectus ولكن جستنيان اتاح هذا اللقب لذوي المراتب المرموقة. ويضاف إلى ألقاب الوظائف لقب القنصل ولقب الوالي ولقب milit-um (stratelasis) magister واتضحت الفوارق بين الموظفين القائمين بعمل فعلي (emparaktoi) عن الموظفين الحاملين لألقاب شرفية (apakroi)، والذين ينقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول	illustres vacantes (capratoi)
الفريق الثاني	illustres honorarii

(٤١) Bury, The imperial Administration System, p. 20.

وكان المنتمون إلى الفريق الأول يحملون لقب الوظيفة دون ممارسة اختصاصاتها وكذلك الشارة cingulum الدالة عليها (dia brabeion) أما أفراد الفريق الثاني فقد كانوا يحملون اللقب دون اشارته [٤٢] وفي جميع الحالات كان لقب الشرف يمنح بمقتضى قرار codicil، كما أسلفنا. بشرط أن يكون قد سبق لهم شغل منصب رسمي من قبل. أما بالنسبة لألقاب القنصل والوالي والقائد العسكري، فقد كانت تخلع على أفراد لم يكونوا موظفين رسميين.

وفي القرنين السابع والثامن، ازداد عدد الألقاب الاسمية والشرفية والتي كانت تمنح عند تقلد المنصب مع منح صاحبها شارة السلطة أو الشرف insigma والذين كانوا يضطلعون بأداء واجبات مختلفة تتعلق بخدمة الامبراطور، ومن بين هؤلاء - كما يتضح من دراسة الأختام التي تعود الى القرن السابع، silentarii - المسؤلون عن المحافظة على ا لصمت والهدوء في القصر، وال vestitores وهم من رجال البلاط ويساعدون الامبراطور على ارتداء ملابسه، وال mandateres وهم الذين كانوا يكلفون بأداء مهام معينة وقد يكون لهم أحيانا اختصاصات الشرطة. وينهض شاهد عليهم اختام من القرن السابع. وال candidati المرشحين لشغل وظائف في القصر، وال stratores ويكونون تنظيما عسكريا في البلاط الامبراطوري ويستعملون حكام الولايات، وال spatharii حملة السيوف وهم الحرس الخاص للامبراطور ويرأسهم protospotharios وكان بمقتضى dignitas التي كان يمنحها يحصل على عضوية مجلس الشيوخ[٤٣].

وكان الامبراطور يمنح بعض الأشخاص ألقابا معينة في بعض المناسبات مثل nob-ilissimus و curopalates وقيصر، وهو اللقب الذي كان في القرن السادس يخلع على من سيخلف الامبراطور، ولقب particius. وكانت الألقاب dignitaties تشتق من اسم الوظيفة الفعلية التي يتقلدها من يمنح اللقب بالفعل (بما في ذلك الشارة

(٤٢) نبه بيوري إلى أن فيلوثيوس يستخدم ثلاث مصطلحات: apratoi يقابل vacantes و litoi ويعني أصحاب الألقاب أو الرتب يختص بالمناصب الرفيعة ولكن أصحابها ليسوا بموظفين و paganoi ويقصد بهم موظفين عاديين وليس لهم شارة الوظيفة وانما يمارسون العمل في أعمال عادية. وقد تعني paganoi أيضا تلك الطائفة التي يطلق عليها الاصطلاح السابق litoi.
.Bury, Ibid, p. 21

(٤٣) .Bury, Ibid, p. 20 ff Haldon, Ibid, p. 390 ff
عن انتماء silentarii vestitores إلى مرتبة أعضاء مجلس الشيوخ وعن كون أن بعض أصحاب المناصب كانوا ينتمون إلى طائفة الخصيان الذين كانوا في خدمة القصر الامبراطوري. أنظر:
Haldon, Ibid, p. 390 ff

cingulum أو علامة الوظيفة) أو من يمنح اللقب دون أن يشغل الوظيفة. ومن القرن السادس كان لقب قنصل ولقب والي praefectus ولقب و magister militum تخلع على الاشخاص الذين كانوا يتقلدون هذه الوظائف أو لايتقلدون وظيفة لاتمت لها بصلة. وفي نفس الوقت كان أصحاب الوظائف الكبرى يمنحون تلقائيا وضع الشيوخ وكانت الألقاب الأقل مرتبة وتوصف أنها palatii أي المتصلة بالقصر الأمبراطوري، طريقا آخر للحصول على وضع الشيوخ Senatus. وتمثلت السمة البارزة في النظام الروماني في الفترة المتأخرة من عصر الامبراطورية بالربط بين ألقاب dignitaties الموظفين، واسم الوظائف التي يشغلونها. فيما عدا الألقاب القليلة التي أسلفنا الإشارة إليها. ولكن خلال القرن السابع قويت الرابطة بين الألقاب والوظائف بشكل أكثر صرامة. وقد لاحظ فيلوثيوس في مصنفه kletorologion[٤٤] وكذلك لاحظت مصادر أخرى انقسام الألقاب إلى ألقاب سناتورية وأخرى امبراطورية. ولكن طبقة الشيوخ نفسها لم تعد قائمة، فاختفت بالتالي الألقاب التي كانت تدل عليها مثل endoxotatos. وفي نفس الوقت كانت هناك تفرقة بين الوظائف الحقيقية ونظام الالقاب القديمة، حتى ان المناصب التي كانت معروفة في العصر المتأخر باسم axia dia logou (أي التي تمنح بكلمة من الامبراطور) هي المناصب التي كان يمكن شغلها بلقبها الفعلي، وكان من الممكن أن يضاف إلى شاغلها لقب من مجموعة الألقاب الشرقية القديمة dignitaties[٤٥].

وقد قدمنا أن مؤرخ النظم في القرن السابع لايكاد يجد مايعينه على تقصي التفاصيل الخاصة بها باستثناء بعض مصادر الاختام وبعض المصادر الأدبيه، والمعاصرة، وانه لذلك مضطر إلى الاعتماد على مصادر متأخرة من القرنين التاسع والعاشر. وهذه المصادر المتأخرة قد لاتشفي غليله لأنها بدورها لاتوضح تماما ماساد في هذين القرنين وذلك لطبيعتها التي تميزت بها، فهي تعني بتنظيم احتفالات البلاط الامبراطوري وتقاليده، وترتب الوظائف في نظام هرمي متسلسل بحسب مراتب أصحابها ومكانتهم، أو تعطي بيانا بالوظائف دون أن تعني بايضاح واجبات الموظفين واختصاصاتهم.

---

(٤٤) كلمة kletorolgion مرتبطة بالكلمتين Klesis بمعنى دعوة و klerion بمعنى المأدبة، راجع: The Oxford Dictionary of Byzantine, Vol. 3, p. 1661f.

(٤٥) Idem, P. 391 ff.

وفي الدراسة التي قام بها بيوري لكتاب Kletorologion أورد قائمة باسماء المناصب التي تندرج تحت اسم dignities وعددها (١٨) وأثبت أمام اسم كل منها شارتها وذلك على النحو التالي:

(١)	stsatelates - أ	شارتها (brabeion - Insigre) دبلوما
	apo eparchon - ب	" " " "
(٢)	silentiarios	" " " عصا ذهبية
(٣)	bestetor	" " " دبوس - بروش
(٤)	mandator	" " " صولجـــان
(٥)	kandidatos	" " " سلسلة ذهبية من نوع خاص
(٦)	strator	" " " سوط ذهبي مرصع بالجواهر
(٧)	hypatos	" " " دبلومـــا
(٨)	spatharius	" " " سيف مقبضه من ذهب
(٩)	spatharokandiatos	" " " سلسلة ذهبية من نوع معين
(١٠)	dishypatos	" " " دبلومـــا
(١١)	protospatharios	" " " بنيقة ذهبية مرصعة بالجواهر
(١٢)	patrikios	" " " ألواح عاجية منقوشة
(١٣)	patricius وأيضا anthypatos	" " " ألواح قرمزية منقوشة
(١٤)	majistros	" " " رداء أبيض مطرز بالذهب ومعطف وحزام.
(١٥)	zoste patrikia	" " " ألواح عاجية (مثـل البطريق "١٢")
(١٦)	kouropalates	" " " رداء أحمر ومعطف وحزام.
(١٧)	Mobilissimo	" " " رداء قرمزي ومعطف وحزام.
(١٨)	kaisar	" " " تاج بدون صليب

والألقاب ١ (أ، ب) و ٢ و٣ و٧ و١٠ ألقاب سناتورية وبقية الألقاب ألقاب امبراطورية، وهذا يعني وجود سلكين أو نظامين للمناصب العليا أحدهما سناتوري والآخر عسكري[٤٦].

وقد رتب هالدون الألقاب الآتية بحسب أختام القرنين السابع والثامن، وطبقا لأهميتهـا.

(٤٦) Bury, Ibid, P. 22; The Oxford Dictionary of Byzantium

(١) hypatos قنصل. (٢) apohypaton, patrikios القنصل السابق بطريق.
(٣) apo hypaton القنصل السابق. (٤) patrikios بطريق.
(٥) protospatharios المقطع الأول proto تعني مقدم المدير، والمقطع الثاني يعني حارساً متميزاً.
(٦) spotharios حراس متميزون إما حراس خاصون أو حراس الأمبراطور.
(٧) stratelates قائد أعلى. (٨) skribon ضابط الحرس.
(٩) balnitor القائم على شؤون حمامات القصر.
(١٠) apo eparchon القائم على ملاحظة الضياع "والي المدينة".
(١١) kandidatos مجموعة من حراس القصر الشخصين الذين يرتدون ملابس بيضاء.
(١٢) silentiarios عمال في المحكمة مهمتهم تنحصد في ضبط الحضور وإجبارهم على الصمت والسكون في المحكمة.

ويضيف هالدون إلى هذه الألقاب لقبي vestitor (من يقومون بالخدمة على ملابس الامبراطور أو فى خدمة التاج) و mandator (المبعوثون: رسول خاص أو نقل مبعوث دبلوماسي، لأن أعمالهم أحيانا تتعلق بالاباطرة كما ورد في أختام القرنين السابع والتاسع). ويرى أن الألقاب من (١) إلى (٤) القاب قنصلية وسناتورية أو بالجمع بينها[٤٧].

بينما كان (bodyguards) j الرتب الأعلى من رتبة patricii والرتب التي تعلوها تمنح لاعضاء من طائفتي الشيوخ والعسكريين. ومن الجدير بالملاحظة انه في القرن السابع وجمع لقب spathor ولقب hypatos معاً لشخص واحد[٤٨].

ويبدو أن عددا من الألقاب قد تضاءلت أهميتها تدريجيا في القرن السابع ومن بينها لقب Stratelates أو Magister militum وكان يطلق في السابق على قادة الفرق المهمة. غير أن هذا اللقب في عهد جستنيان صار يطلق على قادة الكتائب المتواضعين. وخلال القرن السابع يأتي لقب strategeos ليطلق على القاد العسكريين في الولايات، أي في مناطق الثيمات وان هذا اللقب قلل من أهمية منصب القائد stratelates، فلم يعد يعني قيامه بأى واجبات مهمة، أو انه على قدر من القدرة والكفاءة[٤٩].

وعلى نحو ماطرأ على لقب stratelates فإن الصفة التي كانت تسبغ على

(٤٧) Haldon, Ibid, p. 393 cf. Bury, Ibid, p. 23.
أنظر ملحق (٣) ص ١، شكل ٢٤١ ، ٨٥.
(٤٨) Bury, Ibid, p. 23.
(٤٩) Haldon, Ibid, p. 164.

المنتمين للمؤسسة السناتورية وهي gloriosus/gloriosissimos و endox-otatos باليونانية - استمرت مستعملة للتعريف بأعضاء مجلس الشيوخ في القسطنطينية، كما سبق. وقرر ذلك جستنيان في novel 62، ولكن هذه الاستمرارية في استعمال هذه الألقاب وما يصحبها من ترتيب أصحابها حسب أهميتهم لايمدنا، كما يرى هالدن، إلا بالقليل ولا يحدثنا على الاطلاق عن استمرار وجود طبقة الشيوخ نفسها على وجه التحديد وهذه الطبقة، سواء أكان ذلك بالمدلول الضيق أو بالمدلول الأوسع يمت إليها كل من كانوا يوصفون بأنهم clarissimi أو spectabiles[٥٠].

وإذا كانت السمة البارزة في النظام الروماني المتأخر كما اسلفنا، هي ربط الألقاب الخاصة بالموظفين dignitaties، وبالوظائف التي يشغلونها فإن ذلك يبدو واضحا في الربط بين لقب hypatos القنصل و apo hypaton البروقنصل، وبين لقب pa-tricius وبين المناصب العليا. غير أن هذا النظام عني أيضا بالربط بين أشخاص من مراتب متواضعة مع مناصب عليا قوية النفوذ. وفي نفس الوقت كانت قاعدة ترتيب الوظائف تتفاوت وتتباين، فمثلا ليس من الواضح أن نتبين لمن كانت التقدمة على الآخر في النصف الثاني من القرن السابع، أكانت للقنصل أم للبطريق بالرغم من أن البطريق كان قد اكتسب مكانة أعلى على حساب القنصل. وغير أنه من المهم ملاحظة انه كان هناك محاولة للتفرقة بين حامل اللقب فقط وبين حامل لقب وظيفة بعينها وان كان هناك اتمام بإضافة صفة امبراطور الى الملقب بالنسبة لبعض الوظائف ويلاحظ أن ذلك كان مقصورا على ألقاب موظفي الامبراطور palatii أو ألقاب schalce الامبراطورية إذ أن ذلك يعني وجودهم في القصر مثلما كان الحال بالنسبة spath-arioi ولمن كانوا iotadidnak و serotadnam ولا تضفي هذه الصيغة على القاب منْحت لأفراد بصفتهم الشخصية مثل sortsigam و soikirtap وhypatos و stratelates.

ومن المهم بصفة خاصة ملاحظة أن الألقاب التي يجب أن تندرج تحت مجموعة الألقاب السناتورية مثل hypatos و apo hypaton و apo eparchon و strat-elates و silentiarios و vestitor إنما كانت جزءا في نظام فريد أساسه رغبة الامبراطور ورضاه عن أصحابها. وكان من الممكن الجمع بينها وبين ألقاب أخرى طبقا للمناصب التي سبق لهم شغلها وبالتأكيد فإن الألقاب التي سلف ذكرها تعني فقط انتماء صحابها إلى الطبقة السناتورية إذ أن صفات illustris و magnificus انتهت في النصف الأول من القرن السابع وبقى gloriosissimus في صيغها

(٥٠) Idem, p. 165.

اليونانية endoxotatos للدلالة على عضوية مجلس الشيوخ ولكن مالبثت هي الأخرى أن انتهت في الأربعينات من القرن السابع. أما بقاء لقب القنصل hypotos والبروقنصل apohypaton حتى القرن الثامن إنما كان لتأكيد أن مجلس الشيوخ لازال يحتفظ بدرجة معينة من النفوذ. ونلاحظ ان منصب eparchon ومنصب se-tacetarts قد قلل من قيمتها. وكذلك فإن لقب apo eparchon فقد اهميته وقيمته في هذه الفترة نفسها. ويلاحظ أيضا أن لقب الوالي السابق انما يعكس ما فقده هذا الوالي من اختصاصات إذ توزعت وظائفه المدنية. وتعيننا الأختام على وقوفنا بشكل واضح على أن الألقاب السناتورية أصبحت ترتب في منازل حسب أهميتها وعلى نفس الأسس التي كانت ترتب عليها الألقاب البلاتينية palatinii أو الامبراطورية ولم يعد لمرتبة الشيوخ أي وجود لأنه لم يعد لطبقة الشيوخ أيضا أي كيان إداري.

وبدلا من ذلك استمرت بعض الألقاب السناتورية انما لتكسب صاحبها الحق في عضوية هيئة المجلس الذي أصبح مختصا بالاحتفالات والتي كان لها دور مهم في المراسم الامبراطورية ومراسم الدولة.

ويعني هذا أن كل الشيوخ تمتعوا برعاية الامبراطور بإدراج ألقابهم السناتورية في النظام الامبراطوري الخاص بترتيب الوظائف. ويعني هذا ضعف أو زوال نفوذ الجماعات ذات التميز الاجتماعي والاقتصادي، والتي كان Illustres ينتمون اليها. وفي الواقع حين كان لمجلس الشيوخ في العاصمة بعض النفوذ، في شؤون الدولة بحكم تكوينه العضوي، إلا أنه لم يعد يمثل أي مصالح اقتصادية. ويعني من ناحية أخرى بروز سيطرة الأرستقراطية من ملاك الأرض.

وكانت الصفوة من طبقة الشيوخ قد أقامت مركزها المتميز على أساس تقلد أفراد ما للوظائف الكبرى وكان منهم الموظفون المحليون في الولايات، وغالبية هؤلاء احتفظوا بدورهم، اما لأنهم لم يتجاوبوا مع الظروف المتغيرة أو أن مكانتهم انخفضت منذ منتصف القرن السابع. ومن ذلك الوقت تحول أعضاء مجلس الشيوخ وباطراد لأن يكونوا من ذوي الألقاب التي يكفلها لهم الامبراطور وكانت مهمتهم الاساسية شهود الحفلات كرمز للتقليد الروماني القديم، وظاهريا كان في إمكان المجلس أن يمثل جهة معارضة أو أن يكون مجلسا استشاريا أو يؤيد الأمبراطور باعتبار أن معظم أعضائه ملحقون بالبلاط الامبراطوري. وكل هؤلاء، على سبيل المثال، كانوا يحملون ألقاب القنصل والبروقنصل والبطريق، وهذا ما يمكن ملاحظته في بداية حكم قسطانز الثاني عندما بدأ المجلس على هذه الصورة وفي السنوات الأخيرة من القرن السابع. ولكن لن يكون لهذه الألقاب صلة بالألقاب الامبراطورية خلال القرن الثامن.

وقد ترتب على حرص الصفوة من أعضاء الشيوخ على تقلد ألقاب امبرطورية، أنهم كانوا يختارون كمبعوثين للامبراطور أو للعمل الدبلوماسي. وهذا من ناحية يؤكد أن هذه الأعمال كانت احتكارا امبراطوريا. ومن ناحية أخرى يكسب هؤلاء الأعضاء مكانة سياسية واجتماعية متميزة من وراء صلتهم بالبلاط الامبراطوري، بصرف النظر من انه كانت لهم مثل هذه المكانة في القرنين الخامس والسادس. ويحاول هالدون أن يقحم الظروف الاقتصادية والأوضاع السياسية التي تعرضت لها الدولة في السنوات التي أعقبت النصف الثاني من القرن السابع، وقد يكون على حق فيما ذكر من اعتماد أعضاء المجلس المرتبطين بالبلاط الامبراطوري على الامبراطور نفسه إذ لم تعد تلك المكانة الاقتصادية التي كانوا يستمدونها من ملكيتهم الأرض، إذ فقدت مراكز الثروة المحلية والمراكز ذات النفوذ مكانتها في القسطنطينية، وفي البلاط الامبراطوري، وكانت هي وحدها السبيل إلى الوصول إلى المكانة الاجتماعية التي ينشدونها. ولم تعد الأوصاف التي كانت تخلع على البعض من أنهم سلالة هذه الأسر أو تلك أو أنهم من نبت طيب أو من سلالة نبيلة أو أنهم على رتبة عالية، وحل محلها في الاختتام صيغة فلان بن فلان مما يوحي بظهور وضع متميز جديد لبعض الافراد من نوع جديد ليستند إلى الأصول القديمة[٥١].

وثمة وظيفة مهمة هي وظيفة والي المدينة ho eparchos te poleos وهي واحدة من الوظائف العليا في الامبراطورية، التي حافظت على اسمها وعلى عملها الذي لم يتغير على مر العصور. وفي العاصمة كانت سلطة والي المدينة كبيرة، إذ انها تلي سلطة الامبراطور مباشرة. وكان عمله قضائيا واداريا للمحافظة على الأمن بها. في نفس الوقت، كان رئيس دائرة الشرطة مسؤولا عن حفظ النظام في المدينة وتنظيم الأعمال المتصلة بالصناعة والتجارة في نقابات ووضعها تحت سيطرته[٥٢] وكان مقر وظيفته في البرايتوريوم praetorium.

ويأتي والي المدينة في Takt. usp. (115) بعد كل القادة Strategoi ومباشرة قبل domestias excubitorum ولكن عند فيلوثيوس كانت مرتبته أعلى، إذ يضعه في مرتبة أعلى من مرتبة Strategoi، قادة الثيمات الغربية، ولكن من جهة أخرى كان وضع الـ Domesticus Excubitorsum قبله مباشرة، وربما يعزى

(٥١) Haldon, Ibid, pp. 395-402.
(٥٢) Bury, Ibid, p. 69.

هذا التغيير في الرتبة إلى الأمبراطور باسيل الأول أو ليو السادس(٥٣). وبعد أن أصبحت الألقاب التي يحملها الموظفون تذكر باليونانية أصبح يطلق على والي المدينة لقب Eparchos (٥٤) وان كان لقبه الرسمي pater poleos بمعنى أب أو والد للمدينة، وما يدل على مكانته إن لم يكن ليسمح لأي خصي الالتحاق بهذه الوظيفة على عكس كثير من الوظائف الأخرى(٥٥).

ووظيفة والي المدينة تدل دلالة أكيدة على أن الحكومة تدخلت لتنظيم العلاقة بين أفراد الشعب وأرباب الحرف كما تدل أيضا على سيطرة الدولة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية. فمن الناحية الاجتماعية الزمت الأبناء بممارسة مهن الآباء. ومن الناحية الاقتصادية جعلت أصحاب الحرف ينتظمون في نقابات خاضعة لسلطة ورقابة الدولة وهي المعروفة باسم Collegia.

وكانت واحدة من مسؤوليات والي المدينة الاشراف على الأسواق وتموين السكان بالقمح. وكما يتضح من كتاب والي المدينة الذي يتألف من مراسيم أصدرتها الدولة للنقابات، والمعروف أن تلك المراسيم لم تصدر عن النقابات أو رؤسائها وإنما، ونجدها تتناول علاقات النقابات بالاحتكارات الحكومية وأهل القسطنطينية والغرباء النازلين بها.

وهناك بعض النقابات تخضع بشكل مباشر لسلطة الحكومة وهذا هو النوع الذي يرتبط بالصناعات التي تتعلق بالسياسة الاقتصادية للدولة، ويتمثل في نقابات صناعة الحرير وما يتصل بها من الحرير الخام وتجهيزه وصباغته ونسجه واعداده للبيع أو للتصدير.

ووظيفة والي المدينة واشرافه على النقابات توضح ليس فقط مقدار سيطرة الحكومة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية كما أسلفنا، ولكنها توضح شكل الحياة الاقتصادية نفسها وذلك بالتعرف على النقابات التي يعمل اعضاؤها في المهن والحرف والصناعة والتجارة(٥٦).

---

(٥٣) Bury, Idem, p. 69.

(٥٤) Idem, p. 69.

(٥٥) كتاب والي المدينة، ترجمة الباز العريني، ص ١٣٦.

Ostrogorsky, The Aristocracy in Byzantium, p. 5 يذكر أن والي المدينة حمل اسم pater poleos Father of the City وهو ينتمي الى الطبقة الارستقراطية.

كتاب الوالي، العريني، ص ١٣٧.

أنظر الكتاب، الادارة المالية في القرن السابع، ص ٢٥٠ ومايليها.

(٥٦) انظر الحاشية السابقة.

وهكذا نرى أن النظام الاداري في القرن السابع شأنه شأن كل النظم، شهد تغيرا واضحا في الوظائف وألقابها ومدلولاتها. وهذا أمر طبيعي لأن القرن السابع هو الفترة التي شهدت انتقال الامبراطورية البيزنطية إلى أوضاع جديدة نتيجة للتطورات، داخلية واقتصادية، واجتماعية ونتيجة لأوضاع خارجية خطيرة. كان لابد للأمبراطورية ازاءهما أن تدافع عن كيانها إن لم يكن عن وجودها.

القانون في القرن السابع الميلادي

لم تتميز الفترة التاريخية من بعد عهد جستنيان الأول وحتى سنة ٧٤١م بين قوانين جديدة لها نفس القوة التي كانت لقوانين جستنيان الأول.

وربما سنت بعض القوانين في القرن السابع خصوصا في فترة حكم الأمبراطور هرقل، الذي عرف عنه بأنه قام باجراء كثير من الإصلاحات الإدارية، ولابد وأن هذه الإصلاحات كانت مصحوبة ببعض القوانين التي تتكفل بتنفيذها.

ولم يكتشف حتى الآن سوى بعض القوانين قليلة الأهمية من الناحية الإدارية، حيث أنها تتعلق برجال الدين، وهي ضمن مجموعة القوانين التي نشرت مابين عامي ٦١٢ و ٦٢٩[٥٧] ومع ذلك فلابد أن يكون هرقل قد ترك بعض الأثر في السلطة التشريعية.

ولكن كيف السبيل إلى البحث عن قوانين هرقل الأخرى والتي لايوجد لها أثر. فلو أخذنا قانون الـ Ecloga، وهو المجموعة القانونية التي ظهرت سنة ٧٤١م والمعروفة بقوانين ليو الثالث، هذه المجموعة هي المجموعة التي ظهرت بعد قوانين جستنيان، وذاعت شهرة هذه القوانين التي اشتملت على قوانين جستنيان بالإضافة إلى فرض سلسلة من العقوبات، وهي عقوبة بتر الأعضاء والتي لم تكن معروفة في قوانين جستنيان. ولكنها مطابقة لقائمة القوانين العرفية Customs law المتطورة في القرن السابع[٥٨].

أما عن القوانين العرفية Customs law، فقد سمح لها جستنيان الأول بأن تبقى عاملة Valid law. ولكن المعلومات عنها محدودة جدا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فضلت بعض أقاليم الامبراطورية، والواقعة على الحدود، القوانين العرفية،

---

(٥٧) Lopez, Byzantine law in the Seventh Century and its Reception by the Germans and the Arabs. In, Byzantion, XVi (1942-3), p. 445.
أيضا: Vasilieve, Ibid,Vol. 1, p. 229.

(٥٨) Hartman, Government & administration. in C.M.H. Vol. IV, p. 30.

وتجاهل السكان فيها القانون الرسمي في عدد من النقاط الهامة واستعاضوا عنه بقوانين القبائل المجاورة[٥٩].

وعلى هذا لاتكون القوانين العرفية شيئا جديدا بالنسبة للقرن السابع. ولكن الجديد فيها هو عقوبة بتر الأعضاء التي ظهرت في الاكلوجا ولم تكن موجودة في قوانين جستنيان.

ويود لوبيز أن يثبت أن عقوبة بتر الأعضاء هي من القوانين التي فرضها الامبراطور هرقل. ويحاول اثبات ذلك بأن تلك القوانين وجد لها صدى في الغرب الأوروبي في الممالك الجرمانية من جهة وفي الشرق عند المسلمين من جهة أخرى حيث أن كل من الشرق والغرب كان متأثرا بالحضارة Greco-Roman، الاغريق الرومان وحاول اثبات ذلك بالإشارة إلى القوانين التي تتحدث عن تزييف النقود والأختام الرسمية والوثائق العامة[٦٠].

ويذكر لوبيزأن إصدار النقود والأختام الرسمية وأوراق البردى الخاصة بالوثائق كان عملا يتصل اتصالا وثيقاً بقوة الحاكم، لهذا فإن جريمة تزييف هذه الأشياء جريمة عامة، من جهة، وموجهة ضد الامبراطورية من جهة اخرى. وتعتبر Lesemajeste، جريمة كبرى، وجريمة مثل هذه كان عقوبتها الموت واعتبرت تدنيسا كاملا للمقدسات.

وعلى العكس لم يربط الجرمان حق سك النقود بقوة الحاكم وعندما أسسوا حكمهم في المناطق الرومانية في الغرب الأوروبي، لم يعترضوا على سك نقود تحمل صورة الامبراطور الشرقي. وعلى الرغم من التقاليد الإدارية التي ورثوها من الامبراطورية الرومانية، فإن سك النقود، في كثير من الممالك الجرمانية، كان عملا مسموحا به يقوم به المواطنون خارج نطاق دور سك النقود الحكومية[٦١].

وقد اعتبر القوط الغربيون أن تزييف النقود والمستندات الرسمية جريمة ترتكب ضد الصالح العام. ولكن ليس لها صلة بحق امتياز الحاكم. واعتبروها عملية تزوير وسرقات عامة تطبق عليها عقوبات التزوير والسرقة الموجودة في القانون الروماني.

ولكن وجد في القوانين القوطية الغربية، وبالذات في عهد الملوك Chindaswintsh (٦٤٢-٦٥٣م) و Recewith (٦٥٣-٦٧٢)، أن من يقوم بتزوير وثيقة ملكية أو

(٥٩) H. J. Scheltema, Byzantine Law, in C.M.H. Vol. IV, Part 2, p. 61.
(٦٠) Lopez, Byzantine law, p. 448
(٦١) Idem, p. 449

العبد الذي يقوم بتزوير النقود، كان عرضة لعقوبة جديدة هي قطع اليد[٦٢].

وفي ايطاليا وفي عهد القوط الشرقيين لم يحدث أي تغير في القوانين الرومانية المطبقة سواء على النقود أو الوثائق العامة ولكن تحت حكم اللومبارديين، وفي عهد الملك روتاري، والذي اعتلى العرش بعد عامين من وفاة هرقل (٦٤٣م)، والذي أصدر أولى التشريعات اللومباردية. في تلك التشريعات طبقت عقوبة قطع اليد على جريمتين فقط. الأولى على الاحتكار الملكي للنقود، والثانية على أي تزييف للعقود Charters[٦٣].

وبالنسبة للعرب فإن لوبيز يستند على البلاذري [٦٤] الذي ذكر أنه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وهو معاصر لهرقل، زيف ختم الخلافة فطلب عمر المشورة. فجاءته نصيحتان: الأولى بقطع يد المزيف، والثانية بجلد المزيف وحبسه. وأخذ عمر بالثانية، وهي عقوبة الجلد والحبس، ويضيف لوبيز أن المشكلة تكررت مرات ومرات ولكن فقهاء مكة أصروا على عقوبة الجلد أو لاعقوبة اطلاقا[٦٥].

إن قول لوبيز بأن الاقتراح بقطع يد مزور الختم في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه، والمعاصر لهرقل، انما هو صدى للقوانين التي شرعها هرقل يعتبر ربط للأحداث وتخمين في غير محله. وذلك نظرا لأن العرب في تلك الفترة كانوا يدينون بالإسلام ولديهم شريعة سماوية بها تفصيل الجرائم الكبرى والعقوبة على تلك الجرائم. وعقوبة قطع اليد وردت في القرآن الكريم الذي نص على السرقة "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءا بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم"[٦٦].

وحيث أنه من الثابت أن الرسول محمد ﷺ كانت ولادته في سنة ٥٧٠م تقريبا، وأنه بعث وهو في سن الأربعين فتكون بعثته في سنة ٦١٠م وكانت هجرته إلى المدينة بعد ثلاثة عشر سنة أي سنة ٦٢٣م. وأن الرسول ﷺ توفي بعد الهجرة بحوالي عشر سنوات أي حوالى سنة ٦٣٣م. وأن سورة المائدة، التي ورد بها نص قطع اليد، هي سورة مدنية، نزلت في المدينة، أي خلال الفترة (٦٢٣-٦٣٣م) وهو تاريخ معاصر للامبراطور هرقل وربما يكون سابق لتشريعاته أو حتى لصدى تشريعاته، التي قال بها لوبيز، والذي ظهر على حد قول لوبيز بعد سنة ٦٤٢م أي بعد وفاة الامبراطور هرقل نفسه.

---

(٦٢) Idem, p. 450.

(٦٣) Idem, p. 451.

(٦٤) البلاذري - فتوح البلدان، ص ٤٤٧ - ٤٥٠.

(٦٥) Idem, p. 452.

(٦٦) سورة المائدة، آية: (٣٨).

وبذلك لايمكن القول بأن العرب المسلمين اقتبسوا فكرة بتر الأعضاء من القوانين الرومانية ولكن الأمر واضح بالنسبة للعرب حيث أنهم رفضوا تنفيذها على جريمة التزوير. لأن جريمة التزوير في الشريعة الإسلامية تشملها قاعدة التعزير. والتعزير في الاسلام متروك تحديده للقضاء، وهو متفاوت ما بين القتل والنفي والجلد والحبس حسب ظروف الجريمة وأثرها على المجتمع. وبذلك لايكون هناك ربط بين مقالة لوبيز بتأثير قوانين هرقل، إن وجدت على العرب، وبالذات في تلك الفترة. باعتبار العرب المسلمين ناشرين للدعوة الاسلامية ومبادئها القائمة على القرآن الكريم. وعلى الشريعة الاسلامية. وهذا الجانب مؤكد من حيث عدم تأثره بالقوانين الرومانية.

أما بالنسبة للجرمان وتطبيق القوانين الرومانية فهو أمر وارد، باعتبار تبعيتهم وتأثرهم بالحضارة الرومانية، من جهة، والديانة المسيحية من جهة أخرى، لذا فربما تكون تطبيقاتهم للقوانين الرومانية تطبيقا بدون تحريف لذلك القانون، نظرا لما للامبراطورية الرومانية من هيبة واحترام في نفوس الجرمان. أما محاولة ربطها بالعرب المسلمين فهي محاولة فاشلة لأن للمسلمين تشريعات سماوية منزلة لاتقبل الجدل.

ونحن نؤيد الفكرة بأن هرقل لابد وأن يكون قد استصدر قوانينا جديدة لتتلاءم مع ماقام به من تغييرات واصلاحات ادارية. ولكن يجب الاعتراف بعدم وصول تلك القوانين، ويجب الاعتراف أيضا بأنه لايمكن الربط بين ماوجد من تشريعات خاصة في المناطق المحيطة بالامبراطورية والقول بأن تلك التشريعات ماهي إلا صدى لتشريعات مماثلة في الامبراطورية، ومع ذلك فهناك مجموعتان من المجموعات القانونية التي نفذت في الامبراطورية هما قانون البحر الروديسي وقانون الفلاح، وهاتان المجموعتان تنسبان إلى القرن السابع.

وقانون البحر الروديسي The Lex Rodia (Rhodian Sealaw) هو مجموعة خاصة عبارة عن أحكام قانونية خاصة بالسفن والتجارة البحرية وينقسم إلى ثلاثة أقسام. مقدمة - ثم الجزء الثاني وربما يحتوي على بعض المواد القانونية القديمة، ثم الجزء الثالث[٦٧] وربما كان بعضه اقتبس من مقالات من كتاب "التاجرالكامل" وهو بمثابة دليل لأي إنسان يريد أن يزاول عملا تجاريا. ومن الجائز أن تكون أجزاء فيه اقتبست من منشورات البيزنطيين ولكن معظمه لابد ان يكون مصدره العادات المحلية.

وقانون الفلاح Farmarslaw أو nomos georgiros Leges Rusticae فهو

(٦٧) Scheltema, Byzantine Law, C. M. H. vol. IV, part 2, p. 62-69
أيضا: الامبراطورية البيزنطية، ص ٢٥٩.

قانون خاص بالمقاطعات. ويؤرخ له من نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن. وقانون الفلاح يحمل معلومات عن الظروف في الريف، ولكن لايعطي معلومات عن الزمان أو المكان الذي كتب فيه. وأن السكان الذين يشير إليهم هم مستأجرون Tenants، والذين لايرتبطون بالأرض، وأنهم من فئة صغار الملاك. وغياب الفلاحين غير المستقلين في هذا القانون لايعني أنهم لم يكونوا موجودين. ومن المحتمل أن هذه القوانين كتبت من أجل مقاطعة معينة[٦٨].

وتوجد مقالة هامة تتحدث عن الجذور التاريخية القانونية لقانون الفلاح[٦٩]. والسؤال الذي طرحه الباحث يتعلق بشقين: الأول: التاريخ الذي جمعت فيه مواد هذا القانون، والشق الثاني أصل هذا القانون. وحتى الآن لم يتوصل العلماء إلى اتفاق حول الأصل القانوني الذي أخذت منه مواد هذا القانون. ويهتم هذا المقال فقط بالأصل الذي أخذت منه القواعد التي يتألف منها قانون الفلاح. لذلك يشير إلى الدراسات التي ظهرت في غضون السنوات الخمس والعشرين السابقة لمقالته والتي تتحدث عن الظاهرة القانونية التي يمثلها القانون الزراعي أو قانون الفلاح ومن بينها: دراسة Franz Dolger التي تتلخص في أن قانون الفلاح تجميع خاص أخذ من الـ Corpus Iuris Civilis ومن اليونان Paratitla ودراسة J. De Malafosse في مقالة.

LesLoisagraires a L'e peque byzantine (Rec. de l'acad, de Legrislation 19, 1949).

والتي انتهى فيها إلى القول بأن قانون الفلاح يستند إلى الأسس التي قامت عليها قوانين الامبراطورية الرومانية المتأخرة.

ودراسة Jeankarayannopulos

Entschung und Bedeutung des Nomos Georgikos (Byzantynische Zeitschrift 51. 1958), p. 357

الذي قال: إن البنود الخاصة بالأمور المالية ليست كلها أصيلة تماما، ودافعت Eva Cantarella عن هذه الفكرة، وأبرزت الدور الذي لعبه نظام الـ Allelsngue Muteral Security في النظام المالي في العصور الوسطى البيزنطية، وأرجعت أصوله إلى العصر البطليمى.

---

(٦٨) .Idem, p. 64

(٦٩) Henryk, Kupiszweski, Le Droit Hellenistique Dans le Nomos (Georikoz) in: The Journal of Justice Papyrology, Vol. XVI-XVII. Warsaw 1971, pp. 85-98.

والواقع، ليس من السهل انكار تأثير الامبراطورية البيزنطية في كثير من نظمها بما كان يسود الشرق من تراث هليني وكان على القوانين المحلية مواجهة القانون الروماني.

ويحاول كاتب المقال إرجاع بعض ماجاء في قانون الفلاح إلى مؤثرات هلينية وإلي العهد القديم. ويستدل بالفقرتين (٩، ١٠) من قانون الفلاح اللتين تنصان على أن المالك الذي يؤجر أرضه إلى مزارع له حق العشر من محصولها. ونصيب المزارع بالمشاركة تسع ربطات وللمالك Kordatos واحدة. ويقول إن قيمة الإيجار وعدم العبث لسوء الإدارة يرجع إلى أصل ديني. فتقدير القيمة بالعشر Dekate يتقابل مع الشريعة التوراتية. ومنح العبد جزءا من المحصول باعتبار ان الله هو مالك كل شيء حي فإليه يقدم أفضل مايخرج من المحصول.

(ولا أدري ما الذي يدفع كاتب هذا المقال إلى اقحام العهد القديم هنا وما يقدم للعبد)؟

المهم متابعة مناقشته فيما ذهب إليه من شيوع Dekote فكرة العشر في مختلف مناطق البحر المتوسط وعلى رأسها الممالك الهلينستية. ويستشهد بكتاب الإقتصاد Oikonomikon[٧٠]، المنسوب إلى أرسطو، أن العشر يمثل أحد موارد الدولة من محاصيل الأرض، والعشر يعتبر نصيب المالك فهو كضريبة أو إيجار لأرض. وكانت ضريبة العشر تمثل أحد الموارد المالية الهامة للسلوقيين، وأحد الأسس التي قام عليها نظامهم المالي. وكذلك الحال بالنسبة للبطالمة وقد أورد كاتب المقالة نصاً نقش Tel-emesos في صقلية، الذى يشير إلى فرض ضريبة العشر على أرض البساتين "الحدائق" Zulinwn karpwn، وأرض المراعي Ennomion وأشار الكاتب نقلا عن يوسف، المؤرخ اليهودي، أن بطليموس الرابع "ويوارجينس" أمر بتحصيل تلك الضريبة، وذلك بمقتضى قانون nomos Telwnikos، من الملاك ومن مزارعي الدولة. كما أشار الكاتب إلى وجود عدد من نصوص البردى البطلمي تظهر ضريبة العشر وارتباط هذه الضريبة بضرائب نوعية أخرى.

وفي العصر الروماني كان كثير من الولايات الرومانية وعلى رأسها صقلية نحصل ضريبة العشر. حيث كانت ضريبة العشر بمثابة حجر الأساس في قوانين هيون الثاني، طاغية سيراكوز، المالية وهي مؤسسة على النظام المالي الهلينستي. وعلى سبيل المثال

---

(٧٠) هذا الكتاب الف للملوك ليستفيدوا من قوانين الاقتصاد واجراءاتها.

أن مزارعي الأرض العامة Oratores ملاكا كانوا أو Metayers مستأجرين، كانوا يدفعون ضرائب عقارية تشمل ضريبة العشر Decumasuriptura، ولم تفرض "تأخذ" الدولة هذه الضرائب مباشرة وإنما كان يحصلها جباة الضرائب. ولم تكن صقلية هي الولاية الوحيدة التي كانت تدفع ضريبة العشر، بل انه نسب إلى ماركوس انطونيوس، انه بعد وفاة أتاللوس الثالث ملك برجامة، وافق الرومان على اعفاءات مالية لمواطني هذه المنطقة وفرضوا عليهم فيما بعد Decuma "العُشر".

ولم يحرص جستنيان على احياء نظام الـ Decuma "العشر". وفي ضوء هذه الملاحظات فإن القول بالأصل التوراتي والهلينستي قوي. ولم يكن نظام العشر نظاماً متأصلاً في الامبراطورية، وانما استمر بدون توقف كتقليد محلي وأوصى به ماجاء في العهدين القديم والحديث. وحرص آباء الكنيسة على توظيف نفوذهم لتطوير هذه الضريبة وقد حث القديس Jean Chrysostome على المساهمة في التبرع فى أوجه الخير بالعشر.

ولمحاولة ربط قانون الفلاح بالأصول الرومانية أخذ كاتب المقالة بعض الفقرات من قانون الفلاح وربطها بالقانون الروماني ليؤكد تلك الأصول الرومانية وهي على النحو التالي:

ماتحدثه الماشيه من خسائر

الفقرة ٢٣ من قانون الفلاح تقول. إذا تسلم الراعي ثورا من المزارع في الصباح وخلطه بالقطيع وحدث أن ذئبا افترسه فعليه أن يشرح ماحدث لصاحبه ومن ثم لايلحقه أي أذى، أي لاتقع عليه أي مسئولية جنائية. وهذه الفقرة توافق مع (A.D. ١٩٥م) P. Balez وهو يتعلق بنقل الجمال حيث نص على أنه إذا شردت إحدى النياق عن القطيع فاننا سوف لانبحث عنها وسوف لانطلب عوضا عنها. كما ورد في نفس الفقرة انه لامسئولية على الراعي إذا فقدت الماشية أو أصابها ضرر طالما انه لم يقترف سرقة أو إنه لم يشترك في إحداث الضرر.

الفقرة ٢٤ تقول: في حالة فقدان ثور فإذا لم يبلغ الراعي في نفس اليوم فإنه يؤاخذ، أما إذا بادر بالإبلاغ وشرح ظروف الحادث فلا مسئولية عليه.

الفقرة ٢٥ - إذا كان الثور قد نفر عن قطيع الماشية وأتلف أراضي مزروعة فإن الراعي لايحرم من أجره ولكن عليه تعويض ما أتلفه الثور النافر.

أما الفقرات من ٢٦ - ٢٨ فتدور حول حالة أن الراعي فقد الحيوان أو أصابه جرح أو عجز، يجب على الراعي أن يقسم بالله انه لم يتسبب في الخطأ ومن ثم فلا مسئولية عليه.

وفي رأي M. J. de Malafosse أن الخسائر التي تلحقها الماشية بمتلكات الغير فى القانون الروماني Port Classique ولم تأخذ في اعتبارها Culpa in omit-tendo وفي رأيه أيضا أن الفقرات ٢٣-٢٨ من قانون الفلاح قواعد لايجوز القياس عليها. وفي رأي كاتب المقال أن هذه القواعد تستمد أصولها من الاجراءات القضائية التي كانت سائدة في عصر الامبراطورية السفلى "المبكرة"، وانها أخذت عن الاجراءات القانونية التي كانت تسود الشرق الأدنى حيث كان للراعى أهمية كبرى في الحياة الاقتصادية. ويعود الكاتب بهذه الاجراءات إلى تشريعات حمورابي وبالذات الفقرة ٢٦٦ وإلى سفر الخروج ١٢-٩ر٢ وإلى(P Bable 2 (190AD وهو خاص بنقل الجمال إذا شرد أحدها وحاد عن الطريق سوف لايطالب الراعي برد Tessere أو بأي شيء.

ولا نسوق هذا التشابه دليلا على أن ما احتوته قوانين الفلاح بهذا الخصوص قد اشتقت من قوانين الرعي، بل على العكس أن المواد ٢٣-٢٨ فيما يبدو من صياغتها أنها صيغت جزئيا من تقاليد كانت تراعى في الولايات الشرقية تعود إلى قرون كثيرة مضت.

السرقـــة

يشتمل قانون الفلاح على لوائح خاصة بالسرقة، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع.

المجموعة الأولى: كثيرة ومتعددة وتشمل السرقات البسيطة مثل سرقة المحاصيل إذا قام بها حارسها أو القائم على زراعتها. ففي الفقرة ٣٢ إذا اكتشف أن حارس فاكهة تقدم لسرقتها في المكان الذي يتولى حراسته فإنه يفقد راتبه ويضرب ضربا بليغا.

الفقرة ٣٤ سرقة حليب البقر: إذا وجد راع يستأجره صاحب القطيع يحلب الأبقار بدون علمه ويقوم ببيع لبنها يضربه ويحرمه من أجره.

الفقرة ٦٠ سرقة الحبوب من الأجران وسرقة حزم القمح من الحقول وقت المحصول. إذا تسلل أي شخص وقت المحصول إلى حقل محروث مملوك لشخص آخر وقطع حزما من القمح أو سنابله يضرب بالسياط ويؤخذ قميصه.

الفقرة ٦٨ إذا وجد رجل في جرن يسرق من القمح يضرب مئة جلدة وأن يعوض صاحب الجرن، وإذا ضبط مرة أخرى يدفع قيمة الخسائر بسبب سرقته، أما إذا ضبط مرة ثانية فلتفقأ عيناه.

الفقرة ٦٩ إذا أقدم رجل في الليل على سرقة خمر من قنينتها فإنه يلقى نفس العقوبة المذكورة في الفقرة السابقة.

المجموعة الثانية: سرقة ممتلكات منقولة

الفقرة ٣٥: إذا وجد شخص يسرق نبتا Straw فإنه يغرم ضعف ثمنه.

الفقرة ٣٦: إذا أخذ رجل ثورا أو حمارا أو أي حيوان أخر بدون علم صاحبه واستخدمه في عمل. فعليه أن يعطي ضعف إيجاره وإذا مات الحيوان على الطريق فإنه يرد اثنين مقابل واحد مهما كان أمره.

الفقرة ٤١: إذا سرق شخص ثورا أو حماراً وضبط متلبسا فإنه يجلد ويغرم قيمته وكل ماجناه من ربح بسببه.

الفقرة ٦٣: من يحرق مزرعة غيره أو يسرقها يدفع ضعف قيمتها.

المجموعة الثالثة: وتشمل البندين من (٦٠ ، ٦١)

سارق القمح أو النبيذ للمرة الاولى يدفع مثل ثمنها Simplum، للمرة الثانية يدفع الضعف duplum، المرة الثالثة فقء العين. وإذا بحثنا عن أصل العقوبات البدنية في قوانين أخرى لانجد لهذه القوانين أي أثر لا في القانون اليوناني ولا في القانون الروماني، ففي أثينا نجد عند أرسطو Problemata 29,14 عقوبة الموت لمن يسرق في الحمامات العامة او البلاسترا أو أى مكان عام. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لمدينة تريد أن تحافظ على سمعتها من حيث الأمن الذي يجب توفره ضمانا لمصالحها التجارية. أمّا بالنسبة لسرقات المنازل الخاصة نجد عند أرسطو Problemata 29,14 انه من يرتكب سرقة في منزل خاص يدفع السارق ضعف ثمن ماسرق Duplum. ولكن أرسطو لايوضح ما إذا كان يتعين علي السارق رد الشيء المسروق، ولم يوضح ما إذا كان بعد دفعه ضعف ثمنه هل يحق له تملكه؟ وقد يكون رد المسروق مفهوم ضمنا فلم يشر إلى قانون ينص على ذلك. غير أن قانون اثينا لديموشيس (C. Timocr. 105) يبدد شكوكنا حيث ينص على أنه إذا استعاد (من عند السارق) شيئا ضائعا فإن العقوبة تحدد بضعف ثمنها وعلى العكس من ذلك، تحدد العقوبة بنصف قيمة الشيء المذكور في الشكوى فتكون المسألة واضحة عقوبة ضعف الثمن مع رد الشيء المسروق.

وهذه الصيغة الخاصة بمسئولية السارق نجدها في القانون الروماني: فالسرقة في روما عمل جنائي Actio Furti كما هي في أثينا. ولاتعد السرقة في كل من أثينا وروما وسيلة لاكتساب الملكية، ولا تمنح السارق حق الاحتفاظ بالمسروقات، حيث ان قوانين الألواح الإثنى عشر تمنع امتلاك Usucapio الأشياء المسروقة.

وهكذا في تحديد المسؤلية الجنائية في حالة السرقة تستند تشريعات جستنيان إلى مبدأ الجمع بين الاجرائين "العقوبة الجنائية ورد الحق إلى صاحبه".

وبالعودة إلى قانون الفلاح لانجد نصا يجعلنا نظن أن اللص بعد أن يستوفي عقابه يكون ملزما برد الشيء الذي سرقه. والذي يمكننا استنتاجه أن العقوبة المالية تتحقق عينا in Matura. وتتضمن اعادة الشيء المسروق. وهذا الفارق في المسؤلية الجنائية التي نجدها في قانون الفلاح تشبه كثيرا، بشكل يثير الدهشة، ما نص عليه في الاكلوجا Ecloga من ضرورة إلزام السارق بإعادة الشيء المسروق وإلزامه أيضا بتعويض عن الشيء المسروق بضعف قيمته Poena dupl, (e.c. 17, 11).

ولكن مازال هناك خلاف بين مواد قانون الفلاح ومواد القانون الروماني. ففي القانون الروماني يذكر Furtum بصفة شاملة: Fartam'rei, Furtum Possessionis, Furtum Usus. في حين أن قانون الفلاح يتعلق فقط بأل Furtum rei والفقرة ٦٢ فقط تذكر Furtum Urus الروماني وتنص على أولئك الذين يسرقون محراثا Rotron أو سلاح المحراث unen أو الميزان Zugos أو أي آخر يدفع، تعويضا عما ألحقوه تبعا لعدد الأيام منذ يوم السرقة وذلك بواقع ١٢ فوليس Folles عن كل يوم.

وترد العقوبة نفسها في الفقرة (٣٧) إذ تنص على أنه إذا أخذ شخص ثورا للعمل به ونفق الثور فعلى القضاة أن يقدروا ما إذا كان قد مات في نفس العمل الذي أجر من أجله فلا يترتب عليه عوض، أما إذا كان نفوقه في عمل آخر فعلى من أخذه دفع قيمته لصاحبه.

لم يكن للقانون المتأخر من العصر الكلاسيكي والذي فرض Poena quadrupli التي تشمل قيمة الشيء المسروق والعقوبة Peine affligé، أي تأثير على قانون الفلاح فيما يخص السرقة. ولم يصل هذا القانون إلى المستوى الذي وصل اليه القانون المتأخر في العصور الكلاسيكية، إذ أنه لم يقرن مبدأ إعادة الشيء المسروق ومبدأ العقوبة. ونص فقط على دفع قيمة التعويض. وبمعنى آخر استبدل بعقوبة دفع ضعف قيمة المسروق Duplum بدلا من Quadruplin، ومن ثم فإننا نفترض أن قانون الفلاح كان يستند إلى عرف محلي. ومادة الـ Antichresis، وهي عبارة عن القرض أو الدين في قانون الفلاح. الفقرة ٦٧ تنص على انه إذا أخذ قوم أرضا لحساب فوائد دين ويثبت انهم تمتعوا باستغلالها لفترة تمتد أكثر من سبع سنوات، فيراع القاضي عند انتهاء فترة السنوات السبع بالحكم لهم، كمبدأ بجزء من الأرباح وليس كلها.

والفقرة ٦٧ فقط تعني انه بعد فترة سبع سنوات فإن استعمال الأرض التي تعطي للمقترض، يعطي النصف من أرباحها سدادا للدين وذلك حماية للمالك الصغير.

ونظام الـ Antichresis معروف في المناطق الشرقية من البحر المتوسط قديما في القوانين المسمارية "قوانين حمورابي أو التشردي اليهودي والقانون اليوناني والقانون الروماني.

فعقد الـ Antichresis يمكن أن يكون بضمان أو بغير ضمان ولا نجد لهذه المادة (٦٧) من قانون الفلاح مثيلا. فالأصل الهلينستي هو المرجح. إذ ثمة قوانين هلنستية تستهدف حماية المقترض من المقرض. وتوجد برديات بطلمية ورومانية توضح أن صاحب الدين يطالب بدينه مضافا إليه الأرباح Tsoi Tokoi.

وهناك اجراء تشريعي آخر يستهدف حماية المدين "المقترض" ينص على انه ليس في استطاعة المقرض أو المقترض أن يحقق ربحا غير قانوني بمقتضى الزام بضمانه.

ويشهد على هذا النوع من العقود التي تضمن استعادة الدائن لدينه وفوائده عدد كبير من البرديات من العصر الهلينستى ولم يعرفه القانون الروماني، إلا في نهاية العصر الكلاسيكي. ومن ثم لم يرد ذكر فترة السنوات السبع التي وردت في قانون الفلاح. والخلاصة أن قانون الفلاح أخذ بعرف كان يسود الشرق المتأغرق[٧١].

وإذا كان هذا الباحث قد أرجع أصول قانون الفلاح إلى الأصل الهلينستي فهناك بحث آخر قدمه Ashburner[٧٢] كمقدمة لقانون الفلاح الذي قام بترجمته ومناقشة الجذور التاريخية لذلك القانون، والذي ناقش فيه آراء زكريا[٧٣] وهو أبرز الباحثين المهتمين بدراسة القوانين والتي تتلخص في النقاط التالية: أولا: أن زكريا يقول إن قانون الفلاح من وضع الأباطرة الايسوريين ليو Leo وقنسطنطين Constantine وانه نشر مع قانون الاكلوجا أو بعدها بقليل. وان زكريا قد أقام نظريته تلك على أساس أوجه شبه معينة في الجمل والأسلوب من جهة والمواد التي يتألف منها القانونين من جهة أخرى. ويرد Ashburner على هذه النقطة بقوله: ان هناك وجه شبه عام في كل من الأسلوب والكلمات لايمكن انكاره، ولكن وجه الشبه هذا لايبرهن على شيء أكثر من ان القانونين قد ألفا في نفس الوقت تقريبا. وأن الشبه في الكلمات يمكن ايجاده بين قانون الفلاح وبين أوراق البردى البيزنطية الخاصة بالقرنين السابع والثامن. والبرهان الوحيد الذي لايحتاج إلى برهان هو أن المحامين في تلك الفترة قد استعملوا نفس

---

(٧١) Henryk kupiszewski, Ibid, PP. 85-98

(٧٢) W. Ashburner, The Farmers Law: JH. 530 (1910) 85-108 and 32 (1912), 68-95.

(٧٣) Zacharia Von Lingenthal, Geschicht des Griechasd Romischeu Rechts, 3rd ed, PP. 249-57.

الجمل. والجزء الثاني من نظرية زكريا هو إن مواد القانونين واحدة. لأن المطابقات التي قدمها زكريا بين كل من قانون الفلاح والاكلوجا تدل على أن مادة كل منهما مستقاة من الـ Code والـ Digest والمؤلفات الأخرى للقانون الروماني، التي وضعها جستنيان الأول. ورد Ashburner على هذه النقطة، أن القانون الروماني معروف بشكل مباشر او بشكل غير مباشر بالنسبة لمؤلف الاكلوجا ومؤلف قانون الفلاح. وصحيح ان هناك مطابقة عامة في كل منهما وكذلك توجد فوارق في التفاصيل في كل منهما مما يوضح لنا ان القانون الروماني قد تسرب اليهما من خلال عدة قنوات.

والنقطة الثانية التي يستند اليها زكريا، هو الشبه بين العقوبات في كل من قانون الفلاح وقانون الاكلوجا. وقد وضع كل تركيزه على نقطة التوسع في استعمال عقوبة بتر الأعضاء في كل من القانونين. وان شكل عقوبة بتر الاعضاء التي ترد بصفة عامة في قانون الفلاح هي عقوبة قطع اليد والتي تعود إلى القرن الأول الميلادي. هذا بالاضافة الى قطع اللسان "انظر فقره ٢٨ من قانون الفلاح" وفقء العين[٧٤] ويشير Ashburner إلى أن هذه العقوبات كانت موجودة قبل عهد الأباطرة الايسوريين أما التطبيقات التي أشير اليها في الاكلوجا فهي فقرة ٦ (XVii20) او الثاني عشر (XVii.1, 19) وفي قانون الفلاح الفقرات: ٧٦، ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ وأيضا في الفقرات ٦٨ و ٦٩ و ٧٥. ويذكر Ashburner انه على الرغم من أن زكريا يصر على وجه الشبه المشار اليه إلا أنه تبقى هناك بعض نقاط بعدم المطابقة في كل من القانونين.

والنقطة الثالثة التي يثيرها زكريا هو ان قانون الفلاح ملم بأحوال العبيد وليس الاحرار Upodes Poteian Telountes Georgoi او Enupografoi وان قانون الفلاح لايعرف شيئا عن الارتباط بالأرض، ولا خدمة العوض الاجباري التي يقدمها الاحرار لمالك الارض. وأن الفلاح يستطيع أن يغادر الأرض التي أعطيت له مقابل تعويض الخسارة للمالك. ويندد بالمادة ١٦ من قانون الفلاح، ومن هنا يحاول أن يبرز ميزة من مميزات قانون الاكلوجا الذي أمر فيه الأباطرة الايسوريون بإزالة الخدمات الاجبارية والسماح بحرية الحركة.

ويرد Ashburner على ذلك بقوله: يبدو أن كل هذه الملحوظات قد بنيت على أساس من سوء الفهم. سوء فهم لهدف قوانين الفلاح وسوء فهم للمواد التي أمدته. ان قانون الفلاح ليس قانونا زراعيا كاملا تضمن كل طبقات المزارعين ضمن الامبراطورية،

---

(٧٤) Ashburner, Ibid, PP. 73-77-75 .

ويقرر علاقاتهم، ليس فقط بين بعضهم البعض، ولكن بالاشارة إلى ملاك الأرض وإلى الدولة وهو يتعلق على وجه الحصر والتحديد بقرية ومجتمعها، المؤلفة من المزارعين، الذين يزرعون أراضيهم الخاصة، والمواد أو الأجزاء التي تشير إلى العلاقة بين ملاك الأرض والمستأجرين، تتعامل، باستثناء المادتين (٩، ١٠)، التأجير من مزارع إلى آخر. وتثار أسئلة الاستئجار من حيث اننا نجد ان مزارعا فقيرا لدرجة لايستطيع معها ان يزرع أرضه لذا فهو يتخلى عن زراعتها إلى شخص آخر يستطيع القيام بتلك المهمة.

وقانون الفلاح يتعامل مع المزارع الذي يملك الأرض التي يزرعها وحتى لو بدا أنه يملك حق الهجرة وهذا لايقوم شاهداً على الطبقات الأخرى التي ألمح اليها زكريا. ولكن من المشكوك فيه أن قانون الفلاح أظهر وجود حق الهجرة. حتى اذا كان المزارع هو نفسه أساس التمويل للزراعة ولتفسير ذلك يجب القاء المزيد من الضوء على ظروف المزارع الحر المالك. حيث ان كل القوانين، ابتداء من قانون ثيودوسيوس وقوانين جستنيان وقانون الفلاح كانت موجهة إلى طبقات مرتبطة بالأرض والمباديء في تلك القوانين، كانت قاسية وصلبة، وليس لها مرونة الظروف الاجتماعية. وتلك القوانين كانت تطبق على السكان الذين يقيمون في الارض. وكانوا مثبتين بصفة رئيسية لصالح كبار الملاك، وهي في نفس الوقت تخدم صالح الخزينة العامة وذلك لتأمين خدمات الضرائب. والـ Colonus أو المزارع الملتصق بالأرض والذي يزرع أرضه الخاصة التي يملكها والذي كان عضواً في الـ Vicus، وكان مقيدا في أن يبقى مع جماعة الـ Vicini، وعليه ان يدفع نصيبه في الضرائب المفروضه على Colonus Vicus الذي يزرع أرض غيره، والذي عليه (Xi. 24,6, 3) أن يبقى ضمن الأرض أو المقاطعة الكبرى Dominus، وذلك ما ورد في قانون Thedosios. وبدون شك، وبالرغم من كل القوانين، فإن المزارعين من الطبقتين كانوا يتركون الأرض وينتقلون إلى أماكن اخرى، وان تكرار التحريم على ترك الأرض يقوم شاهداً على ذلك. وأن المزارع الذي يعمل في مقاطعة كبيرة Dominus كان الهروب أمر سهل بالنسبة له، اكثر من المزارع الذي يعمل تحت رقابة السيد المالك. كما انه يوجد شاهد على ان المزارعين المهاجرين كان يسمح لهم بالبقاء في المكان الذي هاجروا إليه شرط أن يقوموا بدفع نصيبهم في الضرائب العامة المفروضة على المنطقة التي خرجوا منها.

وباختصار فإنه من الصعب الموافقة على ماقال به زكريا فينان المجتمع الذي وصفه قانون الفلاح يستطيع المزارع ان يهاجر بحرية من مكان إلى آخر بدون قيود. ويشير Ashburner إلى أن المادتين ١٨ و ١٩ من قانون الفلاح من المواد الصعبة ولكنهما تشيران بقوة إلى أن المزارع ليس له الحق في مغادرة حقله.

رابعا: يشير زكريا إلى أن قانون الفلاح يتعامل مع انتاج الآرض والعلاقة بين المالك والمستأجر وان المادتين ٩ و ١٠ من قانون الفلاح تشير إلى كل من Mortites و Kwrdotes وانه لاتتكرر كل من الكلمتين في أي مادة أخرى من مواد القانون. وفي الواقع ان الكلمتين نادرتين حتى في الأدب البيزنطي. إن حصة الـ Mortites هي تسعة اقسام وأن حصة الـ Kwrdotes هي واحدة فقط. ثانيا. ان المادتين ١١، ١٥ من قانون الفلاح تتعامل مع الـ Emisiates.

لقد رسم زكريا اختلافاً بين كلمتي Mortites و Emisiates فكلمة Mortites في قانون الفلاح تعني المزارع الذي يزرع أرض غيره ويسلم إلى مالك الأرض حصة من الانتاج. ومن الملاحظ ان زكريا قد عرّف مالك الأرض بأنه الـ Mortites أو الـ Ku-rios Tes Kwras وهو خطأ. وان كلمة Morotites يجب مقارنتها بالـ Misthw-tos او الـ Colonu بالمعنى الضيق للكلمة، كما ظهر في قوانين جستنيان. ومن هنا يتضح لنا ان زكريا يعتبر ان الكلمة تعني المزارع الذي يزرع أرض الغرباء والتي تعنى مالك الأرض. ومن جانبه عليه أن يقوم بالعمل وعليه أن يسلم نصف المحصول إلى مالك الأرض.

وللرد عليه يجب توضيح معنى كلمة Muisiates وهي التي تعني الاستئجار من مزارع إلى آخر. وان الشخص الذي يملك الأرض ويؤجر الأرض ليس مالكا كبيرا، ليس كنيسة ولا ديراً. ولكن ببساطة مزارع وصف بأنه Aporos، بمعنى الرجل الذي لديه الوسائل لزراعة أرضه. وإذا كان مالك الأرض في كل مواد قوانين الفلاح، هو الشخص الذي ليس لديه الوسائل لزراعة أرضه فمن الصعب رؤية كيف أمكن إمداد الـ Eim-isiates بتلك الوسائل وإذا كان الـ Emisiates، كما يعتقد زكريا، يقوم بالعمل فقط فمن أين يأتي بالثور والمحراث والعربات والحبوب..؟ وحيث كان مالك الأرض Aporos يجب أن يكون قد مول المستأجر. وهذه النظرية أوجدتها وثيقة مصرية تتعامل بالايجار على نظام التقسيم المتعادل للمحاصيل، والإيجار من هذا النوع ليس من النوع السائد في مصر. وكان نادرا في الفترة البيزنطية المتأخرة.

وهذه هي النقاط التي اختلف فيها Ashburner مع زكريا وأوضح وجهة نظره فيها من حيث ان قانون الفلاح وقانون الاكلوجا هما مؤلفان مختلفان لمؤلف واحد.

وفي رأي Ashburner انه بمقارنة أوراق البردى الخاصة بالفترة البيزنطية، وبمقارنة قوانين الجرمان فإنه وجد أن الأسلوب وكلمات قانون الفلاح تشير إلى أن هذا العمل من أعمال القرن السابع أو الثامن لأن فيه حلقة وصل لتلك الفترة.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن قانون الفلاح يمثل قانونا جديدا فمن الضروري ان نوضح الفرق. ويجب أن نأخذ القانون بجانبيه المدني والجنائي. فالجانب المدني هو الذي يقرر العلاقات بين المزارعين في منطقة معينة وهو لايمكن تطبيقه على طبقات أخرى من السكان المزارعين. وهو لايتعامل باستثناء المادتين ٩، ١٠ في العلاقة مابين الملكيات الكبيرة ربحا والمستأجرين. ولايتعامل اطلاقا مع العلاقة مابين الدولة والشعب. ويشار إلى الضرائب العامة فقط في حالة تأثرها بالعلاقة مابين المزارعين الجيران في المواد من ١ - ١٢ باستثناء المواد ٧ و ٩ و ١٠ و ٣١ و ٣٢ و ٧٨ و ٧٩ و ٨١ و ٨٤. ويبدو أن هذا الجانب من قانون الفلاح ككل هو قانون جديد. وكانت المناسبة التي اوجدته هو الاستقرار الجديد ضمن الامبراطورية. وتأسيسه، كجزء على الأقل، على التقاليد التي أتى بها القادمون الجدد من بلادهم الأصلية.

أما الجانب الجنائي من القانون الذي يشمل أو يتضمن معظم باقي مواد قانون الفلاح يتعامل مع التعديات الزراعية مثل التعديات على الأرض وبنايات المزارع ووسائل الزراعة والمواشي. وهذا الجزء من القانون قام بشكل رئيسي على القوانين أو مواد القوانين السابقة وبالذات على قوانين جستنيان. وإذا أخذنا المادة ٧٠ نجد أن هذا القانون قانون روماني بشكل رئيسي[٧٥].

والجدير بالذكر أن هالدون عندما تناول موضوع القانون في القرن السابع لم يتناول بالتفصيل قانون الفلاح ولا محاولة معرفة جذوره التاريخية. ولكن تعرض لقانون الفلاح وتطبيق مواده عندما يتحدث عن الزراعة. وفي معرض حديثه عن القانون انصب اهتمامه على استمرار العمل القضائي في الامبراطورية وذلك حسب مقتضى العمل بقوانين جستنيان[٧٦].

وبصفة عامة فإن هالدون يرى أن القوانين التي كانت سارية ومنفذة في بيزنطة في القرنين السابع والثامن كانت رمزا لـ Romanita واستمرارا للتقاليد الرومانية[٧٧].

أما التغير الملحوظ الذي طرأ على التقاليد القانونية الرومانية للدولة في القرن السابع فقد تمثل في دراسة القانون وكتابة القانون ويمكن القول: أن دراسة القانون قد انهارت منذ سنة ٦٠٠م. وإذا بحثنا في مقدمة الأكلوجا الموضوعة سنة ٧٤١م لانجد أسماء اساتذة قانون ضمن المجموعة التي قامت بجمع تلك القوانين. وبناء عليه فإنه منذ عهد هرقل ٦١٠ - ٦٤١م إلى عهد باسيل الأول ٨٦٧ - ٨٨٦م فإن القانون في هذه الفترة له ملامح مختلفة وإن كان بدائيا أكثر من المرحلة السابقة[٧٨].

(٧٥) Asbhurner, Ibid, PP. 76-84 .
(٧٦) Haldon, Ibid, P. 254, FF
(٧٧) Idem, P. 279
(٧٨) Scheltema, Byzantine Law, P. 62

الفصل الرابع

الإدارة المدنية والماليـــة

النظم المالية

لعل دراسة البناء الإداري للدولة ووسيلتها لجمع مواردها والمجالات التي تنفق فيها، وجهازها العسكري من أهم ماتعنى به دراسة النظم المالية، ذلك لأن المؤسسات المالية والعسكرية تكونان عنصري الجهاز الإداري المركزين والمرتبطين ببعضهما ليضمن للدولة بناءها الدفاعي وأداء وظيفتها السياسية وتكوين نظمها ومؤسساتها ومن ثم يتبين شكل ادارتها المدنية وطريقة تسيير سياستها الخارجية.

في القرن السادس كانت تعمل من أجل حصول الدولة على مواردها المالية ثلاث مؤسسات وهي الوالي البريتوري، وهيئة خزانة الدولة Komes ton theion thesauron (Comitiva sacrarum largitionum) والهيئة المشرفة على الدخل الخاص res privata والمسؤولة عن إدارة أراضي الدولة وتحصيل ايجاراتها، والمسؤولة كذلك عن إدارة الأراضي التي غربت وضمت إلى الأمبراطورية، والممتلكات التي أوصى بها أصحابها إلى الأباطرة، وممتلكات الأسر التي ارتقى أربابها عرش الامبراطورية،والأراضي العامة والخاصة، والضياع التي صودرت، وطبيعي أن يتضخم عدد العاملين التابعين لهذه الهيئة. وكثيرا ماكنت مساحات كثيرة من ولايات بأكملها مثل ولاية كبادوكيا الأولى أو بيثينيا التي آلت إلى الامبراطور كملك خاص له وأصبح المشرف على ادارتها Komes ton theion او pribaton (tou theiou tameiou) (comes rei privatae) وقد انقسمت ادارته officuim إلى عدد من الادارات الصغيرة Scrinia لكل منها اختصاصتها في مجالات منح مساحات منها والايجارات المحصلة منها. وكان دخل أراضي الامبراطور تخصص للاسرة الامبراطورية. ويرجع ان صرف الاموال اللازمة لذلك كان تختص به خزانته. Scrinium largitionum privatarum ولكن كان للامبراطور ان يعتبر res privata مصدرا احتياطيا ينفق منه على الدولة أو ليمنح منها هبات سخية لمن يشاء[1].

(١) Haldon, Ibid p. 78; 173 ff.

وعمل الامبراطور استناسيوس على معالجة هذا الوضع بأن أنشأ ادارة خاصة -sa) crum patrimonium) Patrimonion فصلها من إدارة res privata لتكون تحت تصرف الامبراطور وتخضع لادارة Sacrae largitiones. وفى عهد جستنيان في عام ٥٦٦م توزعت res privata بين خمسة فروع:

(١) res privata (٢) patrimonium
(٣) domus divina per coppadocium (٤) domus dominicae
(٥) patrimonium lalae

وكانت إدارة Sacrae Largitiones المالية تشرف على سبائك الذهب والفضة المستخرجة من المناجم، بل وعلى المناجم نفسها، وعلى دور سك العملة، والورش التي ترصع فيها الأسلحة الفاخرة بالمعادن الثمينة وانتاج الاقمشة وتجميعها. ودور الصناعة التابعة للدولة. وكان لهذه الادارة ممثلون في المدن، وكان منوطا بهم إدارة موارد الدخل التي تأتي عن طريق مصادرة أراضيها، والاشراف على المسؤولين عن التجارة الخارجية comites commerciorum. وكان دخل Largitiones يأتي من الضرائب النقدية من ذهب وفضة، والمكوس الجمركية، والضرائب المفروضة على السلع المستوردة وما يجمع من هبات ومجلس الشيوخ بمناسبة توليد الامبراطور الجديد لعرش الامبراطورية (aurum coronarium aurum oblaticium) وما إلى ذلك.

ولعل المناجم كانت من أهم ماتكلف به ادارة Largitiones وكان يعهد بإدارتها إلى procuratores ومن يعمل تحت ادارتهم monetarii. وبعد ان استعاد جستنيان ماكانت الامبراطورية قد فقدته من ولايات كان هناك دور لسك العملة في كل من القسطنطينية وسالونيكا وقرطاجة ورافينا، وكانت كلها تسك العملات الذهبية وكان هناك أيضا دور سك العملة في نيقوميديا، وكيزيكوس وانطاكية والاسكندرية (وبصفة مؤقته في روما وسالونيكا وقرطاجنة (في اسبانيا) وخرسون. وهذه الدور كانت تسك العملة النحاسية، وثمة دور لسك العملة انشئت على عهد موريس في صقلية في قطانيا ٥٨٢-٥٨٣م، وفي القرن السابع على عهد هرقل كان هناك دور لسك العملة في قسطنطينية، في قبرص، وعلى عهده أيضاً في ايسوريا Isauria من عام ٦١٥-٦١٨م.

وبالرغم من المسؤولية الضخمة التي كانت تضطلع بها ادارة يرأسها Komes ton theon thesorum (comes sacrae largitiones)

فالولاة البريتوريون Komes ton theion pribation (comes rei privatae) حجبوا أهميتها. فقد كان الوالي البريتوري مسؤولا عن إدارة منطقة معينة قسمت إلى دوقيات يحكمها بالنيابة عنه نواب vicarii، كما هو معروف. وكانت الدوقيات مقسمة إلى ولايات تحت حكم حكام محليين، وكانت كل ولاية تضم عددا من المدن Civitates وكانت إدارة الوالي البريتوري مسؤولة عن تزويد العاصمة وبعض المدن بالقمح وعن مايدفع للجنود والعاملين في الخدمة المدنية ومايتصل بها من ادارات ومن العاملين في صناعة الأسلحة والمواد التي يستخدمونها والاعمال العامة في الولايات والطرق والجسور ومخازن الغلال ومحطات البريد.

وكان لوالي الشرق البريتوري خزانتان واحدة باسم (genike) والأخرى باسم. (dike trapeza) ولايعرف الفرق بينهما في قوانين جستنيان ولا في قوانين جستين الثاني[٢]. وهكذا كان يعمل في خدمة موارد الدولة هذه العناصر الثلاثة التي سلف ذكرها.

ويبدو أن هذا النظام الخاص بتحصيل موارد الدولة ظل يعمل بدون أي توقف حتى بداية القرن السابع، وابتداء من عهد فوكاس وهرقل أدخل عدد من التغيرات تمشيا مع أحداث ذلك القرن وما ترتب عليها من فقد الامبراطورية لكثير من موارد دخلها وممتلكاتها فمرت النظم المالية بفترة تحول وتغير.

ولنبين هذا التحول وازاء نقص معلوماتنا عن مصادر لاتتوفر بالنسبة للقرن السابع، فمن الأفضل كما فعل هالدون، أن نتبع أولا ماكان قائما من نظم في القرن التاسع والمصدر الأساسي لنا هو Philothes kletorologion. على النقيض من الهيئات الثلاث التي أثبتت كفاءتها في القرون السابقة، والتي أسلفنا ذكرها، نجد انه في القرن التاسع كان يقوم على الشؤون المالية عدد أكبر من الادارات أو sekreta تخضع مباشرة للامبراطور وهي:

(١) genikon (٢) sakelion (٣) stratiotikon
(٤) bestiarion (٥) meagole kouratoreia (٦) agelai
(٧) stablon (٨) eidikon

---

(٢) Bury, The Imperial Administrative system, p. 80
أيضا: أنظر ملحق (١) شكل (١٢).
Haldon, Ibid, p. 177.

وإدارة genikon تقـابل ادارة Sacrae largiones وادارة sakellion تبـاشـر مهمة الوالي البريتوري فيما يخص المسائل العسكرية. وأما vestianium sacrum bestianion القـديمة وكـانت تتـبع Comes largitiones ثم تحـولت لتكوين إدارة مستقلة في حين أن megas kourator كان استمرارا لمثيله Kourator ton oikion الذي كان قائما بالعمل في القرن السادس. ويلاحظ أن إدارة bestiarion هي إدارة vestiarium sacrum التي كانت موجودة في القرون السابقة وكانت تابعة لادارة comes sacrum largitiones (كـمـا جـاء في (Not. Dig. Or. Xiii 28 ثم أصبحت وظيفة مستقلة. وأما agelai و stablon فهما gerges و stabula فقد كـانتا تتبـعـان comes rei privatae وكانت إدارة eidikon تختص بنفس المهـمة التي كان يقوم بها magister oficioum و comes saerum largitiones[٣].

وعـوضـا عن الهـيـئـات الثـلاث التي كـانت مـسـؤوليـة الادارة الماليـة مـوزعـة بينها ،أصبحت تلك المسؤولية في القرن التاسع تنهض بها عدد من الادارات او sek- reta وتخضع للامبراطور خضوعا مباشرا ، ويبرز من بينها ادارات genikon و ei- dikon و Stratiotikon وكانت genikon و stratiotikon تشـملها سلطة log- othetes المشرف على الحسابات. وكـان أحد الموظفين، ولقبه epi tou eidikou أو اختصار eidikos والمشرف على sakellion وعلى vesiarion ، موظف لقبه char- tou larios tou sakelliou وفـي رأي هـالدون أن genikon و idikon (أو ei- dicon و stratikon انبـثـقت عـن الادارات العـامـة والخاصـة والعـسكرية التي كـانت تتبع والي الشرق البريتوري. ووظيفة sakellion كان أصلها sacrum cubicilum (غرفة نوم الامبراطور) باعتبارها إدارة متفرعة عن Sacellum (sakellion). وبقية الادارات ترجع في أصلها إلى إدارات كبيرة كانت قائمة بالفعل[٤]. ولعل الاكثار من الادرات كان بديلا لتركيـز سلطة ضخمـة في يد عدد صغيـر من الموظفين. وليس من السهل الجزم باسم الامبراطور الذي تمت هذه الخطوة في عهده، غير أننا نستطيع ترجيح أن يكون ذلك التـغـيـر قـد حدث في القرن السـابع وعلى عـهـد هرقـل بالذات، مما مهـد لالغاء النظام القديم وبدأت في الظهور المبادىء الرئيسية لنظام جديد[٥].

ويرى هالدون أن كل هذه التـغـيـرات كـانت تعني، من وجـهـة نظر الإدارة الماليـة،

---

(٣) الحاشية السابقة.

(٤) nos. 15, 16 .Haldon, Ibid, p. 181.

(٥) .Bury, Ibid, p. 20

تجميع الادارات المالية وتركيزها في القسطنطينية حيث ان كل الادارات كان يمثلها موظفوها في كل ولاية، أو ثيم thema خلال القرن التاسع، وان الادارة المالية كان لها شخصيتها المميزة لها عن الادارات المدنية في الولايات، أو الدوقيات التي كانت تضمها الامبراطورية الرومانية في عصرها المتأخر. من ذلك ان ادارة sekellarios تحت رئاسة chartoularios كانت توجه إدارة الثيمات والادارة المالية المحلية من خلال موظفيها protonotarioi، وتعمل كهمزة وصل مع موظفي إدارة genikon المحليين[٦] وتولت ادارة Stratiotikon توجيه الشؤون الادارية والعسكرية، من ذلك توزيع المؤن والامدادات من خلال ممثليهما في الثيمات. Chartoularioi ton the-maton في حين أن إدارة الكويستور في القسطنطينية، الذي كان قد شكل المحاكم، تنظر في القضايا قبل رفعها إلى الامبراطور وكان يرأسها قضاة krirai الثيمات.

وكان منصب sakellarios علامة تحول واضحة في النظام المالي sakella أو sakellion تعني حافظة نقود، وتعني كلمة sakellorios الأمين على هذه الحافظة. وفي الواقع كان للامبراطور خزينة خاصة منفصلة عن خزانة الدوله res privata Sa-crum Largitiones، وقد ظهر هذا الموظف sakellarios لاول مرة في القرن السابع. وإذ يقابلنا في عهد هرقل موظف مالي لقبه عند ثيوفانيس basilikos sa-kellarios، وان كان من الممكن التعرف على هذا الموظف وانما بلقب آخر ظهر به في القرن السادس تحت لقب tamias ton basilikon chrematon، وهذا يعني أن هذه الوظيفة كانت موجودة منذ أزمنة طويلة، ونجد انها في القرنين السادس والسابع كانت لها تلك الأهمية التي اكتسبتها في النظام المالي للدولة. والمرجح أن هذا الموظف اكتسب وضعه المتميز بعد فترة طويلة قضاها في خدمة الامبراطور[٧] أمينا على خزانته الخاصة التي تركت كإدارة مستقلة يديرها مساعده Chartou arios.

ويبدو أنه بتطور هذه الوظيفة في القرن السابع واكتسابها تلك الأهمية، اختفت وظيفة أخرى هي وظيفة comes rei privatae وتوزعت في القرن التاسع ادارة الضياع الخاصة للامبراطور res private و theoioikoi بين ادارة sakellaorios وادارة curator فكان لأولاهما الاشراف على الدخل ولثانيتهما إدارة الضياع

(٦) Haldon, Ibid, p. 181 21,22. أنظر أيضا: ملحق (١) شكل (٥٢٨) وشكل (٦٠٠).
(٧) Bury, Ibid, p. 80ff. أنظر أيضا: ملحق (١) شكل (١٨٧).

الأمبراطورية[٨].

وقد أدت هذه الترتيبات إلى اختفاء وظيفة أخرى هي وظيفة Comes sacrae. Patrimonii[٩]. وأصبح لوظيفة Sakellion أهمية خاصة إذ أن من يشغل هذه الوظيفة يعني انه يشغل منصبا مهما في الادارة الامبراطورية. ففي باديء الأمر كانت الوظيفة تعني مراقبة خزينة الامبراطور حيث يتسلم الفائض من الأموال التي تأتي من الممتلكات أو الضياع الامبراطورية. ولكنه في القرن السابع اضطلع بأعباء مالية والتي كان يقوم الوزراء الذين يؤدون هذه الممتلكات، ومن ثم أصبح منصب القائم على خزانة الامبراطور sakellion منصبا وزاريا مهما[١٠]. وكان يضطلع بأعباء هذه الوظيفة في عهد هرقل شخصيات بارزة إذ شغلها في عهده Theodore Trithyris، وهو الذي قام بقيادة الجيوش في سوريا سنة ٦٣٥م، وكان نارسيس يشغل هذه الوظيفة نفسها في عهد جستنيان الأول. وقد صعد إلى أعلى المراتب العسكرية وقاد الجيوش الامبراطورية في ايطاليا أيضا[١١].

وكان جانب من عمل Sakellarios يقضي التدخل في الشئون المالية منذ عهد جستنيان. إذ كان يقوم بمهمة إيصال الأموال إلى الجنود، هذا بالاضافة إلى عملية قيادة الجيوش العسكرية، وزادت أهمية هذا الموظف في الادارة المالية في القرن السابع عندما أصبح مع الـ Logothetes من موظفي الخزانة الرئيسيين في الدولة في عهد جستنيان الثاني. ويبدو انه مع مضي الزمن أصبح مسؤلا عن إدارة الأعمال الرئيسية في الادارة الامبراطورية، ومن المحتمل أن ذلك يتضمن مراقبة الادارات المالية الأخرى ومن الملاحظ أن sakellarios كان الشخص الذي كان موضع ثقة الامبراطور، وثقة كبار موظفي الدولة فكان المسيطر على الادارة المالية. وهذا الانطباع نخرج به من أحد قوانين Eclo-ga رقم ٧٤١. أن Quaestors العاملين في القضاء كانوا يعملون بأمر من الامبراطور، كانوا يتسلمون منه مرتباتهم مباشرة تجنبا لاحتمال تعرضهم للرشوة[١٢].

وبرز دور الـ Sakellarios في القرن السابع بتدخله المباشر في الشؤون المالية، وتمكين الامبراطور من السيطرة على مالية الدولة. واداة هذا التدخل كان هذا الموظف

---

(٨) الحاشية السابقة.

(٩) Bury, Ibid, p. 80-81, 84, 85.

(١٠) Idem, p. 85.

(١١) Theophanes, Ibid, 337. Haldon, Ibid p. 184 No 39.

(١٢) Haldon, Ibid, p. 165 No 45, p. 185.

الكبير، وذلك من خلال إدارة غرفة نوم الامبراطور Sacrum Cubiculum التي كان أصلا ينتمي إليها ويدعمه في ذلك انتماء موظفين آخرين اليها، واكتسبوا أهمية كثيرة وهم المعرفون باسم Spathrioi، خلال منتصف القرن السابع وأواخره، وذلك بوصفهم جنود يشهدون جلسات الامبراطور، وكذلك له في الاضطلاع بعدد من الاعمال، وكان اعتماد الأمبراطور على هؤلاء قد أدى إلى تزايد منح لقب Koubikoularios في هذه الفترة وقد كان الـ sakellaroi يكونون في الأصل إدارات متفرعة عن Sacrum Cubiculum وقد انعكس هذا الارتباط على أختام الـ Sakellarioi ومعظمهم يحمل لقب Koubikoularios[١٣]. ومن بين هؤلاء في القرن السابع انطيوخوس الذي وصف في خاتمه بأنه koubikoularios و sokilisav و soiraluotrahc و sa-kellarios[١٤] ومن نفس هذا القرن ايضا ليونتيوس الذي حمل خاتمه هذه الكلمات فيما عدا كلمة vasilikos[١٥] وموريكيوس، وجاءت على خاتمه نفس القاب الطيوخوس[١٦] وفيلاجريوس وعلى خاتمه كلمة koubikoularios و soi-rallekas[١٧] وشخص مجهول الاسم يحمل خاتمه هذين اللقبين الأخيرين. وكذلك اسطفانوس الذي كان sakellarios للامبراطور جستنيان الثاني[١٨].

واختصاصات الموظفين التابعين للادارات المالية Sekreta[١٩] واضحة بشكل

---

(١٣) 47 .Idem, p. 186

(١٤) .Zacos & Veglery 747

(١٥) .Idem, p. 942

(١٦) .Idem, p. 1365

(١٧) .Idem, p. 747 750

عن ختم فيلاجريوس راجع: Haldon, Ibid, p. 184 No 40 وذكره موريس 28.12 أن ho ton basilikon chrematon tamies وهذه العبارة عند بيوري مقابل لقب sakellerieos التي وردت في الاختام.

ومما يدل على سمو مكانة فيلاجريوس أن الامبراطور هرقل وقنسطنطين عهد بحماية ابنه، الامبراطور قسطانز الثاني فيما بعد، كما انه أدار الجلسة التي نوقش فيها ماكسيميوس المعترف في آرائه الدينية والمعارضة لنظرية monotheletism التي تقول بجمع الارادتين للسيد المسيح عليه السلام. وقد فر مكسيموس إلى افريقيا عام ٦٣٠م بسبب آرائه وكان قد شغل منصب سكرتير أو كاتم سر asekretis في بلاط الامبراطور هراقليوس. راجع:

.Haldon Ibid, pp. 56, 285, 306f, 365, No. 113, p. 165

.The Oxford Dictionary of Byzantion Vol. 2, p. 1322

(١٨) .Haldon, Ibid, p. 184, Ibid No. 167 zaco & veglery

(١٩) sekreton مصطلح يطلق على ادارة ما. وقد ظهر في صيغة secretarium في عام ٣٠٠م كهيئة قضائية تنظر في الاتهامات ضد المسيحيين تعبيرا عن سرية المحكمات. ثم أصبح المصطلح يستخدم بمعنى Ju-dicium واستخدم أحيانا تعبيرا عن مجلس consistorium. ثم أصبح يطلق على الهيئة التي تضم =

معقول بالرغم من ان مصادر الدخل التي تختص بها بعض الادارات مثل eidikon من الصعب القطع بها فقد كانت genikon، وهي الادارة المالية، التي يدخل في اختصاصها تقييم الاراضي التي تخضع للضرائب وحصر الذين يدفعونها وجمع الايرادات[٢٠] ويرأس هذه الإدارة موظف لقبه logethetes tou genikou [٢١].

وكانت ادارة genikon مسئولة عن الحسابات وتحديد الضرائب العامة وتحصيلها (demosia) وعلى رأسها ضريبة الأرض و kapnikon (ضريبة الموقد) وذلك عن طريق مندوبيها في الولايات وهم المسئولون عن الضرائب التي تجبى من الأفراد epoptai. وهناك موظفون exisoti مهمتهم تشبه مهمة سابقيهم، و dioiketai وهم جباة الضرائب[٢٢] وهم مسئولون أمام setehtogol وقد ورد ذكر dioiketes مقرونا بإسم بول paule بوصفه متقلدا لهذا المنصب في الولايات eparchiai أو الابارخيات الشرقية. وربما يكون هو نفسه بول hypatos و odioiketes ثيم الاناضول[٢٣].

= كبار الموظفين وفي kletorologin لفيليثيوس اكتسب المصطلح معنى الهيئة الحكومية التي تضم موظفي الدولة. وتفرع عن sekreton مصطلحات -ton sekreton sekretikoi se tehtogol وكانت الهيئة تتكون من عدد من الموظفين الثانويين اطلق عليهم فيليثيوس اسم -char toularioi التابعة لهيئة sekreton واسم notaries السجلات الخاصة بادارة sekreton وابتداء من القرن السابع أصبح مصطلح sekreton يطلق على محكمة البطارقة أو مجلسهم وعلى مقر اجتماعاتهم وفيما بعد أصبح المصطلح يعني اي ادارات بطريقية. وفيما يخص موضوع الادارة المالية يعني مصطلح -sek reta تلك الهيئة أو الادارة التي تضم عددا من مئات من الموظفين المدنيين العاملين في خدمة الخزانة وهم:

Sakellarious — Logethetai
Chartoularioi — Protaskretis
epi tou ediklou (edikion)
Kouratores او phanotrephos

(٢٠) كانت هذه الادارات تعمل أيضا كمحاكم تنظر أمامها القضايا المتصلة بالدخل. راجع:
The Oxford Dictionary of Byzantium, Vol. 3, P. 1865 f.
Bury, Imperial administrative system, P. 83f.

(٢١) يجب عدم الخلط بين هذه الوظيفة وبين وظيفة genikos logothetes الذي كان في القرنين السادس والسابع kommerkiarios في الولايات ومن ذوي المراتب الرفيعة وأحسن مثل لذلك الراهب ثيودوثوس (حوالي عام ٦٩٢م) ويظهر اسمه في احد الاختام مصحوبا بالعبارة.

(٢٢) abb genikos logothetes N. oikonomides a collection of dated Byzantine lead seals Washington, D.C.1986 seal 23
وقد ورد ذكره عند ثيوفانيس ٣٦٧ في أحداث عام ٦٩٤/٦٩٥ بانه كان يشغل هذا المنصب بعد ان كان راهبا في تراقيا واشار الى قسوته وغلظته مما جلب على الامبراطور مقت الناس وسخطهم. راجع:
Theophnes, Ibid, 367, 368.

(٢٣) عرف لقبdioiketes في النظم المالية لملوك العصر الهلينستي وكان يشغل منصبا رفيعا هو منصب وزير المالية. أما الآن فهو مجرد موظف مالي عادي يشرف على جباية الضرائب وحل محل largitionum =

قد عرف dioiketai يمارسون عملهم في الولايات من اختام القرنين السابع والثامن[٢٤]. وكان مقر هذا المنصب في الثيمات.

وكانت ادارة stratiotikon مسؤولة عن امداد الجيوش بحاجياتهم وكان يتم الدفع لهم عن طريقها وعن طريق protonataries الشرقيين على السجلات و ton thematon chartoulario التابعين للثيمات. وهم بمثابة العاملين في الادارت المالية[٢٥] وكانت إدارة eidikon (الخزانة الامبراطورية) في صبغتها الأصلية idike trapeza، الخاصة بوالي الشرق البريتوري، بمثابة الدار التي تصفي بها المدفوعات النوعية من مواد خام وأسلحة وملابس وذلك قبل أن تنقل إلى مصانع الأسلحة تحت اشراف الولاة البريتوريين والتي آل الاشراف عليها الى magister officiorum وكانت إدارة largitiones تتولى جمع الأقمشة وارسالها إلى مناسج الوحدات العسكرية. وكان sacrse largitiones يتولون تخزين سبائك الفضة والذهب ثم يبيعونها لمواجهة متطلبات الدولة. ويبدو أن eidikon في فترة متأخرة تولى هذه الاختصاصات وكان يتحكم بلا شك في مخازن السلاح الامبراطوري. وكان مسئولا عن طريق protonotarioi في الثيمات وقادتها strategoi عن انتاج الاسلحة والتجهيزات العسكرية الأخرى.

وقد ورثت إدارة Vestiarion (bestiaron)، التي كانت سابقا أحد فروع إدارة largitiones، اختصاصات eidikion بالنسبة للمناجم والسبائك وكذلك مخازن الأسطول والحديد.

وقد مارست إدارة sakellion اشرافا ماليا عاما في الثيمات من خلال protonotario، ولكن يبدو أنه كان أيضا يشرف على بعض المؤسسات الخيرية الأمبراطورية ومن المفروض أن هذه الادارة كانت تتولى دعمها.

وبالاضافة إلى هذه الادارات هناك أيضا الخزانة الامبراطورية الخاصة أو Koiton. وكانت Vestiarion الخاصة، والضياع الامبراطورية تحت اشراف megas kourator تضطلع بمهمة توفير السيولة النقدية والمواد من مصادر متعددة. وكانت إدارة koiton تحت رئاسة parakoimomenos (وهو اساسا koitonites الاكبر) وكانت تلك الإدارة أصلا فرعا من sacrum cubiculum يرأسها noksiekio و Vasilikon

---

= semoc في الولايات والثيمات بعد الغاء تقسيمات الدوقيات، وهو مسؤول أمام الـ logothetes عن استيفاء جباية الضرائب والا تعرض للعقاب Theophanes, 367; Bury, Ibid p. 80.

(٢٤) Haldon, Ibid, P. 193 Idem P. 90; Bury, Ibid, P. 89.

(٢٥) Bury, Ibid, p. 89.

Idem, p. 89.

أو خـزانة الثـيـاب الامـبـراطورية Vestiarion, praepositus sacri cubiculi الخاصة، ذات الصلة بها ، والتي يرأسها protovestiarios وكانت تتسلم الموارد التي تحصلها إدارة senikon، وكذلك الدخل الذي يأتي من الجزية، وبعض ايرادات الضياع الخاصة. وكان لهاتين الادارتين خزائنها الخاصة التي تنفق منها المنح والهبات. وكانت vestiarion الخاصة ايضا مخزنا للمنسوجات الحريرية الثمينة وثياب الامبراطور أو الثياب التي تلبس في الاحتفالات والمجوهرات والمعادن الثمينة(٢٦).

وثمة ملاحظة مهمة وهي أن الادارة المالية والادارة الاقتصادية للامبراطورية انما كانت تستمد نظمها من مثيلاتها في القرن السادس، غير ان كثيرا من التغييرات التي طرأت عليها ترتب عليها مجموعة من النظم المركزية اكثر مما كان لها في ذلك القرن. وفي المقام الأول فإن الدور المركزي الذي لعبته إدارة sakellion لمن الأهمية بمكان، فقد كانت إدارة sakellum كأداة تابعة لإدارة Sacrum cubiculum تعمل كخزانة شخصية للأباطرة، وذلك منذ أواخر القرن الخامس وربما أقدم من ذلك. وكان قرب الموظفين من شخص الامبراطور قد اكسب sakellarios أهمية خاصة واكسب الموظفين مكانة ممتازة في الادارة الامبراطورية وكان sacellarius يكلف بمهام من غير اختصاصات وظيفته. من ذلك في القرن السابع كلف sakellarios Theodore Trithyris بقيادة الجيش الامبراطوري عام ٦٣٥ في سوريا(٢٧). بينما عهد الامبراطور هرقل بحماية ابن ابنه، الامبراطور قسطانز الثاني فيما بعد، إلى فيلاجريوس Sakellarios Philagrus(٢٨).

وسبق ان رأينا الأهمية التي أصبحت بعد ذلك للادارة التي كانت تدير: -ves tiarion (oikeiakon vasilikon vetiarion) وهي الإدارة الخاصة بمخازن الأمبراطور الخاصة والتي تفرعت أصلا عن comitiva sacre vestis التي كانت تتبع sacrum cubiculum وهم الأشخاص الذين يلحقون بالعمل في مخدع أو حجرة نوم الأمبراطور المقدسة والادارات المفرعة عنها وقد اكتسبوا في ذلك الوقت مكانة لها أهميتها وتأثيرها في الحكومة المركزية، ومما يدل على ذلك أيضا أن الموظف الموكل إليه امر المائدة الامبراطورية epi tes trapezes اكتسب هو الآخر أهمية كبيرة في منتصف القرن السابع، حتى أن سرجيوس يوكراتاس الذي شغل هذا المنصب مكانه epi tes trapezes vasilikes. اشترك مع sakellarios في استجواب ماكسيموس

(٢٦) Haldon, Ibid, p. 183.

(٢٧) Theophanes, 337, Haldon, Ibid, P. 184, No. 39.

(٢٨) Idem, P. 185 No. 46 وهي حاشية غاية في الأهمية.
وأنظر أيضا حاشية (١٧) أعلاه.

المعترف. وحضر جلسة المحاكمة ايضا، ليونتيوس. domestikos tes vasilikes trapezes وكان أحد شخصيات الدولة المبرزين وشهد المجمع الديني السادس في ٦٨٠/٦٨١م[٢٩].

وقد انفصل epi tes trapezes عن إدارة castrensis التابعة للمائدة المقدسة (kastresios tes thias trapezes) وكون مع موظفيه فرعا من ادارة -cas trenses sacri palatii ولكن هذه الادارة كانت أيضا في نطاق -sacrum cu biculum[٣٠] حجرة نوم الامبراطور.

وفي ضوء ماسلف ذكره عن الادارات المالية الكثيرة وما تفرع عنها من ادارات، يتبين أن الامبراطور كان حريصا على السيطرة خلالها على كل مايتصل بدخل الدولة ونفقاتها، وهذا ماعبر عنه هالدون بقوله: إن إدارة مايسمى بغرفة نوم الامبراطور، والادارة المشرفة على نفقات أسرته تكشف عن اتجاه واضح نحو المركزية، والاشراف على كل مايتصل بالمسائل المالية، وان هذا الاتجاه كان يسير في طريقه خلال النصف الثاني من القرن السابع، ان لم يكن قبل ذلك. ويحدد عهد هرقل بالذات عندما كانت الامبراطورية تعاني من أثار الحرب الأهلية وتدخل في حربها مع الفرس فكان لابد وأن يعيد الامبراطور النظر في النظم العامة للدولة ومن بينها النظم المالية[٣١].

ويرى هالدون ان الاتجاه نحو تحقيق المركزية واحكام الدولة لمراقبتها المالية، يتضح أيضا في اهتمام الدولة بتنظيم دور سك العملة، واعادة هيكلتها واصلاح بنيتها خلال الفترة مابين عامي ٦٢٧ و ٦٣٠ وقد تمثل ذلك في اغلاق دور سك العملة في الدوقيات وإنهاء دور الموظف الكبير المشرف على الشؤون المالية -sacrae lar gitiones بها، مما أفقدها الكثير من أهميتها، وقصر الأمبراطور اصدار العملة على دور السكة في الولايات فقط وهذا يعني استمرار الولايات في الاحتفاظ بدورها المتميز في الادارة الامبراطورية[٣٢]. وان كانت الدوقيات، كما نعرف، قد بدأت تفقد الكثير من أهميتها الادارية، على عهد جستنيان، فأتى التغيير في مراكز دور سك العملة ليقوض كثيرا مما تبقى من دعامات تساعد على استمرار وجودها. على أي حال، فإنه ابتداء من عام ٦٣٠ أصبح لولاية اليريا والشرق البريتوري دارا واحدة في

(٢٩) Haldon, Ibid, P. 186, No. 48.

(٣٠) Idem, p. 186. No. 49.

(٣١) Idem, P. 186.

(٣٢) Hendy, **Studies in the Byzantine Monetary Economy**, 300 - 1450 (Cambridge 1985), P. 147.

القسطنطينية، مع بقاء دار سك العملة في الاسكندرية. واستمرت دور سك العملة في رافنا، في أرخونية ايطالية، وقرطاجة، في ارخونية شمال افريقيا. وتوقف العمل في دور سك العملة في كل من كيزيكوس وقبرص وانطاكية وقطاينا، في جزيرة صقلية[٣٣]. وتوقف سك العملة الذهبية في الدوقيات، ومع اختفاء دور السكة في الدوقيات، كانت العملة النحاسية تصدر عن دار السكة بالقسطنطينية دائما بكميات محدودة ولمواجهة متطلبات معينة[٣٤].

وفي رأي هندي، الذي يردده هالدون، ان هذا التطور بالنسبة لدور السكة واصدار العملات عكس انقلابا مس التقاليد الامبراطورية الرومانية في الفترة المتأخرة من تاريخها، فقد ترتب على ذلك التغيير عدد من النتائج المهمة وأولها تحقيق المركزية بالنسبة لدور السكة. وتحديد تلك الدور التي تصدر العملات الذهبية ولأول مرة العملة النحاسية، وثانيها إعادة تنظيم ادارة sacrae largitiones. كما سلف القول وان كان من الممكن القول بأن اختصاصاتها حولت إلى إدارة أخرى وان كان هالدون، استنادا الى باسكال، يذكر ان آخر ذكر لهذه الوظيفة كان عام ٦٠٥م (أي قبل هرقل) عندما كان يتقلدها اثناسيوس الذي ذكر بلقب komes largitionon وينقل عن ثيوفانيس انه اعدم في عام ٦٠٩[٣٥]. ويتحدث باسكال عن ثيودوتوس وهو موظف من البطارقة كان يشغل في عام ٦٢٦ منصب "(Theodotos ho endoxotatos patricios ogothes kai logoteres)" يشغل هذا الوظيفة موظف رفيع المكانة يرأس ادارة مالية أو أكثر، وهو أشبه برئيس ديوان المحاسبات، وظهر اللقب في القرن السادس. ويعلق هالدون على ذلك بأن ذكر هذه الشخصية الممتازة مقرونة بلقب وظيفة مالية كبيرة logothetes لهو أمر له دلالته، ويرى أنه من غير المحتمل أن يكون صاحبه شغل منصب عسكرى logothetes tou stratiotikou[٣٦]، كما يذهب إلى ذلك البعض. ويشير هالدون، استنادا إلى باسكال، إلى شخص يدعى قسطنطين لادريس Lardys وصف بأنه والي بريتوري سابق و sethogol و rotaruk، القائم بإدارة ضياع

(٣٣) Haldon, Ibid, P. 186.

(٣٤) Idem, P. 187, 53.

(٣٥) Haldon, Ibid, P. 187, 53.
حيث يحيل إلى باسكال وثيوفانيس.
Charon, Pasch. 696 cf. Theophanes 297.20.

(٣٦) Charon, Pasch, 721; Bury Ibid p. 86.
ويشير إلى المراجع التي ذكرت أنه كان مختصا بحسابات الجيش والتي يرفضها Haldon.
وراجع أيضا Haldon, Ibid p. 191 عن شيوع استعمال اللقب اليوناني الذي كان لرئيس الادارة المالية.

الامبراطورية في هورميسداس[٣٧]. ويرى هالدون أن لقب Logothetes هو المرادف للقب اللاتيني الدقيق، مراقب الحسابات أو المشرف عليها numerarius أو scrin- iarious رئيس أدارة Scrinium فإذا شغله شخص مرموق فإن ذلك له أهميته ودلالته.

وواضح أن كلا من تيودوتوس ولارديس كانا من طبقة glorisissimi فمن ثم لابد وأن يكون المنصب الذي يشغلانه من أرفع مناصب الدولة. ولابد وأن يكونا من رؤساء الادارات، ولم يكن scriniarii قبل القرن السابع على هذا القدر من رفعة القدر. ومما يعزز ارتفاع مكانة وظيفة setehtogol انه يتردد منذ أيام الامبراطورين موريس وفوكاس أسماء شخصيات رفيعة من اصحاب المراتب العالية مرتبطين بالجمارك والمستودعات التجارية apothekai[٣٨].

وقد أصبحت الادارات المالية في الولايات البريتورية ادارات مستقلة، يرأسها موظفون كبار وذلك منذ عهد هرقل. ويتضمن هذا التغيير إعادة الصلة بين lar- gitiones والادارات العسكرية العامة للولايات البريتورية، والتي استمرت في العمل حتى عام ٦٢٩م إن لم يكن بعدها. ويبدو أن هذا التغير شمل أيضا تنظيم دور السكة على مستوى مركزي فردي مع تركيز المسؤولية وسلطة العمل المنوطة بها في إدارة واحدة هي إدارة sacrum vesitiorium وذلك ضمن اختصاصات largitiones مع انقاص عدد الموظفين العاملين في دور السكة تلك. ولم تعد هناك حاجة إلى الاستعانة بموظفين من الولايات. كما وأن عمل largitiones قام به موظفون من الولاية يدعمهم موظفون من العاصمة. وتعكس استحداث ادارة logothesion هذه الحقيقة، لأن هيمنة الموظفين التابعة لها كانت تضم chartoularioi ton arklon ويعرفون أحيانا باسم chartoularioi التابعين لادارة exo arklai أي المختصين بالخزانة المحلية في الولايات والتي كان يديرها في السابق[٣٩].

وإن كان من المهم الاشارة إلى وجود دور سكة أقيمت مؤقتا في أورشليم والاسكندرونة وقسطنطينية في قبرص وسلوقية وايسوريا في isauria. ويري هندي ان ذلك جاء لمواجهة نفقات الحرب (٦٠٨-٦٢٦/٦٢٧م)[٤٠].

(٣٨) Haldon, Ibid, P. 186
(٣٩) Idem, P. 188
(٤٠) Hendy, Ibid, P. 415, Haldon, Ibid, p. 187 no. 52

وكان من الطبيعي أن يكون للولاية البريتورية خزانتها المركزية (وقد كان لوالي الشرق خزانتان واحدة عامة والثانية خاصة) ولكن لم يكن لها أبدا أموال خاصة أو أموال احتياطية مثل تلك الأموال التي كان يديرها largitiones، على مستوى الدوقيات أو الموظفون المعروفون باسم praepositi أو موظفو خزانة -comites the. saurouim وفي رأي بيوري، ويوافقه على ذلك هالدون، أن chartularioi التابعين الـ arkali كانوا في الواقع موظفي largitiones في الدوقيات، وأدمجوا في إدارة البنك أو الخزانة العامة التابعة لولاية الشرق، بمعنى أن نشاط الوالي البريتوري شمل مسؤولية الضرائب العامة. وكان هؤلاء praepositoi thesamorum يتسلمون الضرائب الصغيرة عن الأرض، والتي كان sacrae largitiones يقوم بجمعها، ويودعونها الصندوق الخاص بمثل هذه الدخول. وكان يودع في هذا الصندوق الذهب والفضة والسلع الأخرى التي كان largitiones مسئولا عنها (وكان ذلك يتم عادة عن طريق موظفي الولاية) وذلك تمهيدا لارسال كل ذلك إلى العاصمة وبالمثل فإن commercia و muroicremmoc setimoc التابعة للدوقيات أدمجت هي الأخرى في الإدارة العامة للبنك. ومن المرجح أن هذا الجانب من تنظيم largitiones قد تلاشى في هيكل البنك العام للولاية، مما يحمل تثبيت وضع البنك وزيادة نقوده[٤١] ، وبينما كانت دور السكة لاتزال تدار إدارة فردية في وقت لاحق، ولكن في نطاق سيطرة إدارة vestiaron العام فإن ما تبقى من عمل largitiones اضطلع به البنك فأصبح يتسلم العملات الذهبية والسبائك التي يعاد تداولها وذلك عن طريق eidikon و logothesion.

ولكن إلى جانب هذا البنك العام كان هناك بنك خاص، وبنك عسكري. ومنذ عهد هرقل كان لهما استقلالهما، وكان sacellarios يتوى مسؤولية مراقبة أعمالهما ويرى هندي أن تحويل اختصاصات largitiones إلى إدارة vestiarm العام يجب أن يعود إلى عهد هذا الأمبراطور[٤٢] هرقل.

ولابد وأن إعادة تنظيم دور السكة في الفترة مابين ٢٦٧، ٦٣٠ تضمنت تحويل الصناديق المحلية مع ثقل المسؤلية الكاملة عن المال السائل المتحصل من موارد -lar gitiones، إلى الفرع المقابل له في إدارة الوالي البريتوري، وهو genike trapeza الذي كان يديره numerarii. وزاد أيضا في أهمية sacellarios في هذه الفترة نفسها. مما يرجح أن هذا التغير كان مرتبطا بالتنظيمات الجديدة، ومهما كانت

(٤١) Idem, P. 189.
(٤٢) Hendy, Ibid, P. 43

السلطات التي كانت للوالي البريتوري، فإن الاستقلال النسبي لثلاث من إداراته السابقة، البنوك العامة، والبنوك الخاصة، والبنوك العسكرية، إنما يعود إلى عصر هرقل. وكذلك فإن سلطة الاشراف التي كانت تحت الادارة soirellekas واداراته تؤرخ أيضا بهذا العصر، إن لم يكن قبله بقليل وينطبق هذا القول على إدارة -ves tiaron الجديدة المستقلة بعد أن حول إليها اختصاصات largitiones، وأصبحت هذه الإدارة الجديدة تحت اشراف sacellarus في عصر هرقل أيضا(٤٣). وكانت هذه الإدارة تتولى التأكد من نقاوة العملة وصحة وزنها. ويبدو ذلك واضحا في ختم يعود إلى القرن السابع. وكانت تقوم بذلك إدارة بلدية، يديرها zygostates(*) ووصف بأنه أمبراطوري، التي كانت من قبل تمارس عملها تحت إشراف الوالي البريتوري، ولعله كان لذلك صلة بالاصلاحات التي تمت بالنسبة لدور السكة في الفترة مابين ٦٢٧-٦٣٠م كما يذهب إلى ذلك هندي، الذي يعتبر هذه الفترة هي الفترة التي شهدت التحول نحو المركزية(٤٤).

وان مبادرة هرقل إلى إعادة تنظيم دور السكة لتعكس عملا أكبر تناول الإدارة المالية كلها. وإن كان هالدون يرى أن عادة تنظيم هذه الإدارة بدأ قبل عهده، ولكن هرقل باصلاحاته أكمل هذا التغيير في تلك الادارة. وقد تكون الأوضاع التي سادت القرن السادس مبررا لذلك وكان نتيجة عمل هرقل منح حرية أوسع لبنكي الولاية الشرقية البريتورية، من ناحية وتدخل sakellarius في الاشراف على مايتصل بالنواحي المالية بوصفه الحفيظ على خزانة الامبراطور الشخصية، من ناحية أخرى وربما كان ذلك للحاجة الى موارد مالية وتزايد الطلبات من دخل محدود عجز عن توفير النفقات لها فضلا عما شاب الوضع السياسي والعسكري من انهيار وتدهور في عصر هرقل قبل ٦٢٢-٦٢٦م كان في حد ذاته حافزا على ضرورة اعادة تنظيم الادارة المالية للدولة مع ادراك لتغير حدث بالفعل، والاستمرار في تنشيط عملية الاشراف المركزي للدولة وتحكمها في كل مايتصل بدخلها من حيث مواردها ونفقاتها، فكان لابد وأن تنشيء

(٤٣) Haldon, Ibid, P. 190.

(٤٤) Hendy, Ibid, P. 317.

والختم منشور في zacos & veglery, Ibid I, No. 2803 راجع Haldon, P. 190 الذي يناقش هذا الموضوع في حاشية طويلة رقم (٦٦).

(*) Zygostates يعني الشخص الذي يزن بالميزان وهي وظيفة عامة، مهمة صاحبها التأكد من سلامة الصولداي ونوعية معدنه. وتعود هذه الوظيفة إلى أواخر عصر الأمبراطورية الرومانية. وثمة أختام zygostatai يعود تاريخها الى القرنين السادس والسابع راجع:

The Oxford Dictionary of Byzantium Vol. III, P. 2232.

ادارات Logothesia عامة وخاصة وعسكرية، تخضع لرقابة الوالي البريتوري و sa-kellarios بالإضافة، إلى رقابة vestirion و noillekas حتى أن الوضع الجديد بدا واضحا أنه بيزنطي أكثر منه رومانيا متأخرا. وقد صاحب هذا التغير اختفاء lar-gitiones ومعها آخر دعامة كانت تسند إليها إدارة الدوقيات، والانتقاص من سلطة الوالي البريتوري. وكان لكل ذلك أثره الواضح في التطور الذي سيطرأ على الادارة المدنية للولايات.

وتعطي الشواهد، التي تنهض دليلا على هذه التغييرات والتي جعلت من هذه المشكلة ومن موضوع جذور نظام الثيمات من أكبر المسائل المميزة في تاريخ بيزنطة(٤٥).

وينتهي هالدون إلى القول بأنه أصبح من المتفق أو المتعارف عليه بصفة عامة أن الاصلاحات أو التغيرات التي استهدفت تغيير النظم المدنية والمالية وكذلك العسكرية انما بدأت من القرن السادس ولم يتم انجازها تماما إلا في النصف الثاني من القرن الثامن وليس قبل ذلك. وإذا استبعدنا الاشارات إلى logothetai وإلى sa-kellerios ودورهما المهم في عهد قسطانز الثاني فإن أول إشارة لكبار الموظفين بعد تطوير النظام المالي كانت في عام ٦٨٠ عندما صحبوا الامبراطور قسطنطين الرابع إلى المجمع الديني السادس فجميعهم glorisissimi وقد رتبهم هالدون بحسب مراتبهم وكانوا قناصل سابقين ex-consul وسبعة منهم بطارقة patricii(٤٦). وليثبت

(٤٥) Haldon, Ibid, P. 150 ff.

(٤٦) نقل هالدون اسماء هؤلاء الموظفين عن Mansi, J.D. Mansi ed. sacrarum Concillicorum Nova et Amplissima Collectio Florence 1759-1927).

نيكيتاس، قنصل سابق، بطريق patricius ويشغل منصب رئيس موظفي الامبراطور.

ثيودور، قنصل سابق وبطريق و comes لثيم الاويسيكيون الامبراطوري وقائد تراقيا.

دجيوس: قنصل سابق وبطريق.

بول: قنصل سابق وبطريق.

يوليان: قنصل سابق وبطريق و logothetes للخزانة العسكرية.

قنسطنطين: قنصل سابق و curator (القائم على ادارة ضيعة الامبراطور في Hormisdes.

أناستاسيوس: قنصل سابق وبطريق والموظف الذي يلي كونت excubitores comes الحرس الامبراطوري).

يوحنا: قنصل سابق وبطريق وكويستور.

بوليكتيتس: قنصل سابق.

توماس: قنصل سابق.

بولس: قنصل سابق ومدير الولايات الشرقية.

بطرس: قنصل سابق.

ليونتيوس: قنصل سابق domesticus والمشرف على المائدة الامبراطورية Haldon, Ibid, p. 192.

أنظر ملحق الأشكال: ٦١٦ و ٦٥٠ التي تدل على أكثر من وظيفة لشخص واحد.

هالدون تأريخه لهذه التغيرات قام بدراسة هذه الوظائف ليبين أن بعضها كان قائما في القرن السادس وأن بعض الجديد منها كان مستمرا في القرن الثامن. ولاحظ أن بعض الموظفين الجدد اكتفوا بذكر ألقابهم دون وظائفهم ولاحظ أيضا أن هناك إشارات في المصادر الأدبية التي تعود إلى أواخر القرن السابع إلى وظائف مختلفة تنتمي إلى sekreta المركزية. ومن بين هؤلاء الراهب ثيودوتوس الذي شغل منصب genikos logothetes خلال عصر جستنيان الثاني وذكر اسمه في ٦٩٤/ ٦٩٥ وأن له خاتماً باسمه(٤٧).

وقد يكون من الصعب قبول قول هالدون في أن التغيرات التي طرأت على النظم المالية لاتنسب إلى هرقل فبعضها كان قبله وحتي ولو كان هذا صحيحا، فإنه لايمكن إغفال الحقيقة القائمة وهي أن هذه المناصب التي عددها كثير كانت موجودة بالفعل في القرن السابع سواء أكان ذلك في بداية ذلك أم أواخره، فإذا كانت قد نضجت واتضحت في القرن الثامن، فهذا في حد ذاته دليل أن هرقل بصفة خاصة وخلفاءه بصفة عامة أعطوا لهذه التغيرات دفعة قوية، مما أتاح لها الاستقرار والنضح الذي آلت إليه في النصف الثاني من القرن الثامن. وهالدون نفسه يذكر أن النظام المالي والنظم الادارية الموصوفة بأنها palatine (قبل القرن السابع) والتي نعرفها من Kletorologeion، كتاب فيلوثيوس Taktikon Uspenskij، وهما من القرن التاسع كانت قائمة بالفعل في عام ٧٠٠م وان اصلاحات هرقل لدور السكة، والاشارات إلى ذلك تشير بوضوح إلى أنها كانت قائمة بالفعل في فترة أسبق من عصر هرقل واستمرت حتى نهايته. ونتحفظ إزاء رأي هالدون في أن ذلك لايعني أن ثمة تغيير أساسي يكون قد حدث سواء في الأسس، أو في النظم التي كان يمارسها الجهاز الإداري والجهاز العسكري في عصر ذلك الامبراطور(٤٨).

وقد سبق لنا مناقشة ما حدث بالنسبة لمنصب الوالي البريتوري في الفصل الخاص بالتنظيم الإداري.

وعلى أي حال فإننا إذا قمنا بمقارنة مخطط الادارة الذي أسسه دقلديانوس، والذي أكمله خلفاؤه، والذي بقى فعالا حتى بداية القرن السابع، مع النظام البيزنطي المتأخر

---

(٤٧) يحيل هالدون ص ١٩٣ حاشية ١٨٠ إلى ثيوفانيس ٣٦٧ فيما يخص هذا الراهب. وعن ختمه، أنظر: zacos & veglery 1964 A وهو غير ثيودوتوس المذكور اعلاه ص ٢٥٩ حاشية ٢١.

(٤٨) Haldon, Ibid, P. 194.

نجد انه لايوجد تغير مفاجيء وان التغييرات كانت تدريجية وتمثلت في احلال مبادىء أو أنظمة جديدة لتحل محل الأنظمة القديمة تمشيا مع متطلبات الوقت والظروف التي طرأت عليها[٤٩].

ويبدو أن نظام الحصول على الدخل والادارة استمر في العمل بدون توقف حتى بداية القرن السابع. ومنذ عهد هرقل خضع النظام كله إلى تحويل أو تغيير[٥٠] وسلكت التغييرات طريقين: الأول أن الإدارة في كل المناطق أعيد تنظيمها، حيث قسمت إلى عدد من المناطق العسكرية أو الثيمات. الثاني ان الإدارات الكبيرة المركزية مثل sa-crae Largitiones و res private اشتملت على عدد من الادارات التي تفتت إلى عدد من الإدارات الأصغر[٥١]، والتغيير الذي حدث يعتبر نقلة من العهد الروماني إلى الفترة البيزنطية الوسيطة. ويطلق على الترتيبات الادارية الجديده مسمى النظام البيزنطي الوسيط The Middle Byzantine System[٥٢].

وإذا عدنا إلى استعراض ألقاب أولئك الموظفين من الوظائف التي كانوا يشغلونها. لوجدناهم جميعا يحملون لقب ex-consul وبعضهم كانوا يحملون لقب patricius ثم تلا ذلك وظيفة comes ويليها وظيفة Legothetes التابع للادارة المالية العسكرية ويليها وظيفة curator المختصة بإدارة ضياع الأمبراطور ثم quaestor القائم على المأدبة الامبراطورية وهذا يعني استمرارية ألقاب Cconsul و patricius ووظيفة comes ثم الـ legothete. ولكن كان لاستمرار وظيفة كل من curator المسؤل عن العقارات الامبراطورية ووظيفة quaestor الذي كان موجودا بالرغم من تغيير طبيعة عمله أهمية خاصة[٥٣].

وتوجد أختام يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السابع تبرهن على وجود وظيفة genikon logothetes[٥٤]. وتأتي وظيفة quaestor التي ذكرت بعد وظيفة logothetes.

إن وظيفة الكويستور quaester بقيت رغم التغييرات. ولكن عمل الوظيفة تغير، ومرتبتها اصبحت أقل. وكان عمل من يشغل هذه الوظيفة في الأساس التحكم

---

(٤٩) Bury, Ibid, P. 19.

(٥٠) Haldon, Ibid, P. 180.

(٥١) Bury, Ibid, P. 19.

(٥٢) Haldon, Ibid, P. 188.

(٥٣) Bury Ibid, P. 109.

(٥٤) اسم genikon يطلق على جامع الضرائب المركزي. (مراجعة ص ١٩٤، هالدون)

في السلطة القانونية للحكومة. ثم تحولت وظيفته إلى إدارة تقوم بالأعمال القضائية. اضطلع الكويستور بوظيفتين مهمتين إحداهما إدارية والأخرى قضائية تتعلق بمراقبة الأجانب في العاصمة والمتسولين. والنظر في شكاوى المزارعين الـ coloni، والمستأجرين التي يرفعونها ضد ملاك الأرض الذين يقطنون العاصمة، وعليهم أن يقوموا بتقديم تقارير بذلك إلى الامبراطور. ومقاضاة من يعمدون إلى التزوير. هذا بالإضافة إلى الأعمال التي حددها جستنيان(٥٥).

أما فيما يختص بالثيمات والوظائف المالية المتصلة بها فقد عرض لها في الفصل الخاص بالثيمات، وانها كانت قائمة بالفعل وفي فترة أسبق من عصر هرقل وفي نهايته. ونتحفظ ازاء رأي هالدون في أن ذلك لايعني أن ثمة تغيير أساسي سواء في الأسس أو في النظم التي كان يمارسها الجهاز الاداري أو العسكري يكون قد تم في عصره(٥٦).

وبينما كانت الأجهزة التابعة للوالي البريتوري والمتعلقة بالشئون المالية تتجه باطراد نحو تحقيق الاستقلالية، إلا أن منصب الوالي البريتوري كان لايزال قائما في الأعوام الأخيرة من عصر هرقل، فمثلا الوالي البريتوري لاليريا، كان لايزال موجودا حتى نهاية النصف الاول من القرن السابع وإن كانت سلطته اسمية على عكس ما كان للولاة من قبله. وفي كتاب De ceremoiss للامبراطور قنسطنطين السابع، المؤلف في القرن التاسع، نجده يذكر الوالي البريتوري والكويستور مع ابارخات الثيماتا معا في قائمة واحدة، وبالرغم من انه، فيما يقول هالدن وهذا يضعف من رأيه، بالنسبة لمنصب الوالي البريتوري، إذ يكاد يكون من المؤكد صحة الحقيقة القائلة بأن لقب الوالي فقط هو الذي بقي دون أن يكون هناك ولاة بريتوريون بالفعل.

وعلى أي حال كما يقول بيوري لانستطيع ابراز اسم امبراطور معين مثل دقلديانوس إلا أنه يمكن القول بأن تحطم النظم القديمة إنما حدث في عصر أسرة هرقل وحل محلها نظم حديثة. ويمكن مع ذلك تلمس ظلال هذه التغيرات في القرن السادس. ونخلص إلى أن الشواهد تشير إلى إعادة بناء النظام المالي للدولة خلال عصر هرقل. في حين أن اصلاح نظام دور السكة وإعادة تنظيمها كان عملا أساسيا ووحيداً، في رأي هالدن، في ذلك العصر. وكانت نتيجته المنطقية تركيز الإدارة بالنسبة لنظام largitiones sacrae

(٥٥) Bury, I.A.S. P. 73-74.
لمعرفة الواجبات التي فرضها جستنيان أنظر: Bury, Ibid, p.74.
(٥٦) Haldon, ibid, p. 194 ff.
Bury, I.A.S.P. 20,

في الولايات مع تزايد أهميـة sakellarios وظهـور lagothetai المختـصين بالحسابات على مستوى وظيفي خلال عصري فوكاس وهرقل. ويبدو أن sekreta الخاصة بإدارات genikon و stratiotkon eidikon ومعها sakellion و -ves tarion قد استقامت بنيتها الأساسية بنهاية عصر هرقل، وكانت استجابة للنتائج المنطقية التي تتابعت في ضوئها التغييرات التي أدخلت على النظم الادارية، وفي نفس الوقت كان هناك التحول في الطابع الذي كان للادارة المالية في الولايات، ولملء الفراغ الذي ترتب على اختفاء إدارة الدوقيات أقيم مشرفون عامون لمراقبة تحديد الضرائب وجبايتها. ولم يكن من قبيل الصدفة وجود أول موظف من هذا النوع، وهو ثيودور، الذي عين خلال عصر هرقل وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه إعادة تنظيم دور السكة.

الفصل الخامس

الإدارة العسكرية « الثيمات »

مرت الأمبراطورية البيزنطية بسنوات صعبة مريرة منذ نهاية القرن السادس وحتى منتصف القرن السابع[١] هذا بالإضافة إلى المعاناة الخارجية والداخلية التي عانتها خلال النصف الثاني من القرن السابع. وبصفة عامة يمثل القرن السابع أزمة من الأزمات الحادة التي مرت بها الامبراطورية البيزنطية[٢] ولقد شهدت هذه الفترة بداية إعادة تنظيم للادارة الأمبراطورية، وهو الشيء الذي أمدها بقوة شابة فتية. وبالرغم من شحة المصادر المتوفرة لدينا في اعطاء صورة واضحة للخطوط العريضه للتغييرات العميقة في النظم الإدارية وما اتصل بها من تنظيمات عسكرية، اقتضت استحداث نظام إدارى عسكري جديد هو نظام الثيماتا (Themata) ومفردها (Thema) وهي مشتقة من الفعل (Tithema) بمعنى يضع في مكان معين أو يرتب وينظم[٣].

وكان الاصطلاح فيما يبدو في بداية الأمر يدل على جزء من الجيش[٤] ويعتقد رامبور، Rambaurd[٥] ان الكلمة مشتقة من الاسم Thesis بمعنى مكان. وكانت تطبق على المنطقة وعلى الجند المعينين للدفاع عنها. وبالاستناد إلى كل من زاكيثينوس Zakythinos[٦] وبيرير Brehier[٧] فإن الكلمة ثيما تعني جيوش المقاطعات، وأخيرا مقاطعة واحدة كانت تسمى باسم الجيوش.

---

(١) أنظر الكتاب ص (٢٧٩) ومايليها.

(٢) D. J., Geenakoplos, **Byzantium, Church, Society and civilization Seen Through Contemporary Eyes,** (Chicago and London, 1984), P. 64.

(٣) Idem, P. 64.

(٤) Stratos, Ibid, Vol. 1, p. 267.

(٥) Rambaurd, A., **L'Empire Grec au Xeme Siecle,** (Paris, 1870) P. 184, see stratos Vol. I, p. 267 15

(٦) Zakythinos, D., **Observation on A Pertusis,** Sedition of Cons. Prophyr. **De Themtibus** in E.E.B. Vol. 24, Athens, 1954 in Greek 11, P. 286-287.

(٧) Brehier, L., **Les Institutions de l'Empire Byzantin** E.D.H. 32. bis. (Paris 1949). P. 256-287.

ولاحظ ديل Diehl[٨] أن الثيما لم تكن لها تطبيقات جغرافية ومن هنا استنتج أن الثيمات بدأت بالإشارة إلى مجموعة من الرجال، ولنقل على سبيل المثال، ثيم الأرمنياك Armenikon Thema، أو وحدة عسكرية من الأرمن ويؤكد بيرتوسي Pertusi[٩] على الكلمة في المعجم العسكرى أنها مستندة إلى أساس عسكرى لتعني نقطة تجمع للجيوش، حيث كان يتم فيها تسليحهم وتنظيمهم. ولكن بما أن كلمة ثيما هي كلمة اغريقية، لابد أن تكون دخلت في الاصطلاحات العسكرية بعد أن تمت الأغرقة على يد الأمبراطور قنسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م).

ويخالف دولجر[١٠] هذه النظرية إذ يرى أن كلمة ثيما قد استخدمت كاصطلاح عسكرى في الكتاب الذي ينسب إلى الأمبراطور موريس Maurikiou strategakon وبالنسبة لدولجر فإن الكلمة تعنى اصطلاحا إداريا خاصا وأن الكلمة أساسا كانت تستخدم لتعنى القائمة Roll التي كان يدرج فيها أسماء أولئك الذين من واجبهم الخدمة في الجيش، وبمرور الوقت فإن الإصطلاح استخدم للتعبير عن وحدة من الجند مكونة من أولئك المسجلين في إقليم معين يؤدون فيه الخدمة العسكرية. وأخيرا أطلق الاسم على المكان الذي ضم وحدة الجند المسجلين في إقليم ما والمسؤولين عنه.

وطبقا لكيرياكيدس Kyriakides[١١] فإن الاصطلاح يعني قواعد أو ثكنات الجند. وتطورت الكلمة لتعني أو لتشير إلى الفرقة أو الوحدة التي شغلت مكانا بعينه. وان الثيمات الأولى لم يطلق عليها اسم المكان الجغرافي ولكنها نسبت إلى وحدات الجيش التي استقرت فيها.

ويرى هالدون أن أصل كلمة ثيما وتاريخها وتفسيرها ظلت موضوعا غامضا. وأن هناك أبحاثا حديثة[١٢] تقترح أن ثيما كلمة دخيلة تعود إلى الفترة المبكرة من القرن

---

(٨) Diehl, Ch., **Etudes Byzantines**, (Paris, 1905) PP. 286-287

(٩) Pertusi, A., **La Formation des Themes Byzantins** in: Berichte Zum XI Intern., Byzant. Kongres,. (Munich, (1959) P. see Stratos, Vol. 1, P. 267

(١٠) Dolger, Fr, Zur **Ableitung des Byzantinische Verwaltungsterminus** Thema in: Historia Vol. 5, 1955 see, Strtos Vol. 1, P. 267

(١١) Kyriakides, St., **How the Word Thema Came mean Military Zone**. in: E.E.B.Z.n. 23, (Athens, 1953) (in Greek) see stratos Vol.1, 267.

(١٢) Howard, J.D. - **Johnston, Thema in Maistor, Classical Byzantine and Renaissance Studies for Robert Browning** A Moffat (Byzantina Australiensia V, Canberra (1984) pp.189-197. see Haldon 13 (next page)

السابع وانها مشتقة من كلمة tumen في لغة الخزر التركية chasar turkic وتعني تشكيلا مكونا من عشرة آلاف جندي ولكن هالدون يرى أن هذا القول غير مقنع(١٣).

ويناقش هالدون أيضا ماقيل من أنه ذهب إليها عرفان شهيد(١٤) والتي يقول فيها انه يتعرف على الثيمات في المناطق التي ظهرت في الروايات العربية المبكرة عن فتح العرب لسوريا، التي أوجدها هرقل والتي عرفت باسم الأجناد، وفي رأي هالدون أن هذه تمثل ماكان موجودا من مناطق عسكرية قبل الاسلام ولكنها لتلك المناطق. وتلك المناطق التي يشار إليها باسم جند وجمعها أجناد. وهي تمثل مناطق عسكرية لتنظيمات هرقل المتمثلة في الثيمات. ويرد هالدون على هذا القول: بأن الثيمات لاتمثل المناطق العسكرية للفترة ماقبل الاسلام في سوريا. وليس لها أي ارتباط بنظام الثيمات. وعلى العكس مثلت النظام القديم الذي يعود لنظام الدوقيات وهي دوقيات لبنان الفينيقية، والدوقية العربية Arabia ودوقية فلسطين. وقد قسمت دوقية لبنان الفينيقية إلى قسمين خلال القرن السادس تركزا حول حمص Emesa ودمشق، وان تلك الأجناد تمثل استمرارية النظام الاداري الروماني التقليدي المتأخر للدفاع عن الحدود. فهي لاتعدو أن تكون نظام الليميتاني Limitanie لتلك المناطق(١٥). وهي مناطق الثغور العسكرية Limitanie.

وتنحصر المصادر المهتمة بالثيمات في عدد قليل يأتي على رأسها كتاب Maurice's Strategikon المنسوب إلى الامبراطور موريس(١٦)، يشير ستراتوس(١٧) إلى أن هذا الكتاب أورد لفظ ثيما ولم يذكر ستراتوس الموضع الذي وردت فيه الكلمة. وبالرجوع إلى الكتاب المشار اليه في طبعة ١٩٨١م وجدنا انه لم يستخدم كلمة ثيما وانما الكلمة التي استخدمت هي كلمة (Tagma) بمعنى جماعة أو فرقة من الجند أو كتيبة. ولمناقشة هذه النقطة أهمية كبيرة لأنه لو صحّ أن الكتاب المنسوب إلى موريس

(١٣) Haldon, Ibid, P. 215, n. 267.

(١٤) Shahid, I, **Heraclius and theme system-New Light from the Arabic**, Byzantion 67 (1987) pp. 391-403.
وأيضا: Shahid, I., **Heraclius and the theme system further observation**. B. 69. (1989).pp. 208-243.

(١٥) Haldon, Ibid, P. 215-216 n 27.

(١٦) Strategieum de Pseudo-Maurice (led) Scholler-Wpsala 1664. البعض يرى أن الكتاب ليس من وضع الامبراطور موريس لذلك قالوا Pseudo-Maurie بمعنى موريس الزائف أو المنسوب إلى موريس.

(١٧) Stratos, Ibid Vol. 1, P. 267.
أيضا: Idem, P. 130

لم يذكر كلمة ثيما (Thema) فإن ذلك يعزز القول بأن نظام الثيمات لم يكن من مبتكرات القرن السادس.

وحوليات كل من ثيوفانيس Theophanes ونيقوفورس Nicephorus لأنهما قاما باستخدام المصادر المبكرة[١٨] وكذلك لأن ثيوفانيس أول من أورد كلمة ثيما في كتاباته. وكتاب الامبراطور قنسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٧م)[١٩] وبالنسبة للكتاب الأخير فيقول بيوري[٢٠]: انه ليس له ثقله في تأكيد أو تحقيق نظام الثيمات في القرن السابع بالذات لأنه لم يحسن النقد التاريخي.

وعلى الرغم من وجود المصادر المشار إليها والتي يستند اليها في وجود الثيمات في القرن السابع، فإن هذه المصادر تصمت عن امدادنا بالتاريخ المحدد لبداية العمل بنظام الثيمات، لذلك قام جدل بين المؤرخين المهتمين بالتاريخ البيزنطي وتركز اهتمامهم حول بداية قيام نظام الثيمات وحول المؤسس الأول لذلك النظام. وعلينا استعراض تلك الآراء لتقييم وجهة النظر التي استند اليها كل فريق.

يتفق كل من ديل Diehl[٢١] ورامبو Ramboud[٢٢] على أن أولى الثيمات أسسها هرقل لمواجهة خطر الفرس والعرب والآفار والسلاف. ويتفقان أيضا مع القول بأن وظيفة قائد الثيمات ماهي إلا تطوير لوظيفة Magister Militum التي استحدثت وزود صاحبها بسلطات عسكرية وادارية واسعة فهي أصل وظيفة الاكسارخية أو الارخونية Exarchate التي استحدثها موريس، وهي أيضا أصل في نظام الثيمات[٢٣].

ويظن بيوري أن الاصلاح بدأ في عصر جستنيان عندما عين عددا من Magister. Militum وكانت تغييرات جستنيان الادارية جسرا بين نظام دقلديانوس ونظام العصور الوسطى، وكانت اصلاحاته مقدمة لنظام الثيمات وفي واقع الأمر ان القيادة التي يرأسها الـ Praetoria أو الـ Strategia في صقلية ماهي إلا ثيما أرسيت قواعدها في القرن السادس. غير ان الظروف في القرن السابع، وهي الحرب مع الفرس أولا والمسلمين ثانيا، أدت إلى تطوير مستحدثات جستنيان وأعطتها اتجاها خاصا[٢٤].

---

(١٨) أنظر مقدمة الكتاب «دراسة المصادر».

(١٩) Constantine VII Prophyrogennetos “**De Thematibus**” ed. Pertusi, .Vatican, 1452

(٢٠) .J. B. Bury, L.R.E. Vol. 2, P. 339

(٢١) .Diehl, Ibid, see stratos, Vol. 1, P. 268

(٢٢) .Ramboud, Ibid, see stratos Vol. 1, p. 268

(٢٣) .Stratos, Ibid Vol. I, p. 268

(٢٤) .Bury, Ibid, Vol. 2, P. 341

ويقول بيرير Brehier انه كان لكلمة ثيما علاقة، في الأصل، بالحراس الذين كانوا يتولون حراسة إحدى المناطق وأن إسم المنطقة هو الذي أضاف لكلمة ثيما اسمها. وهو بذلك يوافق على الاصلاحات الادارية التي بدأت منذ عهد كل من جستنيان وموريس[٢٥].

ويرى شتاين Stein[٢٦] ان هرقل أوجد الثيمات الأولى بعد انتصاره على الفرس، بأن وعد جنده بتوزيع أراضي عليهم في آسيا الصغرى ويضيف إن إصلاحات هرقل تأثرت بإصلاحات خسرو الأول[٢٧] وأن هرقل درس هذا النظام الفارسي وكان مضطرا إلى اتخاذه، نموذجا للثيمات الأربع الأولى، وقد لاحظ شتاين أيضا عجز هرقل عن تجنيد مرتزقة أجانب.

ويوافق كريستنسن Christensen[٢٨] على فكرة أثر النظام الفارسي والذي ظهر بوضوح، في اصلاحات هرقل الإدارية، وأكد على انها بنيت على نفس الأسس التي قام عليها نظام الاصلاح الفارسي الذي أدخل خلال القرن السادس، وكذلك الحالة بالنسبة للنواحي المالية والاجتماعية.

ويرى داركو Darko ان هرقل عند تنظيمه للثيمات أحدث تحسينا تاريخيا في تطوير نظام بدأ في عهد جستنيان، وطبق نفس هذا الإصلاح في فارس خلال القرن السادس، وكذلك فعل هرقل ولكن الفرس تأثروا بنظام كان سائدا عند الأقوام التورانية. ولكن داركو تخلى عن هذه الفكرة فيما بعد وتبنى فكرة تأثر الاصلاحات الادارية بنظام ملوك الممالك الهلينستية التي سيطرت على آسيا الصغرى بعد أن فتحها

---

(٢٥) Brehier, Ibid see Stratos, Ibid, Vol. 1, p. 268

(٢٦) Stein, E., **Studien Zur Geschichte** Des **Byzantinischen Reich**, Stuttgarit 1919, see stratos vol. 1, p. 268.

(٢٧) وتتلخص اصلاحات خسرو Khusrau في أن النبلاء كانوا في السابق بصفة عامة مجبرين على تسليح أنفسهم وأتباعهم ويخدمون في الجيش بدون مقابل. وقد أعطى كسرى النبلاء الفقراء أسلحة ومرتبات مقابل خدماتهم. كما عمل كسرى على استقرار عائلات على الحدود، وكان واجبهم حماية الحدود وقت الخطر وربما تكون تلك السياسة هي التي أمدت بيزنطة بنموذج تمثل في نظام الثيمات البيزنطية.

Fyre, R.N., **Iran under the sasanians** in: C.H. of Iran Vol. 3, P. 154

لقد قسم كسرى امبراطوريته إلى أربعة أقسام وعين spabbad أو General قائدا على كل جزء، فهناك قائد الشرق وقائد خراسان وقائد الغرب وقائد العراق. وتلك التقسيمات كانت على جانب من الأهمية حيث كانت عليها مهمة دفاعية ضد البدو الرحل من الشرق والرومان في الغرب. وقد اكتشف العرب أن إيران في الداخل كانت خالية من القوات العسكرية حيث كان الجند متمركزين على الحدود. وعندما يهزم جيش الحدود فإن الطريق إلى الداخل يكون مفتوحا. والنتيجة كانت فعالة حيث استطاع كسرى نتيجة تلك التقسيمات أن يهاجم بيزنطة في وقت قصير. Fray, Ibid P. 154.

(٢٨) Stratos, Ibid, Vol. 1, p. 268.

الاسكندر[٢٩].

كما يتفق كل من Kulakovski[٣٠] كلا كوفزكي وفازلييف Vasilieve[٣١].

على أن التنظيم الإداري الجديد لم يفرض عن طريق مرسوم أو قانون، وإنما بعد استعادة أرمينيا فكّر هرقل في إتخاذ خطوة لإعادة تنظيم هذه المنطقة، ولم يعين حاكما مدنيا، ولكنه عين قائدا اسمه Mezezios من الارستقراطية الارمينية، وكانت مهمته حكم المنطقة واعادة تنظيمها. وهذا هو أصل ثيم الأرميناك Armeniakon Thema الذي كان أول الثيمات. والذي كان نموذجا للثيمات التي بدأ التوسع في انشائها بحسب ما تطلبته الظروف. وقد أضاف فازلييف انه ربما يرى في نموذج أرمينيا فرصة للتقدم المطرد لعسكرة الامبراطورية في عهد هرقل بسبب الخطر الفارسي، لأنه عندما أراد هذا الامبراطور تنظيم أرمينيا لم يعين أي إدارة مدنية بل عهد بها إلى سلطة كانت عسكرية بحتة[٣٢].

مما سبق نجد أن بعض المؤرخين اتفقوا على أن أصل الثيمات يعود إلى عهد جستنيان وموريس. واتفق البعض الآخر على أنها أسست في عهد هرقل مع التأثر بالأنظمة السابقة له.

ولكن هناك أيضا عدد من المؤرخين يتفقون على نقض هذه الآراء والقول بأن نظام الثيمات أسس في عصر لاحق لعهد هرقل، وإن كان أيضا في القرن السابع.

ويعتقد زاكيثينوس Zakythinos[٣٣] ان هرقل بدأ بتنظيم إدارة الولايات أو الإصلاح الإدارى الجديد قبل الحرب الفارسية وربما في عام ٦٢٢م استقرت فرق عسكرية في مختلف المناطق ولكن لم يتضح تماما فيها هذه المناطق. وقد تطور النظام بأكمله في فترة الحرب.

ويتفق معه في الرأي Kyriakidos[٣٤] الذي ينكر أن تكون الثيمات بوصفها تنظيم إدارى للمقاطعات قد أقيمت قبل سنة ٦٢٨م.

ولايعتقد بينز Baynes[٣٥] ان نظام الثيمات قد طبق لأول مرة في عهد الامبراطور هرقل. ويستند في رأيه ذلك على جملة جاءت عند الامبراطور قنسطنطين

(٢٩) Idem, Vol. 1, P. 269.

(٣٠) Idem, Vol. 1, P. 269.

(٣١) Vasilieve Ibid, p. 228.

(٣٢) Idem, P. 228.

(٣٣) Zakythinos, **Observations on A. Pertusi** etc. P. see stratos Vol. 1, p. 270.

(٣٤) Kyriakidos see Stratos Ibid, Vol. 1, p. 270.

(٣٥) Baynes, The **Emperor Heraclios** see Strtos, Vol. 1, p. 270.

السابع تقول: إن الثيمات أدخلت في عهد خلفاء هرقل، ويقول أيضا إن هرقل ورث جيشا رومانيا مهيناً ومنحلا، في الوقت الذي هاجم فيه الفرس آسيا الصغرى وقد كان مجبرا على البحث عن مكان آخر حيث يستطيع أن يجند جيشا، وكان المكان في القوقاز. وكان يجب أن يكون أول الثيمات قد استحدثت في آسيا الصغرى، ولكن هذا المكان قد انتزعه الفرس قبل سنة ٦٢٦م وكان من المستحيل وضع جنود هناك وامدادهم بالأراضي العسكرية.

ويختلف Pertusi[٣٦] اختلافا اساسيا وينكر أن يكون هرقل قد أسس الثيمات الثلاث او الأربع الأولى. وانه ليس لما قيل أي أساس تاريخي. وانه قبل التاريخ ٦٦٧-٦٨٠م لايستطيع الحديث عن الثيمات بالمعنى الذي تعنيه الكلمة على عهد الامبراطور قنسطنطين السابع في القرن العاشر. ويضيف ان ذلك الاصلاح الاداري العظيم لم يكن عملا قام به شخص بمفرده، وانه لا احد ينكر الدور العظيم الذي لعبه كل من هرقل وقنسطانز في الاسراع بإنشاء الثيمات كما انه يتفق مع الآراء القائلة، بأن ذلك الاصلاح قد تأثر بإصلاحات جستنيان وربما بالممالك الهلينستية، ولكنه يرفض فكرة وجود أي تأثير فارسي أو توراني Touranian. ويقول ان فعل Dokew الاغريقي بمعنى اعتقد، والتي استخدمها الامبراطور قنسطنطين السابع، ليس لها صفة الجزم القاطع ولا تعني أن هرقل هو الذي أوجد هذه الثيمات، وانما تعني بكل بساطة أن كلمة ثيما عادت إلى الاستعمال مرة أخرى في ذلك الوقت. وينتهي Pertusi إلى القول بأن الثيمات كانت تنشأ بسبب الحاجة إلى الدفاع ضد الإغارات البربرية. ففي الجنوب أنشأت أولى الثيمات مع الغزو العربي، وفي الشمال لصد غزوات البلغار. ويقول هالدون بأهمية عهد قنسطانز الثاني وأن قنسطانز هو مؤسس نظام الثيمات، كما يقول بأنه هو الذي وضع حدا لامتداد المسلمين في الاناضول وقرر أن يكون الأناضول منطقة حدودية Frontier zone، ولايعتقد أن هرقل هو الذي ابتدع أو استحدث نظام الثيمات.

ويأتي Esslin[٣٧] ليقدم رأيا وسطا بين الذين يقولون بأن الثيمات قد تأسست في عهد هرقل وبين الذين يقولون بأنها تأسست بعد عهده ويعلل رأيه بقوله: حيث ان الامبراطور لم يجد جندا مرتزقة فقد أصر على أن يكون لجيشه قواعد يعسكرون فيها في الولايات التي يهددها الفرس، ووعد بأن يوزع عليهم الأراضي الخصبة بعد الحرب

(٣٦) Pertusi, Constantine Prophr. P. 110
أيضا: Pertusi, La Formation des Theme Byzantins - Haldon, Ibid, P. 63.
(٣٧) Esslin, The Emperor, ed. by Moss & Baynes, Stratos, Ibid, Vol. 1, P. 270

وان الثيمات الثلاثة قد وزعت بعد احراز النصر النهائي. ويتفق مع Baynes بأنه لم يكن من الممكن توزيع أراضي في آسيا الصغرى قبل التاريخ ٦٢٦م حيث كانت آسيا الصغرى تحت سيطرة الفرس.

ويرى Ostrogorsky[٣٨] ان نظام الثيمات قد وضع حدا نهائيا للنظام الاداري الذي وضعه كل من أباطرة دقلديانوس وقنسطنطين. ولكنه في نفس الوقت كان تطور من النظام الروماني القديم Limitanei[٣٩] ونظام Exarchate. وان الحاميات في خطوط الحدود الـ Limes قد انسحبت إلى قلب آسيا الصغرى، حيث استقروا في الأراضي التي لازالت تحت الحكم البيزنطي، هذا بالاضافة إلى بقايا الجيش البيزنطي الذي استقر في آسيا الصغرى. وان هذا هو النظام الذي ظهر إلى الوجود عن طريق استقرار الجنود ووضعهم في ثيمات - مناطق في أسيا الصغرى، ويشير اوستروجورسكي إلى أن الربط بين نظام الثيمات مع استقرار الجنود وملكيات الجنوب للأراضي أول من أشار اليه هو Uspenskij[٤٠] وقام شتاين Stein[٤١] باجراء دراسة مماثله وتوصل بها إلى نفس النتائج التي توصل اليها أوسبنسكى Uspenskij، وذلك بدون ان يكون على علم بالدراسة السابقة. أما الشكوك التي يشيرها ليمرل Lemerle[٤٢] وكذلك كارايانوبولوسى Karayannopulous[٤٣] فتعتبر تماما غير مبررة.

كما يشير اوستروجورسكي أيضا إلى انه يخالف شتاين Stein[٤٤]. أن هرقل عندما استحدث نظام الثيمات، كان متأثرا بالنظام الفارسي، مهما كانت درجة الشبه بين النظامين، ونفس القول ينطبق على نظرية داركو Darko[٤٥] التي

(٣٨) Ostrogorsky, **Byzantine State** P. 96-97.

(٣٩) والـ Limitanei هي قوات الحدود العسكرية التي منحت هبات من الأرض مقابل الخدمة العسكرية. لمزيد من التفاصيل أنظر: نورمان بينز، الأمبراطورية البيزنطية: ترجمة: حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ١٦٩.

أما الـ Limes هو خط الحدود المحصن الذي يتكون من الخندق الذي تتخلله أسوار وبروج وحصون ثم الأجهزة المحصنة الواقعة أمام الخندق وخلفه وشبكة من الطرقات. لتفاصيل أكثر أنظر:

جوليان، شارل لاندرى «**تاريخ افريقيا الشمالية**» ترجمة حمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩م، ص ١٨٤. بالنسبة لنظام الـ Exarchate أنظر الكتاب ص (٧٦٢) وما يليها.

(٤٠) Uspnskij, Vennoe Ustrojstvo, P. 199 ff.

(٤١) Stein, Studien P. 134 ff.

(٤٢) Lemerle, **Histoir Agraire** pp. 43, 70, 218-220.

(٤٣) Karayannopaslous pp. 15, 72 ff.

(٤٤) Stein, studien p. 50 ff.

(٤٥) Drako, E., **Influences Touraniennes** Sur **l'evolutionde** l'art militaire des Grecs, **des Romains** et **des Byzantins**, B 10 (1935) p. 443 and 13 (1937) 119 FF.

=

تقول بأنه ربما يعود أساس نظام الثيمات إلى النموذج التوراني Turanian[٤٦].

ويشير أوستروجورسكي إلى ملاحظة هامة وهي أن أساس نظام الثيمات وتطوره كان مقصورا على منطقة آسيا الصغرى خلال تلك المرحلة الأولى[٤٧].

وخلاصة رد Lemerle ليمرل[٤٨] على اوستروجورسكي: إن تعيين Strategos ليكون قائد ثيم يضم أرضا موزعة على الجنود ويجمع بين يديه كافة السلطات الادارية عسكرية ومدنية، يعني حدوث تغيير جذرى في طريقة أداء الخدمة العسكرية وربط الجنود بتملك جانب من الأرض. وإن كنا لاننكر أن هذا التقليد كان معمولا به ولكن على نطاق ضيق وبشكل مختلف في مناطق الـ Limitanei والأرخونيات Exarchate.

غير أن النظام الجديد والمنسوب إلى هرقل يؤدي إلى ظهور طبقة عسكرية ونظام زراعي جديد. والمهم ان نظام الادارة البيزنطية والجيش البيزنطي كانا يمران بمرحلة تغييرات، كان لايمكن تجنبها، ونحن لانعرف الكثير عن فترة العقد الأول لحكم هرقل، ولم يوضح أي مصدر من مصادر عصره انه قام بإصلاح أساسي من هذا النوع ويتساءل هل كان هرقل في عام ٦١٨م؟ أو ربما في العام التالي مهتما باجراء هذا الاصلاح في آسيا الصغرى. ونعرف انه في هذا التاريخ كان يدبر نقل عاصمته إلى قرطاج، في شمال افريقيا، وفي سنة ٦٢٢م بدا الخطر الفارسي واضحا. فلا يمكن في الفترة مابين ٦١٨-٦٢٢م، هذه الفترة الزمنية القصيرة، أن يكون قد قام أو فكر في هذه الترتيبات.

إن كتاب قنسطنطين السابع عن الثيمات لايتضمن شيئا بالنسبة لهرقل. وجاء فقط، فيما يمكن أن نسميه بالمقدمة، وهي عبارة - أن الأباطرة عندما توقفوا عن قيادة الجيوش بأنفسهم في الحرب أوجدوا منصب القائد العسكرى Strategeos، وابتكروا نظام الثيمات. وهذا لاينطبق على هرقل. ويقول قنسطنطين السابع: انه بعد أن فقدت الامبراطورية بعض ولاياتها في عصر هرقل على يد العرب فإن الأباطرة الذين أتوا بعده كانوا على حق في تجزئة قوة الجيش بابتكار نظام القائد ونظام الثيمات.

ولايمكن أن يفهم من قسطنطين ان هذا التغيير يعود إلى عصر هرقل. فمثلا: ثيم

= Drako, **La peuples nomades, Cavaliers dans la transformation de L'Empire romain aux premieos Siecles du Moyen Age**, B 18 (1948), 85 FF.

(٤٦) Ostrogorsky, **Byzantine State**, 2p 98

(٤٧) Ostrogorsky, Ibid P. 98

(٤٨) Lemerle, **quelques remaroues Sur Le regne D'Heraclius**, Studi Medieval, 3'Serie 1 Spoleto (1960) P. 359

الاناضول حيث ارتبط استحداث نظام الثيمات بالزحف العربي وكنتيجة له. كذلك ثيم الأرميناك واضح انه مرتبط بجيش الأرمن وهي تسمية عرقية، تجعل قنسطنطين يتردد في نسبة انشاء هذا الثيم وبهذا الاسم، إلى هرقل وخلفائه. وان الأمر لايعدو أن يكون مجرد التعبير عن فرقة من الجيش البيزنطي كانت معسكرة في أرمينيا ويقول:-Le-merle ليمرل إن الذي أوجد الارتباك عبارة صغيرة أوردها ثيوفانيس[٤٩] وهو الذي كان يكتب مؤلفه بين عامي ٨١٠-٨١٥ ونص هذه العبارة هو: "عندما وصل الامبراطور هرقل إلى "ارض الثيمات: وهي: Ton thematon Choras جمع قواته وأضاف اليها قوات جديدة" وفي رأي ليمرل انه كان قد عقد صلحا مع الآفاروهو يعد العته لمواجهة الفرس وهذا يعني انه في إمكانه تحريك قواته من أوروبا ونقلها إلى آسيا الصغرى دون أن يخشى خطر الآفار. وغادر القسطنطينية في عام ٦٢٢م الى Pylai في بيثينيا Bithynia، شمال غرب آسيا الصغرى بالقرب من المضايق. ووصل إلى أرض الثيمات وجمع قواته وأضاف إليها جندا جرى تجنيدهم حديثا.

ويقول ليمرل انه يلاحظ ان ثيوفانيس يتحدث عن القوات التي أصبحت تحت تصرف هرقل وأنها[٥٠] كانت قد تبعثرت في كل المنطقة وكانت في وضع سيىء، فجمعها الامبراطور على الفور ليقوم بتدريبها، وهذا يعني أن هرقل لم يكن قبل عام ٦٢٢م قد قام بالفعل باصلاحات عسكرية جذرية. ويوجه ليمرل الاهتمام إلى عبارة «أرض الثيمات» وبالذات إلى كلمة «ثيما» ويقول إن هناك تفسيرين متباعدين تماما. ثيوفانس عندما يتحدث عن الثيمات كانت في ذهنه الصورة التي كانت عليها في عصره. والتفسير الثاني إنها بالمعنى الفني، ومن وجهة نظر النظم كانت تنظيمات عسكرية، أو مجموعة كانت موجودة في آسيا الصغري قبل عام ٦٢٢م. فالبعد الزمني حوالي قرنين بين هذا التاريخ وتاريخ كتابة ثيوفانيس. إن ثيوفانيس لابد وأن يكون قد رجع فيها إلى جورج البسيدى[٥١] الذي كان مصدرا له والذي اشترك في الحرب الفارسية الأولى مع هرقل في سنة ٦٢٢م الذي نجد انه لم يستعمل كلمة «ثيما» اطلاقا ولا أي اصطلاح يشير إلى مانسميه نظام الثيمات، وبذلك يكون ثيوفانيس استخدم كلمة ثيما بمعناها الدارج غيرالدقيق. ولايخرج عن معنى انها تعنى فرقة من الجند. وقد أسلف ليمرل القول

(٤٩) Theophanes, Ibid 303

(٥٠) Idem, 303

(٥١) أنظر الكتاب، نقد المصادر والمراجع، ص (٢٨).

بتجميع هرقل لقواته في مكان واحد لتدريبها. وانما كان هدفه حمايتها من هجوم مفاجيء للفرس. مع ملاحظة انه لم يجمعها في قلب آسيا الصغرى ولكن جمعها في منطقة الدردنيل ومنطقة بثينيا. وان هذه المنطقة التقليدية التي كان يجرى فيها تجميع الفرق العسكرية هي منطقة تقع على رأس وادي يجري فيه نهر سان حاريوس الكبير، وهذا لايوحي أبداً بتحويل المنطقة، يقصد بها آسيا الصغرى، إلى نظام إدارى أو عسكري. فيكون ثيوفانيس قد قصد تحديدا جغرافيا لمنطقة تجمع الفرق العسكرية.

ويشير ليمريل[٥٢] إلى أن ثيوفانيس كتب بعد قرنين من الزمن من أحداث عام ٦٢٢م وان كيدرنيوس cederenus و Zonaras زوناراس كتبا بعد ذلك بأربعة قرون او أربعة ونصف، وقد نقلا عن ثيوفانيس. فإن كان ليمرل قد اعترض على ثيوفانيس فمن الأولى أن يعترض عليهما أيضا. ولكن من خلال قراءة ليمرل لكل منهما خرج بنتيجة ان Zonaras قصد (بالثيما) "فرقة عسكرية" اما كيدرينوس Cedrenus فقد فهمها على أنها مجرد ولاية بيزنطية.

وبناء عليه فان ليمرل يرى ضرورة استبعاد ثيوفانيس من مجال المناقشة. فلا يوجد أمامنا بعد ذلك أي مصدر آخر ينسب نظام الثيمات إلى هرقل. ولا شك لو كنا نملك معلومات كافية عن جيش هرقل لوضحت الصورة أكثر من ذلك. ويخلص ليمرل إلى عدد من التساؤلات وهي:

أولا: كيف يفكر هرقل في القيام بعمل، هو سماه أساسي وثوري لدولة كان يجرى فيها الاستعداد للحرب وتعوز الامبراطور الأموال وتنقصه الجنود ؟

ثانيا: كيف نفهم أن يقوم بقيادة الجيش بنفسه ولا يعهد به إلى Strategos؟

ثالثا: هل كان هرقل يسعى إلى استبعاد العنصر المرتزق من جيش الامبراطورية ويحل محله العنصر الوطني؟ وهذا ما لايستطيع الجزم به؟ وهذا العمل لوصح بلاشك عمل ممتاز يطرب له مؤرخو بيزنطة ولكي يتم ذلك يجب أن يقوم بتوزيع أراضي عسكرية على جنود وطنيين، ليكون ذلك بمثابة القاعدة التي يقوم عليها بعد ذلك الجيش الوطني في بيزنطة.

ويضيف ليمرل انه يكاد يؤكد انه لايجوز ان تنسب هذه البداية لتوزيع الاراضي ليكون لها صفة عسكرية وتكون تحت إدارة Strategos يجمع بين يديه كل السلطات. ويمكن القول بآن الانتصار الذي حققه هرقل ضد الفرس أدى إلى نسبة النظام

---

(٥٢) Lemerle, Ibid P. 359 ff.

اليــــه[٥٣].

ويتفق معه Karayannopoulos كارايانوبولس[٥٤] على أنه لايوجد مصدر يقول إن هرقل قد أسس الثيمات الأولى، وان هرقل هو الذي استحدث نظام توزيع الأرض على الجند ولا هو الذي غير نظام التجنيد ليحل الجند الوطنيين محل الجند المرتزقة.

وأختتم كارايانوبولس دراسته بالقول بأنه في امكاننا استعارة مصطلحات كانت تستعمل خلال الفترة الأولى من العصر البيزنطي أدت تدريجيا إلى تطبيق الأخذ بمبدأ قبول اعطاء الأرض كمنحة، وهو شيىء مختلف تماماً عن نظام الثيمات. والقدر المشترك بين هذين الأمرين أن أياً منهما لم يصدر بإرادة الامبراطور. فهذه الأنظمة كانت نتيجة تطور استغرق فترة طويلة بدأت بالسنوات الأولى من العصر البيزنطي وانتهت بالقرن العاشر.

ويجيب ستراتوس على السؤال بشأن المصدر الذي اقتبس البيزنطيون منه هذا الاصطلاح الاداري، ويبدي تعجبه من استمرار البحث في هذا الموضوع بقوله: لقد استقرت في منطقة آسيا الصغرى شعوب من جنسيات مختلفة، والذين احضروا معهم حضاراتهم وأنظمتهم المختلفة. وانه من الطبيعي أن يتأثروا إما بجزء كبير أو صغير من حضارات تنظيمات الشعوب التي سبقتهم والتي حكمتهم. وفي الحقيقة، لقد تأثر الفرس بقدماء الأغريق. كما أن الأغريق تأثروا بالفرس عندما جاءوا إلى بلادهم[٥٥].

ويقصد ستراتوس هنا الحضارة الهلينستية التي بدأ عصرها بوفاة الاسكندر سنة ٣٢٣ق.م بعد أن ترك امبراطورية واسعة شملت فيما شملت بلاد الفرس. ولم يكن لخلفائه، الذين ألفوا نظام المدينة الحرة، إلا أن يأخذوا بنظم الفرس الادارية لتنظيم حكم تلك الامبراطورية، فقسموها إلى ولايات أعطوها الاسم الفارسي ستراييات ولحاكمها لقب ساتراب Satrap.

وبالنسبة لما أثاره كبار المؤرخين أن جستنيان أدخل نظام الثيمات بإنشاء مناطق عسكرية كبيرة تحت قيادة Magister Militum، فيجب ملاحظة أنه لايوجد مصدر موثوق به ينص على أن كلا من النمطين، الثيم وتلك المنطقة العسكرية التي أوجدها جستنيان شيء واحد. وفي رأي ستراتوس أن القوات العسكرية في مختلف المناطق يجب وضعها تحت قيادة موحدة يقودها Magister Militum ويقول مالالاس

---

(٥٣) Lemerle, Ibid, P. 78 see stratos, Ibid, Vol. 1, p. 271.

(٥٤) Karayannopoulos, Ibid, 29 see stratos, Vol. 1, p. 271.

(٥٥) Stratos, Ibid, Vol., 1, P. 271 79.

Mallalas الذي اعـتـمـد عليـه ديـل انه في نفس الوقت كـان هناك Proconsul نائب قنصل، يحتفظ بالسلطات المدنية.

وعلى أي حال فإنه ليس هناك من تساؤل عن أن هرقل تحمس لنظام الثيمات فقد نشأ في منطقة طبق فيها هذا النظام الذي كان له قائد واحد هو والد هرقل، Exarch، ولذلك لم يكن الجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية بالأمر الجديد بالنسبة له.

وكان نظام الـ Exarchate هو النموذج الذي احتذاه هرقل. وبالنسبة للامبراطور موريس نتساءل عن المصدر الذي تأثر به في إقامة هذا النظام؟ غير أن هذا الامبراطور أقام نظاما دائما من السهل تعقب سوابقه في العصر الروماني أو في النظم الأغريقية والفارسية.

وليس هناك ثمة شك في أن هرقل كان عاجزا عن أن يدفع رواتب لجند المرتزقة مالا سائلا. ولايعني ذلك انه لم يكن هناك عناصر مرتزقة، ولكن الامبراطور وكان عاجزا عن دفع رواتبهم، وكان المرتزقة من أردأ العناصر العسكرية. إلى جانب ذلك فإن هرقل كان يعرف بنظام توطين المواطنين في الأرض مقابل خدماتهم العسكرية. وهذا ماطبق في ارخونية افريقيا Exarchate. ولما وجد الامبراطور صعوبة في دفع رواتب الجند المرتزقة، كان في نفس الوقت يعتقد أن نظام المرتزقة هو أسوأ النظم، كان من الطبيعي أن يلجأ إلى نظام قديم كان الرومان يمارسونه، ومن قبلهم خلفاء الاسكندر، ويقصد بذلك توطين الجند والمجندين من المواطنين في مناطق الحدود أو في المناطق المهددة، وواضح هنا انه يتحدث عن نظام الـ Limitanei.

ولذلك فإن ستراتوس يعترض على نظرية بينز Baynes بأن هرقل لم يستطع تجنيد الجيش الذي يريده إلا في القوقاز، لأن القوقاز كان مغلقا أمام هرقل حتى عام ٦٢٩م. فمن أي المناطق جَنّد جنداً ساعدوه على إلحاق الهزيمه بالفرس من سنة ٦٢٢-٦٢٣م؟ واقدامه على غزو فارس سنة ٦٢٤م. وبصرف النظر عن هذه الحقيقة، فإن بيزنطة ارتكزت على آسيا الصغرى ولعدة قرون، وأفضل الجند هم من جاءوا من منطقة بنطس Pontus (على البحر الأسود) أو منطقة ايسوريا Isouria. ويذكر ستراتوس انزعاج هرقل من فكرة ان اعتماد الجيش البيزنطي على الولايات الاغريقية، لم يكن قويا من حيث عدد جنوده ليضطلع بالحرب العنيفة مع الفرس وان هذا لن يحقق النصر للأمبراطورية، وهذه الفكرة هي التي حملته إلى القوقاز. ولكن بينما تخلى عنه خلفاؤه كسب الحرب مع القوات الفارسية.

ويعترض ستراتوس أيضا على Esslin الذي أبدى ملاحظته على أن هرقل لم

يستطيع أن يجد مرتزقة فقرر أن يوطن الجند في الولايات التي كان الفرس يهددونها، ووعد بأن يوزع عليهم الأرض بعد انتهاء الحرب. ومن الصعب أن نفهم ماذا يقصد Esslin هنا! إذا لم يكن في استطاعة هرقل العثور على جنود مرتزقة ماعساه كان يفعل مع جيشه؟

ولا يوافق ستراتوس أيضا على ماذهب إليه Karayannpoulos أن التغيير الذي طرأ على الجيش إنما حدث في عصر موريس. والرجوع إلى سبيوس للاستشهاد بقوله ليس بالأمر الصائب. فهذا مؤرخ أرمني ويشير إلى بلاد أرمينيا وجنود أرمن. وكانت أرمينيا تخضع لحكم إقطاعي فإذا استدعى أحد النبلاء للحرب كان يأتي يتبعه جنوده أو أتباعه. فالتعامل مع الجنود هنا ليس بوصفهم جند للوطن وانما جند هذا النبيل. واذا كانت مصادرنا البيزنطية قد خلت من الاشارة إلى تغيير في نظام الجند، فلا يعني ذلك أن التغيير لم يحدث، ففي هذه المصادر يأتي ذكر مثل هذه المسائل عرضا. وبلاشك فان قومية الجيش ومنح الأرض للجند هما الأساس الذي قام عليهما نظام الثيمات، أو فيهما تكمن جذوره. ولم يكن في استطاعة موظف إدارى عادي أن يدير أمر الجيش فكان من الضروري أن يكون في الولايات، المهددة بخطر الغزوات، وحدة إدارية على نفس الأسس التي قام عليها نظام الـ Exarchate. وعندما عمم نظام الثيمات فيما بعد وقسمت بيزنطة بأكملها إلى ثيمات، فقدت عملية توطين الجنود أهميتها الأولى. وهذا يفسر لماذا، فيما بعد، لانجد الارتباط الأول بين الخطر وتوطين الجنود وانشاء الثيمات، وفيما بعد وجهت الجهود للمحافظة على نظام الأراضي العسكرية وبمعنى آخر الملكيات الصغيرة والتي نتج عن اختفائها النظام الاقطاعي[٥٦].

لقد قام ستراتوس بمناقشة آراء كبار المؤرخين حول أصل نشأة نظام الثيمات في عصر هرقل، واستعرض النظريات التي دارت حول تأثر النظام بالأنظمة الأغريقية والفارسية القديمة، وكذلك بالأنظمة الرومانية مثل نظام الـ limitanei ونظام الـ Ex-archate، كما أنه ناقش فكرة ليمرل بأنه لاتوجد مصادر بيزنطية مبكرة تشير بصراحة إلى نظام الثيمات في عصر هرقل خلاف ثيوفانيس. ولكن أغفل ستراتوس ومن سبقه من المؤرخين نقطة هامة وهي ضغوط الفتوح الاسلامية على هرقل. وان الحاجة الشديدة هي التي جعلت الامبراطور هرقل يفكر في جمع شمل الأنظمة الرومانية السابقة في نظام اداري واحد يؤدي إلى حماية والدفاع عن البقية الباقية من أراضي

---

(٥٦) Stratos, Ibid, Vol. 1, PP. 271 FF.

الامبراطورية، التي يهددها خطر الغزو الإسلامي، وخطر الآفار والسلاف، على الجبهة الشمالية الشرقية، من جهة أخرى.

وبعد الفتح الاسلامي في منطقة بلاد الشام يذكر ثيوفانيس(٥٧) أن هرقل سحب جيوشه إلى منطقة آسيا الصغرى ونص ثيوفانيس هو: لقد انسحب هرقل مع جزء من قوات الشرق إلى جنوب الأناضول تاركا خلفه بعض الوحدات في فلسطين وشمال سوريا حيث كانوا لايزالون تحت الحكم الروماني وانسحبت قوات الـ magister militum per Armenian الى قواعدها في العراق وأرمينيا(٥٨). وبعد ذلك أصدر هرقل تعليمات عامة للقوات الرومانية في الشرق بالبقاء في مناطقهم وقواعدهم للدفاع عن مراكزهم ضد العرب(٥٩). وهذه الخطة تمثل وبوضوح الخطوة الأولى من خطوات تأسيس الثيمات الدائمة في آسيا الصغرى.

وبالاستناد إلى المصادر السريانية والمصادر الاسلامية نجد أن هرقل هو الذي أصر على انسحاب القوات الرومانية إلى ماوراء جبال طرسوس حيث أنشأ خط دفاع جديد هناك. وتشير المصادر تلك بأن هرقل أفرغ المنطقة الممتدة من أنطاكية وحتى قليقيه Kilikia من السكان المدنيين والعسكريين على حد سواء(٦٠) ان خط الدفاع الجديد الذي أسسه هرقل هو المسمى Kleisoura وذلك بوضع حاميات عسكرية للتحكم في الممرات الجبلية(٦١) إن تأسيس تحصينات مثل هذه في ممرات جبال طوروس في الفترة مابين ٦٣٨-٦٤٠م معناه أن الامبراطور هرقل أدرك تمام الادراك الخطر الذي يهدده.

إن هرقل في تلك الفترة الحرجة واجه مشكله استقرار الجند الذين سحبهم من الشرق، واستقرار السكان الذين أجبرهم على ترك مواطنهم، ويبدو أن هذه المشكلة هي التي أجبرته على استحداث هذا النظام. ونحن لانستطيع القول بأن هرقل قد قام بتنظيم أماكن الاستقرار تنظيما إداريا عاليا. وخصوصا وأن هذا الشيء قد حدث قبيل وفاته

(٥٧) Theophanes, Ibid, P. 373.

(٥٨) Michel le Syrien, Chronique (1166-1199) ed. by J. B. Chabot. Tome Vol. 11, p. 424.
أيضا: Stratos, Ibid, Vol. 2, P. 88.
Haldon, Ibid, P. 219.

(٥٩) Idem, 219.

(٦٠) Michel le Syrien, Chronique, P. 422.
البلاذري، فتوح البلدان ص ١٦٨.

(٦١) Lilie, Die Byzantinisch Reaktion auf die Ausbreitung der Araber. Studien Zur Strukturwandlung des Byzantinisches states im 7 and .8 jhd. Munich 1976 P. 303.
ايضا العدوي: المرجع السابق ص ١٠٩.

بفترة وجيزة. ولكنه هو الذي قام بعملية النقل تلك، فلابد أن يكون قد فكر في عملية الاستقرار. أما الترتيبات الإدارية التفصيلية والتخطيط النظامي الدقيق لهذه الظاهرة، لابد أن يكون من عمل خلفائه. لأن أي نظام لايمكن أن يأتي دفعة واحدة وانما جاء بشكل تدريجي لتتم له السيطرة التامة على تلك المنطقة وعلى من استقر بها من جنود وسكان. هذا النظام الذي يعتبر في حد ذاته انقلابا إداريا أعطى لتلك الفترة ملمحاً بارزا ميّزها. وتحولت فيه الدولة من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع. والامبراطور هرقل نفسه الذي قام بالهجوم على الفرس في عقر دارهم، هو هرقل نفسه الذي انسحب بجيوشه وسكانه إلى ماوراء جبال طوروس. فهو صاحب فكرة التحول السياسي هذا بدون شك. وهي الفكرة التي يبدو أنها سيطرت عليه أثناء الهجوم الاسلامي والذي تم على جبهتين في نفس الوقت، الجبهة الفارسية من جهة والجبهة الرومانية من جهة ثانية[٦٢] فكان لابد وأن يعمل هرقل للمسلمين ألف حساب. ولابد أن يخطط لتلافي خطرهم لا لمواجهتهم وهذه هي الفكرة التي ساعدت بيزنطة على البقاء.

وربما نجد في هذا القول تفسيراً حول تساؤلنا لماذا لم يحارب هرقل المسلمين بنفسه؟ وهو الذي واجه الفرس؟ لقد فكر وفكر برويّة وهداه تفكيره إلى سلوك طريق الدفاع عن البقية الباقية من امبراطوريته، بدلا من المواجهة والانجراف أمام التيار الاسلامي. وهذا يعني ان هرقل قد قام بإجراء تقييم لقوة الجيوش الاسلامية وقدرتها. وبناء عليه فهو لم يستنكف من مواجهتها ولم يستكبر كما قال ستراتوس بل خافها وتحاشى اللقاء المفتوح بينه وبينها حتى لاتهزمه تلك القوة الشابة الفتية وهو البطل القومي، الذي هزم الفرس. لقد أثبت بهذا التصرف دهاءه وبعد نظره أكثر من عدم تقديره للمسلمين. وبهذا يكون هرقل البطل المنقذ الذي أنقذ بيزنطة من الفرس بعملياته الحربية الهجومية في قلب المدن الفارسية. وهو البطل المنقذ لبيزنطة من هجمات المسلمين وذلك بالتحول من سياسة الهجوم إلى الدفاع والتحصن. والاستعداد لملاقاة المسلمين بجيش مستقر وعلى أهبة الاستعداد. جيش وطني يدافع عن أرضه ومتلكاته.

وفكرة تمليك الأرض ماهي إلا وسيلة لجعل الجندي يملك الدافع القوي للدفاع بحماس عن أرض يملكها ويأكل من خيرها. وأما عملية سحب السكان من المناطق المتاخمة للمسلمين وتحويلها إلى خراب موحش لايشجع أحدا على ارتياده فيدل أيضا على تفكيره السياسي المنطقي، وهو في حد ذاته تكتيك عسكرى ممتاز فيما لو فكر المسلمون في اجتياح تلك المناطق فلا يجدون أي نوع من أنواع الامدادات، فيطول بذلك

(٦٢) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

خط امداد المسلمين بالمؤن مما يصعب عملياتهم العسكرية. هذا من جهة ومن جهة ثانيه فمن المنطق أن يعوض السكان الذين هجرهم من أراضيهم بأراضي جديدة مقابل الخدمة العسكرية. وكذلك من المحتمل أن يتعاون أهالي تلك المناطق مع المسلمين كما فعل أهالي المناطق التي فتحها المسلمون.

ونخلص إلى القول بأن هرقل فكر في نظام الثيمات في فترة الحروب أو الفتوح الإسلامية كفكرة دفاع عن الامبراطورية. وليس في فترة حروبه مع الفرس نظرا لأن حروبه مع الفرس كانت هجومية. وإن كان هذا لايمنع من أنه فكر في وضع وحدات من الجند لحماية الأماكن التي كانت ضعيفة والتي استطاع الفرس اجتياحها بسهوله نظرا لخلوها من قوات دفاعية.

وعلى هذا يبدو أن هرقل ومنذ سنة ٦١٥م وبعد تراجع الفرس بدأ في التفكير في إصلاح إداري للمناطق الواقعة تحت التهديدات المستمرة وهى قبادوقيا Kappadokia وبنطس Pentuse وأرمينيا الأولى، وأرمينيا الثانية وأعطاهم أرضا وذلك بشرط عملهم في الخدمة العسكرية الاجبارية. وقام بالتدرج بتنظيم المنطقة عسكريا وملأها بالرجال. وفي سنة ٦٢٠-٦٢١م أحضر جيوشه من أوروبا وجعل الجند يستقرون في آسيا الصغرى. وبالنظر إلى حملة هرقل ضد الفرس كان مقدر لها أن تبدأ من هذه المنطقة، التي استخدمت كقاعدة ومركز تدريب عسكرية من الطبيعي أن تنظم من الناحية الادارية. وهكذا فإن أولى الثيمات وهو ثيم Armeriakos قد تأسس أو وضعت نواته في آسيا الصغرى في سنة ٦٢٢-٦٢٣م.

لقد ضم ثيم الأرمنياك Armeriakos في بداية الأمر الولايات province كما حددها هيروكليس Hierocles التالية:

١ - Helenopontus الهلسبونت (منطقة الدردنيل) ومدنها الرئيسية Amseia و Sinope.

٢ - Pontus Polemoniacos ومدنها الرئيسية هي Trebizond طرابزون و Caesarae الحديثة.

٣ - Cappadocia قبادوقيا الأولى ومدينتها الرئيسية Caesarea قيصرية.

٤ - Cappadocia قبادوقيا الثانية ومدنها الرئيسية Hisair Tyany و killisa.

٥ - أرمينيا الأولى ومدينتها الرئيسية Molitene Arabyssos.

٦ - أرمينيا الثانية ومدنها الرئيسية سبطة Sebestia وساتالا Satala وكولونيا Colonea.

ويعتقد ديل أنه يجب أن نضيف بافلاجونيا Paphlagonia أيضا ونتيجة لذلك فإن ذلك الثيم ضم من ستة إلى سبعة مناطق. وبعد سنة ٦٣٤ من المحتمل أن المناطق التالية ضمت إلى ذلك الثيم وهي:

١ - أرمينيا الكبرى أو أرمينيا الداخلية ومدنها الرئيسية الجزيرة الفراتية Theodosioupolis وكارس Kars.

٢ - أرمينيا الرابعة ومدينتها الرئيسية ساموزاتا Samozata.

٣ - العراق Mesopotamia ومدنه الرئيسية Matroupolis Amida و داراس Daras وهذا يعني أن ثيم الأرميناك كما يحتمل أن يكون هرقل قد كونه، يحده من الشمال البحر الاسود ولازيكا وفي الشرق خط وهمي يمتد من kars إلى الفرات عن طريق بحيرة Van وفي الجنوب نهر الفرات وممرات جبال طوروس الواقعة في طوروس الكليكلة cilician tours وفي الغرب خط وهمي يمتد من تايانا Tayana إلى أماستريس Amastris (Amasra) على البحر الأسود(٦٣).

لقد اشتق هذا الثيم اسمه من أرمينيا وقد قال بذلك قنسطنطين السابع. ومن المرجح أن مهمة الجيش الأساسية كانت حماية الجبهة الأرمينية ومن المحتمل أيضا أن يكون قد ضم الكثير من الأرمن الذين كانوا تحت الاحتلال الفارسي، وهم الذين ضمنت لهم الأرض مقابل الخدمة العسكرية. وعموما لايعرف الأصل الذي كان عليه هذا الثيم عند تنظيمه، ذلك أنه على عصر قنسطنطين السابع قد تغير تماما. وقد كانت مهمته الأساسية حماية حدود الامبراطورية من أي هجوم يأتي من الشرق أو الشمال الشرقي(٦٤).

ثم الاويسيق opsikion(٦٥) وقد دار نقاش طويل حول هذا الثيم حيث أشير إليه في حولية بسكال Paschale الذي ذكر في أحداث سنة ٦٢٦م أن ثمة ثورة أو تمرد قام به حراس القصر schola ضد يوحنا الزلزال seismos وان قوات John كونت

---

(٦٣) Stratos, Vol. 1, p. 278;.

عن هيروكليس وقوائم الولايات في الفترة المتأخرة من عصر الامبراطورية الرومانية راجع:

A.M. Jones **the cities of the Eastern Roman provinces**, 2nd ed. Oxford 1971, pp. .515 ff, 538 ff.

(٦٤) Ibid, Vol. 2, p. 340.

أيضا: Stratos, Vol. 1, p. 278

(٦٥) obsequim

اوبساريوس count of opsarios قد تدخلت لاخماد تلك الثورة و opsarios فسرت بمعنى سمك وفسرت "حامل السيف" وقد قبل عدد كبير من المؤرخين بترجمة opsarios بمعنى السمك وكان ديل Diehl أول من أشار إلى ذلك الخطأ وقال يجب أن تقرأ الجملة count of opiskion بدلا من count of opsarios والأبسيق opsik-ion اسم المكان الذي أقيمت فيه ثكنات الحرس الامبراطوري. وقد امتد الاسم إلى بيثينيا Bythynia حيث حدد المكان لإقامة الحرس الملكي والذي أطلق عليه اسم op-sikion(٦٦).

وللرد على إصرار Pertusi الذي أصر على أن أول ذكر لهذا الثيم كان سنة ٦٨٠م وذلك عندما حضر كونت الأبسيق المجمع الديني السادس. كما يضيف أنه لاتوجد معلومات حول السنة أو الظروف التي أسس تحتها ذلك الثيم. وقد أبدى ستراتوس الملاحظات التالية:

١ - لاتوجد وحدة من الجيش تسمى Opsikion وكان الحرس تكون من Scholaes والـ Excubitor وفي أيام الأمبراطور ماركوس اوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ - ١٨٠) انشقت في روما فرقة من المصارعين لتكون حرسا خاصا للأمبراطور عرفت باسم Obsequentes وبعد ذلك الوقت لم يعد لتلك الوحدة أي أثر.

٢ - كان لكل وحدة من وحدات الـ Scholae والـ Excubitors قائد برتبة كونت.

٣ - إن وحدة الـ Scholae أو حتى جانب منها لم تستقر في منطقة بثينيا Bi-thynia في عهد كل من قنسطانز (٦٤١-٦٦٨م) أو قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م) وهو خطأ يصر عليه الكثيرون. وقد استقرت سبع من فرق الـ Scholae في نيقوميديا Nikomedia وقوس kos وبروشا Proussa وكزيكوس Cyzikos وفريجيا Phyrigia و Doryalaiong، في عهد جستنيان الثاني. وهذا يقع في جزء من تلك المنطقة في آسيا الصغرى التي ربما تكون ضمت إلى ثيم الاوبسيق.

٤ - إن أول مرة يذكر فيها كونت لوبسيكيون (Count of Opsikion) كان سنة ٦٢٦م عندما كان الجزء الأكبر من الحرس الامبراطوري مع قادته مع هرقل في بنطس Pontus.

٥ - أسرع ذلك الكونت الذي كان يحمل لقب حامل السيف مع الحاكم المدني للمدينة، وايبارخ الـ Eparch of the Praetorio لإخماد الثورة. غير انه ذكر

---

(٦٦) Idem, Vol. 1, p. 279 .

بعد كل من الحاكم والـ Eparh وبذلك لايكون رئيس الثيم ولم تكن له الاختصاصات المدنية(٦٧).

ويبدو أن الكونت الذي ورد ذكره في حولية بسكال قد التصق بالحرس الامبراطورى، وهو يحمل نفس اللقب الذي يحمله قائد الحرس وهو الكونت. وحيث أن مكان إقامة الحرس يسمى Opsikion، فإن من المرجح أن ذلك الشخص كان مسؤولا عن إدارة وملاحظة كل الحرس الامبراطوري، وبعد مغادرة وحدة الحرس برفقة الامبراطور هرقل، كانت له القيادة في القسطنطينية ووضع تحت أمرته قوة احتياط، ربما كان ذلك لضمان الدفاع عن العاصمة بشكل أفضل. وربما يكون هذا الشخص أيضا قد وضع على رأس قيادة وحدات معسكرة في مناطق مختلفة وملاصقة للعاصمة. كما أنه من المرجح أن تنظيم الثيمات في المناطق المجاورة للعاصمة والتي كانت مهددة باستمرار قد بدأ في عام ٦٢٦م. ولم يستكمل هذا الثيم كل مقوماته لأن السلطة العسكرية كانت أدنى من السلطة المدنية.

وفي رأي Stein أن ثيم الاوبسيق يجب أن يكون قد تأسس في عهد هرقل لأن كلمة Opsikion لاتينية. ثم أصبح لها سمة يونانية فكانت تعني الحرس، ومن الطبيعي، انه منذ هلينة الإدارة لم تعد الكلمات اللاتينية تستخدم بالنسبة للتنظيمات الجديدة(٦٨).

ونحن لانعلم متى تأسس هذا الثيم على وجه التحديد، ولكن نرجح أن ذلك حدث منذ زمن طويل قبل عهد قسطنطين الرابع وكان على قدر كبير من الاتساع جدا، حتى انه خلال القرن الثامن انقسم إلى ثلاثة أقسام، تكونت منه الولايات التالية:

١ - Hellespontus مضيق الدردنيل ومدنها الرئيسية قيزيكوس Cyzikos أو-Balkiz - Kale بالكيز.

٢ - Honorias ومدنها الرئيسية كلوديوبوليس Claudioupolis وبولو Bolu وهراقليا Herclieia أو اريلجيا Erelgli على البحر الأسود.

٣ - Galatia جالاشيا ومدينتها Ankyra أنقرة.

٥ - Galatia Saloutaris جالاشيا سولوتاريس ومدينتها الرئيسية Amorionor (حصار Hisar)

٦ - Phrygia فريجيا ومدينتها الرئيسية Dorylaion دوريليون وكوتيايون Ko-tiaion و Kioutachia كوتاهية.

(٦٧) Idem, Vol. 1, P. 280

(٦٨) Idem, Vol. 1, P. 280; 60 above

٧ - أوروبا Europa (تراقيا "Thrace") ومدنها هراقليا (على بحر مرمرة) وأركاديبوليس Arkadioupolis وكاليبوليس Callipolis.

ومن التفاصيل السابقة نرجح انه خلال الفترة ٦٠٣-٦٣٤م قد تأسس ثيم الأرمنياك Armeniakon وان تنظيمات ثيم الابسيق Opsikion كانت قائمة على قدم وساق[٦٩].

كذلك هناك إشارة إلى ثيم ثالث في حولية ثيوفانيس وهو ثيم الأناضول. ويشير إلى أنه في سنة ٦٦٩ جاءت حاميات ثيم الاناضول [٧٠] إلى كريزوبولس Chry-zopolis وقالوا إنهم يؤمنون بالثالوث وطالبوا بتتويج أبناء قنسطانز الثلاثة، لقد جمع قسطنطين الرابع السلطة في يده بعد وفاة قنسطانز، ولم يترك لأخويه أي سلطة من أى نوع، لذلك استاء من الأمر لأنه توج بمفرده وأن أخويه ليس لديهم أي مركز أو مرتبة، وأرسل حاكم Patricion منطقة كولوينا Koloneia والذي ألقى خطبة رنانة في رجال الحاميات وصرفهم، ثم جمع قوادهم برجال مجلس الشيوخ لاقناعهم، ولكن الامبراطور قام بشنق بعضهم في Skai[٧١] وعندما رأى ذلك قواد الأناضول رجعوا إلى منطقتهم مخذولين. وقام الأمبراطور بجدع أنف أخويه[٧٢].

ويستدل من النص السابق على أن ثيم الأناضول قد تأسس قبل تاريخ ٦٦٩م. وان ترتيبه ربما يكون الثالث بعد الأرمنياك والابسيق.

كما توجد في حولية ثيوفانيس إشارة إلى ثيم رابع وهو ثيم كبير هايوت Ci-braiots، وذلك في أحداث سنة ٦٩٨ والتي هزمت فيها الحملة البيزنطية أمام العرب في شمال افريقيا. وفي ظل خوف الجند من تقديم تقرير للأمبراطور قاموا بحبك مؤامرة وهي تنصيب قائد ثيم كبيرهايوت[٧٣] امبراطورا[٧٤].

كما يذكر ثيوفانيس في احداث سنة ٧١١ الوالي البريتوري قائد ثيم Thrace "تراقيا"[٧٥]. كما يذكر في أحداث نفس السنة أن الامبراطور جستنيان الثاني

(٦٩) Idem, Vol. 1, P. 281.

(٧٠) ثيم الاناضول يمتد من مركز آسيا الصغرى من شواطىء بحر ايجة حتى جبال طوروس.

(٧١) Skai هي ضاحية من ضواحي القسطنطينية على الشاطىء الأوروبي في الجهة المقابلة للقرن الذهبي وتعرف باسم Calata.

(٧٢) Theophanese 352.

(٧٣) ثيم Cbyraiot كبيريوت يقع جنوب غربي ساحل آسيا الصغرى وكثير من حاميات الثيمات استوطنت هناك وخصوصا التابعة للقوات البحرية، لتفاصيل أكثر أنظر: Bury, Ibid Vol. 2, p. 342.

(٧٤) Theophanese P. 68.

(٧٥) وهو الجزء الغربي من ثيم الأناضول والذي انفصل وأصبح ثيما قائما بذاته.

غادر العاصمة وأخذ معه جنوداً من الـ Opsiklans و Thrakesians[٧٦]. ثيم الاوبسيكون وثيم تراقيا.

إن حولية ثيوفانيس تبرهن على وجود الثيمات في أسيا الصغرى في القرن السابع. وأنه لاداعي إلى الدخول في جدل عقيم حول سنوات تأسيسها وهل وجدت في عهد هرقل أم بعده.

ويصر بيوري على أن التغيرات الادارية في القرن السابع بدأت مع الاصلاحات الادارية لجستنيان الأول. وأن هذا الامبراطور أسس كلا من ثيم صقلية sicily وثيم تراقيا thrace بالرغم من عدم تطبيق اسم ثيم عليهما بل أطلق عليهما اسم stra- tegiai وأن الستراتيجوس strategos أو البريتور Paraetor الذي حكم صقلية القرن السادس كان سلفا للقائد Strategos الذي حكم هناك في القرن الثامن وأن ابن Artavasdos الذي كان strategos لمنطقة Thrace تراقيا سنة ٧٤٠م كان موظفا رسميا ووريثا وسليلا للاستراتيجوس Strategos الذي عينه جستنيان الأول عندما ألغي وظائف الـ Vicarii[٧٧].

ونتابع التطور الاداري لنظام الثيمات بأن نبدأ بثيم الأرمنياك Armeriakon حيث نتذكر أن جستنيان الأول استحدث وظيفة عسكرية في أرمينيا سميت ma- gister militum per armeniam وأن الكلمة الأغريقية stratelates كانت مقابلة تماما للاصطلاح اللاتيني magister militum بينما الكلمة strategos مقابلة للكلمة praetor واستخدمت ككلمة مقابلة لكلمة magister، وهكذا نجد أن القائد يوحنا ميستاكون John Mystacon (في عصر موريس) يوصف بأنه stra- tegos ويوصف في وقت آخر بأنه stratelates في أرمينيا وعندما احتل الفرس اسيا الصغرى لم تستطع السلطة المدنية المثلة في والي الشرق البريتوري prae- fectus praetorio per orientem أو حكام ارمينيا أن تصمد أمام التواجد الدائم للعدو. وكان من الطبيعي أن يمد قائد القوات الارمينية سلطتة إلى الشئون المدنية ويتصرف كحاكم محلي، وفي رأي بيوري أن غموض كلمة strategos جعل من هذا التغيير يبدو أمرا سهلا وطبيعيا. وكان جميع القادة للسطات العسكرية والمدنية في بعض الولايات أمرا معتادا فلم يكن من الصعب تصور قائد أرمينيا على هذا النحو حاكما مدنيا وعسكريا في وقت واحد. ومن المستحيل تحديد تاريخ معين للاعتراف بهذا التغير بصفة رسمية، وفي آخر حملات هرقل ضد الفرس يقابلنا شخص اسمه جورج ووظفيته

---

(٧٦) Theophanese 379.
أيضاً: Theophanese 380.
(٧٧) Haldon, Ibid, p. 203, Bury, ibid Vol.2, p. 346.

Turmarch of the aremeniakoi، مما يجعل بيوري يظن انه في ذلك الوقت كان اسم Aremeniakoi هو الاصطلاح العادي للقوات التي كانت تحت أمرة قائد stra- tegos أو magister أرمينيا.

ويصور هذا الوضع - في رأى بيوري - حالة مماثلة في افريقيا حيث كان ma- gister militum و sirotearp sutcefearp يعملان معا وفي وقت واحد، وسرعان ما اختفي الوالي البريتوري وتحول magister ليكون strategos بالمعنى الذي يرد في قوانين جستنيان الجديدة(٧٨).

أما بالنسبة لثيم الأناضول. فيفسر انشاؤه بأنه عندما ضاعت الولايات السورية، باحتلال المسلمين لها، فإن قوات الشرق والتي كانت تحت قيادة magister militum per orientem ارتدت إلى آسيا الصغرى، وبذلك اقتصر نشاط القائد على منطقة محدودة. ولضمان أمن المنطقة في مواجهة سادة سوريا الجدد كان من الضروري أن تكون المناطق الواقعة شمال طوروس تحت قيادة عسكرية. وكان في ذلك مركز لوالي الشرق البريتوري praefectus practorio هذا إن لم يكن هذا المنصب انتهى قبل ذلك، وتحول محله القائد العسكري الأعلى ليكون الحاكم المدني الاعلى ايضا وهذا لايبدو بدعة كبرى. لأن المناطق العسكرية strategiai، التي استحدثها جستنيان الأول قد جعلت الحكومة تعتاد فكر الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية. وبذلك كان الـ strat- elates في الشرق أو كما كان يدعي في العادة strategos أصبح strategos بالمعنى الجديد. وغموض هذا المصطلح سهّل حدوث هذا التغير. والصفة (أناضولي) شرقي، كانت تطلق بصفة عامة على الجيش الذي يقوده قائد، anatole الشرق وكانت الفرق تعرف باسم Anatolics، الاناضوليين، وهذا هو أصل ثيم الأناضول فيما يظن بيوري(٧٩).

ونخلص إلى القول بأن القادة "Strategoi" لاثنتين من أهم ثيمات أسيا الصغرى في القرن السابع هما ثيم الاناضول وثيم الأرمينياك كانوا أصلا Magister Militum الذي كان كل من دقليديانوس وجستنيان الأول قد استحدثا مناصبهم.

أما عن تأسيس ثيم الأناضول فإنه يبدو أن هناك موافقة عامة على الطريقة التي وصلت بها الجيوش إلى آسيا الصغرى واستقرارها بها، لقد نقلت الجيوش التي كانت

---

(٧٨) Bury, Ibid, Vol. 2, P. 347.

(٧٩) Bury, Ibid, Vol. 2, P. 34.
أيضا Haldon, Ibid , P. 215.

بقيادة magister militum per Thracias إلى الأناضول، ربما كان ذلك في عهد هرقل، أو بعده بقليل وذلك لمواجهة العرب. وسحبت كذلك جيوش كانت بقيادة كل من magister militum per orientem و magister militum per armeniam وذلك في الثلاثينيات من القرن السابع حيث كان الرومان مجبرين على مواجهة اثر الموقف الذي ترتب على هزيمتهم في موقعة اليرموك سنة ٦٣٦ وأن المنطقة التي كانت القوات الـ praesental التي يقودها praeses قد احتلتها وهي المعروفة باسم ob-sequium أو الـ opsikion منذ نهاية القرن السادس، وأوجدت منطقة حملت نفس هذا الاسم ثيم الأوبسيق(٨٠). إن مصطلح الـ opsikion/obsequim لم يكن مصدره اسم الجيوش ولكن مصدره كان لقب الضابط المعين لقيادة تلك القوات بأوامر من الامبراطور هرقل نفسه وكان ذلك الضابط قائد قوات البلاتين Palatine التابعة لل Domestici وقد لقب باسم Comes domesticorum كما لقب باسم Come Ob-sequii(٨١). ومن غير المعروف متى تأسست القوات التراقية في آسيا الصغرى، ولكن ربما يكون في نفس الوقت الذي انسحبت فيه قوات magister militum per Orientem إلى آسيا الصغرى حيث ذكر Magister Militum Per Thracias يقود جيشا في تلك الجهة، وأرسل مع قواته لاستعادة مصر سنة ٦٣٨م(٨٢). ويبدو أن تراقيا قد أصبحت تحت حماية قوات المركزية praesental وذلك على الرغم من انه كان لها قواتها الخاصة. وأن الضغوط الشديدة من التهديد على الشرق كانت السبب في سحب بعض الامدادات من تراقيا، وذلك لوضع قطاع كبير من الجند في آسيا الصغرى. أما القوات التي بقيت في تراقيا فقد نظمت على كل ثيم Thema. هذا نظراً إلى أن المنطقة كانت في حاجة ماسة إلى حماية خصوصا بعد سنة ٦٨٠م حيث أصبحت تهديدات البلغار للمنطقة بالغة الخطورة(٨٣).

لقد تأسست قيادة ثيم الـ Caravisiani أو كبيرا هايوت في المناطق الجنوبية من الـ quaestor exercitus(٨٤) وربما تكون قد تمركزت في Samos وحصلت على شكلها النهائى سنة ٦٥٤، وربما يكون قبل ذلك بقليل مع فتح المسلمين لقبرص(٨٥).

---

(٨٠) Haldon, Ibid., P. 125.

(٨١) Idem, P. 216.

(٨٢) 216 Haldon, Nicephorus, Ibid, col. 241.

(٨٣) Haldon, Ibid, 216.

(٨٤) في جزر البحر الايجي وقبرص.

(٨٥) Haldon, Ibid, P. 218.

لقد اعتمد مؤرخو الغرب المحدثون على الجغرافيين العرب في سد النقص في المعلومات عن الثيمات والذي تعاني منه المصادر البيزنطية إذ لايوجد عنها سوى مصدر بيزنطي واحد، وهو كتاب الأمبراطور قنسطنطين السابع (٩١١-٩١٣) Constantine Porphyrogennetos, De Thematibus وفي كتابه هذا حفظ قائمة الوظائف الرسمية التي سجلها فيلوثيوس philotheos في كتابه The Kletorologion وهي عبارة عن Notitia أو قائمة رسمية للموظفين الحكوميين والتي كتبت في سنة ٨٩٩م وهي تماثل في أهميتها الـ Notitia Dignitatium والتي أوردت تفاصيل التقسيمات الادارية للقرنين الرابع والخامس. والقائمة التي أوردها قنسطنطين، تذكر أسماء الموظفين ولاتعطي أي تفسير لعملهم[٨٦]، ومن هذا المنطلق كان الاعتماد على الجغرافيين العرب، حيث اعتبرت المعلومات المتوفرة لديهم مكملة للنقص الموجود في المصادر البيزنطية. ويقول بروكس Brooks[٨٧] إن الجغرافيين العرب قد أمدونا بخمس قوائم للثيمات. وأقدم تلك القوائم أثبتها ابن خرداذبة[٨٨] وهي أقدم بحوالي خمسين عاما من القائمة المعروفة باسم قائمة philotheos فيلوثيوس التي أسلفنا ذكرها، وتسبق بحوالي مائة عام قنسطنطين السابع. وقائمة الادريسي (١١٥٤م) مماثلة لقائمة ابن خرداذبة[٨٩]. أما القوائم الثلاث الأخرى فهي كالتالي: قائمة ابن الفقيه الهمداني (٩٠٢م) وقد حفظها ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي (١٢٢٤م)[٩٠] وقائمة قدامة (٩٣٠م) [٩١] وقائمة المسعودي (٩٥٦م)[٩٢] وكل مصدر من تلك المصادر يحمل مميزات لاتوجد عند الآخر. وهناك تشابه في بعض المعلومات مما يدل على أن مؤلفيها استقوا معلوماتهم من مصدر واحد، ولكن يبدو أن المسعودي

---

(٨٦) Bury, The Imperial Administrative System in the Nineth Century, (London, 1911) P. 9.

(٨٧) Brooks, Arabic Lists of the Byzantine Themes, J.H.S. Vol. 21, 1901. P. 67.

أيضا: Nicolas Oikonomides, Une Liste Arabe De Strateges Byzantines Du V11 Siecle et les Origines Du Theme De Sicile Rivista Studi Byzantinie Neoellenici, N. S. 1(X1), Rome, 1964.

(٨٨) ابن خردازبة، **المسالك والممالك**، دار المدينة، ليدن، ١٨٨٩م.

(٨٩) الإدريسي. **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** - ط ١، بيروت ١٩٨٩م.

(٩٠) ياقوت الحموى، **معجم البلدان**، ج ٣، ص (٩٨).

(٩١) قدامه بن جعفر الكاتب البغدادي. **نبذة من كتاب الخراج** وصنعة الكتابة - ليدن ١٨٨٩م يلي كتاب **المسالك والممالك** نفس الطبعة ونفس المجلد.

(٩٢) المسعودي - **التنبيه والاشراف** - بيروت، ١٩٨١.

أضاف إلى قائمته مصادر أخرى، ويتضح ذلك من خلال التفاصيل التي أوردها في كتابه المذكور[٩٣].

ويشير ابن خرداذبة إلى مصدره بقوله: إن مسلم بن أبي مسلم الجرمي قال[٩٤]: "وللجرمى أهمية خاصة هنا لأنه كان ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقهم ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها"[٩٥]. ومن هنا كان اهتمام مؤرخي بيزنطة كما سيلي.

وقد أطلق الجغرافيون العرب على الثيمات اسم أعمال[٩٦] وفسرت كلمة أعمال بأنها تسمى بنودا[٩٧]. وأطلقوا اسم بطريق على قواد تلك الثيمات[٩٨]. ولكنهم أيضا عرفوا اللفظ الدقيق الذي أطلق على القادة والذي أورده ياقوت الحموى[٩٩] اصطرطيغوس Stratigos وكيلرج أيضا[١٠٠] في التقسيمات الأصغر للثيمات.

وسوف نقوم بوضع وترتيب جداول للثيمات كما وردت لدى الجغرافيين العرب حسب الأقدمية التاريخية. ثم نحلل هذه الجداول لنصل إلى معرفة الثيمات القائمة والموجودة في تلك الفترة وأوجه الشبه والخلاف فيها بين تلك القوائم.

وثمة ملاحظة مهمة عن تقسيم الثيمات لدى الجغرافيين العرب ذلك أنهم قسموها قسمين: قسم أطلقوا عليه اسم بنود وراء أو خلف الخليج، وقسم آخر بنود دون الخليج[١٠١].

---

(٩٣) .Brooks, Ibid, P.67

(٩٤) ابن خرداذبة، المصدر السابق ص ١٠٥.

(٩٥) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم - ط ٢، بيروت ١٩٨٧م/١٤٠٨هـ، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٩٦) البلاذرى - فتوح البلدان ص ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٧.
ايضا ابن خرداذبة، المسالك والممالك - ص ١٠٥.
المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٦٦.
ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ٣، ص ٩٨.

(٩٧) المسعودي، المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٩٨) البلاذرى، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.
ابن خرداذبة، المصدر نفسه، ص ١٠٩

(٩٩) ياقوت الحموى، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٨.

(١٠٠) أصلها من كلمة كليروس Kleros اليونانية وتعنى اقطاعية من الأرض.

(١٠١) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص ١٠٥، "خلف الخليج".
المسعودي، المصدر السابق، ص ١٦٨، وراء "الخليج".
الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص (٩٨)، "خلف الخليج".

الأعمال الواقعة وراء الخليج.

	الجرمي (ت ٨٤٩) ابن خرداذبة	الهمداني (ت ٩٠٢) ياقوت الحموي	قدامه (ت ٩٣٠) كتاب الخراج ص ٣٥٧	المسعودي (ت ٩٥٦) التنبه والاشراف
١	طافلا	طلايا	طايلا	طايلا
٢	تراقية	تراقيا	تراقية	تراقية
٣	مقدونية	مقدونية	مقدونية	مقدونية
٤	-	-	-	ببلونية
٥	-	-	-	سالونيكا

ونجد أن هناك اختلافا حول تسمية الأعمال الأول وهو الذي أطلق عليه الجرمي اسم طافلا وأطلق عليه الهمداني اسم طلايا بينما اتفق كل من قدامه والمسعودي على اسم طايلا. ويقول قدامة أن البلد الذي فيه قسطنطينيه[١٠٢] وقد انفرد المسعودي بذكر ببلونية وسالونيكا[١٠٣]. وهي من الثيمات الواقعة خارج نطاق آسيا الصغرى في اليونان أو مايطلق عليها مسمى الثيمات الأوروبية.

الأعمال مادون الخليج الثيمات الآسيوية، الواقعة في آسيا الصغرى

	الجرمي (٨٤٩) ابن خرداذبة	الهمداني (٩٠٢) ياقوت الحموي	قدامه (٩٣٠) كتاب الخراج	المسعودي (٩٥٦) التنبه والاشراف
١	افلاجونية	افلاجونيا	افلاغونيا	الافتي ماتي (الاذن والعين)
٢	الأفطى ملطي (الاذن والعين)	الانطماط	الابطباط (الاذن والعين)	هو الناطليق
٣	الابسيق	الابسيق	الابسيق	٢ - الابسيق
٤	ترقسيس	الناطلقوس	الطرقسيس	٣ - ترقسين
٥	الناطلوس "المشرق"	ترقسيس	الناطليق المشرقي	٤- بنطليا =

= قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص ٣٥٧.
وتعريف الخليج عند قدامة: ص ١٣٣ - (ويسيل منها خليج عند قسطنطينية حتى يصب في بحر الروم وطوله من حيث ابتدائه من مدينة قسطنطين إلى حيث يصب ٢٦٠ ميلا وفيه سفن وعرضه مختلف. وأقل عرضه عند مصبه بها صخرة عليها برج مبني وفيه من قبل الروم من يفتش السفن).

(١٠٢) قدامة: كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص ٣٥٧.

(١٠٣) المسعودى: التنبيه والاشراف ص (١٦٦ - ١٦٩)
Brooks, Arabic lists of the Byzantine Themes in J.H.S. p. 67.
يذكر Brooks ان ما اورده ابن خرداذبه سبق ماورد لدى Philotheos بخمسين عام (٨٩٩م).

(تابع): الاعمال مادون الخليج الثيمات الآسيوية، الواقعة في آسيا الصغرى

الجرمى (٨٤٩) ابن خرداذبة	الهمداني (٩٠٢) ياقوت الحموي	قدامه (٩٣٠) كتاب الخراج	المسعودي (٩٥٦) التنبه والاشراف
٦ خرسيون	سلوقية	سلوقية	٥- القبادق
٧ البقلار	القبادق	القبادق	٦- البقلار
٨ الارمنياق	خرشنة	خرشنة	٧- الافطماط
٩ خالدية	البقلار	البقلار	٨- الارمنياق
١٠ سلوقية	الارمنياق	الارمنياق	٩- فلاغونية
١١ القبادق	جلدية	الخالدية	

وهي باللاتينية:

١ - Paphlagonia تقع ضمن ثيم (Opsikion الابسيق).

٢ - ربما يكون Optimaton وهو من تقسيمات الابسيق ولأنه قريب من العاصمة لذلك اطلق عليه الاذن والعين لمراقبة ماحولها.

٣ - Opsikion.

٤ - Thracesion.

٥ - Anatolikion.

٦ - Chrasianon ضمن الأرمنياك.

٧ - Bucellarion ضمن الأبسيق وبه تقع انقرة.

٨ - Armeniakion.

٩ - Chaldia على البحر الأسود ضمن الارمنياك.

١٠ - Seleccia.

١١ - Cappadocian.

اتفقت المصادر الجغرافية العربية على وجود كل من:

١ - افلاجونية

٢ - الافطى ملطـــي، الانطماط، الابطباط، الافتي ماتي = مسميات مختلفة لاسم واحد فسرته المصادر الاسلامية بأنه الاذن والعيين [١٠٤] وفسره المسعودي بأنه الناطليق. (الأناضول).

(١٠٤) أنظر الجدول في الكتاب ص (٣١٣)

٣ - الابسيق.
٤ - ترقسيس أو الطرقسيس أو الترقسين كما ورد ذكره[١٠٥].
٥ - الناطلوس، الناطليق، الناطقلوس[١٠٦].
٦ - خرسون وسمي أيضا خرشنة. وهذا لم يرد ذكره لدى المسعودي.
٧ - سلوقية لم يرد ذكره لدى المسعودي.
٨ - البقلار.
٩ - خالديه - لم يرد ذكره لدى المسعودي وورد ذكره لدى ياقوت باسم جلدية.
١٠ - الارمنياق.
١١ - القبادق.

وقد حظيت قائمة للجرمي التي زوردها ابن خرداذبة[١٠٧] الخاصة بالبطارقة باهتمام خاص من Oikonomides باعتبارها أقدم القوائم العربية وقام بمقارنتها بمرسوم أصدره الامبراطور جستنيان الثاني سنة ٦٨٤م. وكان أساس المقارنة قائم على أن القائمتين متقاربتان في الزمن وقد شمل المرسوم المناطق العسكرية التي كانت تحت قيادة عسكريين من ذوي الرتب العالية والتي كانت موجودة سنة ٦٨٧م.

مقارنة قائمة الجرمي مع مرسوم الامبراطور جستنيان الثاني سنة ٦٨٤م

الجرمي	مرسوم سنة ٦٨٧
١ - Patrician of Ankira بطريق انقرة	Imperial Obsequium الابسيق الامبراطوري
٢ - Patrician of Ammuria بطريق عمورية	Exercitus Orientalis جيش "جند" الشرق
٣ - Patrician of Trakia بطريق تراقيا	Thrasianus تراقيا
٤ - Patrician of Armniak بطريق الارمنياك	Armenianus ارمنيـــــا
٥ - Patrician of Sicily بطريق صقليـــة	Exercitus Italiae ارخونيه ايطاليا
٦ -	Carabisiani الكارابسيان
٧ - Patrician of Sardenia	Septensian

Seude Sardiniatque de African Exercitus[١٠٨]

(١٠٥، ١٠٦) أنظر الجدول ص (٣١٣).
(١٠٧) ابن خرداذبة، المصدر السابق ص ١٠٥.
(١٠٨) ابن خرداذبة، المصدر السابق ص ١٠٩
أيضا: Nicolas Oikonomides, ibid, P. 124-261.

وبالإستناد إلى المقارنة السابقة نجد أن الثيمات الأربعة الأولى متطابقة في النصين. ولكن بعد ذلك نرى اختلافات تستحق الدراسة بعناية وهي:

أولا: أن القائمة العربية لم تذكر ثيم الكارابسياني Carabisiani ولكن هذا الاسقاط أمر مألوف بالنسبة للقوائم العربية حيث أنه جرت العادة على حذف الثيمات البحرية في القوائم العربية. حيث أن قائمة القرن التاسع تجاهلت أمر نقل الثيمات البحرية ولم تذكر ثيم كبيرهايوت، بالرغم من وجود ذلك الثيم في ذلك الوقت. وبناء عليه فإن حذف الكارابسيان Carabisiani أمر عادي. كذلك لم يذكر الجرمي أرخونية ايطاليا Exercitus Italiae والتي أشار إليها المرسوم وفي مكانها أشار إلى بطريق صقلية. وهذه أول مرة يذكر فيها قائد صقلية بتاريخ ٧٠٩/ ٧١٠م وفي نفس التاريخ يتوجه الامبراطور جستنيان الثاني على رأس حملة إلى رافنا، وهي حملة انتقامية، عقابا لسكان ايطاليا على نظرتهم السيئة له خلال فترة حكمه الأول. وقد وضع على رأس جيشه شخصا يدعى Theodor والذي كان يشغل منصب Liber Ponificalis. وفي وقت لاحق نجد ثيودور هذا في صقلية يحمل لقب Patricius وكان قائدا لصقلية، ثم حصل على لقب Monostrategos خلال حملة ٧٠٩/ ٧١٠.

لقد مكنتنا قائمة الجرمي من تحديد تاريخ انشاء مركز قائد صقلية قبل سنة ٦٩٥، ومن جهة أخرى وباعتبار أن المرسوم لم يذكر ذلك المنصب، فهو يمكّننا أيضا من الاستدلال على أن انشاء ذلك المنصب كان قبل ٦٨٧م وأن التاريخين المحصورين بين ٦٨٧-٦٩٥م يجب أن يؤرخ لهما بقائمة الجرمي وهذا التاريخ يمكن أن يلخص في دراسة الحوادث التاريخية التي جرت في ايطاليا في تلك الفترة(١٠٩).

لقد قام سكان أرخونية ايطاليا بالثورة على ممثل جستنيان الثاني، والذي حضر إلى روما للقبض على البابا سرجيوس، هذا بالإضافة إلى أن الـ Exarch، في ايطاليا، لم يحاول أن يثأر لجرح الممثل الامبراطوري، ونتيجة لذلك فقد قطعت العلاقات بين الـ Exarchate في ايطاليا والحكومة المركزية في القسطنطينية ومن المحتمل أن تلك الظروف أجبرت القسطنطينية على إنشاء مركز قائد صقلية. ويعني هذا انشاء قوة عسكرية أخرى على الجانب الآخر من شبه الجزيرة وجعله منطقة عسكرية مستقلة عن الـ Exarchate وتصبح تحت حكم قائد أعلى Strategos، والذي يمكن أن يضع حدا لطموح كل من الأرخون Exarch وسكان رافنا (١١٠).

---

(١٠٩) Oikonomided, Ibid, pp. 124 -261.

(١١٠) Idem.

ونفس السبب ينطبق على تحويل القيادة العسكرية من افريقيا إلى سردينيا. ولقد تحدث مرسوم سنة ٦٨٧م عن سردينيا.

إن تحويل القيادة العسكرية من افريقيا لسردينيا يمكن أن يكون حدث عقب وفاة القائد العربي عقبة بن نافع، والفترة مابين وفاة عقبة وعودة الجيش الاسلامي مرة أخرى إلى افريقيا أتاحت للامبراطورية الفرصة لاعادة توطيد قوتها في أفريقيا وفي نفس الوقت لم تود الحكومة البيزنطية أن تصبح القيادة العسكرية لأفريقيا بعيدة عن شبه جزيرة ابيريا، والتي كانت بيزنطة لاتزال تحكم بها منطقة Baleares، وهي بالتأكيد جزائر البحر التي ذكرتها قائمة الجرمي، تحت قيادة قائد سردينيا، ومنذ سنة ٦٨٧ كانت سردينيا، قاعدة بحرية هامة ولذلك السبب وردت في المرسوم الذي أصدره جستنيان الثاني. ويبدو أنه مابين ٦٨٧-٦٩٥م وربما بالذات مابين ٦٩٢-٦٩٥م كانت سردينيا قاعدة للقوات العسكرية لأرخونية افريقيا. وأن سقوط قرطاج في يد العرب أجبر بيزنطة على نقل قواتها العسكرية من افريقيا إلى سردينيا.

وخلاصة القول تتركز في النقاط التالية:

١ - إن قائمة الجرمي الثانية والتي ذكرت مناصب القادة Strategon في الامبراطورية البيزنطية مطابقة للفترة الزمنية الممتدة مابين ٦٨٧-٦٩٥ وربما بين ٦٩٢-٦٩٥م.

٢ - إن منصب القائد في صقلية استحدث مابين ٦٨٧-٦٩٥م وربما بين ٦٩٢-٦٩٥م وذلك ليتطابق مع الحاجات السياسية الخارجية والداخلية للأمبراطورية البيزنطية في الغرب.

٣ - ونفس السبب كان وراء نقل القوة العسكرية من شمال افريقيا الى Septem سبته أولا ثم إلى سردينيا ثانيا وأن حركة النقل الأولى حدثت بعد سنة ٦٨٣م، وأن حركة النقل الثانية حدثت بين ٦٨٧-٦٩٥م[١١١].

ونخلص إلى القول:

أن هذه الثيمات كانت موجودة وقائمة قبل التاريخ ٦٨٥م ويؤكد هذا القول وثيقة باقية إلى يومنا هذا، وهي رسالة كتبها الامبراطور جستنيان الثاني سنة ٦٨٥م إلى البابا يوحنا John، معلنا فيها قرارات المجمع الديني السادس المنعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠م والذي يقول فيها: "عندما أحضرنا أكثر الآباء تقديسا وأكثر البطاركة بركة

(١١١) Oikonomides, Ibid, P. 130

مع ممثلين قداستكم ومع رجال الشيوخ المقدسين الذين يقيمون هنا في المدينة الامبراطورية والجنود الذين يعسكرون في القصر المقدس، وأيضا بعض النقابات الشعبية وحراس القصر. وحتى أعضاء معينين من الشرق من ثيم تراقيا ومن أرمينيا وأيضا من جيش ايطاليا ومن الكارابسيان ومن ساردينيا ومن أفريقيا[١١٢].

الترتيبات الادارية للثيمات

إن عملية استقرار الجنود في مناطق الثيمات جرت وفقا لقواعد إدارية معينة. وهذه القواعد التي اتبعت في تنظيم الثيمات هي كالتالي:

كان على رأس كل ثيم حاكم حمل لقب Strategos ويتقلد السلطتين المدنية والعسكرية، والاستثناء الوحيد كان ثيم الأبسيق Ospikions والذي حمل حاكمه لقب Comes. وكان حكام الثيمات يتصلون بالامبراطور مباشرة. وقد انقسمت الثيمات إلى مجموعتين أولهما الثيمات الشرقية المتكونة من ثيمات آسيا الصغرى والتي تضم ثيمي تراقيا ومقدونيا. ولاتضم الثيمات البحرية، ثانيهما، الثيمات الغربية وتتألف من ثيمات البلقان وخرسون في شبه جزيرة القرم[١١٣].

وكان لقائد الثيمات الشرقية مرتبة أعلى من مرتبة قائد الثيمات الغربية، وكان يأتي في المرتبة التالية للموظف الامبراطوري المعروف باسم synkellos، وأعلى من مرتبة والي المدينة. وكان قواد الثيمات الشرقية والثيمات البحرية يتقاضون مرتباتهم من الخزينة المركزية للدولة، بينما اعتمد الآخرون على موارد ولاياتهم. وهذه المكانة العالية المتميزة للقادة Strategoi كانت للموظفين من أصل عسكري. وهذا التميز العسكرى هو الذي أعطى للامبراطورية البيزنطية الطابع الخاص المميز لهذه الفترة من تاريخها[١١٤].

وبالإضافة إلى مرؤسيهم من الموظفين العسكريين خصص لهم عدد كبير من الموظفين المدنيين مهمتهم إدارة هذا المزج بين الواجبات العسكرية والمدنية والقضائية والمالية التي تدخل في نطاق وظيفتهم.

(١١٢) J. Mansi, Sacrorum conciliorum nova et amplisima collectiocvince, 1770, Vol. 11 cols 753-541.

أنظر أيضا ملحق (٣) شكل (١٠ و ١٣ و ١٤ و ١٥).

(١١٣) Bury, I.A.S. P. 39.

أيضا: Ensslin, Government and Aminlstration in the Byzantine Empire in C.M.H. Vol. 4, Part 2, P. 28

(١١٤) Bury, I. A. S. P. 40.

أيضا: Ensslin, Ibid, P. 29.

وكانت الشئون المالية والقانونية في الثيم من مسؤليات الـ Protonotariuos والذي كان يخدم الحكومة المركزية كمصدر معلومات سرية عن القواد الخطرين والطموحين وحتى القواد الفاسدين(١١٥).

وكان الموظف المعروف باسم Chartularius والذي يعمل تحت أمرة الموظفين الكبار، إلى جانب وظائفه الأخرى، يشرف على دفع مرتبات الجنوب، وبالتالي حفظ قوائم بأسماء الجنود. وهذه الوظيفة حلت محل وظيفة الـ Logothets(١١٦). ومن الواضح ان الحكومة قد احتفظت لنفسها بحق معين في مراقبة القواد لكي تستطيع أن تتحكم فيهم. فقد جعلت من رجال الدين، الأساقفة، عيونا لمراقبة أي سوء تصرف أو سلوك اداري سيىء في ابرشياتهم(١١٧).

وقد كان ضمن الموظفين المدنيين في الثيمات القضاة، وكان من الممكن النظر في الشكاوى المقدمة للمحاكم المحلية ومحاكم المقاطعات، ومن الممكن أيضا رفع الشكاوى الى الامبراطور ومحكمة البلاط المكونة من كبار الرؤساء الدينيين. وكانت حق مقاضاة كبار الموظفين للامبراطور فقط الذي كان يرأس المحكمة الامبراطورية -noiretirk nokilisab. أما الشخص الوحيد أو لنقل الوظيفة الوحيدة التي ملكت سلطة قضائية تتعادل تقريبا مع سلطة الامبراطورة. فهي وظيفة حاكم المدينة الذي كان يتصرف كرئيس لمحكمة البلاط في غياب الامبراطور والذي حل محله الـ -Drungarius tes Bigles، وفيما بعد موظف باسم الـ Queastor(١١٨).

وقد قسم كل ثيم، فيما بعد القرن السابع، إلى قسمين أو ثلاثة أقسام عسكرية، كل قسم أطلق عليه كما أسلفنا اسم Turmai وكل واحد منها تحت قياده قائد عسكرى حمل لقب Turmach(١١٩). ومن الصعب وصف التقسيمات الأصغر في الجيش حيث كان هناك تقسيمات مختلفة في الحجم. ولكن التقسيمات التي ذكرت في كتاب الـ Strategicon والمنسوب إلى الامبراطور موريس، والذي يعود إلى نهاية القرن السادس ومطلع السابع، يبدو أنها قد استمرت(١٢٠).

---

(١١٥) Haldon, Dictionary of Middle Ages, Vol. 12, p. 10.

(١١٦) Ensslin, Ibid, P. 29.
أيضا Haldon, Ibid, P. 10.

(١١٧) Ensslin, Ibid, P. 29.

(١١٨) Ensslin, Ibid, P. 29.

(١١٩) Bury, I.A.S.P. 47 - 68.

(١٢٠) Ensslin, Ibid, P. 37.

وقد ساعد تأسيس Kleisurai على تقوية وتماسك الثيمات التي جرى دعمها بإنشاء مناطق حدود عسكرية. والكلمة حرفيا تعني ممرات الحدود. وقد أسست في البداية للدفاع عن الطرق الجبلية التي تنفذ منها الغارات المعادية، مثل غارات المسلمين، كما برزت ايضا في الحروب مع البلغار. ومع تزايد أهمية هذه المناطق تحولت لتكون قاعدة لثيم جديد.

وقد أطلق على الجند الذين عملوا في الـ Kleisurai اسم Arkitai أو المدافعين عن الحدود وهم الذين حلوا محل الـ Limitanei. وقد كانوا مستقلين عن قوات وقواد الثيمات، بالرغم من أنهم في بعض الأحيان كانوا يقومون بمساعدة قائد الثيم. والحكام العسكريين لمناطق الحدود أطلق عليهم اسم Margrave. وقد عملت فرق الـ Arkitai كفرق دفاع حقيقي عن الحدود. وخاضوا معارك لحماية الحدود، وعسكروا في مواقع محصنة أو قلاع على طول الحدود المهددة وكانوا مزودين بنظام الاشارات الذي مكنهم من الاتصال ببعضهم البعض. كما كان من واجباتهم القيام بالاستطلاع على تحركات العدو والعمل على افشالها وذلك بالقيام بهجوم مضاد أو إشاعة الفوضى في أرض العدو. كما كانت لهم مهمات أخرى مع الخونة وعصابات لصوص الماشية Apepatai. وكانت ملاحم البطولة المعروفة باسم Akritic وتظهر خصائصها في Digenis Ak-ritas عند البيزنطين، وهي ملحمة شعبية، تعكس الاوضاع التي سادت في القرن العاشر الميلادي والغنية بمادة تاريخية عن تاريخ الحروب بين الخلافة العباسية والبيزنطيين[١٢١].

وإذا نظرنا في التنظيمات العسكرية خارج ولايات الشرق التابعة لبيزنطة فإننا نجد أن الأمر يختلف في كل من افريقيا وايطاليا.

افريقيـــــا

أن الحوليات تصمت عن ذكر الأحداث في أرخونية افريقيا في القرن السابع، باستثناء ذكر الدور الذي لعبته في الثورة ضد فوكاس في الفترة مابين ٦٠٨ - ٦١٠م. ولا توجد في المصادر أنباء عما كان يجرى مابين اعتلاء الامبراطور هرقل العرش وبين غزو العرب لمنطقة Byzacium. وليس من المعروف حتى متى توفي هرقل، أرخون افريقيا ووالد الامبراطور هرقل. وذلك بالرغم من أن يوحنا النيقي John of Niku ذكر أنه توفي بعد تتويج ابنه امبراطورا[١٢٢].

(١٢١) Ensslin, Ibid, P. 38.
(١٢٢) John of Nikiku.
أنظر: Pringle, The Defence of Byzantine Africa P. 45.

أما الأرخون الثاني الذي خلف هرقل فغير معروف، وهذا يعني أنه يمكن التخمين أن الأوضاع الإدارية في شمال افريقيا لم تلحقها تغييرات حتى ضياع افريقيا نهائيا نتيجة للفتح الإسلامي[١٢٣]. حيث أن اختفاء أخبار حاكم الولاية يعني عدم التعرف على باقي أخبارها الإدارية والترتيبات الداخلية. ويبدو أن النظم الادارية والدفاعية عن المنطقة والتي نظمت في عهد الامبراطور جستنيان الأول ومن بعده موريس هي التي استمرت، وهي التي واجهت بها الإدارة الرومانية أو نظمت بها الادارة الرومانية الدفاع عن افريقيا أمام هجمات المسلمين طول القرن السابع[١٢٤].

وليس هناك من ذكر شيء عن تنظيمات ادارية مستحدثة في افريقيا مشابهة لتنظيمات الثيمات في الشرق والتي واجهت بها الامبراطورية خطر الهجمات الاسلامية وغيرها.

ايطاليـــا

قام اللمبارديون، في أثناء هجومهم على ايطاليا، بالتخلص من الادارة الايطالية في غضون عشر سنوات. وفشلت كل المحاولات لاعادتها. وقد قبلت الامبراطورية بالأمر الواقع. ولم تقم بأي محاولة لكسب مناطق حدودية بعيدة، بل رأت أنه من الأفضل المحافظة على ماتبقى في يدها من الممتلكات الرومانية[١٢٥]. وقد جرت العادة بالنسبة لكتائب الجيش التي تدخل في تكوينه عناصر جندت في الشرق، أن يقاتل في مختلف مناطق ايطاليا بقيادة magister militum وذلك تحت القيادة العليا للأرخون exarch واتخذ الجيش الأول Premius execitus قواعده في رافنًا ليكون تحت تصرف القائد العام مباشرة ولكن نتيجة لتكرر عقد اتفاقات هدنة حدث نوع من توازن القوى، ولم تعد تأتي من الشرق الامدادات العسكرية، فيما نظن، ولقد عسكرت الفرق العسكرية في النقاط التي كانت في حاجة ماسة للدفاع عنها. وفي داخل ايطاليا ظهرت فرق Ducatus تحت قيادة الأدواق Duces وال magistri militum وحيث ما تنشأ مراكز حدود كان يرأسها ترابنة Tribuni وفي حوالي منتصف القرن السابع اختفي منصب الوالي praefectus من ايطاليا. كما اختفت أيضا مناصب المرؤسين المعروفين Praesides تماما. واستمرت أسماء الولايات التي كانت مستعملة في الأمور

(١٢٣) Hardmann, Imperial Italy and Africa Administration, C.M.H. Vol. 2, 227. P.

(١٢٤) Pringle, Ibid, P. 45
أنظر أيضا: Hartman, Ibid, P. 223

(١٢٥) Idem, P. 227-228

العـادية للدلالة على أقسـام مـعينة من ايطاليـا. وآلت إلى magister militum اختصاصات الأدواق duces ومرؤسيهم Praesides كما دخل في سلطة الارخون Ex-arch اختـصـاصـات الـ Praefectus Praetor وصبغت الادارة في ايطاليـا بنفس الصـبـغـة العـسكرية على نفس الأسس التي قـام على أسـاسـهـا نظام الثـيـمـات في الشـرق[١٢٦]. ولم تهـدد التـنظيـمـات العـسكرية الادارة المدنيـة في الدولة فـحـسب، بل هددها عـامل آخر تمثل في الكنيسـة التي كانت تتربص لتشغل مجالات النشـاط الذي كانت الدولة تمارسه ويكون لها جانب من ميراثها لشغل أو لسد الفراغات التي تركتها الدولة. لقد كان للكنيسة في ايطاليا مركز خاص وذلك من خلال امتلاكها للأراضي الشـاسـعـة، والامـتـيـازات التي حـصلت عليـهـا من الأباطرة السـابقين وعلى الأخص جستنيان الأول. وتجاوز الامتيازات القانونيـة للكنيسة هي التي اكسبتها حدودها، ذلك ان باباوات القرن السادس أكسبوا رجال الدين مكانة عليا، وذلك بأن ضمنوا لهم الحق في أن يحاكموا أمام مجالس كنسية وأن تضمن القوانين الخاصة كافة أراضي الكنيسة، ولايحد من نفوذ الكنيسة الهفوات التى يرتكبها رجال الدين أو الهفوات الإدارية. إذ زعم البـابوات أنهم يمثلون ملكوت الله عـز وجل Civitas Dei ولهم سلطات تعلو السلطات الدستورية. فإن كل ذلك يتيح للكنيـسة قوة لاحدود لها. ويدعم هذه الأسس المادية التي قام عليها نفوذ الكنيسة أنها كانت مدعومة بثراء ضخم ووصفت ممتلكاتها بأنها خزانة الفقراء Patrimonium Pauperum.

ونقطة البداية في نشاط الكنيسة كانت العناية بالفقراء وهو المجال الذي أهملته الدولة تماما. ولكنه اكتسب أهمية خاصة لتزايد الاحساس بالأسى وعدم كفاءة الإدارة العامة، ولم تكتف الدولة بأن ضمنت للأساقفة الحق بأن يكون لهم صوت عند انتخاب حكام الولايات، بل أنها أعطتهم حق التحكم في كل الموظفين بقدر ماكان لهم من حق الاستماع الى الشعب المغلوب على أمره، وأن ينقلوا شكاواهم إلى الوظفين بل حتى إلى الامبراطور نفسه. وبمضي الوقت نشأ التدخل في شئون الإدارة وأغلب مصدره الباباوات حتى انه لم ينج من تدخلهم أي جانب من جوانب الإدارة[١٢٧].

وظهر تفوق النفوذ الكنسي على النفوذ الدنيوي في إدارة حكومة البلديات، إذ أن أعـضـاء المجلس البلدي Curiales، وأسـرهم وبقـايا مـواطني المدن، Polis القـديمة

(١٢٦) Idem, p. 228-229.

(١٢٧) T.S. Brown, The Church of Ravenna & The imperial administration in the Seventh Century, in E.H.R. cc IXX (1979) P. 142.
أيضا Hartman, Ibid, p. 229.

فقدوا حرياتهم وأصبحوا مجرد أفراد يتحملون الأعباء التي يفرضها الأسقف، الذي قام بفرض أعباء يتحملها المواطنون الأثرياء وخاصة أعضاء المجلس البلدي مقابل أن تحول للكنيسة ملكية عدد من الضياع. وفي نابلى حاول الأسقف أن يتملك قنوات المياه Aquaducts وبوابات المدينة.

وأكثر من ذلك مد البابا نفوذه لمصلحته ومصلحة العامة الذين توقف اعتمادهم على عمل الإدارة العامة، وقد ضمنت التشريعات الخاصة بقيام الدولة بصيانة المباني العامة في روما. ومع ذلك فإن العناية بقنوات المياه في القرن السابع والمحافظة على أسوار المدينة انقلب إلى الإدارة البابوية. وفي هذا الوقت لم يعد هناك ذكر لوالي المدينة perfect urbi ولكن بعد قرنين تقريبا سيعود هذا اللقب إلى الظهور بعد أن يصبح منصبا دينيا أو كنسيا(١٢٨).

واستبدل نظام توزيع الأغذية القديمة بمؤسسات الإحسان التابعة للكنيسة الرومانية، عن طريق الشمامسة Diacanates والملاجىء والمصحات ومؤسساتها الخيرية. وكانت مخازن الغلال الضخمة تستقبل القمح القادم خاصة من صقلية، وذلك عن طريق الإدارة الخاصة بالدخل والتي أسسها الامبراطور انستاسيوس(١٢٩).

ووضح تفوق الإدارة البابوية وتمثل ذلك في أن الدولة سلمت لها مخازن الغلال التابعة للدولة وقررت الدولة أن تعطي للكنيسة الدخل العيني الذي تدفعه كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا. هذا وظهر البابا وكأنه موظف الامبراطور Dis-pensator، الذي يقوم بتوزيع تلك المؤن بل وأصبح البابا بمثابة البنك أو الخزينة التي تؤول إليها رواتب الجند ثم تتولي إدارته دفعها لهم وذلك خلال فترة من الزمن على الأقل(١٣٠).

وهكذا فإن كل إدارات الدولة فقدت ضرورة وجودها أمام تطور إدارة بابوية مركزية. في حين تزايدت الأعباء على الذين تولوا إدارة الممتلكات الكنسية rectores Pa-trimonii في مختلف الولايات باعتبارهم ممثلين للبابا في المسائل الدنيوية(١٣١).

التجنيد: ويتصل بالتنظيمات العسكرية والوسائل التي لجأت إليها الادارة الامبراطورية لتزود الجيش بالجنود في ايطاليا.

كان على ايطاليا أن تعتمد على مصادرها المحلية في عملية التجنيد، حيث أصبح

---

(١٢٨) Brown, Ibid, p. 3.
أيضا Hartmann, Ibid, p. 229.
(١٢٩) لتفاصيل أكثر عن الادارة الخاصة بالدخل انظر: Jones, L.R.E. Vol. 1, pp. 237 K 425-426.
(١٣٠) Hartmann, Ibid, p. 230.
(١٣١) Idem, p. 229.

من الصعب امدادها بالجنود عن طريق الحكومة البيزنطية. فلذلك اعتمدت على مصدرين في هذا الشأن. **المصدر الأول:** الجنود الذين استقروا في ايطاليا في الوقت الذي أسست فيه الحدود الداخلية، تقليدا لنظام الـ Limitanei القديم. أما **المصدر الثاني:** فانه تمثل في السكان المحليين، الذين أجبروا على المشاركة في أعمال الحراسة Murorum Vigilae. كما أجبروا على إعالة أنفسهم. ومن ثم لايكادون يختلفون عن النظام القديم. وعلى سبيل المثال أقيمت حامية Costrum Squillace على أرض دير يحمل نفس الأسم. فكان على الجند أن يدفعوا للدير إيجارا عن الأرض التي أعطيت لهم Golaticum. وقد شيدت داخل أرباض حامية Castrum Callipolii، في مناطق تمتلكها الكنيسة الرومانية. وكان مستأجرو أرض الكنيسة أنفسهم Coloni يكونون حراسا لها ويقومون بحمايتها. وكل أولئك الذين أجبروا على الخدمة العسكرية، في حصن ما تحت قيادة التربيون Tribunei، كونوا مايسمى bandus nu-merus، بوصفهم هيئة أو جماعة صار لهم الحق في تملك الأرباض. وعلى سبيل المثال سكانComacchio باعتبارهم جماعة واحدة أطلق عليهم اسم Milites. ولكن هذا المسمى لاينطبق على سكان المدن الكبرى مثل روما ورافنا، لأن كل السكان في المدن الكبرى لايكونون جميعا Milites لأن milites لاتشمل كل السكان. ومن جهة أخرى فإننا نجد أن سكان الحصن يعتمدون على الممالك، ولكن كلا من التربيون والمالك كان يستمد قوته من مصدرين مختلفين تماما إلا أنهما اقتربا من بعضهما البعض بحكم مرحلة التطور التي مرا بها، إذ بينما صار مبدأ تملك التربيون للأراضي أمرا عاديا أكثر، كان ملاك الأراضي تحولوا لأن يكونوا عسكريين أكثر. وذلك لأنه إلى جانب مهام وظيفة التربيون Tribuni كقائد وله سلطة فرض جانب من الضرائب وحق الفصل في قضايا سكان المدينة التي يقع فيه الحصن، أضيفت له إدارة أراضي الدولة أو أراضي الجماعة العسكرية. وبتزايد اكتساب القوات المسلحة صفة الـ Militia زادت أهمية الترابنة الذين من المرجح استمرارهم في دفع ضريبة تعيينهم أو الـ Suf-fragium وهي شراء الوظيفة من الـ Exarch. ومن بين ملاك الأراضي في المنطقة مثلا الضباط الذين يعملون تحت رئاستهم في وحدات Numerus والذين يرد ذكرهم أحيانا مثل Domesticus والـ Vicarius والـLoei Servanor وآخرون، هم الفئة القادرة على شراء الوظائف أو دفع ضرائب الانتخابات.

وهكذا أصبح اختيار التربيونات من بين ملاك الأرض. وربما في كثير من الأحوال يكون التعيين من قبل الـ exarch مجرد شكليات. إذ كان للأسر البارزة الحق في شغل

منصب التريبون. وهذه القوى المحلية وملاك الضياع المؤهلين لمنصب التريبيون كانوا يكونون الارستقراطية العسكرية من ملاك الأرض. وضعوا لأنفسهم كل الوظائف الادارية المهمة وكانوا هم الذين يحكمون ايطاليا، مع أنهم -في الواقع - مرؤوسون لموظفين تعينهم الحكومة المركزية.

ومن بين القوى المحلية الكنائس المختلفة والأسقفيات وفوق كل ذلك الكنيسة الرومانية والضياع التي يعفى أصحاب معظمها من إدارة الترابنة مثلما كان الحال في السابق(١٣٢).

تمليك الأرض الزراعية لجند الثيمات «الأراض العسكرية»:

برزت فكرة الثيمات كتجربة جديدة طبقت تطبيقا عمليا في القرن السابع. وقال البعض أن الدولة ملكت جند الحاميات قطعا من الأرض الزراعية مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية الاجبارية. وربطوا بين هذا التمليك وضعف موارد الدولة المالية. وبذلك يكون نظام الثيمات مرتبطا بنظام الخدمة العسكرية مقابل امتلاك قطعة من الأرض.

في حين أن الفريق الثاني يشكك في فكرة تمليك الأرض للجند مقابل الخدمة العسكرية(١٣٣).

والبراهين أو الأدلة التي استند إليها الفريق الأول هي **أولاً:** أن الامبراطور هرقل أثناء حروبه مع الفرس، لكي يحفز جنوده على النصر، وعد بأن يقطعهم أراضي في مناطق ممتازة في آسيا الصغرى المتميزة بتطورها الحضاري، مما جعلهم يسعون لتحقيق النصر(١٣٤).

ثانيا: مما لاشك فيه أن هرقل لم يكن قادرا على دفع مرتبات الجنود المرتزقة، هذا بالإضافة إلى أنه لجأ إلى منح المدنيين أرضا مقابل تجنيدهم في الجيش الامبراطوري. وكان هذا تقليدا متبعا في افريقيا. وكان طبيعيا عندما واجه هرقل صعوبة في دفع رواتب الجند الغرباء أن عمد إلى اقطاعهم أراضي على الحدود ويقومون بحراستها. وهذه طريقة قديمة جدا مارسها الرومان. ولم يقتصر الأمر على إغراء

---

(١٣١) Hartman, Ibid, p. 230

(١٣٣) ضمان الأرض مقابل الخدمة العسكرية يسمى Pronoia وهي تعني (Care of) العناية بشيء في اللغة اليونانية. وفي الغالب تحمل معها الاعفاء من الضرائب الأمبراطورية، وأحيانا الحق في ممارسة بعض الامتيازات على سبيل المثال، الحق في القضاء بين الفلاحين. وضمان الـ Pronoia كان يعطي فقط في حياة الموهوب له.
انظر: Continuation by Cuopalales of Cedrenus, reaction of the synopsis Historian of John Scylitzen

(١٣٤) Enssilin, Government and administration, p. 36.

المواطنين المحليين بالعمل في الجندية مقابل منحهم مساحات من الأرض، بل شمل أيضا الجنود القادمين من مناطق أخرى من الامبراطورية والذين جعلهم يستقرون في آسيا الصغرى. وهذا الاتجاه شجع الزواج بين هؤلاء الجند من نساء المناطق التي تم فيها توزيع الأراضي المخصصة للجند. ومن ثم حدث اندماج سريع بين الأجانب والأهالي المحليين(١٣٥).

ويقول charanis ان تزايد مساحة الأرض المقطعة مقابل الخدمة العسكرية ارتبط بعملية نقل السكان من منطقة واعادة توطينهم في مناطق أخرى. وعلى هذا يمكن القول بأن ظاهرة بداية الانتشار الواسع لتوزيع الأراضي العسكرية إنما يعود إلى القرن السابع(١٣٦).

وبفكرة اقطاع الأرض استطاع هرقل أن يخفف من المشاكل المالية ومايتطلبه من إمدادات للجيش والرواتب التقاعدية للجند. وفي السنوات وربما حتى في الأجيال القادمة، أصبحت الجندية والاستقرار الزراعي أمرا ضروريا ومن الممكن تحقيقه(١٣٧).

ويعتمد الفريق الثاني في رفضه لفكرة منح الدولة أراضي مقابل الخدمة العسكرية على عدد من النقاط أولها:

أن اصطلاح Settling واصطلاح Landing والذي يعني أن الدولة جعلت الخدمة العسكرية مقابل الأرض وهو. Stratiotika Ktemata لم يكن معمولا به بعد، ولم يكن له وجود قبل القرن العاشر. ويرى صاحب هذا الرأي أنه لم يجر تمليك الأرض وإنما اقتصر الأمر على منح الجنود بطاقة تسمح لهم بالاقامة مع أسرهم في مسكن وهو المقصود بالاصطلاح Billeting، ويستند في رأيه هذا على صمت المصادر الرومانية المتأخرة والبيزنطية الباكرة والتي لم تشر بأي طريق مباشر أو غير مباشر إلى الملكية

---

(١٣٥) Ostrogorsky, **Byzantine State**, p. 97

أيضا: - H. J. Scheltema, **Byzantine law**, in: C.M.H. Vol. 4. part 2, p. 76-77

- Moss, **The Formation of the Eastern Roman Empire** in: C.M.H. Vol. 4 part 1, p. 36
- C.P. Kyrris, Nicocia, **Military Coloni in Cyprus in the Byzantine Period** p. 158-159.
- Enssilin, Ibid, p. 39
- Stratos, Ibid, Vol.1, p. 275-276

(١٣٦) Chranis Ethnic, **Changes in the Byzantine Empire in the Seventh century**, D.O.P. 13 (1959) p.33.

(١٣٧) J. L. Teal. **Byzantine Agricultural Traditions**, in D.O.P. 25 (1971) p. 51

الشخصية ذات الصبغة العسكرية[١٣٨].

كما يستندون أيضا إلى عدم وجود قوانين سابقة على القوانين الصادرة في القرنين التاسع والعاشر تربط مابين الجند والأرض والخدمة العسكرية. فإذا منحت الدولة جنودها أرضا مقابل الخدمة العسكرية فلابد أن يوجد صدى لذلك في القوانين أو في الروايات المتواترة. وفي الواقع لايوجد في أي من المصادر أو الكتابات القانونية التابعة لبداية القرن الثامن أى إشارة أو اقتراح على إلزام أو التزام الأسر بإعالة الجنود. ولكن تلك المصادر توضح انه كان في إمكان الجنود ترك منازلهم أو أراضيهم بحرية دون أن تفرض عليهم أي قيود[١٣٩].

النقطة الثانية: لإضعاف فكرة منح الدولة الأراضي للجند، هي أن الدولة استطاعت تمويل جنودها عن طريق فرض الضرائب العينية على المزارعين والصناع.... كما فعلت الأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ومعظم القرن الخامس. وربما حاولت تخفيف العبء عن الجنود من ذوي الأسر بأن تعهدت بإعالتهم خلال فترة الشتاء. وربما ينهض دليلا على ذلك قيام الدولة بتزويد من يبقى من الجند في معسكراتهم في ذلك الفصل فقط بحاجتهم من المؤن. ولكن بعد أن أوجدت الدولة نظام الثيمات، يحتمل أن يكون قد تزايد اصطحاب جند الثيمات لأسرهم أو أقاربهم للإقامة معهم.

النقطة الثالثة: إن منح الأرض مقابل الخدمة العسكرية لم يطبق إلا على الأجانب حيث يوجد شاهد نطمئن إليه على أن الدولة استطاعت أن تجعل مجموعات من المهاجرين يستقرون في الأرض مقابل الخدمة العسكرية من الجيل الأول إلى الأخير. ويضرب مثلا بالمعاهدين Feoderati. ولكن نظام مثل هذا يصعب تطبيقه على الجند النظاميين الذين استمروا في معسكراتهم على طريقة الـ billeting وذلك إما عن طريق تزويدهم بمسكن خاص أو اسكانهم في منازل الأهالي. وتتم اعالتهم عن طريق فرض المؤن على السكان المحليين كضريبه عينية[١٤٠].

فإذا كانت الأرض منحت للمعاهدين فقد منحت أيضا للجماعات التي هجرهم الأباطرة من مواطنهم الى مواطن أخرى[١٤١] مثل عمليه نقل الأرمن التي قام بها الامبراطور موريس في التسعينيات من القرن السادس والذي جعلهم يستقرون في

(١٣٨) M. Hendy, **Studies in the Byzantine Monetary Economy** (300 - 1450) . (Cambridge 1985), P. 638-639

(١٣٩) .Haldon, Ibid, p. 245

(١٤٠) .Haldon, Ibid, p. 245-249

(١٤١) انظر الكتاب الفصل الخاص بالسكان ص (٣٥١).

تراقيا. وعمليه نقل السلاف مع اسرهم التي دآب عليها أباطرة القرن السابع.

إن منح الأرض هنا انسحب على مجموعات كانت من جنس أو قومية واحدة ونظموا على أساس مشابه لقوات المعاهدين(١٤٢).

والغرض من منح أراضي لتلك الجماعات كان إعادة زراعة الأراضي المهجورة وامداد الجيش بقوات مساعدة(١٤٣). أما الاصطلاح الذي تم به تسليم الأرض فغير معروف. ولكن من المحتمل أنهم منحوا أراضي الدولة الامبراطورية المسماه Imperial Land التي وجدت في شرق الأناضول. وربما يكون شرط منحهم الأرض هو إمداد الجنود بالمؤن(١٤٤).

والسبب في منح السلاف، أو لنقل الأجانب أراضي في الأناضول هو أن المنطقة عانت من نقص شديد في السكان نتيجة للطاعون والأوبئة والغارات الأجنبية، الشيء الذي ترك مساحة أراضي الأمبراطورية Imperial land خالية من السكان وهناك انتشار واسع لتلك الأراضي في كل من Bithynia Ponlus بثنيا و Caria كاريا و Pamphylia بامفيليلو و Salautaris وسالوتارس و Phyrgia فريجيا، حيث قرر الجزء الأكبر من قبادوقيا أراضي امبراطورية. وكانت الأراضي الأمبراطورية تتراوح مابين ١٥٪ إلى ١٨٪ من مجموع الأراضي الكلية(١٤٥).

لقد استند الفريق الثاني على رفض فكرة تمليك الأرض للجند المحليين مقابل الخدمة العسكرية على القول بعدم وجود نص واضح في المصادر يتحدث عن تمليك الأرض للجند مقابل الخدمة العسكرية وعلى عدم وجود قوانين سابقة لقوانين القرنين التاسع والعاشر التي تلزم الجنود بالخدمة العسكرية. وتناسوا قانون الفلاح The Farmers law والذي يعود تاريخ وضعه إلى نهاية القرن السابع. والذي يضع تفاصيل العلاقة بين ملاك الأرض وبين المستأجرين على أساس جزء عينى من الإنتاج "١١-١٥" أو على أساس الأجر الشهرى او السنوي (١٦) دون المشاركة في حصة من الإنتاج(١٤٦). وهذا يوضح قيام مبدأ اسناد ملاك الأراضي الممنوحة أعمال زراعية إلى

---

(١٤٢) Sebeos, Ibid, P. 54.
أيضا: Charanis, Ethnic Changes. D.O.P. p. 29-32
Hendy, Ibid, p. 639.
Haldon, Ibid, p. 247.

(١٤٣) Idem, p. 247 - 248.

(١٤٤) Hendy, Ibid, p. 637-638.
Haldon, Ibid, P. 148.

(١٤٥) Hendy, Ibid, p. 637.

(١٤٦) The **Farmers law** (Nomos georgikos).

الغير. إما مقابل جزء عيني من إنتاج الأرض أو مقابل رواتب شهرية أو سنوية حسب الاتفاق، الأمر الذي يحقق للدولة الاستفادة من الهدف الذي رمت إليه من منح الأرض للجند. حيث يستطيع الجنود أن يقوموا بتأجير تلك الأرض من جانب ويتفرغ الجندى الممنوح لتلك الأرض، للأعمال العسكرية التي تتطلبها الدولة، واستمرارية الجنود على رأس العمل على مدار السنة دون انشغالهم بزراعة الأرض. وهذا هو الرد على القول بأن الجند كانوا مشغولين أثناء الموسم الزراعي بمهامهم العسكرية ولايستطيعون القيام بزراعة الأرض. وأن عليهم الاعتماد على العوائل لايوائهم وامدادهم بالمؤن العينية(١٤٧).

ونخلص إلى القول بأن الجند لم يعملوا في الأرض بل منحوا الأرض وقاموا بتأجيرها إلى الفلاحين Tenants الذين عملوا عليها. وكان الجند متفرغين للخدمة العسكرية. وكان مصدر معاشهم الرئيسي يأتي من دخل الأراضي المؤجرة على فلاحين يعملون عليها. وربما يفسر ذلك الأمر بنقل الأسر مع الجنود. لا لمنح الأسر الأراضي ولكن منحها للجند، والأسر تستأجر تلك الأراضي وتستصلحها لصالح الجند.

مشكلة التمويل النقدي لجنود الثيمات في القرن السابع :

وكما هو معروف أن حالة الدولة الاقتصادية سيئة وأن الكنيسة أسهمت بقدر كبير من الجهد والمال، إذ جعلت كل مالديها من ثروة تحت تصرف الدولة، التي خوت خزينتها من المال، فقدمت كل مالديها من التحف المصنوعة من الذهب والفضة، وصهرتها الدولة لتسكها نقودا(١٤٨). واستطاعت أن تدفع أعطيات ومرتبات الجند. ولكن الامبراطور هرقل فكر في حل جذرى لهذه المشكلة وهو منح الأراضي مقابل الخدمة العسكرية ولكن هل ترك الجند على دخل الأرض فقط؟ كلا. فقد قامت الدولة بدفع مبالغ نقدية للجند، ولكنها مبالغ قليلة نسبيا ولاتسلم إليهم بشكل سنوي وإنما من ثلاث إلى ست سنوات. ويفصل ذلك ابن خرداذبة بقوله "العطاء مختلف أكثره أربعون رطلا ذهبيا إلى ستة وثلاثين رطلا، إلى أربعة وعشرين رطلا، إلى اثنى عشر، إلى ستة أرطال إلى رطل. وأعطيات الجند مابين ثمانية عشر دينارا إلى إثنى عشر دينار. هذا مرسوم لهم في كل سنة. ويعطي ذلك في كل ثلاث سنوات وربما في أربع سنين، وربما كان في خمس سنين وربما كان في ست سنين عطاء واحدا(١٤٩). ويكون تفسير ذلك أن أعلى

---

(١٤٧) Haldon, Ibid, p. 246-249.

(١٤٨) Theophanes ٣٠٣.

(١٤٩) ابن خرداذبة، المصدر السابق - ص ١١١ -١١٢.
أيضا: Enssilin, Ibid, p. 39.

مرتب وهو مرتب قائد الثيم Strategos الذي يتراوح مابين أربع وعشرين إلى أربعين قطعة ذهبية. أما الـ Turmarch فقد تسلم إثنتى عشرة قطعة ذهبية. وكان مرتب الـ Drungarius ستة قطع ذهبية ومرتب الـ Comes ثلاثة والـ Pentencountanc قطعتين اثنتين و الـ Deccarch قطعة واحدة(١٥٠).

إن ظروف صرف النقود للجند غير واضحة والبراهين عليها متناقضة. فقد صرفت نقود للجند مثل الهدية التقليدية المسماة Augustaticumo تأكد عند اعتلاء He-raclius العرش، وهو ابن مارتنيا، الذي يبلغ من العمر ١٥ سنة وشاركته أمه الحكم، وقد قامت مارتنيا بصرف مبلغ ثلاثة Solidi لكل جندي(١٥١) وأن التقاليد تقضي بصرف مبلغ خمسة Solidi، وأن المبلغ الذي دفع يمثل المبلغ المفروض تقريبا.

ولكن يبدو أن النظام الدوري الذي طبق على صرف النقود للجند وارتبط مع الهبة التي تعطى كل خمس سنوات وهي المسماة rota. وهذا الشيء الذي مكن الدولة من القاء عبء دفع المبالغ النقدية عن كاهلها لمدة أطول. وتعتبر هذه الخطوة الأولى لتخفيف الأعباء المادية عن الدولة. أما الخطوه الثانية هي تسليم مؤن الجيش عينيا كاجراء تبنته الدولة لحل المشكلة . ولقد أسست الدولة وظيفة مراقبة الحسابات ac-tuarious والمستخلصات وتسليم مؤن الجيش و Capitus (علف الحصان)(١٥٢).

إن تكاليف الامدادات والإعالة التي ألقتها الدولة عن كاهلها يجب ألا نقلل من قيمتها. وقد قدرت تكاليف إمداد الجندي في الفترة الممتدة من القرن الرابع وحتى السادس كالآتي: قدر حصان الجندي بحوالي سبعة Solidi والزي العسكرى بحوالي ستة Solidi. وأما باقي أجزاء السلاح والدروع فلم تقدر قيمتها. وان إنتاج هذه الأمور كان يتم في مصانع الدولة. لذلك فإن تقدير تكاليف تسليح الجندي الخاصة يقدر بحوالي عشرين Solidi وإعالة الجندي بمؤن سنوية Annona تقدر بحوالي أربعة إلى خمسة solidi هذا بالإضافة إلى عليقة الحصان Capitus تقدر بحوالي أربعة Solidi. وفي المناسبات تقدم مؤن إضافية إلى اسرته ومن يعولهم(١٥٣).

---

(١٥٠) Enssilin, Ibid, P. 40.
أنظر أيضا ابن خرداذبه تفصيل الوظائف في ص ١١١ - ١١٢.
أيضا: Bury, **Imperial Administration** - P. 40-41 Vol. 1, P. 76.
Theophanes, Ibid, 342.

(١٥١) Stratos, Ibid, Vol. 2 - 187 أيضا Hendy, Ibid, p. 627.

(١٥٢) Haldon, Ibid, p. 225.

(١٥٣) Hendy, Ibid, p. 636.

وقد تحولت هذه الالتزامات في القرن السابع من الدولة إلى الجند انفسهم. وقد أصبح على الجند أن يمدوا أنفسهم بالحصان والمعدات والسلاح اللازم. إن هذا الشيء يعتبر ليس تغييرا فقط في النظام العسكري في الدولة ولكن أيضا تغييرا في النظام المالي العام[(١٥٤)].

إن عملية التحويل من الدولة إلى الجندي إنما حدثت لتحريك أو إزالة ثقل العبء النقدي من الأول إلى الثاني. وعلى كل حال فإن الدولة لم يكن لديها مقادير مالية نقدية كافية خصوصا في تلك المرحلة. ولكن دفعت هبات ارتقاء العرش التي ظلت فعالة حتى سنة ٦٤١.

واستنادا إلى قنسطنطين السابع فإن نموذج المدفوعات القديم قد تضمن أن جند الثيمات قد تسلموا مدفوعات (rhoga) في مجموعات سنوية تتكون من ثلاث أو أربع سنوات على النحو التالي:

	السنة الأولى من الدورة	
١ - Anatalikon	٢ - Armeniakon	٣ - Thrakesion
	السنة الثانية	
٤ - Opsikion	٥ - Boukellarion	٦ - Kappadokia
	السنة الثالثة	
٧ - Kharasion	٨ - Koloneia	٩ - Paphlagonia
	السنة الرابعة	
١٠ - Thrake	١١ - Makedonia	١٢ - Khaldia

وعندما تكتمل الدورة تبدأ من جديد مرة أخرى. ويبدو أن هذه الدوره كانت فعالة حتى عهد Leo VI ليو السادس سنة ٩٠٠م[(١٥٥)]. وهذا يتفق مع ماذكره ابن خرداذبة. (الدفع الدوري).

وهذا يعني أن الاصطلاح rhoga قد استخدم ليعني الاعطيات لأي مبالغ مالية. وقد صدر مرسوم لتصرف كل أربع سنوات. وأن العطاء العيني كان العون الرئيسي للجيش[(١٥٦)].

---

(١٥٤) .Hendy, Ibid, p. 636
(١٥٥) .Hendy, Ibid, p. 647-648
(١٥٦) .Haldon, Ibid, P. 242

وإذا تركت الدولة نظامها القديم من امداد الجنود بالخيل والملابس والمعدات في شكل ضمان نقدي، فقد أمدتهم بالوسيط الإداري للمؤن وهو الـ Apotheke الذي كانت مهمته تنظيم تخزين الفائض من البضائع الحكومية. حيث أنه ظهر حديثا أن الـ Apothekoi كانت مخازن للفائض من بضائع الحكومة مثل الحرير والذهب والفضة وصبغة الملابس وغيرها، وكذلك الـ emporia هي مخازن لنفس الأغراض(١٥٧). وهي موضوعة تحت ملاحظة أو مراقبة موظف من magister officiorum مختص بمخازن النسيج والصبغة ومن Come Sacrarum Largiotiornum مختص بمخازن النقود والأواني.

وبالاستناد إلى الأختام الخاصة بموظفي تلك المخازن والتي يعود تاريخ أحدها إلى ٦٥٤-٦٥٩م، والتي توضح أن الدور الأصلي والأساسي لـ apothekai في القرن السابع كان مستودعا لحفظ إنتاج المصانع الحربية وإمداد القوات العسكرية بالمعدات الضرورية لأعمالهم. وأن الموظف المسئول عنه سمى Kommerkiaroi الذي تبوأ مقاما رفيعا وأن عمله ارتبط بامداد القوات الامبراطورية في عدد من المناسبات(١٥٨).

وبما أن الدولة واجهت قصورا شديدا في النقد، الشيء الذي أجبرها على العودة بنظام إمداد قواتها بإمدادات عينية(١٥٩). ونستطيع أن نضيف إلى ذلك إمداد الجند بالأرض، وهي واحدة من الإمدادات العينية.

لقد تغيرت ضريبة الأرض في القرن السابع وأصبحت عينية والمصطلح الذي يطلق عليها هو Syone. وأن الـ Syone هي الضريبة البيزنطية المقابلة لضريبة الأرض الرومانية(١٦٠). والحصول على امدادات عينية معناه أن الدولة أخذت ذلك في الحسبان منذ البداية، وذلك بوضع الجيش في أكثر المناطق خصوبة. وعلى هذا فإن انسحاب الجيوش إلى آسيا الصغرى الذي حدث سنة ٦٣٧م كان منظما وخطط له بعناية فائقة. وأن المناطق التي انسحب إليها الجيش قادرة على أن تمدهم بالمتطلبات الأساسية من المؤن العينية التي فرضتها الدولة(١٦١).

---

(١٥٧) Haldon, Ibid, p. 233.

(١٥٨) Haldon, Ibid, p. 233.

(١٥٩) النظام القديم المقصود به تمويل الجيوش المؤقتة Transit في كل من القرنين الخامس والسادس والذي أخذت فيه المؤن من تقدير الضرائب لكل منطقة عينا.
Haldon, Ibid, P. 231.

(١٦٠) Idem, p. 231.

(١٦١) Idem, Ibid, p. 227.

وعلى هذا يفترض أن مصانع الأنسجة الحكومية قد مولت عددا كبيرا من الملابس العسكرية، وإن لم تكن قد قامت بتغطية كل الحاجات والتي قامت بتغطيتها المصانع الخاصة والتي سلمت انتاجها إلى الدولة كجزء من الضرائب المفروضة[١٦٢]. وتنطبق نفس الاعتبارات على الأسلحة والتي كانت ضمن احتكارات الدولة، ولكن في خلال الأربعينات من القرن السابع بقى فقط خمسة من الخمسة عشر مصنعا في الشرق تحت سيطرة الامبراطورية والتي كانت في كل من نقوميديا Nicomedia وسارديز Sardis وادريانوبل Adrianople وسالونيكا وقيصرية في قبادوقيا، مع المصانع المنتجة لدروع الاستعراض في القسطنطينية[١٦٣]. لقد توقفت المصانع فيما بعد في كل من قيصرية وادريانوبل، وذلك نظرا لموقعهم المتعرض لخطر. بينما استمرت المصانع الموجودة في كل من سالونيكا وسارديس وإن كان إنتاجها أصبح قليلا بعد عهد هرقل إن لم يكن قبل ذلك.

ونظرا لقلة المؤسسات التي تركت للدولة، لم تتمكن الدولة من تمويل كل طلبات الجيوش الميدانية، والاختيار الوحيد الذي بقي أمام الدولة هو تشجيع الإنتاج الخاص كبديل لسد النقص سواء كان أو لم يكن تحت مراقبة موظفي الدولة. وشمل ذلك الانتاج صناعة الملابس والمعدات والأحذية Boots والمشغولات الجلدية، وغيرها. هذا بالإضافة إلى الأسلحة. وهذا يعني تغييرا أو كسرا للنظام التقليدي. وان نظام Op-otheke والـ Kommerkiaro في الواقع لم يكن نقل المواد من القسطنطينية إلى المناطق الاخرى التي تحتاجها وبيع تلك المواد إلى الجنود، ولكن كان تغييرا أساسيا[١٦٤]. في النظام التقليدي في تموين الجنود.

لقد تضاربت الاقوال حول وظيفة الـ Commerciarios بأنه جامع ضرائب او انه موظف اداري يتكفل بالاحتياجات العسكرية أو أنه Contractor متعهد يتكفل بإحضار المعدات والأسلحة والملابس... الخ من الأسواق المجاورة إلى المنطقة التي يعسكر فيها الجنود. والأرجح هي الوظيفة الثانية.

أما كيف كانت الطريقة التي كان يتم بها ذلك. فقد كانت تتم عن طريق فرض ضريبة عينية أو فرض بيع الأشياء المذكورة بأسعار رخيصة وثابتة[١٦٥].

والسبب في تكليف الـ Kommerkiarioi بهذا الموضوع فهو واضح، لانهم كانوا

(١٦٢) Jones, L. R. E. P. 437.
أيضا Haldon, Iid, P. 239.
(١٦٣) Idem, P. 239.
(١٦٤) Idem, P. 239.

يقومون بمراقبة الضرائب (المكوس) على بيع البضائع التي تنتجها مصانع الدولة وتخزينها في البنك Tarapza التابع للـ prefecturs والبنك الخاص eidikon Logothesion استمر في مراقبة تلك الأنشطة مكتسبا السيطرة على الإنتاج الحقيقي للمؤسسات نفسها بما في ذلك انتاج الأسلحة والإضافات الأخرى من المعدات العسكرية.

إن الـ Momnmerciarios الآمر على مخازن المناطق apotheke كان أيضا Stratiotikos Logothetes الموظف المسئول عن المالية العسكرية وتقدير المؤن العسكرية(١٦٦).

وبناء على ماسبق Kommakiarioi كانوا ملزمين بترتيب الانتاج وتوصيله، ويمكن توزيع جميع الأسلحة والمعدات من الصناع المحليين والمنتجين وأيضا من مصانع الدولة ومخازنها وتوزيعها على الجند في اماكن معينة، وان تعهدهم ذلك مقابل أن تمنحهم الدولة شيئاً من فائض الانتاج الذي يمكن تخزينه في مخازن الدولة apotheke أو armamenta وأن يقدم kommerkiarioi ضمانات تغطي أي نقص من دخلهم الخاص في حالة وقوعه. ولا يوجد أي جديد في هذه المبادىء عدا تطبيقها على المعدات العسكرية(١٦٧).

ويطرح هالدن سؤالا. هل معنى هذا النظام قيام الجند بالشراء؟ وبما أن الجند لم تدفع لهم نقود بشكل منتظم وحيث أن هالدن قد أنكر أو رفض الأخذ بالقول أن الدولة منحت الجند أرضا مقابل الخدمة العسكرية، فهو يدور في حلقة مفرغة للخروج بحل منطقي، وهو كل المعدات والاحتياجات العسكرية للجند دفعها السكان المحليين على شكل ضرائب عينية، أما عن بيع الأسلحة والذي ثبت أنه يتم في apotheke فإنه يستبعد أن يكون ذلك قد تم(١٦٨)، وأن الجنود أعطوا تذاكر إقامة وأن مؤنهم فرضت على السكان المحليين(١٦٩). ويعود هالدن ويقول أن الحل الوحيد هو منح الجنود أراضي لهم ولاسرهم وهو الشيء الذي رفض الاعتراف به في بادىء الامر كما أسلفنا.

نستخلص مما سبق ان القرن السابع شاهد نقلة رئيسية في الإدارة العسكرية

(١٦٥) Haldon, Ibid, p. 240.
(١٦٦) Haldon, Ibid, p. 241.
(١٦٧) مثال على ذلك Tax - Farming في الامبراطورية الرومانية.
Jones, Ibid, p. 457.
(١٦٨) Haldon, Ibid, p. 245.
(١٦٩) Idem, p. 249.

والمالية في الدول والتي كان عليها أن تتمشى مع تغييرات الظروف المستجدة. وإن من الضروري أن ننظر بعين التقدير إلى التخطيط الذي قامت به الدولة البيزنطية لتلك المواجهة. وبينما كانت الدولة تتجاوب مع الضغوط المحيطة بها، فإنها لم تكن ردة فعلها عمياء للظروف المحيطة بها. بل برهتنت على بعد نظرها في شكل إعادة التنظيم المالي والعسكري. وقد برهنت على أن تنظيمها كان ملائما للظروف المحيطة بها[١٧٠].

(١٧٠) Idem, p. 251.

الفصل السادس
الأوضاع الاقتصادية

الأحوال الاقتصادية في بيزنطة في القرن السابع

تتلخص الأوضاع الاقتصادية التي أخذت تسود الامبراطورية في مستهل القرن السابع بعد أن خرجت بيزنطة من حرب مع الفرس استمرت زهاء أربعة وعشرين عاما كاملة في التالي : انحطت الامبراطورية إلى مستوى اقتصادي غاية في الضعف والتدهور ، في حين أن هجوم بيزنطة المضاد لم يدم أكثر من ست سنوات ، وقد نزح السكان من شبه جزيرة البلقان وهجرت مناطقها الشمالية تماما . وقد حاولت القوات المحلية بما كانت عليه من نقص في عددها وضعف في بنائها ، ان تحمي المدن والقرى القريبة منها . وطبيعي أن تكون المواصلات محفوفة بالمخاطر . وأن تعاني التجارة ، وتقل حصيلة الضرائب . وقد احتفظ الفرس بالجزيرة الفراتية ، وسوريا مدة تسع عشر عاما ، وفلسطين لمدة خمسة عشر عاما ، ومصر ما بين عشر الى اثنى عشر عاما . ومن غير المعروف إذا ما كان الفرس قد قاموا بتغير نظام الضرائب الذي فرضة البيزنطيون أو أنهم قاموا بالتخفيف من تلك الضرائب وطرق جبايتها . ولاتوجد معلومات عن الحالة الاقتصادية وسياسة الفرس المالية في الولايات التي كانت تحت سيطرتهم في تلك الفترة. ويعزى التدهور الاقتصادي في المناطق الغنية خلال سنوات الحرب إلى صعوبة نقل السلع على نطاق واسع . لقد عزلت تلك الأقاليم عن حوض البحر المتوسط وهو القناة الطبيعية للحركة التجارية . وانفصلت الولايات الغنية عن العالم الخارجي . والذين كانوا معتادين على التبادل التجاري معه وعانت من فقد أسواقها التقليدية . ولم يكن من السهل على تلك الولايات أن تفتح طرقا تجارية جديدة والتي تحتاج إلى سنوات لتنظيمها . هذا إلى جانب أن السوق الجديدة الوحيدة لتلك الولايات كانت فارس . وهذه لم تكن في حاجة إلى منتجات الولايات بصرف النظر عما إذا كان هناك وسائل اتصال سهلة مع الفرس . فلذلك كان انهيار الوضع الاقتصادي في الولايات أمراً طبيعياً [١] .

في خلال تلك الفترة كانت آسيا الصغرى ، قلب الأمبراطورية وقاعدتها ، قد عانت الكثير من الكوارث خلال سنين الحرب . لقد اجتاحتها جحافل الفرس مرات

(١) Stratos, Ibid, Vol. 1, p. 257 - 258

ومرات، تاركة وراءها الفوضى والاضطراب وهي إن لم تعان من الاحتلال الدائم أو حتى من التخريب أو تركت مهجورة ولكنها عانت من التدهور الاقتصادي .

والقسطنطينية ، عاصمة الأمبراطورية وواجهتها وقاعدة قوتها وتراثها، كان لها أيضا مشاكلها الأقتصادية . لقد نزح لها عدد كبير من اللاجئين من المناطق المحتلة، ومع سقوط مصر ، حرمت قسطنطينية من مورد هام للقمح وأدى عدم توزيع الخبز المجاني إلى انتشار المجاعة فيها . ولكن كانت هذه الحالة لها جانبها الايجاني ، إذ اضطرت الإدارة الامبراطورية إلى زراعة القمح في تراقيا وآسيا الصغرى لنشر زراعة الحبوب في المناطق المتمتعة بالسلام [٢]. لقد هدد العاصمة الخطر المستمر والحاجة إلي المحافظة على جيش قوي للدفاع عنها مما امتص جزءا من ثروتها وقلل من نشاطها الاقتصادي[٣].

أما أقل الولايات تأثرا بالحرب فقد كانت افريقيا ، وبالرغم من انه كان لديها من المتاعب مافيه الكفاية . ولكنها كانت على الأقل قادرة على امداد بيزنطة، بحملتين للدفاع عنها . الحملة التي توجهت إلى الاسكندرية ، وكانت تتمتع باستقرار نسبي وازدهار اقتصادي[٤]. كما وأن شن الحروب الطويلة أرهقت الخزينة العامة وامتصت مبالغ ضخمة من الاموال لتمويل الجيش على أرض المعركة .

وقد ترتب علي الحروب مع الفرس والأفار والسلاف نتائج خطيرة بالنسبة إلى القوة البشرية والقدرات المادية للامبراطورية، فقد قتل عدد ضخم من مواطني بيزنطة ومني الجيش بخسائر فادحة ويقال أن عدد الجنود الذين لقوا مصرعهم في حملات هرقل بلغ مائتي ألف جندي . ويرى استراتوس أن هذا العدد ضخم بلا شك ولكن من الممكن أن يكون حقيقيا .

ولم تنج الولايات من نتائج مدمرة إذ تناقص عدد سكانها ورفض من احتمى بهم في المدن المحصنة العودة إلى أراضيهم ، فنقصت محاصيلهم وعمد الناس إلى كنز أموالهم فتناقص تبادل العملات ، مما زاد في حدة الموقف وهو مايطلق عليه في مفاهيم الاقتصاد الانكماش . واتجهت الدولة إلى إصدار عملات جديدة وبصفة خاصة في الفترة مابين عامي ٦٢٠ و ٦٢٨م ليدفع هرقل مرتبات الجنود . وبالرغم من الزيادة التي حدثت في سك العملات إلا أن تداول العملات الذهبية في بيزنطة عانى تدهورا خطيرا . ويظن انه عام ٦٣٠ نقص عدد هذه العملات بنسبة ٢٠٪ عما كانت عليه في القرن السادس وهو مايطلق عليه في الاقتصاد الحديث وسائل الدفع، مما زاد في حدة الأزمة الاقتصادية في بيزنطة. أضف إلى ذلك، أن قدرا

(٢) .Stratos, Ibid, Vol. 1, p. 126
(٣) . Idem, Vol. 1, p. 2
(٤) .Pringle, Ibid, P. 44

كبيرا من العملات الجديدة ذهب إلى خارج بيزنطة لينفق على شراء الحلفاء في كل من لازيكا Lazica وايبريا Iberia والخزر Khazar وقدمت مبالغ ضخمة لمختلف قبائل الافار والسلاف وغيرهم من القبائل الذين خضعوا للآفار ليشيعوا ، الاضطرابات في امبراطورية الآفار . ومنح الفرنجة الكثير لدعم جهود بيزنطة لمواجهة الآفار.

أما الأوضاع في اسبانيا وإيطاليا فلم تكن طيبة إذ كان من الضروري كسب ولاء رؤساء القبائل المتبربرة باغرائهم بمبالغ ضخمة لمنعهم من الغارة عليهما، في حين ان الموارد المحلية لم تكن كافية لسد تلك النفقات ومساندة العاصمة في نفس الوقت[٥].

ولم يكن بإمكان الامبراطور هرقل مواجهة تلك الظروف القاسية فتملكه اليأس فالخزينة فارغة والصعوبات الاقتصادية عنيفة. فقرر أن يترك القسطنطينية ويرحل إلى افريقيا . فوضع أمتعته في السفن التي ستحمله إلى قرطاج ولكن السفن ما لبثت أن غرقت بما فيها من الأموال التي جمعها[٦].

وينفرد نيقافورس بذكر ان البطريرك سرجيوس لم يمنع هرقل من السفر إلى افريقيا فقط ، بل أخذه إلى كنيسة أياصوفيا وجعله يقسم بأنه لن يغادر القسطنطينية[٧].

وقد علق بعض الكتاب على أن هرقل كان يمكن أن يكون قادرا على تزويد جيشه بالجنود إذا كانت قرطاج قاعدته ، واستعاد مصر[٨].

ولم يكن البطريرك سرجيوس مجرد بطريرك كنيسة ، بل كان واسع المدارك وأثبت انه بعيد النظر ، فيما يرى بعض المؤرخين ، عندما اصدر قراره الحاسم الذي يقضي بوضع أموال الكنيسة تحت تصرف الامبراطور ، وكانت الكنيسة تمتلك كنوزا ضخمة وخاصة صحاف الذهب والفضة والشمعدانات، ومخصصات الصدقات[٩].

وعندما نتحدث عن أموال الكنيسة لا نتحدث عن مبنى كنيسة واحدة بعينها ولكن نعني جميع الكنائس في جميع المناطق الخاضعة لسيطرة الامبراطورية البيزنطية، وقد ذكر أن البطريرك سرجيوس بعث الى كنيسة الاسكندرية يطلب منها

(٥) Stratos, Ibid, Vol 1. p. 258

(٦) مما يثير الدهشة أن غرق الأموال في البحر قصة متكررة في الحوليات التي تذكر ان فوكاس فقد أمواله أيضا عندما غرقت في البحر. وانه عندما احتل الفرس الاسكندرية غرقت السفن المحملة بالذهب نتيجة العاصفة وربما كانت هناك رواية تقليدية عن الكنز الغارق وتكرر ذلك عند كل كتاب الحوليات . أنظر: Stratos, Ibid. Vol.1, p. 12

(٧) Nicephorus , Ibid, p. 12

(٨) Baynes, **Successors of Justinian**, in C.M.H. Vol. 2, p. 291.

(٩) Stratos , Vol. 1, P. 126

المساهمة في نفقات الحرب، وكانت كنيسة الاسكندرية واحدة من أكبر ملاك الأرض في مصر، حتي ان بطريك الاسكندرية كان يعد من أغنى الرجال في مصر[١٠] ومع ذلك فإن بطريك الاسكندرية رفض اعطاء الامبراطور ولو قدر يسير من أموال الكنيسة المخصصة للفقراء[١١].

ولم تكن كنوز الكنيسة لتمنح للامبراطور بل كانت دينا علي الدولة يجب ردها بعد انتهاء الحرب[١٢] وقد ذكر ثيوفانيس أن ذلك حدث خلال العام الأول لحملة هرقل أي سنة ٦٢٢م[١٣]. ويرى ستراتوس أن هذا القول غير دقيق لأن كنوز الكنيسة أقرضت له ليعد لهذه الحملة والتي لابد وأن يكون الاستعداد لها قد استغرق وقتا طويلا[١٤].

وبالنسبة لهذه الظروف اتخذت اجراءات للحد من نفقات الدولة وسمح ببيع الوظائف مرة أخرى[١٥].

ويذكر ثيوفانيس[١٦] في أحداث سنة ٦٢١م أن هرقل اقترض أموالا من البيت المقدس (الكنيسة) لأن الفقر كان يكبله كما أنه أخذ الشمعدانات وأدوات أخرى من الكنيسة العظمى . وقام بسكها ليصدر نوعين من النقود الـ Nomismata[١٧] و Miliaresia[١٨].

ويذكر ستراتوس أن سرجيوس تعرض لهجوم عدد من رجال الدين لأنه سمح للامبراطور أن يأخذ من مخصصات الكنيسة . ويضيف ستراتوس ، اننا نجد صدى ذلك في كتابات نيقافورس بعد مائتي عام حيث لازال يردد أن مخصصات الكنيسة استخدمت في غير ما خصصت له[١٩].

وبعد الحرب أعاد هرقل بعض الأموال التي اقترضها من الكنيسة من حصيلة غنائمه من حربه مع الفرس . وضغط سرجيوس عليه لاستعادة دين الكنيسة كاملا، لذلك فرض هرقل ضرائب جديدة . وكثف الضرائب القديمة . ودعا جميع الولايات

(١٠) George R. Monks, **The Church of Alexandria and the City Economic Life.** Speculum 28, (1953) P. 352

(١١) Monks, Ibid 352.

(١٢) Stratos, Vol. 1, P 127.

(١٣) Theophanes, Ibid, p 303.

(١٤) Stratos, Ibid Vol. 1, 260.

عن بيع الوظائف في القرن السادس ، راجع : الكتاب أعلاه

(١٥) Stratos, Vol 1, P.260.

(١٦) Theophanes, Ibid - 303.

(١٧) الـ Nomismata عملة ذهبية.

(١٨) والـ Miliaresia عملة فضية وهي تساوي ١٢:١ من Nomismata.

(١٩) Stratos, Vol. 1, p. 260.

لدفع ثمن الحــرب . وكانت هذه غلطة هرقل الكبرى حيث أثار سكان الولايات التي كانت حياتهم قد دمرت . ويردد استراتوس قول بيوريء في ذلك : إذا كانت الدولة أعطت السكان وقتا كافيا وإذا كانت الكنيسة أكثر صبرا على استرداد قرضها . وإذا تركت الولايات تسترد نشاطها التجاري ووجودها الاقتصادي لكان في الإمكان مواجهة الخطر الداهم ومقاومة الفتح الإسلامي . وعلى سبيل المثال فقد فرض على سوريا دفع الضرائب التي كانت قد دفعتها للفرس وفي دمشق تعرض جابي الضرائب لألوان من التعذيب ليسلم الضرائب التي كان قد أداها إلى الفرس خلال فترة احتلالهم وحصل من الرومان على خمسة آلاف قطعة ذهبية(٢٠).

وهكذا أدى قرض الكنيسة للدولة إلى نتائج عكسية فهو في باديء الأمر قام بحل اشكال تمويل الجيوش التي حاربت الفرس . ولكن فكرة سرعة سداد الدين التي سيطرت على الامبراطور هرقل أدخلته في مشاكل اقتصادية جديدة بتشديد الضغط علـى سكان الولايات الشرقية الشيء الـذي ساعـد على فـقـدان تلك الولايات وإلـى الأبد .

حركة نقل السكان وأثرها الاقتصادي :

لاشك في أن عنصر السكان هو الأساس في عملية البناء الاقتصادي لأي مجتمع بشكل عام . فهو دعائم الإنتاج من جهة ، والعنصر الذي يستهلك ما يكفيه من هذا الإنتاج . ويبقى على بعضه في شكل سلع يتبادلها مع مجتمعات أخرى ، أو يصدرها إليهم ، وهو مايسمى بالتجارة الخارجية . ولذلك فإن العلماء يعتبرون النشاط البشري لأي مجتمع الدعامة الأولى في توفير موارد الدولة بوصفهم رأس المال المساهم في عمليات الانتاج الاقتصادي . (أي أحد عناصر الانتاج في المفاهيم الاقتصادية الحديثة).

ولاشك في أن الظروف التي عاشتها الامبراطورية في ظل الحروب المستمرة في القرن السابع والاغارات التي تعرضت لها حدودها تركت أثارا بعيدة المدى في الحياة الاقتصادية والكثافة السكانية في أماكن معينة . ونضع دائما نصب أعيننا ان ما أصاب حدود الامبراطورية وولاياتها من تخريب ودمار في مطلع القرن السابع كان خطيرا إلى أقصى حد ، إذ فقدت الامبراطورية اعداداً ضخمة من المواطنين الذين قتلوا خلال هجمات الأفار والسلاف في الغرب والحروب مع الفرس في الشرق(٢١) والمعروف أن الحروب في حد ذاتها عامل تدمير لموارد المجتمع البشرية وغير البشرية . وتمثل عبئاً كبيرا على موارد المجتمع وتؤدي الى حدوث قلة

(٢٠) Stratos, Vol. 1, p.260-261.

(٢١) Stratos, Ibid Vol. 1, p. 259.

ملحوظة في كثير من السلع وتحول دون تقدم الخدمات الضرورية التي يحتاجها المجتمع. ويترتب على ذلك ارتفاع في الأسعار وتضخم مالي وانخفاض لقيمة العملة وانكماش في النشاط الاقتصادي . وفضلا عن ذلك فإن مواجهة نفقات الحروب كانت كفيلة بفقد الجانب الأكبر من موارد الدولة ، التي كان يجب أن تنفق الكثير منها على تأمين القوة العسكرية لجيشها لتجعلها قادرة على الردع ورد هجوم جيرانها وتحقيق الاستقرار في الداخل ، وإقامة الحاميات والتحصينات والقلاع .

وتسبب الخراب الذي حدث في الولايات نتيجة الحروب والغارات المتكررة في هجرة كثير من سكان المناطق التي يتهددها خطر الحرب إلى المدن المحصنة . ولدينا الكثير من الأمثلة على مناطق تركت خالية من السكان ، من ذلك أن هجمات المسلمين في آسيا الصغرى خلال السنوات ٦٦١-٦٧٧ التي انتهت بحصار القسطنطينية تسببت في اقفار عدة مناطق في شمال الأناضول مثل Kyzicus كيزيكوس وجانب كبير من بثينيا Bithynia. وتدل الشواهد على أن الامبراطور هرقل عندما سحب جيوشه من سوريا إلى أسيا الصغرى، ترك وراءه كثير من الأماكن وقد هجرها سكانها، حتى أن العرب عند دخولهم إليها وجدوها وقد خلت من سكانها(٢٢).

وكان لاخلاء بعض مناطق الامبراطورية في الشرق من سكانها نتائج سلبية على الامبراطورية ، إذ هرب عدد كبير من الرهبان وخصوصا من فلسطين ومصر ، وأسسوا مزيدا من الأديرة داخل الامبراطورية . ووجدت وثائق امبراطورية يعود تاريخها إلى القرن السابع موقعة من كل من الامبراطور قسطنطين الرابع والامبراطور جستنيان الثاني، ونص فيها على إعفاء كل أصحاب الملكيات من الرهبان من الضرائب مع ملاحظة أن ممتلكات الأديرة وضياعها انتشرت على نطاق واسع داخل ما تبقى من أراضي الامبراطورية، مما زاد في اضعاف الموارد المالية وتضاؤلها ، والتي هي أصلاً تكون عناصر الدخل للحكومة المركزية(٢٣). ولم تكن الحروب والدمار السبب الوحيد في نقص عدد السكان،بل ابتليت الامبراطورية بعدد من الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والامراض والاوبئة والطواعين التي عانت منها كثيراً في تلك الفترة شأن كثير من مناطق حوض شرق البحر الابيض المتوسط وكانت الأوبئة ظاهرة دائمة في حوض شرق البحر الأبيض المتوسط قبل القرن السابع وفي

(٢١) Stratos, Ibid Vol 1. p. 259.

(٢٢) انظر الكتاب اعلاه

(٢٣) Stratos, Ibid Vol 1. 4 p. 148.

خلاله[٢٤] وأن ذلك كان له تأثيره على السكان والكثافة السكانية[٢٥].

وكان من الضروري اتخاذ إجراء لمواجهة زيادة السكان في تلك المناطق لجعلهم قادرين على الكسب والإنتاج . ومن ثم يكون في إمكانهم امداد الدولة بالقوة العسكرية التي تستطيع الدفاع عنها وقت الخطر . لذلك قامت عملية التوطين الـ Colonisation أو إعادة التعمير لملء ذلك الفراغ في المناطق المهجورة التي تسببت فيها الحرب . وقد رافق عملية التعمير عملية تهجير أو سكان الامبراطورية الاجباري أو الاختياري من جهة إلى أخرى . أما عملية النقل فقد حدثت علي نطاق واسع في أواخر القرن السادس، فعندما قام Tiberius تبيريوس في عام ٥٧٨ بنقل عشرة آلاف من الأرمن إلى جزيرة قبرص، وتبعه في هذا العمل خلفه الامبراطور موريس[٢٦]، حيث تبين (للامبراطور موريس) وربما كان هو نفسه من أصل أرمني، أن الارمن مثيرين للشغب، ورأى أن يستعين بالملك الفارسي . وقد ذكر سبيوس Sebe-os المورخ الارمني أن الامبراطور موريس كتب إلى ملك الفرس يقول : «إن الأرمن شعب مخادع شديد المراس وهم سبب للمتاعب ، وسأقوم بجمع مالدينا من الأرمن وأبعث بهم إلى تراقيا . أمّا أنت فابعث من لديك منهم الى الشرق[٢٧] فإن كان مهلكين هناك فإنهم اعداء سوف يموتون . وإذا كان العكس وقتلوا فإنهم الأعداء الذين يقتلون، أما نحن فسوف نعيش في أمن وسلام . أما إذا بقوا في موطنهم فلن يكون في ذلك أي راحة لنا[٢٨]. ويذكر سبيوس أن الملك الفارسي وافق على تنفيذ هذه الخطة مع ملك الروم ولكنه لم يعاون على تحقيقها، ولكن ما إن شرع موريس في نقل الأرمن. متخذا اجراءات مشددة ، الى تراقيا حتى بادر كثير من الارمن الى الفرار من المناطق اليونانية ليضعوا انفسهم في طاعة الفرس ، وخاصة في المناطق التي كانت تحت امرتهم ، وتلقاهم خسروا بكل تقدير وقدم لهم هدايا تفوق

---

(٢٤) Theophanes, Ibid 370, Nicephorus, Ibid 40 أيضا: Andre, M. Andreades, **The Economic life of the Byzantine Empire, In: Byzantium ed. by** Baynes & Moss, p. 51 Haldon, Ibid, p. 111 54-55.

(٢٥) اشهر الأوبئة التي اجتاحت شرق البحر المتوسط كانت في الأربعينيات من القرن السادس . وتأثرت بها القسطنطينية على سبيل المثال عدة مرات في النصف الثاني من القرن السادس ومرتين في القرن السابع في ٦٠٨-٦٠٩، وفي عام ٦١٨م . وقد امتد اثرها إلى فارس وسوريا وفلسطين ومصر وحدثت مرة أخرى في القسطنطينية في عام ٦٩٧/٦٩٨. واستمرت عاما أو اكثر Haldon, Ibid, p. 112. no. 56

(٢٦) Charanis, **Ethnic changes in the Byzantine Empire in the Seeventh Century** ,13 (1959) p.29.Sebeos , Histoire de Heracliut p. 30

(٢٧) Charanis **the transfer of populaion as a policy in the Byzantine Empire in Comparetive Studies in Society and History,** Vol III , 1960-1961 p. 141 ff.

(٢٨) Sebeos , Ibid , p. 31

ما كان يقدمه لهم الامبراطور البيزنطي ليستميلهم إليه[٢٩]. والواقع أن السبب في نقل الأرمن إلى تراقيا إنما كان حاجة موريس إلى جنودفي تراقيا[٣٠].

وهذا واضح من تصرفاته إذ أمر بجمع كل الفرسان الأرمن مع كل النبلاء المهرة في فن الحرب ، كما أمر بإنشاء جيش ضخم في أرمينيا وجهزهم بالأسلحة والعتاد وأمرهم بالتوجه إلى تراقيا[٣١].

وفي سنة ٦٠٢م اصدر موريس المرسوم الآتي : أنا في حاجة الى ٣٠,٠٠٠ ثلاثين ألف جندي من الفرسان يجندون في أرمينيا على سبيل الجزية ويجب أن يجمع ثلاثون ألف أسرة تستقر في تراقيا[٣٢].

وارسل Priscus أحد قادتة إلي أرمينيا لتنفيذ المرسوم الذي يبدو أنه لم ينفذ لأن الثورة كانت قد أطاحت بموريس، ولكن هناك نقطة هامة وهي تطابق عدد الفرسان مع عدد الأسر التي كان مطلوب نقلها إلى تراقيا . والهدف من نقل الأسر قد يكون الدافع إليه أن تقوم كل أسرة بخدمة فارس من الفرسان . لذلك يبدو أن كل أسرة سوف تمنح قطعة من الأرض . ويكون ذلك محاولة من موريس ليمد نظام ملكية الأرض العسكرية إلى تراقيا[٣٣].

إن الفقرة الواردة عند Sebeos سيبيوس والتي يذكر فيها نقل الفرسان مع الأسر توحي بأن تنمية ملكية الأراضي العسكرية أو توزيع الأرض مقابل الخدمة العسكرية كان متصلاً مع نقل السكان من منطقة إلى أخرى ، وإعادة توطين المهجرين ، وكان ذلك لأسباب عسكرية [٣٤].

وفي السنة ٦٢٠-٦٢١م أحضر الامبراطور هرقل جيوشه من أوربا وجعلهم يستقرون في أسيا الصغرى[٣٥]. وفي أثناء الفتوحات الاسلامية لمنطقة ارمينيا يذكر البلاذري[٣٦] أن أهالي أرمينيا طلبوا من المسلمين أن يسمحوا لهم بالجلاء، فجلا كثير منهم ولحقوا ببلاد الروم[٣٧]ولم يذكر البلاذري إلى أي المناطق من بلاد الروم رحل أهالي أرمنيا. ولكنه يذكر أن معاوية بعث إلى حبيب بن مسلمة الفهري بألفي رجل أسكنهم كاليكيا . كما يذكر البلاذري أيضاً انه كان في الطريق ما بين

(٢٩) Idem, p. 31.
(٣٠) Idem, p. 30.
(٣١) Idem, p. 35.
(٣٢) Idem, p. 54 -55.
(٣٣) Charanis, Ethnic Changes, p. 33, note 62.
(٣٤) Charanis , Ibid, p. 33.
(٣٥) Stratos, Ibid Vol 1. p 278.
(٣٦) البلاذري ، المصدر السابق، ص ٢٠٠.
(٣٧) البلاذري ، المصدر السابق، ص ٢٠٠.

الاسكندرونة وطرطوس حصون وقلاع للروم وانه ربما أخلاها وهربوا إلى بلاد الروم .كما ذكر البلاذري أن هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لكي لا يسير المسلمون في مناطق آهله بالسكان في المنطقة الواقعة مابين انطاكية وبلاد الروم ، وإنه ربما نقل أهلها ليحل محلهم مقاتلين من الرومان(٣٨).

كما يذكر البلاذري أن معاوية لما وجد الحصون ما بين أنطاكية وطرطوس خالية، عمّرها ببعض أهل الجزيرة والشام وقنسرين ، وأورد البلاذري روايات تذكر أن عبد الملك بن مروان قد عمر تلك الحصون(٣٩).

إن السلالات الجنسية أو العرقية في آسيا الصغرى قد تأثرت إلى حد ما بقدوم السلاف الذين تركوا بصماتهم عليها ، من خلال غاراتهم المختلفة ، ولكن لايوجد أي دليل على انهم استقروا هناك باختيارهم ولكن أجبروا على الحضور إلى آسيا الصغرى بواسطة الأباطرة ، ويذكر هالدن أن قنسطانز الثاني يعتبر أول امبراطور يهتم بنقل السلاف إلى مناطق الأناضول ليمدها بقوة الرجال الذين يمكن تجنيدهم من جهة واستعمالهم في تعمير الأراضي المهجورة من جهة أخرى(٤٠) كما يذكر ثيوفانيس(٤١) أن قسطنطين الرابع توجه إلى البلقان وأرسل آلاف من السلاف مع أسرهم إلى منطقة الأناضول . وفي سنة ٦٨٨م وطن جستنيان الثاني أعداداً من السلاف في ثيم الأوبسيق(٤٢).

وقد خضعت عملية نقل السلاف هذه لأسباب سياسية وعسكرية، فالسبب السياسي هو إرادة الأباطرة تخفيف الضغط الذي مارسه السلاف على شبه جزيرة البلقان وخصوصا في المناطق حول سالونيكا . وفي الوقت نفسه أرادوا استخدام السلاف في الجيش البيزنطي(٤٣).

والمنطقة الثانية في الامبراطورية البيزنطية والتي تأثرت تأثُرا جذريا بالتغيرات السكانية أو التغيرات العرقية للسكان هي منطقة شبه جزيرة البلقان . وأن من يقرأ المصادر التي تتحدث عن الوجود السلافي في البلقان يخرج بانطباع بأن السلاف انتشرو في كل رقعة فيها . لذلك يجب أن نتحقق من نقطتين الأولى حجم أو ضخامة الاستقرار السلافي في شبه جزيرة البلقان . ثانيا الأماكن التي استقروا فيها

(٣٨) البلاذري ، المصدر السابق، ص ١٦٨.
(٣٩) البلاذري ، المصدر السابق نفسه، ص ١٦٩.
(٤٠) Haldon, Ibid, 347 - 348.
(٤١) Theophanes , Ibid , 347 - 348.
(٤٢) Theophanes, Ibid, 364.
(٤٣) Charanis , Ethnic changes , p. 42.

وهناك من أجاب عن هذين السؤالين إجابة مزدوجة بحيث قسم الأماكن التي استقر فيها السلاف وأوجد الكثافة السكانية السلافية في تلك المناطق. استنادا إلى أسماء الأماكن ذات الأصل السلافي في تلك المناطق . حيث وجد أن الغالبية العظمى من السلاف استقرت في كل من ابيروس Epirus وغرب اليونان حيث وجد (٥٥٨) اسما ووسط وغرب البلوبونيز (٣٨٧) اسما من تساليا Thessaly التي تشمل Phthiotis (٢٣٠) اسما. أما الأقلية لوجودها تتمثل في أتيكا Attica حيث وجد (١٨) اسما، حول اثينا وأرجولس Argolis(١٨) اسما بواتيا Boetia (٢٢) اسما، وكورنتا Corintha (٢٤) اسما وفوكس Phokis(٤٥) اسما، وباختصار فإن الأماكن التي تأثرت بالغزو السلافي بنسبة أقل هي وسط اليونان بما في ذلك اتيكا وشرق البلوبونيز[٤٤] .

إن استقرار السلاف في شبه جزيرة البلقان لايعني القضاء على السكان الأصليين، وبالرغم من الفيض السلافي فإن اليونان حافظت على شرق البلوبونيز ووسط اليونان بما في ذلك أتيكا وهي المنطقة التي عرفت بأنها ثيم هيلاس في التاريخ ٦٩٥م ، كما حافظوا على بقائهم في الجزر . والمناطق التي كانت تحت القبضة البيزنطية هي كالتالي : البلوبونيز في Monemvasia والجنوب وكورنتة في الشمال وفي وسط اليونان اثينا ، وفي الشمال سالونيكا .وتلك الأماكن بما فيها سالونيكا، خدمت كمراكز مصالحة وامتصاص وهلينة للسلاف في اليونان . أما سالونيكا، بصفة خاصة ، فيمكن أن يطلق عليها صفة المنقذ والمخلص لليونان من السلاف لأنها هي الأرض التي تعرضت وتحملت هجوم السلاف المتكرر خلال القرنين السادس والسابع . ولولا صمودها فلربما وقعت اليونان كلها في أيدي السلاف[٤٥].

إن تسرب السلاف الى منطقة البلقان قد أثر أيضا في السلالة البشرية لمنطقة صقلية وجنوب ايطاليا ، حيث لاحظ الباحثون انه حوالي سنة ٦٠٠م كانت صقلية تحتوي على عناصر لاتينية كبيرة. وبحلول سنة ٦٥٠م أصبحت صقلية يونانية في ثقافتها ولغتها وفي المذهب الديني الذي اعتنقته وتفسير ذلك هو هجرة عدد كبير من العناصر الناطقة باللغة اليونانية إليها، والتي هاجرت من سوريا ومصر نتيجة للحروب الفارسية أولا والفتوح الإسلامية ثانيا . ويبدو أن ذلك التغيير أو بداية الهجرات إلى صقلية يعود عهدها إلى زمن الامبراطور موريس في وقت الغزو السلافي الافاري على البلوبونيز، ومن المحتمل أن عدد كبيرا من أهالي البلوبونيز في صقلية، كما أن عددا كبيرا من اليونانيين ، من مناطق Epirus

(٤٤) Charanis, Ethnic Changes , p. 40.

(٤٥) Idem, p. 41.

ووسط اليونان وغرب البلوبونيز ، هاجروا إلى صقلية في ذلك الوقت . وبما أن السلاف قد احتلوا غرب البلوبونيز فإن أهل تلك المنطقة لم يجدوا ملجأ أقرب من جزيرة صقلية وايطاليا ، ولانه لا يوجد دليل قاطع على أن معظم أو كل المتحدثين باليونانية والذين استقروا في صقلية جاءوا من اليونان خلال الغزو السلافي الآفاري في القرن السادس وربما بعد ذلك . فإن ما ذكر عبارة عن احتمالات وترجيحات.

لقد تركت تلك التغييرات بصماتها أيضا على ايطاليا حيث زادت نسبة السكان الناطقين باللغة اليونانية ، وبرز وجودهم خلال القرنين السابع والثامن حيث نجد ان الباباوات الذين عينوا في الفترة ما بين ٦٧٨-٧٥٢ م كان إثنا عشر واحدا منهم يتحدثون باللغة اليونانية[٤٦].

وفي رأي Paul lemere أن التغيير الهام الذي طرأ على الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع لم يكن التحول في الأنظمة أو استحداث نظام الثيمات، وانما كان الحدث الأكبر هو مجيء السلاف بأعداد غفيرة ، ونقلوا بأعداد كثيفة إلى أسيا الصغرى وأعادوا إعمار مناطق الامبراطورية التي افرغت من سكانها ، فهذه ثورة ديموغرافيه بحق ترتب عليها نتائج بعيدة المدى ، فبعد اقفار بعض ولايات الامبراطورية من سكانها تدفق عليها فيض من المزارعين . ولم يقتصر تأثيرهم على إعادة إعمار البلقان وشبه جزيرة اليونان . بل إن عددا كبيرا من السلاف نقلوا من آسيا الصغرى مما أحدث انقلابا في النظام الداخلي للامبراطورية . فأثيرت من جديد المشاكل الزراعية والعسكرية وامداد الجيش بالجنود والأوضاع العامة للاقتصاد البيزنطي . وكان في مواجهة هذه المشاكل الحلول السعيدة لبيزنطة[٤٧].

وأهم نقطة في عملية نقل السكان السلاف التي دأب عليها الأباطرة البيزنطيون هو الاستفادة منهم في تعمير الأماكن المهجورة والدفاع عنها . إذن لابد ان السلاف كانوا مزارعين مهرة وفي نفس الوقت كانوا محاربيين أكفاء ، وهنا يكمن سر نقلهم والاصرار عليه. كانت جزيرة قبرص احدى المناطق التي استخدمت لتوطين سكان نقلوا إليها ليس من قبل الامبراطورية البيزنطية فحسب ، بل أيضا من قبل الدولة الاسلامية. وبما ان قبرص في النصف الثاني من القرن السابع لم تكن تابعة لأي

---

(٤٦) Idem, p. 43.

(٤٧) P. lemerle, "les repercussions de la l'empire orient au vile siecle sur les pays d'occi dent in settimane di studio del centro itabiano di studi sull'alto medioevo v. caratteri del secolo VII in accidente, (spoleto, 1958), p. 719.

من القوتين البيزنطية أو الاسلامية وانما كانت تقوم بدفع جزية للطرفين يتقاسمانها بالتساوي[٤٨]. فإنها كانت مكاناً مناسباً كمنفى أو ملجأ للفارين من الطرفينالإسلامي والبيزنطي وكانت أيضا عرضة لتهجير أو نقل السكان منها إلى مناطق أخرى داخل الامبراطورية .

ومن ناحية المسلمين يروي البلاذري أنه سنة اثنتين وثلاثين هجريا غزا معاوية قبرص وفتحها عنوة .. وبعث إليها بإثنى عشر ألف كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد ، ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة[٤٩].

وكان البيزنطيون قد استخدموها كمستعمرة عسكرية وذلك منذ ٥٧٨م عندما قبض الامبراطور موريس على جماعة من القبادوقين ، والقادة الأرمن في أرزانينا Arzanena في أرمينيا العظمى، والذين أرسل بهم إلى قبرص ووزعهم على مدنها وقراها[٥٠].

وبعد حصار المسلمين الأول للقسطنطينية (٦٦٣-٦٧٧م) ونتيجة للصراع العسكري بينهم وبين البزنطيين وغزوات المسلمين لآسيا الصغرى وخاصة الغارات الأخيرة التي شنوها على cysicus كيزكيوس وجانب كبير من منطقة بيثينيا Bi-thynia فقد هجر السكان مواطنهم في هاتين المنطقتين ، وترتب على ذلك أن العاصمة نفسها أصبحت عرضة لأي هجوم يأتي من نواحي آسيا الصغرى ، لذا كان من الضروري أن تبذل الامبراطورية قصارى جهدها لتزيد من عدد السكان في تلك المناطق وتعميرها وتجعلهم ينتعشون اقتصاديا من جديد فيكون في استطاعتهم دعم الدفاع عن العاصمة . ولقد رأينا كيف عمرت منطقة بثينيا، التي كانت تابعة لثيم الأبيسق Opsikion، بالسلاف الذين وقعوا في الأسر خلال الحملة التي قام بها

---

(٤٨) البلاذري ، المصدر نفسه ص١٥٨.
أيضا: Jenkens, **Cyprys between Byzantium and Islam** A.D.688-965. in studies presented to M.Robinson Vol. 11, (1953) طبقا لاتفاق engraphos Asphosalia عقد في عام ٦٨٩م بين عبد الملك بن مروان والامبراطور جستنيان الثاني يقضي بأن يتقاسم الطرفان دخل قبرص وارمينبا وايبريا بالتساوي أنظر : Constantin Porphyrogentius, De Administrando Imperio p. 94.
قام على نشر هذا الكتاب Jenkins - Moravesik وقام بنقله من هذه النشرة إلى العربية محمود سعيد عمران تحت عنوان . إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قنسطنطين السابع يورفيروجنتيوس ، وقد اورد عمران حاشية(٣) ص٨٥ ماورواه كل من البلازري في فتوح البلدان والطبري عن هذه الاتفاقية :
(٤٩) البلاذري المصدر نفسه ص ١٥٨
(٥٠) C.P. Kyrris, **military Colonies in Cyprus** in : Byzantions avica revue Internationale Des Etudes Byzantinees Tome xxx, (1970) Fase. 2 p. 157.

جستنيان الثاني سنة ٦٨٨م على كل من تراقيا وسالونيكا ، وبعناصر انضمت برغبتها في الجيش (٥١).

وقد اكتشف ختم يعود لهذه الفترة قام المؤرخ الروسي Pancenko بوصفه وتحليله بالتفصيل، ويخص ذلك الختم المندوب الامبراطوري الذي وضعت تحت ادارته المستوطنات السلافية في بيثينيا. وقد نقش على وجه الختم عبارة: من "القناصل" وصورة الامبراطور جستنيان (الثاني) عندما كان صغيرا. IND (= Indiction) وهي الفترة (الخمسعشرية). وعلى الوجه الآخر (خاص بعبيد السكلاف Sclavs لمنطقة بثينيا) . ويرى ستراتوس أن هذا الختم من أغرب الأختام المكتشفة . وأثار تاريخه مناقشات بين المؤرخين فبعضهم يجعله سنه ٦٥٠م والبعض الآخر سنة ٧١٠ . أما التاريخ المقبول الآن فهو سنة ٦٩٥ (5th Indiction) وهذا الختم يثبت أن ثيوفانيس كان مخطئا عندما كتب أن كل السلاف قد ذبحوا(٥٢) بعد انضمام بعضهم إلى صفوف المسلمين في معركة القراطيس والدنانير والتي حدثت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٦٩٢م (٥٣) .

أما بالنسبة لاعادة تعمير منطقة كيزيكوس فقد تقرر أن ينقل بعض القبارصة إليها، وتوطينهم بها في السنة السادسة من عمر جستنيان الثاني (٦٩٠-٦٩١م) وأن عملية النقل كانت قبل مجمع ترولو الديني والدليل على ذلك أن القرار رقم ٣٩ الذي أصدره المؤتمر أقر بأن حقوق عاصمة قبرص (أو مطران) تخص أو تابعة للمدينة الجديدة جستنيانوبولس Justinianoupolis وهي المدينة التي انشأت من اجل ايواء المستوطنين القبارصة(٥٤) .

ويقول ستراتوس أن المعلومات التي أوردها ثيوفانيس خلال عملية نقل السكان القبارصة انهم قد غرقوا أو ماتوا نتيجة انتشار الوباء فهي معلومات خاطئة. فإذا كان ذلك قد حدث فلا يوجد سبب لإنشاء المدينة الجديدة . وأكثر من ذلك فقد ورد انه في وقت لاحق وبعد عقد معاهدة أو اتفاق عاد القبارصة الى قبرص. فإذا كانوا قد غرقوا في البحر فكيف يعودون ويظهرون مرة ثانية (٥٥)؟

---

(٥١) Theophanes, Ibid, 364, Stratos. Ibid Vol. 5 p. 60.n. 254.

(٥٢) Stratos, Ibid, Vol 5, P. 60.n. 246.
من اقدم مصادر الاختام ولايزال مصدر يعتمد عليه
S.Schlumberger, **Sigillogrophie de L'Empire Bzyantin**, (Paris 1884).

(٥٣) Theophanes, Ibid 366.

(٥٤) Stratos, Ibid, Vol 5, P. 61.

(٥٥) Stratos, Ibid, Vol 5, P. 61.

وقد ذكر قسطنطين السابع[٥٦] أنه عندما سيطر المسلمون على جزيرة قبرص ظلت الجزيرة مهجورة وخالية من السكان لمدة سبع سنوات، وبعدها أتى رئيس الأساقفة مع قومه إلى القسطنطينية. وفي المجمع المقدس السادس، مجمع تروللو. أصدر الامبراطور جستنيان الثاني قراراً جاء فيه أن تكون ليوحنا وأهالي جزيرة قبرص مدينة كيزيكوس وتكون له سلطة تعيين الاساقفة والايتدخل احد للحد من سلطة وحقوق أهل قبرص والتي تخص سكان المدينة الجديدة[٥٧].

ويذكر قسطنطين السابع أنه بعد ذلك بسنوات تحمس الأمبراطور لتعمير قبرص وإعادة أهلها إليها . فأرسل إلى أمير المؤمنين - يذكر قسطنطين أن أمير المؤمنين في بغداد - وبما أن ذلك حدث في عهد جستنيان الثاني ، فهنا يجب أن يكون أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان وان عاصمته دمشق وليست بغداد - وقد أرسل ثلاثة من القبارصة البارزين حاملين معهم رسالة يطلب فيها الامبراطور من أمير المؤمنين أن يسمح لأهالي قبرص ، المقيمين في سوريا ، بالعودة إلى جزيرتهم . وقد وافق أمير المؤمنين على ذلك الطلب كما قام الامبراطور من جانبه بإرسال مندوب لجمع القبارصة الذين استقروا في أرض الروم ، أي في مناطق كيزيكوس Cysicus وتراقيا Thrakian وارسالهم إلى قبرص[٥٨].

وان كان بيوري وشعيرة ينسبان إعادة تعمير قبرص إلى تيبريوس الثاني (٦٩٨ـ٧٠٥) وأنه هو الذي أرسل النبلاء إلى أمير المؤمنين في دمشق. وذلك لأن قنسطنطين، في كتابه أشار إلى إعادة تعمير قبرص تم بعد سنوات من الجلاء عنها أي أن ذلك حدث في عام ٦٩٨م وقد نحا شعيرة نفس هذا المنحى . ويشير السلوك الإنساني الذي وضح في موافقة عبدالملك على إرسال الأسرى القبارصة المقيمين في سوريا[٥٩].

والأفضل أن يكون اسم هذا الامبراطور (تيبيريوس الثاني وليس الثالث كما أعتاد بعض المؤرخين ، مثل بيوري وشعيرة ، تلقيبه بالثالث) ولعل أهم عملية نقل للسكان، حدثت في القرن السابع الميلادي، كانت عملية نقل المردة .

والمردة هم المتمردون أو المرتدون أو قطاع الطرق[٦٠]. ويقال أن السوريين أطلقوا

(٥٦) عمران ، المرجع السابق ص ١٧٩-١٨٢.

من الطريف ان القبارصة يرون ان جستنيان كان قبرصيا .

(٥٧) المرجع نفسه ص ١٧٩ - ١٨٢.

(٥٨) المرجع نفسه ص ١٨٠ حاشيه (١) ، (٢).

(٥٩) Bury Ibid Nol. 2 P. 356 M.A cheira (la Lutte ent Arabes et Byzantins (Alexandrie 1947) P 208.

(٦٠) Bar Hebraeu, The Chronography, English trans- (Amesterdam) P. 101.

عليهم أسم الوقحين ، وأن الكلمة الفارسية Merd والتي سموهم بها تعني الرجل الشجاع(٦١) اما البلاذري فيطلق عليهم اسم الجراجمة نسبة إلى مدينة جرجومة (٦٢) وعندما فتح المسلمون أنطاكية لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم .. ولم ينتبه المسلمون لهم .. وعندما تولى حبيب بن مسلمة الفهري انطاكية غزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم طلبوا الأمان والصلح على أن يكونوا أعوانا للمسلمين. ولكنهم لم يستقيموا على عهدهم فكانوا يكاتبون الروم ويمالقونهم .

وهم أقوام غير معروف أصلهم العرقي أو الجنسي. وصفهم كرانيس بأنهم مسيحيون من جنس غير معروف(*) وقد شغل المردة المنطقة ما بين جبال الأمانوس Amanus (٦٣) وحتى مدينة القدس وتحكموا في جبال لبنان . ولقد انضم إليهم الكثير من العبيد وسكان المنطقة المسيحيون وأصبحوا آلافاً مؤلفة. ولذلك خاف منهم معاوية وأرسل السفراء إلى بيزنطة طلبا للسلام(٦٤).

وحينما تولى عبدالملك بن مروان ٦٥-٨٦ هـ / ٦٨٥-٧٠٥ م كانت الأمور الداخلية بالنسبة للدولة الإسلامية مازالت مضطربة، فأضطر أن يهادن الروم وأن يدفع جزية سنوية. وعقدت تلك الهدنة في سنة ٦٥ هـ /٦٨٥ م . وبينما كان عبدالملك يتأهب للذهاب إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير، خرج الروم إلى جبل اللكام ثم لبنان، ثم إنضم إليهم جماعة كثيرة من الجراجمة والأنباط والعبيد الآبقين. فاضطر عبدالملك إلى أن يصالحهم على ألف دينار يدفعها لهم كل جمعة وأقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق(٦٥) ودخل في مفاوضات مع الأمبراطور جستنيان الثاني لتجديد المعاهدة السابقة معه، وأضاف اليها شرطا جديدا ألا وهو إبعاد الجراجمة، (المردة)، عن مناطق التخوم الاسلامية، وبالرغم من أهمية نقل

(٦١) Vasilieve , Ibid , P. 140 .
ايضا : Stratos , Ibid , Vol. 4, P. 40.

(٦٢) وجرجومة مدينة على جبل اللكام . وجبل اللكام او الجبال السوداء أو جبال اللكام كما يطلق عليها البلاذرى هو الجبل المشرف على انطاكية والمصيصة وطرطوس وباقي الثغور الشامية . لمزيد من التفاصيل انظر الحموي، معجم البلدان - دار الكتاب العربي - بيروت ج ٥ ص ٢٢.

(٦٣) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٦٣ -١٦٤.

(*) في حين أن ابن العبري يذكر انهم كانوا من أصول يونانية، أنظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،ص ١٠١.

(٦٤) Theophanes , 355, Stratos , Ibid . Vol. 4, P 40,n 173-175.
Charanis , The Transfer etc., P. 143 , Haldon, Ibid, P. 64, 71

(٦٥) البلاذري - المصدر نفسه ص ١٦٤
أيضا : الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ٦، ص ١٥٠.
ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣١٣.
Bar Hebraeu . Ibid P. 103.

المردة بالنسبة للمسلمين إلا أن المصادر الاسلامية لم تبد حماسا أو ابتهاجا لهذا الموضوع، أو حتى تعليقا على الموضوع . فنجد أن اليعقوبي الذي أهتم بذكر المعاهدات التي تصمت عن ذكرها المصادر الأخرى . يشير إلى معاهدة عبدالملك مع جستنيان ولا نجد له أي تعليق على تلك المصالحة سواء كانت في صالح العرب أم في غير صالحهم[٦٦] كذلك البلاذري يشير إلى المعاهدة ويصمت عن التعليق[٦٧] . كما يشيرالطبري إلى الموضوع اشارة مختصرة[٦٨] وينقل ابن كثير رواية الطبري نقلا حرفيا ويزيد عليه ذكر وباء مصر[٦٩].

واهتمت المصادر البيزنطية القديمة والمراجع الحديثة اهتماما بالغا بالحديث عن هذا الموضوع حيث يشعر بشيء من الحرارة في تعليقاتهم فنجد أن ثيوفانيس في أحداث سنة ٦٨٧م يقول : لقد بعثر جستنيان إثنى عشر ألفا من المردة في رومانيا (آسيا الصغرى) وانه بعد نقل أولئك المردة قاست رومانيا كل أنواع المقاساة على يد العرب حتى يومنا هذا[٧٠] ويعلق بيوري على عملية النقل تلك بأن جستنيان قد بتر القوة الرومانية بإزالة الحائط النحاسي ألا وهو المردة[٧١] ويضيف فازلييف أن المردة كونوا حائطا نحاسيا حمى آسيا الصغرى من هجمات العرب، وبمعاهدة السلام التي وافق عليها جستنيان واجبار المردة على الاستقرار داخل حدود الامبراطورية، أدى إلى تقوية تحركات العرب في عمق آسيا الصغرى . ويرفض فازيلييف الرأي الذي يقول أن السبب وراء نقل المردة كان سببا دينيا . لأنه يكمن وراء عملية النقل تلك سبب سياسي بحت[٧٢] وينظر Foord إلى الموضوع على انه سلاح ذو حدين ، فهو من جهة كسب محاربين انخرطوا في الجيش الروماني وهم اثنا عشر ألفا من المردة ، بالإضافة إلى السوريين الذين انتهزوا فرصة وجود الجيش الروماني ليهاجروا بمرافقة قوات الأمبراطورية، والحد الثاني هو الهجرات الاجبارية التي فرضها جستنيان الثاني في عملية نقل السكان قد تمت بصعوبة بالغة وبتكاليف مادية كبيرة، وربما كلفت البعض حياتهم[٧٣] ويتفق Brook معه في الرأي حيث يقول: إن جستنيان

(٦٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩٦.
(٦٧) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٦٤.
(٦٨) الطبري، المصدر نفسه ج ٦ ص ١٥٠
(٦٩) ابن كثير : المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣١٣.
(٧٠) Theohanes , Ibid , 364.
(٧١) Bury , Ibid , Vol. 2, P. 321.
(٧٢) Vasilieve, Ibid Vol. 1, P. 115.
(٧٣) Foord, **The Byzantine Empire**, P. 140.

استفاد من إثنى عشر ألفا من المردة الذين فرقهم في أنحاء امبراطوريته. وربما كانت تلك الخطوة قد زادت قوته الحربية، ولكن ربما تكون تلك القوات ذات فائدة أكبر لو بقيت ضمن حدود الخلافة الاسلامية(٧٤) أما هسي فهي من محبذي عملية نقل السكان بصفة عامة حيث تقول: ان جستنيان استمر يغذي الامبراطورية بدماء جديدة عن طريق نقل جماعات كبيرة من منطقة لأخرى(٧٥) كذلك يأسف ستراتوس Stratos على نقل المردة والذين وصفهم على أنهم شوكة في لحم السلطة الاسلامية في شمال سوريا ولبنان(٧٦).

أما الأماكن التي نقل إليها المردة كما أوردها بيوري (٧٧) هي : رومانيا وتراقيا واسيا الصغرى والبعض أنضم إلى الجيش الروماني . ويحدد البعض الأخر الأماكن التي استقر فيها المردة في Attaleia أضاليا في منطقة ثيم كبير اهايوت الذي أسس هناك فيما بعد . وفي الشاطيء الشمالي لأسيا الصغري ، ويضيف بيوري أن ذلك تم في عهد الأمبراطور تبوريوس Tiberius في Mani في البلوبونيز وجزء في Nicopolis في Epirus كما نقل جزءاً من أولئك المردة إلى جزيرة قبرص ويقال أن نقل المردة إلى قبرص الذي تم عن طريق Attalia كان بوصفهم قوة مقاتلة للدفاع عن قبرص(٧٨). وعن طريق الأستدلال باللغة والفلكلور والأغاني فإن المردة من الممكن أن يكونوا أجداد الطائفة المارونية في قبرص (٧٩) . وكذلك خضع الأرمن لعملية نقل إلى قبرص منذ عام ٥٩١م وحتى القرن الثاني عشر سنة ١١٣٦م (٨٠) وأن عملية نقل السكان من منطقة إلى أخرى، وعملية استقرار آخرين ، تعتبر واحدة من العوامل التي جعلت الامبراطورية البيزنطية كيانا مكونا من عديد من الجنسيات واكتسب هذا العمل صفة السياسة التقليدية التي التزمت بها الدولة

---

(٧٤) Brook, **The Successors Of Heraclius to . 717**. in C.M.H Vol 2. P. 409.
هيسى : العالم البيزنطي . ترجمة . رأفت عبدالحميد ص ١٢٦ .
(٧٥) Stratos , Ibid, Vol V. 4 P. 39.
ايضا Haldon, Ibid, P. 71.
(٧٦) Bury , Ibid , Vol 2 P. 321.
(٧٧) Bury , Ibid , Vol 2 P . 323.
أيضا : Stratos , Ibid , vol . 4 P . 39.
Haldon , Ibid P . 24.
(٧٨) C . P . Kyrris , Military Colonies in Cyprus , P . 174.
(٧٩) C. P . Kyrris , Ibid , P . 175.
أيضا : Charanis , ibid , P . 143.
(٨٠) C.P. Kyrris, Ibid, P. 159.

طوال تلك حياتها[٨١]. وروعي في ذلك مصلحة الدولة . فوراء نقل مجموعة من الناس من منطقة إلى أخرى ضمن حدود الأمبراطورية، وقبول استقرار جماعة من المتبربرين، داخل حدودها، تكمن وراءه الدوافع العسكرية. ويفسر هذا عمليات النقل السكاني التي قام بها كل من موريس وجستنيان الثاني بل وباسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥)في القرن العاشر، ونجد أن السبب الكامن وراء عمليات النقل تلك أن الدولة كانت في حاجة إلى جيش مقيم في بعض الولايات. وعملية الاستقرار لمجموعات جديدة هي التي جعلت الامبراطورية قادرة على إعادة تنظيم جيشها والصمود أمام مشاكل القرنين السابع والثامن . ثم تتحول من الدفاع إلى الهجوم بعد ذلك.

ويبرز العامل الاقتصادي كنتيجة للهدف العسكري من ذلأ ان المؤرخ Evagri-us[٨٢] يقول عن عملية نقل عشرة آلاف من الأرمن في عام ٥٧٨م إلى قبرص أن تلك الارض التي لم تكن قد حرثت من قبل، أعيد زراعتها. وسبب ثالث لنقل السكان هو استرداد الأماكن التي إحتلها البرابرة. فعملية النقل السكاني التي قام بها الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١) على سبيل المثال، وضعت أساس ذوبان السلاف في منطقة اليونان .

واخيرا يأتي السبب الديني، وراء عملية نقل السكان ، هدفه التخلص من الهراطقة في بعض الأماكن[٨٣] ويصف ثيوفانيس الضغوط التي مارسها الامبراطور نقفور، عندما أصدر أوامره بنقل المسيحين من جميع أنحاء الامبراطورية إلى مناطق السلاف، بأنها أشد قسوة من السجن . وقد أشار إلى بعض الذين حكم عليهم بالهجرة بأنهم بكوا على قبور آبائهم واعتبروا أن الأموات في حال أفضل من الأحياء . وأن البعض فضلوا شنق أنفسهم على ترك الأرض التي ولدوا عليها[٨٤] .

وهناك سبب آخير وهو السبب السياسي الذي تجلى في سياسة نقل المردة وذلك حسب الاتفاقية بين المسلمين والبيزنطين ، والنقل هنا لا ينظر إليه من وجهة النظر العسكرية أو الاقتصاديه ولكن أعتقد زن يوخذ من وجهة النظر السياسية البحته ، وإن كان قد ترتب على هذا العمل تحقيق أهداف عسكرية لبيزنطة كما سبق وأن

(٨١) Charanis, The Transfer of Population . P. 144 Ostrogorsy , Byzantium in the world

(٨٢) Evaganius, **Scholasticus** (see Charanis P. 150 n: 82)

(٨٣) Charanis , The Transfer ... P. 150

(٨٤) Theophanes , Ibid . 348

وهناك سبب أخير وهو السبب السياسي الذي تجلى في سياسة نقل المردة وذلك حسب الاتفاقية بين المسلمين والبيزنطين، والنقل هنا لا ينظر إليه من وجهة النظر العسكرية أو الاقتصاديه ولكن أعتقد أنه يؤخذ من وجهة النظر السياسية البحته، وإن كان قد ترتب على هذا العمل تحقيق أهداف عسكرية لبيزنطة كما سبق وأن أسلفنا.

والطريف أن ثيوفانيس يقول عن أحداث أول سبتمبر ٣١/٦٦٣ أغسطس ٦٦٤م[٨٥] أن العرب أستولوا على جانب من صقلية ونقلوا شعبها طبقا لرغبتهم إلى دمشق . ويذكر أيضا في أحداث السنة التالية أن عبدالرحمن بن خالد عند إغارته على أراضي بيزنطة (رومانيا) أنضم إليه السلاف وحمل معه إلى سوريا خمسة آلاف منهم وطنهم في قرية Seleukobolos بالقرب من أباميا وهذا يعني أن العرب أيضا انتهجوا سياسة نقل السكان من منطقة ما وتوطينهم في مناطق أخرى.

المدن ودورها في النشاط الاقتصادي :

يتوزع النشاط الاقتصادي للامبراطورية البيزنطية بين سكان المدن وبين أهل الريف. وفيما يخص المدينة البيزنطية ، يرى هالدون انه في ضوء دراسات ظهرت في السنوات الثلاثين أو الخمسين التي خلت عن طبيعة المدينة ووظيفتها في القرن السابع ، برزت وجهتا نظر متعارضتان بشأنها ، ووجهة النظر الأولى تمثل رد فعل لآراء كانت تتردد حتى الخمسينات وتقول أن القرن السابع شاهد تدهورا يكاد يكون كاملا، لنظام المدينة الحضرى والحياة الريفية[٨٦]. ويرى أصحاب هذا الرأي أن المصادر الاثرية تدل على عدم توفر العملات البرونزية والنحاسية الصغيرة في النصف الثاني من القرن السابع، مما ترتب عليه اختفاء التبادل في الاسواق فكان في ذلك نهاية لعمل الأسواق في مدن الولايات[٨٧].

ووجهة النظر الثانية التي يعرضها اوستروجورسكي والمخالفة ، ان المدن استمرت في احتفاظها بهيئتها الطبيعية، وأن كان يرجح أن مجتمعها أنكمش وأنحصر في

---

(٨٥) Idem, 348.

(٨٦) يجب ملاحظة أن الغزوات العربية على الأمبراطورية البيزنطية بدأت في الثلاثينيات من القرن السابع – فمن المفروض هنا أن اختفاء المدن يكون بعد هذا التاريخ وليس في القرن السادس، هذا في حالة إرادة صاحب الرأي أعلاه تحميل الغارات الإسلامية وزر اختفاء المدن أو اضمحلالها.

(٨٧) Haldon , P. 93 n1.

والمرجع الاساسي عنده هو :

A kazdan , "**vizantliskie goroda** V VII - (X VV." Soviestskaya Archeologiya 21 (1954) , 164 - 188.

ووجهة النظر الثانية التي يعرضها اوستروجورسكي والمخالفة ، أن المدن استمرت في احتفاظها بهيئتها الطبيعية ، وإن كان يرجح أن مجتمعها أنكمش وأنحصر في قلاعها وحصونها نتيجة لهجمات الأعداء المستمرة. إلا أنها حافظت على دورها كمراكز للأسواق وقادرة على إستمرار نشاطها في مجالات التبادل التجاري وإنتاج السلع الصغيرة وكمراكز لـلادارة، ويستند استروجورسكي وأيضا لوبيز، أصحاب هذا الرأي، إلى المصادر الأدبية والأثرية التي تنهض دليلا على أن العمران أستمر في كثير من المواقع . ويستند هذا الرأي أيضا إلى توفر العملات الذهبية في مواقع كثيرة بصرف النظر عن حجمها أو أهميتها[٨٨].

ومن القائلين بتدهور المدن تماما بعد العقد الأول من القرن السابع، يعرض هالدون لرأي كلايف فوس Cliv Foss الذي يرى أنه من الأفضل الاعتماد على الشواهد الأثرية أكثر من الأعتماد على المصادر الأدبية المتناثرة. ويعزو فوس تدهور المدن إلى إغارات الفرس المدمرة واحتلالهم للأناضول ابتداء من عام ٦١٥م والذي انهى تماما نشاط مدن آسيا الصغرى[٨٩].

وفي رأي هالدون ان فوس يركز على مدن قد لا ينطبق عليها نمط المدن موضوع الدراسة ولا يتناسب مع بيئتها الاجتماعية والتاريخية ، وانه لم يعن العناية الكافية بتتبع مراحل التطور الطويلة التي مرت بها المدينة، والتغير الذي طرأ على وظائفها وهذه أمور لها أهميتها بالنسبة لموضوع هذه الدراسة، وذلك انه شديد الصلة بالنطاق الذي بنيت فيه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في العصر الروماني المتأخر.

وفي رأي هالدون أيضا أن النقطة المهمة في رأي فوس أن المدينة البيزنطية بحكم طبيعتها تختلف عن سابقتها المدينة الكلاسيكية إذ ليس لها نفس الدور سواء في البيئة الاجتماعية أو في كونها الجهاز الإداري للدولة . ويرى هالدون أنه من المحتم أن يستمر هذا النقاش (الخلاف في الآراء) بصرف النظر عن حدوث غزو من قبل الفرس او العرب لأن ما تعرض لـه كيان المدينة البيزنطية من تطور مس

---

(٨٨) S . Ostrogorsky, **Byzantine Citles**, D.O.P.131(1959) p.47-66.
أيضاً : S. Lopez , **The Role** of Trade , D . O . P . 131 (1959) 69 - 85.
ايضا : Haldon, **Some Consideration on Byzantine Society and economy** in **the Seventh cetury** B.F 10 (1985), 75 112 .

(٨٩) C.Foos, The **Persians in Asia Minor and The End of Antiquity**, EHR, English Historical Review, 90 (1975) 721-43.

كيانها، هو الذي يجب أن يفهم إذا كان لنا أن نتعرف إلى طبيعة ما حدث من تغيرات بدأت في القرنين الخامس والسادس وأثرت على الحياة في المدينة وفي الريف على حد سواء وإذا فهم هذا التصور فإن مسألة استمرار عمران المواقع الحضارية، والأسباب الصحيحة للتدمير المباشر الذي لحقها أحد الأسباب التي أدت إلى انكماشها، تصبح أقل أهمية ويمكن أن يرى من خلال هذا التطور أن كثيرا من النقاش الدائر بشأن استمرار حياة المدينة الذي يستند إلى شواهد من الآثار، والقائل بأن الأعمال العسكرية المعادية هي السبب في تدمير المدن يصبح مضللا وتصبح المسألة متعلقة بالأتجاهات الكامنة في بيئة المدينة في الفترة التي كانت تتطور فيها في ظل الدولة الرومانية في عصرها المتأخر وفي مجتمعها والتي حددت المدى الذي أثرت فيه الأحداث السياسية التي أشارت إليها المصادر الأدبية وقامت دليلا عليها شواهد أثرية لتدل أو لتنفي بتأثير تلك الأحداث على تطور المدن، ويرى هالدون أن هذه الأمور لا يمكن إنكارها.

ومن الصعب تحديد المدى الذي يفسر في نطاقه تدهور المدينة أو أستمرار الحياة فيها بعوامل ديموغرافية أو سكانية أو ما أصاب المدينة من أوبئة أو كل ذلك من العوامل، والجدير بالملاحظة أن اقفار موقع ما من السكان لم يكن سببا في تدهور المدينة وإن كان قد ترك أثره في وقت حدوثه[٩٠].

ومن ثم يبدو من المعقول توقع أستمرار الحياة في بعض المواقع في ظل الظروف التي سبق ذكرها حتى لو كان ذلك على نطاق أقل مما كان عليه الموقع من قبل، أو أن نتوقع هجر السكان لمدينة ما لأسباب معينة واحتفاظ مدن معينة بحدودها الأصلية ، وإن كان ذلك نادرا ما يحدث[٩١].

وبصفة عامة فإنه من المعقول جدا أن يتوقع استمرار الحياة في بعض المدن حتى وإن كان ذلك على نطاق ضيق ، وتوقفها في البعض الآخر كما وأن بقاء بعض المدن في حدودها الأصلية كان أمرا محتملا ، وإن كان نادرا ما يحدث، ويضرب هالدون مثلا بذلك بمدينة ايوختيا Euchaita في منطقة بونتوس، جنوب البحر الاسود، التي تعد استثناء استمرت في القرن السابع بالرغم من أن سكانها وهيئة رجال الدين اضطروا أمام إغارات العرب إلى الاحتماء بقلعة المدينة، أو المنطقة

(٩٠) Haldon , Ibid , P. 95 6.

(٩١) يضرب هالدون امثلة لبعض المدن التي بالرغم مما احاط بها من خطر غزو خارجي واضطرار سكانها ورجال الدين الى الفرار منها إلا انها استمرت
Idem, P.98

المحصنة، التي تضم الاكروبوليس وكانت هذه المدينة مقر القديس ثيودوريترو، فكانت تجتذب الحجاج، وارتبط ذلك بمعجزات شاعت في آواخر القرن السابع وفي القرن الثامن، ولكنها تعكس ما عانت منه المدينة من الغزوات العربية وخطورة الوضع الأمني بها. ولكنها، كونها مركزا دينيا كان سببا في استمرارها وبقاء سكانها، ولو نسبيا، ولكن هالدون يبين أن استثناء من هذا النوع من المدن، لا يجعلنا نرفض النظرية الأساسية أن الوضع البنيوي والوظيفي للمدينة في نطاق العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسود الامبراطورية الرومانية في عصورها المتأخرة كان يتغير وغير ثابت وكانت هذه التغيرات في وظيفتها تكمن في أساس أي تطور سواء أكان في اتجاه التدهور أو في اتجاه الاستمرار في تاريخ المدينة في القرن السابع وأوائل القرن الثامن.

وفي آواخر القرن السادس تنهض الأدلة شاهدا قويا على فقد المدن لاستقلالها المالي والاقتصادي والسياسي وزادت هيمنة الدولة عليها إلى حد كبير. وصارت الادارة والسلطة التشريعية في كل مدينة في يد الأساقفة ورجال الدين، وأكثر ملاك الأراضي ثراء وبعض موظفي الادارة المالية الامبراطورية، وبعض أعضاء المجالس المحلية Curales، الذين كانت أهميتهم قد تضاءلت نسبيا. وكان من الطبيعي أن يستمر وجود أعضاء المجالس هؤلاء في كثير من المدن ولكن الاتجاه الذي ساد هو انتقال الأشراف على الموارد المحلية والنفقات العامة إلى موظفي الامبراطور الماليين وكان هؤلاء يتحكمون فيها أحيانا تحكما مطلقا. وان كانت بعض المدن قد احتفظت بقدر معين من حريتها وهى المدن التي عرفت برخائها وثرائها كالاسكندرية وأنطاكية وافسوس حيث التجار وملاك الأراضي والأغنياء يستثمرون أموالهم في التجارة البحرية، أو بعض المدن التي كانت بعض الشخصيات البارزة تحرص على رضائها وثرائها.

ومن المهم أن نلحظ التحول الواضح في وظيفة المدن من مدن كانت تحكم نفسها وتدير شؤونها الاقتصادية بنفسها وتعمل لحسابها ولحساب الدولة ماليا وادرايا إلى مجرد مراكز حضارية تابعة ليس لها أي دور في نظام الادارة المالية الامبراطورية بل وفقدت أيضا وجودها الاقتصادي المستقل، وكان للمدن في أوائل القرن السابع حرية اسمية واستمرت لتكون مقرا يمارس منه موظفو الولايات وظائفهم الادارية وانطبق نفس الوضع بالنسبة للكنائس(٩٢).

(٩٢) Idem P. 98 f .

في حين ناقش أوستروجورسكي فكرة كازدان Kazdan [٩٣] التي تقول باضمحلال المدن البيزنطية من القرن السابع وحتى القرن العاشر. ويفند الفكرة التي استند إليها Kazdan والذي استعان بكتالوجات النقود البيزنطية في المتحف البريطاني حيث حاول Kazdan الخروج بالاحصائيه التاليه وهي :

من سنة ٤٩١ - ٦٠٢م توجد ١٣٤٩ قطعة بمعدل ١٢,٣ قطعة / السنة

من سنة ٦٠٢ - ٦٨٥م توجد ١١٣٤ قطعة بمعدل ١٣,٧ قطعة / السنة

من سنة ٦٨٥ - ٨٢٩م توجد ٤٢٣ قطعة بمعدل ٢,٩ قطعة / السنة

وبناء على تلك الاحصائية لاحظ انه منذ نهاية القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن ظهر انخفاض واضح قوي في إصدار النقود، كما لاحظ أن هناك نقصاً حاداً في عدد قطع العملة المتداولة من النقود في المدن اليونانية وعلى وجه الخصوص أثينا وكورنثة. وبالذات في قطع العملة المؤرخة في السنوات منذ منتصف القرن السابع وما بعدها . ولا تبدأ الزيادة في كورنثا قبل منتصف القرن التاسع، وليس قبل النصف الثاني من القرن العاشر في أثينا. ومن جهة أخرى فقد وجدت دراسات أخرى على النقود التي وجدت في آسيا الصغرى في كل من المدن التالية: Priene وساراديس Sardis وبرجامة Pergamum. وقد كان ضمن النقود الموجودة عدد كبير من القطع المضروبة في القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع[٩٤].

ولا يرى اوستروجورسكي الاعتماد على دراسة العملات فهي مجرد شواهد ثانوية[٩٥].

ونحن نؤيد رأي أوستروجورسكي هذا لأن الثروة المدفونة التي كشفت عنها الحفريات ربما كانت خبيئة لاشخاص أثرياء قاموا بدفن ثرواتهم وان هذه الثروة شخصية ولا تمثل معيارا لاستمرار ازدهار المدن من عدمها . ولكن الثروة المدفونة في الأرض قد تكون ثروة منقولة من مكان آخر وليس بالضرورة أن تكون من نفس المكان الذي دفنت فيه. وذلك أن الفترة الزمنية المشار إليها إنما تمثل فترة هجرة سكانية وإعادة تعمير، ومن المحتمل أن السكان المهاجرين أو الذين حملتهم الدولة على الهجرة قد حملوا ثرواتهم وأخفوها بدفنها، أو إنهم قاموا بذلك حتى قبل مغادرة المكان الذي هاجروا منه خوفا على ثرواتهم من النهب والسلب. وهذا

(٩٣) A. Kazdan , Vizantijskie gorda, 164 - 188.

(٩٤) Kazdan , Ibid ,P . 166.

(٩٥) Ostrogorsky , Ibid. P. 48.

التفسير لوجود ثروات مدفونة من العملات . ولا يعد وجود هذه الخبيئات دليلا ماديا على ثراء المنطقة وازدهارها . أو توافر العملة أو نقص تداولها .

وينعي اوستروجورسكي نقطة مهمة على كازدان Kazdan انه لم يلحظ أن النقص في إصدار العملات اقتصر على العملة البرونزية منها وقام اوستروجورسكي بعمل احصائية مماثلة على النقود البيزنطية الذهبية والواردة في كتالوج Wroth والذي خرج من تلك الاحصائية بنتيجة مختلفة تماما عن نتيجة كازدان . والاحصائية هي كالتالي :

من سنة ٤٩١ - ٦١٠م يوجد ١٩٧ قطعة بمعدل ١,٦٦ قطعة / سنة
من سنة ٦١٠ - ٧١١م يوجد ٣٨٠ قطعة بمعدل ٣,٧٦ قطعة / سنة
من سنة ٧١١ - ٨٠٢م يوجد ١٤٩ قطعة بمعدل ١,٦٤ قطعة / سنة
من سنة ٨٠٢ - ٩١٢م يوجد ٩٥ قطعة بمعدل ٠,٨٦ قطعة / سنة

وبمقارنة هذه الاحصائيات بما ورد في كتالوج Tolstoy

من سنة ٣٩٥ - ٤٩١م يوجد ٢٥٠ قطعة بمعدل ٢,٦٠ قطعة / سنة
من سنة ٤٩١ - ٦١٠م يوجد ٢٤١ قطعة بمعدل ١,٨٧ قطعة / سنة
من سنة ٦١٠ - ٧١١م يوجد ٥٩٥ قطعة بمعدل ٥,٨٩ قطعة / سنة
من سنة ٧١١ - ٨٠٢م يوجد ٢١٣ قطعة بمعدل ٢,٣٤ قطعة / سنة

وبناء على ذلك ونتيجة لهذه الاحصائيات فإن العملة الذهبية الصادرة في القرن السابع لم تختف بل زادت . ويضيف أوستروجورسكي أن البراهين المرتبطة بالنقود والتي يستند إليها للدلالة على مشكلة تطوير الحياة المدنية والاقتصادية لا يمكن الإستناد إليها إلا في تأكيد استمرارية الاقتصاد النقدي في بيزنطة[٩٦]. أما الشواهد التي يستند إليها، ويستدل بها على وجود المدن فهي قوائم الأسقفيات الموجودة في ذلك الوقت . ومن المعروف أن التنظيم الديني قام على نفس الأسس التي قام عليها النظام الاداري للامبراطورية والذي كان قد أسس على نظام المدينة اليونانية Polis. وقد انتشرت الأسقفيات في المدن الهامة فقط .

وقوائم المجامع الدينية التي تضم الأسقفيات عباره عن قوائم رسمية بأسماء الأساقفة الذين يمثلون أسقفيات المدن في المجمع الديني الذي عقد والذي عرف تاريخه. ويعرف عادة من تلك القوائم أسماء الأساقفة من توقيعاتهم على ما جاء

(٩٦) Ostrogorsky, Ibid , P. 50-52.

من قـرارات تلك المجـامع الدينيـة . وبناء عليـه فـإن هذه القـوائم تمثل مـصـدرا من المصادر الأولية الهامة، لاثبات وجود المدن وعدم اختفائها .

وبالنسبة لدراسة المدن البيزنطية في القرن السابع فإن لقوائم الاسقفيات للمجمع الديني المعقود سنة ٦٨٠م رالآخر المعقود سنة ٦٩٢م أهمية خاصة. فقد وقع على قرارات المجمع الأول ١٧٤ اسقفا. ووقع على قرارات المجمع الثاني حوالي ٢١١ أسقفا. والذي يمثل كل أسقف منهم مدينة تمثيلا دينيا. وهذه الأرقام دليل واضح تمكن من الوقوف في وجه من يفترض اختفاء المدن البيزنطية في القرن السابع . ولكن هذه القوائم لا تمثل جميع أو كل المدن الأسقفية الموجودة في ذلك الوقت[٩٧] .

وبالرجوع إلى حولية ثيوفانيس نجده يذكر أنه قد حضر مجمع سنة ٦٨٠م (٢٨٩) أسقفا[٩٨] وليس (١٧٤) أسقفا كما ورد لدى أوستروجورسكي : أما في أحداث سنتي ٦٩١ و ٦٩٢م لدى ثيوفانيس فلم يشر إلى عقد أي مؤتمر ديني. ولكن في هامش رقم ١٢٨ ص ١٠ يذكر المترجم[٩٩] أن هناك إشارة إلى مجمع Trulloاو Quinisectumi الذي عقد إما في سنة ٦٩١م أو ٦٩٢م ولم يذكر عدد الأساقفة الذين حضروا ذلك المؤتمر.

وبالاستناد إلى الأرقام التي توصل إليها اوستروجورسكي يقول : انه بعمل مقارنة بين القائمتين لعامي ٦٨٠م و ٦٩٢م مع القوائم السابقة للمؤتمرات الدينية تظهر أو تتبين التغييرات التي حدثت في الفترة المتوسطة، والتي تبين فارقا أساسيا وهو غياب أساقفة المناطق التي فقدتها الامبراطورية في النصف الأول من القرن السابع أو التي كانت السلطة البيزنطية معطلة فيها مثل البلقان[١٠٠] أما الأغلبية فقد جاءت من آسيا الصغرى[١٠١] وهذه الحقيقة لها أهميتها بصفة خاصة حيث انه منذ العصور البيزنطية المبكرة فان مدن آسيا الصغرى كانت أكثر عددا من مدن البلقان وكانت دائما تمثل وبأعداد أكبر من مدن البلقان حتى في المجمعات الدينية السابقة[١٠٢].

---

(٩٧) Ibid, 54 - 55.

(٩٨) Theophanes , Ibid 57.

(٩٩) Theophanes , Ibid P. 60.

ايضا : Haldon , IBid P. 121.

ويشير هالدون الى مصدر ديني أوردته المجامع الدينية المشار اليها وهو:

J. Darrorrouzes, **Notitia Episopatuum Ecclesia, Constantion Politanae** .(Paris, 1981)

(١٠٠) Ostogorsky , Ibid P. 54 - 55.

(١٠١) Ibid , P. 56.

(١٠٢) Ibid , P. 58.

ويقول استروجورسكي ان Kazdan حاول "استناداً إلى الجغرافي العربي ابن خرداذبه" أن يؤيد فكرة الاضمحلال الكامل للمدن البيزنطية (في العصور الوسطى المبكرة) ويقول كازدان Kazdan ان هذا الجغرافي عرف خمسة مدن فقط في آسيا الصغرى وهي : افيسوس Ephesus ونيقية Nicaea وعمورية Amorium وأنقره Ancyra وساملا Samala. هذا بالإضافة إلى نيقوميديا التي كانت قد تحولت إلى خراب.

وللرد على kazdan وبالرجوع إلى ابن خرداذبة فقد كانت هناك عشر مدن محصنة في ثيم تراقيا . وثلاث مدن محصنة في ثيم مقدونيا ويذكر حوالي ١٢٤ مدينة أخرى وأماكن محصنة في آسيا الصغرى وحدها[١٠٣]. وبناء على ذلك فإنه لا ينبغي ان نعول على ماذكره كازذان، نقلا عن ابن خرداذبه أن هناك خمسة مدن فقط في آسيا الصغرى في عصره حيث أن نقله كان خاطئا . كما اتضح أعلاه وجود أضعاف مضاعفة من المدن والحصون[١٠٤].

كما يجب ملاحظة أن المدن القديمة لم تستمر في الوجود فحسب بل حصنت وأعيد بناؤها، وأن مدنا جديدة قد أسست. ويستدل اوستروجورسكي على ذلك بأن فكرة إعادة توطين السكان في الأماكن المهجورة في الفترة مابين القرنين السابع والتاسع رافقها بناء المدن والحصون . ومثال على ذلك هجرة السلاف إلى آسيا الصغرى . أان هذه الهجرة ربما كانت السبب في تأسيس مدينة Gordoserbo في Bithynia ومدينة Justinianopolis وذلك لاستقرارCypriot القبارصة، وكذلك نشاط بناء المدن، وإن تقرر أو فرض بواسطة الاحتياجات العسكرية ، فإنه لا يؤكد الاضمحلال ولكنه يؤكد نمو المدن[١٠٥].

وينفي اوستروجورسكي أن المدن البيزنطية كانت خراباً تاماً وأنها كانت على وشك الاختفاء وليس صحيحا أنها كانت تسير وفق نظام الـ Polis المدينة اليونانية القديمة. ويقرر أن معظم المدن الهامة في الأقاليم البيزنطية في ظل ظهور نظام الثيمات أصبحت مركزا للقادة (Strategi) ومركز تنظيماتهم العسكرية والمدنية. وباعتبار أن نظام الثيمات اصبح الشريان المركزي للامبراطورية فان العسكرية الجديدة والبيروقراطية اخمدت البقايا الاخيرة للحكم الاستقلالي او الحكم الذاتي

(١٠٣) ابن خرداذبه المصدر السابق ص ١٠٥ - ١٠٨.
(١٠٤) Ostrogorsky Ibid , P. 62.
(١٠٥) Ibid , P. 62 وايضا Stratos , Vol. 5, P. 61.

للمدن[١٠٦] ويضيف هالدون أن المدن الكبرى انكمش حجمها إلى مناطق يمكن الدفاع عنها، وشخصيتها المميزة قد تغيرت لعدم توفر الأمن للاراضي المحيطة بها. بمعنى أن المدينة تستطيع مقاومة الحصار والهجوم ولكن المناطق الريفية حولها تتعرض للدمار وبالتالي دمار مصادر الطعام المحلية والثروة الحيوانية . أما المراكز الوحيدة والتي يمكن الدفاع عنها وهي تلك المدن الواقعة على ساحل البحر والتي تستطيع المقاومة وبشكل استثنائي . ومن تلك المراكز القسطنطينية نفسها[١٠٧] وقد وضع هالدون قائمة بأسماء المدن أو الحصون التي تعرضت لغارات متكررة في آسيا الصغرى[١٠٨]. وهذه القائمة شكل (١) وإن كان الغرض الأساسي من وضعها احصاء مرات الغارات التي تعرضت لها تلك المدن ولكنها في نفس الوقت إثبات على استمرارية المدن وبالذات في آسيا الصغرى . وأن عدد الغارات التي تعرضت لها تلك المدن ربما زاد من تحصيناتها لكن لم ينزل بها إلى حد الدمار والخراب. والمدن التي استطاعت البقاء كمراكز اقتصادية نشيطة فهي تلك المدن التي كانت تتميز بموقع خاص كأن تكون ، ميناء مثلا[١٠٩] ومثال على ذلك نيقية Nicaea التي ظلت مركزا هاما للمواصلات وموقعا تجاريا مهما بالرغم من تعرضها للهجوم عدة مرات بالرغم من بعدها عن الحدود . كما بقيت أيضا مدينة أزمير Smyrna مع مينائها وطرابيزون مع مينائها، والتي لم تسلم من الهجوم، إذ هاجمها العرب سنة ٦٥٥م ولكنها وصفت في القرن التاسع بانها مركز تجاريا مزدهرا ، واخيرا أضاليا Atalia التي يبدو أنها حافظت على ملامحها كميناء وسوق تجاري، إن تلك المدن مدينة ببقائها وازدهارها الى مواقعها الجغرافية الاستراتيجية والتي استفادت من تدفق المهاجرين إليها من المناطق المعرضة للهجوم[١١٠] وليس معنى هذا أن المصادر لم تذكر انهيارا لبعض المدن ، فيبدو أن المدن الكلاسيكية القديمة المنهارة والآيلة للسقوط أو الانهيار قد اكتمل انهيارها في القرن السابع، وذلك بسبب غارات العرب على آسيا

---

(١٠٦) Ibid P. 65
أيضا Haldon, Ibid P. 98.
أيضا Pirenne, **Economic and Social History of Medieval Europe** P.
(١٠٧) Haldon . Ibid P. 105.
(١٠٨) Idem . P. 107.
(١٠٩) R.S. Lopez , **The Role of Trade in the Economic readjustment of Byzantium In the Seventh Cenlury** , D.o. P. XIII ,Washington D. C. 1959 , 69 , 78.
أنظر ملحق ٣ شكل ١١ وقائمة المدن التي تعرضت للهجوم خلال الفترة من ٦٣٦ - ٧٤٠م.
(١١٠) Haldon, Ibid P . 110.

القائمة التالية توضح المدن التي تعرضت للهجوم وعدد المرات التي هوجمت فيها وهذه القائمة تغطي الفترة (٦٣٦ - ٧٤٠م) :

Abdus	(* 1)	Cyzicus	(+ 1)
Acroinum	(* 3)	Helitene	(+ 7)
Amasea	(+ 1)	Misthia	(+ 1)
Amastris	(* 8)	Mopsuestia	(+ 1)
Amisus	(+ 8)	Myra	(+ 1)
Amorium	(+ 8)	Neocaesaraea	(- 1)
Ancyra	(+ 3)	Nicaea	(+ 2)
Antioch (Pisida)	(* 4)	Nicomedia	(+ 1)
Antioch (Isauria)	(* 1)	Nicopolis	(+ 1)
Chalcedon	(* 4)	Pessinus	(+ 1)
Chyrsoupolis	(+ 1)	Pergamum	(+ 3)
Dorylaeum	(+ 2)	Podandus	(+ 1)
Ephesus	(* 1)	Sardis	(+ 1)
Euchaita	(* 1)	Satal	(+ 1)
Gangra	(+ 2)	Sebastea	(+ 1)
Heraclea	(+ 3)	Sinope	(+ 1)
Iconiumc	(+ 1)	Sisium	(+ 1)
Caesarea	(+ 4)	Smyra	(+ 3)
Kamacha	(+ 4)	Synnadu	(+ 1)
Camuliana	(+ 1)	Tarenta	(+ 2)
Koloneia	(+ 1)	Tarsus	(+ 3)
		Trebizond	(+ 1)
		Tayana	(+ 3)

الصغرى. وأن الهجوم لم يكن المصدر الوحيد للدمار إذ عانت بعض المدن من الزلازل العنيفة إلى حد القضاء على مناطق سكنية قديمة . ومثال على ذلك دمار كل من ملطيه Miletua وافروديسيا Aphrodisia واللاذقية Laodicea ونيقوبوليس Nic- oplis و Anemurium وربما تكون تلك المدن استمرت كمراكز هامة لولا تعرضها للزلازل(١١١).

ان المدن الكلاسيكية في الأناضول مرت بتغيرات مثيرة في تلك الفترة، فهجر بعضها أو دمر، وبعضها استمر في الوجود، وهذه انكمشت وقلت أهميتها وأصبحت مجرد قرى دفاعية، ويدين بعضها باستمرارها إلى بعض الأنشطة التجارية

(١١١) Idem, P. 110.

المحدودة، وإلى وضعها كمراكز إدارية وعسكرية لكل من الكنيسة والدولة، كما أن البعض الآخر استطاع أن يقاوم التدهور والاضمحلال بفضل مواقعها الجغرافية . وإن كانت تقع على الطرق التجارية ، ولبعدها عن تهديدات العدو . وعندما استعادت المدن التجارية ، ولبعدها عن تهديدات العدو . وعندما استعادت المدن مركزها الاقتصادي خلال القرن التاسع وما يليه، لم تعد تلك المدن القديمة التقليدية الكلاسيكية Polis، ولكنها أصبحت نموذجا لمدن العصور الوسطى التي تدين برخائها بوضعها كمراكز إدارية وعسكرية تحكم الدولة عن طريقها . ويرجع كذلك إلى توافر الأمن للتجارة المحلية والخارجية وإلى دورها كمراكز تبادل تجاري وإلى مجتمعها المحلي وثقافتها[١١٢].

واذا انتقلنا إلى شبه جزيرة البلقان نجد أن الوضع لم يكن أفضل مما كان عليه في آسيا الصغرى، حيث احتفظت سالونيكا وحدها بأهميتها واحتفظت بالكاد بوضعها كمركز تجارى، وانكمش عدد كبير من مدنها القديمة وتحولت لتكون مجرد حصون أو مراكز ادارية . وكما حدث في آسيا الصغرى اقفرت مدن كثيرة من سكانها، ولم ينج من هذا المصير سوى المدن التي كان لها مرافيء أو أهمية تجارية، او توفر فيها ما يحتاجه سكانها من منتجات أو مصنوعات. واختفى النمط القديم للمدينة كمركز للحياة المدنية في أواخر القرن السادس، وفي القرن السابع كما حدث في آسيا الصغرى[١١٣] وواضح أن السبب في ذلك يرجع إلى الآثار بعيدة المدى التي خلفتها غارات الافار والسلاف في كثير من المناطق الواقعة جنوب نهر الدانوب وتلك التي خلفها احتلال هؤلاء لمعظمها. وقد استمرت بعض المدن، ولنفس الأسباب تقريبا التي ساعدت على استمرار مدن آسيا الصغرى .

وحتى وقت قريب دلل كثير من الباحثين على أن استمرار الأسماء الكلاسيكية لبعض المدن ينهض شاهدا على استمرارية الحياة في تلك المدن وممارستها لنشاطها المعتاد . غير أن هالدون يرى أن ذلك لا يؤكد استمرارية وجود المدن بالمعنى الدقيق. فقد بقيت مدن آسيا الصغرى محتفظة بأسمائها الكلاسيكية ومع ذلك فقدت كيانها الحقيقي، ويرى أن مجرد بقاء اسم المدن القديم ليس في حد ذاته شاهدا على بقاء موقع ما أو استمراره كمركز حضاري من أي نوع، ولذلك يجب تلمس عناصر أخرى

---

(١١١) Idem , P. 110.
(١١٢) Idem , P. 114.
(١١٣) Idem , P. 114.

حضاري[١١٤].

وتؤكد النتائج التي نستخلصها من تحليل المصادر الأدبية والأثرية حدوث انهيار بعيد المدى في الحياة المدنية ونظام البلديات بدأ منذ القرن الثالث الميلادي. وانتهى بالقضاء على الحياة الحضرية مع بعض الاستثناءات القليلة، خلال النصف الأول من القرن السابع، ومن بين المدن التي بقيت وعلى سبيل المثال مدينتو أوديسوس Odessus وهي ميناء عند مصب نهر الدانوب. أو مناطق الاستقرار في منطقة هذا النهر مثل دورستورم Durostorum فهذه أصبحت حصونا مغلقة تشبه كثيرا مدن القلاع في آسيا الصغرى البيزنطية[١١٥].

أما الاستثناء الذي يثبت القاعدة فقد كان مدينة القسطنطينية، وكل الشواهد الآثرية والأدبية تشير إلى حدوث نقص كبير في سكانها في آواخر القرن السابع والقرن الثامن . وأهمل الكثير من منشآتها التي كانت في القرنين الخامس والسادس أو هجرت. وكان الحال كذلك بالنسبة لمناطق واسعة كانت تحيط بها أسوار من عهد ثيودوسيوس ومخطط المدينة الذي كانت عليه في القرن العاشر بمدافنها الخالدة وحدائق الأديرة وبساتينها ومراعيها الخاصة وضياعها . ويرجع النقص في عدد سكانها الذي كان قد بلغ ذروته في منتصف القرن السادس وكان حوالي ٤٠٠,٠٠٠ نسخة وهذا أقصى حد بلغه عدد سكانها[١١٦].

ومن تلك الأدلة أيضا انه ورد ذكر اشغال بلدية قليلة وتعود إلى النصف الثاني من القرن السابع والثامن وكانت لا تعدو تشييد حائط دفاعي قام به جستنيان الثاني حول الفناء المحيط بالقصر، وإصلاح سور تيودوسيوس الدائري، بعد الزلزال الذي حدث سنة ٧٤٠م[١١٧] ولم يؤسس في تلك الفترة سوى اثنين من الاديرة[١١٨]

---

(١١٤) Idem , P. 114.

(١١٥) Idem P. 115 65.

يستند هالدون في حاشية ٦٥ إلى Parastaseis Syniomoi Chronikai الذي دون ملاحظات تاريخية موجزة =)عبارة عن شكاوى تعود إلى القرن الثامن تشير إلى أن ثمة مبان كانت قائمة لحقها الدمار أو تحولت إلى خرائب.

(١١٦) Idem P. 115 66.

في حين أن اندرياديس قدر أن عدد سكان القسطنطينية في عصر الأسرة المقدونية بضعف هذا العدد وذلك في كتابه:
A. Andreadis, **dela population de censtantinople Sous Les Empereuss** byzantins ,(Rovigo 1920), P. 37 Ch . M. Macri , L" **Organsation de L" Economies dans Byzancesous le Dynastie de Macedoine** (867 - 1056) Paris 1925 P. 7 3

(١١٧) Theophanes, 367 . Haldon Ibid , P. 116.

(١١٨) Charanis, The Mons, D.O. P. 25 (1971) P, 61 - 84.

وهناك برهان آخر على قلة عدد سكان القسطنطينية وهو تعطيل امدادات المياه الرئيسية في القسطنطينية بعد سنة ٦٢٦م بعد أن خرب خلال الحصار السلافي - الآفاري للقسطنطينية في تلك السنة ، أعيد فيما يبدو إصلاحها سنة ٧٦٦م وهذا شاهد جيد على انخفاض عدد سكان العاصمة خلال تلك الفترة وانهم استطاعوا استخدام الينابيع القريبة والآبار الداخلية .

ويؤكد هذا الشاهد ما ذكره نيقوفورس أن المدينة هجرت بعد طاعون أو وباء أصابها عام ٧٤٧م وألقي بجثث الموتى في محيط حوائط القسطنطينية في خزانات المياه القديمة ومزارع الكروم والبساتين والخنادق(١١٩). وقد أصيبت المدينة بوباء آخر عامي ٦٩٨،٦١٩م وكان على الامبراطور قنسطنطين الخامس أن يعمر المدينة في القرن الثامن بجلب سكان إليها من بلاد اليونان ومن جزر بحر ايجة.

وعلى الرغم من كل المشاكل التي تعرضت لها القسطنطينية فقد بقيت واستمرت رغم كل الصعوبات.والسبب في ذلك يعود إلى أنها العاصمة ومقر الامبراطور ومصدر القوة الاجتماعية والسياسية والسلطة في الامبراطورية وفي نفس الوقت كانت تتمتع بموقع استراتيجي ودفاعي . كما كانت مركزاً للمبادلات التجارية التي استمرت بشكل واضح(١٢٠) وإذا كان هالدون قد أرجع استمرارية القسطنطينية إلى أهميتها من النواحي الادارية والاقتصادية والاجتماعية، وإلى أنها كانت أقل تأثرا من غيرها من مدن الأقاليم. إلا أنه لم يذكر الحصار الذي تعرضت له أكثر من مرة خلال القرن السابع وهو حصار الافار والسلاف سنة ٦٢٦م وحصار المسلمين الأول لها سنة ٦٧٣ - ٦٧٩م وحصار المسلمين الثاني لها في مطلع القرن الثامن وأثر ذلك عليها.

ويرى هالدن أن البراهين أو الشواهد المأخوذة من النصوص ومن العملة ومن الآثار تشير إلى اتجاه واحد وهو اختفاء الاقتصاد الحضري القديم والذي استمر في عهد هرقل. أما ما تبقى فهو نموذج أو نمط لقرى دفاعية، وحصون، وأقواها تلك التي خدمت كمراكز إدارية وعسكرية وعلى سواحل البحر الأسود والبحر الايجي والأدرياتيكي، وجنوب غرب آسيا الصغرى يوجد قليل من الموانيء المنفصلة التي كانت لها صفة المرافيء التجارية emporia وهذه تمثل بذور مدن العصور الوسطى التي ستشيع في العالم البيزنطي وهي مختلفة في الملامح الاجتماعية والبناء

(١١٩) Nicophorus , 63. 1-64 . 12 esp . 64. 10- 12 . Theophanes, 423.
Haldon Ibid , P.116 70.

(١٢٠) Haldon , Ibid P. 116.

الحضاري عن سابقاتها الكلاسيكية. ولكن من الناحية العملية كانت القسطنطينية مركزا لإدارة الامبراطورية الرئيسية والتي استطاعت المحافظة على ملامحها وعلى شخصيتها كمدينة بالمعنى القديم لمصطلح المدينة[١٢١].

ولدينا نوعان من الشواهد ترتبط بالمدن أو المراكز الكنسية، وأحدهما قائمة Notitia بأسماء المراكز الأسقفية، والأخرى قائمة بأسماء لمشتركين في المجمع الديني السادس عام ٦٨٠م ومجمع الكونيسيكستوم Quinisext أو مجمع تورللو عام ٦٩٢م. ولا يحدد أي من المصدرين المدن أو المراكز الأسقفية التي كانت لاتزال تتبع الامبراطورية وتخضع لسيطرتها وقد لا تتعدى أهمية المصدر الأول الناحية النظرية فحسب وقد تكون القائمة الثانية ، والتي تتضمن أسماء المندوبين الكنيسيين الذين شهدوا اجتماع المجمعين أكثر أهمية. وقد نستدل منها على استمرار تبعيتها للامبراطورية غير انه قد يضعف من أهميتها مجيء ممثلين لبطريركيات أنطاكية وأورشليم، على سبيل المثال، والتي كانت تحت سيطرة المسلمين. وفي الوقت نفسه يجب أن نحدد إلى أي مدى كان وضع المدن بالمفهوم الدستوري يتساوى مع وضع المراكز الأسقفية . وقد تكون مراكز الأسقفية في قرية بصرف النظر عن مساحتها. ويتفق هالدون مع اوستروجورسكي على أن هذه القوائم قد لا تتصف بالدقة إذ ربما كانت تتضمن أسماء لأساقفة لم يشهدوا المجمعين . وإذا كان لنا أن نستنتج شيئا من أن عدد الذين شهدوا اجتماع مجمع الكونيسيكستوم Quinisext في عام ٦٩٢م، كان أكبر ممن شهدوا المجمع السادس السابق له، والذي عقد في عام ٦٨٠م . فإن ذلك ينحصر في السلام الذ ي حققته اتفاقية الهدنة مع العرب في عام ٦٧٩م والتي استمرت حتى عام ٦٩٢م مما سهل الانتقال من الشرق إلى القسطنطينية، الأمر الذي يعد دليلا على تحسن ظروف المواصلات. وإذا كانت الشواهد الأثرية تنهض دليلا على استمرار العمران في كثير من المراكز الحضرية فإن ذلك راجع لموقع هذه المراكز على الطرق وعلى تمتعها بمصادر المياه وإلى موقعها بالقرب من المناطق الريفية القريبة منها. ثم أن مجيء عدد أكبر من رجال الدين إلى مجمع الكونيسيكستوم لا يشير إلى المدن وانما يشير إلى اقامة الأساقفة في مراكزهم[٣٧].

(١٢١) Haldon , Ibid P. 120.

(١٢٢) Haldon , Ibid, P. 121 ff 91- 93.

راجع: A . H. M . Jones , **Cities of the Eastern Roman Empire**, 2nd ed 1937 P. 519.

وبصفة عامة فإن المدن لم تستمر فقط بل كان عددها كبيرا وكانت مأهولة بالسكان على غير المتوقع في ضوء الظروف السياسية التي سادت تلك الفترة[١٢٣] ومن الممكن أن تكون الغالبية العظمى من المدن التي نجحت في البقاء لا تتجاوز كونها مركزا سكنيا، على الأقل، أو كملجأ للقوات العسكرية والادارية[١٢٤].

إن المدن الكلاسيكية كانت على حافة الانهيار قبل القرن السابع، وقد حل محلها مدن الأقاليم التي لها ملامح مختلفة ، والتي قامت على أسس أقل ثراء وأقل كثافة سكانية. وإن المدن التي حلت محل المدن القديمة مختلفة عنها ولا تنتمي إليها بأي رباط عضوي او دستوري[١٢٥] بهدف أن تكون ملجأ يحتمي فيه اللاجئون أو تكون قواعد عسكرية أو إدارية ولا شك أن كثيرا منها أقفرت من سكانها وأن دورها الاقتصادي ودورها كسوق للتجارة قد انتهى أيضا في الظروف المتغيرة التي طرأت على القرن السابع.

وعموما فإن المدينة لم يعد لها مكانتها الأولى شأنها في ذلك شأن كثير من المؤسسات التي كانت تنهار وتضعف فهي جزء من بناء الدولة في القرن السابع. وكان هذا القرن يشهد هو الآخر تغيرات جذرية في هذا البناء الذي يوشك أن ينطلق من أسر تقاليد ونظم حكمه طويلا وخاصة في عصر الامبراطورية الرومانية في فترتها المتأخرة. وإذا قدر لبعض المدن أن تستمر فإن ذلك كان مرهونا بقدرتها على تحقيق ما تريده منها الدولة كأن تكون قاعدة أو مركزا تدار منه شئون المنطقة التي تقع فيها إداريا وعسكريا. وقد تظل المدينة قائمة ككيان حضرى، إذا توفر لها شروط النشاط الاقتصادي أو أن تكون لها أهمية دينية بأن تكون مقرا لأحد القديسين كما سبق وان ضربنا مثالا لذلك[١٢٧] فيتردد عليها الحجاج، ويستمر بها نوع من الحياة الحضرية يرتبط بالضروريات التي يجب توفيرها للكنيسة، إلى جانب استمرار التقاليد الثقافية والاقتصادية السابقة حتى ولو كان ذلك مرتبطا بتحول بعض المراكز الحضرية إلى ملاجىء يحتمي بها اللاجئون. وفي جميع الحالات، استمر وجود حضاري من نوع ما، ولكنه ليس من نمط ذلك الوجود الذي عاشته المدن في العصور الكلاسيكية.

---

(١٢٣) Finlay , **History of the Byzantine Empire** P. 8.

(١٢٤) Haldon , Ibid, P. 121.

(١٢٥) Idem . P. 123.

(١٢٦) Mango, **Discontinuity With The Classical Past in Byzantium** III, P. 49. in Byzantium and its Image, Variorum Reprints (London 1984).

(١٢٧) راجع ص (٣٤٤) أعلاه في هذا الفصل.

وثمــة حقيقة هامــة تبرز عنــد الحديث عن المـدن وذلك عندما نعرف أن مواقع سكنية أحاطت بها الأسوار، فإن هذا يعد عنصرا هاما من العناصر التي يتكون منها مفهوم الحضارة البيزنطية، فالمدن التي دمرت أعيد انشاؤها من جديد، وأسست مدن جديدة تحت رعاية الأباطرة لتكون أساسا ملجأ يحتمى به المهاجرون الجدد وتعيش بها مجتمعاتهم . وعندما نمت بعض هذه المواقع وصار لها أهميتها أعطيت اسم " المدينة " وزودت بهيئة من رجال الدين.

وبعبارة أخرى فإن مصير المدينة ليست من البساطة بحيث نتحدث عن الموارد الاقتصادية أو عن إمكانية وجود أسواق أو عن نشاط في التبادل التجاري أو المتطلبات الادارية التي يجب أن تتوفر للدولة والكنيسة، ولكن المسألة تمت بصلة وثيقة إلى أيدلوجية العالم البيزنطي وإحساسه بذاتيته ولا تقتصر مهمة المدن على أنها أماكن إيواء للاجئين أو قلاع أو أسواق أو مراكز للادارة وإنما تكون عنصرا مهما في الشخصية البيزنطية. وبهذا المفهوم يرتبط استمرار الموقع وأماكن الاستيطان موجودة من القرنين السادس والسابع وحتى نهاية عصر الامبراطورية(١٢٨). وكما أسلفنا القول إن استمرار وجود المراكز الحضرية إنما هو استمرار لوجود حضاري من نوع ما . ولكنه ليس من نمط ذلك الوجود الذي عاشته المدن في العصور الكلاسيكية(١٢٩).

التجارة :

يرتبط النشاط التجاري عادة بحياة المدن . ويعتمد نجاح تجارة المدن على موقعها الجغرافي . وللامبراطورية البيزنطية موقع استراتيجي هام . فهي حلقة الاتصال بين آسيا وأوربا، وبين أوربا وافريقيا. كما وأن الطرق البرية والبحرية والنهرية التي تربط شرق أوربا بالبحر المتوسط تمر عبر إقليم الأمبراطورية البيزنطية، وجعل هذا الموقع الجغرافي الممتاز من الأمبراطورية مركزا للتجارة العالمية(١٣٠).

وانتشرت موانيها بامتداد سواحلها من طرابيزون على البحر الأسود إلى موانيها على شواطيء كل من البحرين المتوسط والايجي ، وأصبحت طرابيزون وخرسون على البحر الاسود المنفذين الرئيسين للتجارة ناحية الشرق الأقصى، على حين كانت خرسون في شبه جزيرة القرم هي الطريق التجاري ناحية الشمال.

أما في الغرب فلم تعد التجارة حكرا على التجار السوريين أو اليونانيين أو

(١٢٨) Haldon , Ibid , P. 124 Hendy , P. 90.

(١٢٩) راجع الصفحة السابقة والحالية .

(١٣٠) Andreades , Ibid P. 63.

المصريين بل تقاسمتها المدن البحرية الايطاليـة كالبندقيـة أو تلك التي ماتزال ضمن دائرة السـيـادة البـيـزنطيـة في جنوب إيطاليـا مـثـل أمـالفي Amalfi أو نابليNables[١٣١].

والظهير الساحلي خلف الموانى شديدة الخصوبة مثل منطقة ساحل شمال افريقيا الذي تتوفر به المياه الغزيرة والأراضي الخصبة والكثافة السكانية وخاصة المتجمعة حول قرطاج[١٣٢].

وكانت معظم المدن المزدهرة في الامبراطورية البيزنطيـة ذات النشاط التـجاري والصناعي حتى مطلع القرن السابع الميلادي تقع على سواحل البحار في ولايات الامبراطورية الشرقيـة مثل الاسكندرية وأنطاكيـة وبيروت ودمشق وغزة[١٣٣] مما ساعد على استمراريتها بفضل موقعها على طريق التجارة البحرية ، التي مكنتها من الاتصال البحري المباشر بينها وبين العالم الخارجي ، بالرغم من توقف التجارة البرية، باستثناء طرق الأناضول في القرن السابع.

بل وإن الرحلة التي قام بها الأسقف أركولفوس Arculfus من مقر أسقفيته في بلاد الغال والتي زار خلالها بعض مناطق فلسطين في سنة ٦٧٠م وأبحر بعدها من يافا في رحلة إلى الاسكندرية استغرقت أربعين يوما، ومنها ذهب إلى جزيرة كريت ومن ثم إلى القسطنطينية. وفي طريق عودته إلى غالة زار جزيرة صقلية ثم انتقل منها إلى روما[١٣٤].

ومن الواضح أنه قام برحلته تلك عن طريق البحر وهذا دليل على أن الطرق البحرية في شرق البحر المتوسط لم تنقطع وأن الاتصال كان مستمرا بين الشرق والغرب وبحر ايجة.

غير أن بعض المؤرخين يشكك في أن حركة التجارة كانت قادرة على الاستمرار وعلى رأس هؤلاء هنري بيرين الذي قال : "إن الغارات الجرمانية لن تضع نهاية الوحدة الاقتصادية للعالم القديم . ولكن الغزو الاسلامي هو الذي غير وجه العالم

(١٣١) ح . م . هسي ، العالم البيزنطي ص ١٢٣.

(١٣٢) Charlesworth . M. P. **Trade - Routes and Commerce of the Roman Empire,** 4th edition, (Cambridge 1924) P. 132 - 133.

(١٣٣) وسام فرج ، **الدولة والتجارة في العصر البيزنطي الأوسط** ، حوليات كلية الاداب - جامعة الكويت - الحولية التاسعة - الرسالة الثالثة والخمسون ١٤٠٨ / ١٤٠٩ هـ ص ١٣.

(١٣٤) C .W. Wilson , **Pilgremage of Arculfus in the HolyLand . Palestine Pilgrems Text Society** (London, 1895) P. XIF

أيضا : J. Wilkinson , **Jerusalem Pilgrims Before** the Crusade , Warmister , England 1977 , P. IX

=

القديم، ووضع نهاية لوحدة عالم البحر المتوسط". وقد أطلق بيرين على البحر المتوسط اسم (بحر الاسرة) أو البحر العائلي للدول المطلة عليه، لأنه جمع تلك الدول في أسرة واحدة. غير أن هذا البحر قد تحول إلى حاجز يفصل بينهم بعد الفتح الاسلامي الذي قطع ماكان متصلا فيما بينها وبعد أن كانت تمثل وحدة اجتماعية ودينية ذات تقاليد وأفكار ثقافية واحدة(١٣٥) وأصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية بعد أن فقد صفته كبحيرة رومانية(١٣٦).

وقد اعترض كثير من المؤرخين على مقولة بيرين(١٣٧) وبين أيدينا كتاب يضم حوالي أربعة عشر مقالا لمناقشته(١٣٨). هذا بالإضافة إلى مقالات أخرى كثيرة في هذا الصدد. ونناقش هذا القول في ضوء مابين أيدينا من مصادر حياة القديسين، التي تؤكد استمرارية الاتصال بين شرق البحر المتوسط وغربه في القرن السابع الميلادي.

فكتاب حياة القديس Anastasios(١٣٩) الذي عاش في القرن السابع يذكر: أن الحرب توقفت بين الأعداء "المسلمين والبيزنطيين" مما سمح لبيزنطة بالراحة في تلك الفترة، وجعل الملاحة في البحر ممكنة، وانتصر السلام في بيزنطة.

وكذلك يشير المسعودي إلى استمرار الملاحة في البحر وانقطاع المواصلات في البر فلا وصول لمن في القسطنطينية إلى رومية ... إلامن البحر(١٤٠) .

ولعل من المهم ملاحظة أن الوجود السلافي في شبه جزيرة البلقان والذي ثبت أيضا من حياة القديسين(١٤١). كان أشد خطورة من الوجود الإسلامي الذي تسبب في قطع أو تعطيل الطرق البرية بين الشرق والغرب : وهو الذي جعل طرق المواصلات الوحيدة، تقريبا، بين الشرق والغرب هو الطريق البحري أو بطريق الأنهار.

= من المفارقات العجيبة انه في طريق رحلته من روما إلى بلاده عصفت بسفينته الرياح ودفعت بها إلى غرب اسكتلندا ، على حين كانت رحلته إلى فلسطين وسوريا والقسطنطينية امنه تماما .

(١٣٥) Henri Pirenne, **Medieval Cities**, Trans. B F.D Halsey (Princenton) .third Print . 1974 . P. 22 - 23

(١٣٦) .Pirenne , Ibid P. 24

(١٣٧) عرض علي الغمراوي ، في كتابه ، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط ، القاهرة ، ١٩٧٧م لمقولة بيرين والمناقشات التي دارت بشأنها بين المؤرخين وذلك في ص ٢٨٨ وما يليها .

(١٣٨) The Pirenne's **Thesis , analysis, Criticism and Revision edited** by .Alfred . F. Havighurst Third edition 1975

(١٣٩) .The Sermon of Anastasios The Sinaite Ch . 95

(١٤٠) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ١٦٩.

(١٤١) Dovornik , **La Vie de Saint Gregoire Le Decapolite** , (Paris, 1626) , .Ch. 9

كما أن هذه المصادر تشير إلى استمرار الملاحة في البحر المتوسط. ومن المؤرخين المحدثين الغربيين أوستروجورسكي قد تصدى لتفنيد آراء هنري بيرين[١٤٢] حول هذه النقطة والتي أبرزناها آنفا. وسوف لا ندخل في تفاصيل الدفاع عن الفتح الاسلامي ومناقشة هنري بيرين، فيما ذهب إليه ودحض آرائه، فقد أشبعت بحثا ونقاشا. ولكن يهمنا ما جاء فيها خاصا بتوقف التجارة بين الشرق والغرب[١٤٣]. ويتعرض له لوبيز لدحض هذه الفكرة في مقالتين : الأولى عن دور التجارة في القرن السابع الميلادي[١٤٤] ويقول فيها: أنه لا يعتقد بأن وجود المسلمين كان له أثره السيء على التجارة وأنه قد كتب أكثر من مائة مقالة ردا على مقالة هنري بيرين خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية، ويرى أنه لا داعي لتكرار ما قد قيل من أن المسلمين لم يكونوا السبب في وقف التجارة.

والمقالة الثانية[١٤٥] باسم: محمد وشارلمان - إعادة نظر. والتي يرفض فيها القول بتوقف التجارة المفاجىء، والذي صاحب الفتوحات الاسلامية، بل ويثبت فيها استمرارية التجارة ليس بين الشرق والغرب فحسب ، بل استمرارها أيضا بين المسلمين والبيزنطيين.

ولاثبات استمرارية التجارة في القرن السابع الميلادي يرى لوبيز أن الفضل في استمرارية التجارة في القرن السابع كان يعود بالدرجة الأولى إلى طريق التجارة البحري ، وأن بيزنطة استطاعت التغلب على نقاط ضعفها في هذا المجال عندما قامت بتطوير سفنها البحرية[١٤٦].

أما النقطة الثانية والتي أشار إليها لوبيز أن بيزنطة انتصرت فيها مثل انتصارها في النقطة الأولى، فهي المشاكل التي واجهتها بيزنطة نتيجة حروبها وخصوصا مع المسلمين، والتي فقدت بسببها أغنى أقاليمها من النواحي الزراعية والصناعية والتجارية. وفيها يقول: إن فقدها لقمح مصر كان دافعا لها على زراعة مناطق تراقيا والأناضول. وفقدها لمصانع النسيج في سوريا كان عاملا على تطوير وتقوية صناعة الحرير في كل من القسطنطينية واليونان . ويضيف أن المدن استطاعت التغلب على المحنة بعقد صداقات مع جيرانها الأجانب بحيث أنهم قاموا بالتجارة مع أولئك الجيران. وضرب لنا مثلا ببعض المدن مثل تسالونيكا وخرسون

(١٤٢) انظر الكتاب أعلاه ص (٣٩٠).
(١٤٣) Pirrcnne , Ibid P. 1.
(١٤٤) Lopez , **The Role of Trade** , D. O. P. XIII , 1959 , P. 71.
(١٤٥) Lopez, **Mohammed and Charlemagne A revision**, Speculum, (1943) XVII.
(١٤٦) Lopez, **The Role of Trade**, PP . 71 - 79.

وقرطاج ونابولي والتي كانت اهم المدن في القرن السابع. وقد تاجرت تلك االمدن بالملح المنتج في أراضيها والمنتوجات الجيدة من إنتاج المصانع البيزنطية التي تعتمد على الموارد الخام القادمة من البرابرة في داخل الأرض الخلفية أو في ظهير المدن الساحلية Hinterland. ويشير لوبيز إلى كتاب معجزات القديس ديمترى ونقوش جستنيان الثاني التي أظهرت بداية تلك العملية في سالونيكا ونموها في كل من ايطاليا ودالماشيا والقرم Crimean والأناضول. وهكذا أصبحت سواحل الامبراطورية مزدانة بمدن مزدهرة والتي كانت وسيطا تجاريا بين بيزنطة وخصومها، ليس في أيام السلم بل في أيام الحرب أيضا[١٤٧].

النقطة الثالثة في نظر لوبيز التي عملت على استمرار التجارة في القرن السابع الميلادي رغم كل الصعوبات، فهي مقدرة الامبراطورية البيزنطية على السيطرة على الدولة ككل وعلى التجارة كجزء[١٤٨].

فلقد نجحت بيزنطة في احتكار التجارة التي يطلق عليها اسم Article de luxe (موارد الترف) مثل تجارة الحرير كما تمكنت من فرض أماكن مراقبة: وهي مواقع المكوس الجمركية وتعيين موظفين مركزيين مكلفين بتوزيع ومراقبة التجارة الخارجية Kommerkiarioi[١٤٩] ويوجد ستة وعشرون ختما خاصا بهذه الوظيفة للسنوات ٦٥٤ - ٧٢٠م[١٥٠] وهذا الموظف مكلف بمراقبة التجارة الخارجية خلال مواسم خاصة تقام في فترات معينة وأماكن محددة[١٥١].

إن أختام الـ Kommerkiarioi مؤرخة. وتنقسم إلى قسمين القسم الأول . N genikos Kommerkiorios of Apotheke جامع المكوس الخاصة بالمخازن والقسم الثاني Kommerkiarioi abydikoi . M وهؤلاء تمركزوا في البلوبونيز وسالونيكا وخرسون وخالديا ويمثلون جامعي الضرائب الجمركية في المواني entry - ports وكانوا أقل رتبة من القسم الاول.

ويبدو أن النقش الموجود على الختم يدل على نوع البضاعة التي استخدم فيها فمثلا توجد أختام نقش على أحد الوجوه فيها (كيس من الخيش). وهذا يعني أن تلك الأختام تخص أكياس البضائع. واستعمال الأختام أصبح ظاهرة عامة في القرن

---

(١٤٧) Lopez, The Role of Trade P. 72-73.

(١٤٨) Lopez, Ibid P. 73.

(١٤٩) Bury, **The Imperial Administrative System in the Ninth century. With Revised text of The kletorologion of Philotheos** P. 88.

(١٥٠) Haldon, Ibid P. 196.

(١٥١) Andreaes - Ibid . P. 63.

السابع واتصل استخدامها بمخازن البضائع. وهذا يعني تغير في شكل الادارة وفي نشاطها وهو يعكس عملية تنظيم الدولة للتبادل التجاري. والسبب وراء ذلك يكمن في بحث الدولة اليائس عن مصدر للدخل. وهذه الحالة تشبه تمام الشبه ماحدث في زمن الامبراطور فالنتيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٠م) عندما فرض ضريبة في سنة ٤٤٤م اطلق عليها مصطلح Siliquaticum. والمرسوم الذي صدرت به يرسم بأن كل عمليات البيع والشراء ، في أي مكان، يجب أن تكون في مكان معين. أانه في كل مناسبة للبيع يجب دفع نصف Siliqua[١٥٢] على كل Solidus يدفع. وهذه الضريبة توخذ من كل من البائع والمشتري. وهذه الحالة اليائسة التي كانت عليها الامبراطورية في القرن السابع هي الباعث في التفكير في الجمع بين مكان وزمان عملية التبادل التجاري . وان الضريبة التي دفعت هي مقياس لحالة اليأس الحكومي[١٥٣].

وينفرد هندي بالقول بإنكار وجود للتجارة أساسا في القرن السابع وأن من يقول بهذا القول، في نظره، صاحب خيال واسع، وعلى سبيل المثال مقالة لوبيز " دور التجارة في القرن السابع" ويقول أن عنوان المقالة نفسها مضلل وذلك في ظل الظروف السيئة في القرن السابع[١٥٤]. وللرد على قول هندي نأخذه من نفس الموضوع الذي يناقض نفسه فيه ، فهو عندما يتحدث عن الأختام يتحدث عن موظف جامع ضرائب التبادل التجاري في البر وعلى المواني ء[١٥٥] كما انه يتحدث عن مخازن الدولة apotheke لبيع البضائع الزائدة، وانه كان عبارة عن وكالة ضخمة للامداد بالمواد الخام وتخزينها، وامداد المنتجات الصناعية وتخزينها وانه ربما كان أساس القيصرية التي عرفت في مصر وسوريا الاسلامية . وانه أيضا أساس الـ idiketrapeza التابعة لولاية الشرق، لأن idikon كان مخزنا ضخما للبضائع بداية من المعادن الخام وانتهاء بالحرير وكلمة Idike تعني البضائع والـ Ideke يستطيع شراء المواد المصنعة من السوق ويستطيع بيعها بنفس الطريقة ومن الممكن أن يكون ذلك من خلال موظفي الدولة او من خلال النقابات[١٥٦]. ولا اخال كل هذه التنظيمات كانت خاصة فقط في عملية تنظيم المبادلات الداخلية بل لابد أن تشمل المبادلات الخارجية. خصوصا وأن هندي نفسه أشار إلى بحث الدولة اليائس عن

---

(١٥٢) Siliquae بمعنى قيراط - وكان من الذهب الخالص والسولديز يزن ٢٤ سليكوا او قيراطا.

(١٥٣) M . Hendy, **Studies in the byzantine Monetary Eeonomy**. **3000 - 1450** ,(**cambridge** , 1985) p. 626 - 627.

(١٥٤) Hendy, Ibid, P. 627 and 311.

(١٥٥) أنظر الكتاب أعلاه ص (٣٦٠).

(١٥٦) Idem, P. 629.

مصدر للدخل. وان انتشار استخدام الأختام يعتبر شاهدا قائما على عملية تنظيم الدولة لعملية التبادل التجاري[١٥٧].

وكانت حرية العمل في مجالات النشاط الاقتصادي مقيدة في الامبراطورية البيزنطية وذلك بسبب حرص الحكومة على أن تكون هي القوة المنظمة المهيمنة على النشاط الاقتصادي. وتعود البداية إلى أزمة القرن الثالث الميلادي حيث قامت الدولة الرومانية بإخضاع الصناعة والتجارة لسيطرتها الدقيقة[١٥٧] ويقرر وسام فرج أن القيود التي فرضتها الحكومة البيزنطية على التجارة الداخلية والخارجية تبين ان الدولة لم تكن ذات عقلية تجارية تستهدف تحقيق الربح[١٥٩].

ونحن لا نرى هذا الرأي. بل نعتقد أن الاهتمام بوضع التشريعات المناسبة يؤدي إلى الاستقرار المالي. وتمكن الرقابة الحكومية من أن تمنع الفوضى وتهيئ الفرصة لتطوير التجارة على قواعد وأنظمة مدروسة لأن مسئولية الدولة لا تنحصر في مجال تنمية التجارة بهدف تحقيق الربح فحسب وانما تمتد إلى مجالات اقتصادية أخرى، من أهمها توفير أكبر قدر ممكن من السلع والخدمات لأبناء المجتمع، ومن ثم زيادة رفاهيته. ويندرج تحت مفهوم الخدمات تنظيمات الدولة الادارية لتوفير فرص العمل في كافة المجالات الاقتصادية بتحجيم المنافسة الخارجية للبضائع المستوردة مثلا. ووضع الأنظمة والقوانين لتنظيم العلاقة بين المنتجين والمستهلكين وقد استدل الكاتب بموقف الامبراطور ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢)، الذي علم ان زوجته تملك سفينة تجارية بحمولتها ، فأمر بحرق السفينة وقال : لقد جعلني الله امبراطوراً ثم جعلتني زوجتي تاجرا صاحب سفينة ! هل رأى احد من قبل امبراطور الرومان وزوجته يعملان بالتجارة ؟[١٦٠].

ونحن ننظر إلى هذا الشاهد من وجهة نظر اخرى ليس انه اتجاه معاد للتجارة، ولكن لأن الامبراطور هدف إلى وقف منافسة موظفِي الدولة الرسميين لباقي المواطنيين من غير الموظفين الرسميين لما قد يجر ذلك إلى استغلال منصبه ونفوذه في تحقيق الأرباح والاحتكار على الآخرين، بل ومنح نفسه الامتيازات بحكم منصبه الرسمي.

(١٥٧) Idem, P. 626.

(١٥٨) وسام فرج، الدولة والتجارة، ص ١٦.

(١٥٩) وسام فرج، المرجع نفسه، ص ١٥.

(١٦٠) وسام فرج، المرجع نفسه، ص ١٦.

وقد اقر ارشيبالدلويس[١٦١]. بأن الفتوح الاسلامية لم تحدث أول أمرها سوى تغييرات طفيفة في تجارة البحر المتوسط ولم تترتب عليها تقلبات اقتصادية، لأن المسلمين لم يكونوا من التجار أو رواد البحار وإنما كانوا غزاة فقط، ولذا تركوا ممارسة التجارة لمن كان بيدهم الأشراف عليها من قبل، وهم المسيحيون من اليونانيين السوريين المقيمين بالاسكندرية والموانى السورية.

وفي قول ارشيبالدلويس مغالطة واجحاف في حق العرب. والرد عليه جملة وتفصيلا يحتاج إلى موضوع منفرد قائم بذاته لإبراز دور العرب في التجارة وخصوصا بين الغرب والشرق والذي عمل فيه العرب كوسطاء للتجارة برا وبحرا. وتجمل السورة الكريمة هذا القول في سورة قريش(لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[١٦٢].

ولدحض رأيه يكفينا في هذا المجال شهادة هايد، وهو مؤرخ غربي. حيث يقول: كانت مكة قبل محمد ﷺ، مركزا من مراكز العالم العربي الدينية يسكنها تجار نشطون أثرياء، يخرجون بقوافلهم بانتظام إلى الخارج، كما كانوا يستقبلون قوافل اخرى. وأن **محمداً صلى الله عليه وسلم**، قام مرارا برحلات تجارية ولم يضع أية عراقيل أمام التجارة بعد الاسلام. بل أصبح المسلمون يجمعون بين أعمالهم التجارية وبين حجهم إلى مكه المكرمة. وهكذا أصبحت قوافل مكه أداة قوية لمضاعفة المبادلات التجارية. ثم يضيف، إن ظهور هذا الشعب على مسرح العالم كان حدثا من الأحداث التي أثرت بعمق في كل الاتجاهات، فقد أجرى في الحياة التجارية بالشرق انقلابات شديدة. وعلى أي حال لايوجد ثمة دليل على محاولة المسلمين عرقلة التجارة الذاهبة الى الامبراطورية أو الخارجة منها[١٦٣].

ويبدو أن من التغييرات الواضحة التي أحدثها الفتح الاسلامي على حركة التجارة هو التخلي عن كثير من قوانين جستنيان الأول الخاصة بالاستيراد والتصدير في القرن السابع وبكلمات أخرى تخفيف حدة الاحتكار[١٦٤].

ويبدو ان حرية التجارة صارت قاعدة التعامل في بلاد البحر المتوسط ويتضح ذلك من قانون رودس البحري . الذي صدر حول هذا الوقت تقريبا ، وبموجب هذا القانون

(١٦١) ارشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهض، القاهرة. ص ١٢٠.

(١٦٢) سورة قريش.

(١٦٣) هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ٤١ - ٤٢.

(١٦٤) Lopez , The Role of Trade P. 77.
ايضا : Ashburner, The Rhodian Sea ,law.

أصبح ربابنة السفن أحراراً في تصرفاتهم، لهم أن يتجهوا للحصول على شحنات تجارية حيث شاءوا[١٦٥] وثمة وجه شبه قائم بين الملاحين في قانون الملاح Nomos Nautikos، وبين الفلاحين في قانون الفلاح Nomos Georgikos. لأن كلاً من الفريقين عاش عيشة ضنكا، ولكن في القرن السابع كسب كل منهما منزلة خاصة، لأنهم كانوا العمود الفقري للقوات المسلحة ولأنهم لعبوا دورا هاما في اقتصاد الامبراطورية[١٦٦].

وجدير بالذكر أن ربان السفينة Naukleros كان يحقق ربحا كبيرا لأنه قام بدور التاجر المستورد Empor الذي يقوم بشراء السلع التجارية الموجودة في الأسواق المهمة للمراكز التجارية ثم ينقل هذه السلع إلى سوق القسطنطينية[١٦٧].

أما عن علاقة بيزنطة التجارية بجيرانها فهناك أدلة متوفرة عن تبادل بيزنطة التجاري من جهات البحر الاسود. فقد قامت تلك التجارة مع مدينة خرسون ومملكة الخزر[١٦٨]، ففي عام ٦٢٦م كان الخزر احلافا لهرقل في حربه ضد الفرس.

وظلت العلاقة قائمة بين الدولتين منذ ذلك الحين . وفي أواخر القرن السابع لجأ جستنيان الثاني إلى ملك أوخان الخزر وتزوج شقيقته وذلك عقب طرده من ملكه عام ٦٩٥م . وهذا التحالف مع الخزر أتاح للبيزنطيين أن يجدوا طرقا تجارية غير الطرق التي يتحكم فيها المسلمون مع الصين[١٦٩].

وهناك شاهد على استمرار التجارة مع الخزر وهي عند هروب جستنيان الثاني من محاولة قتله في خرسون. انه ذهب مع تاجر وان التاجر كان محملا بالبضائع[١٧٠].

والبحث عن طريق تجارية برية أو بحرية بعيدا عن الطرق التجارية التي تحكم فيها المسلمون، بعد استيلائهم على بلاد الشام ومصر، لايعني انقطاع العلاقة التجارية بين الدولة الاسلامية الناشئة وبين الدولة البيزنطية، فهناك الكثير من البراهين على استمرارية التجارة بين المسلمين والبيزنطيين من جهة والبيزنطيين والغرب الأوربي من جهة أخرى.

---

(١٦٥) ارشيبالد لويس ، المرجع السابق ص ١٢٦.

(١٦٦) Lopez - The Role of Trade P. 80.

(١٦٧) وسام فرج ، الدولة والتجارة ص ٢٥.

(١٦٨) في المنطقة الشاملة لجنوب روسيا وبحر قزوين .
أنظر ارشيبالد لويس، المرجع السابق ، ص ١٢٨.
Theophanes , Ibid 317.

(١٦٩) لويس ، المرجع نفسه ص ١٢٨.

(١٧٠) Theophanes, Ibid 373.

ومن ناحية استمرار التجارة مع المسلمين فإن الحاجة هي التي فرضتها. حيث أن مصر والشام كانتا لهما أهميتهما الاقتصادية ودورهما التجاري بالنسبة لسلع أربع كانت تعتبر حيوية لكل من الدولة البيزنطية والغرب الأوربي من جهة، والدولة الاسلامية من جهة أخرى. وكانت تلك السلع هي: أوراق البردى، التوابل، الأقمشة والمنسوجات، والعملة النقدية.

ورق البردي :

كان البردى لا يصنع إلا في مصر التي فتحها المسلمون ٦٣٩ - ٦٤١م الموافق ١٨ - ٢٠هـ والتي كان يصدر منها لجميع أنحاء العالم الأوربي شرقا وغربا. وكان البردى خاضعا لقيود خاصة إذ احتكرته الدولة منذ عهد البطالمة. وقد دأب البطالمة على انتهاج سياسة الاحتكار الكامل في كثير من السلع مثل القمح والحبوب والزيوت وغيرها . وقد وجدت حقول كثيرة من البردى يملكها الحاكم ويقوم على زراعتها واستغلالها مباشرة. ويبدوا أن الأفراد من المنتجين كانوا لا يبيعون للملك إلا أحسن أنواع البردي وهو "البردى الملكي" وكان الموثقون العموميون يدونون وثائقهم على هذا النوع من البردى ويدفعون ضريبة عن كل عقد(١٧١).

ويبدو أن الغرض من هذه القيود لم يكن منع التزوير في هذه الوثائق وإنما كان بعضا من القيود العديدة التي فرضها البطالمة(١٧٢) وعندما آل حكم مصر إلى الرومان اقتفوا سياسة احتكار التجارة أبقوا على الضريبة المفروضة على إعطاء الشهادات(١٧٣).

وفي القرنين الخامس والسادس زاد عدد الوثائق المزورة فاضطرت الدولة إلى إصدار سلسلة من اللوائح تحتم على الموثقين فيها أن يستخدموا في تدوين عقودهم البردى الملكي فقط. ولم يكن الغرض هو تصريف منتجات الدولة بل وضع تحرير الوثائق القانونية تحت رقابة الدولة(١٧٤).

ولم يؤد ظهور المسلمين في البحر المتوسط في أول الأمر إلى ما يمكن أن يؤدي إليه من حدوث انقلاب في نظام الاحتكارات الملكيه. وحين استولى المسلمين على مصر، استولوا على إنتاج البردي بأسره. إلا أن العمل استمر فيه كما كان جاريا دون

(١٧١) لوبيز ، محمد وشارلمان، اعادة نظر، ص ١١١.

(١٧٢) لوبيز ، المرجع نفسه، ص ١١١.

أيضا : موريس لمبارد - الجغرافيا التاريخية . ص ٢٥٠.

West , **Byzantine Egypt , Economic Studies** P. 130 - 132.

(١٧٣) لوبيز، المرجع نفسه، ص ١١٢.

(١٧٤) لوبيز، المرجع نفسه. ص ١١٢.

تغيير في العمل، أو في مستوي الانتاج[١٧٥] لقد صدرت الدولة الاسلامية ورق البردى إلى بيزنطة والغرب الأوربي، وأبقت على البردى المصدر إلى بيزنطة بسملة التثليث . وهذا الاجراء أرضى بيزنطة من جهة وجنى المسلمون أرباحا طائلة من تصديرهم للبردى إلى الخارج، الشيء الذي ضمن لهم تيارا مستمرا من الذهب البيزنطي وهو التيار الذي تكونت منه معظم نقودهم[١٧٦]. وفي عهد أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان أمر بأن يحل محل بسملة التثليث والصليب على أوراق البردى عبارة التوحيد "قل هو الله احد"[١٧٧]. الشيء الذي قاد إلى الحرب بين المسلمين والبيزنطيين، والمعروفة بإسم حرب القراطيس والدنانير[١٧٨].

ونتيجة لتلك الحرب فقد حرّم عبدالملك تصدير البردى إلى بيزنطة وذلك استنادا إلى البلاذري الذي قال : ان شيئاً من القراطيس مكث حينا لا يحمل إليهم[١٧٩] ولكن يبدو أن ذلك التحريم كان مؤقتا وذلك في قول البلاذري "مكث حينا". ومعني ذلك أن القطيعة حدثت ولكنها لم تستمر. ثم استؤنفت العلاقات من جديد. وكان المسلمون قد فرضوا الشكل الذي يودونه من الامتناع من وضع بسملة التثليث على ورق البردى وأجبروا بيزنطة على استيراده منهم. واستمرت بيزنطة في استخدام ورق البردى حتي القرن العاشر حين كفّت مصر نفسها عن صناعة ورق البردى بحلول الورق محله في كافة البلاد العربية.

وكذلك البابوية استمرت في استخدام أوراق البردي حتي نهاية القرن العاشر. كما أن الاساقفة استخدموا البردى حتي نهاية القرن الثامن أمّا رافنّا. التي ظلت تابعة لبيزنطة حتى ٧٥١م، وأصبحت فيما بعد مركزا لدراسة القانون الروماني، استخدمت البردى حتي منتصف القرن العاشر الميلادي[١٨٠].

وموضوع حرب القراطيس هذا يجعل أرشيبالدلويس يضع بعض الاحتمالات لألوان من الصراع الاقتصادي بين بيزنطة والدولة الاسلامية، كأن يكون جستنيان الثاني قد قام بقطع التجارة من جانبه مع المسلمين وهذا هو التفسير الوحيد لجنايته

(١٧٥) لوبيز ، المرجع نفسه، ص ١١٢.
(١٧٦) لوبيز ، المرجع نفسه، ص ١١٦.
(١٧٧) البلاذري ، فتوح البلدان، ص ٢٤٩،
(١٧٨) تفاصيل ذلك أنظر الكتاب، ص ١٦٢ وما يليها.
(١٧٩) البلاذري، ص ٢٤١.
(١٨٠) لوبيز ، المرجع السابق، ص ١٢٣.
أول مصنع أنشيء للورق في بغداد كان في ٧٩٤م أو ٧٩٥م بعد انتقال تركستان إلى السيطرة الاسلامية، فنقلت تقنية الصين إلى العرب وقد عرفت الصين الورق منذ القرن الأول الميلادي " أنظر لومبارد موريس " الجغرافيا التاريخية ".

على أهل قبرص، الذين كان معاشهم يتوقف على تجارتهم مع أهل سوريا. فإن قطع جستنيان للتجاره مع المسلمين أدي إلى إقفار الجزيرة من سكانها، ويضيف إنه إذا صح هذا التفسير فإنه يفسر أيضا سبب ثورة أسطول كبير هايوت، وذلك أن الأسطول كان يرابط بإقليم الأناضول الذي تربطه علاقة تجارية هامة مع مصر ولاسيما في تجارة الخشب. ولقد ثار هذا الأسطول ضد الحكومة وتحرك نحو القسطنطينية ليعزل الامبراطور الذي خلف جستنيان الثاني، ويفسر أيضا الدور الذي قام به تجار رافنا لإسقاط الامبراطور، إذ أن تجارها كانوا يصدرون الخشب إلى مصر منذ زمن بعيد(١٨١).

الشيء المعروف أن جزيرة قبرص تعرضت لحركة نقل سكان من قبل الامبراطورية من جهة ومن قبل المسلمين من جهة اخرى(١٨٢). وليس بسبب هجرة طواعيه قام بها السكان أنفسهم، هذا من جهة، ومن جهة ثورة الأسطول كانت بسبب هزيمتهم في شمال افريقيا وليس بسبب قطع العلاقات التجاريه. وربما يضاف سبب قطع العلاقات إلى أسباب ثورتهم.

ولكن لويس يؤكد أن لديه من الأسباب ما يجعله يأخذ بأن بيزنطة استخدمت الحرب الاقتصاديه في عام ٧١٥ أو ٧١٦م ضد الدوله الأموية. ومن تلك الأسباب دخول بيزنطه في مفاوضات مع اللمباردين لتنظيم التجاره الشرقيه بينها وبين ممتلكات اللمبارديين . كما أنها تفاوضت مع البلغار عام ٧١٦م لوضع معاهدة مع حاكم البلغار نظمت بموجبها التجاره بين البلدين تنظيما دقيقا ، فقررت نظاما لجوازات السفر ونصت على حق البلغار في جلب بضائعهم إما إلى القسطنطينيه أو إلى سالونيكا، حيث كان التبادل التجاري يتم تحت إشراف دقيق. ويعتقد لويس أن نظام الرقابه طبق على البلاد الاسلامية. ويقول بالظاهر أن بيزنطه أغلقت البحر المتوسط في وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد الاسلامية. ما دامت السفن الاسلامية لم تسر في المسالك البحرية التي رسمتها بيزنطة. وبالمقابل، فقد قامت البحرية الاسلامية بفرض حصار على بيزنطة وذلك انتقاما من الحصار الذي فرضته بيزنطة على حركة النقل البحري لكل من مصر وسوريا، ذلك الحصار الذي كان بمثابة حكم بالاعدام على الحياة الاقتصادية في كل منهما(١٨٣).

(١٨١) ارشيبالدلويس، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ - ١٣٦.
(١٨٢) أنظر الكتاب، حركة نقل السكان في القرن السابع، ص ٣٣٤.
(١٨٣) ارشيبالدلويوس، المرجع نفسه ، ص ١٤٠.

وبالرغم من ذلك فإن لويس يعود ويستدرك فيقول: إن بيرنطة لم تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم الاسلامي والبضائع الشرقيه والتي يقوم المسلمون بدور الوسيط في تجارتها(١٨٤). ومعنى ذلك أن الدولة البيزنطية والدولة الاسلامية، كانت عملية التبادل التجاري بينهما حيوية أو يمكن أن نسميه عملية التكامل الاقتصادي، فلو فرضنا قيام حصار كل منهما على الآخر فإن أمر دوامه مشكوك فيه حيث لابد من العودة إلى عملية التبادل التجاري لاحتياج كل منهما للآخر.

المنسوجات :

أما السلعة الثانية فهي الأقمشة أو المنسوجات وهذه السلعة أيضا كانت من السلع المحتكرة(١٨٥). احتكارا ملكيا وأن الاحتكار في هذه السلعة لم يشمل الصناعة والتجارة فقط ولكن شمل استخدام أنواع كثيرة منها، فهناك الأقمشه الخاصة بالأمبراطور ولكبار رجال الدولة بالإضافة إلى الأقمشه الخاصة بالأمة البيزنطية نفسها حيث يقولون "إننا نفوق الأمم الأخرى كلها في الثراء والحكمة" وهكذا نرى أن احتكار الأقمشة لم يكن فرضا من جانب الحكومة بل تغلغلت جذوره في إحساس الشعب نفسه، بالعظمة والتفوق(١٨٦).

وكتاب الوالي(١٨٧) يفصل لنا قوانين صناعة وتجارة الحرير، وفيه إشاره إلى نقابة خاصة هي نقابة تجار المنسوجات الحريرية السورية المسماة (Prandiopratai) ووجود مثل تلك النقابة يدل دلالة أكيدة على التبادل التجاري بين المسلمين وبين بيزنطة في هذه السلعة بالذات من جهة، ومن جهة أخرى أن بيزنطة نفسها صدرت الأقمشة المسموح بالتجارة فيها إلى بعض البلدان مثل إيطاليا وبلغاريا بتسهيلات خاصة بموجب معاهدات. وباختصار كان هناك تصدير من بيزنطة ولكنه بشكل محدود(١٨٨). أما من ناحية الدولة الاسلامية فقد اشتهرت منسوجات مدينة صور الأرجوانية، واشتهرت مصر بالكتان والستائر المخملية. هذا بالاضافة إلى مراكز ومصانع الحرير في بيروت وصور وغيرها، وبعد الفتح الاسلامي انتقل احتكار تلك المصانع إلى الدولة الاسلامية التي لم يكـن لديها مانع من تصدير النسيج الذي

(١٨٤) ارشيبالدلويس، المرجع نفسه، ص ١٤٠.
(١٨٥) أنظر الكتاب، ص (٤١٥).
(١٨٦) لويز، المرجع نفسه ، ص ١٣٧.
(١٨٧) أنظر الباز العريني ، **كتاب والي المدينة**، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد (١٩)، الجزء الاول ، ١٩٥٥م، ص ١٥٦.
(١٨٨) لويز، المرجع نفسه، ص ١٣٧.

تنتجه مصر والشام إلى الخارج. وكان بالإمكان شراء الأقمشة التي احتكرتها بيزنطة عن طريق الدول الاسلامية، بمعنى أن الدولة الإسلاميه سهلت على الغرب الأوربي شراء الأقمشة التي فرض عليها الاحتكار البيزنطي. وأن أي اضطراب في امداد الأقمشة الشرقية يعود إلى مشاكل ناشئة بين الحكومات إما البيزنطية والغربية أو البيزنطية الإسلامية. وأن ظهور الدولة الاسلامية لم يؤد إلى نقص الامدادات، بل على العكس قلل من مصاعب الحصول على الأقمشة وذلك لأن فكرة المسلمين عن الاحتكارتختلف عن بيزنطة[١٨٩].

والخلاصة ان المنسوجات طوال القرن السابع الميلادي كانت تصدر إلى الخارج سواء من الدولة الاسلامية أو من الدولة البيزنطية، بمعنى استمرارية هذا النوع من التجارة.

التوابل :

هي السلعة الرئيسية الثالثة التي كان لها وزنها في ميزان التبادل التجاري بين الشرق والغرب . وبعد الفتوح الاسلامية زاد الطلب على التوابل. ويبدو أن العرض من هذه السلعة كان أقل من مستوى الطلب . ويحتمل أن التوابل كانت تباع كلها تقريبا في العاصمة الاسلامية قبل وصولها إلى اوربا ، وعلى ذلك فإن من المحتمل أن الفتوح الاسلامية قد "أدت بطريق غير مباشر إلى انقاص كمية بعض التوابل في الغرب بسبب تأثير هذه الفتوح في رفع مستوى المعيشة في الشرق الأدنى". وإنقاص الكميه لا يعني نقص التجارة مع أوربا بالنسبه للسلع التي لم يكن العرض فيها أقل من الطلب[١٩٠].

هذا من جهة دور المسلمين، أما دور بيزنطة في تجارة التوابل فقد حاولت بيزنطة، قبل الغزوات الاسلامية، أن تحرم الفرس من الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من تجارة التوابل والحرير عن طريق إيجاد طرق تجارية جديدة . لهذا احتلت شبه جزيرة القرم وحسنت موانيها ، كما قامت بإخضاع اركينيا وبلاد القوقاز. ثم بدأت المفاوضات السياسية والتجارية بين بيزنطة ودولة الخزر التركية القائمة في منطقة جنوب روسيا ، وهي ذات صلات مباشرة مع الصين عبر بلاد التركستان. وفي نهاية

(١٨٩) لوبيز - المرجع نفسه ص ١٣٩
أيضاً لويس - المرجع نفسه ص ٢٨٠ - ٢٨١

(١٩٠) وسام فرج، العلاقات بين الامبراطوريه البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، (الاسكندرية، ١٩٨١م)، ص ٢٨٦.

القرن السادس عقدت معاهدة صداقة بين بيزنطة ودولة الخزر والتي ظلت حجر الزاوية في سياسة بيزنطة طوال القرون الثلاثة التالية وظلت دولة الخزر شوكة في جانب المسلمون ومن قبلهم الفرس .

وبعد الفتوح الاسلامية يقول هنرى بيرين أن تجارة التوابل قد اختفت بالنسبة إلى أوربا(١٩١) . ويرد لوبيز أن التوابل كانت ترد من بلاد مختلفة بعيدة لا يكفي الربط بين الاضطراب في امدادها والعلاقات العامة بين العالم الاسلامي وأوربا الغربية، فالثورات التي يمكن أن تكون قد حدثت في الشرق الأقصى الأسيوي أو في افريقيا يمكن أن تكون قد أثرت في تجارة التوابل تأثيرا عميقا. ويقال أن القرن الثامن كان عصر اضطرابات في آسيا الشرقية إذ انتابت الهند تلك الأزمة التي عقبت اندحار البوذيه هذا إلى عدد من الاضطرابات التي انتابت آسيا الوسطى.

أما من حيث موقف بيزنطة من تحكم المسلمين في تجارة التوابل فقد اتجهت بعلاقاتها التجارية ناحية الشمال الشرقي حيث ازدهرت تجارة البحر الأسود وبصفة خاصة تلك التي قامت مع مدينة خرسون ومملكة الخزر. وأتاح هذا التحالف مع الخزر فرصة للبيزنطيين أن يجدوا طريقا غير الطريق الفارسى الذي تحكم فيه المسلمون للاتجار مع الصين(١٩٢).

نخرج من هذا أن البيزنطيين وجدوا طريقا تجاريا جديداً ضمن لهم الحصول على منتجات الشرق الأقصى وخاصة التوابل التي كانت تجارة حيوية بالنسبة لهم، ويبدو أن بيزنطة قامت بعد ذلك بنقل هذه التوابل إلى الغرب الأوربي عن طريق تجار المدن الايطالية.

وبناء على ما سبق فقد استمرت التجارة في بيزنطة بل وتبادلت التجارة مع الدولة الاسلامية بالرغم من المناوشات الحربية التي لم ينقطع تيارها بين الطرفين . ولقد أورد جب هملتون(١٩٣) أربعة أدلة على ذلك. أولها: أن إبن سلام عندما تطرق إلى موضوع الجزية المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب كما يسميهم قال : إن هناك سُنّة سَنّها عمر بن الخطاب (٦٣٤- ٦٤٤م) وذلك بقيامه بأخذ الزكاة من

---

(١٩١) Pirenne - Economic & Social history P. 5.

(١٩٢) لوبيز، المرجع نفسه ، ص ١٤١.

(١٩٣) جب هملتون : التاريخ الاسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب، دمشق، ص ٧٥.
ويذكر كاتب آخر أن الضرائب الجمركية كانت ١٠ ٪ على كل من الصادر والوارد ، وأن هذا المبلغ كبير جدا.
أبي يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، (١٣-١٨٢)، كتاب الخراج، ط ٤، ١٣٩٢هـ، ص ٢١٤٣.
أنظر: Andreades P .65.

المسلمين بنسبة ٥, ٢٪ ومن أهل الذمة ٥٪ ويأخذ ١٠٪ على تجار أهل الحرب وانه حينما فرض عليهم ذلك العشر إنما كان بسبب أنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم. ويحدد تجار أهل الحرب بقوله : "الروم كانوا يقدمون إلى الشام". ثانيا : إبن قتيبة ذكر في كتابه عيون الأخبار، الجزء الأول: "كانت القراطيس[١٩٤] تدخل بلاد الروم من أرض المسلمين، وتأتي من قبلهم الدنانير" ثالثا: أصدر عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠م) أمراً إلى العمال أمرهم فيه ألا توضع العراقيل في سبيل من يتاجرون بحرا. رابعا: نقلا عن إبن عبد الحكم عن نزاع دار حول دار الفلفل، ودار الفلفل هذه خزن فيها أسامة بن زيد التنوحي عندما كان واليا على خراج مصر كمية من الفلفل تقدر بعشرين ألف دينار. لأن الوليد بن عبدالملك كتب إليه بذلك لأنه أراد إهداء الفلفل إلى ملك الروم[١٩٥].

ونضيف إلى ذلك دليلا آخراً وهو أن أمير البحر الاسلامي، عبدالله بن قيس من بني فزارة قام بخمسين غزوة بحرية صيفا وشتاءً على بلاد الروم ، دون وجل أو خوف. فكان يذهب ليستطلع أماكن البيزنطيين "الروم" ويدرس طرق مفاجأتهم وإنزال الهزائم بهم. وقد دفع حياته ثمن جرأته في آخر الأمر. لقد خرج عبدالله في أحد قوارب الاستطلاع لدراسة أحد المواني الرومية "البيزنطية" وكان متخفيا في زي أحد التجار ونزل على المرفأ دون أن ينتبه إليه أحد، وتقدمت منه امرأة تطلب إحسانا، فأعطاها، فذهبت مسرعة إلى حراس الميناء وقالت لهم: عبدالله بن قيس في الميناء. فأسرع إليه الجند وقتلوه[١٩٦].

هذه الحادثة تدل دلالة أكيدة على وجود علاقات تجارية. وان التجار كانوا يفدون إلى الشواطىء البيزنطية ولا يلقون أي معارضة عدائية، بل أن منظرهم كان مألوفا ولا يثير المشاكل أو الشغب، لذلك تخفى أمير البحر المسلم في زي تاجر حتى لايثير الشكوك حوله.

ويورد لوبيز أن نجم التاجر البحار قد سطع سريعا خلال القرن السابع. ويرى أنه ربما لا يكون جريئا في الاقتراح بأن هذا تأثير إسلامى حيث أن التجارة والتجار لهم مكانتهم عند المسلمين . وأن محمد ﷺ كان هو نفسه تاجرا. ويضيف سببا آخر هو بقاء أقاليم تعلق بقاءها على نجاح البحارة في امدادهم بالطعام والسلاح والمؤن الأخرى[١٩٧].

---

(١٩٤) يقصد بها ورق البردى.

(١٩٥) إبن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٩.

(١٩٦) الطبري، ج ٥، ص ٥٣.

(١٩٧) Lopeze, The Role of Trade, p. 84.

وهنا قد يوجه بعض النقد إلى أن الامبراطورية وضعت قيوداً للتحكم في الصادرات والواردات. والحقيقة أن منع الاستيراد كان إجراء غير معروف. أما التحكم في الصادرات فقد كان محدودا في سلع قليلة لأسباب معينة. وكان الصابون المادة الوحيدة التي منع استيرادها، وذلك لحماية الصناعة المحلية الامبراطورية . أما ما حرم تصديره فقد اقتصر على أربع سلع رئيسية هي :

١ - ملابس الاحتفالات الرسمية الخاصة بالامبراطور ورجال البلاط والخاصه بالهدايا الامبراطورية وهذا ينطبق على الملابس المصنوعة من نوع معين من الحرير.
٢ - المواد الخام التي يرغب في المحافظة عليها للصناعة "لم يحددها الكاتب".
٣ - السمك المملح والذي يمثل الطعام الرئيسي للعاصمة.
٤ - الذهب للمحافظة على مالية الدولة(١٩٨).

ويضاف إلى ذلك الخشب الذي مثل مادة استراتيجية هامة في الحرب بين المسلمين والبيزنطيين في القرن السابع. وكانت مشكلة الخشب ملحة بالنسبة للمسلمين لبناء أسطولهم وقد جلس لهم البيزنطيون بالمرصاد في هذا المجال وفرضوا حولهم حصارا.

كانت مشكلة الخشب ملحة بالنسبة للمسلمين لأن الطلب على الخشب يتزايد خاصة ما كان يلزم منه لبناء الأسطول الاسلامي. ويقال أن الخشب أصبح نادرا وذلك ان الغابات في شرقي البحر المتوسط وفي القسم الجنوبي بالذات منه قد نضب معينه منذ زمن بعيد بعد أن استغلتها الحضارات القديمة في حوض ما بين النهرين وبلاد فينقية ومصر، ولاسيما في الانشاءات البحرية وعلى الأخص دور صناعة البحر الفينيقية. ويعتبر جبل لبنان مثلا على ذلك،إذ كان الممول لكل أساطيل الحوض الشرقي من البحر المتوسط. ومنذ مطلع العصر الوسيط "لايحدد الفترة " لم يعد لبنان يصدر الخشب. غير أن الغطاء النباتي في الفترة ما بين القرن الثامن وحتى الحادي عشر لم يكن مثل الصورة التي هو عليها الآن .

لهذا كان من الضروري استيراد الأخشاب من الخارج. ولقد كان الطلب على الخشب شديدا جدا وعلى الأخص في بلاد ما بين النهرين وفي مصر وفي افريقية، وهي بلاد شديدة الاستهلاك للخشب، ولكنها في نفس الوقت محرومة من موارده، وقد استورد الخشب من المناطق الغنية به مثل أرمنيا، والهند، والغرب الأوربي.

---
(١٩٨) Andreades, Ibid, P, 66.

وكان الأباطرة البيزنطيون يحظرون بشدة بيع الخشب وعلى الأقل على شكل جذوع، وذلك ضمن إطار نزاعهم مع المسلمين في سبيل السيطرة على الحوض الشرقي من البحر المتوسط. حتى أن حكومة القسطنطينية عمدت في ٩٧١م إلى إحراق ثلاث سفن من سفن البنادقة المشحونة بالخشب وكانت متجهة إلى شمال أفريقيا. ولكن التجار البنادقة لم يتقيدوا بهذا الحظر.

وعلى هذا فإن العالم الاسلامي اعتمد على مصادر الخشب البعيدة الذي كلفه استيراده الجهد والمال، وكان عليه أن يسدد ثمن ذلك الخشب ذهباً (١٩٩).

القمح :

كان القمح من أهم السلع التجارية التي كانت لها أهمية خاصة بالنسبة لبيزنطة . ويأتي على رأس السلع التي كان يمكن أن يكون محل تبادل تجاري بين البيزنطيين والمسلمين. وهذه السلعة لم يذكرها لوبيز ولم يضعها على قدم المساواة من الأهمية مع ورق البردى أو النقود مع أنها كانت سلعة استراتيجية أساسية بالنسبة لبيزنطة، مثلها في ذلك مثل الخشب بالنسبة للمسلمين. ونتساءل عن كيفية توفير القمح لسد حاجة الامبراطورية؟ هل تبادلت القمح مع المسلمين مقابل سلعة أو سلع أخرى؟ ولابد أن يقفز إلى أذهاننا سؤال مهم وهو عن مدى إدراك المسلمين لأهمية القمح بالنسبة لبيزنطة؟ وهل عمد المسلمون إلى منع وصوله إلى بيزنطة وذلك ردا على محاولة بيزنطة حرمانهم من الخشب؟

(١٩٩) موريس، الجغرافيا التاريخية، ص ١١٥ ، ٢٥٨.

كان الخشب في جميع الاوقات نادرا في مصر. ومنذ أيام الفراعنه كان الخشب البلوط يستورد من اسيا الصغرى. وخشب الصنوبر كان يستورد من العاصمة البيزنطية وكذلك سوريه أيام العرب . والأنواع الأساسية من الخشب التي تستخدم في البناء كانت جذوع النخيل والسنط والجمي،. وخشب النخيل (Nahl, Phoenix dactylfera) وهو أعظم أنواع الخشب إثمارا في مصر منذ العصور القديمة في الأزمنة الغابرة حيث كان أعظم أنواع الخشب شأناً . واستخدمت أشجار النخيل لبناء قصر أمير المؤمنين بالفسطاط، وكذلك في إصلاح السفن وبنائها. وينطبق هذا أيضا على أشجار الجميز المنتشرة في الجهات المختلفة ، وخشب الجميز من أحسن الأنواع في مقاومة التغيرات الجوية والمائية، وكان يستخدمه المصريون القدماء في أغراض كثيرة. وخاصة في صناعة الأبواب. وخشب السنط كان يستهلك منه كميات أكبر، حيث كان أثمن الأنواع لبناء السفن نظرا لصلابتة ، وتكثر أشجار السنط في إقليم البهنسة وأشمون وأسيوط واخميم وقوص في مصر، وفي الأعمال الأخرى الثقيلة . وفي أوراق البردى يرد ذكر خشب الجميز بكثرة لبناء وإصلاح السفن. ويلي جذوع النخيل وخشب الجميز خشب السنط، وهو خشب يستهلك منه بكمية أكبر وهو أنسب الأنواع في بناء السفن وذلك بسبب متانته وصلابته. ويذكر المقريزي في خططه ، أن شجر السنط كان كثيرا وخصوصا في إقليم البهنسة وقفط ورشين والأشمونين وأسيوط واخميم وقوص، وأن الحراس كانوا يحرسونها ولم تكن تقطع إلا عند الاحتياج إليها لبناء السفن الحربية . (المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١١٠).

وقد كان الخشب عظيم القيمة وكانت بعض الجذوع تساوي نحو مائة دينار. ولقد كان تأمين توريد الخشب وتموينه مهما جدا.

أوراق البردى العربية، دار الكتب المصرية، جروهمان، السفر الخامس، ص ٦٢ - ٦٦.

لقد وضع المسلمون يدهم على إنتاج القمح بعد فتح مصر وإن كان Teal يذكر. أن بعد أحداث سنة ٦٤١م نقص الانتاج المصري من القمح. وفي الوقت نفسه كان المسلمون في حاجة ماسة إلى القمح المصري لسد حاجة محاربيهم وفتحت أسواق جديدة للقمح المصري في المدن المقدسة في الحجاز وأسواق أخرى في النوبة لمبادلته بالعبيد(٢٠٠).

ولعل بيزنطة لجأت إلى تعويض مافقدته من قمح من مصر بأن عملت على استيراده من شمال افريقيا وصقلية. ونعرف أن المسلمين لم يتموا فتح شمال افريقيا إلا في نهاية القرن السابع، في حين كانت صقليه لا تزال ولاية من ولايات الامبراطورية البيزنطية طوال القرن السابع.

وأوضحت الحوليات وكتب القديسين أن مواني بيزنطة كانت مستخدمة لأغراض تجارية وحربية، وان كتاب معجزة القديس، ارتيميوس Artemius المؤلف في منتصف القرن السابع يروي قصة مجموعة من التجار من كل من جزيرة chios، كيوس، والقسطنطينية وقرطاج وعدد كبير من التجار ، غير المعروفين، بحثوا عن الشفاء في ضريح القديس وكان هؤلاء التجار يملكون سفنهم الخاصة بهم وأنهم أحضروا كميات كبيرة من القمح إلى العاصمة، وأنها انقذتها من المجاعة المحققة خلال حصار المسلمين لها في القرنين السابع والثامن(٢٠١).

وقد اعتمدت بيزنطة على مجالات اخرى خارج حدودها السياسية لتعويض ما فقدته من اسواق فأقامت علاقات مع شعوب شمال البسفور وبخاصة مع البلغار القاطنين على شواطيء الدانوب.

وتنهض المعاهدة التجارية لسنة ٧١٦م دليلا على وجود اتصال بين القسطنطينية وموانيء البحر الأسود وهي Mesambria ميسيبيريا، وانكاليوس Anchialus. وكانت الحبوب من ضمن السلع التي كانت تتزود منها. ويبدو أن سوريا، قبل إتمام سيطرة المسلمين عليها، شاركت في إمداد القسطنطينية بالقمح، إذ ورد في رسالة اليهودي ابراهيم، أنه كان يتاجر في الحرير والحبوب في موانيء سوريا على عهد هرقل، ولعل المرسوم الذي أصدره الأمبراطور ليو الخامس (٨١٣-٨٢٠م) بتحريم التجارة مع مصر وسوريا دليل على أن التجارة كانت لا تزال مستمرة مع هذين القطرين إلى عهده(٢٠٢).

---

(٢٠٠) Teal, **Grain Supply** , D. O . P. 13 (1959) P . 96.

(٢٠١) Teal , Ibid P. 104.

(٢٠٢) Teal , Ibid. PP 104 , 118- 120.

ويذكر Teal أنه قد ورد على لسان George of Pisidia[٢٠٣]، أن منطقة آسيا الصغرى كانت تعاني نقصا في ضروريات الحياة[٢٠٤].

ويشير كتاب معجزات القديس ديمتري، الذي يستند إليه Teal أنه إثناء حصار الآفار والسلاف لسالونيكا في الفترة ٦١٧ و ٦١٩م إنحبس كثير من السكان خارج أسوار سالونيكا أثناء قيامهم بجمع محاصيلهم، وفي هذه الأثناء جاء تجار من القسطنطينية، أشهروا أسلحتهم في وجه الأفار والسلاف فحملوهم على الفرار. وهذا هو تفسير لكلمة Militerization عسكرة للأمبراطورية البيزنطية، وهي الكلمة التي لاتعني وضع السلطتين المدنية والعسكرية في يد قائد يدعى ستراتيجوس ولكنها تعني تعلم جميع السكان حمل السلاح والدفاع عن أنفسهم والتعايش مع الخطر[٢٠٥].

وبهذا تكون بيزنطة قد استطاعت التغلب على مشكلة نقص القمح باستيراده من مناطق داخلية، ومناطق خارجية. وإلى جانب ذلك لم تكتف بيزنطة باستيراد القمح، بل قامت بزراعته داخل أراضيها في كل من دوقيات تراقيا وبشينيا وفي منطقة ثيم الابسيق الذي كان يوجد به دير القديس اويتراتيوس Eustratius، حيث استخدم الرهبان في نقل الحبوب إلى من هم في حاجة إليها[٢٠٦].

وهكذا يتبين لنا أن كلا من صقلية وشمال افريقيا قد عجزت عن تعويض ما فقدته بيزنطة من القمح بشكل كاف خلال القرن السابع إلا أن بيزنطة سدت حاجتها بالاستيراد من جهة، وبالزراعة من جهة أخرى. ولكن كانت هناك حقيقة مهمة لصالح بيزنطة وهي أن الطلب على القمح قل عما كان عليه ، إذ كان الجيش البيزنطي قد استقر في الثيمات واعتمد في سد حاجته إلى القمح بزراعته في أراضيها. وتوافق هذا مع انكماش حدود الامبراطورية ونقص في عدد سكانها من جهة، وعدم توزيع الخبز المجاني من جهة ثانية[٢٠٧].

الصناعة :

من أهم أوجه النشاط الاقتصادي، المرتبطة بحياة المدن، النشاط الصناعي، حيث يمثل العمل في الصناعة جانبا من جوانب النشاط الاقتصادي الحضري. وللصناعة أهمية كبرى في الامبراطورية البيزنطية. ومن اهم الملامح التي تميزت

(٢٠٣) شاعر امجاد هرقل في الملحمة الفارسية George of Pisidia.

(٢٠٤) Teal , Ibvid , P 121.

(٢٠٥) Teal , Ibid P. 124.

(٢٠٦) Idem , P. 124 - 125.

(٢٠٧) Idem , P . 89.

بها الصناعة البيزنطية والتي اشتهرت بها ما كان متصلا بانتاج سلع الرفاهية، وعلى رأسها صناعة الحرير. التي صنعت منها الملابس الفاخرة للامبراطور والارستقراطيين وملابس المراسم الدينية. والسيطرة على صناعة الاقمشة الثمينة كانت سلاحا قويا في يد الامبراطور البيزنطي . ومن ثم كانت الأقمشة الثمينة، رمزا للسلطة السياسية . وكان الأمبراطور صاحب الحق الوحيد في السماح بتصدير تلك السلعة الثمينة والصبغة الأرجوانية والتطريز بالذهب وبكميات ونوعيات محدودة إلى دولة أو كنيسة أجنبية(٢٠٨).

وقد حرم استعمال المنسوجات الثمينة على الطبقات الدنيا من الشعب. والسبب وراء حرمان الطبقات الدنيا يعود إلى أن تلك المنسوجات كانت رمزا للسلطة. وحتى البرابرة خارج الحدود منعوا من استخدام تلك الأقمشة، ووضع تصديرها تحت سيطرة ورقابة شديدة من الأمبراطور نفسه. وللسيطرة على صناعة الحرير قام الامبراطور بسن أنظمة وتعليمات تمثلت في النقابات الأمبراطورية، والنقابات الخاصة، وتعيين أشخاص مخولة لهم سلطات معينة، وكل هذا مثبت بواسطة قانون، وكان على أولئك الموظفين مراقبة عمليات بيع المنتجات الثمينة وخصوصا البيع إلى الأجانب والذي كان يتم في نقاط محددة. وقد وضعت قيود عامة ومعاهدات تجارية تنظم وبالتفصيل تصدير النسيج إلى مختلف الأقطار(٢٠٩).

وقد يعيننا على فهم تنظيم النقابات الصناعية والتجارية والصناعات والمهن والحرف التي شملها النشاط الاقتصادي بالرجوع إلى مرسوم أصدره الأمبراطور ليو السادس (الحكيم) (٨٨٦-٩١٤م) إلى والي القسطنطينية والذي يعرف باسم كتاب الوالي وهو باليونانية Bblion Leontos Tou Eparchi أو To, Eparchikon Biblion وباللاتينية EpacLeonis ويعود تاريخ هذا المصدر المهم في دراسة الحياة الاقتصادية البيزنطية إلى القرن العاشر غير أنه إزاء افتقارنا إلى مصدر مماثل ومباشر من القرن السابع نرى أنه لابأس من الرجوع إلى هذا المرسوم اذ من المرجح إلى حد كبير، أن يكون الأمبراطور قد جمع فيه عددا من المراسم التي كانت تنظم النشاط الاقتصادي في العاصمة والتي كانت تسود هذا القرن إن لم يكن في فترات سبقته(٢١٠).

---

(٢٠٨) Lopez - **Silk Industry in The Byzantine Emppiiree** Speculum xx (1945) P. 1ff.

(٢٠٩) Idem , P . 2-3.

(٢١٠) قام بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية السيد الباز العريني معتمدا على الترجمة التي قام بها الاستاذ بوك A. E.R. Book , in jnl of The Economic History and Business, I, 1929. بعنوان " الحسبة في بيزنطه في القرن العاشر الميلادي أ او كعاب والي المدينة The Book of The Prefect في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٩، الجزء الأول، ١٩٥٥م، ص ١٣٩ - ١٨٧.

وتنقسم نقابة صناع الحرير إلى قسمين: الأول Demosia Somata وهو قسم النقابات الامبراطورية والتي كانت تحت الإدارة الحكومية، وهي تعمل في صناعة وصباغة الأقمشة الثمينة الخاصة بالملابس الأمبراطورية ورجال البلاط وأصدقاء الأمبراطور، سواء في الداخل أو الخارج، هذا بالاضافة إلى الملابس التي كانت توزع على كبار موظفي الدولة كجزء من مرتباتهم، إلى جانب المنسوجات التي يبعث بها الأمبراطور إلى الدول والكنائس الأجنبية، سواء على شكل هدايا أو على شكل إتاوة أو جزية.

والنقابات الامبراطورية Demosia Somata تعد واحدة من الأمثلة البارزة على استمرارية صناعة الحرير خلال القرن السابع حيث ورد ذكر بائعي الثياب والخياطين Stourgoi و Raptai أو الـ Gunaikairioi والذين يصبغون بالصبغة الأرجوانية Kogxulentai أو Ozubafeis والمطرزات بالذهب Chrysoklabarioi أو Brbarikaarioi والتي ختمت بأختام نقابات الدولة الثلاث والتي كانت عبارة عن امتداد نقابات الأمبراطورية الرومانية المتأخرة وهي The Gynaeeciaarii والـ Ba- pheis أو Paurrpurarrii والـ Barbarriccaarrii. هذا بالاضافة إلى أن أعضاء هذه النقابات كانوا ينحدرون من سلالة اعضاء النقابات الرومانية القديمة التي كانت تتماثل معها.

وفي الواقع إن أباطرة الأمبراطورية الرومانية المتأخرة حصروا أو جمدوا، حسب تعبير لوبيز، نساجي الأقمشة الثمينة وصباغتها في مهنتهم وأدخلوهم بذلك في نظام الطوائف المنغلقة الصارم، والذي كان قد اكتمل تكوينه في القرن الرابع . أما أعضاء النقابات الامبراطورية فلم يكن في وسعهم الانسحاب من عملهم، بل إن أولادهم ومصالحهم كانت ملتصقة بنقاباتهم. وكان ذلك في الوقت الذي كانت فيه الدولة تجبر بالقوة المتمرسين بالعمل وعلى مستوى رفيع بالبقاء اعضاء في النقابات.

= وقد قدم لترجمه بدراستة هذا الكتاب الذي اعتبره بعض الباحثين المصدر الذي تأثر به الامبراطور البيزنطي بما عرفه عن وظيفة المحتسب عند المسلمين وتوضيح محتوياته وما اشتملت عليه تعليمات الامبراطور بخصوص النقابات والمهن والحرف وممارستها وللكتاب ترجمة انجليزية احدث قام بها .

E. Freshfield, **Roman Law in The later Roman Empire**,(Cambridg 1938)

راجع ايضاً : Ch. M. Macri , **Orgnisation de L" economie urbaine dans By- zance Dynaste** de Macedoine(paris, 1925)

وقد خصص الفصل الثاني (ص ٣٣ - ٦٤) لدراسة الكتاب وتنظيم النقابات وخصص الفصل الثالث (ص ٦٥ - ٩٨) لدراسة دور والي القسطنطينية في هذا المجال . غير ان اوستروجروسكي غير مقتنع به

انظ ايضا : ج م . هسي ، العالم البيزنطي ، ترجمة رأفت عبدالحميد ط ٣ القاهرة ١٩٨٤ ص ٣١٥ وما يليها

راحع ايضا : Lopez , **Silke industry** P. 13.

وليس هناك أشد قسوة من هذا النظام على الكثير من العمال، وخاصة أن معظم عمال الأمبراطور كانوا ينحدرون من سلالة العبيد. وقد اتخذت احتياطات خاصة بالنسبة لصناع وصابغي المنسوجات الثمينة . إذا ما استغنت عنهم الدولة فقد كان في وسعهم أن يعملوا أجراء عند أفراد من المواطنين. على أي حال فإن الاتجاهات بالنسبة للقوة العاملة في الصناعات تغيرت ذلك لأنه صدر قانون في ٤٢٦م يسمح لأي عضو من أعضاء النقابة أن يترك العمل بشرط أن يحل محله بديل تقبله النقابة. ولكن هذا التغيير لم يكن خطيرا ذلك لأن الاعفاء من العمل كان يتم بشكل فردي فلم تتضرر مصالح العامل أو ذويه. ولاحظ جستنيان الأول تضخم في عدد العاملين في الصباغة الأرجوانية فطردهم من القسطنطينية.

وفي النصف الأول من القرن السابع شكت إدارة النقابات الأمبراطورية، من وجود عدد كبير من الأعضاء الذين لم يكونوا مهرة وغير صالحين للعمل. فبادر الأمبراطور هرقل إلى إصدار قانون قيد به السماح بالانخراط في عضوية النقابات بالنسبة لأبناء أعضاء النقابة وأقربائهم. ومنع التحاق أي عامل جديد بالنقابة إلا في حالة وجود مكان شاغر. وكان على المتقدمين للعمل أن يجتازوا امتحانا يعقده لهم رؤساء الصنعة وموظفوا الأمبراطور. وبعبارة أخرى فإن نقابات صناع المنسوجات الثمينة وصباغها لايزالون ينتظمون في طبقات وراثية. وأصبح العمل الحكومي الآن امتيازا، في حين كان في الفترة المتأخرة من عصر الأمبراطورية الرومانية إلزاما. ولم تعد الدولة تجبر العمال على الالتحاق بالنقابات الامبراطورية، بل كانت تحد من عدد الراغبين في الحصول على عضويتها. وظل قانون هرقل هذا ساري المفعول في القرنين التاسع والعاشر وأدمج في الـ Basilika، وهي مجموعة القوانين الرسمية للأسرة المقدونية. وبمضي الوقت أصبح لهم مكان رسمي في مواكب القصر. واستحقوا تلك المكانة فكان بينهم فنانون على درجة عالية من المهارة[٢١١].

ومنذ القرن الرابع وحتى القرن العاشر لم يحدث أي تغيير بالنسبة للتنظيمات الداخلية للنقابات وكذلك بالنسبة للمراقبة فنجد وظيفة الـ praipositoi أو Mei-soteroi في الفترة المتأخرة من عصر الأمبراطورية، والمدير Meledon أو Ergas-teriarches و Archoa هي امتداد لوظيفة Procurator الرومانية، وكان رأس هيئة الـ Eidikon التي كانت أحد فروع الخزانة الرئيسية هي وريثة وظيفة Count

(٢١١) الباز العريني، كتاب **الوالي**، ص ١٣٧ - ١٣٨.
أيضا: Lopez , Ibid, PP. 1 -5

كونت الخزانة المقدسة of Sacred Largesses، والمراقبة الادارية على مصانع النسيج الامبراطوري Basilika Ergodosia، من المراجع أن يكون والي المدينة، وهو صاحب السلطة العليا على الصناعة والتجارة في المدينة، ويمكن أن يكون أيضا من مهامه مراقبة المصانع، مثلما كانت وظيفة الوالي البريتوري في الأمبراطورية الرومانية المتأخرة(٢١٢).

ومن الجدير بالملاحظة أن النساء عملن في المصانع الامبراطورية وكذلك العبيد، ولكن عملهم اقتصر على الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة عالية، وأن الإدارة لم تكن تعطيهم الثقة الكاملة، بل كانت تقف منهم موقفا حذرا، خوفا من انهم قد يهربون أو يفشون أسرار الصناعة إلى الغرباء(٢١٣).

والمصادر تتحدث عن نقابات النسيج الأمبراطورية في القسطنطينية، أما عن الولايات فلا توجد إشارة لوجود نقابات أمبراطورية في القرن العاشر، ولكن بالتأكيد كان هناك نقابات في القرن السابع، وخصوصا في وقت صدور قانون هرقل. حيث أنه بمقتضى ذلك القانون انتقلت المراقبة من كونت الخزانة المقدسة إلى حكام الولايات. وبعد موت هرقل أخذت الصناعة التابعة للحكومة تتركز بالتدريج في العاصمة.

الثاني وهو قسم النقابات الخاصة وهي التي يطلق عليها اسم Somata تمييزا لها عن النقابات العامة Demosia Somata وكان في القسطنطينية خمس نقابات خاصة هي :

نقابة تجار الحرير	Metaxopratai
غزالو الحرير	Katartarioi
صناع الأثواب والصباغين	Serikapioi
تجار الأثواب الحرير المحلي	Bestiopratai
تجار المنسوجات الحريرية المستوردة	Prandiopratai

وتعمل هذه النقابات في صناعة المنسوجات التي تأتي في الدرجة الثانية من الجودة وبيعها إلى عامة الناس، وتسهم بذلك بجانب أساسي في التجارة الخارجية. وكانت هذه النقابات تقوم بتزويد الخزانة الأمبراطورية بجانب من الأقمشة كنوع من

(٢١٢) Idem P. 6.
(٢١٣) Idem P. 6.

الضريبة العينية Munus ولكن أعضاء هذه النقابات لم يكونوا عمالا للدولة فهم مهرة مستقلون وتجار مثأ اعضاء أي نقابات خاصة اخرى . وكذلك فإن الـ Basilica وهي مجموعة القوانين الرسمية للدولة في القرن العاشر لم تتضمنهم ولكن كتاب الوالي شملهم(٢١٤)، وأهم ما يميزها عن النقابات الأمبراطورية، أن إنتاجها تستعمله طبقات الشعب الغير المتميزة. وأن العمل فيها لايخضع لشروط الوراثه. ويجب أن يؤخذ في عين الاعتبار أن الامبراطورية الرومانية لم تفرق، من الناحية القانونية، بين النقابات الأمبراطورية التي كانت تديرها الدولة إدارة مباشرة والتي كانت تعمل من أجل الدولة وبين النقابات الخاصة التي كانت تدير أعمالها بنفسها. ولكنها كانت مسؤولة أمام الدولة عن تنفيذ أعمال بعينها. وبدأت التفرقة تتضح عندما أعفت النقابات الخاصة تدريجيا من التزاماتها العامة. وقد بدأت هذه الظاهرة في عصر جستنيان الأول ولم تستكمل إلا في العصور الوسطى البيزنطية بعد بداية القرن السابع(٢١٥).

وقد أجاز الأمبراطور لمجموعة ثالثة المشاركة في صناعة الحرير وتجارته، وهذه المجموعة هي مجموعة من طبقة النبلاء . سمح لهم أن يصنعوا لأنفسهم بعض أصناف من القماش الأرجواني والملابس الحريرية، وسمح لهم ببيعها لنقابة تجار الملابس المصنوعة من الحرير المحلي، وأن يشاركوا نقابة تجار الملابس السورية من الأجانب. ولكن حرم عليها شراء الحرير الخام من السوق وحرم عليهم أيضا صناعة الأقمشة الأمبراطورية الممنوعة. وقد أقام هؤلاء النبلاء مصانع الحرير في ضياعهم وقاموا بتربية دودة القز، وبالتالي إنتاج الحرير الخام ولذلك يكونون قد تجاوزوا كل المحظورات المفروضة عليهم(٢١٦) ولكنهم لم يستطيعوا فرض سيطرتهم على السوق وذلك لأنه كان هناك مرسوم يحتم بيع الحرير الخام الخاص بالصناعة الخاصة من خلال موظف امبراطوري واحد وهو Comes Commerciorum Per Orientem وعلى هذا فإن تجار بيع الحرير كان عليهم التعامل مع مشتري واحد وهو الذي يحدد الأسعار بل ويضغطها أو حتى يرفض الشراء اذا لم يخضع التاجر للسعر الذي يحدده، هذا إلى جانب أن الـ Count of The Commerci يمكنه أن يخضع الحرير الخام لأولويات تعطي الاولوية في الحصول على الحرير الخام للمصانع الامبراطورية،

(٢١٤) Idem P . 6.

(٢١٥) Idem P. 2.

أيضا : الباز العريني، كتاب والي المدينة، ص ١٣٨.

(٢١٦) الباز العريني، كتاب والي المدينة ص ١٣٩.

Lopez, Ibid P. 10 - 11.

ويلي ذلك التجار الذين يشترون من القطاع الخاص[٢١٧]. وثمة إشارة إلى فقراء تجار الحرير الذين يتسببون في تجارة الحرير الخام وهم المعروفون باسم Metaxarioi. وفقراء غزالي الحرير Atartarioi وهؤلاء يجوز لهم الشراء بالتجزئة مما يحتاجون إليه من الحرير الخام من أعضاء النقابات الخاصة بذلك[٢١٨].

والصناعة التي تلي صناعة الحرير في الأهمية هي صناعة المجوهرات والتي لها نقابة مع نقابة تجار المجوهرات. ولا يوجد إشارة إلى أي تغيير ملحوظ في صناعة أو تجارة المجوهرات، بل الشروط التي وردت في كتاب والي المدينة والتي يجب تطبيقها هي شروط عامة[٢١٩]. ونقابة صناعة الأقمشة الكتانية والاتجار فيها وتسويقها والتي ورد ذكرها في كتاب الوالي ولم يرد فيها أي تغييرات تذكر عن القواعد المعتادة[٢٢٠].

نقابة صناع الشمع :

لم يذكر كتاب الوالي أي تغيير أدخل على صناعة الشموع سوى القواعد والشروط التي يجب على صناع الشموع اتباعها. ولكن ذكر أن نتيجة لفقدان شمال افريقيا في أواخر القرن السابع والمناطق الجنوبية في الأندلس حرمت بيزنطة من كميات كبيره من زيت الوقود اللازم للإضاءة. وهو أساس زيت الزيتون، والذي كان يصدر إلى بيزنطة من تلك المناطق. وبعدها اضطرت بيزنطة إلى الاعتماد على الشموع للإضاءة أكثر من ذي قبل. وبذلك ازدهرت صناعة الشموع وكثر الاقبال على شرائها[٢٢١].

ويرى لوبيز أن فقد زيت زيتون افريقيا قد ساعد على التحول إلى إضاءة أفضل بواسطة الشموع. وقد تطورت صناعة الشموع وانتشر استعمالها حتى انه يذكر انه في سنة ٩٣٠م كان في القسطنطينية شارع بأكمله مخصص لبائعي الشموع وأن ذلك الشارع قد احترق بأكمله في ذلك التاريخ[٢٢٢].

---

(٢١٧) Lopez , Silk industry , p . 9.

(٢١٨) الباز العريني، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٢١٩) الباز العريني، المرجع السابق، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢٢٠) الباز العريني، المرجع نفسه، ص ١٦٢ - ١٦٦.

(٢٢١) الباز العريني، المرجع نفسه، ص ١٦٢ - ١٦٦.

(٢٢٢) Lopez, The Role of Trade P . 72.

نقابة صناع الصابون:

يذكر كتاب الوالي الشروط التي يجب على صناع الصابون أن يتبعوها في صناعتهم . ويذكر أيضاً تغييراً بالنسبة لصناعة الصابون مقترن بالقرن السابع، وهو مرتبط بنقص وارادات الزيت إلى بيزنطة، لذلك لجأ صناع الصابون إلى صناعته من الشحوم بدلا من الاعتماد على الزيت في صناعته كما كان معروفا من قبل . وربما كان هذا السبب المباشر في وضع قانون يمنع صناعة الصابون من دهن الحيوان أثناء الصيام الكبير أو في أيام الصيام الصغير. وتقرر جلد وقص شعر من يخالف ذلك، بل وارغامه على التخلي عن حرفته(٢٢٣).

نقابة صناع الجلود:

يبدو انها كانت من المصنوعات الهامة حيث وجدت صناعة السيور الجلدية وسروج الدواب التي تجر العربات. وهناك صناعة الجلود اللازمة لصناعة الأحذية. وهؤلاء انقسموا إلى طائفتين: طائفة المجهزين، وطائفة الدباغين. ولا يذكر أي تغييرات طرأت على هذه الصناعة(٢٢٤).

ومن الصناعات الهامة والتي لم يرد ذكرها في كتاب الوالي هي صناعة الأسلحة. وصناعة الأسلحة تشمل صناعة السلاح والدروع وجميع ادوات الحرب . وكانت المصانع الحربية Fabricae حكومية. ووضعت تحت سيطرة موظف باسم Ma-gister of Ficiorum وسلطة هذا الموظف تشمل المصنع والأشخاص العاملين فيه ونشاطه فقط ولكن لا تشمل الامداد بالمواد الخام وربما ولا حتى الانتاج(٢٢٥).

وامداد المصانع بالمادة الخام عملية تقوم بها إدارة الولاية وهي التي تأخذ انتاج المصانع. وهذا المثال ينطبق على باقي المصانع. وعلى هذا تكون هذه الادارة عبارة عن وكالة ضخمة تمد المصانع بالمواد الخام وتخزينها وجمع المنتجات الصناعية، وهذه الإدارة هي أساس Idike Trapeza التابعة لولاية الشرق. ذلك لان كلمة Idikon تعني البضائع، أو مخزن للبضائع، بداية من المعدن الخام إلى الحرير الناعم، والـ Ikon يستطيع شراء المواد المصنعة من السوق ويستطيع بيعها بنفس الطريقة. ومن

---

(٢٢٣) الباز العرين، المرجع السابق، ص ١٦٦ - ١٦٧.
أيضاً : Lopez , The Role of Trade P . 72.
(٢٢٤) الباز العريني، المرجع نفسه ، ص ١٦٨ - ١٦٩.
(٢٢٥) Hendy , Ibid , P . 629.

الممكن أن يكون ذلك من خلال موظف الدولة أو من خلال النقابات أو من خلال الاثنين معاً. وقد أصدر جستنيان الأول قانونا[٢٢٦] نظم فيه إنتاج وتوزيع وتخزين السلاح وحرم فيه إنتاج السلاح خارج مصانع السلاح الحكومية، كما حرم بيع السلاح للأشخاص العاديين[٢٢٧].

ويبدو أن تجميع إنتاج المصانع الحكومية، سواء كان من مواد الترف أو غيرها، وتوزيعها في المناطق وبيعها وتجميعها في مخازن الدولة Apotheki، وجمع ضرائب الدولة المفروضة على البيع سواء في المخازن أو في أماكن المكوس الجمركية عن طريق الـ Kommerkiarioi كانت كلها مرتبطة ببعضها البعض. ومن الواضح أنه يجب أن يفهم أن الـ Apothekai ليس مبنى واحداً وربما يكون عددا من المباني[٢٢٨].

ومادامت أعمال إنتاج مصانع الحكومة مرتبطة بعضها ببعض فهذا يعني أن الأختام أيضا مشتركة. وفي ظل هذا التفسير نستطيع أن نفسر معنى وجود أختام مواد الترف "صناعة الحرير" التي وجدت في المناطق التي أسكن جستنيان الثاني السلاف فيها (منطقة الأبسيق) عام ٦٨٨م وفي المرة الثانية التي أخذهم للاشتراك في حرب المسلمين إلى Sebastapolis سنة ٦٩٢ - ٦٩٣م، والأختام التي وجدت في تلك المناطق يرجع تاريخها إلى ٦٩٤ - ٦٩٥م، وهذا يعني أن هناك موظفين حكومين قاموا بتوزيع السلاح على السلاف وأن أختام مصانع السلاح هي نفسها أختام مصانع الحرير[٢٢٩].

الزراعة:

تعني الأرض ومشاكلها مسألة حيوية للامبراطورية الرومانية فهي بالنسبة لجموع الشعب مورد الخبز اليومي، وبالنسبة للأغنياء استثمار لرؤس أموالهم، وبالنسبة للدولة مواجهة مطالب الطبقة الشعبية في المدن ومطالب الجند وتموين الجيش An-none، فهي بصفة عامة أساس الاقتصاد. وهي أيضا قاعدة الدولة المالية[٢٣٠].

وكانت الزراعة هي المصدر الرئيسي للدخل منذ عهد الامبراطورية الرومانية القديمة التي استمرت كذلك في بيزنطة. وطبقت بيزنطة القانون الروماني الذي

---

(٢٢٦) Justinian Novel xxx no Hendy , Ibid P . 630.
(٢٢٧) Idem P . 630 - 631.
(٢٢٨) Idem P . 631.
(٢٢٩) Idem P. 631 - 33.
أنظر ملحق (٣)، شكل ١، ٢، ٣.

أعطي قوة لطبقة كبار الملاك وحطم طبقة المزارعين الأحرار. الذين نزلوا إلى مستوى العبيد، وطبقت بيزنطة تلك القوانين أو المبادىء كقاعدة Serfdom لاقتصادهاالزراعي في قرونها الأولى، وشيئا فشيئاً زاد عدد صغار الملاك وزاد تحرير المزارع مما أكسب قوة للبناء الزراعي للامبراطورية(٢٣١).

ومنذ مطلع القرن السابع، وبالذات في عهد الأسرة الهرقلية (٦١٠ - ٧١٧م) أصبح من الضروري تغيير النظام الزراعي وخاصة بعد ظهور نظام الثيمات. وكان هذا التغيير ضروريا وملحا، بعد أن فقدت الأمبراطورية مصر وسوريا وفقدت معهما أهم مواردها الزراعية فاشتد الضغط على مصادر هذه الموارد المحلية. وكان التغيير لابد منه إذ كان على الامبراطور هرقل مواجهة عدد من المشاكل المتشابكة وهي: أولا المشكلة المالية، ثانيا مشكلة توفير المواد الغذائية، وثالثا مشكلة رواتب التقاعد العسكرية(٢٣٢).

لقد تمثل تغير النظام الزراعي في عدد من النقاط كالتالي :

أولا: منح حقول (مزارع) صغيرة للفلاحين الذين يقومون بواجبات الخدمة العسكرية. ونظام منح الأراضي مقابل الخدمة العسكرية كان معروفا منذ قديم الزمان، ففي خلال فترة قوة الامبراطورية الرومانية درجت روما على منح أراضي الحدود كمزارع للذين يلتزمون بالدفاع عن تلك الحدود ضد هجمات الأعداء. وكانت الأرض تورث لمن يلتزم من ورثة شاغليها بالخدمة العسكرية. وكان انتقال هذه الأراضي والزام أكبر الأبناء ممهدا لقيام جيش وطني ، وأصبح للجنود المزارعين قيمة اقتصادية واجتماعية تعدل الأهمية العسكرية، فقد ازداد عدد صغار الملاك ودعموا قوة الفلاحين الأحرار الذين يشكلون العمود الفقري لمجتمع القرية(٢٣٣).

ثانيا: لجأت بيزنطة إلى اتباع سياسة الاستيطان أو Colonization سواء من الأحرار أو العبيد، لأن الإغارات الحربية على كثير من الولايات المتآخمة لحدود الأعداء أثرت على الكثافة السكانية على تلك الولايات، فمع فقدان المناطق الشرقية، على يد الفرس أولا والمسلمين ثانيا، هرب عدد كبير من السكان إلى آسيا الصغرى. وحدث شيء مماثل في شبه جزيرة البلقان. فاضطرت الدولة لإعادة

---

(٢٣٠) Paul Lemerle , **Esquissee Pour Une histtoire Agrraire De Byzance . Les Source Et Les.**

(٢٣١) Stratos , Ibid , Vol. 5, P . 62.

(٢٣٢) Teal, The **Byzantine Agricultural Tradition**, in D .O . P. 25 (1971) P . 50.

(٢٣٣) هسي، **العالم البيزنطي**، ص ١٢٢ - ١٢٣، وأيضا ص ٣٢١.

تعمير المناطق المهجورة وبالذات المناطق الزراعية فقامت بعملية نقل السكان[٢٣٤].

إن توطين السلاف، بإعداد كبيرة في البلقان والمناطق الجنوبية اليونانية، وفي الجزر أيضا، عمل على إعادة إعمار المناطق من جهة والكف عن صد هجماتهم ومطاردتهم من جهة أخرى. وأدى سد الفراغ الناتج من الهجرة السكانية والتي عكست نتائجها السيئة على الزراعة وتوفر الأيدي العاملة[٢٣٥].

كما أدى أيضا إلى اتباع نظام زراعي تميز بخصائص جديدة، إذ تحول على يد هؤلاء السلاف نظام الملكية الكبيرة إلى نظام الملكيات الصغيرة نتيجة لاقفار الأرض من اليد العاملة، وبفضل عملية نقل السلاف وغيرهم عادت الأرض قوة دعم جديدة لاقتصاد الامبراطورية مما جعل قنسطانز الثاني يعمل على توطين السلاف أيضا في آسيا الصغرى. كما أن جستنيان الثاني وطن قبائل بأكملها في منطقة الـ Opsi-kioan، وفي عام ٦٩٢م وجه ضد المسلمين جيشا من السلاف قدره بعض الكتّاب بحوالي ٣٠٠,٠٠٠ جندي[٢٣٦].

ويشير تيل إلى أن الدولة البيزنطية استفادت من المسلمين الذين أخذتهم أسرى حرب، والذين قبلوا الدخول في الديانة المسيحية، فصرفت لهم نقودا من أجل زراعة الأرض. كما إن أي رب أسرة يقبل أن يضم شخصا مثل هذا إلى أسرته ويزوجه إبنته فإنه يتمتع باستثناء من دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات[٢٣٧].

وقد هاجر إلى المناطق الداخلية سكان من السواحل ومن الجزر والذين أمدوا المناطق الداخلية بكثافة سكانية ساعدت على قيام حياة اقتصادية زراعية معقولة. ولكن لا يمكن تخمين الحد الذي وصل إليه امتداد الأراضي الزراعية[٢٣٨].

أما النقطة الهامة التي اعتمدت عليها الدولة في سياستها الجديدة الفعالة والتغيير الذي أصبح قوة دافعة لتطوير الاقتصاد الزراعي، فهو اعتمادها على تركيز ومساعدة صغار الملاك والمزارعين المستقلين[٢٣٩].

وتناقش التغييرات في المجتمع الزراعي على ثلاثة أسس .

أولا : الدوافع، **ثانيا**: إعطاء الفرص، **ثالثا** : استخدام الوسائل الزراعية

---

(٢٣٤) Teal , Ibid , P .50.

(٢٣٥) P. Lemerle , Ibid P . 63 f.

(٢٣٦) هسي المرجع السابق – ص ١٢٥.

(٢٣٧) Teal , Grain Supply P . 131.

(٢٣٨) Teal , Grain Supply P .131.

(٢٣٩) Stratos , vol. 4, P . 147.

الحديثة. ومن ناحية الدوافع إلى الغير في القرن السابع فهي واضحة تمام الوضوح، وهي الحاجة إلى سد النقص في الإمداد الغذائي وخصوصا نقص الحبوب. أما الفرص فتتمثل في ترحيب بيزنطة بالسلاف والعرب وغيرهم من الراغبين في العمل الزراعي واعطائهم المال اللازم للأرض وللزرع. ويعتبر هذا أيضا أساس من أسس التقنية التي جعلتها تستفيد من مهارات تقليديه جديدة مثل الاعتماد على النجوم في تعيين مواعيد الزراعة. أو إدخال طرق زراعية جديدة مثل نقل الأشجار من مكان إلى مكان آخر(٢٤٠).

والوسائل أو التقنية التي استخدمت في الزراعة أشار إليها قانون الفلاح وخصوصا الفقرة ٢٢ التي تتحدث عن سرقة المعدات الزراعية(٢٤١) وقد جاء على ذكر الـ Spade والـ Pruning-Knife Hoe و Scythe و Axe.

لقد تميز القرنان الخامس والسادس بنمو قوة كبار الملاك الذي تطور إلى نزاع بين الدولة والملاك الارستقراطيين(٢٤٢) ولكن التغيير الذي حدث في القرن السابع وبالذات تحت حكم أسرة هرقل هو منح الفرصة لصغار الملاك والمستأجرين. وقد ناقش المؤرخون قانون الفلاح على أنه برهان على تغلب مجتمع القرية الحرة(٢٤٣) في العالم البيزنطي في ذلك الوقت على حساب الملكيات الكبيرة(٢٤٤).

ويشير قانون الفلاح إلى جماعة القرية الحرة الجديدة ويعالج ثلاثة مواضيع أساسية: أولا زراعة الأرض، ثانيا قطعان الماشية، ثالثا أدوات الزراعة والمباني في الحقول(٢٤٥).

والتحليل الآتي يفسر أو يقسم مواد قانون الفلاح :

اولا: إن كلمة Nomos Georgikos معناه قانون Nomos و Georgikos أحرار، فهو قانون الفلاح الحر. والمواد من ١ - ٢٢ تشير إلى زراعة الأرض والعلاقة بين المزارعين بعضهم البعض.

المادة الأولى: حفظ الحدود بين المزارع.

من ٢ - ٥ تبادل المزارع.

٦ - ٨ الخلافات على الملكية.

---

(٢٤٠) Teal, Ibid, P. 51.

(٢٤١) Ashburner , **The Farmars Law** , P . 89.

(٢٤٢) نورمان بينز ، **الامبراطورية البيزنطية**، ص ١٣٨.

(٢٤٣) تمييزا لها عن القرية المملوكه لواحد من كبار الملاك.

(٢٤٤) Haldon , Ibid , P . 132.

(٢٤٥) Ashburen, Ibid, P. 69.

٩ - ١٠ العلاقة بين الـ Grantor الواهب و Mortites المستأجر للأرض.
١١ - ١٥ الاستئجار على أساس المشاركة في المحاصيل.
١٦ - زراعة الأرض بمرتب أجير.
١٧ - ٢٠ زراعة أرض الغابات.
١٨ - ١٩ التزام المزارع بدفع الضرائب أو التزامه بدفعها.
٢١ - البناء أو الزراعة في أرض الغير.
٢٢ - سرقة وسائل الزراعة.
٢٣ - ٥٥ التصرف مع قطعان المواشي والكلاب سواء كانت صغيرة أو كبيرة.
٢٥ - ٢٩ الرعاة ومعاملتهم للمواشي التي تعهد إليهم.
٣٠ - ٣٣ وأيضا ٣٥ سرقة جرس البقرة، سرقة الفواكه والحليب أو الأعلاف.
٣١ - ٣٢ الأشجار.
٣٦ - ٤٤ التصرفات الغير قانونية مع الثيران والحيونات الأخرى.
٤٥ - ٤٧ تصرفات العبيد الغير قانونية مع الحيوانات.
٤٨ - ٥٤ الأخطاء أو انتهاك الحرمات التي تقوم بها المواشي.
٥٥ - قتل كلب الراعي.
٥٦ - ٧٠ حرق أو قطع جذور المحاصيل والأشجار على سفوح التلال والاسوار والكروم .... الخ.
٦١ - الاعتداء على حدائق الكروم والتين.
٦٢ - ٦٣ سرقة أو حرق مستلزمات الزراعة.
٦٤ - ٦٥ حرق بيوت المزارعين .... الخ.
٦٦ - تخريب بيوت المزارعين تحت المطالبة بالحق.

وإذا تفحصنا القانون ككل فهو لا يخرج عن نطاق Kwrion أي الوحدة أو المنطقة الريفية الصغيرة. وهو يعالج علاقات المزارعين داخل نطاق هذه المناطق حيث تتم المبادلات[٢٤٦] وهو يصور الحياة الزراعية على النحو التالي. فالريف مقسم إلى Kwrion وكل ملاك الارض ضمنها مزارعين. وإذا لم يكن لدى المزارع وسائل لزراعة أرضه يمكنه أن يؤجرها. والفقرات (٩، ١٠، ٧٧) يمكن الاستناد عليها للدلالة على وجود مالك أرض لايزرع أرضه ويعيش خارج المنطقة ولكنه يؤجر تلك الأرض ويستلم إيجارها من المزارعين المستأجرين لها. وكل منطقة كونت وحدة مالية . لأن

(٢٤٦) Ashburner Ibid P . 69 , P . 56.

كل المزارعين في منطقة ما مسؤولون عن دفع الضرائب لكل المنطقة وانه إذا فشل مزارع في دفع ماعليه من ضرائب فإن تلك الضرائب يدفعها باقي المزارعين من سكان المنطقة.

وتعتبر الأرض في كل منطقة أرض عامة وبعدها تقسم، والجزء من المنطقة يقسم إلى عدد من الأجزاء توزع على الجماعة، وليس بالضروري أن تكون الأجزاء متساوية في المساحة. وهذا الجزء يمكن أن ينتقل بالوراثة (٣٢، ٨١،٨٢). أما الأرض التي لم تقسم تبقى أرضا عامة (٨٠،٨١) وتدخل ضمن الأراضي العامة أرض المراعي وكل مزارع له حق الرعي فيها .

وقد وصف كل المزارعين بانهم Commoners Oikoinwnoi أو In Koinotes و Commonalty العامة، أو طبقة التابعين للمنطقة مادة (٨١) أو الجماعة. وعندما يتحدث قانون الفلاح عن مالك القسم أو الجزء فإنه يتحدث بصيغة الجمع ويفهم من ذلك بأن الجزء يخص العائلة وليس شخصا مفردا . المواد (٢،٣،١٥،٢١،٣٢).

والمنطقة لا تحتوي فقط على ممتلكات الفلاحين وعوائلهم ولكن أيضا الأجراء والعبيد والرعاة مادة (٢٥) وحراس المحاصيل مادة (٣٣) ورعاة الأغنام مادة (٣٤)[٢٤٧].

وقوة المزارع في تحويل أو نقل ملكية أرضه إلى شخص آخر عن طريق الهبة أو البيع أو الوصية محدودة ومقصورة على المزارعين من نفس المنطقة ويستطيع أن يؤجر قسمه إلى مزارع آخر، وأن يستأجر مزارعا لزراعة أرضه ولكن لا يوجد أي دليل لامتلاك قوة البيع لأشخاص خارجين عن المنطقة.

وهناك ملاحظة مهمة فعند الحديث عن الاستئجار فهو إيجار من مزارع لآخر. والشخص المالك أو المؤجر ليس من كبار الملاك، وليس كنيسة أو دير. ولكنه مزارع والذي يطلق عليه اسم Aporos.

وينقسم قانون الفلاح إلى قسمين، قسم مدني Civil والآخر جنائي. فالقسم المدني يقرر العلاقات بين المزارعين ضمن منطقة يمكن التحقق منهاAscerrtaine ولا يتعامل في العلاقات مع كبار الملاك باستثناء المواد (٩،١٠) ومستأجريهم. ولم يذكر بتاتا العلاقة بين الدولة وبين منسوبيها . وتشير إلى الضرائب العامة فقط عندما تؤثر على العلاقات بين المزارعين الجيران المواد (١،٢١) باستثناء المواد (٧،٩،١٠).

---

(٢٤٧) Ashburner , Ibid , P . 70 - 71.

وقانون الفلاح تشريع جديد سببته الاستطيانات الجديدة ضمن الامبراطورية، ووضع ولو جزئيا على أساس التقاليد التي أحضرها المستوطنون الجدد من مواطنهم الأصلية[٢٤٨].

ومن الملاحظ أيضا أن قانون الفلاح لا يشير إلى الشروط الخاصة بدفع الايجار ولا ضريبة الأرض ونسبة تلك الضريبة. ولم يحدد ضريبة القمح . ولم يذكر إذا كانت تلك الضرائب تدفع عينا أم نقدا[٢٤٩].

وهناك بردية من القرن الثامن الميلادي برقم ٢١٨ مؤرخة في ٦ رمضان سنة ١٨٧هـ الموافق ٥ نوفمبر ٧٩٤م. ومضمون البردية هو كراء (إيجار) أرض ويحدد كراء إثنى عشر فدانا ونصف بإثنى عشر ديناراً ونصف[٢٥٠].

ويعلق الناشر بأنه كان يدفع ديناراً واحداً إيجاراً للفدان وكان ذلك شائعا في السنوات ١٧٦ - ١٨٢ هـ. فهل انطبق مثل ذلك على المناطق المحصورة ضمن حدود الامبراطورية البيزنطية وذلك بعد انسلاخ كل من مصر وبلاد الشام عنها؟ علما بأن المسلمين قد تركوا التدابير الادارية تمشي كما كانت عليه في عهد الدولة البيزنطية. أو بكلمات أخرى هل كان إيجار الفدان ديناراً واحداً كما كان في مصر أو كما ورد في تلك البردية داخل حدود الامبراطورية؟.

وليس معنى ظهور طبقة صغار الملاك والمزارعين الأحرار إختفاء لكبار الملاك والذين تمثلوا في الكنيسة والطبقة الارستقراطية، أعضاء مجلس السناتو وأراضي الدولة.

والكنيسة مثلها الأساقفة والذين كانت لهم أهميتهم في الإدارة المدنية المحلية. لقد كان الأسقف هو المسئول عن إدارة البلدية بما في ذلك أعمال التحصين وامداد القواعد العسكرية المحلية[٢٥١] وقد هجر الأساقفة أراضيهم في أوقات الأخطار. ولكن يبدو أن رجال الكنيسة عادوا إلى أراضيهم، ويستدل على ذلك من سجلات المجمع الديني الذي عقد سنة ٦٩٢م. وهنا يعني أن الكنيسة لا تود أن تفقد سيطرتها على الأرض حتى في المناطق المعرضة للهجوم[٢٥٢].

---

(٢٤٨) Idem P . 80.
(٢٤٩) Idem P . 84.
وأيضا: Ostrogorsky , B. S P . 136 - 137.
(٢٥٠) أدولف جروهمان، أوراق البردي العربية، ترجمة حسن ابراهيم حسن، السفر الثاني، ص ٢٧ - ٢٨.
(٢٥١) Haldon , Ibid , 129.
(٢٥٢) Idem , P . 129.

إن استمرار وجود طبقة لرجال السناتو او الطبقة الارستقراطية في القرن السابع ما هو الا اشارة صريحة الى ان ملكيات تلك الطبقة من الاراضي الواسعة قد استمرت أيضا(٢٥٣) أو بعبارة أخرى استمرار طبقة كبار لملاك من طبقة رجال الشيوخ ومن انضم اليها من العاملين الجدد في الاجهزة الادارية، وبصفة عامة ان هجمات الاعداء كان لها اثر كبير على صغار الملاك، وليس على كبار الملاك. وان الهجوم تسبب في ان يهجر صغار الملاك اراضيهم الشيء الذي استغله ملاك الارض الاكثر قوة (٢٥٤).

وعلاقة الفلاحين بكبار ملاك الأرض في الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية قامت على أساس الحماية وهو معروف باسم Patrocinium وهي أن يضعوا أنفسهم تحت حماية شخص قوي، في بداية الأمر كان ذلك الشخص ضابط عسكري مع قوة كاملة تحت أمرته، وفي النهاية وضع الفلاحين أنفسهم تحت حماية أشخاص غير عسكريين أمثال ملاك الأرض الأقوياء في منطقتهم. وذلك للحصول على بعض الحماية من موظفي الدولة أو جامعي الضرائب. وفي مقابل تلك الحماية يتسلم الشخص الحامي مكافأة تدفع له نقدا أو عينا ويزداد ربح هذا الشخص إذا رهن المزارع أرضه لديه، ووجد المزارعون أنه من الأيسر لهم تسليم أراضيهم للمالك ثم يأخذونها منه مرة ثانية على شكل إيجار ويصبحون اتباعا له Coloni.

وبهذا الشكل أصبح كثير من صغار ملاك الأرض الأحرار مستأجرين لدى كبار الملاك بما في ذلك الكنيسة(٢٥٥).

ونستدل على ذلك بالبردية رقم ١٠٣٧، وهي عبارة عن وصل عن نقود دفعها المستأجر مقدما من أجل ري حديقة كروم في حوزته، ويجب دفعها مرة ثانية عندما يفسخ عقد الايجار. ومكان الايجار Hermopolite Nome(٢٥٦) وهذه البردية لا تحدد المبلغ الذي دفع ولا هوية المالك ولكن البردية رقم ١٠٦٠ وهي عبارة عن إيصال سلمه شخص يدعى Theodosius وهو جامع ضريبة الذهب في منطقة Hermopolis، إلى شخص آخر يدعى Daniel ووظيفته مقدم دير. وقد تسلم منه المذكور ٢٣ قيراطا مقابل الانتاج السابع للفترة الزمنية الخمسعشرية ويوصف Theodosius بأنه يعمل لحساب كنيسة Hermopolis أي أنه محصل ضرائب لصالح الكنيسة وليس

(٢٥٣) Idem , P . 129.
(٢٥٤) Idem , P . 130.
أيضا Andreades , **Economic Life In Byzantum** , P . 55.
(٢٥٥) Haldon , Ibid , P . 128 8 P. 128.

لصالح الدولة. وأن الأرض التي حصل على ضريبتها على ما يبدو هي أرض للكنيسة أو أن لها الحق في الحصول على نسبة مئوية معينة من الانتاج، وأن الضريبة دفعت ذهبا ولم تدفع عينا[٢٥٧].

وتذكر كذلك حياة القديس انستاسيوس[٢٥٨] لنا قصة أمين صندوق الكنيسة الذي يشتكي من جامع الضرائب الذي هرب بالنقود التي جمعها . ومن البردية السابقة أيضا نستدل على أن الرهبان عملوا في الحقل الزراعي لأن الشخص الذي تسلم الايصال هو مقدم دير. وقد أطلق اسم Paroikoi على الفلاحين الذين يعملون أجراء لدى الكنيسة[٢٥٩].

إن البردية الأولى رقم ١٠٣٧ وضحت لنا أن الكنيسة تحصل على إيجار أراضيها نقدا. والبردية الثانية رقم ١٠٦٠ وضحت لنا أن الكنيسة تحصل أيضا على ضرائب نقدية ذهبا، غير الإيجار، الأمر الذي يعني أن للكنيسة إدارة مالية مستقلة عن الادارة المالية للدولة، وذلك في ظل تحصيلها لضرائب، وأنها قامت بأخذ ضرائب مباشرة من الفلاحين الذين عملوا كأجراء لدى الكنيسة والذين تميزوا عن غيرهم من الفلاحين حيث أطلق عليهم لقب Paroikoi تميزا لهم عن باقي الفلاحين الذين عملوا لدى كبار ملاك الأرض.

أما عن العلاقة بين الادارة المالية للدولة وبين القائمين على تحصيل أموال الكنيسة فلا يوجد أي إشارة لقيامها، كما أن الإشارة إلى الضريبة التي حصلت عليها الكنيسة لم تحدد إذا كانت تلك الضريبة ضريبة عشرية أم أقل أو أكثر من ذلك.

وبالنسبة لعلاقة المستأجرين بكبار ملاك الأرض في القرن السابع فقد دفعوا الايجارات إلى اصحاب الأرض. ودفعو الضرائب للدولة بشكل مباشر . وهذا قلل من التكاليف الإدارية والالزمات المالية لملاك الأرض تجاه الدولة. كما أنه أزال الحاجة إلى المحصلين باستثناء محصلي الايجار. ونتيجة لذلك ضعفت سلطة ملاك الأرض على أراضيهم، بينما قويت الصلة بين المزارعين المنتجين والدولة[٢٦٠] وان

---

(٢٥٥) Haldon , Ibid , P . 128 8 P. 128.

(٢٥٦) **Greek Papyri in The British Museum** d. by : F. G , Kenyon & 4. I Bell, vol. III, P. 275.

(٢٥٧) Greek Papyri in **The Biritish Museum** Vol 4 , P. 273.

(٢٥٨) لتفاصيل ذلك انظر: **The Sermon of Anastasios The Sinaite ch.** 95.

(٢٥٩) Haldon , Ibid , P . 154.

(٢٦٠) Haldon - Ibid , P. 140 - 126.

تدخل الدولة في تلك الفترة جاء لتخفيف حدة الارتباط بين المالك والمستأجر. وذلك لكي يحصل المزارع المستأجر على درجة من الأمان الاقتصادي له ولاسرته[٢٦١] وتبعده عن استعباد كبار ملاك الأراضي له واستنزافه.

لقد قسمت الأراضي ضمن ما تبقى من حدود الدولة البيزنطية إلى مناطق زراعية والتي زرع فيها الحبوب، مثل مناطق البلقان وسهل الدانوب وسهل تراقيا وسهل تساليا Thessalian وسهل مقدونيا[٢٦٢]. إن سهل الدانوب أو الجزء الواقع بين الدانوب وجبال البلقان باستثناء Dobrogli، أنتج أكثر من نصف القمح والذرة التي تنتج في بلغاريا وسهل تراقيا الذي حدته Pazardzlaik في الغرب وجبال البلقان في الشمال والبحر الأسود في الشرق وبحر ايجه ومرمرة في الجنوب، كان أن له أهمية خاصة، أمّا سهل تساليا فقد أنتج الحبوب بل وصدر بعضا منها، وقد حسب أو قدر له أنه يستطيع ان يمد اليونان بما يحتاج إليه، وسهل مقدونيا كان تحت الاستغلال الزراعي أيضا، وفي الأناضول في المنطقة الأساسية التي تسمى Areable أنتجت الحبوب وبالذات في السهول الساحلية ووديان الأنهار. وهذه المنطقة ممتدة من الشمال الغربي لشبه الجزيرة وحتى الجنوب الغربي، تمثل وحدة واحدة. أما في الشمال فقد وجدت أكثر المناطق أهمية لزراعة الحبوب، وأهم الحبوب التي زرعت القمح والشعير.

وموانيء المنطقة هي Mudanya و Bandirma و Izmit التي لم تكن مستغله استغلالا جيدا Under-Exploited. هذا بالإضافة إلى سهل كيليكيا Cilicia الذي أنتج كميات معتبرة من الحبوب وخصوصا القمح. كما لم يكن مستغلا الاستغلال الكامل أيضا[٢٦٣].

وهذا يعني أن هناك أراضي زراعية منتجة للحبوب في المناطق المتبقية في حوزة الامبراطورية البيزنطية. وهذه المناطق هي التي سدت حاجة بيزنطة الى الحبوب خصوصا بعد أن استغلت تلك الأراضي استغلالا زراعيا جيدا، وذلك بالاصلاحات الزراعية المشار إليها في الكتاب.

وحاجة العاصمة من الحبوب قد سدتها الموانى الواقعة على شواطىء البحر الأسود وبحر مرمرة، بل إن كل منطقة من المناطق الزارعية المشار إليها كان لها

(٢٦١) Idem . P. 154.
(٢٦٢) Hendy , Ibid , P. 44.
(٢٦٣) Idem , P 45 - 46.

ميناء يتصل بالعاصمة من جهة وبغيرها من الجهات، عن طريق التجارة البحرية التي أثبتت فاعليتها في القرن السابع الميلادي

والمواني هي كالتالي:

سهل الدانوب	ميناؤه كل من	Varna وVicina
سهل تراقيا «مرمرة»	ميناؤه	Rodosto
سهل تراقيا (على البحر الأسود)	ميناؤه كل من	Anchialus و Sozopolis
سهول شمال البحر الاسود		Mavrocastro و Zagora
سهول جنوب روسيا		Caff , Lifetti Crimea

ونتيجة لذلك نجد أن الزراعة في القرنين الثامن والتاسع نتيجة تغير ظروفها في القرن السابع، لم تكن قادرة فقط على أن تطعم الامبراطورية فقط، بل أصبحت قادرة على التصدير ولم يعتمد البيزنطيون على زراعة الحبوب والكروم ولكن امتد نشاطهم إلى زراعة الفواكه والأعشاب الطبية والقطن. هذا بالإضافة إلى الثروة الحيوانية، من تربية المواشي والخيول لسد حاجة الجيش من جهة، وخيول السباق من جهة أخرى[٢٦٤]. لقد استفادت الزراعة من غياب المنافسة الخارجية. وبعد فقد ان مصر استمد عدد كبير من مدن الامبراطورية إحتياجاتها من الزراعة المحلية. ولقد سهلت عملية التبادل بين المدن عن طريق الاتصال البحري من جهة والطرق الداخلية من جهة أخرى.

لقد قدرت ثروة أحد صغار الملاك الذي لا ينتمي الى الطبقة الارستقراطية ، في القرن الثامن بحوالي ١٠٠ ثور ، ٥٠٠ ثور في المراعي و ٨٠ فرسا وبغلا و ١٢,٠٠٠ رأساً من الغنم وعدداً كبيراً من الخدم[٢٦٥].

والدليل الأكيد على ازدهار الزراعة هو اعتماد الدولة على ضريبة الزراعة كواحدة من مصادر الدخل العام للامبراطورية.

(٢٦٤) Andreades , **Ecomoic Life in Byzantium** P . 59.

(٢٦٥) Andreades , Ibid p . 60.

أيضا : Haldon , Ibid P . 131.

أنظر أيضا : Rickman , **The Corn Supply of Ancient Rome** (Oxford, 1980) P. 118 - 119.

الضرائب :

يمكن تقسيم الضرائب إلى مجموعتين رئيسيتين: مجموعة تدفع نقدا، ومجموعة تدفع عيناً، كما أنها تقسم أيضا إلى ضرائب عادية أو عامة Demosia والضرائب الغير عادية وهي Ekstraordia والضرائب العامة تقسم إلى ضرائب مالية وهي Demosia وضرائب عينية Embola وهي ضريبة القمح والشعير. والضرائب المالية هي: ضريبة الأرض وضريبة الرأس والضريبة العامة Demosia.

وتعتبر ضريبتا الأرض والرأس أكثر الضرائب أهمية، أما ضريبة الـ Dapane فقد كان يدفع منها مرتبات جامعي الضرائب وتكاليف الاصلاحات الخاصة بالأشغال العامة.

وكانت هناك ضرائب مفروضة على الرجال دون النساء وهي ضريبة الرأس وضريبة Diagraphon والـ Andrismos.أما ضريبة الأرض والضريبة العامة De-mosia فكان يقع عبئها على ملاك الأرض بصرف النظر عن جنس مالك الأرض رجالا أم نساء.

وهناك ملحوظة هامة وهي أن الفلاحين يدفعون ضريبة الأرض، أمّا الحرفيون فيدفعون ضريبة التجارة، وهذه الضرائب لا تشكل جزءا من ضريبة الرأس ولكنها منفصلة عنها ومتصلة بضريبة الأرض[٢٦٦].

وتوجد مجموعة من البرديات التي يمكن أن نستدل بها على الضرائب المشار إليها والتي هي موجودة في كتالوج أوراق البردى اليونانية والتابعة لفترتنا التاريخية . ولكنها طبقت في مصر. ومن الجدير بالذكر أن قاعدة تحديد الضرائب وجميعها في مصر في النصف الثاني من القرن السابع ومستهل القرن الثامن هي نفس الضرائب المعروفة في الفترة البيزنطية. وهي متميزة عن الجزية والخراج التي فرضها المسلمون .

وكان يتم جمع الضرائب عن طريق موظفين محليين وليس عن طريق الحكومة المركزية . وهذا ما تبرهن عليه أوراق البردى أرقام : ١٣٥٦ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ الواردة في الكتالوج المشار اليه.

---

(٢٦٦) Catalogue of Greek Papyri, in The British Museum Edited By : H.I . Bell Vol. IV, P . XXV,Vi.

وضريبة القمح Embole تشير إليها البردية رقم: ١٣٣٥ بتاريخ ٧٠٩ في ص ٥، وضريبة الرأس فتتمثل في البرديات ارقام ١٤١٢ و ١٤٣٠[٢٦٧].

والضرائب التي ثبتت منذ القرن السادس هي ضريبة الأرض. والتي كانت تفرض حسب نوع الأرض وانتاجها وهل كانت مستقلة زراعيا أو كانت تعتمد على تربية الحيوانات . وضريبة الأرض المنتجة أطلق عليها اسم Synone وضريبة الأرض الأساسية تسمى Zeugaratikion وكانت تقدر تبعا لقيمة الأرض. وكانت تجبى كل خمسة عشر عاما. وكانت تلك الضريبة تدفع في الأصل عينيا ثم أصبحت تدفع نقدا فيما بعد.

وهناك ضريبة أخرى هي ضريبة السكن وهي Kapnikon أو Heart-tax وهي تفرض علي ملكية المساكن للأعضاء البالغين من أهل المنزل[٢٦٨]. والأرض المهجورة استمر جيرانها مسؤلين عن دفع الضرائب الخاصة بتلك الأرض[٢٦٩] وتلك الضريبة هي Epbole وكان يطلق عليها اسم الضرائب الجماعية.

وهناك ضريبة تسمى Buying on Requistion وهي ضريبة إمداد الجيش بالمؤن، ويبدو أن هذه الضريبة قد فرضت عينا في القرن السابع وذلك استنادا إلى هالدن الذي يعتقد أن الصعوبات التي واجهتها الدولة في القرن السابع، جعلت من المحال فرض القوانين القديمة وانها كانت في حاجة إلى سلوك طريق بديل ويعتقد بأنه يوجد سبب جيد للاعتقاد بأن الأجزاء العظمى من دخل الدولة، منذ سنة ٦٥٠م إن لم يكن منذ ٦٤٠م قد فرضت عينا.، وذلك لكي تقوم بمساعدة الجيوش أو الثيمات التي كانت تحت التأسيس في تلك الفترة في منطقة الأناضول[٢٧٠].

إن فرض ضرائب عينية ليس بالأمر الجديد، وهذه هي الضريبة التي أشار إليها بروكوبيوس والتي إذا لم يستطع الفلاحون توفيرها يقومون بشراء المؤن ويقدمونها إلى الجيوش عوضا عنها. ولكن هالدون يود أن يظهر هذه الضريبة بأنها تغيير حدث في القرن السابع. فهو يذكر مرة أن التغيير حدث مابين ٦٤٠-٦٥٠م[٢٧١] وفي

(٢٦٧) Catalogue of Greek papyri, P. XXV.
أيضا رانسمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٠٨.
(٢٦٨) Haldon , Ibid , P . 141.
(٢٦٩) Procopius, **The Anecdota** XXiii 20 - P. 267 - 277.
أيضا: Haldon , Ibid , P. 141.
أنظر الكتاب عن الحالة الاقتصادية في القرن السادس
أيضا رانسمان ، المرجع السابق ، ص ١٠٩.
(٢٧٠) Haldon , Ibid P. 148.
(٢٧١) Idem P. 147.

آخر يقترح بأن إعادة فرض ضرائب الأرض حدث في حوالي سنة ٦٦٧م - ٦٨١م[٢٧٢] والشيء الذي يعتبره تغييرا غير عادي هو جمع الضرائب عينيا. وأن ذلك قد عمم على جميع المناطق . وانه في سنة ٦٦٧م صدر مرسوم بترتيب سجلات الضرائب في Sardinia و Sicily و Calabria وأفريقيا ومن نفس المرسوم اكتشف أن ضريبة الـ Capito "الرأس" قد فرضت. وفي سنة ٦٨١م صدر مرسوم امبراطوري آخر أمر فيه بتخفيض ضريبة الـ Capito وخفض معدل ضريبة Synone و Coemptio. وجاء هذا التخفيض لصالح الأراضي التي كانت في حماية البابوية في كل من Sicily و Calabria. وهذا يعني أن ضريبة الـ Synone / Coemptio عوملت على أنها ضريبة نظامية سنوية وهو تميز لم يكن موجودا في الفترة الرومانية المتأخرة[٢٧٣]. هذا ويفسر هالدن أن الضريبتين المشار إليهما ليستا في الواقع سوى ضريبة واحدة حيث أن الـ Coemptio هي الضريبة الحقيقية على الأرض والـ Capita تمثل وحدات تقييمها، وهذا ما هو إلا برهان في رأيه على حدوث خطوات جديدة في ذلك الوقت، ويمكن القول بأن تلك الضرائب طبقت في الشرق منذ ٦٤٠ - ٦٥٠م[٢٧٤].

إن فرض الضرائب العينية يخفف على الدولة بعض الصعوبات ولكنه في نفس الوقت يسبب نقصا في الثروة النقدية للدولة. لذلك فقد قامت الدولة بفرض ضريبة عرفت باسم kapnikon وهي ضريبة السكن (الأيواء) لكي تدفع نقدا. وقد فرضت بمعدل ٢ miliaresia لكل منزل، ولكن بمقارنة ذلك مع الضرائب المفروضة في مصر في نفس الفترة نجد أن ضريبة القمح كانت تجبى عينيا، وهي نفس الضريبة التي كانت مفروضة زمن حكم الدولة البيزنطية على مصر ، وبما ان بيزنطة استطاعت تعويض زراعة القمح في المناطق التي أشرنا إليها في بحثنا عن الزراعة، من المرجح أنها فرضت نفس الضريبة العينية القديمة التي كانت مفروضة من قبل وأن التحول كان فقط من فرض ضريبة الرأس إلى فرض ضريبة المنزل.

إن ضريبة الـ Kapnikon ذكرت أول مرة في عهد نقفور، ومن النص يبدو أنها ضريبة قديمة وأن تأسيس أو فرض تلك الضريبة يعود إلى القرن السابع إلى الوقت الذي كانت فيه الدولة مجبرة على فرض ضرائبها على الأرض والاشخاص معا[٢٧٥].

(٢٧٢) Idem P . 148.

(٢٧٣) Idem . 148.

(٢٧٤) Catalogue of Greek papyri, 135, vol. IV, P. 5.

(٢٧٥) Haldon, Ibid, P. 149.

إن احتياجات الدول وليس مقدار الثروة هو الذي فرض الضريبة. وأن ظروف القرن السابع الممثلة في حركة نقل السكان وعدم الأمن الزراعي بصفة عامة في عدد من المناطق أجبر الدولة على فرض الضرائب المشار إليها.

لقد ضمنت الدولة ضرائبها بأخذ تلك الضرائب من الفلاحين مباشرة ثانيا جعلت ضريبة المساكن (الايواء) kapnikon مستقلة ومنفصلة عن حيازة الأرض. وأن أفراد العائلة كانوا ضماناً للضريبة. وهذا يعني فرض تلك الضريبة على سكان المدن وعلى الجماعات التي ليست لها صلة بالعمل الزراعي(٢٧٦).

ولا توجد إشارة إلى تغيير الضرائب التي قام بدفعها طبقة كبار الملاك وهي Co-ronariam ويبدو أن ضريبة الجمارك Toll وهي المكوس لعبور الطريق استمرت والمسماة Vectigalia، وكذلك ضريبة Collatiolustralis التي فرضت على التجارة والصناعة، وضرائب الايجارات.

وهناك إشارة إلى أن ضريبة المكوس كانت عالية، وهي حوالي ١٠٪ وهي التي أشار إليها جب هاملتون والتي دفعها المسلمون على تجارتهم(٢٧٧). وقامت الحكومة البيزنطية بتجديد مسارات محددة للتجارة الخارجية عبر عدد من المراكز الرئيسية على حدودها، وهذا يعني قيام مراكز مكوس متجددة لتحصيل رسوم مكررة على التجارة ، ويذكر أن قادة ثيمات الحدود مثل ثيم خالديا وقاعدته طرابيزون حصل من الحكومة على راتب صغير نسبيا ولكنه استكمل النقص من حصيلة الرسوم الجمركية التي يتم تحصيلها في طرابيزون(٢٧٨).

يشير مرجع آخر إلى ذكر أن التجارة (ويعتقد أنها الداخلية) لم تفرض عليها سوى ضريبة واحدة هي تلك التي يدفعها تاجر الحرير الخام عن كل قنطار من الحرير يشتريه من الدولة. وأن حقيقة إعفاء بقية أوجه النشاط التجاري من الضرائب يثير التساؤل وذلك نظرا لحاجة الحكومة لزيادة مواردها المالية من جهة، وتشددها في جباية ضرائب الأرض من جهة أخرى. ومن المحتمل أن إعفاء التجارة الضريبي يأتي من منطلق تسخير خدمات العاملين في التجارة والحرف للوفاء بمطالب الدولة. وكانت السخرة الاجبارية شديدة الوطأه إلى حد الاعفاء من ضرائب إضافية(٢٧٩).

---

(٢٧٦) Idem p. 150.

(٢٧٧) أنظر الكتاب الحاله الاقتصادية في القرن السابع، ص (٣٩٦).

(٢٧٨) وسام فرج، الدولة والتجارة، ص ٣٦.
أيضا : كتاب والي المدينة، ترجمة الباز العريني، ص ١٣٨.

(٢٧٩) وسام فرج، الدولة والتجارة، ص ٣٦.
كتاب والي المدينة ترجمة الباز العريني، ص ١٤٦.

ومعنى ذلك ان نظام الخدمات الإجبارية ظل ماضيا ولم يتغير. هذا بالاضافة إلى أن القانون قد أعفى الرهبان من دفع الضرائب، ومنع جباية الضرائب من الأوقاف الدينية[٢٨٠].

ويطلق على جابي الضرائب المركزي اسم Ton Geniken.

ولم ترد أي إشارة لحدوث أي تغيير على الضرائب الخاصة التي تسمى Aurum Ablaticium. وكذلك الأمر بالنسبة لضريبة Collatiolustralis والتي كانت تفرض على التجارة والصناعة وكذلك ضريبة Vectigalia التي فرضت على المستهلكين. بالإضافة إلى فرضها المشار إليه سابقا كمكوس جمركية.

وبصفة عامة فقد كانت الأمبراطورية تجمع ثروتها من الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ومن مصانع الدولة واحتكار الحرير ومن بيع الألقاب. والمناصب والضريبة على التجارة والصناعة والمكوس وضريبة المستهلكين.

(٢٨٠) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٣.٢٨

العملة :

لقد انقسم علماء العملة إلى ثلاث مجموعات من حيث تحديد تاريخ بداية العملة البيزنطية. وتمثل المجموعة الأولى المدرسة القديمة.

وهؤلاء تجاهلوا كل الانفصالات التي حدثت وقالوا باستمرارية النقود الرومانية إلى سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م[٢٨١]. أما المدرسة الثانية التي يمثلها Sabatier[٢٨٢] و Tolostioi[٢٨٣] فقد قالت بأن الفترة التي حكم فيها الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) وهي الفترة التي تأكد فيها انفصال الامبراطورية، من وجهة نظرهما إلى قسمين شرقي وغربي. القسم الشرقي الناطق باللغة اليونانية وهو القسم الذي تطورت منه الامبراطورية البيزنطية. وهذه المدرسة تحدد بداية تاريخ عملة الامبراطورية البيزنطية ببداية حكم الامبراطور أركاديوس سنة ٣٩٥م. أما المدرسة الثالثة والتي يمثلها Wroth[٢٨٤] فتقول إن بداية تاريخ النقود البيزنطية بدأت مع بداية حكم الامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨م) حيث أن إصلاحات انستاسيوس هي التي أوجدت نموذجا مميزا للعملة البيزنطية لقرون قادمة . وأن هذا النموذج جعل لها شكلا مختلفا عن النقود الرومانية . وهو سبب معقول لقبول القول لربط بداية تاريخ العملة البيزنطية بعهد الأمبراطور انستاسيوس[٢٨٥].

وإذا سلمنا بأن بداية العملة البيزنطية يبدأ منذ فترة حكم الأمبراطور انستاسيوس، إلا أن هناك استدراكا يجب أن يؤخذ في الحسبان وهو أن العملة في عهد انستاسيوس لم تكن تحمل كل الخصائص البيزنطية المميزة بعد.

---

(٢٨١) Philip Grierson, **Byzantine Coins**, (London, 1982) P. 1.

(٢٨٢) Sabatier , **Description General Des Monnaies Byzantine** , 1862.

(٢٨٣) Tolostoi , **Monnaies Byzantines** (1912 - 14).

(٢٨٤) Wroth, **Catalogue of Imperial Byzantine Coins in the British Museum** (1908).
ايضا Hugh Goodacre, **A Handbook of the Coinage of the Byzantine Empire** (London, 1964).
الذي يقسم موضوع كتابه إلى قسمين الأول من أوكاديوس ، حتى لينتوس والقسم الثاني من أنستاسيوس - حتى قنسطنطين الحادي عشر من اسرة باليولوجوس .

(٢٨٥) Grierson . Ibid P. 3.
الـ Solidus وهو العملة الذهبية ويطلق عليه أيضا باليونانية اسم Nomisma وهو أيضا الـ Bezant الذي استمر في العصور الوسطى والصولداي قد حل محل الـ Aureus والـ Denarius القديم وهو يقدر بحوالي ٦٠ Grain أي القمحة وهو مقياس قديم للوزن أو ٢٤ قيراط وهو المقياس الأكثر انتشارا وقد أصدرت في عهد الأمبراطور قسطنطين واستمر إلى القرن الحادي عشر .

ومنذ عهد الامبراطور جستنيان الأول وبالذات بعد استرداد كل من شمال افريقيا وايطاليا، والاستيلاء على شريط ضيق في جنوب أسبانيا، فقد اتسعت الرقعة الجغرافية المستخدمة للنقود البيزنطية، وازداد عدد دور سك النقود. وفي نهاية القرن السادس كان هناك ثمانية دور سك نقود أساسية وعدد غير قليل من دور سك النقود الثانوية.

أما التغيير الرئيسي في الشكل الخارجي للعملة فكان وضع علامات مسيحية على العملة الذهبية حيث حل الملاك، وذلك في عهد جستين الأول، ثم الصليب في عهد تبيريوس الثاني محل علامة النصر التقليدية. وفي سنة ٥٣٩م استحدث وضع التاريخ على النقود وخصوصا النقود النحاسية الكبيرة والتي تشير إلى عهد الامبراطور. والاسم النموذجي للعملة الذهبية السائد في تلك الفترة Solidus سوليدس[٢٨٦]. ونصفه الـ Semissis وثلثه الـ Tremissis. أما الـ Medallion أكبر من وزن الـ Solids. ولم يكن متداولا في الاستعمال مثله، وربما كان يسك في مناسبات خاصة . وذكر بروكوبيوس[٢٨٧] أنه في عصر جستنيان الأول أن العملة الذهبية لم تحتفظ بقيمتها الأصلية في قوله: ولكن هذه القيمة نقصت أو فقدت الكثير من قيمتها وهذا شيء لم يحدث من قبل. ولكن المترجم يوضح أن العملة الذهبية المثلة في الـ Solidus لم تتغير ماديا وأن هذه العملة استمرت قوية وتعمل لعدد من القرون كوحدة لقيمة نموذجية وقد عرفت باسم Byzant في كل العالم التجاري من الشرق إلى الغرب[٢٨٨].

وربما تكون ملاحظة بروكوبيوس في محلها حيث ثبت أنه سكت سلسلة من الـ Solidus خفيف الوزن من ٢٣ قيراط و ٢١,٥ قيراط أو ٢٠ قيراط وهذه الأوزان استحدثت في النصف الثاني من القرن السادس[٢٨٩].

أما بالنسبة للعملة الفضية فلم تصدر إلا في الاحتفالات النادرة وذلك في الشرق. ولكنها كانت مستعملة في ايطاليا في عهد القوط الشرقيين، كذلك استعملها الوندال في شمال افريقيا. والتي لعبت دورا مهما في عملية التبادل.

---

(٢٨٦) Grierson , Ibid , P . 4.
أيضا: Hugh Goodacre , Ibid , P . 9
أنظر ملحق ٢، شكل ١٥٧، ١٥٨، ١٦٥، ١٤٩، ١٤٨.
(٢٨٧) ProcoPius , **Anecdota XXii** 36 XXiii.
(٢٨٨) Procopius , Ibid P . 276.
(٢٨٩) Grierrson , Ibid P . 4.

ولكن انقلابا حدث بالنسبة للعملة النحاسية ، فقد قام أناستاسيوس بسك عملة صغيرة، ثم استحدثت في سنة ٤٩٨ ثلاث عملات من الفلوس تساوي ٤٠ نوميا Nummi ونصف النومي وربعه ، وبعد ذلك ضاعف حجم العملة ، ثم اضاف ما يساوي من Follis Pentanummium. تحت حكم جستنيان الأول استحدث الـ Folles في سنة ٥٣٩م التي تساوي ١٨٠ من قيمة الـ Solidus وزنه من النحاس. ولكن تزايد الضغوط في نهاية عصر جستنيان من تكاليف الحروب وانتشار الأوبئة والطواعين الذي ظهر في ٥٤٢ - ٥٤٣م انعكس على شكل النماذج والاخراج الفني للعملة، هذا بالإضافة إلى انخفاض وزن العملة النحاسية(٢٩٠).

أما بالنسبة لعهد جستين الثاني فلم تتميز العملة بصفة خاصة اللهم إلا بعض الاختلافات في الصور. فصورة جستين الثاني على الـ Solidues الذهبي تشبه صور جستنيان الأول متوجا بتاج الغار وعلى الوجه الآخر صورة ترمز إلى القسطنطينية وهي صورة فينوس Venus. كما شهد عصر جستين الثاني ظهور عملة ذهبية جديدة تمثل ١/٦ من أجزاء الـ Solidues أما بالنسبة للعملة النحاسية الـ Follis فقد خف وزنها وصغر حجمها ورسمت عليها صورة الأمبراطور وزوجته صوفيا(٢٩١).

وفي عهد الامبراطور تيبريوس استحدثت عملة نحاسية جديدة تساوي ثلاث أرباع الـ Follis. كما استعمل حرف الـ M اللومباردي. وحاول إنتاج عملة نحاسية أثقل وزنا بمقدار ١٧,٣٥جم، ولكن الوزن انخفض إلى ١٢جم وهو مقدار منخفض حتى عن الأنماط التي وجدت في عهد جستين الثاني. وتغيرت الصورة على Solid-us فقد نقشت عليها صورة الامبراطور وهو مسلح ويضع على رأسه تاجا بدلا من الخوذة. ووضعت علامة *OB على الـ Solidus خفيف الوزن لتمييزه.

وفي عهد موريس عاد إلى الأنماط القديمة للعملة مثل الصورة المسلحة والخوذه ووجه الملاك على كل من العمله الذهبية والنحاسية وأعاد استعمال الـ M القديمة والتسمية اليونانية. كما ميز الـ Solius خفيف الوزن بنجمة على الوجهين بكل منها *OB (٢٩٢).

وأهم مايميز العملة في عهد فوكاس هو نقش صورته الحقيقية وليس رمزا، وصورته على العملة تظهره واضعا على رأسه التاج وبيده الصليب . ووضع صورته

---

(٢٩٠) Grierson , Ibid P. 4.
أيضا: Whitting , Ibid , P .106.
(٢٩١) Idem , P . 111.
(٢٩٢) Idem , P . 117.

الشخصية تدل على اصراره على ابراز شخصيته بشكل واضح كما تدل على أنه كان فخورا بشخصه ومركزه[٢٩٣].

والفترة الزمنية من ٦١٠ - ٧١٧م هي الفترة التي تحكمت بها المصاعب والتي أثرت في العملة البيزنطية تأثيرا سيئا، فقد تقلصت المنطقة الجغرافية التي كان يدور في فلكها النقد البيزنطي واقتصرت على آسيا الصغرى وأجزاء من اليونان وايطاليا، كما تعرضت العملة في القرن السابع في الامبراطورية إلى عدد من المتغيرات تأتي على رأسها الاصلاحات التي قام بها الامبراطور هرقل بالنسبة لدور سك العملة.

ثانيا: قلة مصادر تمويل العملة وخصوصا العملة الذهبية. ثالثا: الصور التي نقشت على النقود وعكست الحالة السياسية للأسرة الحاكمة.

لقد تميز عهد هرقل باعادة البناء والاصلاح للادارة المالية للدولة، وقد ضمن هذا الاصلاح إعادة تنظيم دور سك العملة الذي بموجبه أغلق الكثير منها في الولايات وركزها في العاصمة. ويعتبر هذا التغيير الرئيسي الذي حدث في عهد هرقل نتيجة منطقية للمركزية[٢٩٤].

لقد خضعت دور سك العملة لإعادة هيكلة وبناء خلال الفترة من ٦٢٧ - ٦٣٠م. فقد أغلقت دور سك العملة في كل من سالونيكا ونيقوميديا وكيزيكوس وقبرص وأنطاكية وكاتانيا في صقلية، وبقيت مفتوحة فقط في كل من رافنّا وقرطاج والاسكندرية[٢٩٥].

وهذا التغيير في إدارة دور سك العملة قد أبطل إحدى الدعامات الأساسية التي قام عليها النظام المالي ومنعها من الاستمرارية، فمنذ عام ٦٣٠م كان هناك دار سك عملة واحدة في ولاية اليريا و Oriens الشرق والقسطنطينية. وهذا النظام الجديد كان انقطاع وتغيير عن الماضي. فقد استمر سك العملة الذهبية في كل من العاصمة، القسطنطينية، ورافنا وقرطاج وهما أرخونتان، أما على مستوى الدوقيات فيبدو أنه اختفى تماما. وأنتجت دور سك العملة في القسطنطينية عملة من النحاس

---

(٢٩٣) Idem , P . 127.
أنظر ملحق ٢، شكل ١٩٣، ١٩٤.
(٢٩٤) Idem , P . 206.
أيضا Grierson , Ibid , P . 86
(٢٩٥) Haldon , Ibid , P . 180 - 187.
أنظر ملحق ٣، شكل ٢.

بكميات محددة لمناطق معينة[٢٩٦]، وكما لاحظ هندي فإن هذا الشيء قد أحدث انقلابا في تقاليد الامبراطورية الرومانية المتأخرة. وهذا يتضمن عدداً من النتائج الهامة. في الدرجة الأولى مركزية دور سك العملة وتوزيع عملية سك العملة الذهبية والنحاسية يحدث للمرة الأولى. ثانيا إعادة تنظيم الادارة المالية[٢٩٧].

أما مصادر تمويل العملة فقد كانت منذ القرن الخامس وحتى القرن السابع كالتالي : ذهب أعالي النيل، والنوبة وشمال السودان الذي كان يرد إلى مصر عن طريق أسوان. ثانيا ذهب أرمينيا والقوقاز الذي كان يرد إلى ساحل كوكنيريا ويصل إلى القسطنطينية عن طريق طرابزون ، ثالثا ذهب الأورال الذي كان يتجه بواسطة سكان الاستبس[٢٩٨] إلى المنشآت اليونانية إلا أن الاتصال بهذه الأقاليم والتي يوجد بها مناجم الذهب لم يعد سهلا في القرن السابع. إذ كان طريق ذهب النوبة يقطنه البليميون[٢٩٩]. وذهب أرمينيا والقوقاز وأورال فقد وقف في سبيل وصوله الاضطربات التي كانت سائدة بين سكان الاستبس، وازدياد سيطرة الساسانيين ونفوذهم في تلك الجهات[٣٠٠].

هذا بالإضافة إلى مصدر للذهب يأتي من الغرب الأوربي حيث تجارة الغرب مع الشرق، وهي تجارة من جانب واحد كادت أن تفرغ الغرب من الذهب[٣٠١].

لقد كان تموين بيزنطة بالذهب مشكلة حيوية بالنسبة لها إذ اعتمدت كل قوتها الاقتصادية على التصدير الواسع لعملاتها إلى أسواق الدولة الساسانية وآسيا الوسطى لدفع ثمن مشترياتها من السلع الشرقية. وهذا يعني تسرب تيار نقدي من بيزنطة إلى الشرق الأقصى، هذا بالإضافة إلى كمية الذهب التي دفعتها بيزنطة كجزية للدولة الساسانية في القرن السادس وحتى بداية القرن السابع. وغير ذلك من الأتاوات التي دفعتها بيزنطة إلى الملوك المتبربرين والتي انتقدها بوركوبيوس[٣٠٢].

---

(٢٩٦) Ibid P . 187.

(٢٩٧) Hendy , Ibid P 417 - 420.
لاعادة تنظيم الوظائف الادارية المالية، أنظر الكتاب

(٢٩٨) منطقة الأستبس هي المنطقة الواقعة حول البحر الأسود وبحر قزوين .

(٢٩٩) هم قوم رحل يعيشون على الغزو وارتياد الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وهضبة الحبشة .

(٣٠٠) موريس لومبارد ، الذهب الاسلامي من القرن الثامن إلى الحادي عشر الميلادي، في : بحوث في التاريخ الاقتصادي، ترجمة توفيق اسكندر، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة ١٩٦١م، ص ٥٤.

(٣٠١) موريس لومبارد، المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٣٠٢) انظر الكتاب

وهناك ما يسمى بتسرب داخلي للذهب في دولة بيزنطة نفسها أو ما يعرف بكنوز الكنائس والأديرة. إذ حوت تلك الكنائس والأديرة في الدولة البيزنطية على احتياطات معدنية ضخمه سواء كانت على شكل نقود أو على شكل منقولات ثمينه(٣٠٣).

ونتيجة لذلك فقد قل حجم الذهب المستخدم في التداول حتى قدر أنه انخفض بمقدار عشرين في المائة فيما بين القرن الخامس والسابع(٣٠٤) ونتيجة لانخفاض كمية النقود ازداد تدهور التجارة البيزنطية الكبرى، وقلت الصادرات إلى الغرب لانعدام الكميات الكافية من النقود الذهبية اللازمة لعملية التبادل التجاري. واضمحلت تجارة السوريين في الغرب الأوربي. أيضا قلت الواردات من الشرق الساساني لانعدام الكميات الكافية من النقود البيزنطية. وتبع ذلك أن تخلت التجارة البيزنطية عن المراكز التي كانت محتفظة بها في المحيط الهندي واقليم الاستبس.

وبناء على ما تقدم فإنه حدث تقهقر في التجارة الشرقية أيضا، ويذكر موريس لومبارد أن التجارة البيزنطية اقتصرت على الحوض الشرقي للبحر المتوسط وعاشت بيزنطة على مخزون الذهب الذي جمعته في عهد الرخاء(٣٠٥). وهناك عكس ماثبت لدينا*.

وقبيل الفتح الاسلامي كانت مصر وسوريا بكنائسهما الغنية وتجارتهما النشطة وصناعة الترف وموانيهما الكبرى هما الولايتان اللتان تجمعت فيهما أهم كميات الذهب المخزون ، وهذا الذهب المخزون هو الذي هيأ لبيزنطة الاحتفاظ بعملتها التي ظلت رمز السيادة الاقتصادية.

أما الامبراطورية الفارسية فإنها لم تستخدم الذهب في سك عملتها بل استخدمت الفضة، ربما تكون كثرة المناجم الغنية بالفضة والممتدة شمال ايران من القوقاز إلى آسيا الوسطى، هي السبب وراء استخدام الفضة دون الذهب في العملة الساسانية(٣٠٦).

وهناك رأي معارض لهذا القول يذكر أن بيزنطة شرعت قوانين تحرم تصدير الذهب، وأن الاتفاقات المعقودة مع ملوك الفرس تلزم ملوك الفرس على أن يسكوا

(٣٠٣) موريس لومبارد ، المرجع نفسه ص (٥٥).
(٣٠٤) موريس لومبارد ، المرجع نفسه ص (٥٥).
(٣٠٥) موريس لومبارد ، المرجع نفسه ص (٦٥).
(٣٠٦) موريس لومبارد ، المرجع نفسه ص (٧٥).

عملاتهم من الفضة فقط، على حين ظل حق سك العملات الذهبية وقفا على بيزنطة[٣٠٧]. ويضيف أن استخدام الفرس للفضة كقاعدة لعملاتهم دليل على حدوث شيء في الميزان التجاري والذي مال إلى صالح الرومان. ورجحان كفة ميزان الرومان التجاري أدى إلى نضوب موارد الفرس من الذهب واضطرارها إلى اتخاذ الفضة أساساً لعملتها[٣٠٨].

وفي الواقع أن فارس استفادت من ميزة نقل الحرير والتوابل عبر أراضيها، ولكن استيرادها البضائع المصنعة من سوريا ومصر وآسيا الصغرى جعلها تدفع لتلك البضائع ذهبا. الشيء الذي جعلها تفقد ماكسبته من أموال ذهبية[٣٠٩].

ولكن الرأي المعارض يذكر أن فارس لم تفقد ذهبها وأن النقود الذهبية الرومانية التي تصل إلى فارس كانت تصهر وتحول إلى سبائك وحلي ومنقولات ثمينة من كل نوع، والتي تجمعت في قصور الحكام وكبار رجال الدولة، وعلى هذا فإن الذهب الذي كان يتخطي حدود الفرات كان يعد مفقوداً بالنسبة لحياة التداول. ومن أجل هذا أطلق على منطقة فارس اسم البلاد التي تبلع الذهب. فكل الذهب الذي خرج من بلاد الروم استقر في كنوز إيران ما بين النهرين.

وقبيل الفتح الاسلامي في القرن السابع الميلادي كانت هناك ثلاث مناطق تتعارض فيما بينها من حيث اختلاف كثافة الذهب فيها وهي كالتالي:

١ - الغرب الأوربي والذي كاد أن ينضب معينه من الذهب وأخذت الفضة تحل فيه محل النقود الذهبية .

٢ - الامبراطورية البيزنطية التي أخذ تمويلها من الذهب يضعف أو يقل، ولكن كان لديها احتياطي كبير تركز في ولاياتها الشرقية وخصوصا في مصر وسوريا الشيء الذي سهل عليها الاحتفاظ بعملتها الذهبية.

٣ - بلاد فارس والتي سادت فيها النقود الفضية وتجمعت فيها مقادير كبيرة من الذهب المخزون .

إن البلاد التي فتحها المسلمون هي البلاد التي تجمع فيها الذهب، مصر وسوريا، والبلاد التي تبتلع الذهب، هي العراق وايران، الخاضعتان للفرس، وكانت من أول نتائج الفتح الاسلامي عودة الكميات الضخمة من الذهب المخزون في

---

(٣٠٧) ارشبالد لويس ، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣٠٨) ارشبالد لويس ، المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٣٠٩) ارشبالد لويس ، المرجع نفسه، ص ٢٦.

القصور الفارسية والأديرة والكنائس البيزنطية إلى التداول النقدي[٣١٠].

إن الفتوحات الاسلامية لعبت دورا في إنزال الكنوز الذهبية التي تجمعت لدى ملوك الفرس إلى التداول النقدي[٣١١] .

أما الثروات التي تجمعت في كنوز الكنائس السورية والمصرية فإنها عادت إلى التداول ببطء أشد. ففي باديء الأمر أعفى المسلمون رجال الدين المسيحيين من دفع ضريبة الرأس، كما كان الحال في عهد الامبراطورية البيزنطية، ولكن في عهد خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥م) خضع رجال الدين المسيحيين لدفع ضريبة الرأس، وهي قطعة ذهبية عن كل رأس وهي الجزية في الاسلام، كما خضعت ممتلكات الكنيسة إلى دفع الضرائب، الشيء الذي جعل الكنيسة في كل من سوريا ومصر إلى اللجوء إلى النقود الموجودة في حوزتهما أولا. ثم إلى المنقولات الثمينة ثانية . وأخيراً لجأتا إلى بيع أراضيهما وعقاراتهما فعاد كل الذهب الذي اكتنزته الكنيسة إلى التداول العام.

لقد سيطرت الدولة الاسلامية على معظم البلاد الكبرى المنتجة للذهب سواء في آسيا أو افريقيا، وتمكنت من امتصاص إنتاجها كله تقريبا. فقد اتجهت السيطرة الاسلامية إلى القوقاز وأرمنيا، التي طردت منها التجارة البيزنطية، وإلى آسيا الوسطى في اتجاه مناجم التاي وإلى وادي السند وساحل مليبار، الذي يصل إليه ذهب التبت والدكن ، وإلى بلاد النوبة وشمال السودان، الذي وجه إليه والي مصر منذ ٦٥١م حملات ضد قبائل البلميين، المعروفين بقبائل البجه، والتي كانت تقوم بأعمال السلب والنهب، وفي سنة ٦٥٤م تم احتلال دنقلة وهي من أهم مراكز تجارة الذهب في السودان، وعقدت معاهدة مع النوبة تعهد فيها النوبيون بفتح الحدود أمام كل المسلمين من التجار وغيرهم.

وبناء عليه فإن إعادة الذهب إلى التداول، واستغلال كافة مناجم الذهب القديمة المعروفة في الشرق الاسلامي وورود ذهب السودان إلى الغرب الاسلامي، فيما بعد، أمور جعلت من المسلمين سادة الذهب.

وهذا الوضع أتاح للمسلمين فرصة جيدة لسك النقود، ولكن سك النقود الاسلامية البحته جاء متأخرا. فعند بداية الفتح ظلت العملة الذهبية البيزنطية والفضية الفارسية تستخدم كل منهما في المنطقة الخاصة بها. ولم تكن النقود

(٣١٠) موريس لومبارد ، المرجع السابق، ص ٥٧ - ٥٩.

(٣١١) موريس لومبارد ، المرجع نفسه، ص ٥٦ - ٦٠.

الاسلامية في بداية أمرها إلا تقليداً لتلك النقود. وكان الخليفة عبدالملك بن مروان أول من ضرب النموذج الإسلامي سنة ٦٩٤م فحل فيه اسم الخليفة والعبارات الدينية محل صورة الأمبراطور البيزنطي على العملة الذهبية وصورة ملك فارس على العملة الفضية. وسحبت العملة القديمة تدريجيا وأعيد صهرها وضربها بالقالب الجديد[٣١٢].

وفي الواقع كانت سوق الاستيراد في بيزنطة معتمدة على الشرق الاسلامي، اعتمادا يفوق بكثير اعتمادها السابق على الفرس، ولقد حرمها ضياع سوريا ومصر من مخزون المعادن، الذهب والفضة، الذي كانت تملكه هاتان الولايتان قبل الفتح الاسلامي، وفي نهاية القرن السابع أوجد الاصلاح النقدي، الذي قام به عبدالملك بن مروان، منافسا قويا للـ Solidus البيزنطي.

ونخلص إلى أن الفتوح الاسلامية، وما ترتب عليها من إنشاء منطقة اقتصادية قوية ومتسعة، كانت السبب في تعديل توزيع المناطق النقدية وكثافة الذهب فيها وتعديل سير التيارات النقدية واتجاهها تعديلا كبيرا.

وفي بداية القرن السابع كانت المنطقة الحقيقية للذهب هي منطقة العملة البيزنطية، والتي تركزت في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ولكن الدينار الاسلامي انتشر في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن كمنافس لها.

وعكست الصور التي نقشت على النقود البيزنطية في القرن السابع الحالة السياسية التي سار عليها أباطرة القرن السابع.

وقد كان التجديد الرئيسي في النقوش على النقود حدث منذ عهد فوكاس (٦٠٢م - ٦١٠م) الذي استحدث التصوير الشخصي Portraiture [٣١٣].

أما هرقل فقد أوجد ملكية وراثية والتي تعني أن عددا من الأباطرة قد اعتلوا العرش في طفولتهم[٣١٤].

وفي بعض الأحيان تقديم الأطفال كزملاء وشركاء في الملك، وقد تمثل ذلك في حالات عديدة على العملة ففي الاصدار الأول للعملة في عهد هرقل ظهرت صورة هرقل على العملة بالملابس المدنية مرتديا العباءة Chlamys مع البروش المزخرف Tablion وتاجا من المجوهرات[٣١٥]. في سنة ٦٢٩م ظهر هرقل بلحية تشبه لحية البطريرك ومعه إبنه Heraclius Constantine.

(٣١٢) البلاذري، المرجع السابق ، ص

(٣١٣) Grierson , Byzqntine Coins , P . (29).

أنظر ملحق (٢) شكل ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٤ .

(٣١٤) مثل أبناء هرقل من مارتينا.

(٣١٥) أنظر ملحق (٢) شكل ٢١٩.

Whitting, **Byzantinne Coins** P. 133.

وبالنسبة للعشر سنوات الأخيرة من حكمه، فقد شارك Heraclonas والده واخيه غير الشقيق في نموذج مكون من ثلاثة أشخاص وقوفا مرتدين ملابس مدنية(٣١٦).
ومن إصدارات العملة، نتبين أن هرقل توج سنه ٦٠٠ وأن إبنه Heraclius Constantine توج سنة ٦١٣م وان ابنه الثاني Heraclonas توج سنة ٦٣٨م(٣١٧).

ولقد سكت في عهد هرقل عملة فضية عرفت باسم Hexagram(٣١٨)، وفي دور سك النقود في قرطاج ظهرت وعليها نقش الأمبراطور هرقل مع زوجته الاولى Eudocia وابنهما Heraclius Constantine، كما نقشت صورة الامبراطور ومعه زوجته الثانية Martina(٣١٩) على نفس العملة ويعتقد أنها أصدرت من دور سك اخرى. وقد نقشت صورة هرقل وأسرته على العملة البرونزية أيضا.

وفي عهد قنسطانز الثالث Constantine III (٦٤١ - ٦٦٨م) ظهر الامبراطور ومعه أبناؤه الثلاثة قنسطنطين الرابع "الملتحي" وهرقل Heraclius وتبيريوس Tiberius(٣٢٠).

أما قنسطنطين الرابع فبالرغم من أنه يطلق عليه الملتحي إلا أن صورته التي نقشت على النقود يظهر فيها بغير لحية. وتمثل النقود البرونزية مشاركة أخويه له إذ يظهر برفقة أخويه(٣٢١).

وقد استحدث جستنيان الثاني وضع صورة المسيح على عملته الذهبية والفضية(٣٢٢) ورسم صورة المسيح على العملة في عهد جستنيان يصور الحاله السياسية، إذ قام المسلمون بتغيير عبارات التثليث على ورق البردى، فرد عليهم بوضع صورة المسيح على النقود، الشيء الذي يتصوره جستنيان أن المسلمين يكرهونه(٣٢٣).

---

(٣١٦) Idem P 122.
(٣١٧) Hugh Goodacre , Ibid P . 95.
(٣١٨) Whitting , Ibid P . 134.
(٣١٩) Hugh Goodacre , Ibid P. 95.
(٣٢٠) Idem P. 99.
أنظر ملحق (٢) شكل ٢٢٦ و ٢٢٤.
(٣٢١) Idem P . 103 - 104.
(٣٢٢) Idem, P. 112.
(٣٢٣) لقصة القراطيس والدنانير، أنظر الكتاب ص ١٦٠ وما يليها، أنظر أيضا: أنستاس الكرملي: النقود العربية الإسلامية وعلم النميات، القاهرة ط ٢، سنة ١٩٨٧، ص ٢٧ وما يليها.
ولتفصيل أكثر أنظر البلاذري، فتوح البلدان ص (٤٥١) وما يليها.

وقد نقشت صورة المسيح عليه السلام ، في شكلين مختلفين، الشكل الأول بالشعر الطويل واللحية الطويلة، والشكل الثاني شعره مصفوف بشكل مجعد ولحيته قصيرة(٣٢٤) Beardquite Close، وقد كتب عليها Servus Christi.

وفي عهد جستنيان الثاني تظهر على النقود صورة جستنيان مع إبنه الشاب Tibarius الذي وقف إلى جانب والده الملتحي(٣٢٥).

أما باقي الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان الثاني، فعملتهم نادرة وتمثل صورة الأمبراطور منفردا.

لقد قام هرقل بمحاولة إصلاح النقد في سنة ٦٢٩م وذلك بعد انتصاره في الحروب الفارسية، فضاعف وزن الـ Follis، وهذه العملة الثقيلة دامت أكثر من سنة، ولكن في منتصف سنة ٦٣٠م نزل معدل الوزن إلى مستوى أقل من المستوى الذي كان عليه قبل حركة الإصلاح(٣٢٦).

وفي عهد قنسطانز، استمرت العملة النحاسية على نفس الوزن المنخفض وعدل قنسطنطين الرابع وزن النحاس واستمرت كذلك إلى عهد جستنيان الثاني. وبشكل عام فإن العملة النحاسية للفترة الأخيرة من القرن السابع كانت تقريبا في نفس الوزن الذي كانت عليه في عهد قنسطانز، ولكن انجازها كان أفضل حيث " ضربت بشكل أفضل "(٣٢٧).

وتميز القرن السابع بثبات وزن العملة الذهبية بالرغم من كل مشاكل الأمبراطورية، صحيح أن هناك Solidus خفيف الوزن، وصل ضربه إلى أعلى معدل في عهد هرقل ولكنه اختفى تماما في عهد قنسطنطين الرابع(٣٢٨).

ويعود السبب الرئيسي في ثبات وزن العملة الذهبية في بيزنطة في القرن السابع إلى كمية الذهب الضخمة المخزونة في بيزنطة نفسها وإلى عملية التبادل التجاري مع المسلمين. الذين أنزلوا مخزون ذهب الفرس والكنائس الشرقية إلى التبادل مما أعاد جزء منه إلى بيزنطة والتي أصبحت قادرة على مواجهة المصاعب المالية الناتجه عن نقص استيراد الذهب، وبواسطة سيطرة الدولة القوية، استطاعت

---

(٣٢٤) Idem P. 15 - 116.
أنظر ملحق ٢ شكل ٢٤٥
(٣٢٥) Idem P . 124.
لتفاصيل أكثر أنظر Hugh goodacre , Ibid P . 125.
(٣٢٦) Ibid P . 90.
(٣٢٧) Ibid P . 90.
(٣٢٨) Ibid P . 119.

أن تحافظ على استقرار وزن الـ Solidus الذي استمر حتى منتصف القرن الثامن على الأقل(٣٢٩). الشيء الذي جعله يستحق لقب (دولار العصور الوسطى).

والذي يذكر أن الامبراطورية البيزنطية كان لديها عملة نقدية مستقرة ولمدة ستمائة عام قادمة Stable Bezant وأن استقرار العملة وقيمتها العالية تعكس ثروة وغنى الامبراطورية وميزانيتها المتوازنة Balanced Budget(٣٣٠).

وهناك تغيير هام ظهر على العملة في القرن السابع وهو التغيير من الحروف اللاتينية إلى الحروف اليونانية، وذلك نظرا لتبني اللغة اليونانية والذي ظهر بوضوح في القرن السابع(٣٣١).

---

(٣٢٩) Stratos , Vol. 4, P. 149.

(٣٣٠) Lopez , **The Dollar of The Middle Ages** Journal of Economic History XI, New York ,195 P . 209 - 234.

يطلق اسم Bezant على العملة الذهبية البيزنطية Solidus.

(٣٣١) Lopez , Ibid P . 231.

أيضا Whitting , Ibid p . 119.

الفصل السابع
الحالة الاجتماعية في القرن السابع الميلادي

لاحظنا انه لا يوجد تغيير يذكر في النظام الطبقي الاجتماعي الروماني القديم، وهو الذي يأخذ شكل هرم ذى طبقات أفقية، طبقة دنيا عريضة في القاعدة، تعلوها طبقة وسطى أقل حجما ثم تعلوها طبقة أصغر هي الطبقة الأرستقراطية.

ومن المعروف أن الأمبراطور دقلديانوس جعل الشعب الروماني حبيسا لطبقاته الاجتماعية بأن جعل الوظائف وراثية كما جعل الأنشطة الحرفية أيضا وراثية .

وفي رأي أحد الباحثين أن طبقات مجتمع القسطنطينية لم تكن أطراً اجتماعية مغلقة على أبنائها ، فالصعود الاجتماعي من طبقة إلى طبقة أعلى أو الهبوط إلى طبقة أدنى كان أمرا واردا[١]. وضرب مثلا لذلك بوصول بعض الأباطرة إلى قمة الهرم الاجتماعي عن طريق الصعود المفاجيء من القاعدة الى القمة ، لأن عددا كبيرا منهم كان من أصل اجتماعي متواضع، أو غير معروف، وعلى سبيل المثال أصل أسرة الأمبراطور قسطنطين الكبير متواضع فقد جاء فلافيوس قنسطنطيوس Flavius Constantius، والد قسطنطين ، من اقليم الليريا وشق طريقه في صفوف الجندية. ولا يعرف شيء عن أصله وإن كان المرجح أنه ينتمي إلى أسرة معروفة. كذلك كانت أسرة الأمبراطور جستنيان الأول من أصل ريفي بسيط وكان الأمبراطور فوكاس ضابطا مغمورا من أصل غير معروف[٢].

وضرب المثل بهؤلاء الأباطرة ليبين أن ظاهرة الصعود الاجتماعي إلى طبقات أعلى كانت تحدث اضطرابا في الطبقات الاجتماعية الأفقية، وانه في كل مرة يرتقي العرش أمبراطور جديد يقوم بتغيير موظفي حكومته مما يسبب اهتزازا شديدا للبناء الاجتماعي. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الأباطرة، ذوي الأصل المتواضع، والذين صعدوا إلى القمة، يقومون في أغلب الأحيان بإحضار عصبة من الأقارب والأتباع ثم يصدرون قرارات تعيينهم في المناصب العليا بالدولة، وبهذا تدخل فئة جديدة مجتمع الطبقة العليا بحكم مناصبهم، ويصاحب ذلك عزل عدد كبير من الوجهاء الذين شغلوا تلك المناصب العليا. وفي كثير من الأحيان يتم تجريدهم من

(١) وسام فرج ، أضواء على مجتمع القسطنطينية، دراسة في التاريخ الاجتماعي لمدينة قنسطنطين ، جامعة المنصورة / جامعة برلين، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٢) وسام فرج، المرجع نفسه ، ص ٧٤ - ٧٥.

ألقابهم وأجبارهم على الهبوط إلى الطبقة الأدنى وبهذا تخرج فئة من مجتمع الطبقة العليا. وأن هذا العمل كان يعرض البناء الاجتماعي للمدينة لهزة عنيفة[٣].

ولا نعتقد أن صعود أمبراطور جديد إلى عرش الأمبراطورية، وتعيين بعض الأقارب والأتباع في المناصب العليا، يؤدي إلى هز البناء الاجتماعي هزا شديدا كما ذكر الباحث. ولكنه يحدث خلخلة طفيفة لأنه مهما بلغ عدد أولئك الأقارب والأتباع فيظل محدودا وقليلاً نسبيا بالنسبة لعدد أفراد الشعب، ولا يسمح بذلك الاهتزاز الشديد. وأن تلك الظاهرة لا تحدث عادة إلا في فترات متباعدة وحتى إذا حدثت في فترات متقاربة، فالخلط من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل يبقى محصورا في عدد من الوظائف والمناصب العليا. الأمر الذي يجعل أثره محدودا وفي نطاق ضيق إلى حد ما.

ويضيف الباحث : أن تكرار تعيين وعزل شاغلي الوظائف العليا بصفة خاصة حال دون تكوين طبقة ارستقراطية مدنية مستقرة في العاصمة[٤]. وللرد على هذه النقطة نقول : أن الباحث نفسه قد أشار إلى وجود طبقة أرستقراطية في مجتمع القسطنطينية[٥] والتي أطلق عليها أسم " طبقة أرستقراطية وراثية "، ويكفينا للدلالة على وجود هذه الطبقة القول باستمرارية أعضاء مجلس الشيوخ، الذين كونوا عصب الطبقة الأرستقراطية الوراثية في الأمبراطورية البيزنطية.

وهناك نقلة اجتماعية متاحة وهي مفتوحة أمام جميع الطبقات وخصوصا من يملك المال، ومن يملك المال هذا يعني أنه من الطبقة الوسطى، والطبقة الوسطى الغنية، وهي الفئة القادرة على شراء المناصب. ففرصة شراء الوظيفة تتيح للشخص الانتقال إلى طبقة كبار الموظفين وبالتالي يصبح الشخص أحد كبار رجال الدولة. لأن تعيين شخص في أحد المناصب العليا يعني تمتعه بالقوة والنفوذ والاحترام والمكانة الاجتماعية[٦].

لقد حاول أبناء الطبقة العليا في مجتمع العاصمة من كبار الموظفين وحملة الألقاب والفئة السناتورية التسلل إلى طبقة كبار ملاك الأرض في الأقاليم، وحرصوا على أن يكون لهم أتباع من بين فئات الطبقة الدنيا ، للاعتماد عليهم عند الحاجة . وقد كونت نتيجة لذلك طبقة أرستقراطية في الأقاليم وهي التي تمتلك

(٣) وسام فرج، المرجع نفسه، ص ٧٨.
(٤) وسام فرج، المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٥) وسام فرج، المرجع نفسه، ص ٨١.
(٦) الموضوع بيع الوظائف، انظر الكتاب ، الأحوال الاقتصادية في القرن السادس، ص ٩٤.

ضياعاً ضخمة من الأراضي الزراعية والرعوية، وتعتبر عائلة أبيون Apion المصرية مثالا للعائلات الأرستقراطية القديمة في الأقاليم . فهذه العائلة كانت تمتلك مساحات ضخمة من الأراضي الزراعية تمتد من الفيوم في مصر الوسطى جنوبا إلى عمق مصر العليا، ولقد شغل عدد من أبناء هذه العائلة مناصب قيادية هامة في ولاية مصر البيزنطية، بل وفي القسطنطينية خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الخامس وحتى مطلع القرن السابع الميلادي(٧).

لقد كان المالك القوي أو لنقل المالك الكبير من الفئات التي كانت موجودة واستمرت في القرن السابع، ويعتقد أن كبار الملاك تركزوا في الأقاليم التي كانت على الحدود، وامتلكوا مناطق واسعة من أقاليم الحدود - ومن هذا الجزء كان أصل الطبقة الحاكمة(٨). ولقد استمرت في الوجود الاقطاعات الواسعة وعلى نفس النسق الذي كانت عليه في القرن السادس.

وتميز القرن السابع بظهور عناصر ضمن الطبقة الحاكمة وكون من بينهم الأعضاء في الأقاليم والعاصمة والذين يطلق عليهم أسم Service Elite. كما شهد القرن السابع بداية خطوات الجمع بين المجموعتين المسيطرة على الحياة الاجتماعية والسياسية في الدولة والمؤسسة السناتورية القديمة و Service Elite الجديدة(٩).

والطبقة الجديدة التي تكونت في هذا القرن هي الطبقة التي أشير إليها بأسم الطبقة الأرستقراطية العسكرية في أقاليم آسيا الصغرى . وهذا نتيجة للتطور الذي أصاب التنظيمات الأدارية والعسكرية في الأقاليم خلال تلك الفترة.

ونحن نعتقد ببروز تلك الطبقة في القرنين التاليين وليس في القرن السابع لأن تكوين الثروة والطبقة الاجتماعية المميزة يحتاج إلى فترة زمنية أطول. وربما يكون هذا البروز الاجتماعي أو التميز الأجتماعي للطبقة العسكرية الجديدة قد أخذ يطل برأسه منذ نهاية القرن السابع.

وأستطاع أبناء هذه الطبقة العسكرية الجديدة تكوين ثروات طائلة في الثيمات التي تولوا قيادتها وأصبح لهم عدد كبير من الأتباع فيها. الشيء الذي اعطى لعائلاتهم(١٠) مكانة اجتماعية متميزة، وأصبح أبناء هذه الطبقة نبلاء بالوراثة.

---

(٧) West. **Byzantine Egypt, Economic Studies** P. 153-173.
أيضا : وسام فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الأمبراطورية البيزنطية، ج ١، ص ٢٠٢ - ٢٠٧.

(٨) Haldon , Ibid P . 155.

(٩) Haldon , Ibid , P . 171.

(١٠) لمعرفة أهمية قواد الثيمات الشرقية أنظر الكتاب في الادارة العسكرية في القرن السابع، ص ٣١٩.
Jenkens , **Social Life** , C . M . H . Vol 4 P . 99 - 100.

وقد أكد كثير من الباحثين، أن العناصر المسيطرة من القواد البيزنطيين من الطبقة الحاكمة منذ القرن التاسع وحتى الحادي عشر، كانوا في الأصل من مناطق الثيمات الشرقية مثل ثيم الأناضول Anatolikon وقبادقيا Kappadokia وبفلاجونيا Paphlagonia وخرسون Charsianon والبكلار Boukellarion.

ويشير هالدن إلى دراسة Kazdan وقوائمه "وهي مكتوبة باللغة الروسية " عن تحليله لطبقة النخبة Elite في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فهي في رأيه تشير إلى أن الغالبية العظمى من المنتمين إلى الطبقة العسكرية المتميزة إنما جاءت من شرق الأناضول والقوقاز مع نسبة أقل من مقدونيا وبلغاريا ومن خارج الأمبراطورية . وفي حين أن غالبية العاملين في الخدمة المدنية إنما جاءوا من القسطنطينية ومن المناطق الخلفية أو المحاذية لها مباشرة ومن المناطق الساحلية في بلاد اليونان وسواحل الأناضول ومن حوض بحر ايجة(١١). كما يشيراالى دراسة Winkelmann التي اهتمت بتطور دراسة الأسماء Nomina Gentilia، وتعني أسم العشيرة والتي تصل بتركيب الأسماء وكيف أنها توجد بين الأسر الريفية. ويناقش مدى تأثير ذلك على مصادر ثرواتهم واهتمامهم بالصراعات السياسية العسكرية التي كانت تعاني منها الأمبراطورية. وإن كان هالدن يشكل في أنها تعطي الصورة الدقيقة لما كان حادثا بالفعل إلا أنه يقر بأنها تصور هذه الأسر وتصور اتجاهها الواقعي(١٢).

ومن الجدير بالذكر أن الأرض المملوكة للنخبة العسكرية لم تكن أراضي زراعية بل كانت أراضي مراعي . حيث قاموا بتربية المواشي والخيول واعتمدت ثرواتهم على الثروة الحيوانية أكثر من الانتاج الزراعي(١٣) .

ومن أبرز الفئات العليا أو الطبقة الاجتماعية العليا نخبة نبلاء السناتو (أعضاء مجلس الشيوخ) أو الارستقراطية السناتورية وهذا الاصطلاح يشير إلى المجموعة التي ورثت لقب Senate والتي تسمى أيضا Clarissimus والذين كانوا يعدون بالآلاف في القرن السادس وبالذات في عصر جستنيان. هذا بالإضافة إلى المجموعة الأخرى والتي تحتل رتبة أقل وتسمى Illustres وهي تعيش في الأقاليم وعدد

= أيضا : Ostrogorsky , **Observation on The Aristocracy in Byzantium in** . D .O .P .18 (XXV) P . 4

(١١) Idem P . 156.

(١٢) Idem P . 155.

(١٣) Hendy , Ibid , Pp . 97 - 100.

أيضا : Jones , Ibid , Vol 2 Pp . 76 - 79.

كبير منهم كان من ملاك الأراضي والذين كانت ممتلكاتهم منتشرة في قرى ومدن عديدة مختلطة بأملاك الـ Curiales المحلية، وكبار ملاك الأراضي. ولكن الذين يحملون رتب Glorious و Magnificus والذين يحملون ألقاب ومناصب شرف من الدولة ، سواء كانوا يقيمون بالعاصمة أو لديهم سماح بالعيش في أقاليم ، هم في الواقع رجال أصحاب ثروات ومناصب اجتماعية أكبر، وأن اصطلاح الأرستقراطية السناتورية بالنسبة للقرنين السادس والسابع ، على الأقل يمكن إطلاقه عى هذه المجموعة فقط. ذلك من حيث العلاقة بين الثروة والقوة، فقد استمروا يعملون كنخبة حاكمة(١٤).

وفي نهاية القرن السادس وبالرغم من نقص هذه الطبقة في الحجم، فإن ألقاب وظائف الشرف لهذه الفئة قد ازدادت، حيث أن قانون جستنيان أتاح لكل من الـ Ex - Consul و Patricii والـ Illustres أن يحتل مقعدا في مجلس الشيوخ "Senate" كما رسم أيضا بأن كل أعضاء الـ Consistory يجب أن يحضروا كل أجتماعات مجلس الشيوخ.

إن مجموعة الـ Illustres الذين يحملون ألقاب Glorios و Gloriosissimi كونوا الطبقة العليا من النبلاء الأرستقراطيين السناتوريين في كل المؤسسات المدنية والعسكرية، وفي حين أن رتبهم يمكن أن تعطى لأبنائهم، وذلك بعد موافقة الأمبراطور، إلا أن مناصبهم ليست وراثية بصفة عامة. ولكن هذا لا يمنع أن أبناءهم هم الأنسب دائما في نظر الأباطرة لتقلد أعلى المناصب. ولهذا فإن هناك تطابقا بين الفئة السناتورية وفئة كبار الموظفين، ومنهم والي المدينة الذي يعد من الطبقة الأرستقراطية وكذلك حملة الألقاب الرسمية والشرفية في بيزنطة. والفارق الوحيد بين فئة كبار الموظفين وفئة السناتو هو أن اللقب السناتوري كان متوارثا في العائلة فقط دون أن يعطى المورث أي سلطة أو نفوذ أو حق في وراثة عضوية المجلس أو وراثة أي منصب آخر(١٥).

الطبقة الوسطى :

وتضم ملاك الأراضي وأصحاب المهن مثل الأطباء والمعلمين والموثقين القانونين وأصحاب السفن ، وأصحاب البيوتات التجارية وأصحاب الصناعات والتجار.

ولو أخذنا ملاك الأرض فيمكن لبعضهم أن يعيش في الأقاليم لإدارة أراضيهم

(١٤) لوظيفة رجال السناتو أنظر الكتاب.

(١٥) Ostrogorsky , B . S . PP 291 - 302.

الزراعية إذا كانت واقعة في أقاليم بعيدة عن العاصمة، ويمكن لبعضهم أن يعيش في العاصمة إذا كانت أراضيهم الزراعية تقع بالقرب من العاصمة. أو انهم يعيشون في العاصمة ويؤجرون أراضيهم على الفلاحين ليقوموا بزراعتها(١٦).

ويطلق على الأطباء والمعلمين والموثقين القانونيين أسم الفئة المثقفة. والتي عملت في التدريس بالمدارس وبجامعة القسطنطينية، إذا كان من الممكن إطلاق الاسم عليها، وفي الدروس الخصوصية. كما عملوا في الادارات الحكومية والكنيسة كموظفين في إدارات الأرشف Chartularioi ومسجلين وموثقين Notariori وسكرتيرين Sekretariori في الادارات الحكومية والقصر والكنائس(١٧).

ويمثل أصحاب البيوت التجارية والمصانع Ergasteriakoi المجموعة الرئيسية في الطبقة الوسطى. وهذه الفئة التي تملك المحلات التجارية الكبرى والمصانع كانوا على درجة كبيرة من الثراء. ولكنهم كانوا بعيدين عن السلطة والسياسة(١٨).

وليست كل المحلات التجارية والمصانع مملوكة لهذه الفئة، بل كان هناك عدد من تلك المحلات والمصانع مملوكا للكنيسة في حين كان هناك عدد آخر احتكارا مملوكا للدولة(١٩).

وربما نكون على صواب لو أننا قلنا بأن جميع الفئات التي ضمتها النقابات التجارية والصناعية وأصحاب الخدمات الغذائية والتي وردت في كتاب الوالي يمكن ضمها الى الطبقة الوسطى في المجتمع البيزنطي وهؤلاء هم : تجار المجوهرات، والصيارفة، وجميع تجار وغزالي الحرير، وتجار المنسوجات الكتانية وتجار العطور والروائح، وصناع الشمع، وصناع الصابون، باعة المواد الغذائية، وصناع الجلو، والعاملين في البناء. وتنضم إلى الطبقة الوسطى أيضا فئة المزارعين. وحيث أن الفلاحين الأحرار مثلوا شريحة كبيرة من السكان. وأن الكلمة مزارع (Georgos) تعني في ذلك الوقت المالك الحر. وبصفة خاصة فإن قانون الفلاح يتحدث عنهم كسادة Kurioi لمتلكاتهم.

وبصفة عامة فإن المتلكات الصغيرة والمزارعين الأحرار والجنود أصحاب الملكية

---

(١٦) أنظر الكتاب عن الزراعة، ص (٣٨٣) وما يليها.
(١٧) وسام فرج، المرجع السابق، ص ٨٩.
(١٨) وسام فرج، المرجع السابق، ص ٨٥.
(١٩) أنظر الكتاب الحالة الاقتصادية في القرن السابع .
أيضا: Jenkins, Social Life, in C.M.H. Vol. 4, P2 P. 84-85.

الزراعية Stratiotes هم الذين سيطروا على الحياة الريفية ولمدة طويلة[٢٠].

وفسرت كلمة Georgio بمعنى Coloni وهم أحرار في مواجهة الآخرين ولكنهم رقيق في مواجهة الأرض. فليس في استطاعتهم مغادرتها أو الافتراق عنها وكذلك ذرياتهم. ومن ثم ولد اصطلاح رقيق الأرض. ولكننا لسنا متأكدين من أن وضع المزارعين في الشرق وصل إلى حد Colon Serf والذي كان سائدا في الغرب[٢١]. وكان الـ Coloni أو المزارعون يحتلون موقعا بين الأحرار والعبيد وقد استقروا على الأرض التي ولدوا عليها وزرعوها. وهم اسميا في وضع المستأجرين للأرض من أصحابها ويدفعون الإيجار العيني الذي يحدده العرف والـ Colonus في عرف القانون Ingenus أو المولود الحر وبهذا فهو يختلف عن وضع العبد ولكنه في الواقع هو عبد أو من رقيق الأرض Serf لأنه ملتصق بالأرض Glebae Ascripte ويعد جزءا منها لا يستطيع الخروج منها أو أن يطرد منها، وإذا غادرها فمن الممكن ارجاعه إليها بعمل قانوني Real Action.

وهناك نوعان من الـ Coloni، النوع الأول Coloni Liberi والثاني Coloni Ad- scripticius، والـ Coloniliberi أو المستوطنون الأحرار كانوا يعرفون أيضا باسم Inquilini أو Tributarii وإذا استبعدنا ربطهم بالأرض فإنهم كانوا يتمتعون بحريتهم الشخصية ومن الممكن أن يحوزوا حق الملكية في مواجهة صاحب الأرض ولا يخضعون لأي التزامات سوى دفع الايجار المحدد. أما الـ Censiti أو Coloni Adscripticius فليس لهم حق الملكية وإن أي شيء يحصلون عليه كان يعتبر مجرد Peulium. شيء يملكونه. قد يكون مبلغا من المال أو قطيعا من الغنم أو قطعة أرض وإنما تبقى في ملك السيد، ولكن للعبد أن يستثمرها وينميها لنفسه[٢٢] . إلا أن الـ Coloni من هذا النوع قد أدرجوا في سجل ضريبة الأرض من ممتلكاتهم تحت اسم صاحب الأرض. ولكن من الناحية العملية كان هذا هو الفارق الوحيد بينهم وبين الـ Liberi الذين كانوا يدفعون الضرائب باسمائهم مباشرة إلى الدولة وليس عن طريق المالك، إلا أنه يبدو أن هؤلاء الـ Adscriptici وبعكس الرأي الذي كان

---

(٢٠) Ostrogorsky , **Geschichte des Byzantinischen State** , in Byzantinischen handbuch , XII , 1 , 2 munich 1963 P. 35 - 50.

(٢١) P . Lemerle , **Esquisse Pour Une histoine Aqrai De Byzance** P . 20.

(٢٢) R .D . Melerile , **A Manual of The Princeples of The Romanlaw** , (London . 1921) P . 405

أيضا: Haldon , Ibid , P . 126.

سائداً، كان في استطاعتهم أيضا الحصول على عقود إيجار طويلة المدى -Emphy teutic Leases وأن يتصرفوا كأشخاص مستقلين أحرار.

واستقر عند المؤرخين فيما مضى أن Peculium أو الملكية الشخصية والحقوق والواجبات المتصلة بها كانت تحت سيطرة سادتهم، ولكن تبين من الدراسات الحديثة، أن هذه الأمور كانت في الأصل Factor العامل الوسيط في وضعهم السياسي، والقضائي، بالنسبة لسادتهم من ملاك المزارع والضياع، التي كانوا جزءا منها، لأن هذه المزارع أو الضياع Estates كانت ملتزمة بدفع نصيب من دخلها للوفاء بالالتزامات Munera أو الأعباء المدنية من قبل البلديات المحلية التي تقع هذه الضياع في نطاقها، ومن وجهة النظر هذه فإن إقدام المالك على الحجز -Dis traint "أو احتمال قيامه بذلك" على الـ Peculuim الخاصة بالمزارعين المقيدين بالأرض يكون لها نفس التأثير لاجراءات الحجز الذي يمارسه الـ Respublica بالنسبة لممتلكات أي فرد ينتمي إلى طبقة المجلس المحلي Curial وإجراء الحجز هذا بمثابة ضمان للحصول على العائد من الانتاج الزراعي، وبهذا الصدد فإن المالك هو في الواقع عميل للمدينة، وفي آخر المطاف هو عميل للخزانة. يضاف إلى ذلك أننا يجب أن نتذكر أنه إذا لم تكن Adscripticius Cglonig أي حرية في ترك ممتلكاته فإن المالك ليس له أيضا حق السماح له بحرية الحركة، أو طرده أو أن يرفع قيمة الأجر الأساسي، أو أي شيء يمس الضرائب المفروضه على الأرض التي يملكها. إن لم يكن دائما عمليا هو لضمان دخل الدولة . وبذلك فإن الـ Colonus Adscripticius ينال مالم يكن يحصل عليه المزارع المستأجر العادي أو المالك الحر، وأقصد هنا ضمان حق الملكية Tenure وحماية قوانين الدولة(٢٣).

وإلى جانب هؤلاء الـ Coloni وجدت طبقة ثالثة هي طبقة صغار الملاك الأحرار Free Small holders وهم لا يختلفون في ظروفهم الاقتصادية عن الذين شاركوهم الحياة في القرية وفي مجتمعهم وإن كانوا من الناحية القضائية أرقى قليلا حيث كانت لهم حرية التصرف في ملكياتهم Alienate. ولكن لما كانوا يخضعون لضغط من الدولة من أجل تسديد الضرائب ومن كبار الملاك من حولهم فإنهم نادرا ما كانوا يعيشون في أمن واطمئنان. وهناك شواهد على مجتمعات من صغار الملاك

(٢٣) Lemerel , Ibid P . 68 - 70.

منتشرين في معظم أرجاء الأمبراطورية في أوائل القرن السابع[٢٤].

ومن المؤكد أن جستين الثاني منع الـ Curatores وموظفي الضياع الأمبراطورية الأخرين في كل أرجاء الأمبراطورية من ادعاء ملكية القرية وأراضيها سواء كانت هذه القرى التي يمتلكها الملاك من طبقة الشيوخ أو الكنيسة . وكانوا ممنوعين من ممارسة أي شكل من أشكال الـ Patronage(Patrocinium) على هذه المجتمعات[٢٥].

ومن الصعب القول بالمدى الذي بقى فيه هذا النوع من الملكية واستثمار الأرض خلال القرن السابع وما بعده وقد تردد أن الصراع الأهلي، في عهد فوكاس، والذي نتج أول الأمر من الصراع مع الفرس ثم مع العرب مسؤلا عن تحلل Decimation للعناصر المتميزة من طبقة الشيوخ في الولايات وتناقص عدد المزارع الواسعة في الولايات الشرقية من الأمبراطورية. وفي رأي اوستروجورسكي أن هذه التغييرات زادت كثيرا أو قليلا من الاحلال الكامل لمجتمعات حرة من المزارعين بدلا من نظام الضياع أو المزارع الواسعة التقليدية ونظام الـ colonate. وهذا مابدأه الأمبراطور هرقل. ويتفق عدد من العلماء مع استروجورسكي في معظم نظريته ويرون أن القرن السابع وأوائل القرن الثامن شهدا التحول الكامل من نمط الانتاج القائم على عمل العبيد إلى النظام الذي سيقوم عليه حثيثا النظام قبيل الاقطاعي Proto - Feudal [٢٦].

ولكن هناك من يعتقد بأن العبيد كونوا عنصرا مهما بين سكان الريف والقوة العاملة في الأرض. واستدل على قوله بالاشارات التي وردت في قانون الفلاح في المواد ٤٦ و ٤٧ و ٧١ و ٧٢ [٢٧].

إن الاصلاحات في النظم العسكرية، في عهد هرقل وخلفائه، التي ادخلت على طريقة التجنيد ليحل محل المرتزقة الأجانب عناصر وطنية وتقتطع لهم الأراضي في كل الثيمات Ktemata، والجنود المحليون الذين أطلق عليهم اسم Stratiotai

(٢٤) يجب ملاحظة أن تشريعات القرن السادس كانت تعامل صغار الملاك بوصفهم خاضعين لنفس الظروف الاقتصادية التي كان يخضع لها الـ Coloni، أنظر : Jones , Ibid , Vol. 2, P . 778 F.

(٢٥) Patro Cinium يعني وضع مجتمع ما نفسه تحت حماية شخص قوي، في أول الأمر كان قائدا عسكريا تحت قيادته مجموعة من الجند وأحيانا حامية بأكملها، وفيما بعد أشخاص عاديون مثل مالك قوي في منطقة ما يتولى حماية هؤلاء على أن يحصل على مقابل في شكل نقدي أو عيني. ولكن يحصل على مقابل أكبر لو رهن لديه الشخص الذي يطلب منه الحماية لأرضه . وكان المزارعون يجدون أنه من الأبسط لهم أن يسلموا أراضيهم إلى المالك الجديد ثم يستردونها بضمان حق الملكية وحق الايجار كما هو الحال بالنسبة للـ Coloni، وهكذا فإن كثير من الذين كانوا أصلا صغار ملاك أحرار يصبحون مستأجرين لدى كبار الملاك الأقوياء بما في ذلك الكنيسة.

أنظر : Jones , Ibid , Vol . 2, PP . 775 - 8.

(٢٦) Haldon , Ibid P . 128 n 9.

(٢٧) Lemerle , Ibid P. 56.

كانوا يختارون من الشعب، والمزارعين الأغريق والقبائل المتبربرة ومن السلاف الذين استقروا في أراضي الأمبراطورية. وحيث كانت الأرض متوفرة وهي القاعدة الصلبة التي يقوم عليها الدفاع عن الأمبراطورية. وبذلك دعمت طبقة صغار الملاك والطبقة الوسطى من الملاك الأحرار . الذين مثلوا الدعم للمقاومة غير العادية للأمبراطورية واحتفاظ الأمبراطورية بقوتها والتي بلغت أقصى عنفوانها منذ القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر. وصمودها فُسر بما كانت تلقاه الدولة من الدعم الذي يستند إلى قوتها المالية التي تستند بدورها على طبقة المزارعين الأحرار وقوة الجيش المكونة من جنود يمتلكون أرضا. فهذا الجندي لا يعدو أن يكون مزارعا مرتبطا بخدمته العسكرية. وهو مثل أي مزارع. يزرع أرضه مع أعضاء أسرته فالجنود والمزارعون ينتمون جميعا إلى مجتمع واحد "مجتمع المزارعين" ولم يكن هناك أي تفرقة جوهرية من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية بين المزارعين العاديين والجنود، فهم على قدم المساواة(٢٨).

ويشير Lemerle إلى الفقرة أو النص الموجود عند ثيوفانيس(٢٩). يقول أن هرقل أضاف فرقاً جديدة للجنود الذين كانوا موجودين بالحاميات. وكأن ليمريل هنا يود القول بأن الفرق الجديدة التي جاءت مع هرقل منحت الأرض العسكرية مقابل الخدمة العسكرية، ومما هو جدير بالملاحظة أن شرط منح الأرض مقابل الخدمة العسكرية كان مقرونا باستمرار تلك الخدمة في الإبن الأكبر(٣٠).

وهناك من يذكر أن الجنود الذين أسسو ملكيات وراثية في الثيمات مقابل الخدمة العسكريية لم يدفعوا الضرائب للدولة، بينما دفع الفلاحون الأحرار الضرائب(٣١). ولكن هناك رأيا مغايرا يقول أن الجنود المزارعين مثلوا شريحة من الشرائح التي تقوم بدفع الضرائب حيث اعتبروا من صغار ملاك الأرض المستقلين(٣٢)، ونحن نميل إلى تأييد الرأي بأن الجند لم يدفعوا الضرائب لأن الأرض مثلت جزءا من رواتبهم أي أنها دفعت لهم مقابل خدماتهم العسكرية ،فمن المنطق ألا يدفعوا عنها الضرائب.

طبقة العامة : Demos

هي الطبقة الرئيسية الثالثة وهي الطبقة العريضة في قاعدة الهرم الأجتماعي وتتكون من الفئات التالية: صغار التجار، صغار الحرفيين وعمال اليومية في

(٢٨) Idem P . 70.
(٢٩) Theophanes , Ibid , 303.
(٣٠) Lemerle . Ibid . P . 70.
(٣١) Ostrogosky , **Geschichte** ., P . 39.

المصانع والمحلات، والعمال المؤقتون وأخيرا أنصاف الأحرار والمتسولون.

وسوف نستعرض هذه الطبقة بطريقة تصاعدية، وبالنسبة للعبيد فمن المرجح أن عددهم لم يكن كبيرا وبالذات في العاصمة وأن المعنى الدقيق لكلمة Doulos لا تعني فقط العبد أو القن، فقد كانت تطلق على العبد وعلى التابع الحر، وعلى موظفي الأمبراطور . كما كانت تطلق على الخادم(٣٣).

ويمكننا القول بأن وضع العبيد القانوني في العصر البيزنطي المبكر وحتى العصر البيزنطي الوسيط، كان يشبه وضعهم القانوني في العصر الروماني المتأخر. والواقع أن وضع العبيد القانوني لم يتغير في الفترة الواقعة مابين عهد الأمبراطور جستنيان الأول - وحتى عهد الأمبراطور المعروف بليو السادس(٣٤) .

وباعتبار أن العبيد لم تكن أعدادهم كبيرة فإن أهميتهم الاقتصادية بالنسبة للحياة الاجتماعية لم تكن كبيرة أيضا . والسبب في قلة عددهم أنه لم تعد هناك مصادر منتظمة للحصول عليهم، وكان العبيد الموجودون بالفعل قد جاءوا بالدرجة الأولى كأسرى حرب. ولكن الصراع الإسلامي البيزنطي قد شاهد النمو السريع لموضوع تبادل أسرى الحرب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن جهة البلقان لم تعد موردا منتظما للعبيد، ومن الملحوظ أن العالم البيزنطي لم يعرف أي ثورة للعبيد. وهذا يؤخذ كدليل على أن أعداد العبيد لم تكن كبيرة في العالم البيزنطي(٣٥).

والفئة الثالثة هي الفئة التي تضم العمال المؤقتين وعمال اليومية الذين يحصلون على أجور يومية والمتسولين الأحرار، وكانت هذه الفئة فئة بائسة. إذ يعتقد أنهم لم يكن لديهم مساكن خاصة تؤويهم حيث أن إيجارات المساكن مرتفعة والأجور التي يحصلون عليها ضئيلة(٣٦). هذه الفئة التي أعتمدت على ما تقوم به الدولة من توزيع الخبز المجاني أو خبز العامة Annonae Populares وفي القرن السابع الميلادي كان من الصعب توزيع الخبز المجاني خصوصا بعد فقدان مصادر القمح الأساسية(٣٧).

---

(٣٢) Moss , **The Easter Roman Empire**, in : C . M . H . Vol 4 P . 36.

(٣٣) وسام فرج - المرجع السابق ص ١٠١.

(٣٤) إن هناك قانون ساري المفعول من عهد جستنيان رقمه ١٢٣ على أن العبد لا يستطيع الانخراط في سلك الكنيسة إلا بعلم وموافقه سيده Jus . nov . 123 . Cap . 170.
وربما يرجع السبب في ذلك الى التأثر بتعليمات الكنيسه عن وضع العبيد، أنظر : Oman, **Byzantine Empire** P . 147.

(٣٥) Jenkin , **Social Life** , in : C , M . H . Vol . 4, Part 2 . P . 49.

(٣٦) Teal , Grain Supply P . 107.
أيضا : Jones Vol 2 P . 696 - 697.

(٣٧) أنظر الكتاب، الأحوال الاقتصادية في القرن السابع، ص

والجدير بالذكر أن الغاء توزيع حصص خبز العامة لم يضر بحالة الفقراء لأن مؤسسات الرعاية التابعة للكنيسة أو الأديرة فضلا عن مؤسسة خدمة فقراء العاصمة Diakonie التي أقامتها الحكومة ، قدمت لهم خدمات لمساعدتهم(٣٨).

وتذكر حولية Chronicon Paschale ثورة حراس القصر الـ Scholae في كنيسة أيا صوفيا سنة ٦٢٦م ضد يوحنا الملقب بالزلزال Seismos. الذي أراد أن يحول الخبز الذي يوزع على حراس القصر إلى الجنود، كما يذكر الثورة الثانية في نفس الشهر من نفس العام ضد يوحنا وجميع الموظفين بما فيهم الوالي البريتوري والسبب في ذلك يعود إلى أن الرغيف كان يباع بثلاثة Folles وأن يوحنا الزلزال خطط لبيعه بثمانية Folles(٣٩).

والفئة العليا من الطبقة العامة هي فئة صغار الحرفيين العاملين في الصناعات والمتاجر المملوكة للآخرين بالإضافة إلى صغار التجار وأصحاب الحانات وغيرهم.

والحرفيون هم الذين عملوا إما في المصانع المملوكة للدولة Ergodosia و Basilika أو في مصانع ومحلات مملوكة للقطاع الخاص Ergasteria وربما عمل الحرفيون العاملون في المصانع الحكومية في صناعة الأسلحة وصناعة الحرير أو في دور سك العملة الحكومية.

وحرصت الدولة منذ مطلع القرن الميلادي على أن يظل هؤلاء مرتبطين بحرفهم بأن جعلت هذه الحرف وراثية(٤٠).

وربما عمل صغار التجار في كل مجالات التجارة ولكن برأس مال محدود. كما يدل على ذلك اسمهم، ويقال أن فئة الحرفيين وصغار التجار شكلت أفضل فئات طبقات العامة، وأنها عاشت عيشة طيبة حتى ظن بعض المثقفين أنها تعيش حياة اجتماعية أفضل من حياتهم(٤١).

طبقة رجال الدين :

نستطيع أن نضع رجال الدين من بين المثقفين(٤٢) ولو أن ثقافتهم تركزت على دراسة اللاهوت . ولكن يقال أن دراسة اللاهوت لم تكن مجالا قاصرا على رجال

---

(٣٨) وسام فرج، المرجع نفسه، ص ١٥٠.
أنظر أيضا : Gerge R. **Monks The Church Alexandria- Economic Life** P . 352
.in Speculum 28 (1955) Jenkins , Ibid P . 94

(٣٩) .Chronicon Paschale , P 168

(٤٠) .Jones , Ibid , Vol . 1, P . 698 - Jenkins , Ibid , P . 86

(٤١) وسام فرج ، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٤٢) لأن رجال الدين لم يتكونوا من طبقة اجتماعية معينة.

الكنيسة، بل كانت شيئا متاحا أمام كل المثقفين، والجدير بالملاحظة أن رجال الدين في بيزنطة باستثناء البطريرك كانوا فئة متزوجة حتي أعلى درجات هرم التنظيم الكنسي[٤٣].

وموارد رجال الدين المالية، تتكون من الأراضي الزراعية الكبيرة في الأقاليم والمصانع والمحلات، هذا بالإضافة إلى المنح المالية الكبيرة المنتظمة التي منحها الأباطرة للكنيسة البيزنطية، وقد كانت الكنيسة ممثلة في رجال الدين تملك الثروات الضخمه، والدليل على ذلك مساعدتها للأمبراطور هرقل في حربه ضد الفرس. والأموال التي استطاع البطريرك سرجيوس جمعها ومسانده الدولة في وقت الشدة[٤٤].

وكان رجال الدين في بطريركية القسطنطينية حريصين على استقطاب جزء من عوائد الكنيسة لأنفسهم وكان هذا عرفا مشروعا. وهذا العرف الذي أعطى لرجال الدين حق استقطاع جزء من دخل الكنيسة يعرف باسم Prebend، ولهذا حرص رجال الدين على مضاعفة عوائد وأرباح موارد الكنيسة سواء كانت ملكيات زراعية أو مصانع أو متاجر . وهذا أدى إلى نتيجة هامة وهي ربط رجال الدين اقتصاديا بطبقة كبار ملاك الأراضي في الأقاليم وبالفئات الغنية للطبقة الوسطى[٤٥]. لقد كانت فرصة مضاعفة أرباح موارد الكنيسة أكثر سهولة بسبب الامتيازات التي تمتعت بها موارد الكنيسة ولكن هذا لم يعط الكنيسة طاقة اجتماعية أكبر لأن الدور الاجتماعي للكنيسة البيزنطية كان دائما محدودا.

كما كان الهيكل الاقتصادي للكنيسة مشابها للهيكل الاقتصادي للدولة، فإن ذلك القول ينطبق على النظام الإداري الذي كان متماثلا مع النظام الاداري للدولة فنجد أن البطريرك هو رأس الهرم الكنيسي، ويتوقف بقاء البطريرك في منصبه على رضاء الأمبراطور عنه، ولقد حرص أباطرة بيزنطة على أن يكون لهم الدور الحاسم والكلمة النهائية في أختيار شخص البطريرك . ومن الملاحظ أن الأباطرة كان لديهم ميل لاختيار شخص البطريرك من فئة الرهبان، الذين اتسموا بالزهد، واعتقدوا أن اختيارهم لتلك الفئة سيجعلهم طوع البنان، ونتيجة لذلك الاختيار لم تتكون طبقة خاصة من كبار رجال الدين يقتصر اختيار البطاركة على أبنائها، ويأتي بعد

---

(٤٣) وسام فرج، المرجع السابق، ص ٩١.
(٤٤) أنظر الكتاب، الحالة الاقتصادية في القرن السابع، ص (٣٢٥ - ٣٢٦).
(٤٥) رنسمان، **الحضارة البيزنطية** ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، ص ١٢٦.

البطريرك في السلم الوظيفي في الكنيسة الشمامسة الخمسة الذين كان يتم تعيينهم عن طريق الأباطرة أنفسهم. والشمامسة الخمسة هم الذين يتولون على كل الشئون الإدارية والمالية بصفة خاصة - واستمر هذا التقليد حتى عهد الأمبراطور اسحق كومنين (١٠٥٧ - ١٠٥٩م) الذي تنازل للبطريرك ميخائيل كرولاريوس عن حق تعيين كل مساعديه وموظفي البطريركية اعترافا بفضل البطريرك في اعتلائه العرش(٤٦).

القس :

لم يكن له دور اجتماعي بارز يستحق الذكر فلم يكن القس الراعي الروحي لسكان الأحياء، وأن الرعاية الروحية كانت من اختصاص الرهبان واعتمد القس في دخله على الرسوم التي يدفعها الناس له مقابل أداء الطقوس الدينية والتعميد ومراسم دفن الموتى وقد كانت تلك الرسوم ضئيلة مما جعل القسيس يعمل في مجالات التجارة والأشغال اليدوية والحرف(٤٧).

الرهبان :

إن انتشار الرهبنة وتأسيس الأديرة في الأمبراطورية البيزنطية خلال فترة وجودها كان ضخما وهذا الانتشار يستدل عليه من عدد الأديرة التي بلغت حوالي ٩٢ ديرا في العاصمة وحدها في القرن السادس . وان كان يوجد في الأقاليم البيزنطية وحدها حوالي ٧٠٠ ديرا.

ومن الجدير بالملاحظة أن تأسيس الأديرة في بيزنطة قد أخذ في الاضمحلال خلال القرنين السابع والثامن، ففي القرن السابع يعود السبب إلى الأحداث الحربية التي اكتنفت المنطقة، أما في القرن الثامن فالسبب يعود إلى حركة اللا أيقونية والتي شنها أباطرة الأديرة في القرن السابع الميلادي من أفراد البيت الأيسوري(٤٨). كما أستهرت الأديرة في القرن السابع الميلادي بأنها كانت عبارة عن منفى لكثير من الأباطرة الذين يعزلون عن العرش(٤٩) . هذا بالإضافة إلى كبار موظفي الدولة والقصر. وأسباب فرض الرهبنة على هؤلاء واضحة لأنها كانت سياسية بالدرجة

---

(٤٦) رانسمان ، المرجع نفسه، ص ١٢٧ .
(٤٧) وسام فرج ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .
أيضا ، رانسمان ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ .
(٤٨) Peter Charahis , **The Monk as Element of Byzantine Society**. in , D .O .P . PP 63 - 65.
(٤٩) Charanis , Ibid , 371.

الأولى[٥٠]. ونفي إلى الأديرة عدد من أميرات القصر خوفا من إنهن إن تزوجن من أمراء البيت المالك أو من أبناء الطبقة الأرستقراطية أن يقوم أبناؤهن بالمطالبة بالعرش في المستقبل[٥١].

ولا يميز الرهبان البيزنطين بأنهم كانوا مثقفين ، وقد كان الراهب البيزنطي في أفضل الأحوال يجيد القراءة والكتابة، وفي نفس الأحوال لا يعرف كتابة اسمه ويمكن القول بأن عدداً كبيرا من الرهبان التحقوا بالأديرة وهم يجهلون القراءة والكتابة، وتعلمت الغالبية العظمى منهم القراءة والكتابة في مكتبات الأديرة، وظل البعض الآخر على جهلهم حيث عهدت إليهم الأعمال اليدوية، والمقصود بالقراءة هنا ، هي قراءة الكتاب المقدس والترانيم الدينية وسير حياة القديسين. ولم تتحول الأديرة البيزنطية إلى مراكز تعليمية كبرى كما حدث في الغرب الأوربي[٥٢].

لقد كان للراهب مكانة خاصة في المجتمع البيزنطي وسبيله إلى ذلك زهده في الدنيا وتقشفه، وقد نما إعتقاد شعبي في الراهب ونسج الشعب حولهم الأساطير واعتقدوا بأن للراهب قدرات خارقة على شفاء المرضى وطرد الأرواح الشريرة والتنبؤ بالمستقبل . حتى إنهم جعلوا صلاة الراهب أكثر أهمية من صلوات الآخرين وكثيرا مالجأ الناس إلى الرهبان لاستشارتهم[٥٣]. ونحن نعتقد أن الاستشارة هنا ليس لأنهم ذوي عقل راجح ولكن لاعتقاد الناس على مقدرتهم على التنبؤ. وكذلك الأباطرة الذين لجأو إلى استشارة الرهبان قبل البدء في المشروعات الهامة. لم تكن استشارتهم من قبل الأستنارة بأرائهم القيمة ولكن بقصد معرفة نبوءة الراهب لتلك المشاريع سواء بالفشل أو النجاح.

النشاط الاجتماعي :

لقد لعبت ساحة السباق المعروفة بالهبودروم Hippodrom دورا هاما في الحياة الاجتماعية فقد كان يطلق على سكان العاصمة، مثلا، اسم Demoi وعلى فرق الهبودروم اسم Mere وارتبط سكان العاصمة بمختلف طبقاتهم بفرق الهبودروم التي تميزت بأربعة ألوان مختلفة هي : الأزرق والأخضر والأحمر والأبيض وانقسم المشجعون لهذه الفرق إلى قسمين. الزرق أو الخضر، وقد لعب أنصار الزرق

---

(٥٠) Charanis , Ibid P . 77.
(٥١) Idem P . 77.
(٥٢) Idem P . 81.
(٥٣) Idem P . 74.

والخضر دورا متميزا في الحياة الاجتماعية في الدولة البيزنطية. أما أنصار البيض والحمر فلم يلعبوا أي دور متميز يستحق الذكر. والـ Demoi كانوا هم المهتمين بالملعب والممولين للسباقات التي تقوم فيه . وكان الملعب يدعو الـ Demoi إلى حضور اجتماعات عامة Ecclesiai أو Comitia. لقد وجد تناقض سياسي بين أنصار فريقي الزرق والخضر. وجذور هذا التناقض يصفها بروكوبيوس على أنها ظاهرة ترجع إلى زمن بعيد وأنها منتشرة في كل مدن الأمبراطورية(٥٤). وهذا التنافس تطور إلى حد التأثير على مصير الأباطرة والأمبراطورية.

والأعتقاد السائد أن حزب الزرق هو حزب الحكام وأبناء الطبقة العليا، وأن حزب الخضر هو حزب عامة الناس. وأن حزب الزرق يمثل المذهب الصحيح لكنيسة القسطنطينية وأن حزب الخضر يمثل المذهب المونوفيزيتي. والنظرية التي جاء بها المؤرخ الروسي Djakonov والتي نقلها الباحث وسام فرج(٥٥). تتلخص في أن الاختلاف بين الحزبين يرجع إلى الاختلاف بين قادة وزعامة كل حزب. فقيادة حزب الزرق كانت في أيدي أبناء الطبقة العليا. أما زعامة حزب الخضر فكانت في يد كبار التجار وأصحاب المصانع والمحلات الكبيرة وعلى هذا فإن جموع انصار وأعضاء الحزبين كانت تنتمي للطبقة الدنيا ، إلا إذا خضعت لقيادة الطبقة العليا. وكانت القيادة فقط هي التي تنتمي لطبقات اجتماعية مختلفة(٥٦). وعليه فإن التناقض والإختلاف لم يكن تناقضاً سياسياً أو دينياً بين الأحزاب، لأن تلك الأحزاب وجدت قبل وجود الخلافات الدينية ، ولكن الخلاف هو الخلاف الموجود بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا والذي يمكن إرجاعه إلى أمور مالية. ففي فترة اضطراب الأحوال الاقتصادية والذي خضعت فيه الصناعة والتجارة لتحكم شديد من قبل الدولة. الوقت ترك الحبل على الغارب للملكيات الزراعية الضخمة. وهذا الارتباط بين الطبقة الأرستقراطية التي امتلكت هذه الملكيات الزراعية وفئة كبار موظفي الدولة والقصر في العاصمة.

وعلى هذا الاساس اصبح الخلاف بين الطبقة الوسطى التي خضعت للاحتكار والتحكم من قبل الدولة وبين الطبقة العليا التي اطلقت يدها في الملكيات الزراعية

(٥٤) Procopuis , bell Persico , Cop . XxIV , Jones , Ibid , Vol .1, P . 108.
أيضا Stratos , Ibid Vol . 1 - P . 9 - 12.
أنظر الكتاب – دور الأحزاب في القرن السادس وخصوصا في ثورة Nica.
(٥٥) وسام فرج ، المرجع السابق ، ص ١١٣ – ١١٤.
(٥٦) Vasilieve, Ibid , P. 155.
ايضا : Ostrogorsky , B . S . P . 60 - 61.
الباز العريني ، الدولة البيزنطية ص ٨٠.

الضخمة، ويعتقد أن هبوط فئة من كبار موظفي الدولة من مناصبها وفقدان مراكزها في الطبقة العليا وهبوطها إلى مستوى الطبقة الوسطى يمكن أن يضاف إلى سر التناقض بين قادة الحزبين(٥٧).

أما بالنسبة للقرن السابع فقد انتهى التناقض السياسي بين حزبي الزرق والخضر واضمحل النشاط السياسي للحزبين خلال الفترة الممتدة من عهد الأمبراطور هرقل وحتى عهد ليو الثالث . واختفي ذكرهما في المصادر.

ولكن اختفاء الدور السياسي للأحزاب لا يعني استمرار الهيبودروم في تأدية دوره كساحة للسباق والعروض الرياضية وظلت الألوان الأربعة تميز المتسابقين حتى القرن الثاني عشر. كما استمر الهيبودروم مكانا للقاء الناس للتباحث في أمور الدنيا والسياسة(٥٨).

ومن المظاهر الاجتماعية القديمة والتي استمرت في القرن السابع هو وجود الحمامات والتي كانت بمثابة النوادي الاجتماعية في ذلك الوقت. وليس فقط مكاناً للراحة أو للاستحمام. وصحيح أن حوادث القرن السابع لم تعط الفرصة الكافية للعناية ببناء حمامات جديدة ، أو حتى ربما ربما لترميم الحمامات القديمة ولكن على كل حال فلا زالت تلك العادة من النشاط الاجتماعي قائمة لم تتغير في القرن السابع الميلادي(٥٩). هذا بالإضافة إلى استمرارية وجود المسرح كوجه من أوجه النشاط الاجتماعي.

---

(٥٧) وسام فرج، المرجع السابق، ص ١١٥.

(٥٨) Ostrogosky , B . S . P . 128 - 129.

أيضا : وسام فرج ، المرجع السابق، ص ١١٨ - ١١٩.

Mango , **Daily Life in Byzantium , and its Image**.

(٥٩) Barry Baldwin , **Contrnuity and Changes The Practical Genius of Early Byzantin Civilization** P. 5 - 6.

الفصل الثامن
الحالة الدينية في القرن السابع

بقيت الحالة الدينية في القرن السابع كما هي من حيث وجود الاختلافات الدينية التي ميزت الأمبراطورية الرومانية منذ ظهور الديانة المسيحية. كذلك الاضطهادات الدينية كانت لاتزال قائمة . فقد اشتهر عهد الأمبراطور هرقل باضطهاده لليهود سنة ٦٣٠م. وتفسر الكتب الدينية ذلك بأن هرقل رأى مناما وقيل له تفسيرا لذلك المنام، (أنه سيأتي عليك أمة مختونة وتغلبك في الأرض). فظن هرقل أنهم اليهود[١].

ويذكر بتلر[٢] أن هرقل نكل باليهود تنكيلا عظيما، وينقل عن سعيد ابن بطريق والمقريزي أن اليهود قتلوا حتى لم يبق منهم أحد في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب واختفى.

هذا بالإضافة إلى اضطهاد المسيحيين المنوفوزيين في مصر على يد المسيحيين من أنصار مذهب خلقدونية[٣]. كما انضم إلى تلك الجماعات المسيحية التي عارضت مذهب التوفيق الذي يسمى مذهب Monothlism، وتذكر العقوبات التي فرضها هرقل وهي قطع لسان ويد Maximos ومصادرة أموال جماعة من الأرثوذوكس لعدم قبولهم المذهب المشار إليه[٤].

(١) patrologia orientalis , Vol. 1 II et IV - B. **Events history of the Patriarchs of the Coptic church of Alexandria** (S. mark To Benjamin 1) Librairie De Paris (Paris 1956)

(٢) الفريد . ج . بتلر : فتح العرب لمصر : ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ١١٩ .

(٣) المونوفيزية : هي العقيدة أو النظرية الداعية إلي وحدة طبيعة المسيح " طبيعة إلاهية مندمجة مع الطبيعة البشرية". ولم توافق روما على الفكرة وآثرت القسطنطينية أن تتماشى مع روما . لذلك عقد المجلس المسكوني بخلقيدونية سنة ٤٥١م والذي قال بأن طبيعة المسيح تقسم إلى شقين هما اللاهوتي والناسوتي ، إلهى وبشري وبذلك أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح " المونوفيزيون " هراقطة وصاروا موضع الاضطهاد . وكانت النتائج السياسية لذلك الاختلاف الديني خطيرة حيث ظل مذهب وحدة طبيعة المسيح مشكلة متسلطة على تاريخ الأمبراطورية قرابة قرنين من الزمان . وقد انحازت كل من سوريا وفلسطين ومصر إلى المذهب المونوفيزي . والذين ظلوا موضع ازعاج سياسي للأمبراطورية ، وموضع اضطهاد من الدولة حتى استولى المسلمون على سوريا ومصر وخلصت الأمبراطورية بذلك من المشاكل الدينية الناجمة من تلك المشكلة .
لمزيد من التفاصيل أنظر : رانسمان : الحضارة البيزنطية، ص ١٣٢ - ١٣٣ .
أيضا : نورمان بينز : الأمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٤ - ١٠٥ .
أيضا : Patrologia orientalis , P 492.

(٤) George monakos , Ibid , P . 717 Vereses 11 - 20.

كذلك محاولات الأباطرة لعقد مجامع دينية في محاولة منهم لفرض عقيدة دينية موحدة كانت قائمة ومستمرة . وقد اشتركت في تلك المجامع ، التي عقدت منذ بداية عهد هرقل وحتى نهاية عهد جستنيان الثاني ، الكنائس الشرقية حتى بعد انفصالها عن جسم الأمبراطورية البيزنطية، والمحاولات التي قام بها أباطرة القرن السابع هي كالتالي :

المحاولة الأولى:

هي محاولة التوفيق بين المذهب الخلقدوني والمونوفيزية وهي الدعوة إلى مذهب الإرادة الواحدة المونوثلستية Monotheletism والذي تفاوض بشأنه بطريرك القسطنطينية سرجيوس مع رؤساء الكنائس الشرقية. وقبل المشروع في أرمينيا، والأسكندرية، وأنطاكية. كما أقره البابا هونوريوس في روما[٥].

ولكن بطريرك بيت المقدس صفرونيوس في سنة ٦٣٤م رفض هذا المذهب واعتبره صورة مشوهة من المنوفوزية وأرثوذكسية المذهب الخلقدوني وقد أصدر البطريرك سرجيوس مرسوم سنة ٦٣٨م بهذا المذهب باسم Ecthesis[٦] .

وكل الذي يهمنا هو معرفة أن تلك المحاولة فشلت في تحقيق هدفها، وهو إيجاد وحدة دينية تربط أقاليم الأمبراطورية.

المحاولة الثانية :

قام بها الأمبراطور قنسطانز سنة ٦٤٨م عندما أصدر صيغة للتوفيق بين المذاهب باسم Typos وبمقتضاها ألغى الأخذ بمرسوم الايمان Ecthesis ولم يرض هذا الحل طرفاً من الأطراف حتى أن بابا روما مارتين (٦٤٩م) عقد مجمعا دينيا وأعلن فيه أيضا بطلان كل من Ecthesis و Typos الشيء الذي جعل قنسطانز يبعث في طلب البابا ويجعله يمثل أمام السناتو، وأخذت محاكمة البابا صفة سياسية أكثر منها دينية حيث اتهم بالتمرد على الأمبراطور وتدبير مؤامرة في الأقاليم الغربية. وقد نفي البابا إلى خرسون[٧].

(٥) Ostrogorsky, B . S P . 97.

(٦) هذا اللفظ يني تقرير العقيدة أو الإيمان .
لتفاصيل أكثر: أنظر الباز العريني، الدولة البيزنظية، ص ١٣٤.
أيضا : بتلر ، فتح العرب لمصر، ص ١٢١.

(٧) Ostrogorsky , Ibid , B . S . P . 105.
أيضا : vasilieve , Ibid , P. 224.

المحاولة الثالثة :

قام بها الأمبراطور قنسطنطين الرابع حيث دعا إلى عقد مجمع مسكوني في القسطنطينية وهو المجمع المسكوني السادس ٦٨٠ -٦٨١م وفي هذا المجمع تقرر إعادة تعاليم الارثوذكسية القديمة وتقرر بطلان المونوتلستيه وانكار المونوفيزية. وقد حضر في هذا الاجتماع كل من بطريرك الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس، بالرغم من انفصالهم عن الامبراطورية، وهذا المجمع وقراراته تدل دلالة أكيدة على أن الأمبراطورية تخلت عن فكرة تسوية النزاع في أقاليم لم تعد خاضعة لها. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد قام الأمبراطور قنسطنطين بتولي رياسة المجمع وإدارة المناقشة(٨).

إنعقد في سنة ٦٩١ - ٦٩٢م مجمع كنسي معروف بالخامس أو السادس Ruinisextum أو البنستكي Penthektos (٩) ويطلق عليه كذلك اسم مجمع تريللو Trullo نسبة إلى القاعة التي انعقد بها المجمع في القصر الأمبراطوري(١٠) .

وأهم مايميز هذا المجمع هو انه تخلى تماما عن محاولات التوفيق بين المذاهب، ونظر فقط في تنظيم الكنيسة وما يتعلق بالطقوس والشعائر الدينية التي كان بعضها يرجع إلى الوثنية . فقد أصدر المجمع قانونا كنسياً لتنظيم الكنيسة. كما أصدر قرارا يمنع اشتراك طلبة جامعة القسطنطينية في الاستعراضات المسيحية، والسماح للقساوسة بالزواج وإنكار صيام أيام السبت . وتحريم الاستدانة بالربا وتحريم الرشوة على رجال الدين . وقد حضر هذا المجمع أيضا كل من بطاركة الاسكندرية وبيت المقدس وانطاكيه ضمن ٢٢٧ أو ٢٤٠ أسقفا(١١).

وحتى هذه الأنظمة فشل المؤتمر في توحيدها حيث رفض بابا روما سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١ م) الموافقة عليها وخصوصا تحريم الصوم أيام السبت وزواج رجال الدين(١٢).

ويعني هذا أن أباطرة القرن السابع لم يغيروا العادات الأمبراطورية التقليدية، وهي فرض سلطة الحكومة على الكنيسة والتي ثبتها الأمبراطور جستنيان الأول في قوانينه حيث رسم : (بأن المناصب الدينية تخدم الأمور الدينية والسلطة الأمبراطورية تكون فوقها)(١٣). كذلك لم يستطيعوا تغيير المعتقدات الخرافية التي

---

(٨) Ostrogorsky, Ibid, 114 - 115.
Vasilieve, Ibid, 224 - 225.

(٩) سمي كذلك لأن ما أصدره من قرارات تكمل ماصدر عن المجمعين الخامس (٥٥٥م) والسادس (٦٨٠/٦٨١م) رستم، المرجع السابق، ص ١ ص ٢٦٨.

(١٠) Vasilieve, Ibid, P. 225.

(١١) أسد رستم، المرجع السابق ، ج ١، ص ٢٦٨.

(١٢) أسد رستم، المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

(١٣) Justinian Novella VI , in R . Schoel ed . Corpus Iuris Civilis Vo1 3. Novellae (Berlin , 1919) P . 35 - 36.

كانت سائدة.

الانحلال الديني وأثره الاجتماعي في القرن السابع:

أول ما يلفت النظر في الحياة الدينية هو انتشار المعتقدات الخرافية Supersti-tion، ليس بين الطبقة الدنيا من المجتمع والتي توجد بينهم هذه المعتقدات على مر العصور ، ولكن انتشارها بين رجال الدين والذين يطلق عليهم اسم متعلمون والذين اعتقدوا في معجزات لا يمكن تصديقها. مثال على ذلك أن بطريرك القسطنطينية وبابا من الباباوات[١٤]. اعتقدوا في أن إحدى لوحات العذراء لها مقدرة على شفاء المرضى وانها Exude، بلسم غير أرضي "سماوي" كما اعتقدوا أن صورا معينة من الـ Manna قد صنعت في السماء[١٥].

ونتيجة لذلك فقد شن أباطرة القرن الثامن الميلادي الحرب ضد عبادة الصور ووضعوا الهجوم على المعتقدات الخاطئة أساساً أو قاعدة لذلك الاصلاح الديني. وأن رجال الدين لايستطيعون أن يهدوا الناس إلى فهم أو إدراك مبادىء المسيحية لأنهم هم أنفسهم فقدوا ذلك الفهم. لقد علموا الناس عبادة رموز الموتى Symbol of dead وفاعلية الحروف، وشجعوا على نمو المعتقدات الخاطئة وقادوا الناس إلى معتقدات تعتبرها المسيحية رذيلة Immoral غير أخلاقية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن زيادة نفوذ رجال الدين تعتبر ملمحا ملفتا للنظر من ملامح القرن السابع . وسوف نضرب مثلا على تلك السيطرة، والتي ربما استمدها رجال الدين من وقوف الكنيسة إلى جانب الدولة وإمدادها بالأموال، وشد أزرها في حربها ضد الفرس في بداية القرن السابع ، والمثال هو ثورة جنود ثيم الأناضول الذين آمنوا بالثالوث، وطلبوا من الأمبراطور قنسطنطين الرابع أن يتوج أخويه معه لأنهم يريدون أن يحكمهم ثلاثة أباطرة تيمنا بالثالوث .. هذه النقطة توضح أن الأفكار الدينية كانت مسيطرة على تفكير الناس وانعكاسها على تصرفاتهم في حياتهم اليومية[١٦].

وتقليد ديني جديد ظهر في القرن السابع وهو القسم الذي يقسمه الأباطرة عند

---

(١٤) لم يذكر أسمائهم .

(١٥) Bury , H . L . R . E . Vol. 2, P . 388.
أيضا : ما ورد على لسان المصدر المعاصر Chronicon Paschale عن معجزة العذراء مريم في انقاذ القسطنطينية عندما كان الأفار يحاصرونها في عام ٦١٩ - ٦٢٠م .
أنظر : chronicon Paschali P . 165.

(١٦) Idem Vol. 2, P. 389.

تتويجهم في كنيسة أيا صوفيا . وهذا التقليد استحدث في القرن السابع فقط[١٧].

ومن الملاحظ أنه في تلك الفترة أصبح الأمبراطور والبطريرك يعتبران عامودين من أعمدة الدستور الروماني وأن التناغم بينهما كان شرطا أساسيا تقوم عليه الأمبراطورية[١٨]. وكما أشرنا أن تأثير الكنيسة قد زاد على الدولة كذلك ازداد تأثير الرهبان على الكنيسة فقد كان الرهبان هم الذين يرسمون الصور ويحافظون على الفن وبالتالي على المعتقدات الخرافية.

ومع ضعف النشاط الفكري انتشرت الأعمال الشريرة بين رجال الدين والعامة. وانتشرت الشائعات التي تتحدث عن تلك الأعمال. لذلك فإن المجمع الديني السادس Quinix طالب بتطبيق الأنظمة القديمة. وفي الواقع أن ذلك المؤتمر يعتبر وثيقة تصور أخلاق وعادات ذلك القرن. وقد أصدر المجلس تعليمات أو توصيات بتحريم بعض الأمور والتي تعني أن تلك الأمور كانت تحدث في المجتمع.

ومن الأمور الدينية التي حدثت في القرن السابع هو نشأة مذهب الـ Paulician ومؤسس هذا المذهب هو Constantine of Mananalis in Commagene بالقرب من Samosata.

ويمكن وصف المبدأ أو المذهب بأنه مسيحية ثنائية Christian Dualism. واعجابه بالرسول بولس Paul جعله يختار لنفسه اسما روحيا هو Silvanus، وفي سنة ٦٦٠م أنشأ أو كون جماعته الجديدة في Cibbossa في أرمينيا. ولم تكن خيامه مميزة عن خيام الـ Manichaeans[٢٠] والقانون الذي طبق على المانوية طبق على الـ Naiciluap. ونفذ حكم الاعدام في Silvanus في سنة ٦٨٧م وذلك عن طريق مرسوم أمبراطوري. ولكن شخصا أخر تولى قيادة تلك الجماعة باسم Titus. وهذا الاعتقاد انتشر في آسيا الصغرى وبالذات في مركزها الرئيسي في Pharoea in Helleno Pontus كما امتد إلى بلغاريا ومنها إلى وسط أوربا[٢١].

لقد استقرت الحياة الدينية في بيزنطة بعد انفصال كل من مصر وسوريا وشمال افريقيا عن جسم الأمبراطورية. وخفت حدة الخلافات الدينية، التي كانت مثارا

(١٧) لمعرفة نص القسم أنظر : Bury, Ibid , Vol. 2, p . 390.
(١٨) Idem P . 391.
(١٩) Idem P. 393.
(٢٠) مانوي ، أحد أتباع ماني الفارسي (٢١٦ - ٢٧٦ب . م) والذي دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنائية قوامها الصراع بين النور والظلام.
(٢١) Idem P . 396.
لمعرفة الفرق بين المانوية والبولشية، أنظر : Bury Ibid . P . 396.

للقلاقل والفتن في الأمبراطورية وخصوصا مع أتباعها من المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرسمي. وكان أهالي مصر وبلاد الشام على المذهب المونوفيزي أو مذهب الطبيعة الواحدة . كما كان أهالي شمالي افريقيا دوناتية.

إن فقدان تلك المناطق قدم حلا للخلافات الدينية بين الدولة البيزنطية والأمم الشرقية . وقد تكاد تكون هذه هي الحسنة الوحيدة التي تسجل لصالح الأمبراطورية من جراء انفصال مصر وبلاد الشام وشمال افريقيا عنها . لكن ذلك الانفصال ترك أثرا نفسيا شديد الوقع لرجال الدين المعاصرين لتلك الأحداث . وقد قام باحث بتجميع بعض المصادر الدينية المعاصرة ودرس التأثير النفسي لفتح المسلمين للمناطق البيزنطية[٢٢].

وتنقسم المصادر الدينية، التي عبرت عن انطباعها الذي تركه فتح المسلمين للمناطق البيزنطية ، إلى قسمين ، الأول هو قسم مبكر معاصر للفتوح الاسلامية تقريبا ويمثلها المصدران التاليان :

(١) The Christmas Sermon of patriarch Sophronius of Jerusalem (634 - 638)

(٢) The Doctrina Jacobinuper Baptizati .

المؤرخ سنة ٦٣٤م تقريبا.

والمصدر الأول عبارة عن خطبة للبطريرك صفرونيوس ، بطريرك بيت المقدس، ألقاها في عيد ميلاد المسيح سنة ٦٣٤م، في ظل الظروف التي فتح فيها المسلمون الكثير من الأراضي الفلسطينية بما في ذلك بيت لحم.

وهذه الخطبة تعبر عن الانطباع المبكر للفتوح الاسلامية . حيث يعتقد البطريرك أن الغزو الأسلامي كان عقابا أرسله **الله** "سبحانه وتعالى" ليعاقب به المسيحيين على أخطائهم .

أما المصدر الثاني فيربط ظاهرة ظهور المسلمين بنبوءة وردت في الكتب الدينية المسيحية المعروفة بسفر دنيال وهي جزء من التوراة.

وفي الفترة مابين ٦٣٤ - ٦٤٠م عبر Maximus the Confessor وهو الراهب الذي صمد ضد عقيدة الـ Monotheletism في خطاب موجه إلى Peter the Il-lustrious لم يذكر فيه الاسلام بالاسم. ولكن تساءل مـاذا سوف يحدث أكثر من

(٢٢) Walter Emil Kaegi , Jr , **Initial Byzantine Reaction to the Arab Conquest** . in : **Church History** Vol . XXXVIII, 1969 , No 2 PP . 139 - 149 .

قيام المتبربرين القادمين من الصحراء بضم كل العالم المتحضر إليهم.

ويرد القديس إناستاسيوس Anastasius في خطبته Sermon نجاح المسلمين العسكري إلى ظلم الأمبراطور قنساطز الثاني للكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية معا. ويخص بالذكر سوء المعاملة التي لقيها بابا روما مارتن الأول على يد الامبراطور قنسطانز. واعتبر Pseudo - Methdius Apocalyps أن فتح المسلمين ماهو إلا تحقيق للنبوءة التي وردت في الكتاب المقدس. والتي وردت في سفر دنيال بالذات. كما أنه في نفس الوقت برر نجاح الفتوحات الاسلامية بأنها عقاب للرومان على خطاياهم .

ورأى سبيوس Sebeos[٢٣]، البطريرك الأرمني، الذي أشار إلى الكتاب المقدس بأن مجيء المسلمين ما هو إلا تحقيقاً للنبوءة الواردة في التوارة . وقد كان سيبوس مونوفيزيا ، لذلك اعتقد أن فتح المسلمين وهزيمة الشعب الأرمني أو البيزنطي بسبب أخطاء المسيحين.

ويتفق معه في الرأي الاسقف القبطي المونوفيزي في مصر يوحنا النيقي Bishop John of nikiu الذي يعزى نصر المسلمين إلى خطيئة الهراقطة الذين يؤمنون بمبادىء خلقدونية، وهو نتيجة الأضطهاد الذي قام به الجنود البيزنطيون ضد المونوفيزين في الأسكندرية[٢٤].

وفي نهاية القرن السابع قبل المسيحيون الخلقدونيون والمنوفيزيون الديانة الاسلامية بدون أن يحاولوا أن يفهموا تلك الديانه باستثناء بعض الرجال الذين لديهم القدرة على رؤية الأشياء وفقا لأهميتها مثل يوحنا الدمشقي الذي استطاع أن يفهم الاسلام[٢٥].

ومن الجدير بالملاحظة إن نظرة رجال الدين الذين بقوا داخل حدود الأمبراطورية إلى الاسلام والمسلمين نظرة سيئة جدا. وأن وصفهم للمسلمين من أسوأ الأوصاف . كذلك كذبوا العقيدة الإسلامية[٢٦]. وهذا الأمر يختلف عند المسيحين المعاصرين والذين بقوا في الأراضي التي فتحها المسلمون ، والذين نظروا إلى الاسلام وكأنه طائفة جديدة من الطوائف المسيحية العديدة وليس كدين جديد . وفي تلك المناطق

(٢٣) Sebeos , Histoire D`Heraclius , tr. F Macler Paris P . 104 - 105.
(٢٤) The Chronicle of Jon , Bishop of Nikiu . Ch . 116.
(٢٥) Kaegi , Ibid P . 148.
(٢٦) Idem PP . 140 , 142.

اختفى الجدل اللاهوتي بين الكنائس . وظهر أدب جدلي بين مسيحي تلك المناطق يهدف إلى الدفاع عن الديانة المسيحية أمام الديانة الاسلامية. ويعتبر يوحنا الدمشقي قائداً فكرياً في الدفاع عن العقيدة المسيحية. فقد ذكر يوحنا الدمشقي في مؤلفه الضخم "ينبوع المعرفة "وبالتحديد في المجلد الثاني "خلاصة الهرطقات" أن الأسلام واللايقونية من الهرطقات الخارجة عن الديانة المسيحية "[٢٧].

وهناك ملاحظة أخرى لا تقل أهميـة وهي أن رجال الدين المونوفيزيين برروا الفتوحات الاسلامية بأنها عقوبة من الله (سبحانه وتعالى) بسبب أخطاء المسيحين الخلقدونين. ولكن المسيحين الخلقدونين أنفسهم صمتوا عن تفسير الفتوحات الاسلامية . وعن تسجيل أحداث القرن السابع ككل. ولكن ظهرت لهم كتابات تاريخية متأخرة وهي تلك الكتابات المتمثلة في حوليات القرن التاسع الميلادي والمتمثلة في حوليات كل من ثيوفانيس ونيقافورس . ويحاول Kaegi أن يفسر تأخرهم في الكتابة بأنهم كانوا في حالة بحث عميقة عن النفس Soul - Dee Searching[٢٨].

---

(٢٧) لمزيد من التفاصيل أنظر :

جورج عطية ، الجدل الديني المسيحي، الإسلامي في العصر البيزنطي ، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام . المجلد الأول، عمان ١٩٨٩م، ص ٤٠٩ - ٤١٠.

أيضـا : Sathas , P . John of Damascus Ontslam , The Heresy of the Ishmaelites (Leiden , 1927)

(٢٨) Idem , P . 149.

الفصل التاسع

اللغة والفكر

أصبحت بيزنطة في القرن السابع من الناحية اللغوية اغريقية، ولكنها لم تصبح اغريقية من ناحية السكان لأنها كانت مكونة من عدد من الجنسيات[١]. أيضا لم تصبح اغريقية من الناحية السياسية لأنها حافظت على التراث الروماني السياسي. ولكنها أصبحت دولة اغريقية الثقافة واللغة.

وليس معنى هذا أن جميع الجنسيات التي سكنت الامبراطورية قد تحدثت اللغة اليونانية وهجرت لغاتها الأصلية. فإذا أخذنا آسيا الصغرى نجد أن سكانها تأثروا تأثرا شديدا بالاغريقية. ولكن عددا منهم حافظوا على لغاتهم الوطنيه، مثال على ذلك سكان Phrygia وسكان Lacaonia وغيرهم من السكان الذين كانوا يقطنون في المناطق الخلفية المعزولة، وخلاصة القول انه لم يوجد اتحاد لغوى في آسيا الصغرى في القرن السابع[٢]. وينسحب هذا القول على بروز الأرمن كعنصر سكانى واضح منذ نهاية القرن السادس. وهذا البروز أخذ مظهرين أو شكلين، الأول: هو هجرة الأرمن من المناطق التي كانت تحت السيطرة الخارجية عن الدولة البيزنطية. الثاني: هو اجبار الدولة البيزنطية للأرمن على الهجرة وذلك في سياسة نقل السكان التي اتبعتها منذ عهد جستينيان الاول والتي استمرت كسياسة بارزة للدولة خلال القرن السابع.

ويمكننا القول انه بالرغم من اندماج الأرمن في الحياة البيزنطية، وذلك بعملهم كجنود في ثيم الارمنياك وعملهم في الوظائف الادارية الكبرى، إلا أن هناك فئة من الأرمن عاشت على الحدود وحافظت على تقاليدها وبالطبع على لغتها[٣].

ان استقرار السلاف بأعداد كبيرة في اليونان لم يجعل العنصر السلافي هو الغالب

---

(١) Ostrogorsky. Byzantuin. In The world of The Seventh Century P97.

أيضا: Chranis, Ethnic Changes, P. 25.

Charanis. Transfer of Population P. 140.

(٢) Charanis. Ethnic Changes, P. 25.

(٣) Charanis, Ethnic Changes, P. 36-41.

على المنطقة ولكن حدث العكس فقد امتص اليونان السلاف واختفوا من التاريخ كشعب متميز[٤].

ولكن هل معنى ذلك انهم لم يتركوا أي آثار لغوية في المنطقة؟ هذا السؤال لم أجد جوابا عليه وهو يستحق البحث والاستقصاء.

إن عملية نقل السلاف إلى آسيا الصغرى تركت أثرها في التقاليد الزراعية وفي القوانين الزراعية[٥]. ولكن توجد لدينا براهين تدل على آثارهم اللغوية في المنطقة. ألا وهي في تسمية بعض الأماكن وخصوصا في شبه جزيرة البلقان.

كما أثر وجود السلاف في اليونان على كل من منطقة جنوب ايطاليا وصقلية. وظهر ذلك الأثر واضحا في التركيبة العرقية للسكان. حيث برزت اللغة اليونانية في تلك المنطقة والتي جاءت نتيجة هجرة السكان من المناطق اليونانية ومن جزر البلوبونيز. كذلك احتمال هجرة اليونانين أو الناطقين باللغة اليونانية من كل مصر وبلاد الشام نتيجة الفتوحات الاسلامية لتلك المناطق[٦].

لقد فقدت اللغة اللاتينية مركزها كلغة الادارة والجيش منذ عهد هرقل وأصبحت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للدولة[٧]. إن ذلك الشيئ رافقه الانقطاع بين الشرق والغرب. ولكن هذا التحول اللغوى والانقطاع بين الشرق والغرب كان تدريجيا وبطيئا وقد بدأ مع تقسيم الامبراطور قنسطنطين الامبرطورية بين أبنائه[٨].

إن الدولة البيزنطية في هذه الفترة بدأت في التركيز على العناصر الاغريقية، وقوة التأثير الكنسي أعطى للامبراطورية مظهرا جديدا. وتمسكت الدولة البيزنطية المبكرة بعناد مذهل باللغة اللاتينية كلغة رسمية، وتخلت عن ذلك التمسك ببطء وبمقاومة في نفس الوقت لغلبة وسيطرة اللغة الاغريقية بدون عمل أي تغيير حاسم ومفتوح، ووجود لغة للادارة وأخرى عامية كان ملمحا من ملامح الفترة البيزنطية المبكرة وبالذات في كل الدوائر الحكومية كما هو في الادارة العسكرية واللغة الرسمية، اللاتينية، لم تكن مفهومة لمعظم السكان في الأقاليم الشرقية. ووضع هرقل حدا لذلك وأصبحت اللغة اليونانية، اللغة الوسيطة بين الكنيسة والسكان، هي اللغة الرسمية للامبراطورية وبذلك انتصر هرقل للكنيسة وللغتها الرسمية. حتى انه اتخذ لقب باسيلوس بدلا من لقب امبراطور[٩].

(٤) Idem, p. 41.
(٥) أنظر الكتاب: الحالة الاقتصادية في القرن السابع الزراعية.
(٦) Charanis, Ethnic Changes, P.43.
(٧) Charanis, E.C. p. 43.
(٨) Oman, Byzantine Empire, p. 143-144.
(٩) Ostrogorsky, B.S. p. 107.

ويعتقد بأن هذا التصرف من جانب هرقل جاء ليرضي الكنيسة الشرقية التي وقفت إلى جوار الدولة وشدت من أزرها في وقت شدتها. وكانت لغتها هي قبلا اللغة الوسيطة بين شعوب الجزء الشرقي من الامبراطورية. ففرض اللغة اليونانية خدم هذا التلاحم بين الدولة والكنيسة من جهة وجعل اللغة العامية هي اللغة الرسمية. وإن كان الغاء اللغة اللاتينية من التعامل كلغة الدواوين قد زاد الشقة بين الغرب والشرق.

لقد انتقلت بيزنطة فجأة في القرن السابع من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بصفة عامة وأصبح هناك اختلاف ظاهر بين القديم والحديث والسبب وراء هذا الاختلاف هو الارث الثقافي واللغوي والذي لعب دورا تدريجيا في الفصل بين الغرب اللاتيني والشرق الاغريقي. والذي استطاع القرن السابع أن يفصح عنه وبشكل واضح(١٠).

وبصفة عامة نجد أن القسطنطينية في القرن السابع لازالت مركزا للحضارة والثقافة الأوروبية. ولازال الشباب يفدون إليها لتعلم اللغة اليونانية والـ Theology، اللاهوت، وبصفة عامة تعتبر القسطنطينية القوة العظمى ومركز الإنارة في أوروبا.

ولكن حركة التبادل الثقافي والأفكار كان متعطلا وتقف أمامه صعوبات بسبب بطء الاتصال بين الشرق والغرب. ولكن له تأثيره على الامبراطورية نفسها، حيث ان بطء الاتصال انطبق على أجزاء من الامبراطورية في ا لشرق، وأصبحت أقاليم تابعة لها سياسيا منفصلة عنها فكريا وأن الطبقات العليا في تلك الاقاليم تحولت إلى طبقات اقليمية ويقال: انه في المجمع الديني السادس أن البابا Agathp تذمر من ان دراسة اللاهوت قد تدهورت تماما وأصبحت مستحيلة في ايطاليا تحت حكم أو ضغط اللمباردين(١١).

وبما أن اللغة اليونانية كانت لغة الكتابة في القرن السابع فمن الأولى أن نعرف نوعية الكتابة السائدة في تلك الفترة.

وينقسم المجتمع البيزنطي من الناحية الثقافية إلى ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى: عبارة عن شريحة صغيرة من النخبة المثقفة Intellectual elite.

المجموعة الثانية: وهي التي تجيد أو تعرف القراءة والكتابة فقط.

المجموعة الثالثة: وهي الشريحة الضخمة من الجماعه الغير متعلمة وتمثل أكثر من خمس وتسعين بالمائة من مجموع السكان(١٢).

(١٠) Ostrogorsky Byzantium in the world of Seventh Century, p. 97.

(١١) Bury, H.L.R.E. Vol. 2, p. 391.

(١٢) Mango, Discontinuity With The Classical past, in: Byzantium and its Image,. P. 49.

والفئة الأولى والتي يشار اليها باسم Elite هي المجموعة التي تلقت تعليمها في مدارس خاصة، حيث تعلموا اللغة اليونانية القديمة والخطابة، والذين كانوا مجهزين للعمل في Sckreta التابعة للادارة الامبراطورية، وبين الصفوف العليا لموظفي الكنيسة، وثقافتهم من النوع الذي لايسهل فهمه، لذلك هي مقتصرة عليهم ومكتوبة بلغة يفترض أن معلوماتها مكتوبة على شكل أسرار وألغاز Arcane Knowl-edge[١٣].

وإن استمرارية تعليم هذه الطبقة ارتكزت بالدرجة الأولى على بقاء مدارس من نوع خاص. وهناك دراسة حديثة على هذه الفئة خرجت بالنتائج التالية: أولا: أن عددهم كان قليلا جدا، ثانيا: أن أسلوبهم الكتابي سردي مطول. ثالثا: كانوا يستخدمون مصطلحات مصطنعة وبطريقة تطمس الواقعية من الحياة البيزنطية التي تعوزها كتاباتهم[١٤].

ويوصف القرن السابع بأنه أشد القرون عقما في تاريخ الفكر البيزنطي[١٥].

وانحصرت الآثار الفكرية في الشعر والدين، ففي مجال الشعر اشتهر جريجوري البسيدي، وهو شماس، كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية وهو معاصر للامبراطور هرقل، ونظم في حروب فارس وفي حصار القسطنطينية ٦٢٦م قصيدة، ويعتبر جريجوري البسيدي أفضل من نظم الشعر الدنيوي في بيزنطة[١٦].

وعاصر هرقل مؤرخ هو يوحنا الأنطاكي فكتب تاريخا عاما منذ آدم حتى آخر أيام فوكاس (٦١٠) ويرى بعض الكتاب أن ما ينسب إلى يوحنا الأنطاكي ماهو إلا من تأليف يوحنا ملالاس الانطاكي. وهذا القول مرفوض حيث أن ملالاس كتب بوصفه أنطاكيا ينظر إلى تاريخ العالم من نافذة أنطاكية دون سواها. أما يوحنا الأنطاكي فإنه ينظر إلى الحوادث العالمية بوصفه رجلا عالميا وهو أكثر دقة في تناول مراجعه وتقديرها من يوحنا ملالاس[١٧].

أما الكتابة في المواضيع الدينية فتمثلت في الجدل الذي نشب في القرن السابع

---

(١٣) Idem, p. 50.

(١٤) Idem, p. 50.

(١٥) أسد رستم المرجع السابق، ج١ ص ٢٨٤.

George of psidia A. Pertusied Gergio dipisdia poemia Panegiriciepici Estudia pastristica.

(١٦) اسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٤.

(١٧) اسد رستمم، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

حول المشيئة الواحدة. ونشط التأليف في الرد على هذا المذهب. وأشهر أصحاب الردود على القول بالمشيئة الواحدة هو مكسيموس المعترف، وهو قسطنطيني الموطن، شريف النسب، فيلسوب ولاهوتي مرموق كان في بداية أمره كاتب سر الامبراطور هرقل، فلما قال الامبراطور بالمشيئة الواحدة خرج مكسيموس من البلاط الملكي واعتزل في دير في خرسوبولي "اسكي دار" ثم صار رئيسا لهذا الدير. ومن هنا جاءت التسمية Maxi-emei Abble وقد دافع عن القول بالمشيئتين وكان في عهد قنسطانز الثاني، الذي أمره أن يكف عن الخطابة والكتابه، فرفض، فأمر الامبراطور بقطع لسانه ويده اليمني ثم نفاه إلى لازيكا فتوفي في المنفي سنة ٦٦٢م وأعلن واحد من القديسين. ولايزال الأرثوذكسيون يمدحونه إلى يومنا هذا ويرتلون: "لنمتدحن حق الامتداح مكسيموس العظيم"[١٨].

من الكتاب الدينيين صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة الذي عاني حصارها من قبل المسلمين. هذا البطريرك اهتم بأخبار القديسين المصريين كدوس ويوحنا الرحوم. وتوجد في كتاباته لمحات جغرافية واجتماعية.

أيضا لاونديوس، أسقف نيابولس في قبرص ،بطريرك الاسكندرية. وفي كتاباته اهتمام بالناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. وكتب باللهجة اليونانية الدارجة[١٩].

وممن اشتهر في القرن السابع أيضا اندراوس الدمشقي، الذي نشأ وترعرع في دمشق وترعرع ثم ذهب إلى فلسطين وصار كاتب بطريرك المدينة المقدسة واشترك في أعمال المجمع المسكوني السادس الذي انعقد في عهد قسطنطين الرابع سنة ٦٨٠م ثم أصبح شماسا للكنيسة العظمى، ورئيسا لأساقفة اقريطش وتوفى بين ٧٢٠/٧٢٣م. وأشهر أعماله أناشيده الدينية المعروفه "بالقانون الكبير" وهو أول قانون من نوعه يشتمل على أهم حوادث الكتاب المقدس وتلى هذا القانون في الأسبوعين الأول والأخير من الصوم الكبير[٢٠].

مما سبق نجد ان الكتابات في القرن السابع اقتصرت على الكتابة الدينية. واختفت الكتابات الفلسفية والكتابات القانونية وكذلك الأدبية واللغوية.

(١٨) أسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٦

Maximus the confessor Maximiconfessoris Relatio Motionisi in P.G. XC, 109-29 Gesta in primo Eius Exsilio walter E. kaegi, Initial Byzantine Reaction to the Arab Coriquest. in Church History Vol. .XXXVIII, 1969, No. 2, pp. 139-149.

(١٩) أسد رستم. المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٢٠) اسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

الخاتمة (ابرز النـــتائج)



الخاتمة (أبرز النتائج)

من أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن الأمبراطورية البيزنطية ماهي إلا امتدادا للأمبراطورية الرومانية القديمة ، وأن أسم بيزنطة أو بيزنطيين اسم مستحدث لايعرفه البيزنطيون انفسهم. لان أصلهم رومان، وأن الاسم السائد في ذلك الوقت هو اسم الرومان، والأمبراطورية الرومانية.

إن التطورات والتغيرات التي مرت بها الأمبراطورية في القرن السابع لم تكن وليدة الظروف التي مرت بها الأمبراطورية في القرن السابع، ولكنها تضرب بجذورها في القرن السادس، وقد بدأت تلك التغييرات بتغييرات طرأت على سلطة الأمبراطور والمؤسسات الدستورية في القرن السادس والتي تتلخص في التالي:

تمتع الامبراطور بسلطة مطلقة بمقتضى الدستور اذ كان يحكم قبضته على الشئون الداخلية والخارجية. وكان في الداخل هو المهيمن على السلطتين التشريعية والتنفيذية، وتمثلت الاستبدادية المطلقة في شخصية جستنيان الذي كان يتوق إلى زيادة سلطة الامبراطور المطلقة، وقد شاركته زوجته ثيودورا في قوته ونفوذه والتي برزت كشخصية مشاركة للأمبراطور في حكمه. إذ كانت قوية الشخصية صعبة المراس. أما مجلس الشيوخ فقد حوله جستنيان ليكون مجرد مجلس استشاري ولم يبق عليه إلا من قبيل المحافظة على التقاليد الرومانية القديمة، ويجرى نفس القول على مجلس الـ Consistory. وألغى وظيفة القنصل كليا بالرغم من إنه هو نفسه كان يشغل وظيفة قنصل، ومن حيث رسم سياسة الدولة وإصدار القوانين المشرعة فقد تحكم فيها فئات دون الأخرى من فئات الشعب، وعلى رأس هؤلاء الجماعات المقربة من الامبراطور. وأهم ما يميز عصر جستنيان هو إصدار مجموعة القوانين التي تمثلت في مجموعة المراسيم والموسوعة، وأخيرا مجموعة المراسيم الجديدة. هذا مع ملاحظة إنه قام بتغيير الكثير من القوانين لمصالحه الخاصة.

وكان الامبراطور يجمع في يديه خيوط الادارة الحقيقية للأمبراطورية فهو الحاكم المطلق يساعده الوالي البريتوري الذي كان بمثابة كبير الوزراء وكانت له سلطات واسعة شملت تقريبا كافة المجالات العسكرية والقضائية، وقد أدخل جستنيان عددا من

التغييرات الهامة على إدارة الولايات وترجع أهميتها في أنها شكلت مرحلة انتقال من نظم دقلديانوس والنظام الاداري العسكري والذي عرف فيما بعد باسم نظام الثيمات. وأن ما استحدثه جستنيان من تغييرات كان يستند فيها على مبادىء عامة. إن إقدامه على إلغاء المناطق التي كان يحكمها نائب Vicar، إنما املته الرغبة في تبسيط الادارة وتوفير النفقات، اذ لم تعد هناك فائدة ترجى من النواب في النواحي التي الغيت فيها وظائفهم، لأن الوالي البريتوري كان بحكم منصبه يرأس حكام الولايات ويمارس سلطته عن طريق ممثليه. كما ان سمعة محاكم هؤلاء النواب كانت قد ساءت الى حد كبير وقل الألتجاء اليها، والسبب يعود الى ان رواتب النواب كانت متدنية، وبالتالي أصبحوا خربي الذمة. ويبدو أن هدف جستنيان من هذه التعديلات إنما كان لدعم حكومة الولايات وجعلها أكثر فاعلية بإلغاء التعارض في اجراء التقاضي والجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية لتكون في يد موظف واحد وخصوصا في الولايات التي شاعت فيها اعمال السلب والنهب، والولايات التي تكررت فيها الفتن الأهلية. إلا أن جستنيان كان متمسكا بمبدأ الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية في مناطق الحدود حيث كان للقادة مهام استراتيجية خفيفة. ومن ناحية أخرى حرص جستنيان علي تحقيق العدالة في الولايات وذلك بتعيين عدد من القضاة يختارون من طبقة الشيوخ ليضع حدا لفساد حكام الولايات والنواب على حد سواء.

ونود هنا ايضاح اتجاهين مختلفين، الأول الذي كان سائدا منذ بداية الامبراطورية وحتى القرن السادس وهو الميل الى الفصل بين الادارتين المدنية والعسكرية وتفتيت الولايات الكبرى الى ولايات أصغر، وإيجاد سلطة حاكمة قوية. ويبدو ان هدف هذه السياسة هو تقليص قوة حاكم المنطقة المنفرد وإضعاف نفوذه. أما الاتجاه الآخر والمعاكس الذي ظهر في عهد جستنيان فهو دمج الولايات ثم زيادة قوى الحكام.

وطبقت تلك المبادىء على التنظيمات الادارية في المناطق التي استعادها في الغرب.

وبصفة عامة فإن إصلاحات جستنيان كانت جسرا بين إصلاحات كل من دقلديانوس وقنسطنطين وبين نظام هرقل.

وفي عهد خلفاء جستنيان من سنة ٥٦٥-٦١٠ استرد مجلس الشيوخ جانبا من امتيازاته. كما ان الروابط التي كانت تربط العاصمة بالولايات قد ضعفت لأن مركز الامبراطور غير مستقر. وضعفت قبضته على الولايات. وفي فترة ضعف مركز الأباطرة فإن التغيير الإداري الذي قام به جستنيان أصبح لصالح سلطة الأقاليم التي

قويت شوكتها، كما قويت شوكة الأحزاب إلى حد ما، والتي كان جستنيان قد حد من قوتها وخصوصا بعد قيامهم بثورة نيكا ضده.

أما التغيير الاداري الواضح الملامح والبارز والذي حدث في تلك الفترة فهو استحداث منصب Exarch، الأرخون، في كل من ايطاليا وشمال افريقيا في عصر الامبراطور موريس والذي منح صاحبه سلطات مدنية وعسكرية وقنصلية واسعة. وكانت قوته غير محدودة من الناحية العملية. وشارك في كل مايحلو له المشاركة سواء في الإدارة المدنية أو في الشئون الدينية كسلطة عليا عليها، أو القيام بمفاوضات مع الدول الأجنبية وباختصار ان قوته لا تحدها إلا قوة الامبراطور. وأن هذا التغيير هو الذي وضع الأسس للإدارة الجديدة للولايات في الامبراطورية في القرن السابع.

إن جذور الأزمة الاقتصادية في القرن السابع قد بذر بذرتها جستنيان، حيث إن أوجه الانفاق التي قام بها وعلى رأسها الحروب الاستردادية التي قام بها في كل من شمال افريقيا وايطاليا واسبانيا، لم تدر عائدا ماديا، بل كان على جستنيان مواجهة تلك الحروب معتمدا في ذلك على موارد الدولة الخاصة وأن البلاد المفتوحة لم يكن في استطاعتها الوفاء بتكاليفها. فمثلا نجد ان في افريقيا كان كثير من أفضل الأراضي معفاة من الضرائب، هذا بالاضافة إلى إغارات البربر من أهالي شمال افريقيا وأعمال التمرد المصاحبة لتلك الاغارات جعلت من الصعوبة بمكان الحصول على أي دخل من افريقيا لعدة سنوات. كما انه في صقلية التي حولت إلى ولاية سنة ٥٣٧م دفع دخلها الى والي ايطاليا. ذلك لأن ايطاليا نفسها كانت، في خلال سنوات الحرب، ليست ذات دخل منتظم، هذا بالاضافة الى مالحق بها من دمار من جراء سنوات الحرب الطويلة، وباختصار فقد انفق جستنيان انفاقا باهظا على حروبه مع الفرس والوندال والقوط الشرقيين، هذا بالإضافة إلى المبالغ الضخمة التي دفعت للفرس مقابل معاهدة السلام الدائم. والمبالغ التي دفعت لملوك المتبربرين، كما إنه في نفس الوقت قام بتنفيذ برنامج بناء مكثف خصوصا لبناء القلاع والحصون على الحدود المهدده بالاخطار.

من هنا يتضح لنا الأسباب التي أجبرت جستنيان على فرض ضرائب جديدة وإنقاص رواتب الجند وتسريح بعضهم واستحداث وظائف والغاء أخرى. ولجوئه إلى عملية بيع الوظائف، التي حاول الغائها بمرسوم أو قانون، ولكن الحاجة جعلته يتغاضي عن تنفيذ هذا القانون بل نجد أنه عمد إلى فرض الاحتكارات لسد حاجته الماسة إلى المال. ومما هو جدير بالملاحظة هو أن الزراعة امدت الدخل القومي في الامبراطورية في تلك الفترة بجزء كبير من الدخل،وأن العائد من الزراعة يساوي عشرين مرة الدخل

العائد من التجارة والصناعة.

ونتيجة لذلك ترك جستنيان خلفاءه في ظروف مادية سيئة إذ خلت خزانة الدولة، وكان الدائنون من المرابين يلحون في الحصول على ديونهم المستحقة. كما كانت الضرائب ثقيلة والناس لايستطيعون دفعها. وزادت كمية الطعام المجاني، الواجب على الدولة توزيعه، وبمرور الوقت أصبح إمداد سكان العاصمة بالطعام المجاني عبئا ثقيلا ناءت به الخزانة العامة.

هذا بالإضافة إلى أن معظم الولايات التي استردتها الامبراطورية خرجت من حروب الاسترداد محطمة اقتصاديا. وكانت عملية حمايتها والاحتفاظ بها تمثل عبئا اقتصاديا اضافيا وقع على عاتق الموارد المنهكة للقسم الشرقي من الامبراطورية، وفرضت الظروف على جستين الثاني أن يتبع سياسة مالية اتسمت بالتقشف لدرجة وصفه بالبخل والشح من معاصريه. واضطر بدلا من الغاء توزيع الخبز المجاني الى فرض ضريبه جديدة على كل مواطن يتمتع بالحصول على الخبز المجاني. كما انه فرض ضريبة جديدة على كل السفن وعلى النبيذ. هذا كما واجهت الامبراطورية في تلك الفترة عدد من الزلازل، والأوبئة ، والمجاعات التي اجتاحت معظم أقاليم الامبراطورية، الشيء الذي يعتبر في حد ذاته كارثة اقتصادية تثقل كاهل خزينة الدولة.

واضطر الامبراطور موريس إلى اتخاذ اجراءات لمواجهة تلك الالتزامات المادية، لذلك أصدر أمرا بانقاص المرتبات العسكرية بنسبة خمس وعشرين بالمائة مما أدى إلى تمرد عنيف بين الجند. ويبدو أن موريس لم يستطع التخلص من سياسة التقشف التي فرضتها عليه الظروف والتي جعلته مكروها من الشعب والجند على حد سواء والتي كلفته في النهاية عرشه وحياته.

ورغم كل الأحداث السياسية والاقتصادية التي واجهها الامبراطور جستنيان، إلا أنه أبدى اهتماما واضحا بالشئون الدينية فأخذ على عاتقه تنظيم شئون الكنيسة الداخلية ، وسن القوانين لتنظيم طرق انتخاب الاساقفه لضمان انضباط الهيئة الكهنوتية. مع استبعاد شراء المناصب الدينية. كما أخضع انتخاب رؤساء الأديرة من الرهبان والراهبات لمراسيم الامبراطورية. وأصدر مرسوما بجعل السلطة الحكومية فوق سلطة الكنيسة. وقضى على الوثنية وأغلق مدارس أثينا الفلسفية وأقصى من التدريس كل من يدين بتعاليم الهلينية وفلسفتها. وأجبر الوثنيين على اعتناق الديانة المسيحية تحت ضغط التهديد بمصادرة أملاكهم ونفيهم.

وأهم تغيير في السياسة الدينية هو وقوف جستنيان إلى جانب الكاثوليك وذلك للاهداف التالية: الأول إقامة علاقة ودية مع البابوية، والثاني لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، والهدف الثالث استمالة أهالي المناطق المستردة في الغرب والذين كانوا على المذهب الكاثوليكي.

وما أن إرتقى هرقل عرش الامبراطورية، في الوقت الذي كان فيه الفرس قد اجتاحوا الولايات الشرقية من سنة ٦٠٧-٦١٦م من آسيا الصغرى حتى ليبيا، في تلك الأثناء انصرف هرقل إلى القيام بإصلاحات داخلية بالغة الأهمية وخصوصا في النظم الادارية التي وصفت بأنها نقطة التحول في تاريخ الشرق الروماني، وذلك استعداداً لمواجهة الفرس. وبعد ان اكمل استعداداته استطاع أن يعيد الأراضي التي احتلها الفرس. وبعد انتصارات هرقل كان عليه مواجهة مشاكله الداخلية التي كان على رأسها الأوضاع الاقتصادية المتردية. ففرض ضرائب مرهقة في مجتمع لم يكن أفراده قد أفاقوا بعد مما عانوه في فترة الحرب من ضيق اقتصادي. وما كان في استطاعتهم تحمل تلك الضرائب التي تشدد هرقل في جبايتها وخاصة في ولايات الشرق. وإذا كان التشدد في جباية الضرائب أعتبر من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها هرقل، فثمة خطر أفدح ارتكبه وهو تسريح الجيش الذي أحرز به النصر في حربه مع الفرس والاكتفاء بحاميات محلية للقيام بحراسة الولايات الشرقية، حيث أيقن بعدم وجود خطر يهدد الامبراطورية، وما أن حل عام ٦٢٦م حتى بدأ العرب في هجوم شامل على بلاد الفرس وبلاد الروم معا. ولكن ردة فعل الامبراطور هرقل بالنسبة لهذا الهجوم تحول من الاصرار على القتال، مقارنة بموقفه مع الفرس، إلى الاستسلام والانسحاب، وذلك بعد هزيمة جيوشه في معركة اليرموك. وفسر انسحابه ذلك على ان الصعوبات المستمرة التي رافقت حكمه جعلت قواه الجسدية والنفسية تخور وأنه أصبح فريسة للمرض والخوف العصبي، ولكن يبدو لنا ان الحقيقة وراء انسحاب هرقل وسحب سكان المناطق المتاخمة لبلاد الشام إلى وراء جبال طوروس هو أن هرقل فكر في أن ذلك الانسحاب أفضل لمستقبل الامبراطورية من مواجهة المسلمين تلك القوة الفتية، التي لاقبل له ولا لجنوده المنهكين من حروب الفرس بمواجهتها. وربما تكون نقطة الضعف هذه هي الدافع الذي جعله يفكر في وضع ترتيب اداري عسكري والذي كان أساس نظام الثيمات. إن تفكيره هذا كان تفكيرا عميقا وذكيا إلى أبعد حد. حيث استطاع بذلك التنظيم حماية الحدود الامبراطورية خلف جبال طوروس من هجمات المسلمين والدفاع عنها بجيش

مستقر في تلك الحدود، لايكلفه المال ولا مؤن النقل بل تمليك الأراضي مقابل الخدمة العسكرية.

والتغيير الهام الذي حدث نتيجة الفتوح الاسلامية هو تحول سياسة الامبراطورية العريقة من سياسة الهجوم الى سياسة الدفاع التي التزمتها طوال القرنين السابع والثامن وذلك خوفا ورهبة من القوة الاسلامية الفتية، هذا التغيير الذي حدث في سياسة الدولة الدفاعية والظروف الحربية المحيطة بها من الجبهة الاسلامية من جهة وجبهة الدانوب من جهة أخرى، جعلتها تتخذ اجراءات لتغيير شامل في جميع نواحي حياتها. ففي الحكومة والادارة نجد أن شخصية الامبراطور استمرت كما كانت قلب ومصدر القوة الادارية أو السلطة الادارية. ولكن قويت تلك السلطة نتيجة لتقلص اراضي الامبراطورية في الشرق والغرب وأصبحت السلطة الإدارية أكثر مركزية من ذي قبل. وتغير لقب الامبراطور من Augustus إلى Basileus وكان الامبراطور هرقل أول من حمل لقب باسيلوس رسميا، وهو لقب ملك او امبراطور في اللغة اليونانية. واستمر المركز الامبراطوري بشكله الرئيسي ولم يحدث تغير يذكر. إلا أن الأباطرة من أسرة هرقل قد قاموا منذ عهد هرقل بتقديم ابنائهم كشركاء للامبراطور وقد نقشوا ذلك على العملة التي سكت في تلك الفترة.

وفي النواحي الأدارية ألغيت وظيفة الوالي البريتوري، والغاء تلك الوظيفة في حد ذاتها تحول وتوقف للتقاليد الرومانية المبكرة وحل الثيم محل الولاية البريتورية كنظام اداري. وكذلك النظام المالي في الولاية حل محله عدد من الأقسام المالية المستقلة. وبصفة عامة فإن هذا التغيير ما هو إلا سمة أو علامة مميزه في نظام الإدارة المركزية للامبراطورية في القرن السابع.

واستمر رجال مجلس الشيوخ، السناتو، في ممارسة السلطة مع النخبة الغنية. وكان للسناتو حضور واضح في كل أحداث القرن السابع مما يعكس تغييرا لسياسة جستنيان الأول تجاه رجال السناتو. أما بالنسبة لمجلس الـ Consistory فلم يبرز كجسم مستقل خلال القرن السابع حيث لاتوجد إشارات واضحة إلى قيامه بعمل متميز خلال القرن السابع، ولكن ربما كان يعمل ضمن مجلس السناتو وأن الإشارة إلى مجلس السناتو تتضمن المجلسين معا.

وضعفت قوة الأحزاب وانعدم تأثيرهم السياسي في القرن السابع ولكن عدم تأثيرهم السياسي لايعني اختفاءهم من الحياة العامة، حيث انحصر عملهم في تنظيم سباقات الخيل وباقي انظمة الهبودروم. كما أنهم استمروا في القيام بدور الحراس للمدن

واعتبروا وسيلة دفاع اساسية في المدن.

ويلاحظ زيادة أعداد المناصب الاسمية والشرفية في القرن السابع. وحافظت وظيفة والي المدينة على اسمها وعملها كواحدة من الوظائف الادارية العليا في الامبراطورية، ووظيفة والي المدينة تدل دلالة أكيدة على ان الحكومة تدخلت لتنظيم العلاقة بين افراد الشعب وأرباب الحرف. كما تدل أيضا على سيطرة الدولة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية. كما إنها توضح شكل الحياة الاقتصادية نفسها عن طريق التعرف على النقابات واعمالها. ويمكن وضع والي المدينة على رأس الادارة المالية.

وتعرضت الادارة المالية في القرن السابع لتغييرات جاءت عن طريق سلسلة من التعديلات التدريجية حيث ألغيت المكاتب الكبيرة وتفتت في عدد كبير من المكاتب الصغيرة. كما برزت فكرة المركزية والمراقبة في القرن السابع. ومثال على ذلك فكرة مركزية ومراقبة دور سك العملة. وهذا العمل لم يمثل تغييرا بل مثل انقلابا في التقاليد الامبراطورية الرومانية المتأخرة وكذلك اعادة تنظيم الامور المالية المتمثلة في الاستقلالية الكبيرة لبنك ولاية المشرق من جهة ومراقبة الشؤون الخاصة من جهة اخرى. والعوامل المشجعة او الدافعة لمحاولة إعادة التنظيم الاداري هي الحاجة الى مصدر للدخل والانهيار السياسي العسكري للدولة.

وبمقارنة مخطط الادارة الذي اسسه دقلديانوس والذي أكمله خلفاؤه وبقي فعالا حتى بداية القرن السابع، مع النظام البيزنطي المتأخر نجد أنه لايوجد موقف مفاجىء أو أنظمة جديدة لتحل محل الانظمة القديمة، تمشيا مع متطلبات الوقت والظروف التي جدت عليها. ويبدو ان نظام استخلاص الدخل والادارة القديم استمر في العمل بدون توقف حتى بداية القرن السابع. ومنذ عهد هرقل خضع النظام كله الى تحويل او تغيير، والتغييرات سلكت طريقين. الأول أن الإدارة في كل المناطق أعيد تنظيمها حيث قسمت المناطق الى عدد من المناطق العسكرية او الثيمات. ثانيا أن الوزارات الكبيرة مثل: Count of the Sacred largess و Count of the Privet Estate واللتان اشتملتا على أقسام مختلفة فتت إلى عدد من المكاتب الصغرى. والتغيير الاداري الذي حدث في القرن السابع يعتبر نقلة من العهد الروماني القديم إلى الفترة البيزنطية الوسيطة حيث يطلق على الترتيبات الإدارية الجديدة مسمى النظام البيزنطي الوسيط The Middle Bdyzantine System.

إن إعادة تنظيم الردارة الامبراطورية شمل الناحيتين المدنية والعسكرية. وقد حظى القطاع العسكري باهتمام كبير في القرن السابع، وذلك نظرا للإغارات التي تعرضت

لها الامبراطورية على مدى ذلك القرن. والنظام العسكري الجديد أطلق عليه اسم نظام الثيمات "Thema" وقد ثار جدل عنيف بين المؤرخين حول من أسس نظام الثيمات وخلصوا إلى أن هذا الاصلاح الاداري لم يكن عملا قام به شخص بمفرده وان كان لا أحد ينكر الدور العظيم الذي لعبه كل من هرقل وقنسطانز في الاسراع بانشاء الثيمات. وان هذا الاصلاح قد تأثر بإصلاحات جستنيان وربما بالممالك الهلينستية القديمة. ولكن نعتقد أن الثيمات تأسست في عهد الامبراطور هرقل الذي سحب جنوده والسكان من مواجهة الحرب الاسلامية فكان عليه أن يجد مأوى جديد لكل من الجند والسكان وفكر على أن تكون لجيشه قواعد في الولايات التي هددها الفرس اولا ثم الهجوم الاسلامي العنيف والذي ألزمه بسياسة الدفاع. أن السياسة الدفاعية هي الدافع وراء تأسيس الثيمات لصد الهجمات التي تتعرض لها الامبراطورية من قبل المسلمين وأن أولى الثيمات أنشئت مع الفتوحات الاسلامية لتكوين جيش وطني من جهة ولتوطين السكان الذين سحبهم هرقل من جهة أخرى . كما ذكر أن هرقل وعد جنوده بأنه سوف يوزع عليهم الأراضي الزراعية الخصبة بعد انتصاره على الفرس، وربما يكون قد اوفي بوعده فوضع بذلك البذرة الأولى لنظام الثيمات وتوسع في الفكرة وتطبيقها بعد هجوم المسلمين على بلاد الشام، وتحولهم الى مصر، فلابد ان يكون فكر جديا في تحصين الدولة تحصينا قويا ضد هجمات المسلمين. ولاننسى الشمال وتهديد السلاف والبلغار في تلك النواحي.

إن نظام الثيمات وضع حدا نهائيا للنظام الاداري الذي وضعه كل من الأباطرة دقلديانوس وقنسطنطين، ولكنه في نفس الوقت كان تطورا من النظام الروماني القديم Limitanie ونظام الـ Exarchate الارخونية، حيث أن قائد الثيما جمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية. وأن الجنود الذين عملوا في الثيمات حصلوا على الأرض مقابل الخدمة العسكرية.

وعندما نقول بأن هرقل هو المؤسس الحقيقي لنظام الثيمات يقول ذلك لأنه هو الامبراطور الذي واجه مشكلة استقرار الجنود الذين سحبهم معه من الشرق ومشكلة إعادة توطين السكان الذين أجبرهم على ترك مواطنهم ومساكنهم ليجدها المسلمون أمامهم مهجورة خالية من السكان، كان عليه ان يجد حلا سريعا وحاسما، وكان الحل هو استحداث نظام الثيمات. ونحن لانستطيع القول بأن هرقل قام بتنظيم أماكن الاستقرار الجيدة للجند والسكان تنظيما اداريا عاليا. وانما فكر ومنح الأرض، أما

الترتيبات الإدارية التفصيلية والتخطيط التنظيمي فقد حدث تدريجيا وعلى مدى القرن السابع بأكمله. وان كل أباطرة القرن السابع قد شاركوا في تطويره حتى أخذ الشكل والملمح المميز له، وهذا النظام هو نفسه الذي اعطى للقرن السابع ملمحا بارزا ميزه عن غيره من القرون البيزنطية السابقة واللاحقة، وأن فكـــرة تحويل سياسة الدولة من الهجوم إلى الدفاع أيضا هو تغيير في سياسة الامبراطورية البيزنطية ولكن هذا التغيير هو الذي ساعد بيزنطة على البقاء.

لقد اعتمد المؤرخون الغربيون على كتابات الجغرافين العرب للاستدلال على تحويل القيادة العسكرية من افريقيا الى سردينيا. و يمكن أن يكون قد حدث عقب وفاة القائد العربي عقبة بن نافع، والفترة مابين وفاة عقبه وعودة الجيش الاسلامي مرة أخرى إلى افريقيا، أتاحت للامبراطورية الفرصة لإعادة توطيد قوتها في افريقيا. وفي نفس الوقت لم تود الحكومة البيزنطية أن تصبح القيادة العسكرية لافريقيا بعيدة عن شبه جزيرة ايبريا، والتي كانت بيزنطة لاتزال تسيطر فيها على منطقة Baleare البليار، فهي بالتأكيد جزائر البحر التي ذكرتها قائمة الجرمي، تحت قيادة قائد سردينيا. ومنذ سنة ٦٨٧م كانت سردينيا قاعدة بحرية هامة، و،لذلك السبب وردت في المرسوم الذي اصدره جـستنيـان الثـاني. ويبـدو أنه مـابين ٦٨٧-٦٩٥م. وربما بالذات مـابين ٦٩٢-٦٩٥م كانت سردينيا قاعدة للقوات العسكرية لأرخونية لافريقيا، وان سقوط قرطاج في يد العرب أجبر بيزنطة على نقل قواتها العسكرية من افريقيا إلى سردينيا. وخلاصة القول تتركز في النقاط التالية:

أولا: إن قائمة الجرمي والتي ذكرت مناصب القادة حصرت تاريخ ذلك مابين ٦٨٧ - ٦٩٥م وربما بين ٦٩٢-٦٩٥م.

ثانيا: إن منصب القائد في صقلية استحدث مابين ٦٨٧ - ٦٩٥م. وربما بين ٦٩٢-٦٩٥م وذلك لتطابقه مع الحاجات السياسية الخارجية والداخلية للامبراطورية في القرن السابع.

ثالثا: السبب نفسه كان وراء نقل القوة العسكرية من شمال افريقيا الى سبته أولا ثم الى سردينيا ثانيا. وأن حركة النقل الثانية حدثت بين ٦٨٧-٦٩٥م.

وساعد تأسيس الـ Kleisuria في ممرات جبال طوروس على تقوية وتماسك الثيمات التي أنشئت في منطقة الأناضول.

إن فترة انشغال الإدارة البيزنطية في الشرق أعطت الكنيسة في ايطاليا الفرصة لشغل مجالات النشاط الذي كانت تمارسه الدولة وتسد الفراغ الذي تركته الدولة. وكان

للكنيسة في ايطاليا مراكز خاصة وذلك من خلال امتلاكها للأراضي الشاسعة والامتيازات التي حصلت عليها من الأباطرة السابقين وعلى الأخص جستنيان الأول. وبدأت الكنيسة بالعناية بالفقراء وهو المجال الذي أهملته الدولة تماما. وظهر تفوق النفوذ الكنسي على النفوذ الدنيوي في إدارة البلديات. فقد تحول أعضاء المجلس البلدي Curiates الى أفراد يتحملون الأعباء التي يفرضها الأسقف على المواطنين الاثرياء وخصوصا أعضاء المجلس البلدي. كما دخلت العناية بقنوات المياه في القرن السابع والمحافظة على أسوار المدنية ضمن نفوذ الكنيسة. وفي ذلك الوقت لم يعد هناك ذكر لوالي المدينة. واستبدال نظام توزيع الخبز المجاني بمؤسسات الاحسان التابعة للكنيسة والملاجىء والمصحات ووضح تفوق الادارة البابوية. وتمثل ذلك في إن الدولة سلمت له مخازن الغلال التابعة لها. وقررت الدولة في ان تعطي للكنيسة الدخل العيني الذي تدفعه كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا. وظهر البابا وكأنه موظف الامبراطور الذي يقوم بتوزيع المؤن، بل وأصبح البابا بمثابة البنك او الخزينة التي تؤول إليها رواتب الجند ثم تتولي إدارته دفعها للجنود.

وكان على ايطاليا أن تعتمد على مصادرها المحلية في عملية التجنيد حيث أصبح من الصعب امدادها بالجنود عن طريق الحكومة البيزنطية لذلك اعتمدت على مصدرين في هذا الشأن، المصدر الأول، الجنود الذين استقروا في ايطاليا في الوقت الذي أسست فيه الحدود الداخلية تقليدا لنظام الليميتاني القديم، أما المصدر الثاني فتمثل في السكان المحليين الذين أجبروا على المشاركة في أعمال الحراسة وأجبروا على إعالة انفسهم.

وضعت فكرة تمليك الأرض للجند المحلين مقابل الخدمة العسكرية موضع نقاش بين المؤرخين ،ففريق يقول: انه في القرن السابع ومع تأسيس نظام الثيمات منح الجند الأراضي الزراعية مقابل الخدمة العسكرية، ولكن فريقا آخر قام بمعارضة فكرة تمليك الأرض مستندين في ذلك على القول بعدم وجود نص واضح في المصادر يتحدث عن تمليك الأرض للجند مقابل الخدمة العسكرية . وعلى عدم وجود قوانين سابقة لقوانين القرنين التاسع والعاشر التي تلزم الجنود بالخدمة العسكرية . وتناسوا قانون الفلاح والذي يوضح تفاصيل العلاقة بين ملاك الأرض وبين المستأجرين على أساس أخذ جزء عيني من الانتاج مقابل زراعة الأرض والمذكور في المواد ١١-٢٥ أو على أساس الأجر الشهري او السنوي كما ورد في المادة ١٦. والذي يوضح قيام مبدأ اسناد ملاك الأرض الممنوحة أعمال زراعية الى الغير مقابل جزء عيني من انتاج الارض، أو مقابل رواتب

شهرية أو سنوية حسب الاتفاق، الامر الذي يحقق للدولة الاستفادة من الهدف الذي رمت إليه من منح الأرض للجند، حيث يستطيع الجند أن يقوموا بتأجير تلك الأرض من جانب، ويتفرغ الجند الممنوحين للأرض للأعمال العسكرية التي تتطلبها الدولة. واستمرارية الجنود على رأس العمل على مدار السنة دون اشتغالهم بزراعة الأرض. وهذا هو ردنا على القول بأن الجنود كانوا مشغولين أثناء الموسم الزراعي بمهام عسكرية ولايستطيعون القيام بزراعة الأرض وأن عليهم الاعتماد على الأسر لايوائهم وامدادهم بالمؤن العينية.

والخلاصة ان الجنود لم يعملوا في الأرض كمزارعين بل منحوا الأرض وقاموا بتأجيرها الى الفلاحين Tenants الذين عملوا عليها. وكان الجنود متفرغين للخدمة العسكرية وكان مصدر معاشهم الرئيسى يأتيهم من دخل الأرض المؤجرة على فلاحين يعملون عليها. وربما يفسر ذلك الامر بنقل الأسر مع الجنود لا لمنح الأسر الأراضي ولكن منحها للجنود والأسر تستأجر تلك الاراضي وتستصلحها لصالح الجنود.

وبالنسبة لمشكلة التمويل النقدي لجنود الثيمات فإن الدولة لم تترك الجنود على دخل الأرض الممنوحة لهم فقط. ولكنها قامت بدفع مبالغ نقدية والتي كانت قليلة نسبيا، ولاتسلم اليهم بشكل سنوي وانما كل ثلاث الى ست سنوات. وظروف صرف النقود للجند غير واضحة والبراهين عليها متناقضة. ويبدو ان النظام الدوري الذي طبق على صرف النقود للجنود ارتبط مع الهبة التي تعطي كل خمس سنوات وهي المسماة Rota، وهذا الشيء الذي مكن الدولة من الغاء عبء دفع المبالغ النقدية عن كاهلها لمدة أطول. اما الخطوة الثانية فهي تسليم مؤن الجيش عينيا. هذا بالإضافة إلى أن الدولة القت عن كاهلها تكاليف إمداد وإعالة الجنود والتي كانت مكلفة وتحولت هذه الألتزامات في القرن السابع من الدولة للجنود أنفسهم وقد أصبح علي الجندي أن يمد نفسه بالحصان والمعدات والسلاح اللازم. وأن هذا الشيء ليس تغيراً فقط في النظام العسكري بل تغير في النظام المالي العام.

وهناك رأي بأن الدولة لم تلق كل عبء الالتزامات المشار اليها على الجنود بل ان الدولة فرضت ضرائب عينية على جميع أنواع الانتاج الصناعي مثل صناعة الملابس والاحذية والمشغولات الجلدية والاسلحة والانتاج الزراعي وغيره على أن تدفع للدولة، وان الدولة قامت بتأسيس Apotheke مخازن، وجعلت عليها موظفين هم Kom-merkiaroi لنقل البضائع من المصانع إلى مناطق الجند وان هذا كان تغييرا أساسيا في النظام التقليدي في تموين الجنود.

ولم تتميز الفترة التاريخية من بعد عهد جستنيان وحتى سنة ٧٤١م بسن قوانين جديدة لها نفس القوة التي كانت لقوانين جستنيان الأول ولكن ظهرت عقوبة جديدة لم تكن مدونة في قوانين جستنيان وهي عقوبة بتر الأعضاء، التي يحاول المؤرخ لويز إثبات أنها من القوانين التي فرضها الأمبراطور هرقل، والتي وجد لها صدى في الشرق الاسلامي وفي الغرب الجرماني. أما من ناحية الشرق الاسلامي فلا يمكن تطبيق تلك النظرية عليه حيث أن عقوبة بتر الأعضاء وردت في **القرآن الكريم** ونصت على حالات السرقة فقط. وبما ان الشرق الاسلامي طبق الشريعة الاسلامية ومبادئها القائمة على **القرآن الكريم** فهذا الجانب مؤكد من حيث عدم تأثره بالقوانين الرومانية وبالذات في ظل وجود الشريعة الاسلامية. ولكن هذا لايعني عدم وجود أي نوع من القوانين فقد وجدت مجموعتان قانونيتان هما قانون البحر الروديسي. وقانون الفلاح no-mosgeorgios وقانون الفلاح هو القانون المهم في هاتين المجموعتين. ويستمد قانون الفلاح أهميته من أهمية الزراعة في النواحي الاقتصادية وعلى الدخل من الزراعة الذي مثل قاعدة اقتصادية هامة استندت اليها الامبراطورية. ولأهمية قانون الفلاح تلك حظى بالبحث والدراسة من المؤرخين المحدثين، وتركزت الدراسات التي قام بها الباحثون حول الجذور التاريخية لقانون الفلاح وخلص بعض الباحثين إلى أن قانون الفلاح أخذ بعرف أو أعراف كانت سائدة في الشرق المتأخر . ولكن هناك دراسة أكدت على أن قانون الفلاح ينقسم إلى قسمين بالنسبة لجذوره التاريخية جانب مدنى وجانب جنائى. فالجانب المدني قانون جديد وكانت مناسبة استحداثه هو الاستقرار السكاني الجديد ضمن الامبراطورية وأن القانون مستمد من التقاليد التي أتى بها القادمون الجدد من بلادهم الاصلية .أما الجانب الجنائى الذي يتعامل مع التعديات الزراعية مثل التعديات على الأرض وبنايات المزارع ووسائل الزراعة والمواشي، هذا الجانب قام بشكل رئيسي على القوانين او مواد القوانين الرومانية السابقة وبالذات على قوانين جستنيان. والمادة (٧٠) من قانون الفلاح تؤكد أن هذا القانون قانونا رومانيا بشكل رئيسي.

والتغيير الملحوظ لأطر التقاليد القانونية الرومانية للدولة في القرن السابع فقد تمثل في دراسة القانون وكتابته،فقد انهارت دراسة القانون منذ سنة ٦٠٠م وأن الفترة الزمنية الممتدة منذ عهد هرقل إلى عهد باسيل الاول ٦١٠-٨٨٦م تميزت بوجود قانون له ملامح مختلفة وإن كان بدائيا أكثر من المرحلة الأولى.

في مستهل القرن السابع وبعد ان خرجت بيزنطة من حربها مع الفرس التي

استمرت حوالي أربعة وعشرين عاما، انحطت إلى مستوى اقتصادي غاية في الضعف والتدهور. وتأثرت غالبية الولايات الشرقية والغربية لذلك الوضع. ولكن أقل الولايات تأثرا بالحرب الفارسية كانت شمال افريقيا التي تمتعت بإستقرار نسبي وإزدهار اقتصادي حيث استطاعت إمداد العاصمة، في مستهل القرن السابع، بحملتين للدفاع عنها. ووقفت الكنيسة الى جانب الدولة بأن وضعت أموالها تحت تصرف الدولة. ومنحت كنوز الكنيسة للدولة على شكل دين يجب رده الى الكنيسة فور انتهاء الحرب، وهذا الشرط من جانب الكنيسة هو الذي أجبر الامبراطور هرقل على فرض ضرائب جديدة وتكثيف الضرائب القديمة ودعا جميع الولايات لدفع ثمن الحرب. وكانت هذه غلطة هرقل التي أثارت سخط سكان الولايات. ولكن هرقل كان واقعا تحت ضغط سرجيوس، بطريرك القسطنطينية، فقد اعاد بعض الاموال التي اقترضها من الكنيسة من حصيلة غنائمه من حربه مع الفرس. ولكن الكنيسة أرادت استرجاع جميع اموالها دفعة واحدة. والنتيجة ان قرض الكنيسة للدولة أدى إلى نتائج عكسية ففكرة سرعة سداد الدين التي سيطرت على الامبراطور هرقل ادخلته في مشاكل اقتصادية جديدة بتشديد الضغط على سكان الولايات الشرقية، الشيء الذي ساعد على فقدان تلك الولايات وإلى الأبد.

إن ظروف الحرب المستمرة في القرن السابع تركت آثارا بعيدة المدى في الحياة الاقتصادية، وبالذات في الكثافة السكانية في أماكن معينة. حيث فقدت الامبراطورية أعداداً ضخمة من المواطنين الذين قتلوا خلال هجمات الأفار والسلاف في الغرب والحروب مع الفرس في الشرق، كما تسبب الخراب الذي حدث في الولايات نتيجة الحروب المتكررة في هجرة كثير من سكان المناطق التي يتهددها الخطر الى المدن المحصنة، ولكن الدولة قامت بعملية اعادة توطين السكان في الاماكن المهجورة، وخضعت عملية نقل السكان لأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية. ويعتبر بعض الكتاب أن التغيير الهام الذي طرأ على الامبراطورية في القرن السابع لم يكن التحول في الأنظمة الادارية أو استحداث نظام الثيمات وإنما كان الحدث الأكبر هو مجيئ السلاف الى البلقان باعداد غفيرة ونقل اعداد كثيفة منهم إلى آسيا الصغرى لاعادة اعمار المناطق التي أقفرت من سكانها. فهذا في حد ذاته ثورة ديموغرافية بحق ترتب عليها نتائج بعيدة المدى، فبعد إقفار بعض الولايات من سكانها تدفق عليها فيض من المزارعين، ونقل السلاف الى آسيا الصغرى احدث انقلابا في النظام الداخلي

للأمبراطورية وأثيرت بذلك المشاكل الزراعية والعسكرية وامداد الجيش بالجنود والاوضاع الاقتصادية العامة. وكان في مواجهة تلك المشاكل الحلول السعيدة لبيزنطة.

وللمدن دورها الحيوي في النواحي الاقتصادية. ولكن أصاب المدن ما أصابها في القرن السابع. وحدث تحول في وظيفة المدن من مدن كانت تحكم نفسها وتدير شئونها الاقتصادية بنفسها وتعمل لحسابها ولحساب الدولة ماليا واداريا - الى مجرد مراكز حربية تابعة ليس لها أي دور في نظام الادارة الامبراطورية بل وفقدت أيضا وجودها الاقتصادي المستقل. وكان للمدن في أوائل القرن السابع حرية اسمية، واستمرت لتكون مقرا يمارس منه موظفوا الولايات وظائفهم الادارية. ولكن بالنسبة لموضوع استمرارية المدن البيزنطية في القرن السابع أو تحويلها الى خراب فقد استمرت المدن في الوجود وبالاستناد إلى ابن خرداذبه كان هناك حوالي ١٢٤ مدينة وحصنا في آسيا الصغرى وحدها. وان المدن التي استطاعت البقاء كمراكز اقتصادية نشطة هي تلك المدن التي كانت تتميز بموقع خاص كأن تكون ميناء مثلا. أما المدن الكلاسيكية فمرت بتغييرات مثيرة في تلك الفترة، فهجر بعضها أو دمر، وبعضها استمر في الوجود، والتي استمرت في الوجود تدين باستمرارها الى بعض الانشطة التجارية المحدودة، والى وضعها كمراكز إدارية وعسكرية. كما أن البعض أستطاع أن يقاوم التدهور والاضمحلال بفضل مواقعها الجغرافية وخصوصا المدن الواقعة على الطرق التجارية. وبصفة عامة فإن المدن لم تستمر فقط بل كان عددها كبيرا وكانت مأهولة بالسكان على غير المتوقع في ضوء الظروف السياسية التي سادت في تلك الفترة. وإذا قدر لبعض المدن أن تستمر فإن ذلك كان مرهونا بقدرتها على تحقيق ماتريده منها الدولة كأن تكون قاعدة أو مركزا إداريا وعسكريا وتظل المدينة قائمة ككيان حضاري إذا توفر لها شروط النشاط الاقتصادي أو أن تكون لها أهمية دينية بأن تكون مركزا لاحد القديسين. ان استمرار وجود المراكز الحضرية إنما هو استمرار لوجود حضاري من نوع ما، ولكنه ليس من نمط ذلك الوجود الذي عاشته المدن في العصور الكلاسيكية.

ويرتبط بحياة المدن بعض الانشطة الاقتصادية خاصة التجارة والصناعة. ويعتمد نجاح تجارة المدن على موقعها الجغرافي. وكانت معظم المدن ذات النشاط التجاري والصناعي حتى مطلع القرن السابع تقع على سواحل البحار في ولايات الامبراطورية الشرقية مثل الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرهم من المدن الساحلية والمحطات التجارية الهامة ويشكك بعض الكتاب في استمرارية الملاحة في البحر الأبيض خلال

القرن السابع،ولكن تقوم كثير من الشواهد من المصادر المعاصرة لتلك الفترة على استمرارية الملاحة في البحر الأبيض. وكذلك تقوم كشاهد على استمرارية التجارة البحرية التي نشطت والتي لم يثبت فعلا ان الفتوحات الاسلامية قامت حاجزا في وجهها بل كان هناك اتصالا تجاريا بين المسلمين انفسهم وبين البيزنطيين.

واستعمال الاختام الذي أصبح ظاهرة عامة في القرن السابع على البضائع التجارية يعني تغييرا في شكل الادارة وفي نشاطها الخاص بالتجارة وهو يعكس عملية تنظيم الدولة للتبادل التجاري، والسبب في ذلك يعود إلى الحالة الاقتصادية السيئة وبحث الدولة اليائس عن مصادر للدخل. ويبدو ان حرية التجارة صارت قاعدة التعامل في تلك الفترة وأصبح للتجار البحارة او ربابنة السفن منزلة خاصة في القرن السابع. مثلهم مثل المزارعين الذين لعبوا دورا حيويا في اقتصاد الامبراطورية.

واستمرت العلاقات التجارية البيزنطية قائمة مع كل الدول الواقعة على ساحل البحر الاسود مثل خرسون وبلاد الخزر. كذلك مع المسلمين حيث تحكم المسلمون في البلاد المنتجة والمصنعة لورق البردى وهو الورق الخاص بالوثائق الرسمية. كما تحكم المسلمون في طرق التجارة التي تحكم فيها الفرس سابقا. وأصبحوا الوسيط التجاري الجديد لبلدان الشرق الأقصى. وباختصار فإن بيزنطة لم تستطع الاستغناء عن جميع منتجات العالم الاسلامي والبضائع الشرقية، والتي يقوم المسلمون بدور الوسيط التجاري في تجارتها. ومعنى ذلك ان عملية التبادل التجاري بين الدولتين كانت عملية حيوية او مايمكن ان يطلق عليه عملية التكامل الاقتصادي. وان عملية التبادل التجاري كانت حتمية على الطرفين بالرغم من النزاع الحربي بينهما.

إن نجم التاجر البحار قد سطع سريعا خلال القرن السابع وربما يكون ذلك تأثيرا إسلاميا حيث أن البحارة والتجار كانت لهم مكانتهم عند المسلمين.

أن اقاليم بيزنطة دانت ببقائها لنجاح البحارة في امدادهم بالطعام والسلاح والمؤن الاخرى. وقد تحكمت بيزنطة في الصادرات، وكان على رأسها ملابس الاحتفالات الخاصة بالامبراطور ورجال البلاط والسمك المملح والذي يمثل الطعام الرئيسي لسكان العاصمة. والذهب للمحافظة على مالية الدولة. والخشب الذي مثل مادة استراتيجية هامة في الحرب بين المسلمين والبيزنطين في القرن السابع.

ومن أوجه النشاط الاقتصادي المرتبط بحياة المدن هي الصناعة، والتغيير الذي حدث بالنسبة للصناعة في القرن السابع هو، أن الامبراطور هرقل أصدر قانونا قيد به الانخراط في عضوية النقابات الصناعية بالنسبة لابناء اعضاء النقابة وأقربائهم، ومنع

التحاق أي عامل جديد بالنقابة، إلا في حالة وجود مكان شاغر. وكان على المتقدمين للعمل أن يجتازوا امتحانا يعقده لهم رؤساء الصنعة وموظفو الامبراطور، ومن ناحية ثانية فإن عمال الصناعة كانوا ينتظمون في طبقات وراثية. وأصبح العمل الحكومي امتيازا بعد ان كان الزاما. ولم تعد الدولة تجبر العمال على الآلتحاق بالنقابات الأمبراطورية بل كانت تحد من عدد الراغبين في الحصول على عضويتها ومنذ القرن الرابع وحتى العاشر لم يحدث اي تغيير بالنسبة للتنظيمات الداخلية للنقابات وكذلك بالنسبة للمراقبة، ووجدت نقابات صناعية في القرن السابع في الولايات في وقت صدور قانون هرقل وبمقتضى ذلك القانون انتقلت المراقبة من كونت الخزانة المقدسة الى حكام الولايات. وبعد موت هرقل اخذت الصناعة التابعة للحكومة فقط تتركز بالتدريج في العاصمة.

وبرزت صناعتان هامتان في نهاية القرن السابع وذلك نتيجة لفقدان زيت الزيتون الذي كان يأتي لبيزنطة من شمال افريقيا وجنوب أسبانيا. والصناعة الاولى صناعة الشموع حيث تحولت الاضاءة للشموع وذلك نظرا لقلة زيت الزيتون الذي كان يستعمل في الاضاءة. كذلك صناعة الصابون التي اعتمدت على الشحوم بدلا من الاعتماد على زيت الزيتون كما كان معروفا من قبل.

وابرز الضرائب التي ثبتت على السكان منذ القرن السادس هي ضريبة الأرض المنتجة Synone والضريبة المستحدثة في القرن السابع هي ضريبة السكن "الايواء" التي فرضت على ملكية المساكن للاعضاء البالغين من أهل المنزل. وتشددت الدولة في الحصول على ضرائب الأراضي المهجورة والتي استمر جيرانها مسؤلين عنها وهي الضريبة الجماعية epibole. وفرضت ضريبة جديدة أخرى هي ضريبة امداد الجيش بالمؤن المسماة Buying on requisition وهذه الضريبة فرضت عينا في القرن السابع. وهناك اعتقاد بأن الاجزاء العظمى من دخل الدولة منذ سنة ٦٥٠ أو ٦٤٠م قد فرض عينا وذلك لمساعدة الجيوش الثيمات في منطقة الاناضول.

ان احتياجات الدولة وليس مقدار الثروة هو الذي فرض الضريبة وان ظروف القرن السابع المثلة في حركة نقل السكان وعدم الامن الزراعي بصفة عامة في عدد من المناطق أجبر الدولة على فرض الضرئب المشار اليها. لقد ضمنت الدولة ضرائبها بأخذ تلك الضرائب من الفلاحين مباشرة وجعلت ضريبة المساكن Kapnikon مستقلة ومنفصلة عن حيازة الأرض. وهذا يعني ان تلك الضريبة فرضت على سكان المدن وعلى

الجماعات التي ليست لها صلة بالعمل الزراعي. وبصفة عامة فقد كانت الامبراطورية تعتمد في دخلها على الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ومن مصانع الدولة واحتكار الحرير ومن بيع الالقاب والمناصب والضريبة على التجارة والصناعة والمكوس وضريبة المستهلكين.

وعكست العملة البيزنطية الحالة الاقتصادية للأمبراطورية فتماسك العملة وقوتها الشرائية تدل على ان الحالة الاقتصادية لم تصل الى الحد السيء الذي يمكن ان يتوقع نظرا للظروف السيئة التي مرت بها الامبراطورية في ذلك الوقت.

وحدد بداية تاريخ العملة البيزنطية ببداية تاريخ حكم الامبراطور أناستاسيوس. إلا أن العملة في عهده لم تكن تحمل كل الخصائص البيزنطية المميزة بعد. والتغير الرئيسي في الشكل الخارجي للعمله حدث في عهد الامبراطور جستين الأول حيث وضعت علامات مسيحية على العملة الذهبية حيث حل الملاك محل علامة النصر. ثم الامبراطور تبيريوس حل الصليب محلها. وفي سنة ٥٣٩م استحدث وضع التاريخ على النقود وخصوصا على العملة النحاسية الكبيرة والتي تشير الى عهد الامبراطور. كما استحدثت سلسلة من الـ Solidus بأوزان خفيفة في النصف الثاني من القرن السادس. وفي عهد الامبراطور جستين الثاني ظهرت عمله ذهبية جديدة تساوي ٦/١ من الصولدي وخف وزن العملة النحاسية الـ Follis وصغر حجمها ونقشت عليها صورة الامبراطور جستين الثاني وزوجته صوفيا. وأهم مميزات العملة في عهد تبيريوس هو وضع الـ m اللومباردية ووضع علامة ميزة على الصولدي خفيف الوزن لتمييزه. اما في عهد فوكاس فتمثل التغيير في نقش صورة الامبراطور الحقيقية وليس رمزا.

والمتغيرات التي خضعت لها العملة في القرن السابع هي أولا الاصلاحات التي قام بها الامبراطور هرقل بالنسبة لدور سك العملة وثانيا قلة مصادر تمويل العملة وخصوصا الذهبية. ثالثا الصور التي نقشت على العملة والتي عكست الحالة السياسية للاسرة الحاكمة. من حيث دور سك العملة فقد اغلق الكثير منها في الولايات وركزها في العاصمة. والتغيير في ادارة دور سك العملة أبطل احدى الدعامات الاساسية التي قام عليها النظام المالي. واستمر سك العملة الذهبية في كل من العاصمة القسطنطينية ورافنا وقرطاج وهما أرخونيتان، اما على مستوى الدوقيات فيبدو انه اختفى تماما. وبالنسبة لمصادر تمويل العملة فبالرغم من أن المسلمين سيطروا على مصادر تمويل العملة في الشرق إلا أن المسلمين لعبوا دورا هاما في انزال الكنوز الذهبية التي تجمعت لدى

ملوك الفرس الى التداول. كذلك كنوز الكنائس الشرقية التي أصبحت تحت السيطرة الاسلامية عادت الى التداول ولكن ببطء شديد وبشكل تدريجي. ان الفتوحات الاسلامية وما ترتب عليها من انشاء منطقة اقتصادية قوية ومتسعة كانت السبب في تعديل توزيع المناطق النقدية وكثافة الذهب فيها وتعديل سير التيارات النقدية واتجاهاتها تعديلا كثيرا. وعكست الصور التي نقشت على النقود البيزنطية في القرن السابع الحالة السياسية التي سار عليها اباطرة القرن السابع. فقد اوجد العملة الامبراطور هرقل ملكية وراثية وتمثل ذلك على العملة في عهده ففي سنة ٦٢٩م ظهر هرقل ومعه ابنه هراكليوس كونستانتاين Heraclius constantine وفي العشر السنوات الاخيرة من حكمه ضم الى المشاركة في العرش ابنه الثاني Hercalons في نموذج مكون من ثلاثة اشخاص. وسكت في عهده عملة فضية Hexagram نقش عليها صورته مع زوجته الاولى Eudoicia وابنيهما Heraclius Constantine. كما نقشت على نفس العملة صورته مع زوجته الثانية مارتينا Martina وفي عهد قنسطانز ظهر على العملة ومعه ابناؤه الثلاثة. وعملة قنسطانز ظهر قنسطنطين الرابع تمثل مشاركة أخوية له. وقد استحدث جستنيان الثاني وضع صورة المسيح على عملته الذهبية والفضية. كما ظهر جستنيان نفسه مع ابنه على العملة.

وتميز القرن السابع بثبات وزن العملة بالرغم من كل مشاكل الامبراطورية، صحيح انه كان هناك صولدى خفيف الوزن في عهد هرقل ولكنه اختفى تماما في عهد قنسطنطين الرابع. ويعود السبب الرئيسي في ثبات وزن العملة الذهبية الى كمية الذهب المخزون في بيزنطة والتي جعلتها قادرة على مواجهة النقص الناتج في استيراد الذهب، وبواسطة سيطرة الدولة القوية، استقر وزن الصولدى الذي استمر كذلك حتى منتصف القرن الثامن والذي أطلق عليه ولقب دولار العصور الوسطى لقوته الشرائية ومقدار الثقة فيه. والتغيير الجدير بالذكر الذي ظهر على العملة في القرن السابع هو تغيير حروف الكتابة عليها من الحروف اللاتينية الى الحروف اليونانية وذلك نظرا لتبنى اللغة اليونانية والذي ظهر بوضوح في القرن السابع.

وأساس النظام الاقتصادي الذي اعتمدت عليه الامبراطورية كان الزراعة وخضع النظام الزراعي لعدد من التغييرات وذلك لمواجهة المشاكل المالية ومشاكل الامدادات الغذائية. هذا بالاضافة الى مشكلة الرواتب العسكرية ورواتب التقاعدات العسكرية. وتمثل تغيير النظام الزراعي في عدد من النقاط هي أولا منح حقول صغيره للفلاحين الذين يقومون بالخدمة العسكرية الاجبارية. ثانيا سياسة نقل السكان وتوطينهم في

الاماكن الزراعية المهجورة لاعادة تعمير تلك المناطق والدفاع عنها. ثالثا: النقطة التي اعتمدت عليها الدولة في سياستها الجديدة الفعالة. والتغيير الذي أصبح قوة دافعة لتطوير الاقتصاد الزراعي هو اعتمادها على تركيز ومساعدة صغار الملاك والمزارعين المستقلين، ويقوم قانون الفلاح شاهدا على تغلب مجتمع القرية الحر في العالم البيزنطي في ذلك الوقت على حساب الملكيات الكبيرة، وليس معنى ظهور طبقة صغار الملاك والمزارعين الأحرار اختفاء كبار الملاك والذين تمثلوا في الكنيسة والطبقة الارستقراطية وأراضي الدولة.

وتقوم دلائل وبراهين من البرديات المعاصرة على ان للكنيسة ادارة مالية مستقلة عن الادارة المالية للدولة وانها قامت بأخذ ضرائب مباشرة من الفلاحين، الذين عملوا كأجراء لدى الكنيسة، والذين تميزوا عن غيرهم من الفلاحين حيث أطلق عليهم لقبParoikoi تميزا لهم عن باقي الفلاحين، الذين عملوا لدى كبار ملاك الأرض. وبالنسبة لعلاقة المستأجرين بكبار الملاك في القرن السابع فقد دفع المستأجرون الايجارات إلى أصحاب الأرض، ودفعوا الضرائب للدولة بشكل مباشر. وهذا قلل من التكاليف الإدارية والالتزامات المالية لملاك الأراضي تجاه الدولة. ونتيجة لذلك ضعفت سلطة ملاك الأرض على أراضيهم بينما قويت الصلة بين المزارعين المنتجين والدولة. وأن تدخل الدولة في تلك الفترة بين المالك والمستأجر تغيير جاء لتخفيف حدة الارتباط بين المالك والمستأجر، ولكي يحصل المزراع المستأجر على درجة من الأمان الاقتصادي.

ونتيجة لذلك نجد ان الزراعة في القرنين الثامن والتاسع لم تكن قادرة فقط على ان تطعم الامبراطورية، بل اصبحت قادرة على التصدير. كما استفادت الزراعة من غياب المنافسة الخارجية. وبعد فقدان مصر استمد عدد كبير من مدن الامبراطورية احتياجاتها من الزراعة المحلية.ولقد سهلت عملية التبادل بين المدن عن طريق البحر من جهة والطرق الداخلية من جهة أخري والدليل على ازدهار الزراعة هو اعتماد الدولة على ضريبة الزراعة كواحدة من مصادر الدخل العام الأساسي للامبراطورية. وقسمت الاراضي ضمن ماتبقى داخل حدود الامبراطورية الى مناطق زراعية، زرع فيها الحبوب مثل مناطق البلقان وسهل الدانوب وسهل تراقيا وسهل تساليا وسهل مقدونيا. وهذا يعني ان هناك أراضي زراعية منتجة للحبوب في المناطق المتبقية في حوزة الامبراطورية وهذه المناطق هي التي سدت حاجة بيزنطة الى الحبوب خصوصا بعد ان استغلت تلك الأراضي استغلالا زراعيا جيدا بالاصلاحات المشار إليها.

لايوجد تغير جذري في تركيب النظام الطبقي الاجتماعي الروماني القديم والذي كان سائدا خلال القرن السابع، وهو الذي يأخذ شكل هرم ذي طبقات افقية، الطبقة الدنيا فيه تمثل قاعدة الهرم وتمثل الغالبية العظمى من الشعب تليها طبقة أصغر منها نسبيا هي الطبقة الوسطى ثم تعلوها طبقة اصغر هي الارستقراطية. والطبقات المشار اليها لم تكن مغلقة على الرغم من استمرار فكرة وراثة الوظائف والحرف. فالانطلاق من طبقة اجتماعية الى اخرى كان ممكنا.

وتميز القرن السابع بظهور عناصر جديدة ضمن الطبقة الحاكمة هي الطبقة الارستقراطية العسكرية في أقاليم آسيا الصغرى، وذلك نتيجة التطور للنظم الادارية والعسكرية في تلك الاقاليم خلال تلك الفترة. ولكن اطلاق اسم ارستقراطية على تلك الطبقة يمكن ان يطلق عليها في نهاية القرن السابع. وكانت طبقة وراثية استطاع ابناؤهاتكوين ثروات ضخمة في الثيمات التي تولوا قيادتها وأصبح لهم عد كبير من الاتباع فيها. كما ان القرن السابع تميز بوجود طبقة اجتماعية مميزة والتي برزت نتيجة محل الجند المرتزقة وتقطع لهم الأراضي في كل الثيمات. وهؤلاء الجند المحليون أطلق عليهم اسم Stratiotes.

وبرز، من طبقة رجال الدين في القرن السابع، الرهبان الذين كان لهم مكانه خاصة في المجتمع البيزنطي. حيث اعتقد الناس أن للراهب قدرات خارقة مثل القدرة على شفاء المرضى وطرد الأرواح الشريره والتنبؤ بالمستقبل.

واستمرت الانشطة الاجتماعية القديمة ممثلة في السباقات التي كانت تقام في الهيبودروم. كما استمرت الحمامات العامة والمسارح. وان كان لم يثبت انها لقيت عناية بصيانتها او ادخال تحسينات عليها في تلك الفترة.

وبقيت الحالة الدينية كما هي من حيث وجود الاختلافات الدينية كما ان الاضطهادات الدينية كانت لاتزال قائمة على الاقل الى عهد الامبراطور هرقل. وتميز القرن السابع بمحاولات الاباطرة بفرض عقيدة دينية موحدة. كانت المحاولة الأولى التي قام بها هرقل وخرج منها بالدعوة إلى مذهب الإرادة الواحده Monotheletism، وقد فشلت هذه المحاولة في تحقيق هدفها. وهو إيجاد وحدة دينية تربط أقاليم الامبراطورية. المحاولة الثانية قام بها قنسطانز الثاني، والتي أصدر بموجبها مرسوم الايمان Typos والذي أبطله مع مرسوم الارادة الواحدة البابا مارتن. أما آخر المجامع الدينية في القرن السابع فقد تخلت تماما عن محاولات التوفيق بين المذاهب ونظرت في تنظيم الكنيسة وما كان سائدا بين الناس من أفكار وتصرفات غير لائقة.

وأهم مايلفت النظر في الحياة الدينية في القرن السابع هو انتشار المعتقدات الخرافية بين جميع طبقات المجتمع ونتيجة لذلك شن أباطرة القرن الثامن الحرب ضد تلك المعتقدات الخاطئة.

وزاد نفوذ رجال الدين في القرن السابع وهذه الزيادة تعتبر من التغييرات البارزة في القرن السابع. وهذا النفوذ استمده رجال الدين من وقوف الكنيسة الى جانب الدولة وامدادها بالمال. وظهر تقليد ديني جديد في القرن السابع وهو القسم الذي يقسمه الاباطرة عند تتويجهم في كنيسة أيا صوفيا. واعتبر الامبراطور والبطريرك اعمدة من اعمدة الدستور الروماني، وان التفاهم بينهما كان شرطا أساسيا تقوم عليه الدولة. كذلك ازداد تأثير الرهبان على الكنيسة، فقد كان الرهبان هم الذين يرسمون الصور المقدسة وينشرونها، ويحافظون على المعتقدات الخرافية.

ونشأ في القرن السابع مذهب الـ Paulician وهو مسيحية ثنائية. وأتباع هذا المذهب كانوا في أرمينيا ثم انتشر المذهب في آسيا الصغرى وامتد إلى بلغاريا ومنها إلى وسط أوروبا.

واستقرت الحياة الدينية في بيزنطة بعد انفصال كل من مصر وسوريا وشمال افريقيا. وخفت حدة الخلافات الدينية فيها وخصوصا بين اصحاب المذاهب المختلفة من الامبراطورية والمخالفة لمذهب الدولة الرسمي. وفقدان تلك المناطق قدم حلا للخلافات الدينية بين الدولة البيزنطية والامم الشرقية.

وتركت الفتوحات الاسلامية أثرها النفسي لدى رجال الدين المسيحيين. فقد رأى معظمهم ان الغزو الاسلامي للامبراطورية كان عقابا أرسله **الله سبحانه وتعالى** ليعاقب به المسحيين على أخطائهم. وبرر رجال الدين المنوفزيين الفتوحات الاسلامية بأنها عقوبة من الله بسبب أخطاء المسحيين الخلقدونيين. ولكن المسيحين الخلقدونيين انفسهم صمتوا عن تفسير الفتوحات الاسلامية وحتى عن تسجيل أحداث القرن السابع ككل. واختفى الجدل اللاهوتي بين الكنائس الشرقية نفسها وظهر ادب جدلي جديد بين مسيحي البلاد التي دخلت تحت حماية المسلمين. والجدل الجديد كان يهدف الى الدفاع عن الديانة المسيحية أمام الديانة الاسلامية والذي تمثل في المناظرات والحوار الذي أثاره يوحنا الدمشقي.

وتمثلت الاثار الفكرية في الشعر والكتابات الدينية وتعطلت حركة التبادل الثقافي بين الشرق والغرب بسبب بطء الاتصال بين الشرق والغرب من جهة وبطء الاتصال بين

أجزاء الامبراطورية نفسها حيث كانت ولايات تابعة لبيزنطة سياسيا ومنفصلة عنها فكريا. وأصبحت اللغة اليونانية هي لغة الكتابة السائدة الرسمية للدولة. واستعمال اللغة اليونانية هو الذي لعب الدور الرئيسي في الفصل بين الغرب اللاتيني والشرق الاغريقي. وبذلك تكون بيزنطة قد انتقلت في القرن السابع من العصور القديمة الى العصور الوسطى حيث أصبح هناك اختلاف ظاهر بين القديم والحديث.

وفي أوائل القرن الثامن استطاعت الامبراطورية ان تبقى بالرغم من فقدانها لمناطق واسعة وغنية. وان تتجاوز الأزمات الكبيرة التي كان من الممكن أن تقضي عليها. وكان لها حدود ممتدة وعلى درجة كبيرة من القوة تكفي لجعلها تواجه اعداءها الكثيرين الذين كانوا يشنون عليها هجماتهم، كما استطاعت أن تتم رسالتها وهي المحافظة على الحضارة الأغريقية الرومانية.

مصادر الكتاب ومراجعه

Primary Sources

1 - Agathias ed. R. Keydell, *Agathiae Myrinaei Historiarum* Libri V (CFHB 2, Berlin 1967).
2 - Anastasii Sinaitae opera Sermones, Dvoinco.
3 - Arabic Papyri in the Egyptian Library. By: Adolf Grohmann Bar H .(Cairo, 1934).
4 - Cedrenus *Georgii Cedreni Compendium Historiarum*, ed. I. Bar Hebreu 2 Vols. (CSHB, Bonn 1838-9).
5 - *Chronic Paschale*, ed. L. Dindorf (CSHB, Bonn 1832) Chronic Paschale, 284 - 628 AD. trans. by Michael Whitby & Mary Whitby Liverpool, 1989.
6 - *Codex Theodosianus Theodosiani Libri XVI cum Consitutionibus Sirmondians*, eds. Th. Mommsen, P. Meyer et al. (Berlin 1905).
7 - *Corpus luris Civilis I, Institutiones* , ed. P. Kruger: Digesta, ed. Th. Mommsen; *Codex lustianianus*, ed. P. Kruger; III Novellae, eds., R. Scholl and W. Kooll (Berlin 1892-5; repr. Berlin 1945-63).
8 - Cosmas Hierosolymitanus, *Scholia in Gregori Nazianzeni Carmina*, in PG XXXVIII, 341-679.
9 - Catalogue of Greek Papyri in the British Museum. E. by Bell (London 1910).
10 - *De Administrando Imperio Constantine Porphyrogenitus, De Administrando Imperio* I: Greek Text, ed. Gy. Moravcsik, Engl. Trans. R.J.H. Jenkins. New revised edn. (CFHBI = Dumbarton Oaks Texts I, Washington D.C. 1967); II, *Commentary*, ed. R.J.H. Jenkins (London 1962).
11 - *De Cerimoniis Constantini Porphyrogeniti De Cerimoniis Aulae Byzantinae* Libri Duo, ed. J. J. Reiske (CSHB, Bonn 1829-30).
12 - Dictionary Thematibus Constantino Progirogenito, De Thematibus, ed. A. Pertusi (Studi e Test 160, Citta del Vaticano 1952).
13 - Doctrina lacobi nuper Baptizati, ed. N. Bonwetsch. Abhandlungen der koniglichen Gesellschaft der Wissenchaften zu Gottigen, phil.-hist. Klasse, XII 3 (Berlin 1910).

14 - Eparchikon Biblion I. Dujcev, To Eparkikon,Biblion The Book of the Perfect - Le Livre du prefect. Text, translation and commentary (London 1970).

15 - *Farmer`s Law* W. Ashburner, "The Farmer's Law", JHS 30 (1910), 85-108; JHS 32 (1912), 68-95.

16 - *Fiscal Treatise* ed. F. Dolger, *in Beitrage zur Geschichte der byzantinischen Finanzver-waltung besonders des 10 and 11. Jahrhunderts* (Byzantinisches Archiv IX Munich 1927 and Hildesheim 1960).

17 - *Georgii Monachi Chronicon*, 2 Vols., ed. C . de Boor (Leipzig 1904).

18 - George of Pisidia A. Pertusi, ed., *Georgio di Pisidia, Poemi, Pangegirci Epicia (Studia Patristica et Byzantina* 7, Ettal 1959): *Expeditio Persica*, pp. 84-136; *In Bonum Patricium*, pp. 163-70; *Bellum Avaricum*, pp. 176-200; *Heraclius*, pp. 240-61.

19 - Georgii Cyprii, *Obris Romany Georgi Goetz*, Collegae Amic isim, D. D. Henricus, Gelzer.

20 - Ghevond G. Chahnazarian, *Ghevnod, historie des guerres et des conquetes des Arabes en Armenie (Paris 1856).*

21 - Gregory of Tours, *The History of the Franks*, trans. with an Introduction by Lewin Thorpe, London, (1974).
Dictionary of the Middle Ages Vol. 12

22 - Gregory Goodacre, *A Handbook of the Coinage of the Byzantine Empire* (London, 1964).

23 - John of Damascus *Contra Imaginum Calumniatores Orationes, tres,* in B. Kotter, ed., *Die Schriften des Johannes von Damaskoc III* (Berlin, 1975).

24 - John of Ephesus *The Third Part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus,* ed. and tras. R. Payne Smith (Oxford, 1860).

25 - John of Nikiu *The Chronicle of John, Bishop of Nikiu,* ed. and trans. R. H. Charles (London, 1916).

26 - Justinian, *Digesta* in CICI.

27 - Justinian, *Edict. Edicta,* in CIC III.

28 - Justinian, *Nov. Novellae,* in CIC III.

29 - *Kitab Al-Unwan Histoire Uneversell Scrite Par Acapius "Mohboud de Men bid, Editee et tradurte en Francais par Alexander Visilier", Second Partie 11.*

30 - *Lives of the Eastern Saints,* ed. and trans. E. W. Brooks. in PO 17 -19 (Paris, 1923-5).

31 - Malalas ed. L. Dindorf, *Ioannis Malalae Chronographia* (CSHB Bonn 1831); Engl. translation: *The Chronicle of John Malalas.* A Translation, by E. Jeffreys, M. Jeffreys, R. Scott et al. (Byzantina Australiensia IV, Melbourne 1986).

32 - Maurice, *Strategikon Das Strategikon des Maurikios,* ed. G.T. Dennis, trans. E. Gamillscheg (CFGH XVII, Vienna, 1981).

33 - Maximus Confessor *Maximi Confessoris Relation Motionis,* in PGXC, 109 - 29.
Gesta in *Primo Eius Exsillio, in PGXC, 135-72*
Disputatio S. Maximi Cum Pyrrho, *in Mansi X, 709-60*
Maximi Confessor's Epistolae, *in PGXCI, 364-649.*

34 - *Menander Protector Menandri Protectoris Fragmenta,* in *Exc. de Leg. I, 170-221; II, 442-77.*

35 - Mischael Syr. *La Chronique de le Syrien, Patriache Jacobite d'Antioche* (4 vols., Paris 1889, 1901, 1905, 1924).

36 - *Miracula S. Demetrii* P. Lemerle, ed., *Les plus anciens recueils des miracles de S. Demetrius I: LE Texte* (Paris 1979); II: *Commentaire* (Paris 1981).

37 - Nicephorus *Breviarium, in Nicephori Archiepiscopi Constantinopolitani Opuscula Historica,* ed. C. de Boor (Leipzig 1880), 1-77.

38 - Nicephorus, Chron, *Chrnonographikon syntomon, in Nicephori Archiepiscopi Constantinopolitani Opuscula Historica,* ed. C. de Boor (Leipzig 1880), 79-135.

39 - *Notitia Dignitatuum Utrisque Imperii,* ed. O. Seeck (Leipzig 1876).

40 - Patrologia Greaka

41 - Patrologia Orientalis

42 - Procopius *Procopii Caesariensis Opera Omnia,* ed. J. Haury (3 vols., Leipzig 1905-13; revised edn. with corrections and additions by G. Wirth, 4 vols., Leipzig 1962-4.)

43 - Procopius, *De Bello Gothico, in Procopii Caesariensis Opera Omnia II*
De Bello Persico, in Procopii Caesariensis Opera Omnia I
De Bello Vandalico, in Procopii Caesariensis Opera Omnia I
Historia Arcana (Secret history), in PRocopii Caesariensis Opera Omnia III.
English Trans. by Dewing, in seven vols. London, 1914.

44 - *Rhodian Sea Law* ed. W. Ashburner, Nomos Rodion Nautikos *The Rhodian Sea-Law* (Oxford 1909 and Aalen 1976) (repr. in JGR II< 91-103).

45 - Sabatier 4 F. Macler, trans., *Sebeos, Histoire d'Heraclius* (Paris 1904).

46 - Theophanes *Theophanis Chronographia,* ed. C. de Boor (2 vols., Leipzig 1883-5)
English trans: by: Harry Turtledove, (Philadelphia, 1982.)

47 - Theophanes cont. Theophanes continuatus, Ioannes Caminiata, Symeon Magister, Georgius Monachus continuatus, ed. I. Bekker (CSHB, Bonn 1825), pp. 1-481.

48 - Theophylact Simocatta *Theophylacti Simocattae Histoire,* ed. C. de Boor (Leipzig 1887; ed. and corr. P. Wirth, Stuttgart 1972).

49 - Tolsoi, Monnaies Byzantines, 8 parts (St. Petersburg 1912-14).

50 - Whitting, 6 P. D. *Byzantine Coins,* (London, 1982).

51 - British Museum 2 Vols, (London 1908).

52 - Zacos, G. and Veglery, A., *Byzantine Lead Seals,* Vol. 1. Part 1-3, (Basel 1972).

53 - Zacos, G., Byzantine *Lead Seals.* Vol. 2, Nos. 1-1089, (Berne, 1984).

54 - Zonaras *Ioannis Zonarae Epitomae Historiarum Libri XII usque ad XVIII,* ed. Th. Buttner-Wobst (CSHB, Bonn 1897).

٢١ - المسـعـودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسـعـودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). مـروج الذهب، دار الاندلس، بيروت.
٢٢ - المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). التنبيـة والاشـراف، دار مكتبـة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.
٢٣ - المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت٨٤٥ هـ ١٤٤١م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار مكتبة الثقافة العربية القاهرة، الطبعة الثانية جزئين .
٢٤ - ابن منظور، محمد بن مكرم (٦٣٠ - ٧١١هـ). مختصر تاريخ دمشق، لابن عساكر تحقيق روحية النحاس ورياض عبدالحميد مراد ومحمد مطيع الحافظ، ثلاثة مجلدات دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤م.
٢٥ - النويرى، شـهـاب الدين أحـمد بن عـبـدالوهاب (ت ٧٣٣هـ - ١٣٣٣م). نهـاية الارب في فنون الادب، دار الكتب والوثائق، القاهر، ١٩٢٣م - ١٩٢٥م. ج ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٤٩.
٢٦ - الواقدى محمد بن عمر بن واقي (ت ٢٠٧هـ). كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جريس، الطبعة الثالثة، (بيروت ١٩٨٤م).
٢٧ - ياقوت الحموى، شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى (ت ٦٢٦-١٢٢٩م). معجم البلدان، دار احياء التراث بيروت.
٢٨ - اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٤٨٢ هـ - ٨٩٧م). تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت.
٢٩ - أبو يوسف، القاضي يعقوب بن ابراهيم الانصاري (ت ٢٨٢هـ - ٧٩٨م) الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٩٢هـ.

تصويبات ترتيب المصادر العربية

١ - القرآن الكريم

٢ - ابن الاثير، أبي الحسن على بن ابي الكرم محمد بن عبدالكريم الواحد الشيباني. الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي ط٢. (٦٣٠هـ / ١٣٣٢م).

٣ - اوراق البردى العربية، أوراق البردى العربية لدار الكتب المصرية، القاهرة، دار الكتاب ١٩٦٧م. خمسة مجلدات.

٤ - البلاذرى أحمد بن يحي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م). فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد بيروت ١٩٧٨م.

٥ - ابن تغرى بردى، جمال الدين ابو المحاسن، يوسف الاتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ / ١٤١٠-١٤٧٠م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٥٢هـ/١٩٢٣م.

٦ - ابن خردذابه، أبو القاسم عبيدالله بن أحمد الخراساني (ت ٣٠٠هـ/١٩١٢م). المسالك والممالك ونبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتاب لابي الفراج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادي، دار المدينة، طبع في مطبعة مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٨٨م.

٧ - ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٧٧م).

٨ - خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفرى (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م). تاريخ خليفه بن خياط، تحقيق: اكرم العمر، ط٢، بيروت ١٩٧٧م.

٩ - الدباغ، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الانصاري الدباغ. (٦٠٥-٦٩٦هـ). معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح ابراهيم شبوخ، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٦٨م.

١٠ - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). دول الاسلام - تحقيق فهيم محمد شلتوت ومصطفي ابراهيم - الهيئة المصرّية العامة للكتاب ١٩٧٤م، ١، ٢.

١١ - ابن الرقيق ابراهيم (ت حوالي النصف الأول من القرن الخامس). تاريخ افريقيا والمغرب، مخطوط تحت الدراسة.

١٢ - ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٨٤م). الطبقات الكبرى لابن سعد - بيروت)

١٣ - الطبرى، ابي جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٢م). تاريخ ا لرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم - دار المعارف - مصر ١٩٦٠م - ١٩٦٩م).

١٤ - ابن عبدالحكم، ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله (ت٢٥٧ - ٨٧٠هـ). فتوح مصر واخبارها مكتبة المثني البغدادي طبع في مدينة ليدن ١٩٢٠م.

١٥ - ابن عذارى أبو عبدالله محمد المراكشي، توفي حوالي نهاية القرن السابع الهجري. البيان المغرب في اخبار ملوك الأندلس والمغرب طبعة دون ج(١)، (٢) ليدن ١٨٤٨م.

١٦ - ابن عبدالبر، الحافظ يوسف بن عبد البر النمرى (٣٦٨-٤٦٣هـ). الدرر في اختيار المغازى والسير تحقيق الدكتور شوقي ضيف طبعة ٢ دار المعارف القاهرة.

١٧ - العسقلاني أحمد بن على بن حجر (٧٧٣ ٨٥٢) فتح البارى لشرح صحيح الامام عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى - الجزء الأول، نشر رئاسة ادارات البحوث العملية والافتاء والدعوة والارشاد - المملكة العربية السعودية.

١٨ - ابن كثير، عماد الدين ابي الفدا اسماعيل بن عمر (ت ١٣٧٢/٧٧٤م). البداية والنهاية، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠م.

١٩ - الكندى، محمد بن يوسف (ت ٤٥٠ -). تاريخ ولاة مصر - بيروت - ط١ ١٩٨٧م.

٢٠ - المالكي، أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله. (توفي في نهاية القرن الرابع الهجرى). رياض النفوس، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ.

المصادر العربية

١ - القرآن الكريم

٢ - ابن الاثير، أبي الحسن على بن ابي الكرم محمد بن عبدالكريم الواحد الشيباني. الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي ط٢. (٦٣٠هـ / ١٣٣٢م).

٣ - ابن تغرى بردى، جمال الدين ابو المحاسن، يوسف الاتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ / ١٤١٠-١٤٧٠م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٥٢هـ/١٩٢٣م.

٤ - ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيدالله بن أحمد الخراساني (ت ٣٠٠هـ/١٩١٢م). المسالك والممالك ونبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتاب لابي الفراج قدامه بن جعفر الكتب البغدادي، دار المدينة، طبع في مطبعة مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٨٨م.

٥ - ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٧٧م).

٦ - بن الرقيق ابراهيم (ت حوالي النصف الأول من القرن الخامس). تاريخ افريقيا والمغرب، مخطوط تحت الدراسة.

٧ - ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٨٤م). الطبقات الكبرى لابن سعد - بيروت)

٨ - ابن عبدالبر، الحافظ يوسف بن عبد البر النمرى (٣٦٨-٤٦٣هـ). الدرر في اختيار المغازى والسير تحقيق الدكتور شوقي ضيف طبعة ٢ دار المعارف القاهرة،

٩ - ابن عبدالحكم، ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله (ت٢٥٧ - ٨٧٠هـ). فتوح مصر واخبارها مكتبة المثني البغدادي طبع في مدينة ليدن ١٩٢٠م.

١٠ - ابن عذارى أبو عبدالله محمد المراكشي، توفي حوالي نهاية القرن السابع الهجري. ألبيان المغرب في اخبار ملوك الأندلس والمغرب طبعة دون ج(١)، (٢) ليدن ١٨٤٨م.

١١ - ابن كثير، عماد الدين ابي الفدا اسماعيل بن عمر (ت ١٣٧٢/٧٧٤م). البداية والنهاية، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠م.

١٢ - بن منظور، محمد بن مكرم المعروف بأبن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ). مختصر تاريخ دمشق، لابن عساكر تحقيق روحية النحاس ورياض عبدالحميد مراد ومحمد مطيع الحافظ، ثلاثة مجلدات دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤م.

١٣ - أبو يوسف، القاضي يعقوب بن ابراهيم الانصاري (ت ٢٨٢هـ - ٧٩٨م) الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٩٢هـ.

١٤ - البلاذرى أحمد بن يحي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م). فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد بيروت ١٩٧٨م.

١٥ - حميد الله، محمد. الوثائق السياسية للهند النبوي. والخلافة الراشدة، دار النفائس (ط ٥، ١٤٠٥م).

١٦ - الدباغ، أبو زيد عبدالرمن بن محمد بن عبدالله الانصاري الدباغ. (٦٠٥-٦٩٦هـ). معالم الايمان في معرفة أهل القيرون، تصحيح ابراهيم شبوخ، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٦٨م.

١٧ - دراركه، صالح موسي. مقدمات في فتح بلاد الشام. المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام(المجلد الثاني - ١٩٨٦م).

١٨ - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). دول الاسلام - تحقيق فهيم محمد شلتوت ومصطفي ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م، ١، ٢.

١٩ - زيتون، عادل. العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطي. (دمشق ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٢٠ - الطبرى، ابي جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٢م). تاريخ ا لرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم - دار المعارف - مصر ١٩٦٠م - ١٩٦٩م).

٢١ - طرخان، ابراهيم. دولة القوط الغربيين، القاهرة ١٩٥٨م.

٢٢ - عباس، احسان. فتح بلاد الشام، المؤتمر الدولي لرابع لتاريخ بلاد الشام المجلد الثاني، ١٩٨٧م.

٢٣ -العسقلاني أحمد بن على بن حجر (٧٧٣ ٨٥٢) فتح البارى لشرح صحيح الامام عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى - الجزء الأول، نشر رئاسة ادارات البحوث العملية والافتاء والدعوة والارشاد - المملكة العربية السعودية.

٢٤ - خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفرى (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م). تاريخ خليفه بن خياط، تحقيق: اكرم العمر، ط٢، بيروت ١٩٧٧م.
٢٥ - عمران، محمود سعيد. إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قنسطنطين السابع بور فيرو جينتوس، عرض وتحليل بيروت ١٩٨٠م.
٢٦ - عبدالعليم، مصطفى كمال. (دراسات في تاريخ ليبيا القديم) منشورات الجامعة ليبيا - بنغازى ١٩٦٦م.
٢٧ - عطية، جورج. الجدل الديني المسيحي الاسلامي لمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام - المجلد الثاني - ١٩٨٧م.
٢٨ - غراب، عبدالحميد. رؤية اسلامية للاستشراق، الرياض ١٤٠٨هـ.
٢٩ - الكندى، محمد بن يوسف (ت ٤٥٠ -). تاريخ ولاة مصر - بيروت - ط١ ١٩٨٧م.
٣٠ - عبدالوهاب لطفي. حولية ثيوفانيس مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الاموى المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الاول عمان ١٩٨٩م.
٣١ - اللميلم، عبدالعزيز محمد. حسان بن النعمان الغساني دوره في فتح بلاد المغرب ط ١، ١٤٠٥هـ.
٣٢ - المالكي، أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله. (توفي في نهاية القرن الرابع الهجرى). رياض النفوس، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ.
٣٣ - المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). مروج الذهب، دار الاندلس، بيروت.
٣٤ - المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). التنبية والاشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.
٣٥ - المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت٨٤٥ هـ ١٤٤١م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار مكتبة الثقافة العربية القاهرة، الطبعة الثانية جزئين .
٣٦ - مؤنس، حسين. فتح العرب للمغرب - القاهرة ١٩٤٧م.
٣٧ - مؤنس، حسين. فجر الاندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة، ١٩٨٥م.
٣٨ - فايز نجيب. ارمينية بين البيزنطين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الارمني جيفوند من ٦٣٢ - ٦٦١ الجزء الاول ١٩٨٢م.

٣٩ - النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ - ١٣٣٣م). نهاية الارب في فنون الادب، دار الكتب والوثائق، القاهر، ١٩٢٣م - ١٩٢٥م. ج ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٤٩.

٤٠ - الواقدى محمد بن عمر بن واقي (ت ٢٠٧هـ). كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جريس، الطبعة الثالثة، (بيروت ١٩٨٤م).

٤١ - ياقوت الحموى، شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى (ت ٦٢٦-١٢٢٩م). معجم البلدان، دار احياء التراث بيروت.

٤٢ - اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٤٨٢ هـ - ٨٩٧م). تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت.

٤٣ - اوراق البردى العربية، أوراق البردى العربية لدار الكتب المصرية، القاهرة، دار الكتاب ١٩٦٧م. خمس مجلدات.

SELECTED SECONDARY LITERATURE

1 - Allan Chester Johnson and Louis C. West, Byzantine Egypt Economic Studies Princeton, 1949.

2 - Ahrwiler, H. Byzance et la mer: la marine de guerre la polituque et les institutions maritime de byzance aux VIIe-XVe Sciecles (Paris, 1960).

3 - Altamira, Spain under the Visigoth in C.M.H. Vol. 2.

4 - Andre, M. Andreads, The Economic Life of the Byzantine Empire: Population, Agriculturre, Industry, Commerce. In Byzantium, ed. by Norman H. Baynes and Mos,(Oxford, 1948).

5 - Barry Baldwin, Four problems in Agathias, 1 - Where did Agathias study law? Bz. 70 (1977).

6 - Baynes, Norman, Byzantium. An Introduction to the Roman Civilization, edited by: Baynes and Moss, Oxford, 1948.

7 - Baynes, The Successors of Justinian, in C.M.H. Vol. 2.

8 - Baynes, N., "The Emperor Heraclius and the Military Theme System", English Historical Review, LXVII (1952), pp. 380-81.

9 - Baynes, Norman, H. & Moss, (Editors), Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization, "Oxford, 1948".

10 - Brehier, L., Lew Institutions de l'Empire Byzantin. E.D.H. 32. bis.(Paris, 1949).

11 - Brooks,E. W. The Arabs in Asia Minor (641-759) from Arabic sources, JHS 18 (1898), 182-208.

12 - Brooks, E. W., The Successors of Heraclius to 717 in "C .M .H, Vol. 2".

13 - Brooks, "Arabic Lists of the Byzantine Themes, in Journal of Helenic Studies, Vol. XXI, 1901.

14 - Brooks, The Brothers of the Emperor Constantine IV", English Historical Review, XXX (1915), pp. 445-59.

15 - Brooks. The Expansions of the Saracens, in: C.M.H., Vol. 2.

16 - Brown, T. S. Gentlemen and Officers. Imperial Administration and Aristocratic Power in Byzantine Italy. A.D. 554-800 (Rome 1984).

17 - Brown, T. S., "The Church of Ravenna and the Imperial Administration in the seventh century, EHR 94 (1974), 1-28.

18 - Browning, R. The Byzantine empire,(London, 1980).

19 - Browning ed. a Mofat (Byzantina Australiasia) Camberra (1984).
20 - Bury, J. B. A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I (802-67), London, 1912.
21 - Bury, J. B., The Imprial Administrtive System in the ninth Century, with a revised of the Kletorologion of Philotheos (British Academy Suppl. Papers, I, London 1911).
22 - J. B. Bury, The history of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene 2 vol. London, 1989.
23 - Cachesene, L., Histoire Ancinne del Eglise vol. 3,(Paris 1923).
24 - Cameron, Averial "Byzantine Africa - the literary evidence", in University of Michigan Excavations at Carthage VII (1982), pp. 29-62.
25 - Cameron Averil Agaithias, (Oxford, 1970). Cameron Averil, Where did Agathias study Law? in: B.Z. 70 (1977) 295-298.
26 - Cameron, A.D.E. The last days of the Academy at Athens, Cambridge (1969).
27 - Cantor, Norman, Medieval History. "The life and death of the Civilization (London, 1963).
28 - Charanis, P. "Ethnic changes in the Byzantine Empire in the seventh century", DOP 13 (1959), 23-44.
29 - Charanis, P. "Observations on the demography of the Byzantine empire", in XIII International Congress of Byzantine Studies, Main Papers XIV (Oxford 1966), pp. 1-19.
30 - Charanis, P. "The monk as an element of Byzantine society", DOP 25 (1971), 61-84.
31 - Charanis, P. The transfer of population as a policy in the Byzantine Empire", Comparative Studies in Society and History 3 (The Hague 1961), 140-54.
32- Charlesworth M.P., Trade Routes and commerce of Roman Empire, "Reprinted of the edition (Cambridge 1924), by arrangement with Cambridge University Press, England.
33 - Cheira, M.A., La lutre entre Arabeset Byzanthines, Alexandire, 1947.
34 - Christides, V., The Coastal Town of Bilad Al-Sham at the time of the Rachidun., (Lenkosia, 1988).
35 - Dachesene, Historie Ancinne del; Eglise Vol. 3, Paris, 1923.

36 - Christides, V., The Naval Engagement of Dhat As-Sawari. AZ.H. 3 VI/A.D. 655-656 in Byzantina, Tomos, 13, Thessalonike, 1985.
37 - Davis, R. 11., Medieval Europe,(Hong Kong, 1974).
38 - Diehl, Ch. L'Afrique byzantine: histori e de la domination byzantine en Afrique (533-709) (2 Vols. Paris 1896).
39 - Diehl, Charles, Byzance, Grandeur Dacadence, Paris, 1914.
40 - Diehl, Justinian, The Imperial Restoration in the West in: C.M.H. Vol. 2.
41 - Diehl, Ch., Etudes Byzantines (Paris, 1905).
42 - Diehl, Ch., "L'Origine du regime des themes dans l'empire Byzantin", Etudes Byzantines, (Paris, 1905).
43 - Diehl, Jistinian's Government in the East, in: C.M.H. Vol. 2.
44 - Dolger, Fr., "ZurAbleitung des Byzantinischen Verwaltungsterminus Thema", in: Historia Vol. 5, 1955.
45 - Ddomulin, The Kingdom of Italy under Odovacar and Theodoric in: C.M.H. Vol. 1.
46 - Dovornik, Lavie de Saint Gegoire le Decapolite (Paris, 1926).
47 - Drako, E., Influence Tourainiennes sur l'evolution de l'art militaire des Grecs, des Romains et des Byzantins. B 10 (1935) and B. 12 (1937).
48 - Drako, La Peuple Nomades, Cavaliers dans la transformation de l'impire romain aux premieos siecles du Moxen Age, B. 18 (1948).
49 - Dvornik, F. Early Christian and Byzantine Political Philosophy, 2 Vols. (Washington D.C. 1966).
50 - Esslin, W., The Emperor and the Imperial Administration. In: Byzantium by Baynes and Moss, (Oxford, 1948).
51 - Ensslin, Government and Administration in the Byzantine Empire in C.M.H. Vol. 4, part 2.
52 - Finlay, G. History of the Byzantine Empire, (Plymouth 1906).
53 - Finlay, George. History of the Byzantine Empire, 1906.
54 - Foord, E., The Byzantine Empire, (London, 1911).
55 - Foss, C. "Archaeology and the "Twenty Cities" of Byzantine Asia", American Journal of Archaeology 81 (1977), 469-86.
56 - Franke, G. Questions of Agalthiae, Breslaw, 1914.
57 - Fyre, R.N., Iran under the Sasanians, in:C.H. of Iran, Vol. 3.
58 - Haldon, J. F., Byzantine Praetorians: An administrative, Instutitional and Social Survey of the Opsikion and Tagmata, c. 580-900 (Poikila Byzantina III, Bonn and Berlin 1984).

59 - Haldon, J. F., "Some Remarks on the background to the iconoclast controversy", BS 38 (1977), 161-84.
60 - Haldon, J. F., Byzantium in the Seventh Century, Cambrigem 1990.
61 - Hartmann, Imperial Italy and Africa, Administration, in: C.M.H. Vol. 2.
62 - Hartman, government and Administration, in: C.M.H. Vol. IV.
63 - Hendy, M.F. "On the administrative basis of the Byzantine coinage, C. 400-900, and the reforms of Heraclius", Birmingham University Historical Journal 12/2 (1970), 129-54.
64 - Hendy, M. F. studies in the Byzantine Monetary Economy, 300-1450 (Cambridge 1985).
65 - Henri Pirenn, Economic and Social History of Medieval Europe (London, 1972).
66 - Henri, Pirenne, Medieval Cities, Third Edition., Pricenton University Press, 1974.
67 - Henryk Kupiszewski, Le Droit Hellenistique Dans le Nomos (Georikos) in: The Journal of Justice Papyrology, Vol. XVI-XVII, Warsaw, 1971.
68 - Hodgkin, Thomas, Italy and Her Invaders, 8 Vols. 2nd Ed. "London, 1919".
69 - Howard, J. D. Johnston, Thema in: Maistor, Classical Byzantine and Renaissance Studies for Robert.
70 - Hunger, H. Die hochsprachliche profane Literatur der Byzantiner (2 vols., Handbuch der Altertumswissenschaft, XII, 5.1 and 2 = Byzantinisches Handbuch, 5.1 and 2, Munich 1978).
71 - Jenkins, R., Byzantium, the Imperial Centuries, 1001-1071, London, 1966.
72 - Jones, AH.M. "Capitatio and iugatio", JRS. 47 (1957), 88-94 (repr. in A.H.M. Jones, The Roman Economy, pp. 280-92.
73 - Jones, A.H.M. The Greek City from Alexander to Justinian (Oxford 1940).
74 - Jones, A.H.M. The Later Roman Empire 284-602: A Social, Economic and Administrative Survey (3 Vols, Oxford 1964).
75 - "The Roman Colonate", pp. 13 (1958), 1-13 (repr. in A.H.M. Jones, The Roman Economy, pp. 293-307.
76 - The Roman Economy: Studies in Ancient Economic and Administrative History, ed. P.A. Brunt (Oxford 1974).
77 - Jones, A.M., the cities of the Eastern Roman Provinces, 2nd Edition. (Oxford, 1971).

78 - Kaegi, W.E. Jr. Byzantine Military Unrest 471-843: An Interpretation (Amsterdam, 1981).
79 - Kaegi, W. E. Jr. "Two Studies in the continuity of late Roman and early Byzantine militry institutions" BF 8 (1982), 84-113.
80 - Karayannapoulos, J. Das Finanzwesen des fruhgyzantinischen States (Sudosteuropaische Arbeiten, Munich 1958).
81 - Karayannopoulos, J. Die Entstehung der byzantinischen Thermenordnung (Byzantinisches Archiv X, Munich 1958).
82 - Karayannopoulos, J. "Fragmente aus dem Vademecum eines Byzantinischen Finanzbeatmen". in Polychronion, Festschrift Franz Dolger zum 75. Geburtstag (Heidelberg 1966), pp. 317- 33.
83 - Kazdan, A. and G. Constable, People and Power in Byzantium: An Introduction to Modern Byzantine Studies (Washington D.C. 1982).
84 - Kyriakides, St., How the word theme came to mean a Military Zone, in: E.E.B.Z, n. 23, Athens, 1953 "In Greek".
85 - Lemerle, P. "Esquisse pour une historie agraire de Byzance: les sources et less problems", RH 219 (1958), 32-74, 254-84; RH 220 (1958), 429-94, (See now the revised version in English, published as The Agrarian History of Byzantium from the Origins to the Twelfth Century: The Sources and the Problems (Galway 1979).
86 - Lamerle, Quelques remaroues sur le Regne D'Heraclius, Studi Medieval, 3"Serie I Spoleto (1960).
87 - Lilie, R. J. Die Byzantinische Reaktion auf die Ausbreitung der Araber (Miscellanea Byzantina Monacensia XXII, Munich 1976).
88 - Lopez, Byzantine Law in the Seventh Century and its Reception by the Germans and the Arabs. in: Byzantion, CVI (1942-3).
89 - Lopez, Robert Sbatino, Byzantine law in the Seventh Century and its Reception by the Germans and the Arabs, Byzantion XVI (1942-3) Boston, Mas, 1944.
90 - Lopez, Robert Sabatino, Silk Industry in the Byzantine Empire Speculum XX. Cambridge Mas, 1945.
91 - Lopez, Robert Sabatino. The Dollr of the Middle Ages, Journal of Econoic History XI. New York, 1951.
92 - Lopez, Robert Sabatino, The Role of Trade in the Economic Readjustment of Byzantium in the Seventh Century in: D.O.P.XIII (1959).

93 - Mango, C. "Antique statury and the Byzantine beholder", DOP 17 (1963), 53-75 (repr. in C. Mango, Byzantium and its Image V).

94 - Mango, C. Byzantium and its Image (London (1984).

95 - Mango, C. "Who wrote the Chronicle of Theophanes?" ZR VI 18 (1978), 576-87 (repr. in C. Mango, Byzantium and its Image XI).

96 - Mansi, J., Sacrorum Conciliorum ova et amplissima Collectio Cvinice, 1770, Vol. 2.

97 - McCall, R.C., The Earthquake of A.D. 551 and the birth-date of Agathias, GR.BS.8 (1967) 241-247.

98 - McCal, R. C. Poetic Reminiscene in the "Hisoties of Agathias, Byz, 38, (1968), 563-565.

99 - Moss, H. St. L. B., Economic Consequences of the Barbarian Invaders, in: The Pirenne Thesis, Analysis, Criticism. Edited by: Havighurst, Alfred. "London, 1964".

100 - Nicolas Oikonomides, Une Liste Arabe De Strateges Byzantines Du VII Siede et Les Origines Des Theme De Sicile, Rivista Studi Byzantine Neollenici, N. S. I (XI), Rome, 1964.

101 - Oikionomides, N. Les Listes de preseance byzantines des IXe-Xe siecles (Paris 1972).

102 - Oikinomides, N. "Les Premiers mentions des themes dans le chrnoique de Theophane", ZR VI 16 (1675), 1-8).

103 - Oikinomides, N. "Midle Byzantine provincial recruits" Salary and armament' in Gonimos, Neoplatonic and Byzantine studies presented to Leendert G. Westerink at 75 eds. J. Duffy and J. Peradotto (uffalo, N.Y. 1988).

104 - Oikinomides, N. Silk trade nd prodution in Byzantium from the sixth to the ninth century: the seals of kommerkiarioi:,DOP 40 (1986), 33-53.

105 - Oman, Ch. History of the Byzantine Empire, New York, 1982.

106 - Oman, C.W.C. The art of war in the Middle Ages, A.D. 378-1515, (New York, 1953).

107 - Oman, Sir Charles, The Dark Ages, 470-918, (L. 1962).

108 - Ostrogorsky G. "Byzantine cities in the early middle ages", DOP 13 (1959), 47-66.

109 - Ostrogorsk, G. Geschichte des Byzantiinischen States (Handbuch der Alterumswissenschaft, XII, 12-Byzantinisches Handbuch, 1,2. Munich 1963).

110 - Ostrogorsky,History of the Byzantine State, translated from the German by Joan Hussey, (First Paperback edition), 1980.

111 - Ostrogorsk, G., The Byzantine Empire in the World of the Seventh Century. in: D.O.P. 13 (1959).

112 - Pertusi, A., "La Formation des Themes Byzantins, in: Berichtezum XI Intern. Byzant. Kongress, (Munich, 1959).

113 - Pringle, D. The Defence of Byzantine North Africa from Justinian to the Arab Conquest (British Arhaelogical Reports, Int. Series 99, Oxford, 1981).

114 - Procopius and the Sixth Century (London, 1985).

115 - Rambaur, A., L"Empire Grec au Xemme Siecle [Paris, 1870].

116 - Reid, J. s., "The Reorganization of the Empire, in: C.M.H. Vol. 1.

117 - Rickman, The Corn Supply of Ancient Rome, Oxford, 1980.

118 - Roberts, P. "The Pirenne Thesis: Economics of civilizations Toward Reformulation", CM 25 (1964), pp. 297-315.

119 - Romily Jenkins, Byzantium: The Emperial Century, A. D. 616-1071, London, 1966.

120 - Sabatier, J., Description generale desmonnaies Byzantines, 2 Vols, (Paris, 1862).

121 - Sahas, D. John of Damascus on Islam. The "Heresy" of the Ismalelites (Leiden 1972).

122 - Shahid, I., Heraclius Pistosen, Christen Basisleus, in D.O.P. 34-35 (1982).

123 - Scheltema, H. J., "Byzantine Law", CMH, IV, Pt.2 (1967), pp. 55-77).

124 - Schmidts, Ludwig, The Sucves, Alan, and Vandals in Spain, 409-429. The Vandal Dominion in Africa, 420-533. In: Cambridge Mediveal History, Vol. 1.

125 - Shahid, I., "Heraclius and Theme System" Ne wlifht from the Arabic Byzantion 61 (1987).

126 - Shahid, I., "Heraclius the Theme System, Further Observation, Byzantion 69, (1989).

127 - Stein, E. "Ein Kapitel vompersischen and vom Byzantinishen State". BNJ 1 (1920), 50-89.

128 - Stein, E., Studien zur Geschichte des Byzantinicschen.
129 - Stratos, N. A. Byzantium in the Seventh Century (Eng. trans.), Vol. 1: 602-34.
130 - Stratos, A. N. (Amsterdam (1986); Vol. II: 634-41.
131 - Stratos, A. N. (Amsterdam 1972); Vol. III: 642-68.
132 - Stratos, A. N. (Amsterdam 1978); Vol. V: 686-771.
133 - Teall, J. The Byzantine tradition", DOP. 25, (1971), 34-59.
134 - Teall, J. "The grain-supply of the Byzantine Empire", DOP 13 (1959), 87-139.
135 - Thomas, Jak the institutes of Justinian, Text Translation and Comentray (Oxford, 1975).
136 - Toynbee, A., Constantine Porphyrogenius and His World (London, 1973). A study of History, (Oxford, 1972).
137 - Van Milligen, A., Byzantine Constantinople: The Wall of the City and Adjoining historical Sites, London, 1957).
138 - Vasilieve, A. A. History of the byzantine Empire 324 - 1453. Vol. 1, The University of Wisconsin Press, (1957).
139 - Vinogradoff, Sir Paul, Foundations of Society "Origins of Feudalism" in: Cambridge Medieval History, Vol.2.
140 - Zacharia von Lingenthal, C. E. Geschichte des griechisch-romischen Rechts (third edn. Berlin 1892 and 1955).

المراجع العربية والمعربة:

١ - **أحمد، عبدالقادر**: الامبراطورية البيزنطية المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٦م.

٢ - **أبوزيد سهام مصطفى**: الحسبه في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٦م).

٣ - **اسكندر، توفيق**: بحوث في التاريخ الاقتصادي،(القاهرة ١٩٦١م).

٤ - **أغناطيوس يواليا نوفتتس كراتشكوفسكى**: تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ط٢ (بيروت ١٩٨٧م).

٥ - **بدوي، على**: أبحاث التاريخ العام للقانون، القاهرة - (بدون تاريخ)

٦ - **بيرنا، حسن**: تاريخ إيران القديم - ترجمة محمد نور الدين والسباعي محمد الساعي القاهرة (بدون تاريخ).

٧ - **توفيق، عمر كمال**: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار المعارف (مصر ١٩٧٩م).

٨ - **جب، هاملتون**: دراسات ف حضارة الاسلام، ترجمة احسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين،(بيروت ط٣، ١٩٧٩م).

٩ - **جيبون، ادوارد** : اضمحلال الامبراطور الرومانية وسقوطها ثلاثة أجزاء: ترجمة أحمد نجيب هاشم. والجزء الثاني ترجمة لويس اسكندر ومراجعة احمد نجيب هاشم الجزء الثالث ترجمة محمد سليم سالم. القاهرة (بدون تاريخ).

١٠ - **الجنزوري، عليه**: الثغور البريه الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية (١٩٧٩م).

١١ - **جوليان، شارل لاندري**: تاريخ شمال افريقيا ، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر (١٩٦٩م).

١٢ - **حتى، فيليب**: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، نشر دار الثقافة (بيروت ١٩٥٩م).

١٣ - **حسن ابراهيم حسن**: تاريخ الاسلام، ٤ مجلدات،(القاهرة ط ٧ - ١٩٦٤م).

١٤ - **حمادة، محمد ماهر**: الحضارة العربية: نشأتها وتطورها وآثرها، دار الكتاب العربي، القاهرة، (١٩٦٧م).

١٥ - **الحموى، محمد ياسين**: تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقي، دمشق.

١٦ - **حميد الله، محمد**. الوثائق السياسية للهند النبوي. والخلافة الراشدة، دار النفائس (ط ٥، ١٤٠٥م).

١٧ - **الحويري، محمود** : رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية: القاهرة ١٩٨٢م.

١٨ - **داركه، صالح موسي**. مقدمات في فتح بلاد الشام. المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام(المجلد الثاني - ١٩٨٦م).

١٩ - **ربيع، حسنين**: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٣م.

٢٠ - **رانسيمان**: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيد جاويد وزكي على، القاهرة ١٩٦١م.

٢١ - **رستم، اسد**: الروم، ط ١، بيروت ١٩٥٥م، جزءان.

٢٢ - **الروبي، أمال**: مصر في عهد الرومان، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٣ - **روستوفتزف**: تاريخ الامبراطورة الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، جزءان، مكتبة النهضة المصرية ترجمة زكي على ومراجعة زكي على ومراجعة محمد سليم سالم، (بدون تاريخ).

٢٤ - **زناتي، محمود سلام**: نظم القانون الروماني - (القاهرة ١٩٦٦م).

٢٥ - زيتون، عادل. العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطي. (دمشق ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٢٦ - **سونيا. ى. هاو.**: في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٥م.

٢٧ - **الشيخ، محمد محمد مرسي**: الممالك الجرمانية في أوروبا العصور الوسطى. الاسكندرية ١٩٧٥م.

٢٨ - **الشيخ محمد محمد مرسي**: دولة الفرنجة وعلاقاتها بالامويين في الاندلس حتى اواخر القرن العاشر الميلادي. الاسكندرية ١٩٨١م.

٢٩ - **طرخان، ابراهيم**. دولة القوط الغربيين، القاهرة ١٩٥٨م.

٣٠ - **عاشور، سعيد عبد الفتاح**: أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة المصرية ١٩٨٥م.

٣١ - **عباس، احسان**. فتح بلاد الشام، المؤتمر الدولي لرابع لتاريخ بلاد الشام المجلد الثاني، ١٩٨٧م.

٣٦ - **عبدالحميد، رأفت**: الدولة والكنيسة، جـ ٢، دار المعارف ط٢، القاهرة ١٩٨٢م.

٣٢ - **عبدالعليم، مصطفى كمال**. (دراسات في تاريخ ليبيا القديم) منشورات الجامعة ليبيا - بنغازى ١٩٦٦م.

٣٣ - **عبدالوهاب لطفي**. حولية ثيوفانيس مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الاموى المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الاول عمان ١٩٨٩م.
٣٤ - **عبيد، اسحق**: من آلارك إلى جستنيان ط١ القاهرة ١٩٧٧م.
٣٥ - **عبيد، إسحق**: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسه في مدينه الله. القاهرة ١٩٧١م.
٣٦ - **عثمان، فتحي**: الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، دار الكاتب العربي، القاهرة، (بدون تاريخ).
٣٧ - **العدوى، ابراهيم احمد**: الأمويون والبيزنطيون، ط٢، الدار القومية للطباعة والنشر.
٣٨ - **العريني، السيد الباز**: الدولة البيزنطية ٣٢٢-١٠٨١، دار النهضة، بيروت ١٩٨٢م.
٣٩ - **العسلي، بسام**: فن الحرب في الاسلام، ثلاث مجلدات بيروت، ١٩٨٨م.
٤٠ - **عطية الله، أحمد**: القاموس الاسلامي، ٥ مجلدات.
٤١ - **عطية، جورج**. الجدل الديني المسيحي الاسلامي لمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام - المجلد الثاني - ١٩٨٧م.
٤٢ - **علي الغمراوي**: مدخل الى دراسة التاريخ الاوروبي الوسيط، ط٢ القاهرة ١٩٧٧م.
٤٣ - **عمران، محمود سعيد**: معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار النهضة، بيروت ١٩٨١م.
٤٤ - **عمران، محمود سعيد**: مملكة الوندال في شمال افريقيا، الاسكندرية ١٩٨٥م.
٤٥ - **عمران، محمود سعيد**. إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قنسطنطين السابع بور فيرو جينتوس، عرض وتحليل بيروت ١٩٨٠م.
٤٦ - غراب، عبدالحميد. رؤية اسلامية للاستشراق، الرياض ١٤٠٨هـ.
٤٧ - **فازلييف**: العرب والروم، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة، دار الفكر العربي.
٤٨ - فايز نجيب. ارمينية بين البيزنطين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الارمني جيفوند من ٦٣٢ - ٦٦١ الجزء الاول ١٩٨٢م.
٤٩ - **فرج، وسام عبدالعزيز**: العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الهيئة العامة للكتاب (الاسكندرية ١٩٨٢م).
٥٠ - **فرج، وسام**: دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية، البيزنطية، الاسكندرية ١٩٨٢م.
٥١ - **فرج، وسام**: الامبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ - ١٠٢٤ الاسكندرية ١٩٧٩م.
٥٢ - **فرج، وسام**: الدولة والتجارة في العصر البيزنطي الاوسط (من القرن السابع وحتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي - جامعة الكويت - حوليات كلية الاداب - الحولية التاسعة الرسالة الثالثة والخمسون - الكويت ١٩٨٨م.

٥٣ - **فرج، وسام**: أضواء على مجتمع القسطنطنية - دراسة في التاريخ الاجتماعي لمدينة قسطنطين - جامعة المنصورة - جامعة برالين.
٥٤ - **فرج، وسام**: السلاف في شبة جزيرة البلقان ، مقالة مستخرج من المجلة التاريخية المصرية القاهرة ١٩٨٤م.
٥٥ - **فهمي، نعيم زكي**: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.
٥٦ - **فيشر، هـ. أ.ل.**: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة (بدون تاريخ).
٥٧ - **الكندي، محمد بن يوسف** (ت ٤٥٠). تاريخ ولاة مصر - بيروت - ط١ ١٩٨٧م.
٥٨ - **لويس، أرشيبالد**: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ٥٠٠ - ١١٠٠م، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة، اقاهرة.
٥٩ - **ماهر، سعاد**: البحرية في مصر الاسلامية، القاهرة ١٩٧٦م.
٦٠ - **مؤنس، حسين**. فتح العرب للمغرب - القاهرة ١٩٤٧م.
٦١ - **مؤنس، حسين**. فجر الاندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة، ١٩٨٥م.
٦٢ - **مؤنس، حسين**: المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط الى الحروب الصليبية، مستخرج من المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١م.
٦٣ - **مختار العبادي وعبدالعزيز سالم**: البحرية الاسلامية في مصر والشام القاهرة ١٩٨١م.
٦٤ - **موس، هـ**: ميلاد العصور الوسطى ٤٩٥ - ٤١٨ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد القاهرة ١٩٦٧م.
٦٥ - **مدونه جستنيان في الفقه الروماني**: ترجمة عبدالعزيز فهمي - عالم الكتب بيروت (بدون تاريخ).
٦٦ - **نينافتكرفنا بفوليسكيا** : العرب على حدود بيزنطه وايران من القرن الرابع إلى السادس الميلادي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. الكويت ١٩٨٥م.
٦٧ - **الكرملي، أنستاس**: النقود العربية الاسلامية وعلم النميات، ط ٢ مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
٦٨ - **هايد، ف**: تاريخ التجار في الشرق الادني في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.
٦٩ - **هسي، ج. م.**: العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبدالحميد دار المعارف، ط٣، ١٩٨٤م.
٧٠ - **هادريل، والا**: اوروبا في صدر الوسطى ٤٠٠ - ١٠٠٠م. ترجمة حياة ناصر الحجي - الكويت ١٩٧٩م.

٧١ - **يوسف، جوزيف نسيم**: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شاب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٣م.
٧٢ - **يوسف، جوزيف نسيم**: تاديخ أوروبا في العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها - الاسكندرية ١٩٨٤م.
٧٣ - **يوسف، جوزيف نسيم**: تاريخ الدولة البيزنطية ٢٨٤ - ١٤٥٣ الاسكندرية ١٩٨٤م.
٧٤ - **يوسف، جوزيف نسيم**: الاسلام والمسيحية وصراع الصفوي بينهما في العصور الوسطى - دار الفكرالجامعي (بدون تاريخ).

دوائر معارف

1 - Encyclopedia Britanica
2 - Encyclopedia Americana
3 - The Oxford Dictionary of Byzantium, 3 Vol. (Oxford, 1991). E. Kazdhan.
4 - Dictionary of The Middle Ades

اطالس

1 - Colin Mecrely, the Penguin Atlas of Medieval History.
2 - Harry W. Hazard, Atlas of Islamic History.

الملاحق

الملخص

الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي / الأول الهجري دراسة في التطورات والتغييرات.

نتناول هذه الرسالة دراسة التطورات والتغييرات في الامبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي / الأول الهجري. وهذه الفترة الزمنية لها اهميتها في تاريخ الامبراطورية البيزنطية. إذ تعرضت فيها الامبراطورية لمصاعب جسام. ولكنها استطاعت ان تمر من تلك الازمة التي كادت ان تقضى على قوتها وعلى مقومات الحياة الحضارية فيها. وذلك بفضل مرونة تفكير القائمين عليها، الذين قاموا بالكثير من التغييرات في الانظمة والاجهزة القائمة بما يتلائم مع الظروف التي تمر بها البلاد.

والتغييرات والانظمة التي لجأ اليها حكام بيزنطة في القرن السابع لم تكن وليدة القرن السابع نفسه بل ضربت بجذورها في القرن السادس وربما قبل ذلك. ففي النواحي السياسيه نجد أن الاباطرة تحولوا من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع وذلك خوفا ورهبة من القوة الاسلامية الفتية التي أستطاعت ان تستولى على أغنى الولايات الشرقية الا وهى بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا. كما أغار جماعات السلاف والافار والبلغار على شبه جزيرة البلقان من جهة واللمبارديون على شمال ايطاليا من جهة اخرى وتقلصت حدود الأمبراطورية وتمثلت في حدودها الممتدة من آسيا الصغرى والاجزاء الساحلية من شبه جزيرة البلقان والاجزاء الجنوبيه والساحلية من ايطاليا وازاء هذا التقلص في حدودها كانت بيزنطة مضطره إلى القيام بتغيرات إداريه كبيرة. وتنقسم التغييرات الادارية إلى قسمين القسم المدني والذي شمل الوظائف المدنيه والمالية.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الحاجة الى مصدر للدخل كانت السبب الرئيسي وراء إعادة التنظيم الإداري للدوله وأن التغييرات التي حدثت كانت تدريجية وتمثلت في احلال أنظمة جديدة لتحل محل الانظمة القديمة تمشيا مع متطلبات الوقت والظروف الراهنة. ومنذ عهد الامبراطور هرقل خضع النظام الإداري كله إلى تحويل أو تغيير. والتغيير سلك طريقتين الأولى منهما أن الادارة في كل المناطق أعيد تنظيمها حيث قسمت المناطق إلى عدد من المناطق العسكرية أو الثيمات. والمناطق التي تحولت إلى

ثيمات هي التي تمثل فيها التغيير الإداري العسكري. وأن السياسة الدفاعيه التي لجأت اليها الدولة كانت السبب المباشر وراء هذا التغيير الاداري العسكري الجديد حيث وضعت المناطق المتأخمة لاراضي العدو تحت قيادة قائد عسكري يحمل في يده السلطتين العسكرية والمدنية ويسمى Strategos والجنود الذين عملوا في الثيمات كانوا جنوداً وطنيين حلوا محل الجنود المرتزقه وتملكوا الارض مقابل الخدمة العسكرية ان السلطة التي وضعت في يد القائد العسكري لم تكن جديدة فقد عرفها النظام الروماني منذ عهد جستنيان الأول وعلى يد الامبراطور موريس مستحدث نظام الارخونيا من بعده كذلك نظام تملك الاراضي للجند لم يكن تقليداً جديدا بل هو تقليد لنظام روماني قديم هو نظام الليناني. وبذلك يمكننا القول بأن نظام الثيمات وضع حداً نهـئيـا للنظام الاداري الذي وضعه كل من دقلديا نوس وقسطنطين ولكنه في نفس الوقت تطورا من النظام الروماني القديم Limitanie ونظام الارخونيه حيث ان قائد الثيمات في يديه السلطتين المدنيه والعسكرية وان الجنود الذين عملوا في الثيمات حصلوا على الارض مقابل الخدمة العسكرية.

لقد رفع الامبراطور هرقل نواة نظام الثيمات وأن كل أباطرة القرن السابع شاركا في تطويره حتى أخذ الشكل والملمح المميز. وهذا النظام هو نفسه الذي أعطى للقرن السابع ملمحًا بارزا ميزه عن غيره من القرون البيزنطية السابقة واللاحقة.

لقد كانت بيزنطة في حالة اقتصادية سيئة في مستهل القرن السابع في الوقت الذي اجتاح الفرس معظم مناطقها أو ولاياتها الشرقية الغنية ولم تكن قادرة على خوض معركة لاسترداد تلك الولايات لولا وقوف الكنيسة إلى جانب الدولة التي وضعت أموالها تحت تصرف الدولة ولكنها منحة على شكل دين يجب على الدولة ردها. مما أثقل كاهل الدولة والسكان.

أن لظروف الحرب المستمره في القرن السابع آثارها في الكثافة السكانية ولكن لجأت الدولة إلى عملية نقل السكان وتوطينهم في الاماكن المهجورة . ويعتبر المؤرخون أن التغيير الهام الذي طرأ على الأمبراطورية في القرن السابع. والحدث الاكبر هو هجرة السلاف الى البلقان باعداد غفيرة ونقل اعداد كبيرة منهم إلى آسيا الصغرى لإعادة أعمار المناطق التي أقفرت من سكانها في حد ذاتها ثورة ديمغرافية ترتب عليها نتائج بعيدة المدى.

لقد استمرت المدن في القرن السابع كمراكز إدارية وعسكرية ومراكز دينية وارتبط

بالمدن النشاط التجاري الذي توقف نجاحه على موقع المدن الجغرافي وخصوصا الموانيء. وقد أستمرت التجارة في القرن السابع كنشاط اقتصادي وبزغ نجم التاجر البحار. كما تبادلت بيزنطة التجارة مع جيرانها وبالأخص المسلمين الذين كانوا في حاجة اليها وكانت حاجتها لبضائعهم ماسة.

وبرز استخدام الأختام في القرن السابع في النشاط التجارى كظاهرة عامة وذلك من قبيل التشديد في المراقبة من قبل الدولة على الأنشطة الاقتصادية.

ان احتياجات الدولة كانت السبب المباشر وراء التشديد في تحصيل الضرائب وفي استحداث ضرائب جديدة مثل ضريبة السكن وفرض الضريبة الجماعية والضرائب العينية. وحصلت الدولة على الضرائب من الفلاحين مباشرة كما أنها شجعت الزراعة والمزارعين وذلك عن طريق تمليك الأرض للجنود من جهة وعملية نقل السكان وخصوصا السلاف الذين كانوا مزارعين مهرة إلى الأرض المهجهورة من جهة أخرى. كما أعتمدت الدولة على تركيز ومساعدة صغار الملاك والمرزارعين المستقلين وهذا التغيير الذي أصبح قوة دافعة لتطوير الاقتصاد الزراعى.

وخضعت العمله البيزنطيه لعدد من التغيرات حيث تمثل التغيير الأول في إدارة دور سك العملة التي خضعت لمركزية شديدة. أما التغير الثاني فظهر على النقوش التي مثلت ميل أباطرة تلك الفترة إلى عمل ملكية وراثية وذلك باشراك أبنائهم معهم في الملك ونقش ذلك على العمله. ولكن تميز القرن السابع بالرغم من كل مشاكله بثبات وزن العملة وقوتها الشرائية. هذا بالإضافة إلى ظهور الحروف اليونانية عليها بدلا من اللاتينية.

لقد أصبحت اللغة اليونانية هي لغة الدولة الرسمية بدلا من اللغة اللاتينية ويرى المؤرخون ان ذلك التغيير أقدم عليه الامبراطور هرقل من أجل أرضاء الكنيسة. حيث كانت اللغة اليونانية هي لغة الكنيسة وأصبحت اليونانية هي لغة الكتابة السائدة الرسميه للدولة. واستعمال اللغة اليونانية هو الذي لعب الدور الرئيسي في الفصل بين الغرب اللاتيني والشرق اليوناني. وبذلك تكون بيزنطة قد انتقلت في القرن السابع من العصور القديمة إلى العصور الوسطى.

Byzantium In The Seventh Century
Study of Development and Changes

SUMMARY

In my study I do not intend to make a detail survey of the history of that period, which is well known. The important thing for me is how the Byzantine Empire faced the upheaval conditions? and what was its reaction in reponse to these condition?

At the beginning of the Seventh Century the treasury of the state was empty, the administration was corrupted, the church divided by feuds, the army was in a wretched condition. These were the most important problems that Heraclius had to face and resolve.

Hercalius could succeed in overcoming the Persians and regaining the Byzantine Provinces. When peace was established, Byzantium was faced with fanancial collapse. The apprearance of Moslems and their final great Sally, came at a moment when the state was not able enter a war any more. This time the church did not offer any economic support as it had done when the Empire was threatened by the Persians. So Heraclius prefered to withdrew with most of his army and the population of palces near by Syrian borders. By doing this he offered a great services to the state. he introduced fundamental reforms in the political, administrative and financial fields which revitalised the Empire and enable it to survive the dangers be setting it.

The new administravtive structure which introduced the institution of "themes" in the reign of Heraclius and which continued to develop under his successors enabled the state to acquire an almost permanent army. This system was not immediately applied in all Byzantine areas, but took a long time to realised. It was extended to regions which were faced with immediate danger, and provide the opportunity for the concession of land with relevant military obligations. This system favoured small landowners and the cultivation of more farms on a free economy basis, because these yielded a greater tax return and constituted fundamental factors in the strength of Empire. Similar reforms were applied for the civil and fisical administration. The colonisation of areas which had been devastated by the invasions that the Empire faced was another factor of economic development. The mass settlement refugees from regions which had been occupied by Moslems on the Bulgars increased the working force and thus helped to strengthen the economic

power of Byzantium. Commerce was developed in that time, and Byzantium had commercial relations with her neighbours. When the Empire lost the Eastern Provinces it was deprived of its main sources of grain but the Empire could overcome this problem by means of development and increase in agricultural production of Thrace, Asia Minon and other areas. The Empire succeeded in keeping the currency stable even though gold reserved had greatly diminished.

When the Eastern Provinces were lost Byzantium was restricted to the Greek speaking regions where the Greek language was the language of the church as well as the language of learning and culture. So that the Greek language became the official language of state. This change was the general features of Byzantium and it was the cause of the seperation between the Latin West and the Greek East.



الملاحق

ملحق رقم (1)
أختام الوظائف الإدارية في الأمبراطورية البيزنطية



ختم يحمل اسم الموظف وظيفته
Hapaatos, Kommerkiarios
التابع له Apotheke
الخاص به Lydia و Hellespont

1

ختم يحمل اسم موظفين:
الاول John والثاني Thomas
وهما رؤساء مصانع النسيج الامبراطورية.



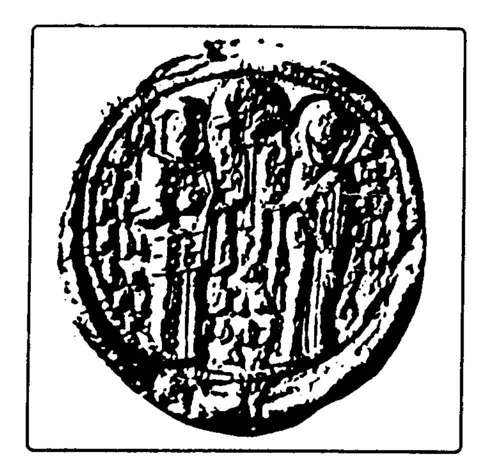


2

ختم يمثل رئيس مصانع الارجون
Purple Factories



3



ختم صورة تمثل جستنيات الاول مع العذراء وصوره اماميه وهما واقفان يحملان بينهما نموذج "رمز كنيسة أيا صوفيا"

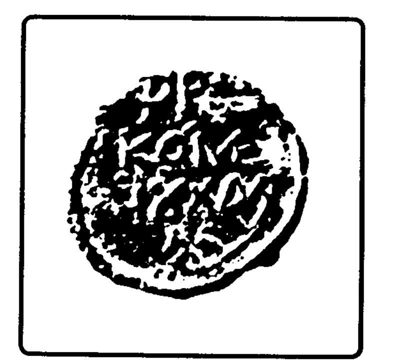
77



الوجه الآخر

77

ختم وجه نقش عليه الصليب والوجه الاخر يحمل نقش موظف -Chailda Com mercion لمنطقة خالديا وهو نموذج اقليمي Provincial in Style





114



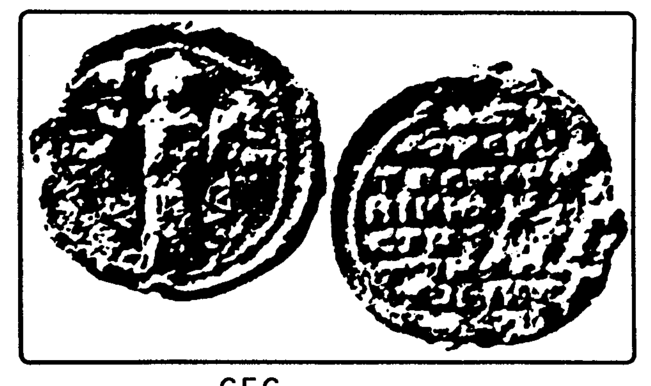
616

ختم
اسم الموظف Nicholas
اسم الوظيفة Anthypatos,
Patricios, Eparchos

ختم
اسم الموظف Niketas
اسم الوظيفة Patricios,
Anthypatos
التابع لـ Imperial natorios
of the Eidikon
وال Praetor of Con-
stantinople



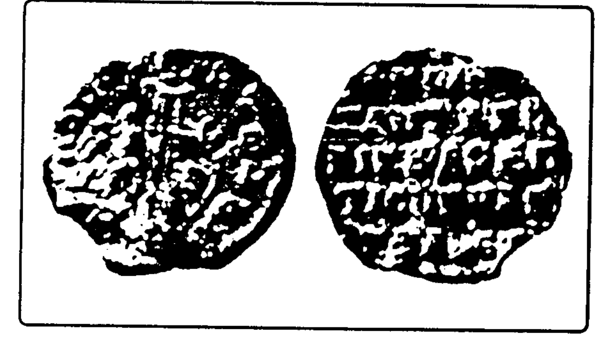
650



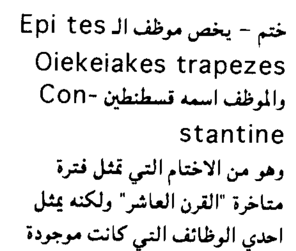
656

ختم
اسم الموظف Niketas
اسم الوظيفة Provestes,
Krites
التابع للاناضول
of the Anatolikoi

ملحوظة: داعينا ارقام الاختام كما وردت لدى:
G. Zacos, By Zantine lead seals. Vol. 2, Nos. 1-1089. Bern, 1984.

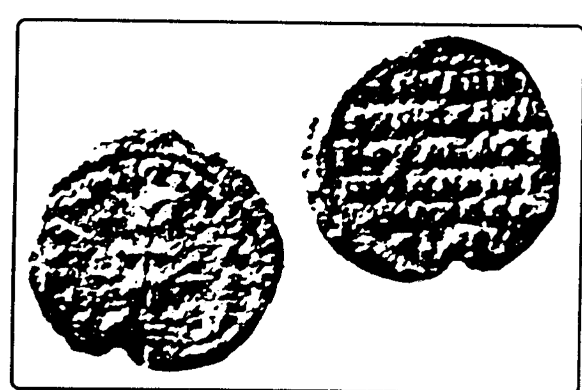


117

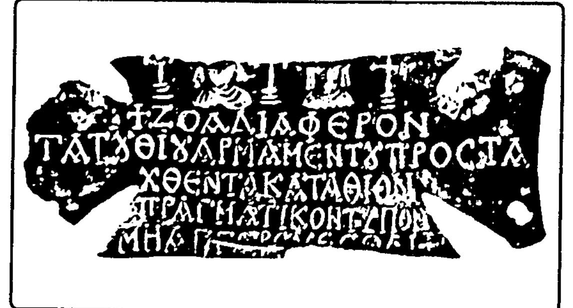


ختم - يخص موظف الـ Epi tes Oiekeiakes trapezes
والموظف اسمه قسطنطين -Con stantine
وهو من الاختام التي تمثل فترة متاخرة "القرن العاشر" ولكنه يمثل احدي الوظائف التي كانت موجودة في القرن السابع.

ختم - موظف امبراطوري اسمه Imperial John Spatharocandidatos epi tou Oikeiakon Vestiariou
ويطابق ختم Theodore
ووظيفته: Imperial Strator and epi tou
تحت رقم ١٩٧٧م في الجزء الأول من كتالوج الاختام التابع لـ Zacos



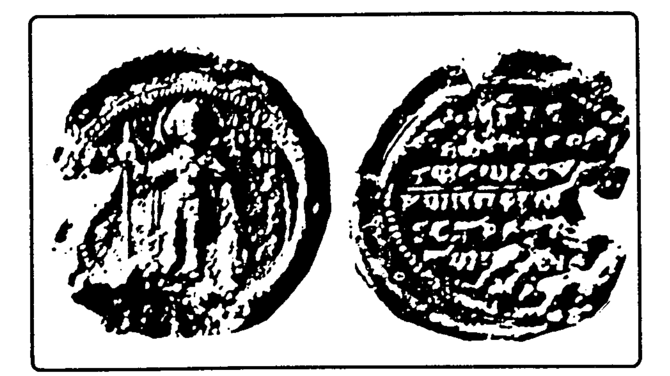
189



187

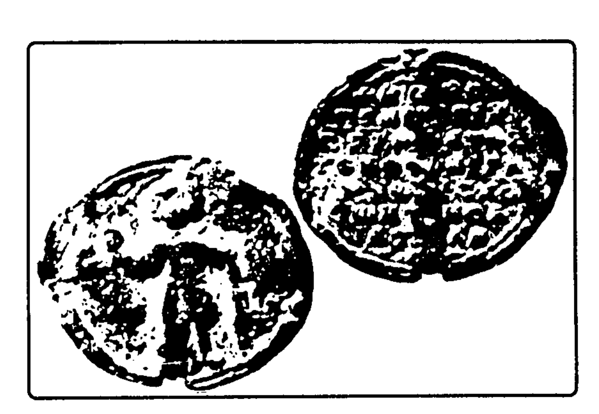
ختم - يحمل اسم الموظف John
ووظيفته Imperial Spatharios & Chartulrios
الخاص بال Imperial Armamenton
ويوجد له ختم مشابه في مجموعة Laurent
برقم ١٦٠
والاصطلاح Basilikion Armamenton
فسر بأن المصانع الامبراطورية ومستودعات الذخيرة التي تقوم بتموين الجيش والبحارة.

ختم
٧١ سم: قسطنطين
الوظيفة Patricios, An-
thypatos, Strategos
التابع لمنطقة بافلاجونيا
Paphlagonias

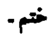


421

ختم. لموظف اسمه Gregory
وظيفته Patricios, Vestes,
Topoteretes
التابع لـ Scholai of the Orient
هيئة (حرس) الشرق



485



ختم-
اسم المؤلف Gregory
وظيفته Protospatharios, Hypatos
التابع للأناضول ek prosopou of the
anatolikoi

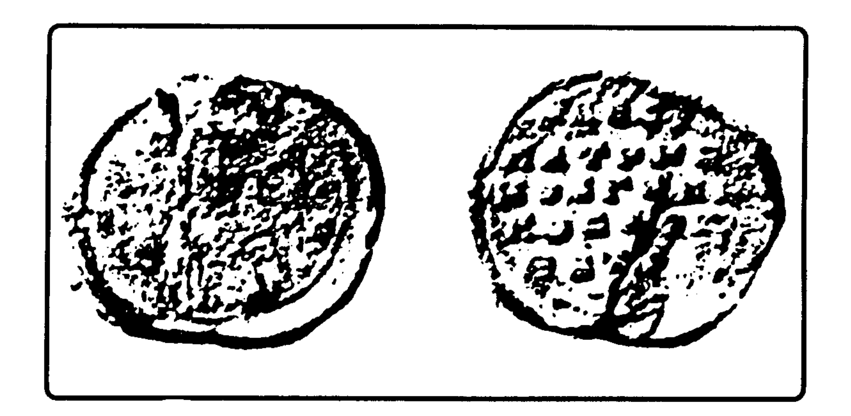


486



ختم
اسم الموظف Leon
اسم الوظيفة Patricios, genikos
logothetes

559 a



559 b



ختم
اسم الموظف Michael
اسم الوظيفة Spatharocandidaton,
Imperial notarios
التابع لـ Genikon logothesion,
Krites
الخاص بـ Karela

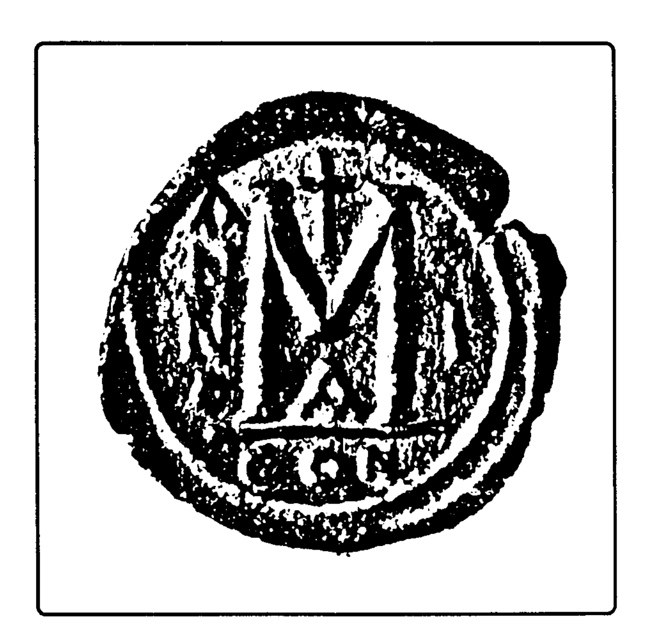
600

ملحق رقم (٢)

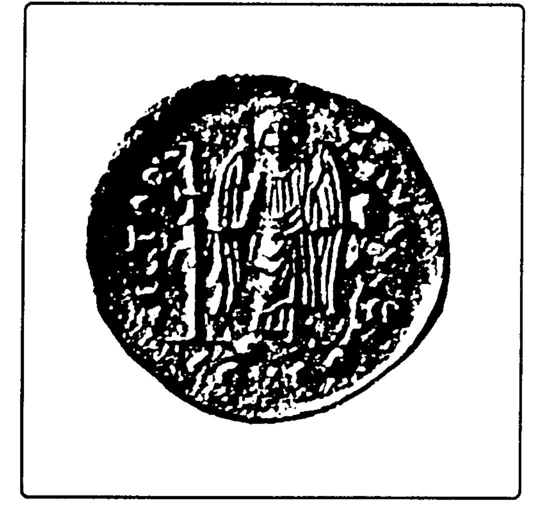
العملة في الأمبراطورية البيزنطية والتغييرات التي ظهرت عليها



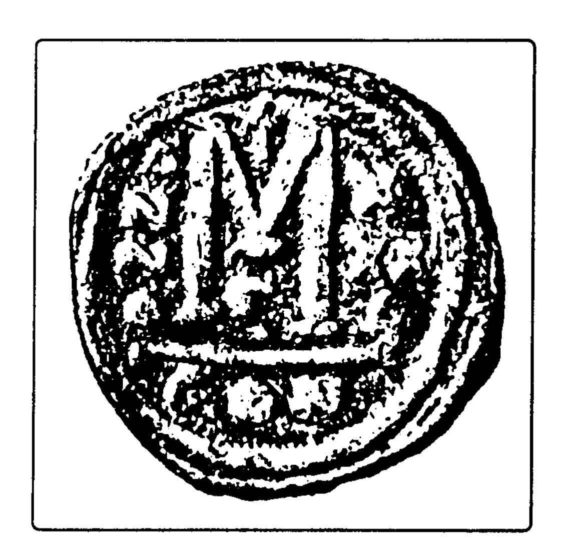
عمله نحاسيه Copper follis
تمثل جستنيان الثاني مع زوجته صوفيا - وظهر عليها مكان السك او ضربت في القسطنطينية والسنه التي ارتقي فيها العرضض. وعلى الوجه الاخر نـاقش الصليب.



الوجه الاخر نقش الصليب.



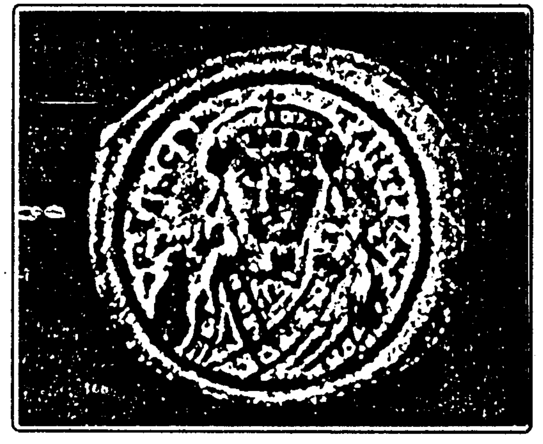
عمله ذهبيه سكت في عهد جستنيان الاول تحمل صورة الملاك ولاتحمل علامة الصليب. وهذا لـ Solidus الذهبي كامل الوزن ٢٤ قيراط.



عملة نحاسية Follis قد سكت وفقا لاصلاحات سنة ٥٣٩ وقد نقش عليها التاريخ. سكت في عهد جستنيان الاول.



عمله ذهبيه Solidus
تمثل عهد تيبريوس الثاني وظهر في الصورة الصليب.



عملة نحاسية من عهد تيبريوس الثاني ونقش الصليب على رأسه ومكان الضرب انطاكية ومؤرخة في السنة السابعة من حكمه.



عمله فضيه مكان الضرب قرطاج ضربت سنة ٦٠٦ عندما احتفل موريس بعيد جلوسه الثاني وفي الوقت الذي اشرك فيه ابنه امبراطورا مشاركا واسم الابن Theodosius



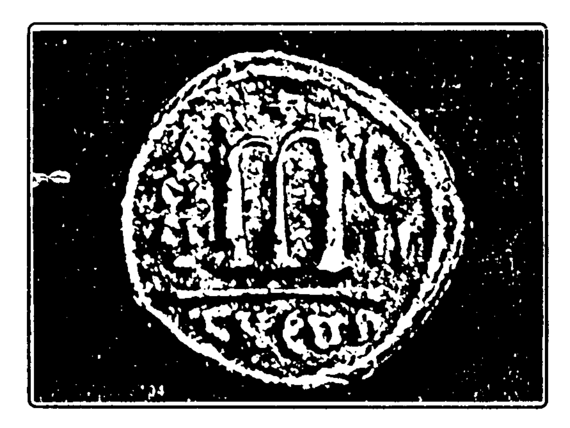
عمله ذهبيه Solidus
ضربت بمناسبه اعتلاء فوكاس العرش ويعود تاريخها الى ديسمبر ٦٠٣م.

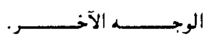


عمله ذهبيه Solidus
ضربت بمناسبة اعتلاء فوكاس العرش ويعود تاريخها الى ديسمبر ٦٠٣م.



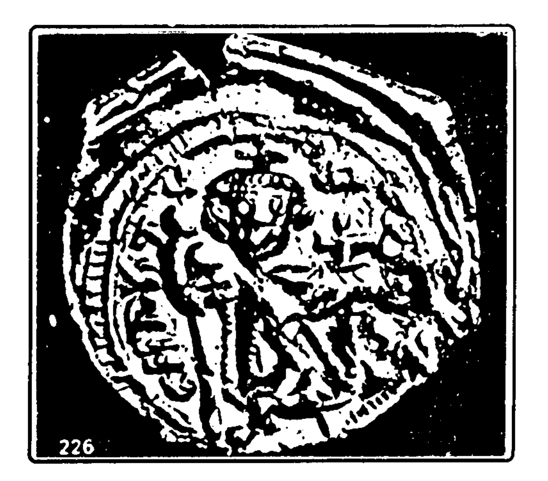
عمله نحاسية ضربت في انطاكية تمثل الامبراطور فوكاس وزوجته Leontia. ومؤرخه في السنه السابقه من اعتلاء فوكاس عرض الامبراطورية.



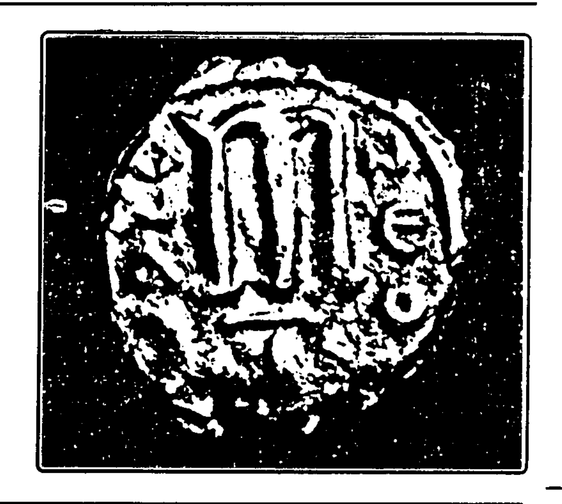

الوجـــه الآخـــر.



عمله ذهبية ضربت بين عامي ٦٢٩-٦٣١ تمثل الامبراطور هرقل وابنه.



عمله نحاسية من عهد الامبراطور قنسطانز الثاني
وهو تحمل الـ Legend اليونانية للمرة الأولى.



عمله نحاسيه من عهد الامبراطور قنسطانز الثاني.



عمله ذهبيه تمثل قنسطانز الثاني مع ابنه قنسطنطين
الرابع وتاريخ الضرب مابين ٦٥٤-٦٥٩م.



عمله فضيه من عهد هرقل. ويبدو انها تمثل انتصاره على الفرس في سنه ٦٢٨-٦٢٩م.

عملة ذهبية من عصر جستنيان الثاني ضربت في سنة ٧٠٥-٧٠٦ بعد عودته الى العرش مباشرة. وقد نقش عليها صورة المسيح.



ملحوظة:

رأعينا أرقام صور العملة كما وردت لدي:

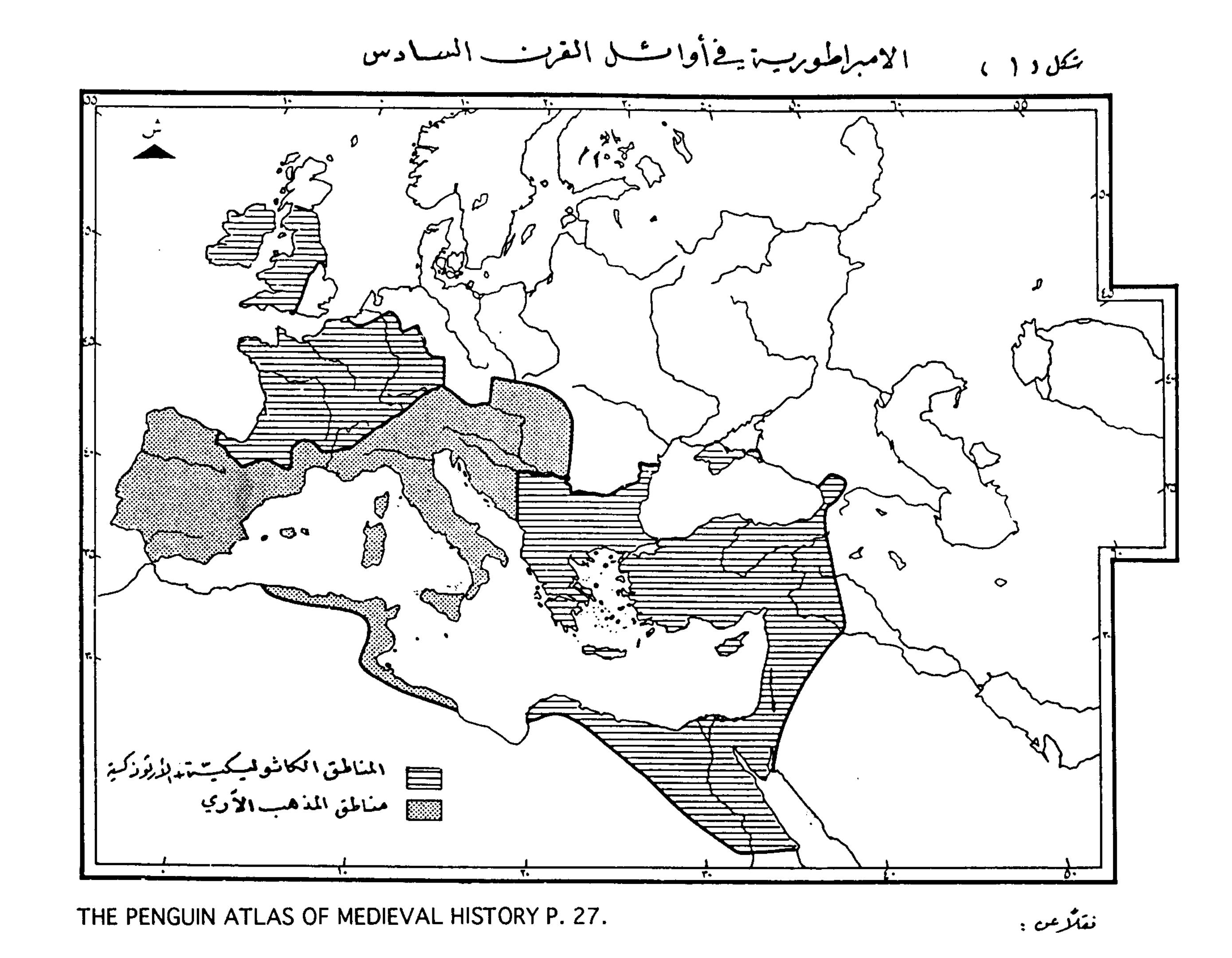
ليسهل مراجعتها.

P.D. Whitting, Byzantine Coins, London, 1973.

ملحق (٣)

الخرائط

شكل (١) الامبراطورية في أوائل القرن السادس



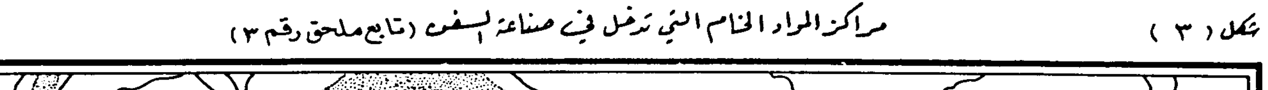
نقلاً عن : THE PENGUIN ATLAS OF MEDIEVAL HISTORY P. 27.

شكل (٢) الطرق التجارية ٥٢٨ م



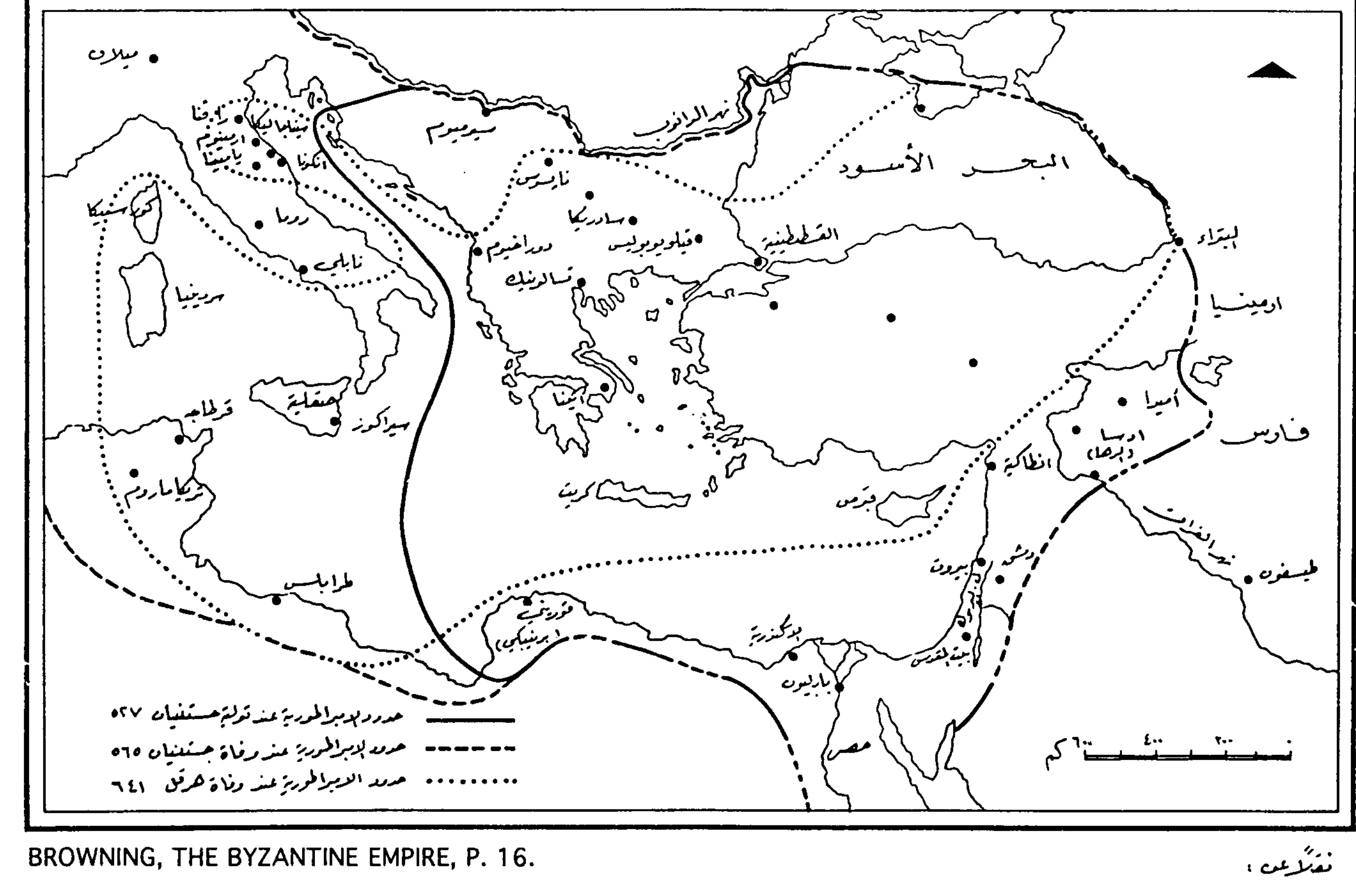
نقلاً عن :
THE PENGUIN ATLAS OF MEDIEVAL HISTORY.

شكل (٣) مراكز المواد الخام التي تدخل في صناعة السفن (تابع ملحق رقم ٣)



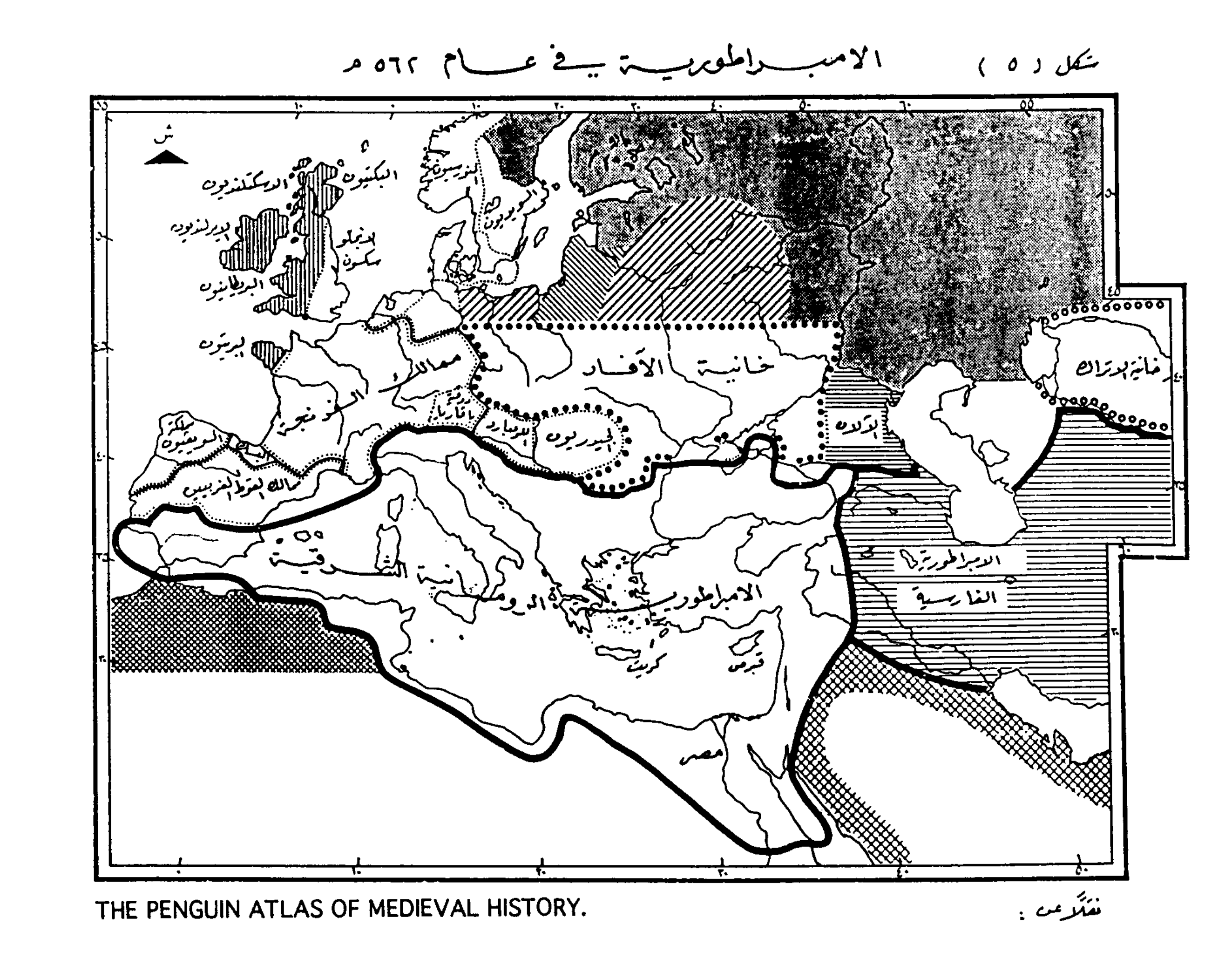
نقلاً عن :
H. ANTONIADIS - BIPLICOU, ETUDES & HISTOIRE MARITIME DE BYZANCE, P. 22.

شكل (٤١) الامبراطورية البيزنطية (٥٢٧ - ٦٤١)



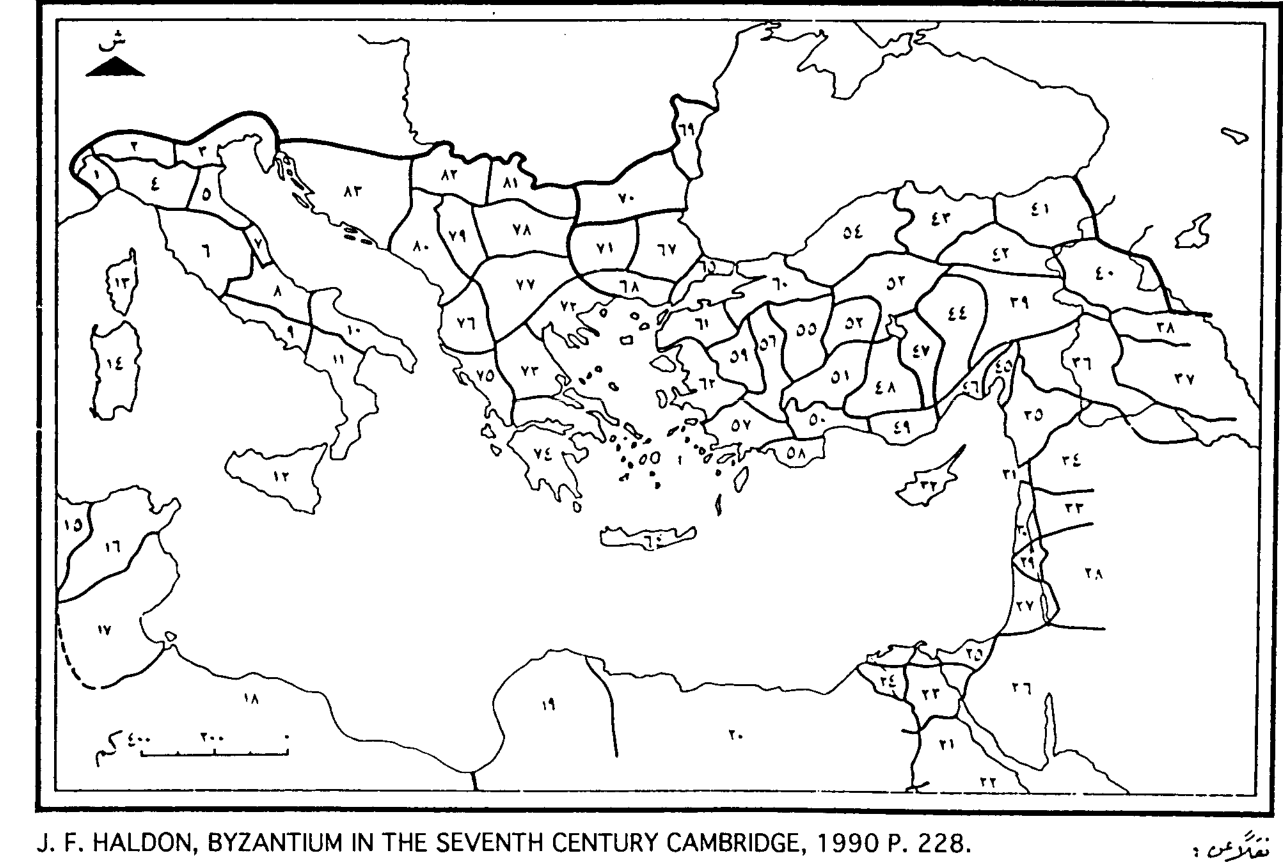
نقلاً عن: BROWNING, THE BYZANTINE EMPIRE, P. 16.

شكل (٥) الامبراطورية في عام ٥٦٢م



نقلاً عن: THE PENGUIN ATLAS OF MEDIEVAL HISTORY.

شكل (٦) الولايات البيزنطية في عهد جستنيان سنة ٥٦٥م



نقلاً عن:
J. F. HALDON, BYZANTIUM IN THE SEVENTH CENTURY CAMBRIDGE, 1990 P. 228.

مفتاح الخريطة شكل (٦) الولايات البريتورية في عهد جستنيان الأول (٥٦٥ م) .

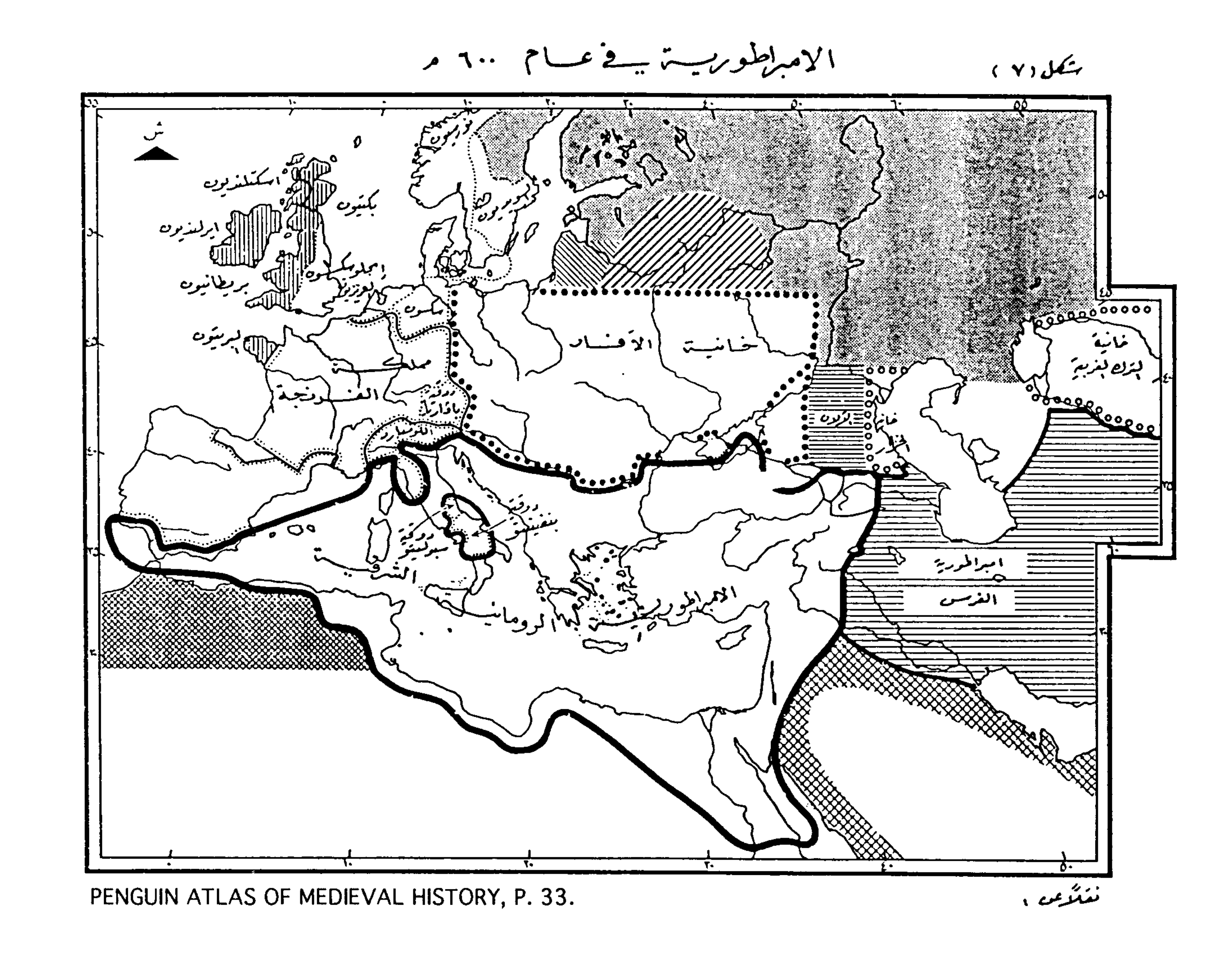
a) **Prefecture of Italy**	أ) **ولاية أيطاليا** :-
1- Alpes Cottiae	١) كوتيا الالبيه .
2- Aemilia	٢) آميليا .
3- Venetia (with Histria)	٣) فينثيا مع هيستوريا .
4- Liguria	٤) ليجوريا
5- Flaminia	٥) فلامنيا
6- Tuscia et Umbria	٦) توسكيا وامبريا
7- Picenum	٧) بيكينوم
8- Samnium	٨) سامنيوم
9- Campania	٩) كامبانيا
10- Apulia et Calabria	١٠) آبوليا وكالاباريا
11- Lucania et Bruttium	١١) لوكانيا وبرويتوم .
12- Sicilia (under quaestor sacri palatii)	١٢) سيسليا " تحت حكم
b) **Prefecture of Africa**	ب) **ولاية أفريقيا** :-
13- Corsica	١٣) كورسيكا
14- Sardinia	١٤) ساردينيا
15- Numidia	١٥) نوميديا
16- Zeugitania	١٦) زويجتانيا
17- Byzacena	١٧) بيزاكينا
18- Tripolitania	١٨) تيروبوليتانيا
c) **Prefecture of Oriens**	جـ) **ولاية الشرق** :-
19- Libya Pentapolis	١٩) ليبيا بنتابولس .
20- Libya Inferior	٢٠) ليبيا انفيريور .
21- Arcadia	٢١) اركاديا .

22- Thebais Inferior	٢٢) طيبه انفيريـــور
23- Augustamnica II	٢٣) اوجستامنيكا الثانيه .
24- Aegyptus I and II	٢٤) مصر الاولى والثانيه .
25- Augustamnica I	٢٥) اوجستامنيكا الاولى .
26- Palaestina III	٢٦) فلسطين الثالثه .
27- Palaestina I	٢٧) فلسطين الاولى .
28- Arabia	٢٨) العربيه .
29- Palaestina II	٢٩) فلسطين الثانيه
30- Phoenice	٣٠) فستافينليا .
31- Theodorias	٣١) شيودورياس .
32- Cyprus (in quaestura exercitus)	٣٢) قبرص .
33- Phoenice Libanensis	٣٣) فينقيا اللبنانيه .
34- Syria II	٣٤) سوريا الثانية .
35- Syria I	٣٥) سوريا الاولى .
36- Euphratensis	٣٦) الفراتيه (ايفوراتينس) .
37- Osrhoene	٣٧) أوسر هوين .
38- Mesopotamia	٣٨) الجزيره الفراتيه " العراق " :
39- Armenia III	٣٩) ارمينيا الثالثه .
40- Armenia IV	٤٠) ارمينيا الرابعه .
41- Armenia I	٤١) ارمينيا الاولى .
42- Armenia II	٤٢) ارمينيا الثانيه .
43- Helenopontus	٤٣) هلين كونتس .
44- Cappadocia I	٤٤) قبادوقيا الاولى .
45- Cilicia II	٤٥) قليقيا الثانيه .
46- Cilicia I	٤٦) قليقيا الاولى .
47- Cappadocia II	٤٧) قبادوقيا الثانيه .
48- Lycaonia	٤٨) ليكونيا .
49- Isauria	٤٩) ايسوريا .

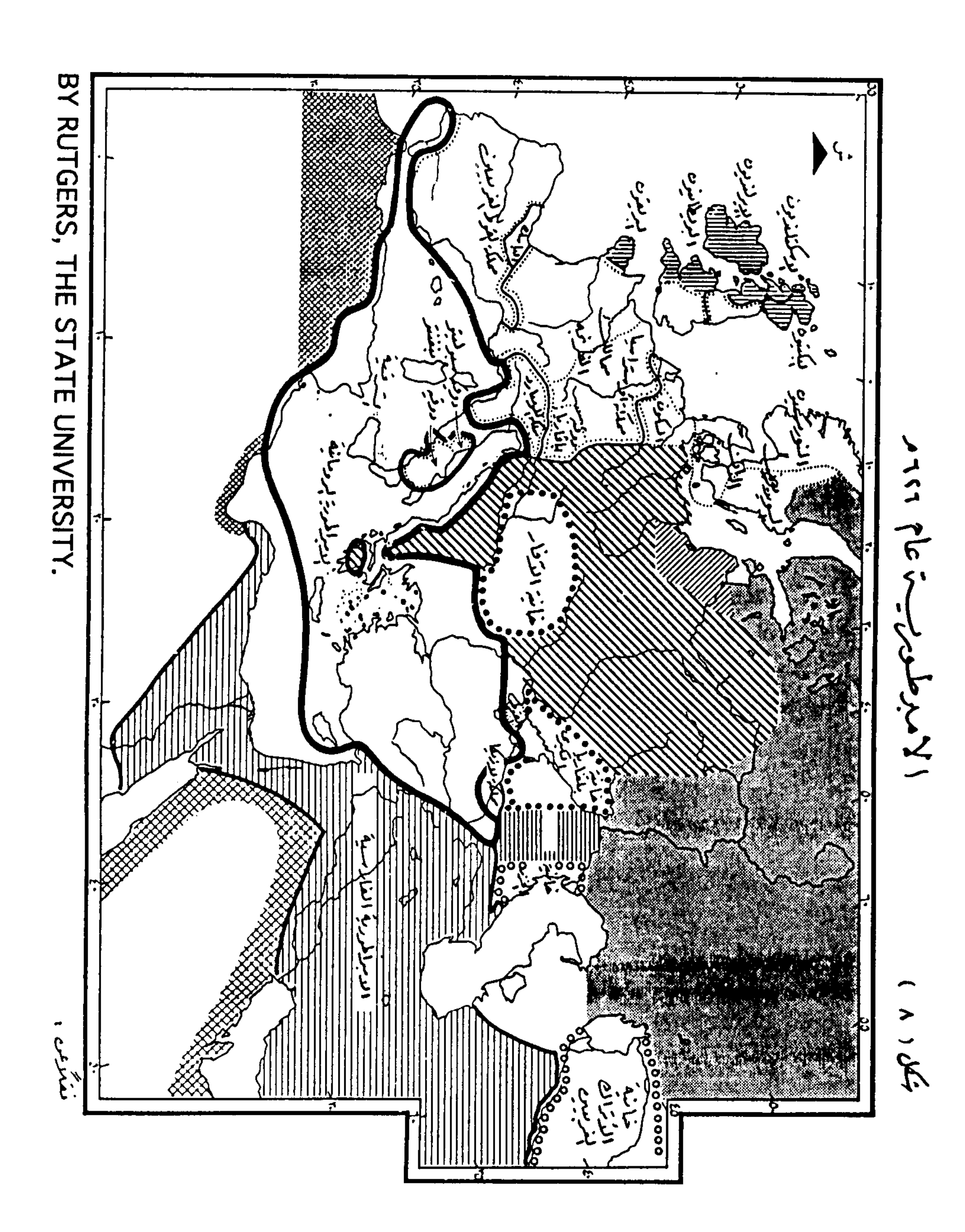
50- Pamphylia	٥٠) بامفليا .
51- Pisidia	٥١) بسيديل .
52- Galatia Salutaris	٥٢) جلاتيا سلوتاريس .
53- Galatia I	٥٣) جلاتيا الاولى .
54- Paphlagonia	٥٤) بافلاجونيا .
55- Phrygia Salutaris	٥٥) فريجيا سالو تاريس .
56- Phrygia Pacatiana	٥٦) فريجيا باكاتيانا .
57- Caria (in quaestura exercitus)	٥٧) كاريا .
58- Lycia	٥٨) ليكيا .
59- Lydia	٥٩) ليديا .
60- Bithynia	٦٠) بثينيا .
61- Hellespontus	٦١) هلليبونتوس .
62- Asia	٦٢) آسيا .
63- Insulae (Aegean Isles-in quaestura exercitus)	٦٣) انسوليا .
64- Creta	٦٤) كريتا .
65- Europa	٦٥) اوروبا .
66- Bosporus	٦٦) بوسبوروس .
67- Haemimontus	٦٧) هيا ميمونتوس .
68- Rhodope	٦٨) رودوب .
69- Scythia (in quaestura exercitus)	٦٩) سكيتيا .
70- Moesia II (in quaestura exercitus)	٧٠) مويسيا الثانيه .
71- Thracia	٧١) ترااليا .
72- Macedonia I	٧٢) مقدونيا الاولى .
73- Thessalia	٧٣) تساليا .
74- Achaea	٧٤) آه .
75- Epirus vetus	٧٥) ابيروس فيتوس .
76- Epirus nova	٧٦) ابيروس نوفا " ابيروس الجديده "
77- Macedonia II	٧٧) مقدونيا الثانيه

٧٨) داكيا التابعة للبحر المتوسط .	78- Dacia Mediterranea
٧٩) داردانيا .	79- Dardania
٨٠) برايفا ليتانا .	80- Praevalitane
٨١) داكيا ريبنس .	81- Dacia ripensis
٨٢) مؤسيا الاولى .	82- Moesia I
٨٣) دالماشيا .	83- Dalmatia

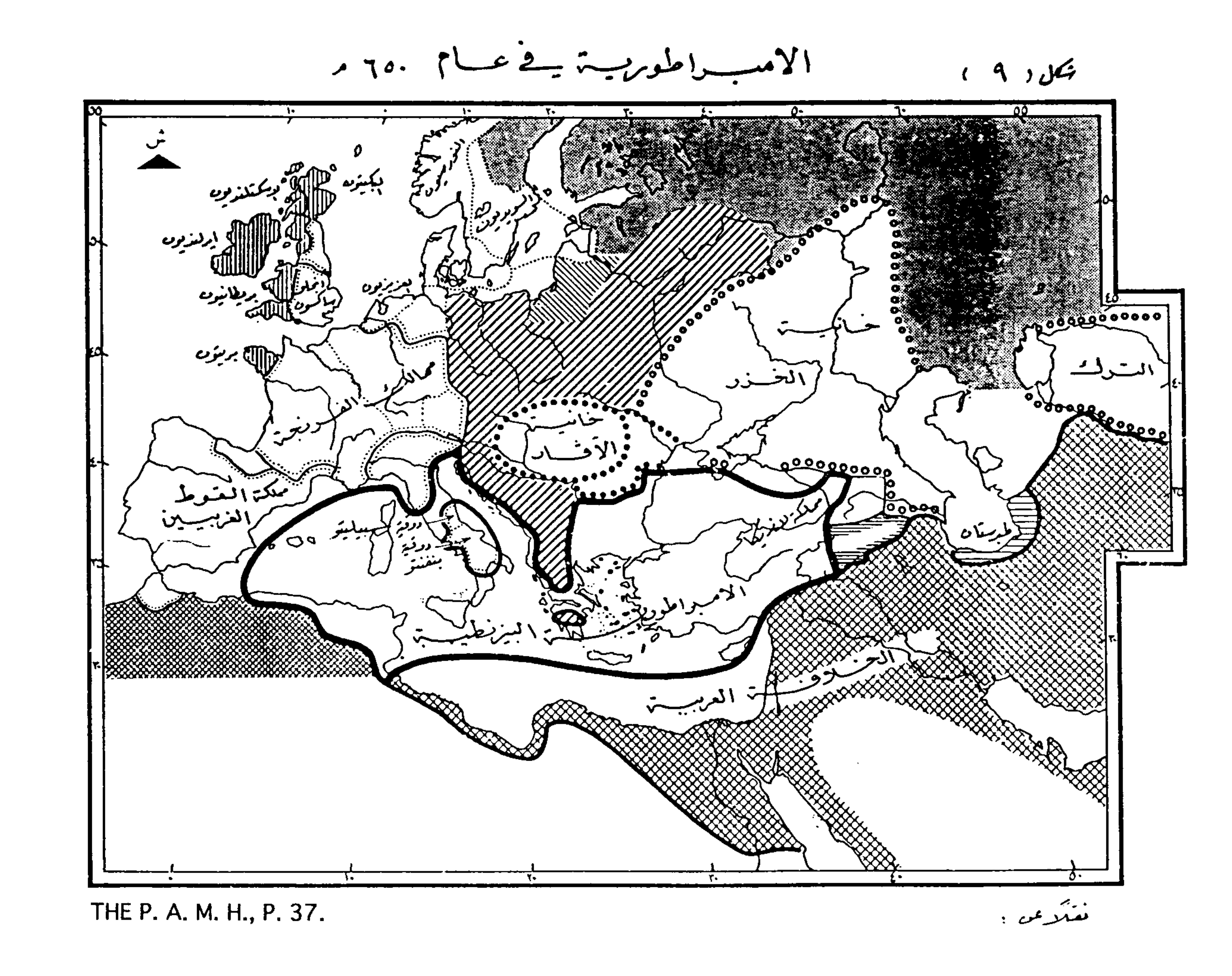
شكل (٧) الامبراطورية في عام ٦٠٠ م



نقلاً عن : PENGUIN ATLAS OF MEDIEVAL HISTORY, P. 33.

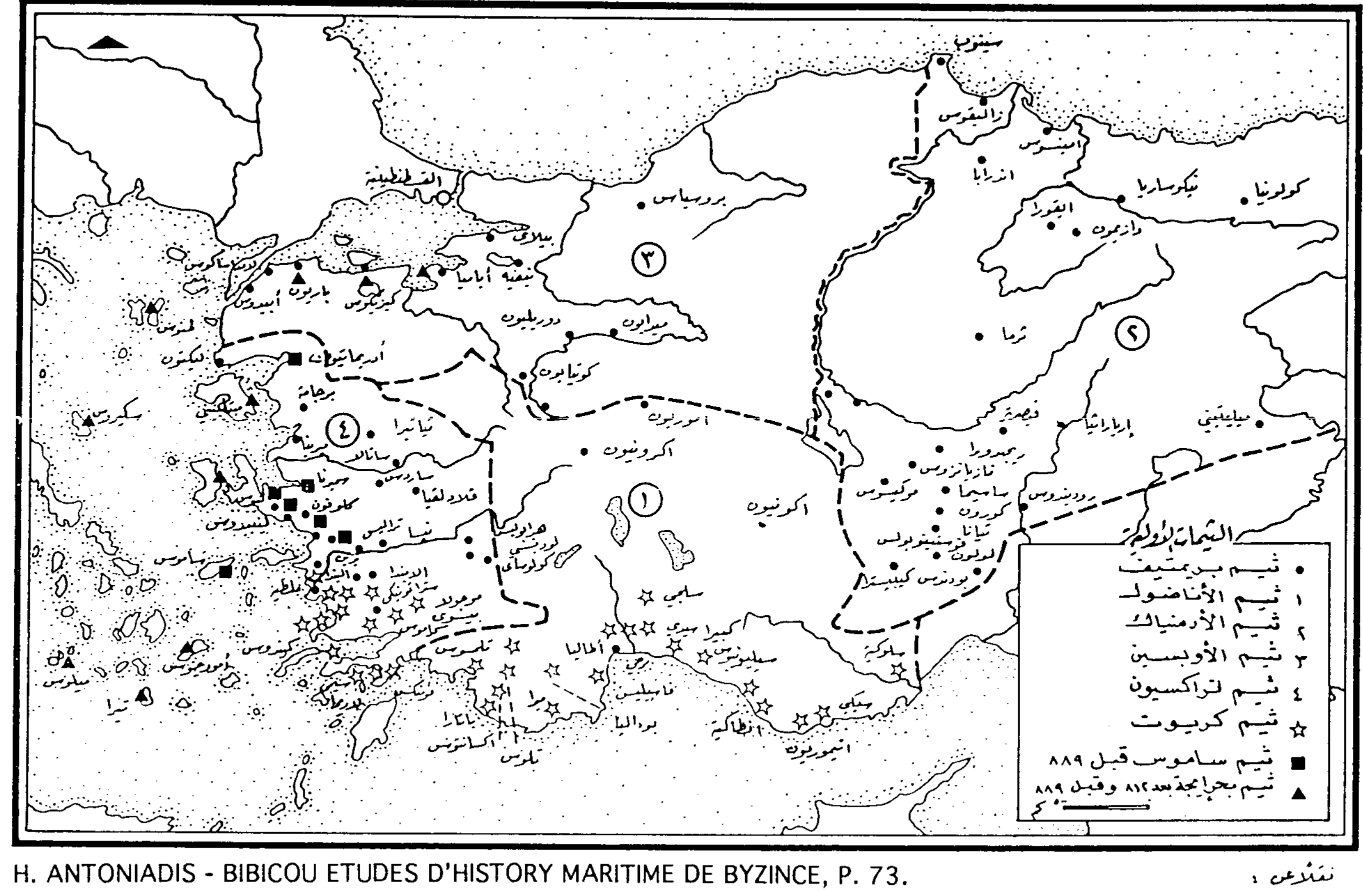

BY RUTGERS, THE STATE UNIVERSITY.

شكل (٩) الامبراطورية في عام ٦٥٠ م



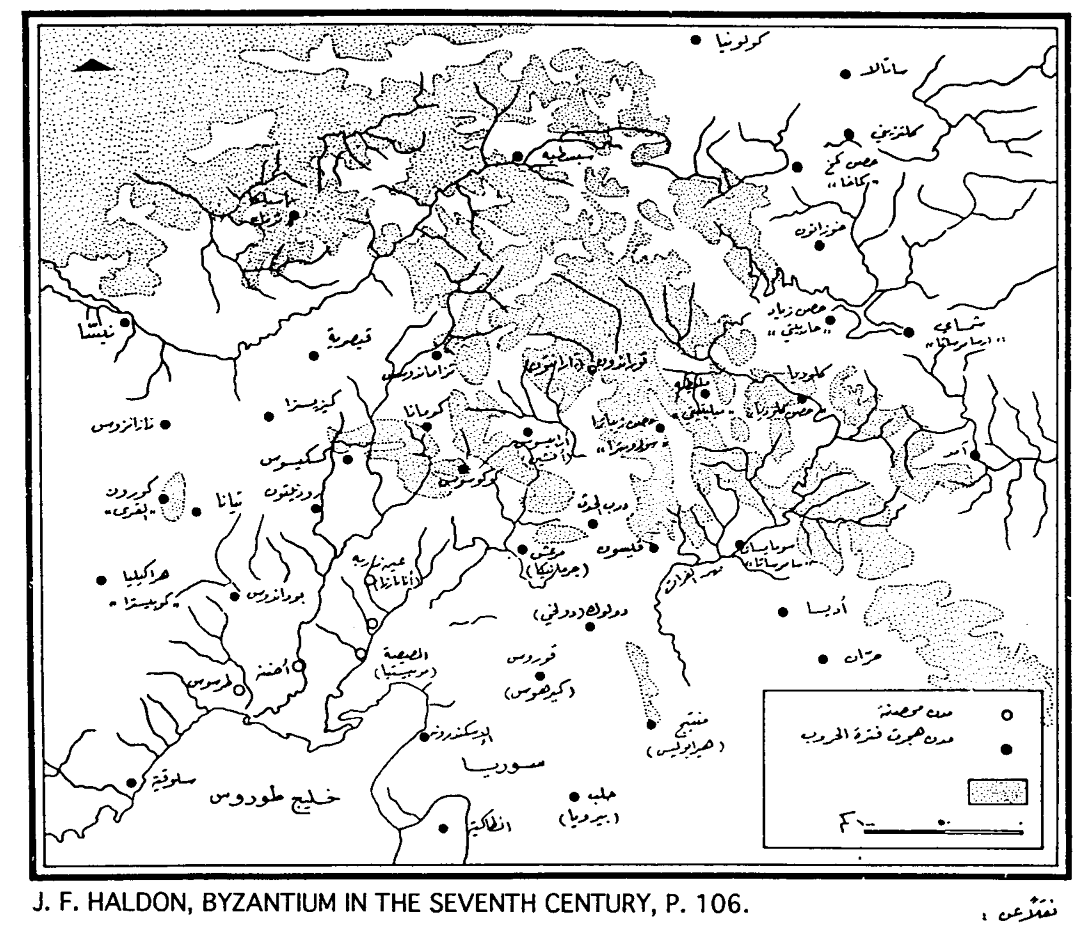
نقلاً عن :
THE P. A. M. H., P. 37.

شكل (١٠) الثيمات عند أول نشأتها



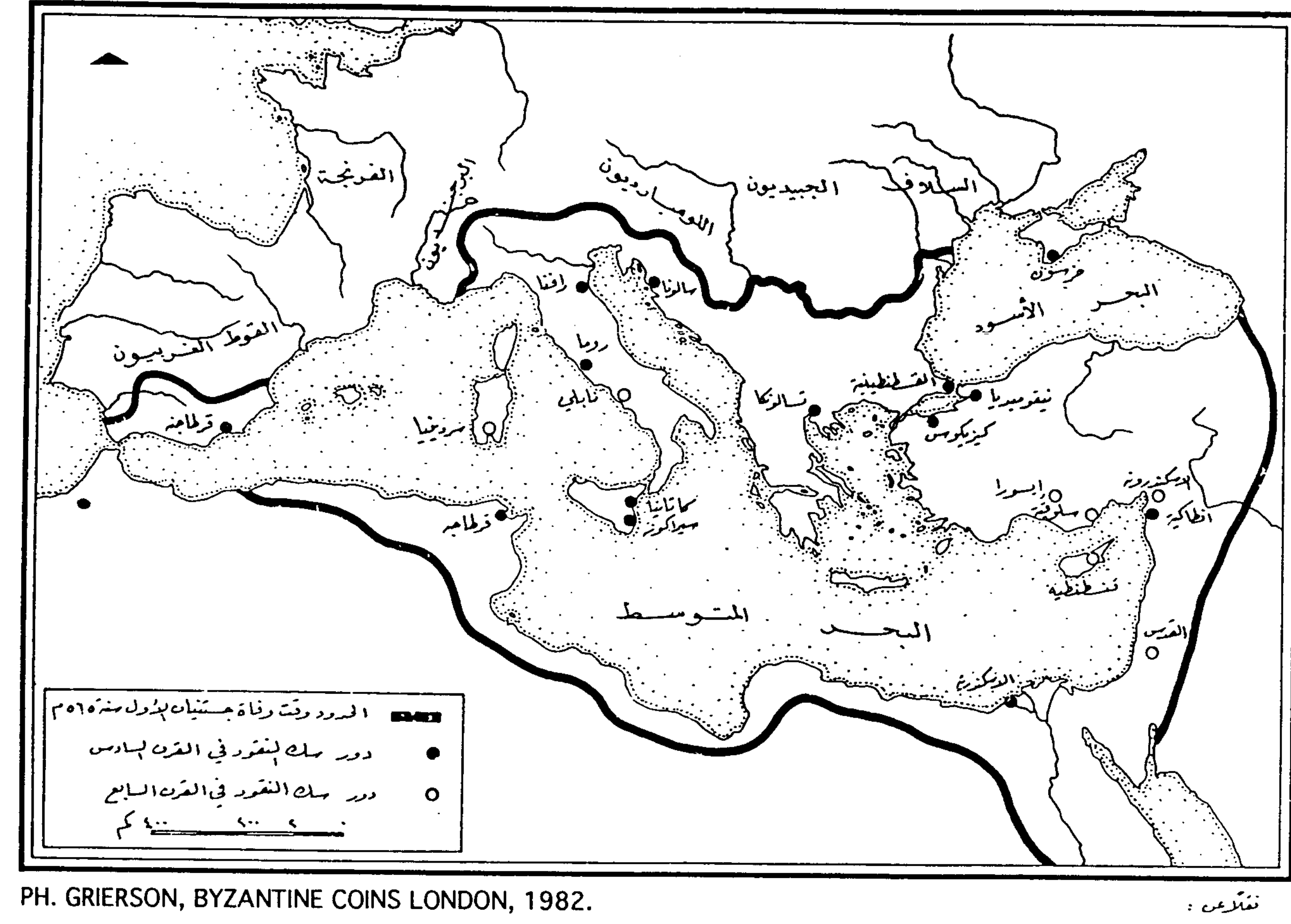
نقلاً عن : H. ANTONIADIS - BIBICOU ETUDES D'HISTORY MARITIME DE BYZINCE, P. 73.

شكل (١١) منطقة الحدود الأناضولية في القرن السابع ومطلع الثامن الميلادي



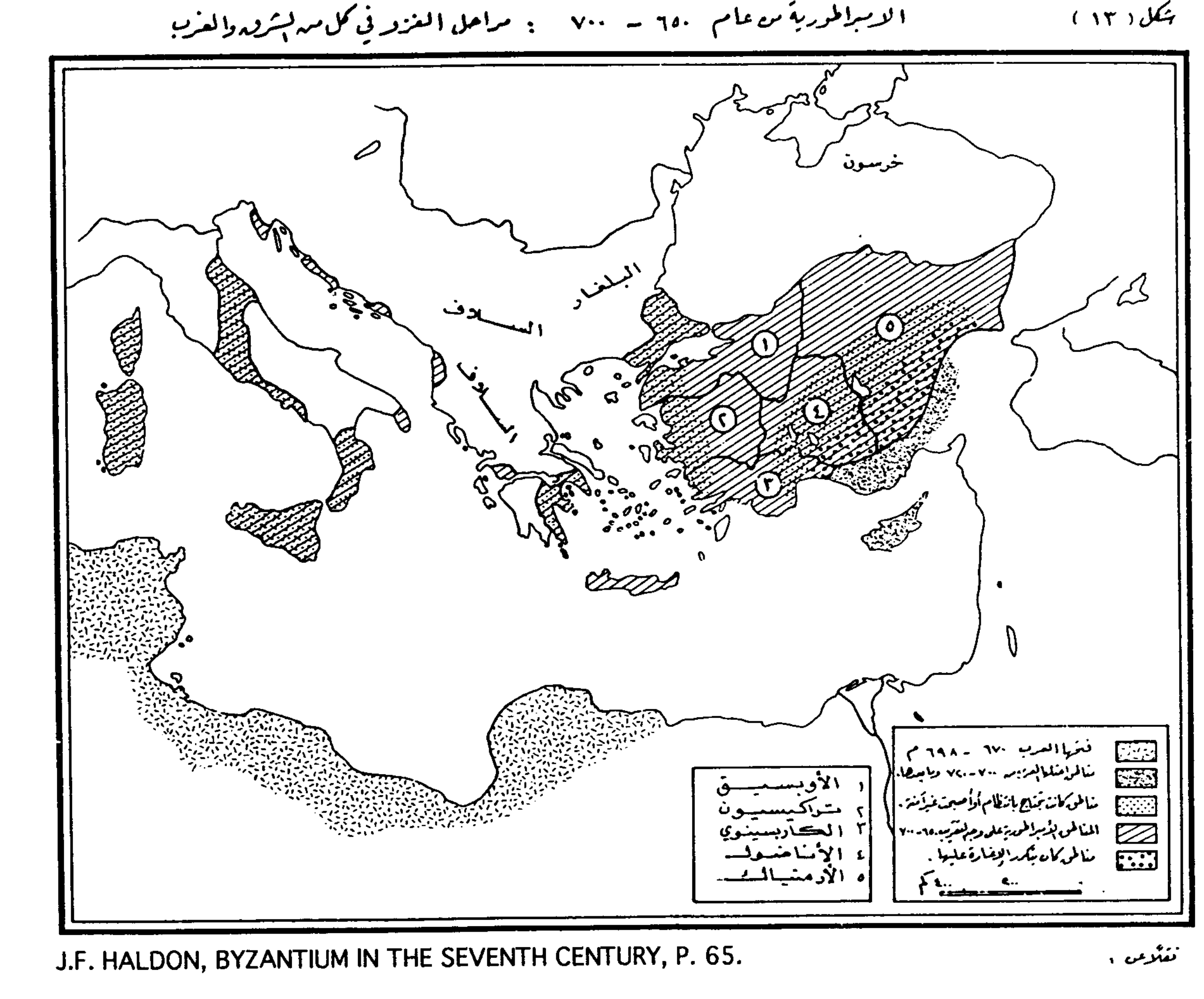
نقلاً عن : J. F. HALDON, BYZANTIUM IN THE SEVENTH CENTURY, P. 106.

شكل (١٢) الإمبراطورية البيزنطية ودور سك النقود فيها خلال القرنين السادس والسابع



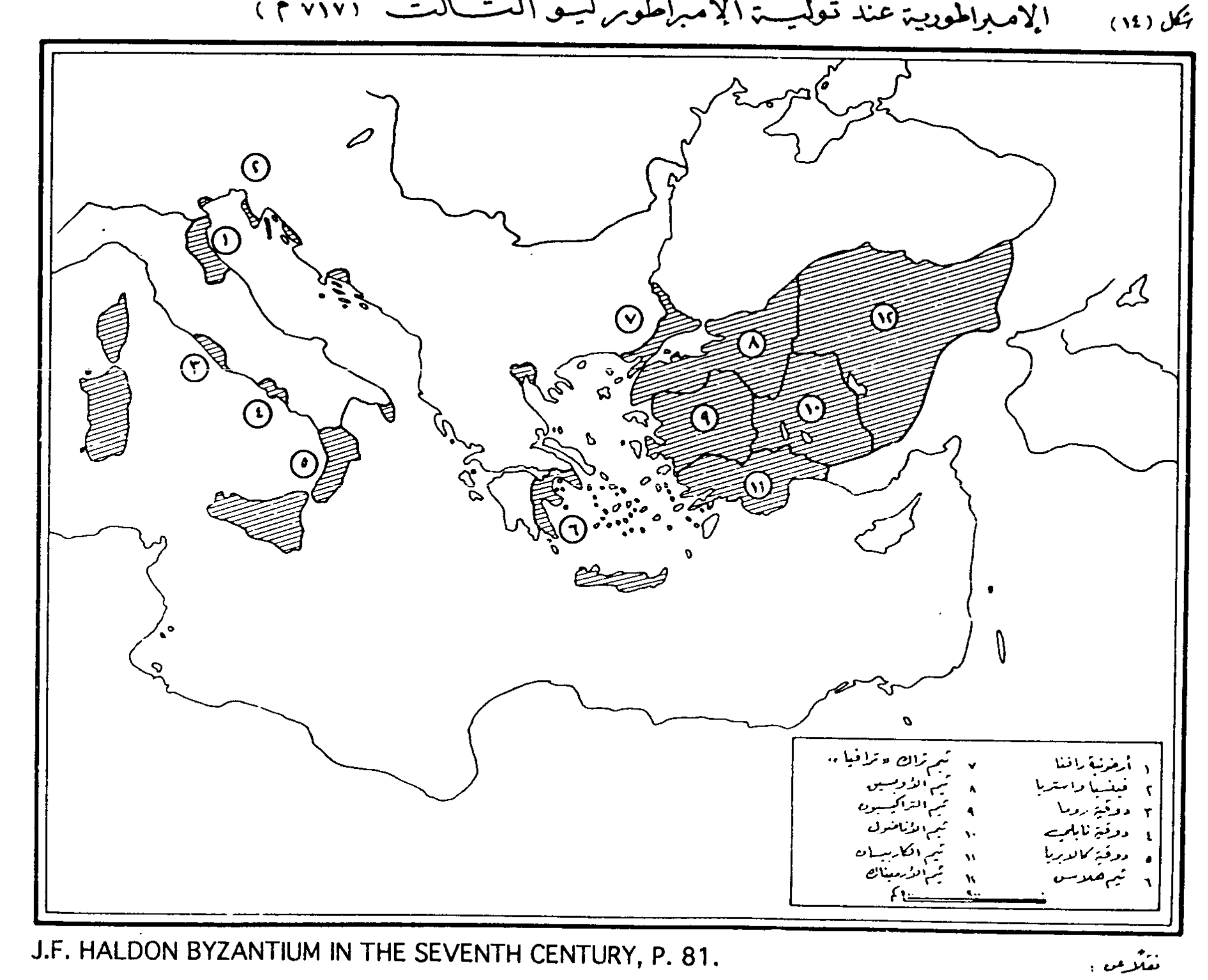
نقلاً عن:
PH. GRIERSON, BYZANTINE COINS LONDON, 1982.

شكل (١٣) الامبراطورية من عام ٦٥٠ - ٧٠٠ : مراحل الغزو في كل من الشرق والغرب



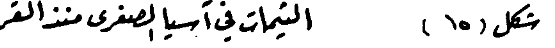
نقلاً عن :
J.F. HALDON, BYZANTIUM IN THE SEVENTH CENTURY, P. 65.

شكل (١٤) الإمبراطورية عند تولية الإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ م)



نقلاً عن : J.F. HALDON BYZANTIUM IN THE SEVENTH CENTURY, P. 81.

شكل (١٥) الثيمات في آسيا الصغرى منذ القرن السابع وحتى التاسع



نقلاً عن :

G. OSTROGORSKY, HISTORY OF THE BYZANTINE STATE (NEW BRUNS WICK, N. J.: RUTGERS UNIVERSITY PRESS, 1969). COPYRIGHT C 1969



وكالة الفـرزدق للدعاية والأعلان

Al Farazdak Agency For Advertising & Publicity

هاتف ٤٧٦٤١٧٤ – فــاكس ٤٧٨٠٧٦٧


المفردات
AL-MUFRADAT
للنشر والتوزيع والدراسات